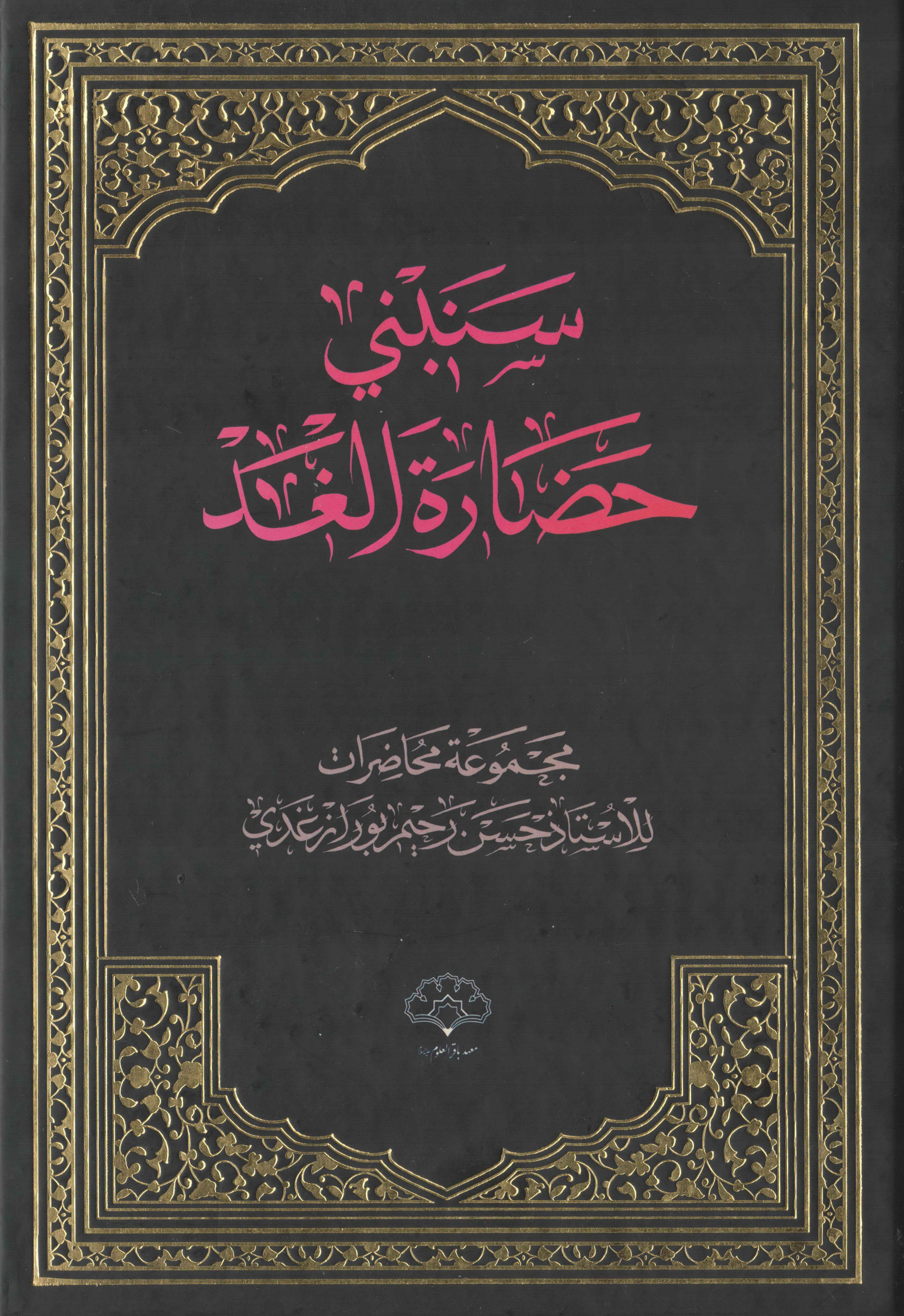


سنبني
حضارة الغد
مجموعة محاضرات
للاستاذ حسن رحيم بور ازغدي
معهد باقر العلوم

سنبني حضارة الغد

مجموعة محاضرات للاستاذ حسن رحيم پور ازغدي

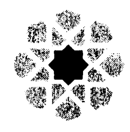
حميد رضا غريب رضا

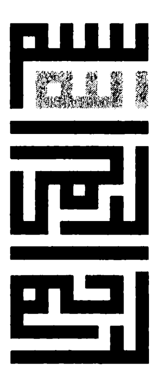


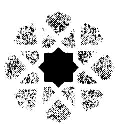


الإهـــداء:

إلى رائد الحركة الحضارية في وقتنا
إلى مفكر الامة الاسلامية
إلى القائد الذي قام بتأصيل و ترويج فكرة إحياء الحضارة الإسلامية
إلى الإمام السيد علي الخامنئي حفظه الله
نهدي هذا الجهد المتواضع.









سرشناسه : رحیم‌پور ازغدی، حسن، ۱۳۴۲ -
عنوان و نام پدیدآور : سنبني حضارة الغد/ مجموعة محاضرات حسن رحیم‌پور ازغدی؛ مجموعه حمیدرضا غریب‌رضا.
مشخصات نشر : تهران: سازمان تبلیغات اسلامی، پژوهشکده باقرالعلوم (ع)، ۱۴۴۱ق. = ۱۳۹۸.
مشخصات ظاهری : ۴۵۶ص.
شابک : ۹۷۸-۶۲۲-۶۵۹۷-۱۲-۸
وضعیت‌فهرست‌نویسی : فیپا
یادداشت : عربی.
موضوع : رحیم‌پور ازغدی، حسن، ۱۳۴۲ - -- پیام‌ها و سخنرانی‌ها
موضوع : رحیم‌پور ازغدی، حسن، ۱۳۴۲ - -- دیدگاه درباره تمدن اسلامی
موضوع : تمدن اسلامی
موضوع : Islamic civilization
موضوع : تمدن اسلامی -- آینده‌نگری
موضوع : Islamic civilization -- Forecasting
موضوع : ایران -- تاریخ -- انقلاب اسلامی، ۱۳۵۷ -- تاثیر
موضوع : Iran -- History -- Islamic Revolution, ۱۹۷۹ -- Influences
شناسه افزوده : غریب‌رضا، حمیدرضا، ۱۳۵۸ -
شناسه افزوده : سازمان تبلیغات اسلامی. پژوهشکده باقرالعلوم (ع)
رده بندی کنگره : DSR۱۵۵۳
رده بندی دیویی : ۹۵۵/۰۸۳
شماره کتابشناسی ملی : ۵۹۳۶۰۴۲





اسم الكتاب: .... **سنبني حضارة الغد**

المؤلف: .... الأستاذ حسن رحيم‌بور ازغدي

الناشر: .... معهد باقرالعلوم عليه السلام

مدير فريق التحقيق: .... حميد رضا غريب رضا

أعضاء فريق التحقيق: .... باسل الدنيا، مجتبى الموسوي، عباس الجعفري

الأخراج الفني و التدقيق النهائي: .... عباس الجعفري

تنضيد الحروف: .... يونس خليفة

الطبعة: .... الأولى/ ۱۳۹۸ هـ . ش

القطع: .... وزيري

السعر: $23.00

الجمهورية الأسلامية الأيرانية - قم المقدسة

@gmail.com

الهاتف: ۰۹۸۹۱۲۸۷۹۹۱۲۳+

الفهرس

المقدمة

لم ندّعي جزافاً ولم نطلق شعاراً برّاقاً مغايراً للواقع إذا قلنا ووعدنا بأننا «سنبني حضارة الغد». فعلى الرغم من كلّ المآسي والآلام والحروب التي تعيشها الأمة الإسلامية فهناك بشائر وبوادر خير تلوح في الأفق وتجعلنا نطمئن ونتيقن أنّ الأمة الإسلامية في مسيرة إحيائية لبناء صروح مجدها وإعادة عزّتها وكرامتها الحضارية بين بقية الأمم.

تمتلك الأمة الإسلامية تجارب حضارية قيمة وثرية ومتراكمة في الحقب التاريخية المختلفة سواء في الجهاد ضد الاستعمار الخارجي أو مكافحة الاستبداد الداخلي أو المقاومة في وجه الاحتلال الأجنبي أو النضال السياسي ضد التيارات السياسية التابعة للقوى العالمية أو المقاومة تجاه الحصار الاقتصادي أو الجهاد العلمي لتنمية المجتمع تقنياً أو الخوض في الحرب الناعمة أمام الغزو الثقافي الذي يستهدف نمط الحياة والتفكير أو... فأداء الأمة في كلّ هذه المحطات تجعلنا أمام فسيفساء من الدروس والعبر والتجارب السلبية والإيجابية وتوحي إلينا أنّ الأمة كائن حيّ ورغم كلّ جروحها النازفة فهي تسير في مسيرة مستمرة إلى الأمام ولن تتوقف وإن تعثرت حيناً أو خففت سرعتها أخرى.

ومن ناحية أخرى وعد الله عباده الصالحين في القرآن الكريم بأنّهم يرثون الأرض، فالوعد الإلهي باستحلاف المستضعفين وإقامة دولة العدل، حق ويقين. ولن تخلو الأرض من حجة لله، فهناك دائماً في كل عصر ومصر من يكون قائماً لله يجاهد في سبيله ولا يخاف لومة لائم ويمهّد بصلاحه وإصلاح العباد للحضارة الإسلامية الشاملة التي يحققها الله بيد موعود الأمم الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

فعلى حامل الهمّ الحضاري للأمة أن يمتلك رؤية استراتيجية بعيدة المدى ويمضي قدماً

نحو الرسالة التي وضع تحقيقها على عاتقه ولا يشعر في طريقه بالكلل والملل أو الإحباط، لأنّ مسيرة البناء الحضاري طريق ذات الشوكة والمضي فيها يتطلب النفس الطويل وعزيمة راسخة لا تزلزلها العواصف.

***

أمّا الكتاب الذي بين يديك فهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات الفكرية للأستاذ رحيم بور أزغدي المفكّر الإسلامي الذي اشتهر بهواجسه الفكرية لإعادة قراءة سيرة النبي محمد وأهل بيته الطاهرين من منظار متطلبات المرحلة الراهنة برؤية عصرية ليستخرج منها معالم النظام السياسي الإسلامي وقد ألقى هذه المحاضرات في الأوساط العلمية والجامعية وقامت قناة الكوثر الفضائية بترجمة المحاضرات ودبلجتها وعرضها وتم استقبالها والترحيب بها من قبل النخب والمثقفين وارتأت رابطة الحوار الديني للوحدة عرض المحاضرات في حلة كتاب ليعم النفع ويستفيد منها الآخرون، فقامت بتفريغ نص الترجمة ومراجعة النص لغوياً وتصحيح وتحقيق النص وتنظيم وتبويب المحاضرات وتمّ عرض الكتاب على الأستاذ رحيم بور حيث أعطى لنا إذناً عاماً والوكالة في إعداد الكتاب بهذه الحلة القشيبة.

وقد قام فريق البحث في رابطة الحوار الديني بتوثيق وذكر السور وتحديد رقم الآيات المذكورة في المحاضرات واستخراج المصادر الروائية من المجاميع الشيعية والسنية وقد استخرج من الكتب الحديثية نصوص الروايات بالعربية حينما أشار الأستاذ الى ترجمتها في المحاضرة الفارسية ولم نكتف بنقل الأحاديث الشريفة أو الأقوال المنقولة عن الشخصيات الدينية والعلمية، بل حاولنا نقل العبارات بشكل دقيق إضافة إلى شرح بعض الأمور الغامضة والمصطلحات العلمية في الهامش وكذلك تمّ تصحيح بعض الأخطاء في الترجمة وبعض الأخطاء البسيطة التي تحدث أحياناً ضمن المحاضرة الشفهية مثل الخطأ في نقل عبارة عن شخصية دينية او سياسية ليتم عرض الكتاب بصورة محققة ونزيهة إن شاء الله، كما أننا لا ننسى أن نقدم وافر الشكر والتقدير الى قناة كوثر الفضائية التي قامت بترجمة ودبلجت هذا العمل، سائلين من المولى العزيز ان يوفق الجميع لخدمة الدين الحنيف، ونأمل من القراء الكرام ان يرفدونا بآرائهم حول الكتاب.

معهد باقر العلوم عليه السلام

فضل الرسول الأكرم على الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم إخوتي وأخواتي الأعزاء

ينبغي أن نعيَ أن قضية الرسوم المسيئة للرسول ﷺ وتفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء قبل عدة سنين والكثير من قضايا العالم التي شهدناها في الأعوام السابقة والتي سنشهد نظائرها في الأشهر القادمة تحمل وجهين؛ الأول هو الحادث الجلل الذي سمع به العالم كله العنف وعدم الإنصاف ونكران الجميل والإهانة العلنية للقيم الفكرية لمذهب أهل البيت عليهم السلام وهي في مجموعها مشروعٌ يُعد للمنطقة ليس الموضوع مجرد حادثة عابرة، بل إنها خطة مدروسة حيث نُشرت الصور المسيئة للرسول ﷺ في سبعة عشر بلد أوروبياً وعبر إعلامهم وبات الأمر مدعوماً من قبل الحكومات الغربية تحت مُسمى الدفاع عن حرية التعبير عن الرأي وكذلك التفجيرات الإرهابية وتفجير مرقد الإمامين العسكريين، كل هذه الأمور بتصوري جزءٌ من مشروع ومخطط واحد يستهدف المنطقة وهو عبارة عن ممارسة العنف ضد دين آخذٍ في النهوض والصحوة والانتشار وهو ما سيُسفر عن ظهور تيارٍ جارفٍ في المجالات السياسية والايدلوجية والفلسفية وكذلك في ميادين المجتمع والاجتماع على الصعيد البشري.

أمّا الوجه الثاني الذي أودُّ أن أسلط الاضواء عليه في هذه العُجالة هو انني أرى خلف هذه الأعمال الوحشية والانتهاكات التي أصابت المسلمين وأتباع أهل البيت عليهم السلام وأدت بهم إلى الحزن والتأسف لما سببته من تعدٍ وانتهاكٍ صارخ للقيم والمقدسات أرى خلفها بزوغ

فجر جديد و بتصوري فإن هذا الفجر سيقلب الحضارة والتاريخ البشري ويفتح صفحة جديدة ثمة حدث مهم سيقع، لقد حاول فلاسفة الحضارة وفلاسفة الثقافة وكُل أولئك الذين حاولوا إيجاد معادلةٍ للتطورات التاريخية والحضارية على مر التاريخ البشري حيث نشهد في بداية بعض الأحداث والمنعطفات التاريخية ظهور حضارة ما تقود إلى ثقافة جديدة وقد تحدث هؤلاء الفلاسفة عن هذه الحضارات والثقافات من خلال القرائن التي شاهدوها وأوردوها في نظرياتهم، إنني ألحظ منذ عقودٍ مؤشرات توحي إلى ظهور حضارة جديدة ربما في عقود مقبلة وهذه المؤشرات تتحدث عن أُفول حضارةٍ وبزوغ حضارةٍ جديدة هي الحضارة الإسلامية وستمضي الحضارة العلمانية الغربية صوب الأفول وأن كل عمليات التأخير والعنف والإرهاب الإعلامي و الاجتماعي والأعمى هي عمليات تبشر بقرب ظهور وسطوع هذه الحضارة والتحول الكبير، تارةً يقدم شخص ما على الإساءة إلى الرسول الأكرم ﷺ في رسم صورة وينتهي الأمر لكن إقدام سبعة عشر بلداً غربياً على دعم المسيئين إلى الرسول ونشر الصور التي رسموها فهذا يُشير إلى منعطف خطير في التاريخ، إن هذه الأعمال التي نشهدها اليوم في العالم قل نظيرها في التاريخ البشري وهي متواصلة منذ عقدين من الزمن أو أكثر تشير إلى أننا لا نعيش ظرفاً تاريخياً عادياً، بل نحن في مقطع معقد واستثنائي وحساس من التاريخ، إننا أمام منعطف تاريخي إنها نقطة استراتيجية، إن الغرب بات يشعر بالخطر من قبل عدة نواحي إسلامية وفي مقدمتها من الناحية السياسية والايدلوجية، لأن الغرب كان في طريقه لابتلاع العالم، لكن اللقمة تعثرت في حلقومهم والسبب هو الإسلام وحركة الصحوة الإسلامية التي باتت تظهر في عموم العالم الإسلامي حتى بات المسلمون في الغرب يُطالبون بحقوقهم، إن الإسلام هو الحائل أمام عالم غربي ديكتاتوري يقود العالم وهكذا يبدو الإسلام كمانع سياسي وأيدلوجي لمشروعهم في ابتلاع العالم، الثاني ان الإسلام يُشكل مقاومة فلسفية أي أن الإسلام يُعد مانع جدياً في الحرب الفلسفية والنظرية تجاه الثقافة العلمانية التي روجَ لها هؤلاء على مدى قرونٍ وآخرها ما أطلقوا عليه اسم الحداثة ومن المشاكل الأخرى التي يواجه الغرب فيها هي الفشل في قضية حقوق الإنسان التي طرحوها، لقد باتوا يعانون من الفشل في الجانب العملي لهذا الموضوع وباتوا يطرحون قضية حرية التعبير عن الرأي وهنا أيضاً أصبحوا يواجهون مشكلة

بالدفاع عنها بشكل صحيح في حين أن المسلمين باتوا يطرحون مسألة حقوق الإنسان وحرية التعبير عن الرأي والحرية الاجتماعية في إطار الثقافة التوحيدية ويؤسسون لذلك، لكننا نرى أن الغرب لا يدعو لحوار جاد نظري وفلسفي على مستوى العالم بصورة جادَّة، إنهم يطرحون مواضيع شتى منها مسألة التسامح ومسألة حقوق الأقليات واحترام المذاهب والأديان والتساهل والتسامح لكننا في العمل نرى كيف يضعون كل هذه الحقوق تحت أقدامهم كإهانة الرسول والإساءة إليه عبر الرسوم الكاريكاتورية وقضية الإرهاب وقضية قتل المسلمين ووضع القنابل في المساجد ودور العبادة ومثلما فشلوا في الناحية النظرية بالالتزام بمبادئهم التي نادوا بها نراهم في العمل ينتهكون هذه الشعارات واحداً تلو الآخر، لقد طرحوا شعار الديمقراطية وسلطة الشعب وكلما رجعوا إلى آراء الشعب في الشرق الأوسط و في البلدان الإسلامية لاحظوا أن الإسلاميين حصدوا الآراء ولم تفز القوائم العلمانية ولا الأمريكية التي تُروج للثقافة الغربية، ففي مصر نرى أن الإخوان المسلمين حصدوا الآراء رغم التزوير الهائل الذي مارسه النظام السابق، وفي فلسطين كانت حماس وهكذا في العراق وفي كل مكان شهد انتخابات حرة، إنهم يطرحون شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية التعبير عن الرأي والتساهل والتسامح، أي تساهل أو تسامح؟ هل إن الغرب يتسامح مع المسلمين؟ لم يستطيعوا تحمُّل حجاب فتاةٍ مسلمة في فرنسا والتي يدعون جزافاً أنها موطن الحرية والثورة الليبرالية والثورة الفرنسية أمْ الليبراليات، فما كان منهم إلا أن طردوها من الجامعة ومن العمل ومن كل مكان! ألم يقولوا إنهم لا يتبعون الأدلجة في التعامل ولو أقدمت حكومة ايدلوجية كالحكومة الدينية على فرض الحجاب باعتباره حكم إلهي وقانون إسلامي يجب إطاعته، لقلنا إن هذا الأمر يتوافق مع مبادئها، لكن الحكومة التي تدعي لنفسها العلمانية والديمقراطية وحرية الملبس والتصرف لم تستطع التغاضي عن لباس المحجبة وتدخلت وطردتها من الدراسة في انتهاكٍ واضحٍ لمدعياتهم، لا يحق لهم أن يفعلوا ذلك، ولو فعلناه نحن فإننا على حق، لأننا في الإسلام لا نعتبر نوع الملبس شأن خاصاً بل هو شأن عام وعليه يمكن تسميته باسم قانون الأخلاق الاجتماعية ولكنكم عندما تتحدثون فإن علامة استفهامٍ كبيرة ستوضع أمام شعاراتكم، كيف يمكن وضع الدفاع عن الإهانة الموجهة للرسول ﷺ في إطار التساهل والتسامح الديني واحترام حقوق الاديان

والاقليات! وهكذا فإن الغرب يُعاني من الناحية السياسية والايدلوجية والفلسفية بشدة أمام الإسلام حتى أنه يُعاني من الناحية الاجتماعية والسكانية من خلال الأرقام عن الأقليات الإسلامية المعلنة في أوروبا وأمريكا وأستراليا فهناك مسلمون جاؤوا إلى هذه البلدان عبر الهجرة وهناك مسلمون من السكان الأصليين وأن النمو السكاني لهؤلاء أكبر بكثير من النمو السكاني للأسر الغربية، لأنهم يُعانون من انهيار عُرى الأسرة والعائلة، لأنهم غير مسؤولين إزاء الأطفال والمرأة، إن النمو السكاني في أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا وعموم البلدان الغربية ثابتٌ أو ذو نمو ضعيف حتى أنه في بعض البلدان آخذٌ بالتراجع وعلى العكس نرى ازدياداً في الجالية الإسلامية وطبقاً للأرقام والإحصائيات المنشورة في البلدان الغربية فإن بعض المدن الأوروبية وبعض البلدان في أوروبا الغربية ستفقد توازنها الاجتماعي خلال العقدين أو الخمسة عقود المقبلة وفي بعضها في نهاية القرن الحالي حتى إن عدد المسلمين سيتجاوز المسيحيين ويصبح الإسلام الدين الأول بعدما هو الآن الدين الثاني، هذا من ناحية الكثافة السكانية، لكننا نشهد في الغرب إقبالاً على الإسلام خاصةً في أوروبا وأمريكا وبين الطبقة المثقفة تحديداً والنساء على وجه الخصوص ويأتي هذا في وقتٍ يقدم فيه الاستعمار على إخافة الناس من الإسلام بما يعرف بـ«إسلاموفوبيا»[1] لقد استطاع الإسلام كايدلوجية وبرنامج معرفي وفلسفة وتيار اجتماعي وسياسي عميق وظاهرة حقيقية في المجتمع وخلال عدة عقود على قلب الموازين في العالم، إننا نشهد عالماً يحتضر وآخر يولد ولنا أن نتساءل: هل أن ما يجري من عنف ضد الإسلام هو أمر عادي؟

بتصوري أنه أمر عادي للغاية وستعقب عملية تفجير مرقد العسكريين في سامراء والإساءة إلى الرسول وعمليات الاغتيال والتفجير عملياتٌ أخرى ولن يكون ما جرى آخر العمليات وعلينا أن ننتظر عمليات مشابهة في السنوات المقبلة، إنها عمليات يائسة يقوم بها أنصار نظرية تعيش الاحتضار وتلفظ أنفاسها الأخيرة، إنهم قلقون من ولادة حضارةٍ جديدة وفكرٍ جديد، إنه ألم الولادة التاريخي، إن حضارتهم المتطورة تتلظى وتقوم بأعمالٍ يائسة تعيش آلام الولادة من طرفٍ وأذى يُلحق بالمسلمين من احتضار ثقافة

---

١. (Islamophobia) هو التحامل والكراهية والخوف من الإسلام أو من المسلمين. دخل المصطلح إلى الاستخدام في اللغة الإنجليزية عام ١٩٩٧ عندما قامت خلية تفكير بريطانية يسارية التوجه تدعى رنيميد ترست، باستخدامه لإدانة مشاعر الكراهية والخوف والحكم المسبق الموجهة ضد الإسلام أو المسلمين. (ويكيبيديا، إسلاموفوبيا).

الغرب لقد انقلب السحر على الساحر وشهدنا في السنوات الأخيرة ولادة فجر جديد، لأن التاريخ البشري قد استبدل جلده بآخر وبدأ عالم جديد وتاريخ جديد، بالطبع فإن هذا لم يكن تنبؤاً، بل كان توقُّع وكان شرط تحققه بيد المسلمين وشرط صحوتهم حيث أبدوا استعدادهم لدفع ثمن هذا التغيير التاريخي وبدأت الشعوب بالحركة والوعي واليقظة والمقاومة وانتفضت على حكامها، فكان الجميع على استعدادٍ لهذه الولادة التي غيرت من واقع الشعوب والتي طالما سُحقت مطالبها وحقوقها ودفعت الثمن وتحملت الصعاب، فإذا كانت قد تحملت الصعاب واستهانت باستهانة مقدراتها من قبل حكامها لخسرت دنياها وآخرتها كما يقولون، كما قلت كنا بحاجة إلى صحوة و وعي، الموضوع الذي أريد التحدث عنه هو أن غير المسلمين كما المسلمين مدينون للرسول الأكرم ﷺ، لا بل كل البشرية وإن كانت البشرية مُثمِنةٌ لما قام به ﷺ لأدت إليه الاحترام كل الاحترام حتى إذا لم تؤمن به خاتماً للنبيين وها هي اليوم ترد الصاع صاعين، إننا مؤمنون أن قضية الرسوم المسيئة للرسول إنما أثيرت لأغراضٍ، أولاً لضرب الإسلام وإلحاق الأذى به، لكن الامر انتهى لغير صالح المسيئين، أي إن السحر انقلب على الساحر وتحولت الإساءة إلى أمواج واسعة وحّدت مسلمي العالم وللتغطية على ذلك أقدموا على تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء ولكن الله شاء أن لا ينتهي الأمر لصالحهم هذه المرة أيضاً، إن هذه الأحداث تشبه حال رجلين كانا يلعبان الشطرنج وعندما رأى أحدهما أنه خاسرٌ لا محالة قلبَ الطاولة رأساً على عقب وأربك المكان والحاضرين في المقهى، هذه هي حال الغرب في تعامله مع الإسلام في يومنا هذا، لقد عجز الغرب في المباحث الفلسفية والفكرية المعرفية حتى أنه فقد قاعدته السياسية الايدلوجية في الشرق الأوسط والعالم وهو يُريد قلب الطاولة أمامنا لا يُريد الجلوس معنا حتى النهاية ويتعامل بالمنطق وفيما مضى كانوا يُطالبون الإسلام للنزال ولم يكن هناك من يقف بوجههم، لأن الإسلام كان في سبات وكانوا يدهسوننا ولا نعلم لكنهم اليوم أفاقوا وبات الإسلام يقول لأمة الكفر ها نحن مستعدون للحوار الفلسفي النظري نحن جاهزون للمعركة والنزال الديمقراطي، للنزال معكم في الشرق الأوسط، ففي كل مواجهة في المنطقة خسرتم مقابل الإسلاميين، عن أي ديمقراطية تتحدثون بعد اليوم! كلما طرحت مسألة حقوق الإنسان خسرتم، لأنكم أول المعتدين والتهديد الذي تُلوّحون

به عبر مجلس الأمن الدولي ما هو إلا أداة قديمة، لكن هناك مسألة أكثر أهمية تكمن في أن التعارض لا يشمل الطبقات السياسية والسطحية، بل الأكثر عمقاً، أريد الخوض في هذه النقاط فإن هذه الأمور بتصوري هي أكثر أهمية ومصيرية ونسأل الغربيين عبر هذه الطبقة المُعمَّقة عن نكرانهم للرسول الأكرم ﷺ ليس بعنوانه كرسول، بل لأنه يمثل الجذور الأولى للحضارة الجديدة فهو وتعاليمه كانا السبب في حضارتكم التي تلقفتموها من المسلمين، أنظروا كيف كانت معاملة الغرب لهذه الشخصية الكبيرة بغض النظر عن نبوته، لاحظوا مدى الحقد الدفين ضد الرسول، لماذا يا ترى؟ لو بحثنا في تاريخ الحضارة والثقافة وتاريخ العلوم في العالم خاصة في الغرب وأوروبا تحديداً فماذا كان عندهم قبل الإسلام و الرسول؟ وماذا أصبحوا من بعدهم؟ والعلوم التي جاءت بفعل رسالة النبي الخالدة، لا أريد الخوض في المسألة من الناحية الدينية، لننظر إلى ما قبل الرسول الأكرم ﷺ وما كانت عليه البشرية من الانحطاط الاخلاقي والشرك والظلم والخرافة والإلحاد والجريمة ووأد البنات والربا والزنا! لاحظوا الأوضاع التي كانت تحكم العالم قبل النبي وما بعده، ليس الموضوع مقتصراً على جزيرة العرب فقط، لقد تطورت الدنيا بأسرها بعد الرسول ﷺ لا أريد الخوض في الأبعاد والمجالات الفلسفية والكلامية والأخلاقية والمعنوية، لأن معرفة هذه الأمور بحاجة إلى توفر العقل السليم ونحن لا نتوقع منهم أن يفهوا ذلك ولا أريد اعترافاً منهم بهذا الخصوص، أدعوهم إلى الرجوع لعالم الحسَّيَّات وهي لا تحتاج إلى الكثير من العقل، ففي مجال التطور المادي والعلمي والصناعي ما هو وضع الغرب قبل الرسول والإسلام، إنهم يقولون إن أوروبا قبل الإسلام أيام المسيحية وغير المسيحية كانت مليئة بالجهل والمرض والفقر لقد كان هذا وضعهم قبل النصف الأول من القرون الوسطى حيث بدأ احتكاك الأوربيين بالإسلام هذه الأمور مدونة في تاريخ أوروبا، ذكروا أن الأمراض كانت تنتشر من شرق القارة إلى غربها وتفتك بكل من تجده في طريقها، هم يقولون إن عدد المتعلمين في أوروبا لم يكن يتجاوز أصابع اليد، يقولون إن أكبر مكتبات أوروبا كانت لا تحتوي إلا على مئات الكتب فقط وغالبيتها كانت أوراداً كنسية ليس إلا، لا أريد الخوض كما قلت في المعنويات العقلانية والفلسفية وغيرها حيث تركت بصماتها جليةً هناك دعونا في الحسّيات القابلة للمس والعلوم والحضارة إنهم يقولون إن الاحتكاك بالمسلمين من خلال التجارة والحروب

الصليبية والعلوم والجامعات عبر الترجمة والذي استمر لقرون متوالية عرَّف أوروبا بالتجارة وخوض غمار البحار وبالجغرافيا، هم يعترفون أن المسلمين عرَّفوهم على التربية والأعشاب والطب والجراحة والفيزياء والكيمياء والنجوم والفلك والرياضيات والهندسة وغيرها.. إن لم تكونوا مدينين لرسول الإسلام بالدين فإنكم مدينون له بما تدَّعون من مدنية وحضارة وعلوم والتي تحكمون العالم بها اليوم، من الذي أوعز برسم الرسوم المسيئة للرسول ﷺ وبمن يا ترى تريدون إلحاق الأذى والإهانة إلى شخصية أنتم مدينون لها بكل شيء وصلتم إليه، إنهم يقولون إننا وصلنا عبر المسلمين إلى الصحة، وصلنا إلى النفس والروح والكلام والإلهيات والفقه وحقوق الإنسان والفلسفة والأخلاق ومفهوم الديوان والبيروقراطية وتعلموا من المسلمين أساليب الإدارة والتجارة والبرمجة والزراعة والري والصناعة والمختبر لقد وصلوا إلى كل هذه الأمور عبر مراجعة النصوص العربية والإسلامية وعبر ظهور الإسلام في جزيرة العرب لم يكن العرب شيئاً يُذكر قبل الإسلام لكنهم أصبحوا ذا مناعة وقوة وعلم بواسطة الإسلام وهكذا استفاد الأوروبيون من النبي، لكننا اليوم نراهم يسيئون له! لماذا تفعلون ذلك؟ إن الإساءة للرسول تعني الإساءة للأخلاق والإنسانية والمحبة وللعلم والأخوة والبشرية جمعاء وللمعرفة وإنقاذ الإنسان وفي عالم الوجود والطبقية هم مدينون للرسول الاكرم ﷺ.

هناك مجالان آخران من عالم الطبيعة والوجود وهما بتصوري الأكثر أهمية، فالبشرية مدينة للرسول في معرفة الخالق ومعرفة الإنسان، البشرية وحتى ما قبل الرسول ﷺ لم تكن على صلة بالله سبحانه وتعالى ولا حتى على إلمام ومعرفة بالله سبحانه وتعالى وكانت معرفة الإنسان بهذه الأمور ناقصة و غير خالصة وغير كافية لكن الله سبحانه وتعالى عُرِفَ حق المعرفة بعد الرسول ﷺ وكذلك الإنسان وهذان المجالان كما يظهران بشكلٍ جَلي لكنهما بتصوري أكثر أهمية من الفيزياء والكيمياء والنجوم والتربية ورغم أنهم مدينون للرسول في تلك الأمور أيضاً إلا أنهم أكثر مديونية للرسول في هذا المجال، لأن سائر الأمور الأخرى يشعر بها الإنسان من خلال الحس والتجربة لكن هذه المعارف لن تحصل إلا بمساعدة الوحي أي بمعرفة الله ومعرفة الإنسان بشكلها الصحيح وهي ليست من الأمور التي يمكن الوصول إليها من خلال العلوم التجريبية، إنها تحتاج إلى مساعدة الله والوحي،

والرب لم يكن ليتصل بالبشر إلا عبر شخصية مؤهلة كشخصية الرسول ﷺ وعليه فإن المُرسِل لم يُرسِل شيئاً في عدم وجود مستقبل لائق وحتى قبل الرسول لم يكن على سطح الأرض مستقبلٌ لإشارات الرب كالرسول من بين البشر، وعندما استكملت الظروف باتت عملية نقل المعلومات من الرب إلى البشر مُتاحة وكانت هذه الحالة الوحيدة على مر التاريخ حيث تعرف الإنسان على خالقه عبر النبي محمد ﷺ وعليه فإن البشرية جمعاء مدينون للرسول في هذا الموضوع وليس المسلمون فحسب، هنا أشير إلى موضوع الإلهيات المشتركة والإلهيات النازلة على كافة الأديان ولا أدري بأي مقدار هذه الفكرة صحيحة أساساً أو غير صحيحة لكنها على ما يبدو مقولة ذات جنبتين: فعندما يقول القرآن الكريم ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[1]، أي إن خطاب الرب يشمل كافة الموحدين أي أن لا نكون عبيد بعض، فإن كان هذا هو المقصود بالإلهيات المشتركة فهي صحيحة ولكن إذا كان المعنى شيئاً آخر فإنه لا يصح البتة ويُعد غير مقيد، لأن الإسلام جاء في الأساس لإصلاح نظام الأرباب الحاكم في يومها وأحد أهداف الرسول المهمة هي مواجهة الانحراف البشري على الصعيد المعنوي حيث كان منقسماً بين الإلحاد والمعنويات المنحرفة كعبادة الأصنام والشرك، لقد جاء الرسول لمواجهة هذين الانحرافين والنظم الربوبية التي كانت تحكم خطأً باسم المسيح واليهود والبوذية والعرفان المتنوع في الدنيا باسم عبادة الأصنام والشيطان وعبادة الإنسان حيث كانت رائجة وكذا بالنسبة لعبادة الطبيعة والشمس والجنس، إن الدَينَ الكبير للرسول على عاتق البشرية هو أنه جاء لإنقاذ البشر من الإلحاد والمادية والخرافة وأن يقول للبشر إن باب الحركة صوب الله لم يُغلق ويمكن معرفة الخالق ليس كما يستحق ولكن للحد الذي تصل إليه عقول البشر من معرفة، لقد جاء الرسول ليعلمنا طريقة التحدث إلى الله وقد أوصل إلينا رسالة السماء هذه ليست بالأمور الهينة، إن الوحي في الإسلام ذا مفهوم جدي وأساسي رغم أن الفلاسفة والمتصوفة والمتكلمين المسلمين كلٌّ فسر على طريقته وحسب فهمه من التعاريف عن الوحي والنبوة وكيفية بعث الأنبياء وما هو معنى الخاتمية وجاء الفلاسفة لتقديم تعريف فلسفي للوحي والخاتمية وهكذا حال المتصوفة والمتكلمين حتى أن البعض حاول طرح تفسير تجريبي علمي للوحي، كل

---

١ . آل عمران:٦٤

هذه تعاريف ناقصة ومغلوطة وإن لم تكن كذلك فهي ناقصة وأكثر التعاريف دقة وصحَّة تعريف الوحي عن الوحي، التقرير الذي قدمه الرسول عن الوحي والنبوة، أي أنه مُخاطبٌ الرب ولو أخذنا التعريف القرآني للوحي ملاكاً بالطبع فهناك تعاريف عرفانية وتفسيرية وعلمية للوحي لكن التعريف القرآني للوحي واضحٌ من خلال الإشارة إليه في القرآن الكريم مرات عدة وقد أشار الرسول إلى حالاته النفسية إبان نزول الوحي عليه، الوحي في التعريف القرآني عبارة عن ارتباط حقيقي روحاني واستثنائيٍّ تماماً وهو غير قابل للتجربة البشرية لأي إنسان آخر غير الرسول ﷺ ومن يحاول تفسير الوحي بطريقةٍ نفسية واجتماعية فهو مخطئ إنه كمن يُقدم على تفسير شيء وهو مغمض العينين وهو أدنى معلومة عنه وعندما يعجزون الوصول إليه يحاولون أن يُنزّلوا من قدره ليكون على شاكلتهم، لأنهم قاصرون عن إدراكه ولا أحد غير النبي يعرف ما هو الوحي وسأشير إلى بعض التفاسير السلبية المذكورة عن الوحي لنرى إنها جميعاً لا ترقى إلى مستوى الوحي، لقد طُرحت تعاريف فلسفية ودينية قديمة وغيرها عن النبي والنبوة والوحي لكنها جميعاً مغلوطة، إن الوحي يختلف عن جميع الحالات الروحانية والمعنوية الأخرى. الوحي ليس تجربة عادية أو باطنية أو روحانية أو نفسية بشرية لقد وصل البعض من خلال تفسيراتهم للقرآن والوحي أن الآيات القرآنية هي من صنع الرسول أو فهم على شاكلة المكاشفات العرفانية، كل هذا مغلوط البتة، ليس القرآن حديث الرسول ولا أفكاره وتعاليمه وليس تلقياً شخصياً وبشرياً من قبل الرسول من إلهام معنوي إلهي، القرآن كلام الله حقاً لا مجازاً لا يقبل الخطأ، لقد حاول البعض القول إن النبي مر بحالات روحانية وتجربة باطنية لكن تعابيره وتفسيره كان بشرياً وهذا غير صحيح، الوحي ليس تجربة بشرية عادية ولا تعابير ظهرت على لسان الرسول ولا تفسير من عنده والتعابير البشرية قابلة للخطأ وهي نسبية وناقصة ومحدودة، لكن الوحي إلهي وهذه هي نظرة المسلمين له، فإن ألفاظ القرآن نازلة أيضاً وليست من انتخاب البشر وإن كانت ذا قالب بشري وليست تحت تأثير تخيلات ومشاعر الرسول وتصرفاته وخطأٌ أن يتصور أحدٌ أن بإمكانه تقديم تحليل نفسي عن الوحي وهو أمرٌ واقع في الدنيا والعالم الغربي، لأنهم ارتؤوا منشأً بشرياً للوحي، ربما تحدث البعض عن ظاهرة الوحي والدين الذي جاء به الرسول بناءً على نزول الوحي والإثارة الاجتماعية والنفسية التي أوجدها هذا الدين في نفوس

المؤمنين به، فلا بأس بذلك، لكننا لا يمكننا تحليل الوحي بواسطة النظريات النفسية والاجتماعية بالطبع أن للرسول مقامٌ خاص ولهذا كان السبب في نزول الوحي عليه لكن هذا المقام لا علاقة له بأصل الوحي، فالظروف التي كان يتمتع بها الرسول كبشر أهّلته ليكون الشخص المناسب لنزول الوحي والرسالة الإلهية، لا أن نقول إن مقام الرسول الروحي والاجتماعي كان منشأً للوحي، أي ان الوحي لا يبدأ من الرسول، إن أساس الوحي ليس تابعاً لأهواء أو حالات الرسول أو لغته وعشيرته وقبيلته، لقد كان الرسول ومقامه الاجتماعي وعاءً للوحي لا منشأ الوحي وأساسه وكما أن الرسالة ليست تمارين قام بها الرسول، لأن الرسالة ليست فعلاً بشرياً وليست النبوة نوعاً من المهارة أو التجربة البشرية ولا تجربة دينية من النوع المصطلح ولا هياجاً عصبياً ولا اختلالاً نفسياً أو عقلياً حتى يقول البعض عند نزول الوحي إن الرسول بات مجنوناً، الوحي ليس حديث النفس ومحاورة الإنسان لنفسه وليس حالة شاعرية ولا عرفانية بشرية، كل هذه الموضوعات التي أشرت إليها كانت نظريات مطروحة في باب علم النفس الديني أو علم الاجتماع الديني أو فلسفة الدين في الكلام الجديد أو في المباحث الأخرى المرتبطة بالدين، إنها نظريات جاءت بالأصالة أو بالتجربة، الوحي ليس كهنة ولا تأثيراً من قوى غير عادية على بعض الناس كالارتباط بالجن والقوى غير الملموسة، الوحي عبارة عن اتصالٍ بالرسول وإبلاغٍ للأوامر والنواهي الربانية، لقد كان الرسول ينتظر أحياناً ولا ينزل الوحي وكان يُبلغ بأشياء غير معروفة في حينه وقد أشار القرآن إلى أن الرسول كان ينتظر ويشعر بالقلق أحياناً ولا يأتي الوحي وليس الوحي إلهاماً معنوياً وذكرياتٍ عابرة تظهر كالبرق وتزول بعد حين، إنه تضمن أخباراً معارفية وقيم أخلاقية وأحكاماً فرديةً وقوانين اجتماعية لم يكن هناك دين بقدر الإسلام يرتبط بالوحي بهذا المقدار وأقول لكم إن أغلب الأديان لم تدعي أبداً أنها مرتبطة بواسطة الوحي، إنهم يقولون إن الأمر عبارة عن كشفٍ وشهود وخلسة وما شابه ذلك وإن الدين يبدأ من الله وليس من البشر، إن التعرض إلى هذه الشخصية التي لا نظير لها منذ بدء الخليقة وحتى الأبد وهو صاحب القلب الكبير والتحمّل الواسع الذي اختاره الله لينقل أكثر المفاهيم الإلهية إلى الإنسان وإنقاذه، يأتون ويحاولون الإساءة إليه عبر الرسوم المسيئة! هل يمكن للغرب أن يُخفي الرسول من صفحات التاريخ؟ هل يمكنه أن يتخلى عن الحكمة والفلسفة والعرفان والعقل

التي جاء بها الرسول حيث لم يكن العالم شيئاً يُذكر قبله، أيٍّ شخصية تُريدون نكرانها؟ وأي حماقة وإهانة ترتكبون؟!.

هنا دعوني أن أقول لكم إنه ليس هناك دين تمَّ توضيح معانيه بقدر ما تمَّ في الإسلام فقد تمَّ فيه تنزيه الرب من الصفات البشرية وتنزيهُ من الأعيان الطبيعية وقد كان الإسلام والوحي القرآني حساساً تجاه هذه المسألة لكننا نرى في كافة الأديان إن الله مخلوط بالمادة ومخلوط بالمسيح وبالإنسان وبالأصنام ومع الطبيعة و الشمس ومع القمر ومع الشجر ومع النجوم و الحجر والخشب ومخلوطٌ مع كل الأشياء، هناك أديان أو روحانياتٌ من أنواع البوذية التي حاولت أن تطرح روحانيات في العدم وتكون حالة مجردة عن الله سبحانه وتعالى والقول إن العلاقة المعرفية بين الله والبشر مقطوعة وأنه يعيش في العدم والظلام المطبق وعليه أن يتكأ ويعتمد على شيءٍ ما، أي أننا أمام نوعين من الإفراط؛ الأول من النوع البوذي أي الروحانيات في العدم وهي مدرسةٌ ظهرت في الشرق فهي ليست معنويات توحيدية أو إلهية أبداً ولا يمكن طرح مسألة الله في البوذية تقريباً، إنهم يقولون إننا نعيش العدم والمعنويات في المعنويات في العدم، عَمَّن نبحث؟ لا شيء.

إذاً أين يكمن الاستقرار وأين تكمن الطمأنينة يا ترى؟ يقولون لك إنهم في لا شيء وهكذا يتعاملون مع الله سبحانه وتعالى بصورة تجريدية بحتة، إن التعامل السلبي المطلق مع الرب عوضاً عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة ستقودنا إلى العدم المطلق وعوضاً عن الوصول إلى النور نصل إلى الظلام، لا بل يزداد الأمر سوءاً ونبلغ حالةً من عبادة الأوثان وهذا هو حال البوذية في يومنا هذا مهما كان أصلها في بداية المشوار ولقد نزل البلاء على باقي الأديان سواءً تلك الإلهية كالمسيحية واليهودية أو التي ليس لها جذور إلهية، لقد جاء التوحيد القرآني والتوحيد الذي بشر به الرسول الأكرم ﷺ ليقول إن طريق المعرفة الإنسانية صوب الله سبحانه وتعالى مفتوح من جهة ولم يسمح من جهة أخرى بخلط الرب مع البشر أو أي شيء آخر، أي الحد بين التنزيه والتشبيه وكذلك كان معارضاً للتشبيه والتجسيم وكذلك مع التنزيه المفرط المعطل للأمور وعليه فإن الرب الذي لا يمكن للبشر أن يصفوه بأي شكلٍ من الأشكال، فما هو إذاً؟ كيف يمكن حبه والتضرع بين يديه؟ كيف نعبده؟ فارتباطه مع البشر مقطوع من الناحية المعرفية وكذلك في مسألة المحبة، عليه

فإن الله سبحانه وتعالى في العدم والمعنويات في عدم ومن الجهة الاخرى لا يتم السماح بالوصول بالتنزيه إلى حد التعطيل وعليه ستكون علاقتنا مع الله تعالى علاقة سلبية وعلاقة نفي ومن جانب آخر لا يسمح لنا بالوقوع في شرك التشبيه والتجسيم وعبادة المادة باسم الرب والشرك وعبادة الأوثان إنها خدمة كبيرة قدمها لنا الرسول الأكرم ﷺ لقد فتح لنا الطريق الصحيح إلى الله سبحانه وتعالى والقرآن حساس للغاية ألا يتم تجاوز الحد بين الإنسان وخالقه وأن لا يتم اعتبار الله والعالم واحداً وفي ذات الوقت أن لا تكون هناك فاصلة وقطيعة بين الرب والإنسان والعالم لا تتشكل منها نقطة فراغ لا يشاهد فيها حضور لله، فالله موجود في كل مكان وهو في ذات الوقت ليس كأي شيء، وهذه ليست بالأمور والإنجازات القليلة، هناك آيات في القرآن الكريم تصف الله سبحانه وتعالى وفي هذا خدمة كبيرة للبشرية التي هي أهل للحكمة والعقل والبشرية التي تنشد الحقيقة وليس المقصود بالبشرية الجزء الذي لا يعر أهمية إلى هذه الأمور، بالطبع لو لم يكن الإسلام قد جاء لكانت المسيحية واليهودية والبوذية أفضل للإنسان من الكفر والإلحاد ولكن بعد ظهور الرسول ﷺ كان ينبغي وضع كافة الوصفات الأخرى لإنقاذ البشر، الوصفات الناقصة والمشكوك بصحتها واعتماد الوصفة الكاملة الصحيحة التي جاء بها النبي الأكرم ﷺ لإنقاذ البشرية، لقد كانت رؤية البشر لله قبل النبي منحرفة رغم بعثه الأنبياء السابقين كعيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام، لقد لمعت هذه الأسماء في التاريخ البشري ولكن عندما بُعث الرسول الأكرم محمد ﷺ بالرسالة كانت مفاهيم الأديان السابقة قد انحرفت و رغم أن أفضل الأديان الموجودة قبل الرسول كانت المسيحية واليهودية، لكن هذه الأديان عانت من الجهل والخداع والمراوغة وهكذا فقد انقطعت العلاقة الروحانية والمعرفية بين البشر وبين الله سبحانه وتعالى وأصبحت مخدوشةً وباتت العلاقة دكاناً وسوقاً للمخادعة، أما الدين السالم وغير المصاب بأية أعراضٍ فهو ما بشر به الوحي إلى النبي الأكرم ﷺ، لاحظوا أن المسلمين لم يقولوا أن كلام القرآن هو من كلام الرسول بل هو من الله، لكن سائر الأديان لا تدعي ما ندعيه نحن من سلامة القرآن في نصوصها المقدسة، فالبوذيون لا يقولون أن آثارهم ونصوصهم إلهية أو أنها من الوحي أو من جانب الله، هم لا يدعون بذلك، إن الأديان الإلهية غير الإسلامية لا تقول أن العهدين الإنجيل والتوراة هما كلام الوحي بصورة

كاملة، إلا الدين الإسلامي الذي يقول: إن ما بين دفتي القرآن كلام إلهي خالص حتى أن النبي ﷺ ليس مشاركاً في صياغته، إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لم يُحرّف، إنني على اتصالٍ دائماً مع الكثير من رجال الدين المسيحيين واليهود وعقدت الكثير من الجلسات معهم في داخل إيران وخارجها، إنهم لا يطرحون مثل هذه الادعاءات، إنهم يقولون إن الوحي هو المسيح وأنه هو الله الذي نزل، وهو الوحي، هم لا يدّعون أن الكتاب المقدس وحي إلهي، لكننا نحن المسلمين نقول هذا بخصوص القرآن ولو لم يُبعث الرسول الخاتم ﷺ بالنبوة لم نكن لندعي ذلك، ترى ما هو مصير هذه الديانات وأتباعها لو لم يكن الرسول الخاتم ﷺ قد بُعث؟ لكن المسيحية اليوم تحولت إلى العلمانية.

لقد كان اليهود المسيحيون الأوائل يؤمنون بآدمية عيسى ونبوته وقد كان هذا مقبولاً من قبل المسلمين والقرآن وقد كان هذا موقف المسيحيين حتى بدايات القرنين الثالث والرابع الميلادي في آراء اريوس القسيس الإسكندراني والذي تم تكفيره من قبل «مجمع النيقية»[1] وطُرد من الديانة المسيحية عندما تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى الديانة المسيحية وقد أصبحت مسيحية في الظاهر لكن الحقيقة أن الدين المسيحي بات في خدمة الإمبراطوريات الإمبراطور مسؤولاً عن تدوين الديانة المسيحية طبقاً لأهوائه ومصالحه واعتماداً على عبادة الأوثان والمعتقدات القديمة، هذا هو حال الدين المسيحي حيث طال التحريف لإنجيلهم والعهدين والدين نفسه، حتى أنهم أضلوا حقيقة تفسير المسيح وكتابه وكلامه ولو لم يكن الرسول الخاتم ﷺ قد بُعث لم يبق شيءٌ بيد البشرية، لو أجرينا مقارنة بين المسيحية في القرآن مع المسيحية التي بشر بها اريوس الإسكندراني لفهمنا معنى المسيحية الحقَّة مما يُروّج له اليوم حيث تم تجسيم الوحي في شخص المسيح بفعل تأثيرات الأفكار اليونانية والرومانية وأفكار أحد النبلاء اليهود اليونانيين ضد المسيحية وهو قاتل المسيحيين ويدعي التنوير واسمه بولس وهو أسس المسيحية الثانية، وهكذا

---

١ . مجمع نيقيا الاول (يوناني: Νίκαια) او مجمع نيسيا الاول كان مجلس عقدوه الاساقفة المسيحيين سنة ٣٢٥ م فى مدينة نيقيا. حضر المجمع ٢٥٠ – ٣١٨ اسقف من كل العالم المسيحي ويرجع اهميته انه اول محاولة للوصول لاتفاق بين المسيحيين في العالم عن طريق عقد اجتماع يحضره ممثلين من كل الكنائس. وهذا المجمع يقال عنه «مجمع مسكوني» لأنه يضم ممثلين من المسكونة كلها (العالم). الهدف الرئيسي من عقد الاجتماع هو حل مشاكل الكنائس الشرقية و التي كان اهمها الاريانية، و هذه الحركة وصفتها الكنيسة انها حركة مهرطقه ابتداها اسقف اسمه اريوس الاسكندرانى و كان يقول ان المسيح ليس اله وانما هو كائن مخلوق حاله كحال بقية المخلوقات. (راجع: موسوعة ويكيبيديا).

دخلت المسيحية العالم اليوناني والعالم غير اليهودي والمسيحية التي نراها اليوم هي امتدادٌ للمسيحية الثانية التي أسسها بولس وليس المسيحية التي نادى بها السيد المسيح وكان مُبلغها بطرس الشهيد ومن يومها أصبحت المسيحية ذات شقين وكانت الثانية مسيحية محرفة وقد أخذت الإمبراطورية الرومانية هذه المسيحية و رُوجت لها وأصبحت مسيحية عالمية وهي ما نراها اليوم وهي ليست استمراراً لتعاليم عيسى بن مريم عليه السلام وقد كان هذا الدين الأفضل الذي نُشر في العالم قبل مجيء رسولنا خاتم النبيين ﷺ، وكانت المسيحية قمة في الروحانية والعقلانية والأخلاق في الإطار البشري، لاحظوا ماذا حلَّ بها بفعل تدخل المنحرفين بدءً بتأليه السيد المسيح ومن ثمَّ بدخول النزعة اليونانية القديمة في الدين لقد تم إيراد مصطلحات اللوغوس في القرون الستة قبل الميلاد على يد أشخاص مثل هراكليد في النصوص الفلسفية، وكانت بمثابة القانون والعقل العالمي ثم ظهر حكيم يهودي اسكندراني يُدعى فيلون وأورد مفاهيم لوغوس ومفهوم التثليث في الهيات المسيح، فلو لم يكن الرسول الخاتم ﷺ قد بُعث لكانت الأفكار الهيلينية[١] والثنوية وغيرها وتجسيم الوحي في شخص عيسى بن مريم لا في مجال الرسالة والكتاب وتلقي وقبول معنى الأب و الابن المجازي، حيث نحن المسلمين نقبل المعنى المجازي وحسب، وعلاقة عيسى مع الله رويداً رويداً يتحول المعنى المجازي إلى معنى حقيقي في الأب والابن وبعدها مفهوم روح القدس وهو الملك الإلهي الذي كان من المقربين لله سبحانه وتعالى وتمت عمليات الاستنساخ من الأساطير اليونانية والرومانية وبات التثليث الذي دعا به جوبيتير وجونون سيد الموقف حيث صنعوا الأب والأبن وروح القدس وأوردوها إلى الدين وأدخلوا آليات القوة في الإمبراطورية الرومانية في صلب الفكر الديني والتوحيدي وبدلوا التوحيد إلى شرك وقبل بعث الرسول الخاتم ﷺ بالرسالة كانت هذه الخرافات تُعد قمة المعنويات الدينية

---

١ . الهَلْيَنة (أو اليَوْنَنَة)، هي تحويل الناس إلى حضارة الهيلينية أو اليونانية، أي فرض الثقافة واللغة اليونانية ونشرها في كافة الأراضي التي ملكها العنصر الإغريقي المتمثل في الحكام اليونانيين أو المقدونيين أو الهلنستيين. وهو تعريب لمصطلح ألماني لاتيني (Hellenismus) صاغه المؤرخ الألماني يوهان گوستاف دريزن ليُشير إلى انتشار اللغة، والثقافة، والجمهرة اليونانية، في أراضي الإمبراطورية الفارسية خلال وبعد فتوحات الإسكندر الأكبر. وكانت الهلينة في أوج نشاطها آنذاك وعرفت تلك الفترة بالعصر الهلينستي وخلال هذه الفترة خرجت أعداد كبيرة من المستوطنين اليونانيين والمقدونيين إلى الأراضي المفتوحة وصارت اللغة اليونانية (الكوينه) هي اللغة الرئيسية، غير أن اللغات المحلية ظلت اللغات المستخدمة والمحكية، خاصة في الأرياف. (راجع: موسوعة ويكيبيديا)

على مستوى البشرويات التجسيد والألوهية البشرية والصليب وعبادة الأوثان والتماثيل بدلاً عن التوحيد وبدت أمراً رائجاً، لكن النصوص المقدسة التي يحترمها القرآن والإنجيل ويقسم بها فلا وهكذا تحول الإنجيل والتوراة إلى قضية تدوين تاريخي من قبل البشر لوقائع دينية فيها الكثير من الإبهام ومطعون بصحتها أحياناً، قبل قرن من الزمن قال إرنست رينان متخصص في اللغات وباحث عبري في النصوص المقدسة: إن الفاصل التاريخي بين تدوين النصوص المقدسة تصل إلى سبعة قرون أحياناً وكان هذا الدين قبل بعثة الرسول ﷺ الطريق الوحيد لإيصال البشر إلى الله وقد أغلقت الانحرافات هذا الطريق أيضاً، بعدها ظهر الاختلاف في هذا المعسكر ولا أريد الإطالة هنا، خلافات في الدين المسيحي وتجزئة الكنيسة إلى الروم الشرقيين والغربيين أرثوذوكس وكاثوليكي وغيرها، لقد حصل كل ذلك بفعل تأثيرات العالم الإسلامي، أي أن الانشعاب الأرثذوكسي والكاثوليكي والبروتستانتي تم بفعل تأثير إلهيات العالم الإسلامي واتصالهم بالإسلام، لقد جاء الإسلام لتخليص البشر من حافة الهاوية في مجال معرفة الله الأول بعلاقة الإنسان بالله عن طريق التجسيم الألوهي والتجلي الجسماني وضرورة تحقق الأمر المطلق، والمعنى إننا لا نستطيع معرفة الله وعليه ينبغي أن نبدله إلى بشر أو إلى شيء مادي، لقد سار في هذا الاتجاه أغلب الأديان حتى المسيحية وهكذا حولوا الرب إلى بشر وأزالوا الفاصلة والحد بين الإنسان والخالق، أما الطريق الثاني إزاء سؤالنا في كيفية معرفة الله ومشاهدته فعليه وقعوا في شرك التجسيم أو العدم فالبعض منهم قال إننا ومن أجل عبادة الله وعشقه علينا أن نُعرِّفه فوقعوا في التجسيم والتشبيه ولم يستطيعوا الخلاص منه ووقعوا في الشرك وعبادة الأصنام والفسق باسم عبادة الله وقد وقعت جميع الأديان في هذا الشرك تقريباً، كذلك جميع أنماط المعنويات والعرفان متورطون في هذا النوع تقريباً، أي أن العرفان والمعنويات تحولت إلى علمانية ومادية في قالب الطبيعة أو الإنسان أو الجماد وأصبحت الثقافات كالبوذية وهي ليست ذات حاصلٍ أو منتوجٍ باتت تتحدث عن معنوياتٍ دون معرفة ومعنويات في العدم وهي إزاء ثقافة التجسيم تتحدث عن ثقافة العدم، أي أن البوذا بات تجلي للعدم وعليه فإن البشرية مدينة للرسول محمد ﷺ سواء في الماديات أو الحضارة أو العلوم التجريبية وفي التعرف على مفهوم الحقوق وحقوق الإنسان والعدل، لاحظوا أن العلوم الإسلامية وصلت

أوروبا بالترجمة وخلت الجامعات الإيطالية والأندلس وكانت عبارة عن حقوق في بعض القضايا الفقهية والطب والنجوم والجراحة وغيرها، فإن أقل ما يقال بحق الغرب هو أن ما يقوم به اليوم تجاه الرسول الأكرم ﷺ هو نكران للجميل فإن لم تقبلوا به كنبي كونوا أحراراً واقبلوه كإنسان قدم الكثير في سبيل تطور العلم والحضارة وأنتم أيها الأوروبيون مدينون في علومكم وتطوركم وحضارتكم للرسول محمد ﷺ وتعاليم الإسلام وليكن في معلوم الجميع أن البشرية مدينة للرسول في الماديات والحضارة والعلوم الجديدة و في الأخلاق والمعنويات والعدالة والحرية والعدل وحقوق الإنسان، راجعوا تاريخ الفكر في أوروبا قبل الإسلام وفي الشرق قبل الإسلام، هل سبقوا هؤلاء النبي إلى هذه العلوم؟

أين كانت العدالة والمعنويات ومعرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة الإنسان بدون التعاليم التي جاء بها الرسول ﷺ فإن البشرية كانت في إطار صغير من المعقولات والمحسوسات البشرية العادية وبدون النبي ﷺ لم تكن البشرية لترى أكثر من أمامها حتى المعرفة لم تكن معرفة دون الرسول ﷺ.

شكراً لاستماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسول محمد آخر الأنوار الإلهية

رسالة محمد رسول الله ﷺ

الشخص الذي تحدَّثَ للإنسانية من طرف البارئ عزوجل، وقد كلَّمَ الله سبحانهُ وتعالى البشرَ بواسطته، ويمكننا أن نسميَّهُ آخِرَ البارقات الإلهية التحررية، فقد عبَّرَ القرآن الكريم عن الأنبياء بأنهم جاؤوا لِتحطيم الأغلال ورفعها عن الإنسان والإنسانية[1]. جاؤوا للأخذ بيد الإنسان نحوَ الرُّقي والتكامل، وعليه فإنَّ القولَ بأنَّ الدينَ عبارةٌ عن أسرٍ وأغلالٍ مقولةٌ مغلوطةٌ تماماً. وعليه فإنَّ التفسير الذي يقول إنَّ الدينَ عبارةٌ عن حصارٍ وأغلالٍ جديدةٍ تفسيرٌ مغلوط. أبدأ حديثي معكم بروايةٍ نُقِلت عن الإمام عليّ تلميذ الرسول الأول، لأنَّ كُلَّ ما لدى علي فهو من النبي محمدٍ ﷺ، حيثُ يقول عليه السلام: **«أنا عبدٌ من عبيد محمد»**[2]. بالطبع لا يقصد الإمام هنا أنهُ يعبُدُ الرسول، بل هو عبدٌ ومولاً للرسول. فقد كانَ الناسُ قبلَ الرسول حَيارى في أمورهم، إمَّا جَهَلةٌ لا يفقهون شيئاً، أو أنَّ ما كانوا يفقهونهُ خليطٌ من الأمور الخرافية والإبهامات وبعض الحقائق. لقد جاءَ الرسول في مثل هذه الظروف وبُعِثَ بالرسالة، فبالغَ بالنصيحة ومضى على الطريقة، ولم يعمل الصلاحَ للأمة وخدمة البشر والخَلق من باب رفع التكليف وترك الباقي على الأمة، بل بالغَ في النصيحة، أي أنهُ فَعَلَ ذلكَ بكُلِّ وجوده وطاقته، ولم يبخل على الأمة وهدايتها ومضى على الطريقة، أي أنهُ كانَ صامداً ومواصِلاً لِحثِّ الأمة على فعل الخير، ولم يفتر لحظةً واحدةً في هذا الطريق

---

1. الأعراف: ١٥٧.
2. شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، ج٣، ص١٣٠، بحار الأنوار، ج٣، ص٢٨٣.

ولم يتردَّد، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة. أي أنهُ جاءَ من أجل المعرفة، ولم يكن يُريد الروحانية العمياء. دعا الناس بمنهجيةٍ إنسانيةٍ مؤدَّبةٍ وكريمةٍ إلى الحق، قدَّمَ الموعظة الحسنة دونَ غِلظةٍ، بل فعلَ ذلكَ بالحكمة والاستدلال والأخلاق والأدب والتواضع. «دَفَنَ الله به الضَّغائِن ودَفَعَ به النوائِر»[1]، أي أنهُ جاءَ لإخماد الضغينة والبغضاء وإطفاء الحقد بين الإنسان وأخيه الإنسان، هذه الأحقاد التي تلتهم البشرية والقيم والأخلاق والإنسانية والعدالة والأخوَّة. لقد جاءَ من أجل إطفاء النار وألَّفَ به إخوانا، أي أنَّ الله بعثهُ ليؤاخي بينَ الناس، وينبغي أن يكونَ الناسُ بعضُهم من بعضٍ. لقد جاءَ ليُحكِّمَ العدل بين الناس، العدلَ الذي كانَ مفقوداً في مشارق الأرض ومغاربها، وليجعلَ الله الناس بواسطتهِ إخوانا، وهم الذينَ كانوا يُريقونَ دَمَ بعضهم بعضاً بِكُلِّ بساطة. وينهبونَ أموالَ بعضهم بعضاً. «وفرَّقَ به أقرانا»[2]، أي أنَّ النبي بُعِثَ بالرسالة ليُزيلَ العصبية القومية والقبلية ورابطة الدم والعنصُرية.

لقد جاءَ الرسول الأكرم ليضعَ حائلاً بينَ جبهة الحق والباطل، مشدداً على إنَّ كُلَّ وحدةٍ وصداقةٍ ليست جيدة على الدوام، فربما كانت هناكَ صداقاتٌ وارتباطاتٌ على أساس العصبية والقرابة الأسرية والدم والعنصرية والقبيلة وأمثالها، وهي تحزُّباتٌ وعصبياتٌ غيرُ إنسانية. لقد أعلنَ الإسلامُ أنهُ يقبلُ عصبيةً وتحزُّباً واحداً وهو التعصُّب من أجل الحقيقة والإنسانية والعدالة، وأنَّ الحدَّ الفاصل بينَ الصداقة والعدو يكمن في العدالة الإنسانية، الحدُّ بين الأخلاق والفضيلة والحقيقة. والإسلامُ يرفضُ بقية الحدود التي تقوم على أساس الدم والقبيلة والأسرة والطبقة، أو على أساس الجنس أو العِرق. فالإسلام يقول إنَّ كُلَّ هذه واحدةٌ أمام الشرع والدين، وأنَّ الأساس الذي تقوم على أساسه الشريعة هو الحدُّ بين الحق والباطل، وتقسيم العدل والظلم، والجبهة الإنسانية وغير الإنسانية.

ومن خصاله الحميدة ﷺ الأخرى هي «كلامهُ بيانٌ وصمتهُ لسان»[3]. أي أنهُ لم يكن ليتحدَّث من باب إسقاط الواجبِ المُلقى عليه. لو لاحظنا المعلمين فإنهم يتحدَّثونَ مع الطلاب بطريقتين: الأولى: يكون فيها الحديثُ من باب رفع الواجب وإسقاط المسؤولية،

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩٥.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

وتارةً: يتمُّ الحديثُ بهدف التفهيم وتوعية الناس، وهذا هو المقصودُ في كلامه «بيان»، أي أنَّ كلامهُ ﷺ لم يكن مُجردَ ألفاظٍ، كان يتحدَّثُ بلُطفٍ وإنسانية، ولن يهدء لهُ بالٌ حتى يُفهِمَ المُتلقِّي. «وصمتهُ لسان»، أي أنَّ صمتهُ كانَ لغةٌ وحديثٌ وإشارات، أي أنَّ صَمتهُ لم يكن من باب انتهاء ما كان يَعْرِفُهُ الرسول، بل أنَّ صَمْتَهُ مدرسةٌ وحكمة.

أين القرآن في أمة محمد اليوم؟

دعوني هنا أبدأ الخوضَ في الموضوع من خلال اعترافٍ واعتراض، وهو يرتبط بهذا البحث فيما خصَّ القرآنَ والسُّنَّة النبوية. أمَّا الاعتراف بالقصور في حق القرآن الكريم الذي يُعَدُّ أفضلَ ما جاءَ به الرسول الأكرم ﷺ من لَدُن البارئ عزوجل، فلو قُدِّرَ أن ينظُرَ الرسول الأكرم اليوم إلى أُمَّتِهِ والمُجتمعات الإسلامية، فهل سيُصَدِّقُ أننا أمَّتُه؟ هل هذه هي أمَّةُ القرآن وأمَّة الرسول؟ إنهُ تساؤلٌ مطروحٌ بجدِّيَّة أمامَ المسلمين في كُلِّ أصقاع المعمورة، ينبغي أن يُفكِّرَ فيه الإنسان بصورةٍ جدِّيَّة، ولو كانَ القرآن كذلك، فهل هذا الواقع يُطبّقُ على الأرض في المجتمع؟ وهل أنَّ المُجتمع الإسلامي هو مِرْآةٌ للقرآن؟ ولو كانَ القرآنُ كتابُ علمٍ وأخوَّةٍ وعزَّةٍ ووحدةٍ وسلامٍ وجهادٍ وشجاعة، كتابُ كرامةٍ وإنْفاقٍ وصبرٍ وصدق وكتابُ خشوعٍ وتواضعٍ وإخلاصٍ ومحبَّةٍ، وروحانية وعقلانية، فهل أنَّ المجتمع الإسلامي هو كذلك؟ وهل أنَّ هذه الأمور مطروحةٌ اليوم في الساحة؟

فلو كانت كذلك فنحنُ أمةُ القرآن، ولو حلَّ الكذبُ محلَّ الصِّدق، والرئاسة محلَّ الإخلاص، والذلَّة محلَّ العزَّة، والجهل محلَّ العلم، والبغضاء والخِصَام محلَّ المحبة والأخوَّة، سيكونُ معلوماً أننا لسنا من أمة محمد ﷺ. لقد انتشرَ الإسلامُ وشَهِدَ المسلمونَ العِزَّة في القرآن. أتصور أنَّ التحدي المطروح اليوم وبإلحاحٍ هو ابتعادنا عن القيم الإسلامية. سألني أحد الطلبة قبلَ أن أرتقيَ المِنصَّةَ لإلقاء هذه المحاضرة عما لو تركنا المجتمع الذي ابتعدَ عن القيم نوعاً ما، فهل أنَّ المسؤولينَ وولاة الدين مُتَمسِّكونَ بالقرآن؟ هل أنَّ حوزتنا العلمية ومعاهد الفقه مُتمسكةٌ بالقرآن؟ هل أنَّها تسير وَفْقَ سُنَّة الرسول ﷺ؟ وكم هي مُرتبطة بمنهجية وأخلاق الرسول ﷺ؟ وما هي المساحة القرآنية والسُّنَّة النبوية والمنهجيات الإسلامية في أبحاث وتحقيقات الحوزات العلمية والجامعات؟ فلو عزلنا الظواهر والتبرُّك بالقرآن والسُّنَّة، كم هو حجم المطالعات الجذرية؟ أليسَ القرآن باتَ محجوراً لدينا بينَ

الفطرة والعمل به؟ ألم نضع القرآن على الرفوف ونستخدمهُ للحفظ ونَمُرَّ من تحته عند السفر أو عندما نُشاركُ في مجالس الفاتحة؟ أمامنا مُشكلةٌ في الجانب النظري في الحوزة والجامعة، وكذلك الحال في القضايا العملية والمُجتمعية. وعندما نتحدَّثُ عن القرآن والرسول فإننا نفعل ذلك فقط بقصد اليُمن والبركة. وعندما نُريدُ أن نبحَثَ الأمور بجدِّيَّةٍ ونتوجه إلى الاستدلالات وإدارة المجتمع نقول: ضعوا القرآن جانباً لأننا نُريدُ الخوضَ في الأمور العملية والجدِّيَّة. ألم تضع حوزاتُنا وجامعاتُنا القرآن على الرف؟ لقد وضع الجميع القرآن جانباً في حياته، ولا يقتصر الأمر على عامة أبناء المُجتمع.

أقول لهذا الطالب الذي سأَلَ، إنَّ الهاجِسَ الذي كانَ يَقضُّ مضاجع المُصلِحينَ والمُفكِّرينَ على مر التاريخ هو ما سألته، إنهُ سؤالٌ مُهم، نواجه هذه الأزمة ونُعايُشها منذ قرون. رأيتُ أنني لا أستطيعُ أن أمُرَّ على هذا السؤال مرور الكرام، وأقول تصوُّرُكَ غيرُ صحيح، فالقرآن ليسَ مهجوراً ولا محجوراً، ولا أستطيعُ القولَ إنَّ حوزاتنا في الفقهِ والفلسفة والأصول والكلام مُنغَمِسةٌ في المفاهيم القرآنية، ولن أستطيعَ القول إنَّ حوزاتنا العلمية وجامعاتنا منفتحةٌ على المفاهيم القرآنية بِشكلٍ كامل، نعم لا أستطيع قول ذلك. أمَّا الاعتراض الذي أريدُ طَرحَهُ هنا فهو اعتراضٌ على تصرفاتنا نحن في الحوزة والجامعة، وفي إدارة المجتمع بصورةٍ علمية، كم هو عدد الفتاوى والأحكام؟ وكم هي الاستنباطات الشمولية؟ وكم هي النظريات في معرفة الإنسان في الحوزة والجامعة وفي الدُّروس الرسمية وفي النصوص العلمية، لا على سبيل ذِكرِها في الحواشي أو التشريفات بُغية الحصول على درجة الامتحان أو كما يُقال عنها درجة الامتحان. كم مثل هذه النصوص والنظريات في الحوزة والجامعة؟ كم من هذه النظريات تعتمد وتستند إلى الآيات القرآنية؟ وما هو الارتباط بين المنهجيات العلمية والمفاهيم التي طرحها الله سبحانهُ وتعالى عن طريق رسوله؟ حيث ان القرآن والرسول الاكرم والائمة جميعا عليهم السلام يؤكدون على ان القرآن كامل وفيه المئات من الآيات القرآنية والأخلاقية والعقائدية والسياسية والاقتصادية والتربوية والكونية وحتى الطبيعة والإنسانية ومعرفة العوالم بعد الموت و... لكن لنا ان نتساءَلُ هنا: كم هي الموارد التي أقدمت الحوزة والجامعات على الخوض فيها؟ هل تُدلُونا على جامعةٍ أو حوزةٍ أو مركز أبحاثٍ خاضَ في مثل هذه الموضوعات؟ وفي بعض الأحيان نرى أنَّ بعضَ الأفراد متوسطي الذكاء يُحاولونَ

استنباطَ المفاهيم القرآنية وطرحها في مُختلف زوايا الحياة الإنسانية لِحَل الأمور المُستعصية، فهناكَ حالةٌ من الضعف في التعامل مع الأمور. وبتصوري أنَّ العقول التي تَتَّجه صوب حل المسائل الخاصة بالعلوم النووية أو تقنية النانو ومختلف العلوم الحديثة ينبغي أن يُصارَ إلى عقولٍ من ذات القوة للخوض في العلوم الدينية واستنباط الأحكام منها، بل إننا بحاجةٍ إلى عقولٍ أقوى وأكبر من تلك، وبحاجةٍ إلى رياضاتٍ ودقَّةٍ رياضيةٍ كبيرة لِحَل المفاهيم القرآنية وترجمتها على كافة زوايا الحياة. ومن خلال ذلك يخرج القرآن من الحاشية إلى النص ومن الرفوف إلى مراكز الأبحاث في الحوزة والجامعات.

بالطبع ينبغي عدمُ تجاهل حالةُ التبرُّك بالقرآن، رغم أنَّ البعضَ باتَ يستغِلُّ حتى هذه النواحي لأغراضٍ دنيوية، ولو اشتكى الرسول الأكرم ﷺ إلى الله بسبب تَركِ أُمَّتهِ للقرآن ووضعهِ جانباً وجعله مهجوراً[١]، فإنَّ هذه الشكوى لن توضعَ في الأرشيف التاريخي، وستظلُّ حيَّةً، وربما أصبحت أكبرَ وأكبرَ كُلَّ يوم. في بعض الأحيان نَصرِفُ الكَثيرَ من السِّعرات الدماغية والفوسفورية من أجل أمورٍ تافهةٍ وتشريفاتٍ واستعراضات، لكننا نتجاهل المحيط الأعظم من المفاهيم الدنيوية والآخروية في القرآن، وكذا المفاهيم الفردية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية. إنَّ المُشكلة أيُّها الحضور الكرام موجودةٌ في ذات حوزاتنا العلمية، فلو دقَّقنا لرأينا أنَّ درساً في التفسير أو إثنين في كُلِّ حوزةٍ في النجف الأشرف ومدينة قُم ومشهد لا أكثر. وفي قُم هناكَ درسُ تفسيرٍ واحد شُموليٌ لا أكثر، وهو درسٌ مُباركٌ لِعالمٍ مُبارك، هذا على الصعيد الحوزوي. أمَّا الجامعات فَحِسَابُها مَعلوم، وكذا سائِرُ مرافق المُجتمع أي أننا نمتلكُ عباقرةً في مجال العلوم الإنسانية والعقلية والاجتماعية والتربوية، فكم من هؤلاء يعمل في مجال الخوض في المفاهيم القرآنية، ويشحَذَ ذِهنَهُ ويُجاهد بِقَلَمِهِ في هذا المجال؟ هل هناكَ من يفعلُ ذلك؟ أشكُّ في ذلك، وهذا من دواعي الأسف.

لا استقلال بين أهل البيت والقرآن

في المجتمعات الشيعية مثل إيران، يتمُّ ذِكرُ أهل البيت عليهم السلام بكثرة، وينبغي أن يكونَ الأمرُ كذلك، وكُلِّ ما يُقالُ فيهم قليل، ولكن البعض يتصوَّرُ خطأً أنَّ القرآن والرسول

---

١ . اشارة الى الآية الشريفة ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، الفرقان: ٣٠.

الأكرم ﷺ بات في شُعَاع دائرة أهل البيت عليهم السلام لا أكثر. ينبغي إصلاحُ هذا الطراز من الفكر لمن يتّهِم الشيعة بأنهم ينظرونَ إلى أنَّ أتباع أهل البيت يُكِنّونَ احتراماً خاصاً للأئمة بمعزلٍ عن القرآن وعن الرسول ﷺ، ينبغي تذكيرُ أولئكَ أنَّ هذا ليسَ صحيحاً. وإلى أولئكَ الذين يتحدَّثون باسم الشيعة ويُغالونَ ويُفرِطونَ في الولاء لأهل البيت عليهم السلام، ويُحاولونَ تصويرَ أنَّ أهلَ البيت مُقدَّمونَ على الرسول والقرآن، هؤلاء أيضاً يخونونَ الإسلام والتشيُّع والقرآن وأهل البيت. فالإمامية تؤمن وهذا من مدعاة فخرنا أنَّ قُدسيّةَ وحُرمة أهل بيت الرسول مُستدلَّةٌ بقداسة القرآن، ومُستدلَّةٌ بِحُرمة الرسول الأكرم نفسه، وإذا كانَ هناكَ من يدَّعي باسم الشيعة وينسبُ أشياء أخرى لأهل البيت عليهم السلام أو الذينَ يتهمون الشيعة بمثل هذه الافتراءات، أي أنَّ أهل البيت مُقدَّسونَ بعيداً عن القرآن والرسول الأكرم ﷺ فهُم مُخطِئونَ حقاً، وإن كانوا يفعلون ذلك عن وعيٍ فهُم خَوَنَة، فالشيعة لم تُقدِّمَ أهل البيت على القرآن أبداً، أهل البيت ليسوا بمعزلٍ عن القرآن أو الرسول الأكرم[1]. وإذا كانَ احترامهُم لأهل البيت قائماً فهو من أجل بركة القرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ.

إنَّ قيمة أهل البيت تكمن في أنهم أهل بيت الرسول وتكمنُ في كونهم مُفسِّرينَ حقيقيين للقرآن[2]، وأُلفِتُ عناية الأخوة أن يُراجعوا كتابات وأقوال مُتكلِّمي الإمامية من عهد الأئمة أي من هشام بن الحكم إلى هشام بن سالم إلى زُرارة والفضل بن شاذان وآخرين، حيثُ تلقى هؤلاء علومهم على أيدي الأئمة، وكانت لهم مباحث نظرية وكلامية وكانت لهم مناظرات ومباحث عقائدية، حتى نَصِلَ إلى أسرة النوبختي ومن ثَمَّ إلى عصر الغيبة فالشيخ الصدوق والشيخ المفيد وعلم الهدى والشيخ الطوسي مروراً بالخواجة نصير الدين الطوسي والعلامة الحلّي والمجلسي والفيض والملا عبد الرزاق وكُلِّ مُتكلِّمي الإمامية، فلن تجدوا لواحدٍ منهم أن يقولُ إنَّ لأهل البيت أي عليّاً وفاطمة وأبنائهما شأناً ومنزلةً

---

١ . أصول الكافي، ج١، باب الرد الى الكتاب و السنة، حديث٩؛ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج١٩، ص ١٣٧.

٢ . وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٩، رقم الحديث٩؛ إثبات الهدى، محمد بن الحسن حر العاملي، ج١، ص٦٠٨، رقم الحديث٥٩٩؛ علوم القرآن عند المفسرين،ج١، ص١٨٧؛ كما ورد في حديث الثقلين: «أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم بهما لن تضلوا كتاب الله و عترتي»، صحيح مسلم، ج٢، ص ٢٣٨، ... حتى يردا علي الحوض كأصبعي هاتين و جمع بين سبابتيه، بحار الأنوار،ج٢٣، ص ١٣٩(عموم هذه الروايات تدل على مرجعية أهل البيت عليهم السلام و مدى علمهم بتفسير القرآن الكريم).

مُستقلَّةً عن الرسول أو مُستقلَّةً عن القرآن. لقد كانَ من افتخار الإمام علي أبي الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين، أن يقول إنني «عبدٌ من عبيد محمد»[١]، أو أنهُ يُشيرُ في موضعٍ آخر[٢] أنهُ كلما كانت تلمُّ بالمسلمين مُلِمَّةٌ كانوا يلوذونَ بالرسول ويستظلّونَ بِظِلِّه. ومن خلال هذا تتضح عظمة الرسول.

خطر الوهابية والغلاة على الإسلام المحمدي والقرآن

هناك مجموعتان تضربان الإسلام، غُلاةٌ من الشيعة الذينَ يعملون خلافاً لما وَرَدَ في القرآن والسُّنَّة، وأخرى وهابيةٌ تُحرِّفُ القرآن وسُنَّة نَبيّه وتفسر الأمور على رأيها. بالطبع هذه فرقةٌ مفصولة عن أهل السُّنَّة، هاتان المدرستان الوهابية والغُلاة لا تَمُتُّ للإسلام بصلة. إننا نؤمن أنَّ النبيَّ أوصى بالقرآن والعترة ولم يقل افصلوا بينهما، إنَّ الأشخاص الذين يُحرِّفونَ القرآن والسُّنَّة باسم حُبِّ أهل البيت، وأولئك الذينَ يُحرِّفونَ فِكْرَ أهل البيت باسم القرآن والسُّنَّة مسيران خرجا عن سُنَّة الرسول. إننا بحاجة إلى العودة للقرآن والترويج له، لا أن نكتفي بالتلاوة والتجويد، فوجودهما لازمٌ، لكنهما لا يكفيان انهما وسيلتان، وليستا هدف. إنَّ الهدف من نزول القرآن هو نقل المفاهيم ولا ينبغي التغافل تحتَ طائلةِ الظواهر، ولا ينبغي أن يتحوَّلَ القرآن إلى أمرٍ تشريفي، وهو ما حصل بالفعل للأسف. فالقرآن مركزُ المعرفة والفكر ينبغي أن يكونَ شاقولَ الحياة والاقتصاد والسياسة والتعليم والتربية والحقوق والحكم والعلم والحضارة، وبعبارةٍ أخرى فالقرآنُ ليسَ حِكراً على فئةٍ خاصَّة، بل ينبغي أن يُصبِحَ كتابَ ومنهاجَ المُفكِّرينَ في الحوزة والجامعة أيضاً. وتنهضُ المُجتمعات القرآنية عندما تتضح معالم وأهداف القرآن في المُجتمع، عندها سننعُمُ بالمجتمع الأخلاقي والإنساني والعقلاني المتطوِّر والروحاني، وكُلُّ ذلكَ رهينٌ بالروحانية والقيم الإنسانية. عندما يتمُّ الحديث عن الأخلاق، فنحنُ لا نعني أخلاق مخلوقات الفضاء بل نقصدُ أخلاقاً بمراتب عملية، وهي من أولويات الحياة البشرية، تبدأ من طريقة ارتداء الملابس والتصرُّف في الأسرة، ومن طريقة الكلام

---

١ . شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، ج٣، ص١٣٠؛ بحار الأنوار، ج٣، ص٢٨٣.

٢ . «رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا»، مسند احمد بن حنبل، ج١، ص٨٦.

والأكل والنوم والنهوض والضحك والبكاء. الأخلاق القرآنية تختلف عن الأخلاق التي يتحدَّثُ عنها الفلاسفة الوجوديون، يتحدَّثونَ عن أخلاقٍ تشريفاتية وتتحول أحياناً إلى قضيةٍ تخصُّصيةٍ بحتة على شاكلة من يُريدُ أخذَ التخصص في موضوع ما. لكنَّ الأخلاق في المنظار القرآني تبدأ من التعاملات الفردية العادية ثمَّ تتدرَّجُ إلى المراتب العُليا، وعليه فإنَّ الأخلاقَ في جانبها العملي أو في مفهومها النظري سواءً في مفهومها الفردي أو مفهومها الاجتماعي، لا يمكن فصلها عن الخطابات الإلهية. ومن الوحي القرآني، وهذا من الدروس التي ينبغي تعلُّمها من الرسول. وأنَّ أيَّ عقدٍ أخلاقيٍّ أو اجتماعيٍّ أو أيَّ نوعٍ من الإجماع القيَمي المُخالف لذلك يُعدُّ فاقداً للقيمة. وليس مهماً مقولة الغربيين إنَّ الأخلاقَ أمرٌ عامٌ أو خاص، فكِلا البُعدين مُهمَّان، الأخلاق تقودُ الإنسان إلى التعادل في المُجتمع وكذلك الحكومة، ومن خلال مسطرة الوحي والعقل ومسطرة الحقوق والأخلاق، وكلاهما ذو بُعدٍ توحيدي، فلن يكون هناك تضادٌ وتعارضٌ بين الحقوق والأخلاق وهذا خلافٌ للحقوق والأخلاق في المدارس الأخرى، حيثُ يقول البعض: إنَّ نهاية الأخلاق هي بداية الحقوق، وبداية القانون، وعندما يسألونَ عن التعارض بين الحقوق والأخلاق، فبعض الأعمال تُصنَّفُ في خانة الحقوق وهي قانونيةٌ لكنها غير أخلاقية. وعليه نرى وجودَ تعارضٍ بين الحقوق والأخلاق ويظلُّ السؤال يُراوِحُ مكانهُ كيفَ سيتمُّ حلُّ هذا التعارض؟ وفي هذه المدرسة تكون الحقوق والأخلاق المُقابلة وكُلُّ مشروعيةٍ أخرى، تقفُ في الطرف الآخر محضَ أوهام، وعليه لا يمكن الحياة مع الأوهام وكُلُّ ما فعلناه لليوم يكفي وأنَّ الوهم يجلبُ أنواعَ الأزمات في حياة الإنسان.

الحقوق والأخلاق في المجتمع الإسلامي

سأنقُلُ لكم عدداً من نماذج الروايات والمناهج العملية للرسول الأكرم وأختم حديثي بها، وستُلاحظونَ أنَّ مسوَّدات السعادة الأخلاقية التي تَرِدُ في النظريات الجديدة ما هي إلا مقاومة خطرة وسُنَنٌ قديمة لجعل الحقوق والأخلاق ماديَّةً في كُلِّ مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية والتعليمية. لقد أوجدوا سوقاً مشتركة تتغذى من الجهل. قبلَ أن أخوضَ في الجزء الثاني من المحاضرة أودُّ التذكير أنهُ عندما نتحدَّثُ عن القيم فإنَّ

القيم الأخلاقية قابلةٌ للقياس مع القيم الاقتصادية وهي متشابهةٌ من جهةٍ ما، ولو سألنا ما هو المقصود بالقيم في المحيط الاقتصادي؟ وماهي المعايير في الاقتصاد، هل هي العرض والطلب أم أنها على أساس الحاجة الواقعية؟ عليه تكون القيمة تابعة للهدف وتابعة للحاجة، وكُلَّما يؤمنّ الهدف والحاجة أكثر يحظى بقيمةٍ أكبر. وكُلّ شيءٍ لا يُلبي الحاجة لا قيمة له، وهذا الأمر يصدقُ في مجال الأخلاق والقيم الأخلاقية من جهة، وهو نسبيٌّ، لأنَّ القيَم كونها أداةً وآليّةً في خدمة الهدف، نسبيةٌ نسبةً إلى الهدف المرجو، الا انها في الوقت نفسه حقيقةٌ واقعية وليست اعتباريةً محضة. ومثلما هو الحال في الاقتصاد فإنَّ القيَم ورُغمَ كونها اعتباريةً في الظاهر، والمال أمرٌ اعتباريٌّ في الظاهر لكنهُ يعتمدُ على حقيقة، وعليه فإنَّ حاجة الناس الحقيقية قائمة على هذه الاعتبارات. إذن فالنتيجة أنهُ كلما احتاج الناس إلى حاجةٍ ما، فهي ستكسب الاعتبار والقيمة، وكلما كانوا في غنىً عنها قلَّة قيمتها. إذن فإن قلَّت الحاجة المطلوبة وصَعُبَ الحصول عليها، فإنَّ قيمتها سترتفع وفق هذه الرؤية، لماذا؟ لأنَّ الحاجة إليها حقيقية. هذا من الجانب الاقتصادي. وهذا الأمر يصدق في الجانب الأخلاقي، فعندما يقولونَ إنَّ الصالح والطالح أمران نسبيان، فما هو الصالح وما هو الطالح؟ فإننا لا نستطيعُ أن نُقيّمَ أي شيءٍ حتى نفهمَ الغرضَ والهدف منه، لا يُمكننا وضعُ قيمةٍ له وسيكونُ بمقدور الإنسان أن يُجيبَ عما هو الجيّد وعما هو السيئ، حينما يعلمُ ما المقصود وماهي الحاجة التي ينبغي أن يُثمِّنها ولأيّ عملٍ سَتُستخدم. عليه فإنَّ التثمينَ سيكون تابعاً للهدف، وهكذا الحال في الاقتصاد.

دعونا نطرحُ مِثالاً أوضح: تُرى لماذا اجتمعنا في هذه القاعة؟ أي ما هو الهدف من المجيء إلى هذه الصالة؟ فإن لم يكن الهدف واضحاً لا يمكننا تحديد القيمة، ربما قال أحدهم إننا جئنا إلى هنا بهدف ممارسة رياضة السلَّة! ربما قال آخر لقد جئنا إلى هنا من أجل حوار العلمِ!. صحيحٌ لقد تغيَّرت الأهداف، وعليه فإنَّ لِكُلِّ هدفٍ مقدماتٍ جيدة وأخرى سيئة. فإن جئنا إلى هنا من أجل ممارسة كُرة السلَّة، عليه فإنَّ ما نفعلهُ الآن يبدو عملاً أحمقاً وغيرَ جيدٍ وقبيحاً للغاية. فإن كانَ الهدف ممارسة لعبة كرة السلة علينا أن نضع الكرة في الوسط، وأن نقومَ بخلع ملابسنا وممارسة اللعبة. أما لو كانَ الهدف هو الحضور

إلى الصالة من أجل الحوار العلمي، فسيكون من القُبحِ لو أنَّ أحدهم رمى كرة السلة في الوسط، عندها سيشكُّ الجميع في سلامة عقله ومسؤوليته الأخلاقية. إذن العملُ سيكونُ تابعاً للهدف وسيكونُ مفيداً أو ضاراً قياساً للهدف، والأمرُ في الاقتصاد هكذا وكذا الحال في القيم الأخلاقية.

لو قيل لنا ما هو الفرق بين العلاقات الجنسية غير المشروعة مع المشروعة منها؟ ربما لا يكونُ هناك فرقٌ ملموسٌ في الأداء الجسماني، لكنهُ من الناحية الأخلاقية يختلفُ كثيراً، فهناكَ فرقٌ أخلاقيٌّ وقيَمي. إذن فإنَّ العمل المُجرد سيكون تارةً إيجابياً وتارةً سلبياً، لأنَّ الهدف مختلف مثل ما اراده الرسول الأكرم ﷺ من انه إذا كانَ الهدف هو باتجاه التكامل الإنساني فلا بأس، لأنه سيظهرُ أمامنا جدولٌ من الأعمال السلبية والإيجابية وهي عبارةٌ عن الواجب والحرام والمُستحب والمكروه والجيد والسيئ، الأخلاقي وغير الأخلاقي، المشروع وغير المشروع، هكذا سيكون المعنى. فإن كانَ أحدهم يرفضُ الهدف الذي حدَّدَهُ الأنبياء والرسول الأكرم ﷺ، سيقولُ إنَّ هذه الأمور خاصةٌ بالإنسان الأبدي، وهو سيرفضُ أنَّ شقاء الإنسان أو سعادتهُ رهينٌ بأعماله، وسيرفض الأبدية والجنة والنار، سيرفض الحق والباطل، عليه فإنَّ هدفَ مثلِ هؤلاء سوفَ لن يكونَ صوبَ التكامل الإنساني، وانما سيكون الهدف هو الحصول على اللذة وحسب. وإذا تغير الهدف فإنَّ قيمة الأعمال الجيدة والسيئة ستتغيَّر، عندها سيقول ذلك الإنسان الحقيقة ويواجهنا في المجتمع أُناسٌ يرفضونَ القول لهم عن الأعمال الصحيحة والمغلوطة أو الحلال والحرام، وسيكون جوابهم أن الأعمال التي توصلهم إلى هدفهم هي الصحيحة ولا غير. وسيكونُ ما يُوصلهُ إلى هدفه ذا قيمة، وسيكون كلُّ شيءٍ يُبعدهُ عن هدفهِ قبيحاً وغيرَ أخلاقي وغيرَ مشروع وغيرَ صحيح وغيرَ معقول، وهنا يتبين الفارق بين الأخلاق والنظرة الشمولية، فإن كانَ الهدف من هذه الأعمال عدمَ القبول بالمعنويات وكونَ الإنسان موجوداً أبدياً بل موجوداً مادياً، يُعمِّرُ لخمسين أو ستين عاماً، عندها سيكون الجواب أنَّ مثل هذا الإنسان سيرفض الأخلاق والشريعة، وسيقول إنها عبارةٌ عن خُرافات. وعندما يكون الهدف هو أنَّ الإنسان موجودٌ أبدي، فإنَّ الأمور ستكون لها قيمةٌ عند الإنسان طبقاً لما قاله الرسول الأكرم ﷺ في نظرته

التوحيدية الشمولية. وعندها ستتغير الأمور من صغيرها إلى كبيرها في الأخلاق.

مجابهة المنافقين

سأنقل لكم بعضَ العبارات التي دونتُها هنا من نبوءات الرسول ﷺ حول مستقبل المجتمع الإسلامي، حيثُ يقول: إنَّ المجتمع سَيُدِينُ بالإسلام لكنهُ سيكون من الناحية العملية بعيداً عن الإسلام والقيم الإسلامية، حيثُ يقول ﷺ: «سيأتي من بعدي أقوامٌ يأكلونَ طيبات الطعام وألوانها ويركبون الدَّواب، ويتزيَّنونَ بزينة المرأة لزوجها، ويَتَبرَّجونَ تَبَرُّجَ النساء، وزيُّهُم زيُّ الملوك الجبابرة»[1]. أي أنَّ المُجتمع الإسلامي سيتحوَّلُ إلى حياة الملوك ويُسرِف في الأمور ولا يُراعي حقوقَ الضعفاء. ويقول الرسول الأكرم أيضاً: «هُم مُنافقو هذه الأمة في آخر الزمان، لأنَّ هؤلاء لم يَرِدُوا في الحياة الروحانية والإيمانية للإسلام، يُزَخْرِفُونَ المساجد، ليست هِمَّتُهُم إلَّا الدنيا، عاكِفونَ عليها مُعتمدُونَ فيها»[2]. ويرى الرسول الأكرم ﷺ، أنَّ هؤلاء ليسوا من المنسوبينَ للرسول وهم من مُنافقي الأمة. وايضا من الأمور التي تخَوَّفَ منها الرسول، هو التحوُّل من عبادة الرب إلى عبادة الدولار والذهب.

لقد نجحَ الرسولُ في تحطيم الأصنام، اللاتَ والعزى وهُبَل ومناةَ، لكنَّ المال والذهب باتت أصنامهم الجديدة. ويؤكد الرسول ﷺ أنَّ هؤلاء يستمرُّونَ في طُغيانهم وعُميهِم حتى يطغوا ويبتروا. ومن جملة الأمور التي نهى عنها الرسول طبقاً للشرع الإسلامي الرِبا بأنواعهِ المُختلفة، ومنها استثمار الناس وتحصيلُ أموالهم دونَ عناء أو جُهد، لأنَّ الإسلام يرى أنَّ المال الحلال هو المال الذي يأتي جرَّاءَ عمل صالح في المُجتمع، أو إنتاج ينفعُ الاقتصادَ أو إنتاج للعلوم أو توزيع للبضائع بصورةٍ عادلة. أو أن يقوم الإنسان بجهدٍ فكريٍّ وإداريٍّ وعملي، ومن يفعل ذلك ويحصل على الأموال فإنهُ ينفعُ نفسهُ أولاً، ومن ثَمَّ المُجتمعَ والخلق ثانياً، ولكن لو كانَ العكسُ، فإنَّ هذه الأموال والعائدات ستكونُ حراماً، الربا هو نموذجٌ بارزٌ للحرام.

لو افترضنا أنَّ مجتمعاً ما يقول إنَّهُ يرضى بالمال مُقابل العمل، أو أنهُ يقبلُ المالَ بعدَ

١ . سفينة البحار، الشيخ عباس القمي، ج٣، ص٤٩٢؛ وسائل الشيعة،الشيخ الحر العاملي، ج١٧، ص٣٠٧.
٢ . المصدر السابق.

أداءِ عملٍ ما، وهذا العمل يؤدي إلى تقديم خدمة للمجتمع، وأن يكون الشعار في ذلك المُجتمع: «لا أموالَ دونَ عناءٍ وجُهد»، فلو تركنا الجانب الروحاني من القضية، سنُلاحظُ أنَّ هذا المُجتمع سيتطوَّرُ من الناحية المادية على أقل التقادير. خلافاً للمجتمع الذي يُحاول فيه الناس أن يخدعوا بعضهم بعضاً، ويحاول الجميع الحصول على أكبر الأرباح من أقل الجهد والعناء. هذه الثقافة ثقافةٌ غيرُ قرآنية، وينبغي أن يُحاربَ الرسول هذه الثقافة كما فعلَ، كما الإمام الصادق عليه‌السلام يقول: «إذا أرادَ الله بقومٍ هلاكاً، ظهرَ فيهم الربا»[1]. والهلاك هنا في الدرجة الأولى الهلاك المعنوي، ويعني أنَّ الاستثمار المالي بمعنى الاستغلال هو منشأُ الهلاك، لأنَّ ذلك سيؤدي إلى ضرب جذور الإنفاق. ربما يعرف البعض منكم سبب إبعاد أبي ذرٍ إلى الربذة، لقد تمَّ الأمرُ بعدَ مواجهةٍ بينهُ وبينَ كعب الأحبار العالِمِ اليهودي[2]، ووضعهُ الحاكم مُفتياً ليوجِّهَ كنزَ الأموال والربا والفساد، حيثُ كانَ أبو ذر يصرح بان رسول الله علَّمَهُ أنَّهُ لا يجوزُ لفئةٍ قليلةٍ أن تنعُمَ دونما عناء بالأموالِ دونَ إنفاقها، وينبغي أن يُسأَلَ الناس من أينَ أتيتُم بالثروة والذهب؟ وأينَ صرفتموها في حياتكم؟ وسيكون هذا بالطبع سؤال الليلة الأولى في القبر، لكنَّ الشيءَ الذي يُقال لنا على الدوام عن هذا الأمر في المنابر إنَّ الملَكين يسألان ما اسمُك؟ من أبوك؟ ما هو رقم بطاقتك؟ ترى هل هو امتحانُ الثانوية؟ الحقيقة ليست كذلك، إنهُ تمثيلٌ لما سيجري في الليلة الأولى، الأهمُ من هذه الأسئلة هو المُتعلِّق بتصرفاتنا الإنسانية في الحياة. في الثروة التي كسبناها وطريقة صرفها، هذه هي الأسئلة المُهِمَّة، وقبل لأن يُحاكمنا الله فلنحاكم أنفسنا.

هناكَ روايةٌ عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله تقول: «موتوا قبلَ أن تموتوا حاسِبوا قبلَ أن تُحاسبوا»[3]. وأيضاً روي عن الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله انه قال: «عليكم بالاقتصاد فما افتقر قوم قط اقتصدوا»[4]. وهذه دعوة من الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله للاعتدال في الحياة، ولو فعلنا ذلك لن يبقى هناك

---

١ . وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٢٣، رقم الحديث١٧.

٢ . تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، ج١، ص٢٧٦ و ٢٧٧.

٣ . بحار الأنوار، ج٧٢، ص٥٩؛ سنن الترمذي،كتاب الزهد، باب ما جاء فى قصر الأمل؛ تحفة الأحوذي فى شرح جامع الترمذي، ج٦، ص٦٢٥.

٤ . كنز العمال، ج ٣، ص ٥٣.

فقيرٌ ولا جائعٌ ولا مسكين، ولو فعلَ الناس ذلك فسوفَ لن يبقى فقيرٌ على الأرض. هناكَ روايةٌ لطيفةٌ تُروى عن النبي الأكرم ﷺ[١]: أنَّ الفقراء والمحرومين وعامة الناس كانوا يلتفونَ حولَ الرسول في المسجد وفي حِلِّهِ وترحالِه ولم يُرضي ذلكَ الأشراف وأصحاب الثروة في مكة، ولم يكونوا يَعودونَ الرسول خاصةً عندما كانَ الأمرُ يتعلقُ بالقتال والجهاد. وبعدَ أن استَتبَّ الأمرُ للنبي وللدين الإسلامي، فكَّرَ هؤلاء في التقرب من النبي بهدف الحصول على المكانة والوجاهة من أجل الاستمرار في حياتهم، فبدأوا بزيارة الرسول، أي عندما تحوَّلت الرسالة من الجهاد إلى حالة الدولة المستقرَّة، واستتبَّ الأمر للإسلام عندها بدأ النفاق والخديعة مرةً أخرى، لأنَّ هؤلاء لم يحلوا لهم أن يخسروا شيئاً من مالٍ أو نفسٍ، فكَّروا في الغنائم والمكاسب. فبعثَ هؤلاء الأشراف وأكلةُ الحرام والسُّحتِ والربا الذينَ عبَّرَ عنهم الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه بالمُرفَّهين المُنعَّمين، الذينَ لم يَمسُّهم الأذى، ولم يُجاهدوا كما جاهدَ الباقون، بعثوا إلى الرسول يقولون: «يا رسول الله! لو نحيت هؤلاء عنك، حتى نخلو بك، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد، ثم إذا انصرفنا، فإن شئت فأعدهم إلى مجلسك!». عندها نَزَلَتْ الآية الثامنة والعشرون من سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ * وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٢]. وبعدَما نزلت الآية الكريمة، تقول الرواية تَغييرَ حالُ النبي ﷺ، فبدأ يركض خلفَ أصحابه من الفقراء والمُعدَمين الذينَ جاهدوا معه، وحاربوا معه، وتحمَّلوا العناء معه. حيثُ كانَ البعضُ قد فهِمَ أنَّ وفداً من الأشراف اختلى بالرسول فقالوا لا مكان لنا هنا، فلنرحل. وتقول الرواية ما معناه إنَّ النبي قامَ يلتمِسهُم، فأصابَهُم في مؤَخِّر المسجد، فرأى البعضَ كَسِيْرَ القلب، ورأى آخرينَ يُصلُّونَ ويدعُون. نعم كانوا هؤلاء أُناسٌ جاهدوا مع النبي وتذوَّقوا الحلوَ والمُرَّ مع النبي، دافعوا عن الإسلام وعن النبي الأكرم ﷺ، وعندما وَصَلَ الرسول ﷺ إليهم قال بصوتٍ مُرتفع: «الحمدُ لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أُصبِّرَ

---

١. راجع: مجمع البيان، أمين الإسلام الطبرسي، ج٤، ص١٤٩؛ تفسير الطبري، ج١٨، ص٢٩٧.

٢. الكهف: ٢٨.

نفسي معكم»، ثُمَّ قال ﷺ: «معكم المحيا ومعكم الممات»[١]. وكرَّرَ ذلكَ مرات، ورَجَعَ مُخاطباً وفدَ الأشراف: أن لا علاقة في الإسلام على أساس الغنى والفقر، «معكم المحيا ومعكم الممات»، قالَ هذه الجملة إلى هؤلاء الفقراء في المسجد.

نعم إنَّ العلاقة في الإسلام لا تُبنى على أساس هذا غنيٌّ وهذا فقير، على أساس الأشراف والرعية والأبيض والأسود، الكُلّ سواسيةٌ «الناس سواء كأسنان المشط»[٢]، وهناك الكثير من هذه التعابير رويت عن الرسول ﷺ.

---

١ . راجع: مجمع البيان، أمين الإسلام الطبرسي، ج٤، ص١٤٩؛ تفسير الطبري، ج١٨، ص٢٩٧.

٢ . كنز العمال، ج ٩، ص ٣٨.

منهاج لغد أفضل محمد الرسول الأفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن وكل البشرية نرتبط بالرسول الاكرم ﷺ عن بعد من خلال أوصافٍ عرفناها عن سيرته، وهناك وصفٌ للرسول نُقل عن الإمام الحسين عليه السلام.

دعوني أبدأ محاضرتي معكم حول وصف الإمام الحسين عليه السلام للرسول كي نقترب إلى حقيقة الرسول الأكرم ﷺ أكثر فأكثر.

يقول الإمام الحسين عليه السلام[1]: كان الرسول ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر؛ حيث كان يكتم الهموم والأحزان في نفسه ولا يظهرها للأمة، ويضيف عليه السلام: ليست له راحة؛ أي أنه كان لا ينفك يفكر في الأمة ويضيف أيضاً كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة؛ أي إنه ﷺ كان يتكلم أثناء الحاجة وعندما يكون ذلك مفيداً، أي إنه كان يلتزم الصمت إلا إذا كان كلامه ذا فائدة أو لكشف حقيقة أو دفاع عن مظلومية أو ينهى عن منكر، ويضيف عليه السلام كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير، دمثا [لينا] ليس بالجافي ولا بالمهين؛ كان الرسول يُسخّر القلوب ولم يهابه أحد، تعظم عنده النعمة وإن دقت؛ لم يكن يريد السوء بأحدٍ ولم يغضب قط لأمور الدنيا، كان متسامحاً في حقه الشخصي لكنه في باب حقوق الإنسان كان مُدوِّياً ويغضب من فوره كان يغضب من أجل العقيدة ويغضب من أجل الامة ويقول الإمام الحسين عليه السلام: ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر؛ ما غضب لشيء

---

١ . معاني الأخبار،ج١، ص٧٩-٨٤ .

حتى ينتصر له أي أنه كان يقف مدافعاً عن الحق حتى اللحظة الأخيرة ولم يُرَ ضاحكاً بصوتٍ عالٍ[١]، لكن البسمة لم تفارق شفتيه كان يخصص وقتاً محدداً لمشاكل الامة وحلها حيث يقول الإمام الحسين عليه السلام: فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم... ويقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته.

وكان يقول: فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يقدر على إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة. ويتحدث الإمام الحسين عليه السلام عن علاقة الرسول بالأمة ويقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله ... يؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه؛ كان لا تأخذه في الله لومة لائم وكان يُدافع عن المبادئ ويردع المسيء بغض النظر عن كونه صديقاً أو عدواً كلما بدا عملٌ صالحٌ من أحدٍ أثنى عليه وكلما بدا عمل طالح من أحدهم عاب عليه ووبخه حتى وإن كان من المقربين لديه.

هكذا هي أخلاق النبي صلى الله عليه وآله مع عامة وخاصة الناس، يقول عليه السلام: كان يقبح القبيح ويوهنه، معتدل الامر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم أفضلهم عنده أعمهم نصيحة للمسلمين، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة[٢]؛ وكان الملاك هو من يواسي الناس في مشاكلهم ومصائبهم ويُساعدهم على حلها، هذا هو منطق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد ذكرناه لكم ومن أقرب الناس إليه أي من الإمام الحسين عليه السلام الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله: «حسين مني وأنا من حسين».[٣] وإذا دققنا أعزائي الحضور في هذا الحديث سنعرف أن معنى هذا الحديث هو أن كلا الشخصين هو شخص واحد، أي أنهما وحدةٌ واحدةٌ في

---

١ . الشمائل للترمذي، ص ١٨، ٣١؛ صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٦٧؛ بحارالأنوار، ج ١٦، ص ٢٢٦؛ الدرالمنثور، ج ٦، ص ٨٤.

٢ . بحار الأنوار، ج١٦، ص١٥٠، تاريخ نبينا صلى الله عليه وآله، باب أوصافه...، الحديث ٤؛ كنزالعمال ج٧، ص ١٦٣؛ كتاب الشمائل من قسم الأفعال، باب في حليته صلى الله عليه وآله، الحديث ١٨٥٣٥.

٣ . المعجم الكبير، ج ٣ ص ٣٢؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ١٧٢، وفي الحديث: " ١٤. من باب فضائل الحسن والحسين عليهما السلام من كتاب الفضائل؛ مقتل الحسين عليه السلام، ج ١، ص ١٤٦؛ احقاق الحق، ج ١٠، ص ٦١٧ - ٦١٩؛ البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٥؛ مصنف ابن أبي شيبة، ج ٦، ص ٣٨٠.

الفكر والممارسة، ثم يؤكد الإمام عليه السلام على أن أكثر الشخصيات احتراماً عند الرسول من كان يرفع عن كاهل الامة لا أن يكون عالةً على المجتمع مادياً أو فكرياً، ثم يُضيف في أوصاف الرسول صلى الله عليه وآله: من سأله حاجة لم يرجع إلا بها أو بميسور من القول؛ بهذه الطريقة يكسب هدوء واستقرار الناس حتى إن أعداءه لم يخرجوا من عند النبي صلى الله عليه وآله مُتنفّرين حيث وصف الرسول بأنه: قد وسع الناس منه خلقه، وصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء؛ وكان عادلاً بين الناس في النظر والاستماع، لاحظوا أن الرسول أيها الأخوة والأخوات كان يستمع للأخرين ويراعي أبسط قوانين حقوق الإنسان ويوزع بالتساوي نظراته بين الناس، وتقول الرواية أن الرسول كان يوزع نظراته بين مستمعيه والحاضرين في مجلسه ويتواصل معهم وكأنه يستفيد منهم ولم يقل لمحاوريه إنه يعلم كل شيء لم يحتقر أحداً حين يتكلم ويشعره بأن كلامه مهم حتى لا يشعر بالخجل.

ويضيف الإمام الحسين عليه السلام إن مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم؛ كان الكل مؤدباً في حضرت النبي صلى الله عليه وآله كان مجلسه متعادلاً يتحدث فيه الجميع على أساس التقوى، يقول الإمام إن الرسول كان يُكنّ الاحترام للكبار في المجلس ويتعامل برأفةٍ وحنانٍ مع الأصغر سناً، متواضعين يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب؛ أي إنَّ الأصحاب كانوا يُقدمون المحتاج ويحفظون الغريب وكان الرسول صلى الله عليه وآله يقوم لمجرد دخول كل غريب ويهتم بهم ويحفظ حقوقهم حتى وإن لم يكن الغريب ليحفظها ولم يجعل الغريب يشعر بغربته، كانت الابتسامة تعلو الرسول تعلو شفتيه رغم أن في داخله حُزناً كثيراً، حزن وهموم الأمة ومشاكلها، لم يرَ أحدٌ الرسول وقد قطّبَ حاجبيه، إلا عندما يكون الأمر متعلقاً بإحقاق حقٍ وردِّ مظلمةٍ لأحد فقد كان صلى الله عليه وآله سهل الخلق و يسهل الارتباط معه فلم يكن هناك حاجزٌ أمام من يُريد أن يُحادث الرسول صلى الله عليه وآله، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا فحّاشٍ ولا عيّابٍ ولا مدّاح، كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيب فيه مؤمليه.

ويضيف الإمام الحسين عليه السلام: إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم انصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده

حديث أوليهم؛ بالطبع تطرقت إلى بعض خصال الرسول ﷺ من خلال الأوصاف التي ذكرها الإمام الحسين عليه السلام.

فهذه الشخصية التي هزّت التاريخ، وقد خاض الرسول خلال عقدٍ من حكومته حوالي ثمانين غزوة شارك بها بشكل مباشر أو من خلال إرسال السرايا وتجهيز الجند، وينبغي ملاحظة كافة أبعاد وزوايا حياة الرسول حيث كانت له ﷺ لحظات قدسية فاخرة بعيدة عن منال البشر ومع ذلك يمكن للإنسان أن يقتدي بها بالعمل الصالح والعيش السعيد، ترى من هو الرسول الأكرم ﷺ؟

الرسول كان إنساناً كاملاً دون خطأ، كان إنساناً دون معصية، كانَ إنساناً دونما سوء فهمٍ بشري وجاء أيضاً بمفاهيم واضحة صريحة شفافة في الشريعة والأخلاق والعقائد، ورغم أنه كان رسولاً غير قابلٍ للوصول من قبلنا نحن البشر، لكن مفاهيم وتعاليم هذا الرسول أصبحت بين أيدينا اليوم وهي قابلة للفهم بالنسبة لنا وقابلة للتنفيذ من قبل المسلمين مع حفظ المراتب، ليس الأنبياء النوابغ الذين تعرفهم بالطبع لا نُريد النيل من النوابغ والنوابغ هم مجموعة من الأشخاص ذو الذهن الوقاد ولذلك فهم يذوبون في المجتمع ويدخلون في دوامة صمتٍ في عصرهم بغيةَ تغيره ولو لم يكن النوابغ موجودين لكان البشر مازالوا يعيشون في الكهوف ولو لم يكن الأنبياء موجودين لم يكن النوابغ ليستطيعوا أن يقوموا بأي تغييرٍ في صناعة تاريخ البشر، وعليه يمكن القول إنه لولا الأنبياء فإن البشر كان في الكهوف والنوابغ شخصياتٌ تتصارع فيما بينها من أجل صناعة غدٍ أفضل وعليه فهم جماعةٌ يُعرضون للأذى والضغوط من داخل مجاميعهم والمجتمع من حولهم، لأنهم غير متناسقين مع عصرهم وهم مُتقدمون على زمانهم، وعليه فإن أصحاب الذهن الوقاد يظهرون بسمةً مرة على شفاههم ويقول البعض إن البشر النموذجيين والنوابغ هم الذين علموا الآخرين الضحك، لأنهم يتحملون المصاعب عوضاً عن الجميع وعليه أجبروا على اختراع الضحك ليُسكّنوا أنفسهم قليلاً، لأنهم كانوا أسرع من سائر أبناء جلدتهم في درك الأمور وعندها يصبحون حيواناً ضاحكاً حسب ما يقول أهل المنطق ولهذا فإن النبوغ يكون باهظ التكليف على أصحابه، لأنهم يقعون في المشاكل و الحرج وكذلك مخاطبيهم لكن الأنبياء فوق النوابغ بدرجاتٍ كبيرة والنبوة ليست من نوع النبوغ العادي للبشر وتكون الفاصلة

بينهم وبين النوابغ أعلى من الفاصلة بين الناس العاديين والنوابغ ذلك أن الأمر يختلف.

وهناك عالم آخر يمكننا درك ذلك، لأننا لم نصبح أنبياء وبما أننا لسنا أنبياء لذلك لا يمكننا درك ذلك بصورةٍ جيدة، إن شجاعة الأنبياء ليست ضرباً من الجنون بل هي ناجمة عن اليقين ويطلق عليها مجازاً الجنون الذي يعطي الإنسان قدرة التكلم وكان هذا الإيمان على طول التاريخ هو الذي أخل بحسابات الماديين وسيخل أيضاً في المستقبل، ويعتبر الجنون من الاوصاف التي أطلقت على الأنبياء على مر التاريخ، حتى ان القرآن الكريم أشار إلى هذه النكتة أن كل الأنبياء كانوا محطَّ استهزاءٍ من قبل مجتمعاتهم، لا بل كانوا ينعتون الأنبياء بالمجانين وأنهم أناسٌ غير طبيعيين وأنهم أناسٌ يتحدثون بما يخالف العرف والمنطق السائد في الدنيا، لقد تحدث الأنبياء بما يسبق زمانهم وكانوا متقدمين على النوابغ وجروا التاريخ عبر نظرياتهم وهم وحيدون كان هذا ديدن الأنبياء، وعندما نصل إلى خاتم الأنبياء فإن الموقف يختلف مع سائر الأنبياء واليقين ليس بالأمر الهين حيث بإمكانه أن يُفتتت الجبال ورغم أن الناس وقفوا بوجه يقين الأنبياء حتى شكك البعض في يقين الأنبياء لكن اليقين كان مبدأ التطورات الكبيرة من الجوانب المادية والمعنوية في التاريخ وعندما تفقد أمةٌ اليقين كأنما فقدت كل شيء وكل من يؤمن باليقين لن يبلغ مرحلة فلسفية اسمها «لا أدري»، فهؤلاء يبلغون مرحلةً لا يعلمون أنه الليل أو النهار، إنه الحق أو الباطل، وذات يوم كان هناك إثنان من أصحاب هذه المدرسة يتباحثون فقال الأول للثاني إنك على صواب، وردّ الثاني: وأنت كذلك، فسمع ثالثٌ حديث الرجلين فقال: كيف تكونا على حق؟ فقالا له: إنك على حقٍ أيضاً.

هذه نظرية البرولاسيم والنسبية تحديداً، أي الحق معك ومع مخاطبك الذي يتصرف على النقيض منك، لقد جاء الأنبياء لمواجهة هذه النظرية وأمثالها ولم يكن الأنبياء مؤيدين للجزم بصورةٍ بلهاء ولم يكونوا أنصاراً للشك أيضاً إلا إذا كان مُقدماً أي منزلاً وسط الطريق على اعتبار أنه محطةٌ مؤقتة وليس شكاً على أنه منزلٌ دائمٌ يضع فيه الإنسان أثقاله.

لقد جاء هؤلاء وقالوا للمؤمنين: عندما لا تعلمون شيئاً في بداية الأمر قولوا «لا أدري»، وعندما علمتم وآمنتم قولوا بقوةٍ «ندري»، لأننا نصبر و نرى ولسنا عمياً ونعرف الفرق بين الحق والباطل ونقف للدفاع عن الحقيقة والعدالة وليست الفضائل والرذائل متساويةً

عندنا وكذلك بالنسبة إلى كل الأعمال إن لنا موقفاً وهذا يقينٌ واعٍ وليس يقيناً للعوام وقد حوّل هذا اليقين الناس نحيفي البنية والمصابين بفقر الدم على مدى التاريخ إلى أشخاص شجعان يمكنهم تغيير الخرائط السياسية والطبيعية والتاريخية حتى قبل أن يتعلموها ويتلقفوها، لكن النبوة ليست من نوع الإيمان واليقين البشري العادي، بل هو شيءٌ أعلى من هذا و ذاك، رغم أن النبوة أعلى مرتبة من الإيمان واليقين البشري الذي يبدو ضروري ومهم بالنسبة للبشر إلا أنها لا تتأثر بالضغوط مهما كبرت، على سبيل المثال فلو قال أربعةٌ أو أربعون أو أربع مائةٍ بل أربعة آلاف بل حتى أربعة ملايين نفرٍ أمام النبي وأعلنوا أن جمع اثنين مع اثنين لا يساوي أربعة، فإنَّ يقينه الواعي لا يسمح له بالقول بما يذهب إليه الآخرون، لأن يقينه قائم على علم ووعي وعينية ولا فرق إن وقفَ ضدَّ أربعة أفرادٍ أو أربعة مليارات آدمي، وهنا قال الرسول في تأكيد منهجه وصحَّة طريقه: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته**».[١]

وكذلك عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها**»[٢]، فمنطق هؤلاء أن إثنين زائداً إثنين يساوي أربعة، حتى لو وقف ضدهم أربعمائة ألف يقولون إن الناتج هو خمسة.

لقد أدى الرسول الأكرم خدمتين كبيرتين للبشر؛ الأولى خدمة روحانية ومعرفية، والثانية خدمة حقوقية واجتماعية كبيرة سنتعرض لها مروراً، من أكبر الخدمات التي قام بها الرسول صلى الله عليه وآله للبشرية هو ربط الإنسان بربه وبالعكس، أي إن الرسول ربط الإنسان بربه على الدوام، إلى ذلك أوصل صوت الإله إلى البشر بكل أمانة وعصمة وهذا عمل كبير جداً، كذلك علمنا الرسول كيف نسمي الرب وبأي الأسماء نناديه ونناجيه وكيف نطلب منه الأشياء وعلمنا التوحيد والمعاد وارتباط المعاش بالمعاد والتعامل بين المعاد والمعنى ومنهجية التحرك من الدنيا صوب الآخرة دون أن يؤثّر على دنيانا ودون أن يكترث بواقعنا الطبيعي ولم نكن لنبلغ أياً من هذه الأمور وحدنا لو لم يكن الرسول لقمنا بخلط بعض الأمور ببعضها وشيئاً من الخرافات، لقد أدى الرسول خدمة كبيرة للبشرية وليست هذه

---

١ . سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٨٤.

٢ . نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٥ (كتابه الى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة).

من بنات الاختراع إنها أمورٌ عينية فقد وصف لنا الرسول الله سبحانه وتعالى فلو لم يكن يفعل ذلك لعمهنا بين عبادة الأصنام والله والآلهة المتعددة، وكيف كان لنا أن نفعل ذلك ألم تكن الشعوب التي تعبد الأصنام مثل التابوئية والتوتنية تنشد الوصول إلى الحقيقة؟

كان هؤلاء ينشدون الله والحقيقة لكنهم وصلوا إلى هذا الواقع، لأنهم لم يدركوا الرسول الأكرم ولو كان تم ذلك لبحثوا عن الحقيقة لكنهم عجزوا عن تحقيق كُل ذلك، انظروا إلى ما بدأوا به وكيف انتهوا وماذا أرادوا وما حصلوا عليه، لقد عرّفنا الرسول ووصف لنا الله وأنقذنا من الإلحاد بكافة أنواعه البسيط والمعقد منه وقد أنقذنا الرسول من أنواع الروحانيات وعبادة الأوثان والسحر والأحاديث الشيطانية والرياضات الخاطئة وغير الإنسانية والشطحيات وكل العناوين الخاطئة تجاه الرب في الدنيا، لقد أنقذنا الرسول الأكرم ﷺ من كل هذه العناوين، ورغم أنه هزم النظريات الماتريالية والمادية فقد فتح لنا آفاق ما وراء الطبيعة بالشكل الذي لا يمكننا فتحها وحدنا، لقد علمنا الرسول كيف نكون أناساً وأن نبتعد عن البقر والمراعي والزواحف وإلى غير ذلك حتى لا يتم أخذنا بصورة الحيوانات اشتباهاً، قد علمنا الرسول ﷺ كيف نكون إنسانيين وعلمنا من جهةٍ أخرى أن ننشد الحقيقة وهو طريق الصواب وهذا هو بيت القصد ولا ينبغي أن نخلط الله مع أوهامنا، إنها خدمة عظيمة قدمها لنا الرسول دون أن نعلم، إلهي شكراً وحمداً لك أن سمحت لنا بمناجاتك وأن ندعوك ونجري على ألسنتنا اسمك المقدس وأن نناديك أنّى شئنا وبأية صورةٍ شئنا، شكراً لك يارب، أن علمتنا عبر أنبيائك ونبيك الخاتم كيف نناجيك وكيف نصلي لك وكيف نستمد العون منك، هذه تعاليم كبيرة اذهبوا إلى حلقات العرفان والروحانيات المختلفة الشرقية والغربية منها في العالم لتجدون الإنسان أحوج ما يكون بحاجةٍ إلى هذه التعليمات، لكننا اليوم لا نستفيد من هذه المباحث، إنها مساعدة للبشرية بشكل كبير، أنتم تعلمون أن الفلاسفة الإلهيين بذلوا كل ما في وسعهم على مر التاريخ ليقتربوا إلى الله زلفة، بدءاً من إثبات علة العلل حيث لم يرتقوا إلى أعلى منها درجةً ولم يسمحوا لأنفسهم أن ينادوا الرب في مناجاتهم بهذه الأسماء، أي علة العلل أو واجب الوجود، وكذلك العرفان البشري حيث لم يستطع الاقتراب من حقيقة الرب بعيداً عن الأنبياء ربما تسنى لهم استشمام ذلك عن بعدٍ ورجماً بالغيب لا أكثر لكن الكلام الذي يتحدث به عرفاء البشر في

مشارق الأرض ومغاربها رغم العناء الذي تكبدوه لا يعد جل كلام وتصوير الأنبياء عن الله سبحانه وتعالى، شتَّان بين التوحيد الذي طرحه الأنبياء والتوحيد الذي دعا له العرفاء، وشتان بين وحدة الوجود عند الصوفية ووحدة الوجود الإلهية وهي غير وحدة الوجود التي ينادي بها الماديون، وحدة الوجود الإلهية لها تعابير مختلفة من الأفلاطونيين والرواقيين إلى عظماء أمثال ابن عربي وآخرون ورغم أن كل الفلاسفة والعرفاء الإلهيين مأجورون وكلٌ خدم حسب وسعه وخدماتهم كانت كبيرة للمعارف البشرية حيث أرادوا فهم توحيد الأنبياء وإفهامه للأخرين، لكن السر الرئيس لهذا العالم وهذه الحياة بيد الأنبياء خاصةً خاتم الأنبياء ولا غير، للأسف فإنني لست من أجل العبادة والروحانية الكبيرة لكنني أفهم أنه لولا الادعاء الأول للمعصومين الإلهيين لم أكن أعرف بما انادي رب العالمين وكيف أتحدث معه ولم يكن هذا المقام مقام إظهار المصطلحات الأدبية والكلام الذي ما أنزل الله به من سلطان فالأمر خطير جداً والأمر يخص أبدية الإنسان ومواجهة الكلام المطلق، فلو نظرتم إلى أكثر المساحات العقلية جهداً وألطفها كشفاً عند عرفاء البشر في الشرق والغرب بدءاً من مدارس العرفان اليونانيين و مروراً بالهند والصين، فلو كان لدينا تأمل ولو عابر على هذه المدارس لرأينا أن سعي هؤلاء كان نجيباً ومضموناً ولكنه فاشل في آنٍ واحد، ولو لم نكن مسلحين اليوم بالتعاليم النبوية لما وراء الطبيعة ولولا معرفة الله عز وجل وهذه العقلانية التي تُعدُّ منجزاً نبوياً لو لم تكن هذه موجودة اليوم لكنَّا اليوم عُمياً أو أشبه بذلك لموضوعات ما وراء الطبيعة وللملكوت العالم، لقد قلتها مسبقاً لو أننا نتمتع بالروحانيات المبهمة أو عشقٍ مجملٍ لكنَّا أمام أنواعٍ من الخرافات والشرك وحتى الجريمة أحياناً ولولا تعاليم الرسول لكنا اليوم كالهنود الحمر ندور حول النار أو نقوم بذبح فلذات أكبادنا أمام السحرة تقرباً لله، أو أن نقوم بدفن المرأة الحية في قبر زوجها كي يرضى عنا الرب، أو أن نتقرب إلى الله عبر جلد أنفسنا أو قتلها بصورةٍ جماعية وهذه الأمور مستمرة إلى يومنا هذا في حلقات العرفان الشرقية والغربية في العالم كما كانت موجودة منذ الألفيات السابقة، هذا هو المصير المحتوم عندما لا يختار الإنسان الطريق الصحيح للتقرب من الله عبر الأنبياء ونريد تلقي روحانيات مبهمة ومجملة من أجل ذلك ينبغي القيام بمثل هذه الأعمال وينبغي

الوقوف في الماء المثلَّج في فصل الشتاء ساعاتٍ من أجل التركيز والتقرب إلى الله والثواب أو تكرار أعمال شيطانية تقرباً لله ومن بين هذه الفرق والجماعات نجد خيطاً من الروحانيات والأمور الباطنية التي تقود كلٌّ منها إلى جانبٍ من الحقيقة، لكنها مخلوطة بالشرك والخرافة وهي تختلف تماماً مع الروحانيات التوحيدية التي نادى بها الرسول الخاتم ﷺ، وهنا أكرر أن التعرف على الله وتعلم طريقة المناجاة معه تُعد من أكبر بركات يوم المبعث واننا إذ نشكر الرسول الأكرم ﷺ الذي علمنا كيف نؤدي هذه الأعمال والتعاليم الإسلامية وبخلافه كنا سنخصص الأوقات لنذهب خلف الخرافات والأرواح والسحرة والفوالين والرمالين وهم اليوم من اكبر الاشخاص الذين يُراجعهم مختلف أنواع الناس في الولايات المتحدة خاصةً في نيويورك وكاليفورنيا ولهم سوقٌ رائجة حيث يراجعهم المرفهون والمثقفون والجامعيون، أوكنا على موعدٍ مع فرق الطبالة في القارة الإفريقية من البدويين لنحضر حفلات آكلة لحوم البشر وأمثالهم كان هذا سيكون واقعنا لولا أن بعث الله النبي الأكرم لينقذنا، بالطبع لا نريد هنا الحديث عن العرفان اليهودي والمسيحي الذي اختلط منذ قرونٍ بالشرك الرومي والأساطير اليونانية ولا الذهاب إلى الشرق إلى مركز العرفان حيث منطقة الهند الصينية وأديان منطقة الصين والتبت والشرق الأدنى حيث نواجه طرائق من الهندوسية والبوذية والمعارف الأخرى ونماذج التائوية[١] وتعاليم الشينتوئية[٢] وأديانٍ يتم استحداثها في اليابان كل آنٍ مثل تعاليم ويأل كيودان [الماهيكاري[٣]] أو الأديان والتعاليم الأمريكية الجديدة

---

١ . الطاوية مجموعة مبادئ، تنقسم لفلسفة وعقيدة دينية، مشتقة من المعتقدات الصينية الراسخة القدم. من بين كل المدارس العقلية التي عرفتها بلاد الصين، تعتبر الطاوية الثانية من حيث تأثيرها على المجتمع الصيني بعد الكونفشيوسية (راجع: ويكيبيديا: طاوية)

٢ . شنتو أو شنتوية ديانة ظهرت وتطورت في اليابان. لم تعرف ديانة الشنتو -والتي تركت أثرا بالغا في التفكير الياباني- طريقها إلى الانتشار على غرار الديانات الأخرى. ليس لهذه الديانة تعاليم محددة، الشيء الذي جعلها تنفتح على العادات الدينية الأخرى بدون أن تؤثر هذه في خاصيتها وتأصلها الفريدين. الشنتو والتقاليد التي تلازمها ظلت دائما متواجدة في مظاهر الحياة اليومية اليابانية. (راجع: ويكيبيديا: شنتو)

٣ . الماهيكاري هي ديانة يابانية جديدة وكلمة ماهيكاري مشكلة من قسمين هما: «ما» وتعني باليابانية «صحيح»، «هيكاري» وتعني "ضوء" فتصبح كلمة ماهيكاري معناها «الضوء الصحيح» وتشير إلى مجموعة من الديانات اليابانية الجديدة التي أسسها يوشيكازو أوكادا (١٩٠١-١٩٧٤) وقد قام في سنة ١٩٥٩ بإنشاء مؤسسة دينية تدعى: لوكي هيثي يوكوشو طومي نو كاي (Lucky Heathy Company of Sun Light Children) وفي سنة ١٩٦٣ أصبحت تسمى باسم آخر وهو سيكاي ماهيكاري بونغي كيودان. (راجع: ويكيبيديا: ماهيكاري)

كالمورمونية[١] وعبدة الأرواح حيث يُكثر أتباعها اليوم في الولايات المتحدة أو الهند التي تعد مهد الأديان المتنوعة بما يشكل مهرجاناً حقيقياً للأديان في هذه البلاد، كلها تقول إنها تعمل بقصد القربة إلى الحقيقة المطلقة وكأني بالجميع عُميٌ يبحثون عن نورٍ ينقذهم، نورٌ وضعه خاتم الأنبياء بيننا بالمجان دونما عناء وهم محرومون ومستضعفون بمعنى الكلمة بالطبع نحن مستثمرون بكل ما للكلمة من معنى، لأن كل هذه التعاليم تحت تصرفنا لكننا لا نعود إليها، وهنا لم أشأ التعرض إلى المذاهب الإنسانية المختلفة في الدنيا ولم أقصد أنها خارجة عن الجادة مئة في المئة وهي باطلة محضة، فهناك نواجه عند الكثير من المفاهيم الجميلة للغاية والتربوية والإلهية وهي تُشير إلى أن لها جذوراً من العالم الإلهي الواقعي لكن امتزاج هذه المفاهيم مع أنواع الخرافات والشرك تجعلنا نُفضل عدم التعرف عليها والوقوف عندها وينبغي تطبيق ما تقوله مع ما جاء في القرآن والسنة والأدعية المروية عن الأئمة والرسول في الصحيفة السجادية[٢] والصحيفة العلوية[٣] وينبغي القيام بذلك بكل حيادية، إضافةً إلى ذلك فإن العرفان الذي يعمل به كل المسلمون يختلف اختلافاً كلياً فهو ليس ذا بُعدٍ واحد وليس عرفاناً سلبياً إلى ذلك فهو يشتمل على كافة نواحي الحياة العينية للبشر كمشاكله المادية وطعامه وحقوقه الجنسية والسياسية وكل ما إلى ذلك وهذا فنٌ كبيرٌ أن يستطيع الإسلام أن يطرح أجمل أنواع العرفان إلى جانب أكثر أنواعه العينية والعملية والحقوقية والفقهية وهذه الشمولية تكون في جهةٍ واحدة وعليه فإن الفرق في الإسلام مع تعاليم الشينتو أو البوذية أو المسيحية لا يختص بشريعة الإسلام بل في عرفانه وفي روحانيته

---

١ . المورمون هي مجموعة دينية وثقافية متعلقة بالمورمونية، وهي ديانة بدأها جوزيف سميث خلال أواسط القرن التاسع عشر. الغالبية العظمى من المورمون أعضاء في كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة بينما أقلية أعضاء الكنائس المستقلة الأخرى، يعتبر المورمون أنفسهم جزءًا من الديانة المسيحية.[٤] كما يشمل المصطلح كذلك على المورمون من غير المتدينين أو الممارسين. التأثير الثقافي للمورمون متركز ولاية يوتا، بالولايات المتحدة، رغم أن أغلبية المورمون يعيشون خارج الولايات المتحدة. (راجع: ويكيبيديا: مورمون)

٢ . الصحيفة السجادية كتاب يشتمل على أدعية الإمام الرابع من أئمة الشيعة الإمامية الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام تعتبر الصحيفة السجادية من أهم الكنوز وأعظم الآثار التي انطوت على الحقائق والمعارف الإسلامية بعد القرآن الكريم ونهج البلاغة.

٣ . الصحيفة العلوية بشكل عام هي مجموعة من الأدعية والخطب والأحراز والاستغفار والعوذات لعلي بن أبي طالب كان يتلوها في أوقاتها وأماكنها المخصصة ثم بادر جمع من العلماء لجمع هذا التراث الذي خلفه أمير المؤمنين للمؤمنين وأصحاب التوجه الصادق نحو الله في كتب مستقلة تحتوي على هذه المضامين.

وأفضل دليل على ذلك الاختلاف في توصيف هذه المدارس والمذاهب للروحانية ونوع النتائج المستقاة منها والتوصيات الروحانية المطروحة وهناك موضوع أود الإشارة إليه هنا وهو أن مفهوم النبوة لا ينبغي أن يكون ألعوبةً وألا يشغل الكثيرين الذين انشغلوا بذلك وهو أمرٌ ليس مختصاً بحالنا اليوم، بل كان منذ البعثة النبوية ومازال ألعوبة خطرة وليست ذات آثار شؤمٍ معرفية بل ذات آثار مخربة تاريخية واجتماعية، كان هناك على الدوام أفرادٌ يُحاولون الالتفاف على مفهوم النبوة ويسعون إلى تخريبه، لا يتسنى لهم إنكار النبوة أساساً ولو استطاعوا لفعلوا وبما أنهم لا يستطيعون الرُقي إلى مستوى النبوة تراهم ينالون من النبوة ذاتها وهم يحاولون القول إن أمور ما وراء الطبيعة في النبوة أمورٌ طبيعية وهي ذات فلسفاتٍ مادية وقد فعلوا ذلك للدين والنبوة والأنبياء، لو راجعتم في فصولكم الدينية في علم الاجتماع الديني أو علم النفس الديني لوجدتم أنهم حاولوا تنزيل الصورة ومراتب الدين والنبوة والوحي من المراتب الإلهية العليا إلى المراتب المادية الدنيوية، لقد قاموا بمقارنة النبوة بالشعر وهم حتى يومنا هذا يقولون إن لغة الدين هي لغة شعرية ومجازية وأشكال من التشبيه والاستعارة حتى في صدر الإسلام قيل إن الرسول ﷺ كان شاعر وقالوا كاهن واليوم يقولون إنه روحاني وشخصية غير طبيعية.

إن تقليل الذات النبوية إلى أمور طبيعية أو حتى غير طبيعية لا يفرق، المهم نعتوها بأنها صفاتٌ غير طبيعية تقمصت في شكل الإنسان لا أنها أمورٌ فوق الطبيعية ولا أدري كم هي موضوعات علم الإجتماع الديني أو المباحث الدينية والفلسفية الجديدة التي اطلعتم عليها حيث ستلاحظون أن جميع الموارد من المشككين متشابهة فهم يرفضون المقولة الرئيسية للأنبياء لارتباطهم بالوحي ويرون أنها باطلة وكاذبة ثم يناقشون أنفسهم هذه المدعيات ويقولون: لنناقش لماذا يقول المسلمون إن الأنبياء مرتبطون بالوحي وهكذا حيث يقومون بدراسة ذلك من خلال بحث الآثار الفردية والإجتماعية ومبدأهم أنها كاذبةٌ ومفروغٌ منها، أما نظرتهم للدين بشكلٍ عام فهي أن الدين عبارة عن طقوسٍ لعبادة الاصنام والتوحيد حالة روحانية ولا يختلف عندهم المعنى فهم يقولون إن الدين روحانيٌ بالأساس وهم غافلون أن الحديد تارةً يكون نعلاً للفرس وتارةً سيفاً يُضرب به، يُضرب به الأعناق فكيف لهم القول إن كُلّ من أغمض عينيه عُدّ صاحب عرفان و روحانية.

أما هؤلاء فيفترضون أن مفهوم الكلام الإلهي وتشريعه وأحكامه وأصل الوحي بمعناه الديني كذبٌ محض، لا بل هو ضربٌ من المحال ثم يقولون لماذا ادعى الأنبياء هذا الادعاء؟ ما هي المشكلة التي دعت هؤلاء للإدعاء بأنهم أنبياء؟ ولماذا صدّقهم الناس؟ و ماهي ماهية الناس الذين صدّقوا الأنبياء وتحت أية ظروفٍ وأسبابٍ فعلوا ذلك؟

هذه كانت جُلّ مباحثهم في مسألة التشكيك بأصل النبوة ومن ثم بحثوا في أسباب الإدعاء بالنبوة، هل إنه من أجل إرضاء وتهدئة الاضطرابات الشخصية؟ ام هو نوعٌ من التخدير؟ هل إنه عمل أيدلوجي أم لا؟ وهل هو لمصلحة الاغنياء أم إنه غطاءٌ لإبقاء البشر جاهلين؟ أم إنه لطبيعة البشر التي تخشى القوى غير المعروفة؟ وماذا وراء الدين، بالطبع لا ننسى أساساً انهم رفضوا فكرة الوحي وكذبوا بأصل النبوة وهكذا قبلوا بكل المدعيات والنقاشات وتم تثبيت ذلك في المجتمع والتاريخ ويتم اليوم دراسة الدين في جامعات العالم بسبع زوايا معرفية لكنها كلها تنهل من مشرب واحد وهو التشكيك التام بأصل النبوة والوحي وتارةً يقولون تمويهاً أنهم ينظرون إلى المسألة من الأعلى وبشكلٍ محايد لكنهم يؤمنون أن لا فرق بين النبي ومدعي النبوة وأن بإمكان الجميع أن يكونوا كذلك، أن يدَّعون بالنبوة وهنا يتبادر إلى الذهن سؤالٌ هو من باب الأسئلة المغالطة للواقع هكذا يقول أصحاب مدرسة المنطق عندنا أي جمع المسائل في مسألة واحدة إنهم يقومون بالرد على عدة مسائل بشكلٍ واحد وهو ذات الشيء الذي يطلق عليه الغربيون اسم (complex questions) [كومبلس كوتشنز]، أي مغالطة السؤال المُركَّب وهي مغالطة تطرح في جميع الأسئلة المركبة التي تُبحث في علوم الدين في الغرب أو في الأكاديميات الواقعة تحت تأثير الدين الغربي المشرق فهؤلاء يبحثون اليوم عنواناً جديداً أطلق عليه اسم علم الكلام الجديد وهو مغالطة لا أكثر.

كومبلس كوتشنز يعني طرح سؤالٍ ليس سؤالاً واحداً بل هو عبارة عن ادعائين أو أكثر وهو أمرٌ مفروغٌ منه وعندما تجيب على سؤال السائل فإنك تكون بمثابة الموافق على أساس الطرح سلبياً أو إيجابياً، على سبيل المثال لو جاء أحدهم وقال كيف ستؤدي الدين الذي بذمتك لدائنيك؟ هل ستدفع نقداً أو بالتقسيط؟ على أية حال إن مجرد عدم الاعتراض عليه يعني أنك مقروض، هذه مغالطة لطالما تتكرر في باب الدين والوحي والنبوة على

سبيل المثال يأتي أحدهم ليقول ماذا ينبغي أن نتوقع من الأنبياء هل يتدخلون في الشؤون الاجتماعية أم لا؟ وتتم العودة إلى أصل الدين وهل أنه تحدّث عن هذا الموضوع أساساً أم لا، والأصل علينا أن نبحث في أساس الدين ما هي تطلعاتنا منه؟ فكل شيء تابع لإرادتنا ويمكننا تفسيره بالطريقة التي نريد وهذا هو بيت القصد، أي أن نعود إلى مربع كومبلكس كوتشنز، أو نرى بعضهم يقول إن لغة الدين غير معروفة أو إنها من ذات أساطير المجاز والشعر، ما هو الشيء الذي ينشده الدين على مر التاريخ؟

عندما نستوقفهم من الذي قال ويقول إن لغة الدين لغة شاعرية ومجازية وأساطيرية؟ أفضل جوابٍ على مثل هذه المغالطات ذلكم الجواب الذي قام به شخصٌ قيل له إن ابنك دهس بسيارتك أحد المارة وتوفي الرجل في الحال فرد عليه كيف فعل ولدي هذا والسيارة عاطلة؟ ثم إنني في الأساس لا أملك سيارة، ثالثاً إنني لم اتزوج بعد وليس عندي ولد.

بالعودة إلى هؤلاء فإنهم يدعون الوحي والنبوة والمبعث وأمور غير صحيحة ثم يبحثون في نتائج ادعاءات النبوة وأسبابها وكيف يمكن مواجهتها، لاحظوا كيف يُؤسسون ويبنون على باطلٍ وانحراف، علينا أن نكون حذرين ونشكل أسئلة نموذجية صحيحة ونردَّ على أسئلتهم واحداً تلو الآخر ومادامت أسئلتهم معقدة وصعبة فليس لها جواب، بل عليهم أن يُبسطوا الأسئلة ولن يحصلوا على جواباتٍ ناجحةٍ.

بالطبع لقد داهمنا الوقت هنا سأعرض على عُجالة لبعض الروايات المروية عن الرسول ﷺ، خاصة التي تشير الى الحقوق الإنسانية للمجتمع البشري، لاحظوا أن الرسول كان خلافاً للكهنة والسحرة والشعراء الذين كانوا ينشدون المُريدين والأموال والصلات وهكذا أموراً دنيوية لا يطلبون ذلك، حتى ان النبي كان لا يريد مُريداً إنه كان ينشد عبداً لله على عكس الذين كانوا يُريدون فعل ذلك على الدوام حتى ولو بلسان شاعرٍ ومجازي وقد عمل الرسول وكل الأنبياء عكس هذا المطلب على سبيل المثال كان شعار الرسل جميعاً كما ورد في القرآن: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1]، إنني لا أريد منكم أي شكرٍ على عملي هذا، وفي باب أصالة العمل وأصالته قال الرسول ﷺ: «لا قَوْلَ اِلاّ بِعَمَلٍ»[2]، أي إن الرسول يُريد منا عدم

---

١ . سورة:٥١.

٢ . أصول الكافي، ج ١، ص ٧٠.

الخوض في كلامٍ لا نقدر على أدائه وعن هكذا مجتمعٍ يقول الرسول الأكرم ﷺ إنه غير ديني، وينبغي على من يقطع على نفسه عهداً أن يعمل به، وفي ميدان التعليم والتربية نلاحظ أن الرسول كان يعلم المسلمين بأن يقولوا في دعواتهم: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع لأنه بئس الضجيج»[1]، بالطبع فإن الإسلام ليس من الأمم التي تريد الفقر لأحد لكن الجوع والزهد والرياضة والعبادة من باب مجاهدة النفس فهي مبحثٌ آخر فهناك الجوع اختياري لا إجباري كما هو حال الفقير، وكان الرسول يدعو الناس لعدم الانغماس في الماديات وكان يربط اكثر الأمور ماديةً بالمعنويات، وعنه نُقل ﷺ أنه «مَنْ أكل الحلال أَرْبَعين يوما نور الله قَلْبهُ و اجرى يَنابيع الحِكْمَة مِنْ قَلْبِه عَلَى لِسَانَه»[2]، وعن هذه القضية يقول السادة الغربيون من متخصصي علم الاجتماع أنه أمر غير قدسي وهو عرفيٌّ للغاية وبتصورنا فإن تنوير القلب من لدن البارئ عز وجل مسألةٌ قدسية تماماً وأن ربط الامور القدسية بالعرفية وعدم التفكيك بين القدسي والعرفي هي من التعاليم التي جاء بها الرسول الأكرم ﷺ أيضاً.

شكراً لكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

١ . أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، برقم ١٥٤٧، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الجوع، برقم ٥٤٨٣، وفي السنن الكبرى، ٤/ ٤٥٢، برقم ٧٨٥١، وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب التعوذ من الجوع، برقم ٣٣٥٤، وابن حبان، ٣/ ٣٠٤، والحاكم، ١/ ٥٣٤، وأبو يعلى، ١١/ ٢٩٧، وعبد الرزاق، ١٠/ ٤٤٠، وابن أبي شيبة، ١٠/ ١٨٧، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، ٢/ ٩١، وصحيح ابن ماجه.

٢ . المحجة البيضاء ج ٣، ص ٤٠٤.

نظرية الحكومة الإسلامية من منظار الإمام علي عليه السلام

هل أن حق الأمة منفصل عن حق الخالق؟ وهل هو قابلٌ للضمان أم لا؟ ومن يتولى وضع حق الأمة مقابل حق الرب ولماذا؟ ولماذا يتحدثون عن التعارض بين حق الرب والرعية وبين الاختيار والتوصيف وبين الناس والرب وبين الدين والحكومة وفي بعض الأحيان في أغلفةٍ دينية؟ ولنرى هل أن المؤسسة الدينية بمعزلٍ عن المؤسسة الحاكمة في ألفاظ وتعابير أمير المؤمنين عليه السلام؟ ولماذا نرى الالتصاق بين كلمتي «الله» و«الخلق» في تعابير الإمام على الدوام؟ ولكن لكلٍّ دليله والناس ليسوا في تعارضٍ مع وجود الله وسمعنا عن الإمام يتحدث عن حقوق الرعية ويربط حقها بحق الله سبحانه وتعالى.

ولنرى هل أن النصوص الإسلامية هي في حقيقتها مُجملةٌ ومُبهمة وغيرُ قابلةٍ للوصول وبعيدة المنال ولها مئات القراءات؟ أم أنها على العكس واضحة وشفافة حددت للحاكمية حقوقاً وواجباتٍ ورسمتْ له طريق العمل.

ما هو الرابط بين القانون الشرعي والمدني؟ وما هو التعامل في تنصيب الرب واختيار الأمة في حكومة علي بن أبي طالب عليه السلام؟ وكيف يتمُّ الربطُ بين الأمر القدسي والعرفي وما هي الحساسية التي أبداها الدين حول حقوق الرعية؟

يشير الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة حول هذه المواضيع وان الله سبحانه وتعالى فصل بين حقوق الرعية وحقوقه، أرجو الالتفات إلى هذه النقطة فهي مورد الخلاف الرئيس بيننا وبين الفكر العلماني في إيران والعالم. فهم يرون أن حقوق الإنسان ربما تعارضت مع حقوق الخالق، هنا يؤكد الإمام علي عليه السلام على أن حقوق الإنسان والرعية ناجمةٌ من أصل وجود

حق الخالق حيث يقول عليه السلام: «ثُم جعل سُبْحانهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْترضها لِبعْضِ النّاسِ على بعْضٍ فجعلها تتكافأُ فِي وُجُوهِها»[١]. أي أن لا يكون البعض في المجتمع ذوي حقوقٍ والآخرون ذوي واجبات، أي أن الأمر مرتبطٌ بالإخلاص، والتوحيد.

لاحظوا كيف تجد حقوق الناس معناها في ظل التوحيد، لاحظوا أن العلمانيين يقولون إن حق الله يتعارض وحق الرعية، وللأسف هناك بعض المؤمنين السُّذّج يُرددون هذا الكلام دون أن يفهموا معناه، لكن هؤلاء على العكس، يركلون حقوق الرعيّة وهنا يشدد الإمام عليه السلام على الله سُبحانهُ وتعالى أحكم حقوق الرعية في إطار الإخلاص والإيمان والتوحيد. وسأتطرقُ ومن خلال الروايات إلى إيراد الاتهامات التي ساقوها ضد الدين والحكومة الدينية، وأرجو التدقيق في ذلك من زاوية ما سيتمُّ عرضه من الأحاديث والروايات.

فعندما كان الإمام يتهيأ إلى حرب صفين ويكتب إلى ولاتهِ في الأماكن الخاضعة للحكم، كان يؤكد أن عليهم أن يجمعوا العدد الكافي من المجاهدين للالتحاق بركب الإمام عليه السلام للمُضيّ في درب الجهاد. واحدةٌ من الرسائل كتبها الإمام إلى عامله في أصفهان ابنِ سليم العضدي حيثُ قال عليه السلام: «إنا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله»[٢]. لاحظوا أن الإمام عندما يُضطرُّ لاستخدام القوة فهو من أجل تطبيق العدل، حيث يقول عن السبب في ذلك، أي أننا نمضي لمحاربة من يتصرف بأموال بيت المال، ويقصد بذلك معاوية وزبانيته، فليس من حق هؤلاء أن يستفيدوا من هذه الأموال وهم لم يفعلوا شيئاً لخدمة الناس، فلو كانوا فعلوا فهنيئاً لهم، ولكنهم لم يفعلوا أي أنهم يُريدون إعادة حياة الإقطاع. الإمام عليه السلام يطلب من عامله في أصفهان ان يجمع من يستطيع من المقاتلين كي لا يبقى وحيداً في الحرب، لانهم يذهبوا لمحاربة من عطلوا الحدود وأماتوا الحق وأظهروا الفساد في الأرض.

طريقة حكم الإمام عليه السلام

وحول طريقته عليه السلام في الحكم يقول الإمام عليه السلام عن ذلك: «لم أجعلها دوُلةً بين الأغنياء»[٣]

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

٢ . بحار الانوار، ج ٣٢، ص ٤٠٠؛ علي إمام المتقين، عبدالرحمن الشرقاوي، ج٢، ص ٣٠.

٣ . الكافي، ج٨، ص٥٨.

أي أن الإمام عليه السلام لـن يجعـل الحكومـة تُـداوُّبين الأغنيـاء، بـل أنـهُ سـحب هـذه الأمـوال مـن أنـاسٍ هـم في قمة الثراء إلى القاعدة في المجتمع.

ويؤكد الإمام عليه السلام على أنهُ حارب الطبقية وأقام الحكم على أساسٍ ديني، وفي مكانٍ آخر يتحدث الإمام عليه السلام عن حق الرعية والناس ويؤكدُ على حُرمة وكرامة الإنسان وأهمية ذلك، ويرى الدين أن حقوق الفرد الواحد تعْدِلُ حقوق الأمة برمتها. ونُقِل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه عندما أراد أن يرسل الإمام علي عليه السلام إلى اليمن ليقضيّ هناك، أكد عليه بضرورة تنفيذ أحكام الدين، وتصدير ثقافة الثورة الدينية هناك، حيث يقول الرسول الأكرم للإمام علي عليه السلام: «لا تُحارب شخصاً قبل أن تدعوهُ للإسلام».[١]

وهذا يعني أن منطق الإسلام قائمٌ على الحوار والاستدلال، بعدها يحقُّ لك رفعُ السيفِ بوجوههم. وينبغي أولاً بيان الحقائق قبل إشهار السيف، وعليه فإن الإمام لم يُحارب إلا بعدما يطرح الحجج والأدلة الدامغة حتى لجنود المعسكر الآخر، وقد فعل ذلك الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء مع أنهُ كان قليل العدة والعدد، وكان قاب قوسين من الشهادة. لقد كان الإمام عليه السلام يركب الجمل قبل ظهر عاشوراء ويُلقي الحجج على جند عمر بن سعد، ويقول لهم الحق، ثم يشهر بعد ذلك السيف في وجوههم، لأنهم لم يستجيبوا لدعوة الإمام عليه السلام.[٢]

رسالة الأنبياء

لم يكن الإمام عليه السلام من أولئك الناس الذين يقولون الحق ويُبينون مواضعهُ ثم يرحلون، بل كان يقول الحق ويصمد في وجه الطغيان حتى يقتل، هكذا كانت مسيرة الأنبياء التي غيرت التاريخ، وهكذا فعل الإمام علي عليه السلام وأولاده، حيث دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وتركوا بصماتهم فيه، وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة إلى أن الله سبحانهُ وتعالى أرسل الأنبياء بالكتاب والميزان والحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾،[٣] فالكتاب يعني المعرفة والميزان يعني العدل، والحديد يعني

---

١ . ميزان الحكمه، ج١٠، ص٣٢٤ – ٣٢٥.

٢ . الإرشاد، (الشيخ المفيد)، ص ٤٣٥.

٣ . الحديد: ٢٥.

القوة. وهذا يعني أن للأنبياء رسالةً تتكون من ثلاثة أجزاءٍ هي أولا: المعرفة والاستدلال والحوار مع الإنسان. ثانيا: العدل أي حصول الإنسان على حقه. ثالثا: القوة أي أنهم لا يكتفون بالقول والموعظة بل يُشهِرون السلاح ويستشهدون من أجل المبادئ. وفي عُرف الأنبياء الكلُّ مُهم حتى لو كان إنساناً واحداً، حيثُ يقول الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام: «وأيمُ الله، لئن يهدي الله على يديك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس».[1] أي أن هداية إنسانٍ واحد تنفعُ الإنسان أكثر من أي شيءٍ في الدنيا، الثقافة الدينية لا تنظر إلى الكمية بل إلى النوعية أولاً، ثم أن الآية القرآنية تقول: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[2] فلا فرق بين الواحد والمليار ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ الدينُ لا ينظر إلى العدد، ولو تم التجاوز على حقوق وكرامة مجموعةٍ أو شخصٍ واحد فهو سواء عند الدين.

تعاطي الإمام مع بيت مال المسلمين

قيل إن عقيلاً جلس في بيت الإمام علي عليه السلام على المائدة ينتظر العشاء، وقد كان ضعيف البصر فظل يتحسسُ السُّفرة فلم يجد فيها غير الخبز والملح. فسأل الإمام لما التأخير؟ لماذا لا تأتون إلي بالعشاء؟ فقال الإمام عليه السلام أوليس هذا عشاء؟ فقال عقيلٌ للإمام: أرجو ألا تمزح معي، إنني مقروضٌ وأتيتُك لِتُعطيني من المال لأسدد به ديني. فأقسم الإمام أنهُ لا يملك من مال الدنيا شيئاً، ودعاهُ للصبر قليلاً حتى تأتي أموالٌ إلى بيت المال ويتمُّ تقسيمُها فيعطيهُ الإمامُ نصيبهُ منها، وقال له لو لم تكن عندي زوجةٌ وأولاد لأعطيتك سهمي أيضاً لأنني أكتفي بقرص شعيرٍ وحسب، فثار عقيلٌ واستشاط غضباً وقال للإمام: لا تعظني فبيتُ المال بين يديك والكثير من الأموال هي بحوزتك وتعِدُني بِحصّتِك من بيت المال؟ نِصفُ سهمك؟ وكم يكون يا تُرى؟ فقال الإمام عليه السلام: سهمي وسهمك وسهم أرفع الناس والعبد واحد. ولا حقٌّ آخر لنا في هذه الأموال فالحاكم ليس له حقٌّ آخر على الرعية اللهم إلا مسؤوليتهُ فهي مُضاعفة ليست حقوقه المدنية أكثر من باقي الناس بل هي أقل.

---

١ . الكافي، ج٥، ص٢٨؛ المعجم الكبير (الطبراني)، باب الألف، باب من إسمه إبراهيم.

٢ . المائدة: ٣٢.

ويقول الإمام عليه السلام لشقيقه: إننا وباقي الناس مُتساوون في سهمنا من بيت المال، وليس لي حقٌّ أكثر من الآخرين حتى أعُطيه لك، وأن للمسؤول واجبات أكثر من الناس والرعية، لا حقوقاً تفوقُ حقوقهم. هذه هي حاكمية الدين، وعندما كان عقيل يُصرُّ على الإمام أن يُعطيهُ من بيت المال، كان الإمام وعقيلٌ يقفان في موضعٍ من دار الإمارة يُشرفُ على السوق، وإذا بالإمام يقول لعقيلٍ: إن لم تكن قانعاً بسهمك من بيت المال إضافةً إلى نصف سهمي فبإمكانك أن تذهب إلى السوق وتكسر أحد صناديق البضاعة وتأخذ ما تُريد. فرد عقيلٌ بالقول: هل تُريدُني أن أسرق؟ ماذا تقول؟ إنها أموال الناس.

فرد عليه الإمام عليه السلام بالقول: وهل تُريدُ مني أن أسرق أموال بيت المال لأُعطيها لك؟ إنها وصيتك لي وقد رددتُها عليك. إن هذه البضاعة التي تراها لقد وضعت لأن الناس اطمئنوا إلى الحكم فوضعوها حيثُ ترى، وعندما لم يقتنع عقيل اقترح الإمام أن يذهبا معاً لسرقة أموال أثرياء الحيرة بعد أن يضعوا اللثام على وجهيهما حتى لا يعرفهما أحد، ويتعرضان لقوافل وأموال وبيوت الأغنياء، فسأل الإمام عقيلاً ما رأيك في هذا؟ فأجاب عقيل: لم أتي إليك لأسْرُق. فقال الإمام: سرقة نفرٍ واحد أفضلُ من سرقة الأمة والرعية، وأضاف أن اقتراحك يا عقيل أن أجزِل لك العطاء خلافاً للشرع يعني أنني أسرقُ قوت الأمة وأعطيهُ لك، فأنني أقترحُ عليك أن نسرق واحداً أفضلُ من سرقة الرعية كلها.[١]

هكذا كان الإمام حساساً على بيت المال وحقوق الرعية، فقد كان يهتمُّ لأمور الرعية ويُدافع عن حقوقهم بما أوتي من قوة. أيُّ مذهبٍ ومدرسةٍ وعقيدةٍ ترون أن قائدها وحاكمها يفعلُ ما يفعله الإمام سلام الله عليه؟

وروي عن عاصم ابن كُليبٍ الجرني عن والده قوله: كنتُ عند الإمام حتى جاء فيءٌ من المناطق الجبلية وإذا بالإمام عليه السلام ينهض فوضع مانعاً من الحبال قُبالة هذه الأموال وقال: لا يقترب منها أحدٌ حتى أُقسّم هذه الأموال. وذهب الإمام إلى ما وراء الحبال لوحده، وقال أين هم رؤساء المناطق السبع في الكوفة؟ حيثُ كانت المدينة مُقسّمة إلى سبعة أجزاءٍ، ولا ندري على أساس القبائل أم المناطق؟ على أيةِ حال كان هناك سبعة رجالٍ يتولون أمر شؤون البلدية وقام الإمام عليه السلام بتقسيم الأموال إلى سبعة أقسامٍ مُتساويةٍ بعدها التفت وإذا

---

١ . راجع: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٠٩ـ١١٠.

هُناك قرصٌ من الخُبز فقسمهُ إلى سبعة أقسام وأعطى كُل قسمٍ من هذه الأقسام إلى أحد المسؤولين السبعة، بعد أن أجرى القرعة حتى لا يُقال إنهُ أعطى هذا السهم الأفضل لهذه المنطقة أو تلك مُحاباةً أو تفضيلاً لقريبٍ أو صديقٍ أو ما شاكل ذلك.[1]

وصايا الإمام علي عليه السلام لولاته

إن هذه الطريقة في التعامل تضع الجميع تحت علامات استفهامٍ كبيرة، لكنني هنا أذكر هذه النماذج بُغية إفهام الآخرين الذين يعترضون على نموذج الحكم الديني ويسخرون من ذلك، وأقول لهؤلاء: إن النموذج العلوي هو نموذجٌ لن تراه البشرية بعد الإمام أبداً؛ لأن ما قام به الإمام عليه السلام تعدى حدود البشر، الإمام عليه السلام عندما يُخاطب عُمّالهُ على المدن والولايات المختلفة كان يقول لهم: «أدقّوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عني فضولكم»[2] ويشدد على الاقتصاد في كتابات الجُملْ حتى لا يتم الإسرافُ في بيت المال، لأن ذلك لا يجوز شرعاً، ففيه حقٌّ للرعية. هذا هو النموذج الديني.

وفي عهده إلى مالك الأشتر كان يؤكد عليه السلام على أن الحكام هم بحاجةٍ إلى التقوى أكثر من الرعية، أما اليوم فنحنُ نقومُ بفعل العكس نوصي الناس بالتقوى وننسى الحكام، في حين أن منطق الإمام عليّ عليه السلام يدعو أن تتفوق تقوى الحكام على تقوى الرعية أضعافاً مُضاعفة، لأن القوة والثروة بِأيديهم وينبغي أن يكون هؤلاء مؤهلين أكثر من الرعية حتى يطاعوا، سواء كان وكيلاً أو وزيراً أو محافظاً أو قاضياً ينبغي أن يكون متفوقاً على من يُطيعهُ بالعلم والتقوى، وبخلافه يُطرح السؤال لماذا يحكم هو؟ ولماذا ينبغي أن أكون تابعاً للقوانين التي يسنُّها؟ وهنا شدد الإمام عليه السلام على أن التقوى هي شرطُ الحاكمية وعليه ينبغي أن يكونوا أكثر تقوى من الرعية، وينبغي أن يكون الحاكم والمسؤول مُطيعاً لأوامر الله أكثر من الباقين، وينصر دينه ويُراعي حقوق الناس، وألا يظلم ولو شخص واحدٌ في المجتمع، حيثُ يصرح عليه السلام إنهُ سعى ألا يُظلم إنسان واحد في حكومته، حتى وإن كان غير مسلم.

ثم يتحدث عليه السلام بأن القوة والسلطة لن تأتي بالمشروعية لأحدٍ حيثُ يقول: «أملك

---

١ . بحار الأنوار، ج٤١، ص١٣٧.

٢ . الخصال (الشيخ الصدوق)، ج١، ص ٣١١.

هواك وشُح بنفسك عما لايحلُّ لك»[١]، وهذا يعني أن السلطة في الإسلام محدودةٌ للحاكم، وعليه أن يُراعي الأصول ويُطبق العدالة، وبخلافه فهو مُتجاوز ولا مشروعية له، وكذلك عليه أن يتعامل بحزمٍ مع المُدراء والمسؤولين الفاسدين، حيثُ يؤكد عليه السلام على أن الكفاءة واتقان العمل من شروط المشروعية للمسؤولين في الحكومة الإسلامية بالطبع، ولا ينبغي التعامل مع المُدراء المُخلصين والمتخلفين على السواء، وشدد عليه السلام على ضرورة أن يكون الارتباطُ بين الحاكم والرعية حُرّاً، وأن يكون الناسُ في مأمنٍ لكي يطرحوا همومهم ويُطالبوا بحقوقهم، حيث يقول الإمام عليّ عليه السلام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**لن تُقدس أمةٌ لا يُؤخذُ للضعيفِ فيها حقهُ من القوي غير مُتعْتعْ**»[٢].

يشير الإمام عليه السلام على أن المجتمع الذي لا يستطيعُ فيه الفقير أن يُطالب بحقوقه ليس مُجتمعاً نظيفاً ولا مُقدساً ولا دينياً. أي أن النظرية الإسلامية تُريدُ إعداد أشخاصٍ يُمكنهم المُطالبة بحقوقهم من قبل الأقوياء دون وجلٍ وتلكؤٍ أو خوف.

بعدها يُخاطبُ الإمام مالك الأشتر في عهده إليه لما ولاهُ مِصر: «**واجْعلْ لذوي الحاجات منك قسماً تُفرغُ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضعُ فيه لله الذي خلقك وتُقعدُ عنهم جُندك وأعوانك من أحراسك وشرطكْ، حتى يُكلمك مُتكلمهم غير مُتعْتِعْ**»[٣].

أي يدعو الإمام عليه السلام مالكاً ليكون متواضعاً بحقّ، وأن يكون خاضعاً للأمة ويستقبل الناس بعيداً عن أعين الحُراس والشرطة كي يستطيع الناسُ قول ما يُريدون دون خوفٍ أو وجلْ. هذا هو ديدنُ الحكومة الإسلامية، ثم يقول الإمام عليه السلام: «**إياك والدماء وسفكها بغيرحلِّها**»[٤]. أي يُحذرُ الإمام عليه السلام عمالهُ من إراقة دمِ أحدٍ دون سبب، بُغية الحفاظ على الحكم والمنصب، ومن يفعل ذلك فليس من الإسلام في شيء، لأن مكانة الحكومة الإسلامية هي في قلب الأمة، بالطبع ينبغي في بعض الأحيان التصرف بحزمٍ، والاستفادة من القوة ضدّ من يُريدُ السوء بالحكم الإسلامي، وبخلافه فإنه ينبغي التعامل مع الأمة برأفةٍ و محبةٍ وتواضع هذا هو ديدنُ الإمام علي سلام الله عليه، ألا تكون العلاقة

---

١ .نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

٢ . نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

٣ . نفس المصدر.

٤ . نفس المصدر.

بين الرعية والحاكم علاقة الذئب والشاة واستباحت كُلِّ ما لديهم من حرماتٍ حيثُ يقولُ عليه السلام: «لا تُقوين سُلطانك بسفكِ دمٍ حرام»[١]، لا ينبغي للحاكم أن يحكم وفق الظلم والإجحاف والقتل بالطبع هذا لا يصدق مع من يُريدُ الشر للناس، بل ينبغي الوقوف بوجه هؤلاء وقتالهم، فأما قتلُهم أو الاستشهاد، ومن يفعل ذلك مع الرعية فهو ليس من منطق الأنبياء.

صفات الحاكم

يبين الامام علي عليه السلام طريقة تعامل الولاة مع الرعية حيثُ يقول عليه السلام: «وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر. وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الاطراء واستماع الثناء. ولست بحمد الله كذلك. ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطا لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء. وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء. فلا تثنوا علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفّظُوا مِنّي بِما يُتحفّظُ بِهِ عِنْد أهْلِ الْبادِرةِ ولا تُخالِطُوني بِالْمُصانعةِ ولا تظُنُّوا بِي اسْتِثْقالًا فِي حقٍّ قِيل لِي ولا الْتِماس إعْظامٍ لِنفْسِي فإنّهُ منِ اسْتثْقل الْحقّ أنْ يُقال لهُ أوِ الْعدْل أنْ يُعْرض عليْهِ كان الْعملُ بِهِما أثْقل عليْهِ فلا تكُفُّوا عنْ مقالةٍ بِحقٍّ أوْ مشُورةٍ بِعدْلٍ فإنّنِي لسْتُ فِي نفْسِي بِفوْقِ أنْ أُخْطِئ ولا آمنُ ذلِك مِنْ فِعْلِي إلّا أنْ يكْفِي اللهُ مِنْ نفْسِي ما هُو أمْلكُ بِهِ مِنّي فإنّما أنا وأنْتُمْ عبِيدٌ ممْلُوكُون لِربٍّ لا ربّ غيْرُهُ يمْلِكُ مِنّا ما لا نمْلِكُ مِنْ أنْفُسِنا وأخْرجنا مِمّا كُنّا فِيهِ إلى ما صلحْنا عليْهِ فأبْدلنا بعْد الضّلالةِ بِالْهُدى وأعْطانا الْبصِيرة بعْد الْعمى»[٢].

أي أن الإمام عليه السلام يُخاطِبُ الناس بالقول: إن ما أفعلهُ هو واجبٌ بِفعل قيادتي لكم، فلا أريدُ حمداً ولا ثناء، لأن ما أقومُ به هو لوجه الله ومرضاته، إنني لن أتملق لأصحاب القدرة والثروة، ولن أتملق لكم أبداً فنحنُ عبيدٌ من عباد الله.

---

١. نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبه ٢١٦.

مواجهة الحكومة التي تتستر بستار الدين

المجتمع الديني ليس مُجتمعاً مثالياً مُعداً سلفاً أو أنهُ هبطُ به من السماء دفعة واحدة واستقر في مكانه، ولا نقومُ نحنُ بأيةِ سعيٍ وجهاد، ونقومُ بتجشُّمْ عناء العيش فيه. المجتمعُ الديني هو المجتمع الذي يُصْنعُ على أيدينا وينبغي أن يتوفر فيه الحدُ الأدنى من النصاب الديني، فلو قل الإطار الديني العام عن حد النصاب فلا يمكننا إطلاق اسم المجتمع الديني عليه، حتى ولو كان عددُ المُتدينين كثيراً.

ثم ينبغي أن نلتفت إلى أن حالةً من الانفلات وسوء الاستغلال، لا ينبغي أن تكون مانعةً لفعل أمر خيّرٍ وهذا الأمرُ لا يُصدق على جميع نواحي الحياة عند البشر، فلو صدم إنسانٌ بسيارته شخصاً ومات الأخير فلن يقول عاقلٌ لنمتنع جميعاً عن ركوب السيارة، ولو كان حالنا هكذا فينبغي أن نودّع كُل شيءٍ بهذه البساطة، فلو استغل أحدهم الحرية، فهل ينبغي أن نقول إن الحرية أمرٌ أكل عليه الدهر وشربْ وينبغي ترك العمل بها؟

إن التاريخ البشري حافلٌ بتجاوزات الإنسان للعلوم المختلفة حيث ارتكبت المجازر بواسطة العلوم الحديثة، فهل ينبغي تركُ العلوم جانباً، وكذلك بالنسبة إلى الفنون المُختلفة وهكذا بالنسبة إلى الدين أيضاً. بالطبع فقد تم على مر التاريخ استغلال الدين، وسيظلُّ الأمرُ قائماً، لكن هذا الأمر لا يقودُنا إلى ترك الأصل لوجود ممارسةٍ أو ممارستين مغلوطتين، بل إن وجود ممارسةٍ مغلوطةٍ في تطبيق العدالة يدعونا لترك تطبيقها بتصوري أن هذه الاستنتاجات مغلوطة ولكن لنا أن نتساءل هل هناك آلية لمراقبة أداء العمل الحكومي القائم على أساسٍ ديني كي نقف بوجه سقوطها من النصاب القانوني للحكومات الدينية كي لا يتم حكم المجتمع باسم الدين؟ في حين لا يتم العمل في المجتمع وفقاً للآراء الدينية أي أن الجميع يأكُلُ من سفرة الدين ولا يعمل بما يقوله ويدعو له الدين، ولو كان الإسلام يقول ويحكُم من يريد باسم الدين وعلى الرعية الإطاعة كيفما اتفق كما هو الحال في الكثير من المدارس السياسية والفلسفية حيثُ تقول أغلب النظريات الحقُّ لمن غلب، لكن الإسلام والمذهب الشيعي يتخذُ موقفاً مُقابلاً لذلك.

وعلى الإنسان أن يُقارن بين ما يدعو له الإسلام وبين ما يفعلُ هؤلاء الحُكام، فإن كانت الأرجحية للحكام أطاع وبخلافه ينبغي استيضاحهم وانتقادهم والاحتجاجُ ضدهم،

ولو لزم الأمرُ إعلان الجهاد ضدهم وأن يكون الواجبُ الانتفاضة ضد حاكم جائر يحكمُ باسم الإسلام والإسلام منهُ براء، كما هو الحال مع بني أمية وبني العباس الذين وضعوا الدين وتعاليمهُ وأركانهُ وهم أهل بيت النبوة جانباً، هؤلاء الذين كانوا في حقيقة الأمر ناصحي المجتمع فقُتِل من قُتِل منهم وشُرِّد من شُرِّد ودُس السّمُّ للآخرين منهم، ولو كان المجتمع واقفاً على حقائق الأمور والدين فعليه الانتفاضةُ ضد هؤلاء الحُكام وأمثالهم.

فالعقيدة الشيعية لا تقول بالمبدأ القائل: إن كُل ما يقوله و يفعله المُتديّن هو صحيحٌ وخالٍ من الإشكالات، لا يصحُّ أن نقول إن كُل ما يفعله القاضي والحكومة صحيح، لأننا نعيشُ في نظام الجمهورية الإسلامية وعلينا أن ندعمهُ بِكُلِّ ما أوتينا من قوةٍ، بل إن لنا معياراً نمضي عليه، فإن حصل هناك تعارضٌ، استوضحنا ذلك حتى نقتنع أن لا استغلال يجري وبخلافه علينا أن نتحرك للنهي عن المُنكر.

المدارس المعاصرة في ميزان حكومة أميرالمؤمنين عليه السلام: الحقوق و الواجبات

الدين الإسلامي يضمن الحقوق والواجبات

إنَّ الإمام علي كانَ روحاً كبيرةً في جسم العالم الضيّق. ولم يكن المجتمع أهلاً لأن يكونَ الإمامُ بينهم، كانَ أكبر من ذلك المجتمع، وسِعَة تحملهِ كانت أكبر. وعندما نسمع اسمَ الإمام عليّ عليه السلام وتصرفهُ وأركانَ حكومته، نعي أنَّ الحديثَ ليسَ حولَ عظمة هذا الشخص الفردية، بل إنَّ الحديثَ يدورُ حولَ مدرسته، حيثُ كانَ الإمامُ أنموذجاً بارزاً في ذلكَ الوقت، وقد تربَّى هذا الإمام في مدرسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وكانَ بمثابة التلميذ البارز بين تلامذة هذه المدرسة، وتعلَّمَ من النبي أنَّ المجتمعَ الديني ينبغي أن يكونَ صريحاً في الدفاع عن حقوق الضعفاء والمحرومين ومُستضعفي المجتمع، الذينَ لا يستطيعونَ المطالبة بحقوقهم، لا بل الذين لا يعرفونَ حقوقهم الدينية ولا كيفَ يستوفونها من أصحاب القوّة والثروة والسلطة. هذا هو تعريف المجتمع الديني الذي نَقَلَهُ الإمام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيثُ نَقَلَ عنهُ القول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع)»[1]. ويعني أنَّ المُستضعفينَ الذينَ لا يعرفونَ كيفَ يستوفونَ حقوقهم، فهناكَ من ينبغي أن يقومَ بذلكَ من المتصدين. هذا التعريف جاءَ على لسان الإمام عليّ الذي قال أكثر من ذي مرّةٍ: «أنا عبدٌ من عبيدِ

---

١ . نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣ (عهده لمالك الاشتر).

محمد ﷺ»[١]. أي إنَّ كُلَّ ما عنده عن النبي ﷺ.

وفي قاموسِ علي بن أبي طالب لابد ان تكون الدولة الدينية هي كفيلة بالعدالة وحقوق الرب، وقوانينه وحقوق أهله وحقوق الناس في ذيلِ حدود الدين. وعليه فإنَّ حقوق الناس أمرٌ مُقدَّسٌ في المجتمع الديني، لأنَّ حُرَمِ الناس من حُرَمِ الرَّب وحقُّ الناس وطبقاً للروايات المنقولة عن الإمام عليّ عليه السلام هي جزءٌ من حقوق الله سبحانه وتعالى،. وهذا التعريفِ ديني وليسَ ليبرالياً أو ماركسياً، أي ان الاعتداء على حرمة الإنسان وحقوقه الأساسية يُعدُّ اعتداءً على حرمة الله عزوجل. هذا هو منطق الإمام علي عليه السلام.

وقد أشار إلى ذلك في نهج البلاغة تكراراً وبتعابيرَ مختلفة، وروي عن رسول الله ﷺ انه قال: **«من قتل دون مظلمته فهو شهيد»**[٢]، وهذا ينعكس على الحقوق المادية والمعنوية، أي العزَّة والكرامة الإنسانية، وكلُّ من يُقْتَل في سبيل الدفاع عن حقوقه التي حدَّدها الله سبحانه وتعالى فهو جهادٌ ضدَّ الظلم. هذا الأمرُ يُعَدُّ ردّاً على كافة أولئك الذينَ كتبوا وقالوا إنَّ الدينَ تكليفٌ وحسب، وإنَّ الحقَّ والحقوقَ لم يُشَرإليها في الدين. كيفَ لم تَتِمَّ الإشارةُ إلى الدين بهذه الصورة؟ والرسول ﷺ أشارَ بنفسهِ أنَّ من يُقْتَل في سبيل حقوقه، كمن يُقتل في سبيل الله شهيداً، كمن حاربَ في بدرٍ وأُحُدٍ إلى جانب الرسول وقُتِلَ هناك.

إنَّ الدينَ الإسلامي دقيقٌ للغاية، فيما يخصُّ حقوقَ الناس، ولكن ليسَ الحقوق المُجرَّدة دونما تكليف، بل الحقوق التي تكونُ ناجمة عن تقبّل المسؤولية، وفي الرؤية التوتاليتية[٣] والأنظمة الاستبدادية فإنَّ المواطنينَ عليهم أن يؤدوا الواجبات ولا حقوقَ لهم. وفي الأنظمة الماتريالية[٤]، الليبرالية، الرأسمالية، فان الإنسانية والحقوق هي مجرد مفاهيم تكتب على الورق ليس لها تطبيق حقيقي في الواقع، أي ان للناس حقوقاً ولا حديثَ عن المسؤولية، وعندما يتحدث الإنسانُ هناكَ عن الواجبات فإنهُ سيُتَّهمُ بنقض حقوق

---

١ . شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، ج٣، ص١٣٠؛ بحار الأنوار،ج٣، ص٢٨٣.

٢ . تهذيب الاحكام، ج ٦، ص ١٦٧.

٣ . الشمولية أو الكُلّيّانية وهو مفهوم مستعمل من علماء السياسة لوصف الدولة التي تحاول فرض سلطتها على المجتمع وتعمل على السيطرة على كافة جوانب الحياة الشخصية والعامة قدر إمكانها، مايميزها عن السلطوية هو أن الشمولية تسعى للتحكم بكافة أوجه الحياة بما في ذلك الاقتصاد والتعليم والفن وأخلاقيات المواطنين. (راجع: ويكيبيديا: شمولية)

٤ . أي المادية.

الإنسان، وعندما يتحدث عن التطلعات والحدود القيمية فإنهُ يُتَّهمُ بالتنظير للعنف.

أما في مدرسة الإمام عليّ عليه السلام فكلُّ الناس متساوونَ في الحقوق دونما تمييز، وعليهم واجباتٌ ومسؤوليات، وحقوقهم على قدر تحمُّلهم للمسؤوليات، وعلى مقدار الحقوق التي تتوجب لهم. فهناكَ مسؤوليةٌ تقعُ على عواتقهم أمام الله وأمام الناس وأمام أنفسهم. وهكذا تُلاحظونَ أنَّ هناكَ ارتباطاً عقائدياً بينَ مُقارعة الظلم والدفاع عن حقوق الناس، وطريق الله والشهادة في سبيله. وهذا تعريفُ المجتمع الديني الذي تحدّثَ عنه أمير المؤمنين نقلاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وهو أنَّ المجتمعَ الديني يَسْهَلُ فيه أخذُ حقِّ الفقراء والضعفاء دونَ خوفٍ أو وَجَلٍ من الأقوياء.

حكومة الإمام علي عليه السلام ربانية

ونُقِلَ عن الرسول الأكرم بما هو مضمونه إنهُ قالَ: لا أحدَ كعليّ قادر على إيجاد مثل هذه الحكومة والتعامل مع المجتمع، ولذا فإنَّ الله عزوجل اختاره خليفةً من بعدي، وقد صرح أمير المؤمنين علي بن أبيطالب بذالك بالقول أنا أقواكم على هذا الأمر[1]. أي أنهُ الأقدر على خلق نظامٍ اجتماعي، ونظامٍ حقوقي وحاكميةٍ تُراعى فيها حقوق الناس والمحرومين بيسر، ويكون فيها الجميع مُحترمين، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يقومَ بذلكَ غيرَ عليّ عليه السلام، وعليه فَلَهُ حقُّ الخلافة وقد نُصِّب لذلكَ من قِبَلِ الله سبحانهُ وتعالى.

وعليه فإنَّ حقَّ الولاية والتنصيب الإلهي، مِلاكهُ الوفاء لِحقوق الناس. والعمل على الوفاء بالأخذ بيدِ الناسِ للكمالات الدنيوية والآخروية. ولقد دعا هذا المنطق الإمام علي عليه السلام للتعبير عن ذلك في الخطبة المئة والثانية والثلاثين الواردة في نهج البلاغة حولَ الحكومة. بالطبع وَرَدَتْ مثلُ هذه التعابير في أماكن أخرى عن صفات القائد الإسلامي: **«وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَالاَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلاَ الجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلاَ الحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْم، وَلاَ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ المَقَاطِعِ، وَلاَ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الاُمَّةَ»**[2].

---

١ . راجع: نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٣.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٣٢.

وفي روايةٍ أخرى يُشيرُ إلى شِرار الحُكَّام وأصحاب المناصب من عِندَهُ حُبُّ الفخرِ، أي حُبُّ الشُّهرة والجاه حيثُ يَرونَ في أنفسهم أنهم أعلى من الناس، ويؤكدُ أنهُ لا يحقُّ للحاكم أن ينظُرَ للناس نظرةً استعلائية أو نظرةَ تحقير، وأنهُ لا يحقُّ في الحكومة الإسلامية للمسؤولين أن يكونوا مُحبينَ للفخر. ويُضيفُ أنهُ لا يستطيعُ أن يتعاملَ مع حُكَّامٍ مُتكبّرين، فيبدأ بِإصلاحهم وإن تَعذَّرَ ذلكَ عزلهم. ثُمَّ التفتَ إلى الناس ووبَّخهُم بالقول إنهُ يُطيعُ الله ولا أحدَ يُطيعُه، وأمَّا عدوه فإنهُ لا يُطيعُ اللهَ، لكنَّ أتباعه يُطيعونه.[١]

الإمام عليه السلام استشهد في محرابه لشدة عدله ..

وكما هو الحال في تهذيب النفس، الذي يُعدُّ خلافاً للطبيعة فإنَّ تهذيبَ المجتمع يُعدُّ خلافاً للطبيعة، وعليه فإنَّ الكثيرينَ قد يرسبونَ في الامتحان، وهكذا نرى الكثيرين يدخلونَ المُعترك بحماسةٍ لكنهم يسقطون بسرعةٍ أيضاً. لقد جرَّبَ الإمام علي كُلَّ هذه الأنواع وكانَ أسيرَ هذه الأوضاع، وعندما تُطالعونَ نهج البلاغة، تَرونَ الكم الكبير من الشكوى من الأوضاع، حيثُ لم يكن الناسُ معه، وقد خذلوهُ وتركوهُ في المعركة وحيداً، وهؤلاء كانوا أنفسهم الذين تهالكوا لتقديم البيعة له، حتى أنهُ قال عليه السلام: «**ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم**»[٢].

هذا هو الوضع وهذه هي الأمة، لكنهُ عندما أرادَ تطبيقَ العدالة وأحسَّ البعض بمرارتها انقلبوا عليه، حتى إنَّ بعضهم خَرَجَ من الدين نِكايَةً بالإمام، وقد نكَثَ الكثيرُ منهم ببيعته، ومن لم يفعل تركوني وحيداً في القتال كما يقول الإمام. وهكذا بقيت حربُ علي لإحقاقِ عدالة غيرَ مكتملة، وقد أدَّت إلى القضاء عليه لكنَّ الإمامَ استطاعَ خلال خمسةِ أعوامٍ من حكومته أن يقضيَّ على أعدائه طوال التاريخ في طريقة تعامله وشهادته، فلم يبق الإمامُ لهم أيَّ وجهٍ في التاريخ، وباتَ كُلُّ رَجُلٍ يقودُ الحُكمَ في المجتمعات الإسلامية أو الشيعية، تَتِمُّ مُقارنتهُ بما كانَ الإمام يفعل ويتصرَّف، خاصةً في عهدهِ إلى مالك الأشتر أو عبرَ نهج البلاغة، وإن لم يجرؤ أحدٌ على قولِ ذلكَ علانيةً، فإنَّ مشروعيةَ ذلكَ ستكونُ على المحكِّ في قلوبهم. وعليه فإن لم يتم التغييرُ الأساسي في دين الأمة فإنَّ شعلة الثورة ستنطفئ بعدَ حين، ويعود خيارُ الأمر إلى

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٣ (المعروفة بالشقشقية).

البيروقراطية التي كانت لها أفكارٌ تُطبَّقُ على أرض الواقع قبلَ الثورة أي العلمانية والغربية، وتعود المؤسسات القديمة قبلَ الثورة إلى مواقعها بِمُسَمَّياتٍ متعددةٍ حتى يكونَ بعضها باسم الثورة، وتبدأ بمصادرة كُلِّ شيءٍ لِصالحها. ودُفعةٌ واحدَة نرى أنَّ الثورة الدينية والمُستضعفين والحكومة الدينية والمُجاهدينَ والشهداء باتوا تحتَ تصرُّف العلمانيينَ والرأسماليين، وتقعُ بأيدي من ثاروا ضِدّهم قبلَ عشرات السنين، وعُذّبوا بِسياطهم وهُجِّروا وأُدْخِلُوا غياهب السجون، وفجأةً نرى أنَّ الحكومة الدينية موجودةٌ وغيرُ موجودة في آنٍ واحد.

وكذا حالُ الثورة أساساً موجودةٌ وغيرُ موجودة وهكذا شَعَائِرُ وشِعاراتُ الثورة، وتَخرُجُ الثورة عن حالة الدعوة والنظرية وتتحولُ إلى اسمٍ وتقليدٍ بمعنى العادة والتكرار، وليسَ بمعنى السُّنَّة التي نتحدثُ عنها في التعابير الدينية، وهكذا تتحولُ إلى اسمٍ مُقدَّس يعودُ إلى التأريخ والأمور الدينية والشؤون التنفيذية والأمور العرفية وغير المُقدَّسة التي ينبغي لها ألَّا تتدخل في الأمور الدنيوية خوفاً من تلوّثِها. وهكذا تتحول البدع إلى سُنَنٍ في المجتمع وتصبحُ السُّنَنُ الثورية بدعةً، عندها لا يجرؤ المرءُ على ذِكر شِعارات الثورة التي انطلقت من أجلها، ومن أجل إيجاد مخرجٍ يظلُّ أمامنا طريقٌ واحدٌ لا غير، وهوَ ما فعلهُ الإمام علي وهو العودة إلى أُصول الثورة بأيّ ثمنٍ كان، ولن يكونَ هناكَ طريقُ حَلٍّ آخر. فإن عَرَّفنا الدينَ على أنهُ دعوةٌ كُبرى، وقبلَ أن نَصِلَ بهِ إلى السُّنَّة بمعناها الاجتماعي غير الديني ـ ولا أقصدُ هنا السُّنَّة بمعناها في العصمة والتي تَحمِلُ في طياتها طراوةً دائمة ـ عندها سنتوصَّلُ إلى أنَّ المفاهيم الثورية والإسلامية ستكونُ حتى الثانويةِ منها تحتوي على أنجع الحلول الديناميكية لطرح الأفكار الجديدة والطازجة، وإيجادِ حالةٍ جديدةٍ في المُجتمع الإيراني في العقد الحالي من عُمْرِ الثورة وهذا الأمرُ يُعَدُّ توجُّهاً ضدَّ الأصولية المُتلكئة عندَ الشيعة. عندها سيتبينُ لنا أنَّ الفقر الموجود والتفرقة السياسية والفاصلة الطبقية الموجودة في المجتمع ما هي إلا نتيجةٌ لشيءٍ واحد، الثورة التي قمتم بها من أجل العدالة والحكومة التي تشكَّلت من أجل العدالة، والعدالة في إطار الإسلام والروح الثائرة للإمام الخميني العظيم، وعقلانية التشيُّع والتي نُتابِعُها إلى يومنا هذا، مع كُلِّ هذه الإنجازات التي نَسْرِدُها.

عندما تَصِلُونَ اليوم إلى النضوج السياسي الاجتماعي، كيفَ لكم أن تواصلوا الطريق، وكيفَ سيكونُ حالُ الطبقة الجديدة والنواقص التي تُعاني منها، حيثُ واجهتنا في العقد

الأول بعدَ الحرب المفروضة، وظهرت في السنوات الأخيرة في اقتصادنا وثقافتنا وسياستنا وامتدَّت كالأخطبوط، حيثُ أُقيمت العلاقات مع نُظُمِ ما قبلَ الثورة، وأقيمَ الحوار مع المفاهيم الغربية وتفاهمت معها حتى كادت أن توجِدَ لنفسها مكاناً في الحاكمية. كيفَ يمكنُ لنا كَبْحُ جماحِ هؤلاء؟ وأن نكونَ خاضِعينَ جميعاً للعدل العلوي؟ وكيفَ نستطيعُ وبواسطة أيّ نوعٍ من كشَّافة النُّظُمْ الشيعية والإسلامية أن نقفَ بوجه أنواع الاستبداد بدءاً من القروي والبدوي والمدني الحضري والمُعقَّد والشفاف؟ وترى أنَّ بعضَ المُبشِّرينَ لهذه الأنواع من الأفكار المُستبدة هُم مُسلِمونَ سابقون كانوا أنفسهم في طريق مكافحة هذه الأفكار، واليوم تحوَّلوا إلى حَمَلَةٍ لهذه الأفكار وليسوا قِلَّةً أولئكَ الأشخاص، الذينَ ذهبوا لمواجهة هذه الأفكار وعندما فشلوا لِخوائِهِمُ الذاتي غيَّروا جُلُودَهُمْ.

ذاتَ يومٍ قالوا إنَّ أحد المُقاتلين انفصلَ عن مجموعته وبعدَ يومين اتصلَ عبرَ اللاسلكي مع قائدهِ ليقول لقد أسرتُ أحدهم. فقالوا له: احمل أسيركَ وتعال. فقالَ إنهُ لا يأتي. قالوا له: ارجع بنفسكَ إذن، قال: لن يسمحَ لي. فقال له يبدو أنكَ أصبحتَ أسيراً ولم تأسر أحداً. هذه هي حالة الأفراد الذينَ ذهبوا ليأسِروا الأعداء واليوم يتصلون ليقولوا لنا إنهم لا يستطيعونَ العودة ولا يأتي من شَغَلَهُم. ويُعلِنوا أنهم تابوا عن القيم الأيديولوجية والثورة، وقد تخطوا سنَّ الرُشد وتخطوا سنَّ الطفولة، فهم يضحكونَ على كُلِّ القيم التي ضحوا من أجلها وسقط الكثير من الشهداء والشرفاء من أجلها.

الحاكم ليس عبداً للناس ولا هم عبيداً له

لاحظوا كم هي صعبةٌ الظروف التي مرَّ بها الإمام علي بعدَ أن أصبح حاكماً وخليفة، كانت أصعَبَ بكثيرٍ من جهاد الإمام عليّ إبَّانَ شبابه والغزوات والحروب التي شاركَ فيها للقضاء على الكفَّار والمُشركين وأشرافِ قُريش. هناكَ كانَ تكليفُ الإمام مُحدَّداً وواضحاً وفي معركة الخندق عندما عَبَرَ عمرو بن ود الخندقَ وطلبَ مُبارزاً، خافَ جميعُ المُجاهدين ولم يَقُمْ له أحد، إلَّا علي قامَ وأجلسهُ النبي مرتين، وفي المرة الثالثة قامَ وانطلقَ لمُبارزة عَمر بعدَ أن أذِنَ له الرسول، وتمكنَ من التغلب على هذا الفارس العتيد، ولم يشعر بالخطر الداهم حولهُ في مُبارزة ابن عبد ود.

لقد قالت الزهراء بعدَ عشرة أيام من وفاة الرسول في الخطبة الفَدَكيَة بالمسجد ما مؤدَّاه:

لقد نهضَ عليٌّ لِمُبارزة عمرو وعندما خِفتُم جميعاً كُنتم مع القيم والمبادئ، لكنَّكُم خشيتم أن تُقتَلوا، لا يمكن الدفاع عن العدالة بالمجَّان. لقد كنتم أنصار العدالة بِلا استعدادٍ للدفاعِ عنها، وكُلّ ما حَصَلَ خَطبٌ أو خَطَرٌ أرسلَ الرسول له علياً، كانَ مِغواراً على الدوام[١].

وذكَرَ الإمامُ في نهج البلاغة أنهُ كانَ في الخطوط الأمامية للحروب والغزوات، وهو ابنُ الستة عشرَ ربيعاً حتى تجاوزتُ الستين، ولقد غيَّرت النبالُ ملامحي، ورغمَ كُلِّ هذه المصاعب والمصائب وقفَ عليٌّ كالطَّوْد الشامخ قُبالةَ الأعداء، وظلَّ يُكرّرُ: والله لقد وقفت العربُ في جهةٍ وأنا في جهةٍ، لن أهابَهُم، لأنَّ العديدَ ليسَ مُهمَّاً بالنسبة لي[٢].

وقد ظلَّ الإمامُ وحيداً إبَّانَ حكومتهِ وكانَ يذهبُ وحيداً مُنتصفَ الليل ويبكي عندَ الآبار ويشكو همومه ويقول بما هو مضمونه: إلهي اصرِف عني شرَّ الأصدقاء، أمّا الأعداء فإني كافٍ لهم،أدعوكَ يا ربِّ لِتدفعَ عني شرَّ الأصدقاء، أخشى أن يطعَنوني من الخلف. فبعدَ أن تسلَّمَ الإمامُ الخلافة ووقعت عليه المسؤولية المُباشرة للأمة، عَمَلَ ليلَ نهارعلى إحقاق العدل وباتَ مسؤولاً عن الأمة أكثرَ فأكثر، وبدأ بالحديث عن تطبيق العدالة وهوَ يعرفُ أكثرَ من غيرهِ أنَّ الحاكم عندما يتحدَّثُ عن العدالة فإنَّ ذلكَ سيوجِبُ عليهِ مسؤولياتٍ جديدة. عندما عيَّنَ الرسولُ بعدَ فتحِ مكة شاباً ليرأسَ الأصحاب تعجَّبَ الجميعُ وقالَ البعضُ: كيفَ يستبدلُ رسول الله شاباً ونحنُ أصحابهُ السابقون؟ لقد فَعَلَ الرسول ذلكَ لأنهُ مِّمَن يُريدُ التجديدَ بالشباب وكانَ مُحبّاً لهم. وكما هوَ معلومٌ فإنَّ الشبابَ قلما يُسيسُون الأمور وهم أكثرُ صِدقاً في التعامل مع القيم والمبادئ. وقد فَعَلَ الإمام علي ذاتَ الشيء، فقد وجَدَ شباباً غيرَ معروفين، وبَعَثَ بعضهم لإدارة الأمور في إيران واليمن ومِصر، ولم يوَّلي بعض الكبار في السن الذينِ كانوامن الأصحاب ومن شاركَ في الحرب إلى

١ . هذا عدد ممن روى هذه الخطبة (الفدكية) من العامة، فقد رواها بشيء من التفصيل وبعدة طرق عبد الحميد ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ في كتابه (شرح نهج البلاغة) ج ١٦ ص٢١١_٢١٣ و ص٢٤٩و٢٥٢. ورواها أبو بكر الجوهري المتوفى سنة ٣٢٣ في كتابة (السقيفة وفدك) بعدة طرق. ورواها ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه (بلاغات النساء) بعدة طرق. ورواها بان الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ في كتابه (منال الطالب في شرح طوائل الراغب) الصفحات ٥٠١-٥٠٧. ورواها الخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨ عن الحافظ ابن مردويه في (مقتل الحسين) ج١ ص٧٧. ورواها الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه (أعلام النساء) ج٣ ص١٢٠٨ عن طريق صاحب بلاغات النساء.

٢ . «لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين» (نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٧).

جانب الإمام وكانوا ممن يَرون في أنفسهم جدارةً للقيادة والخلافة، لم يُعطِهم حتى رئاسة البلدية في البصرة أو الكوفة، بعدها اندلعت الحروب ضد الإمام علي عليه السلام.

لقد كانت سيرةُ الإمام علي خلافاً لِكُلِّ الدبلوماسيات الرائجة في العالم، من قديمها إلى جديدها، من شرقها إلى غربها، لأنهُ كانَ يعلمُ أنَّ ساسة الدنيا يُفكِّرونَ بغير الطريقة التي يراها مناسبةً لتطبيق العدالة. ربما كانت خِطاباتهم مُختلفةً لكنهم كانوا يحكمونَ بشكلٍ مُتشابه. لكنَّ الإمام عليّ كانَ يُفكِّرُ بطريقةٍ أخرى ويحكم بطريقةٍ أخرى، ولذلكَ نَصَبوا له المكائِدَ والعداء.

بالطبع فإنَّ طريقة تعامل الحكام مع الرعية مختلفةٌ من مكانٍ إلى مكان، فالبعضُ يتحدَّثونَ مع الرعية بطريقةٍ بلهاء، والبعضُ بصورةٍ مُعقَّدة، والبعضُ يحكمونَ الناسَ دونَ أن يتحدثوا إليهم وهي أكثرُ أنواع الحكم سفاهةً. وهذه الطريقة خِلافاً إلى ما ذهبَ إليهِ الإمامُ علي عليه السلام، فعندما أرسلَ مالكاً إلى مصر وشمال أفريقيا يقولُ له: تحدَّث مع الرعية وكن بينهم، ولا تُقِمْ الفواصل معهم، فلو شكَّ الناس بك وتحدَثوا من خلفك، لا تسكت، اذهب إليهم وتحدَّث لهم، كُن صادقاً معهم مثلَ كف اليد، قُل محذوراتك للناس، تكلم عن مشاكلكَ، اعتذر منهم. لقد قالَ الإمام للناس إنني أخدمكم، لكنني لستُ عبداً لكم، وأنتم كذلك لستم عبيداً لي، لكنَّ العالمَ اليوم ليسَ هكذا، فكلُّ الناس عبيدُ الحكومات والمُرائينَ يُريدونَ ركوبَ الناس بطريقةٍ مُعقدة، حيثُ يقولون أيها الناس نحنُ عبيدكم، لكنهم يفعلونَ ما يُريدون.

إنَّ علياً قالَ للناس لست عبداً لكم، ولستم عبيداً لي، أنا وأنتم عبيدٌ مملوكونَ لرب العالمين، المُلكُ لله، وإنني مسؤولٌ قُبالتكم لأنَّ الله أرادَ لي ذلك، وسأوفي بعهدي حتى وإن أدرتم لي ظهوركم، إنني سأعملُ بالتكليف الذي يوجِبُ عليَّ خدمتكم، ولو خاصمتموني فإنني لن أفعل، سأعملُ بالتكليف. فعندما لا يكون الحكم لي وتتركوني وحيداً فإنَّ تكليفي سيكونُ محدوداً، ولكن عندما أكونُ حاكماً وتأتونَ لبيعتي فإنَّ التكليف والواجب سيختلف، ولكن على أية حال فإنني سأقومُ بعملي وواجبي ولن أفعلَ ذلكَ من أجلكم فلستُ عبداً لكم ولستم عبيداً لي[1].

---

١ . راجع: نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

الامام علي و سياسته في الحكم

بسم الله الرحمن الرحيم

بدايةً أشكر الله تعالى على توفيقه إياي وزملائي على أن نكون في خدمتكم في هذا البرنامج

ونستضيف في هذا البرنامج الأستاذ الأستاذ حسن رحيم بوربدايةً نسأل عن مسؤولية الحكومة تجاه الناس وماهي طبيعة هذه المسؤوليات من الناحية الاجتماعية والاقتصادية بالطبع لا يفوتني القول أن إقامة الحكومة الإسلامية عملية تدريجية ونسبية وهي مفهوم مطلق وواضح لكن تحقيقها أمرٌ نسبي نستمر في هذا الحديث مع الأستاذ.

الأستاذ حسن رحيم بور:

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر جنابكم و أوجه التحية للمشاهدين الكرام، في البداية لي تعليقةٌ على حديثكم الأخير إن إقامة المجتمع الديني أو الحكومة الدينية عملية يمكن تحقيقها ولا غبار عليها، هذا يمكن حدوثه نظرياً (اي على أقل تقدير في النظرية الشيعية للحكم)، لكن تحقق ذلك علمياً وعينياً يخضع لسلسة مراتب أي أنه رهينٌ بالظروف الاجتماعية مثلما هو الحال في أيام الرسول وأمير المؤمنين علي عليه السلام وفي برهة من تاريخ الإسلام لم يكن أصحاب الحق والولاية والحكومة قادرين على تشكيل الحكومة ومن استطاع منهم أن يفعل ذلك فقد اضطر لذلك تدريجياً لقد استمرت عملية التجربة والخطأ في الحكم الإسلامي حتى عندما كان هناك إمامٌ معصوم على رأس الهرم الحكومي الحاكم، ـ بالطبع لا أقصد بالأمور المتعلقة بالإمام كونه معصوم من الخطأ أساساً ـ ولهذا فإننا نلحظ في نهج البلاغة وبشكلٍ

مكرر أن الإمام علي أقدم على عزل الولاة والقضاة والمُسيئين، هكذا يبدو أن إنتاج مجتمعٍ إسلامي بحاجة إلى مشروع عمل متواصل والقيام ببعض الاجتهادات والقبول بنسبة من الخطأ خاصة في فترة حكم غير المعصوم وفي زمان المعصوم فإن الأخطاء قد تقع من لدن رجالات الحكومة باعتبارهم أذرع المعصوم التنفيذية، لقد واجه الإمام علي عليه السلام أناساً يعيشون الخرافات التي تعود إلى الجاهلية قبل الإسلام حيث عادت بعد عقدين من انتشار الإسلام وتغلغلت داخل الحكم وواجه الإمام أناساً يعيشون أفكار العبودية والجاهلية والخرافة ويحملون أفكاراً خرافيةً كما أن الخرافيين تكون أدلتهم خرافية كذلك هم الفاسدون تكون أدلتهم فاسدة أيضاً وهكذا أصبح هناك ائتلاف واتفاق غير مدون بين حزبي الجهلة والمخادعين، أي ائتلاف الثعالب والحمير وباتوا يزاحمون عمل المصلحين وأمير المؤمنين عليه السلام، من جهة أخرى لم يكن بيان مواقف الإسلام العلوي الأصيل سهلة حيث لم تكن الأجواء مواتية فكان للكلمات والمواقف ثمن ووسط كل هذه الأوضاع كان ينبغي القيام بالواجب والتكليف الشرعي ولا غير وهكذا كانت الأجواء مغلقةً بوجه الإمام علي عليه السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله في غدير خم ورغم أنه كان مقاماً سماوياً كما هو معروف فهي الحكومة الوحيدة التي نُصِّبت من قِبَلِه جلَّ وعلا في التاريخ حيث قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في غدير خم: «**من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وآل من والاه، وعاد من عاداه**»[1] وهكذا فقد كانت هذه الحكومة الإلهية الدينية أكثر الحكومات شعبية في تاريخ الإسلام لكنها كانت تفتقد إلى الأنصار، لأن الامام علي عليه السلام لم يكن يجامل ويداهن في أمر الدين وحقوق الرعية وكل من وقف بجواره عليه السلام كان تواقاً للشهادة وخوض الصعاب وفي نفس الوقت كان هناك أناسٌ أبعد من مسكنهم تتحدد أفكارهم في نطاق ضيق وكانوا يظنون أن الإمام طالب سلطة ومقام حيث قال الإمام مرة: «**فإن أقل يقولوا حرص على الملك. وإن أسكت يقولوا جزع من الموت**»[2].

ويقول الإمام عليه السلام في مقام آخر: «لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني

---

١ . الكافي، ج ١، ص ٢٩٥؛ وراجع: كنز العمال، ج ١، ص ١٨٧.

٢ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٥.

لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين»[1]، أي انه عليه السلام قضى حياته في الجبهات في الخطوط الأمامية لبسط أحكام الدين والعدل وقد لقي من الرماح والسيوف والطعن والضربات ما لقي وكانت هناك مجموعة من الناس لا تفهم الإمام، كانوا يظنون أنهم يعرفون الإمام لكنهم لم يكونوا يعرفونه ولوكانوا يُوسعون من آفاق رؤيتهم لتيقنوا أن كل شيء بحاجةٍ إلى إعادة نظر وفي ظل مثل هذه الأجواء أصدر الإمام أحكامه ضد الظلمة من المحترفين وغير المحترفين ضد أجهزة الظلم وقد ظل هذا الحكم معلقاً على جبهة تاريخ الحقوق السياسية لا يمكن فصله وهو غير قابل للحذف من التاريخ وكنموذجٍ يمكننا الإشارة إلى عهد الإمام علي عليه السلام لعامله في مصر مالك الأشتر هذه الاحكام لم تصدر من الإمام في حالة غضب أو ظروف عاطفية، بل هي حصيلة فكرٍ إنساني عظيم لا تصدر إلا من إنسانٍ معصومٍ كالإمام علي عليه السلام، يقال إن العظماء في التاريخ يلتزمون الصمت في الغربة بمهارة وكأنهم لم ينبسوا يوماً ببنت شفة، لقد واجه الإمام مشكلة أخرى وهي أن مخاطبيه لم يكونوا يفقهوا ما يقول وكان واضحاً أن المكذبين والمرائين لم يكونوا يفهموا ما يقوله الإمام وإن سمعوا لم يرضهم كلام الإمام ولم يكن بمقدورهم أن يعوا ذلك الإمام العلوي الذي كان بوسعه أن يُغذي العالم بأسره ويحل ألغاز الحياة والممات، هنا لا بد من الإشارة أن الذين حاربوا الإمام ليسوا معاندين بالضرورة أو لنقل عدداً كبيراً منهم على الأقل حيث كانوا جهلة لا يُحسنون تقدير الأمور أو ضعاف نفسٍ يفهمون الحق والباطل لكنهم ليسوا مستعدين للتضحية.

للإجابة على سؤالكم وأسئلة أخرى ستكون إجاباتنا ضمن إطار روايات أمير المؤمنين في حديثه عن الحكومة وحقوق المجتمع، إن ميزان عمل الحكومة الدينية مرتبطٌ بمدى تمسكها بعهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر عندما بعثه إلى مصر، بالطبع لو تعذر على الحكومات العمل وفق ذلك لظروفٍ قاهرةٍ فالأمر يختلف، إن وصية الإمام إلى مالك في طريقة الحكم والتعامل مع الرعية لم تكن سرية ولا خاصة ولكن من المؤسف نرى جماعات تريد أن تقول إن عهد الإمام إلى مالك يُعد شيئاً من التاريخ والماضي ولا يمكن تطبيقه في عالم اليوم، بل علينا أن نعرض دروس الحياة التي قدمها الإمام على الصعيد الفردي

---

١. نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٧.

والجماعي وما أكثرها. ما يثير تعجبي حقاً هو الإبقاء على هذه الوصاية في طي الكتمان خاصة في مجتمعنا الذي يُعد أكثر المجتمعات تشيعاً في العالم، هناك جماعة في مجتمعنا تُريد التنظير إلى أن علياً وحكومته الفذة هي شيء من الماضي وأن علينا أداء مراسم العزاء في كل عام تخليداً للإمام وحسب وأن ما طرحه الإمام ليس عملياً على الإطلاق! لقد غفلوا هؤلاء بأن المجتمع الذي بدأ الإمام علي عليه السلام بإنشائه وتربيته لا يأتمر بالسوط، لقد كان الإمام ينشئ تربية الأمة الصالحة التي تمضي في طريق الله تواصل طريقها رغم الجراح حتى بلوغ الأهداف، هناك من يؤمن بأن الإمام علياً عليه السلام لم يكن إماماً واجب الطاعة وهو اليوم جزء من التاريخ! هؤلاء من مُروجي الفكر الليبرالي الرأسمالي شاؤوا أم أبوا، إنهم يتحاملون على النظام والفكر والمجتمع العلوي دون أن يعرفوه جيدا،هؤلاء مقلدون لماكينة الإعلام إبان الحرب الباردة في خمسينات وستينات القرن الماضي في الولايات المتحدة وأوروبا، لقد ردد هؤلاء أن الأيدلوجيات ماتت، هؤلاء يؤمنون بأن الأسس والمبادئ الثورية للحكومة العلوية كانت تقف أمام العقلانية والتجربة، إن هؤلاء يهدفون لضرب النماذج الدينية في المجتمع أن ليس هناك انموذجاً نحتذي به وطريقتهم في الهجوم تكمن في إعطاء معنى موهنٍ للقيم العلوية وتحريف تعريف الايدلوجية العلوية ليكون السامع متحاملاً عليها منذ البداية، لكن حقيقة الأمر أن النعوت والصفات التي يطلقونها ضد الحكومة العلوية ومدرسة الإمام علي عليه السلام تنطبق على افكارهم ومتبنياتهم وآخر الكلام في هذه المقدمة ولو أنها قد طالت إن محاربة الإسلام مشروع عالمي ويتم متابعة ذلك في إيران وغيرها من البلدان من خلال التعرض إلى النماذج المقدسة في الحكومة والسياسة وطرح أفكار علمانية وللأسف فإن البعض يروج لهذا الأمر دون أن يعي ما وراءه، الإمام علي عليه السلام بعد سقوط حكومته في مصر وشمال إفريقيا بيد معاوية وأتباعه من بني أمية يشير في جوابه لبعض الأصحاب الذين سألوه بعدما شاهدوا غضبه بسبب سقوط مصر وعن سبب معارضته للخليفة الأول والثاني بان هذا الوقت ليس وقتاً مناسباً لطرح مثل هذا التساؤل حيث يتقدم معاوية لاحتلال المزيد من أطراف الحكومة الإسلامية وأن هذا قديم وقد مضى عليه أكثر من عقدين من الزمن فما بالكم تسألون عنه اليوم، ثم يقول الإمام عليه السلام في كتاب: «إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء، وأولي الجفاء ومن أسلم كرها، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله أنف الإسلام كله

حربا، أعداء الله والسنة والقرآن وأهل البدع والأحداث، ومن كانت بوائقه تتقى، وكان على الإسلام وأهله مخوفا، وأكلة الرشا وعبدة الدنيا، لقد أنهي إلى أن ابن النابغة لم يبايع حتى أعطاه [ثمنا] وشرط أن يؤتيه أتية هي أعظم مما في يده من سلطانه، ألا صفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا، وخزيت أمانة هذا المشترى نصرة فاسق غادر بأموال المسلمين، وإن فيهم لمن قد شرب فيكم الخمر وجلد الحد في الإسلام، ويعرف بالفساد في الدين والفعل السيئ، وإن فيهم لمن لم يسلم حتى رضخ له على الإسلام رضيخة. فهؤلاء قادة القوم، ومن تركت ذكر مساويه من قادتهم مثل من ذكرت منهم بل هو شر منهم، وهؤلاء الذين [ذكرت] لو ولوا عليكم ولا ظهروا فيكم الفساد والكبر والفجور والتسلط بالجبرية والفساد في الأرض، واتبعوا الهوى وحكموا بغير الحق، ولأنتم على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل خير منهم وأهدى سبيلا، فيكم العلماء والفقهاء والنجباء والحكماء، وحملة الكتاب، والمتهجدون بالأسحار، وعمار المساجد بتلاوة القرآن أفلا تسخطون وتهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم. فاسمعوا قولي ـ هداكم الله ـ إذا قلت، وأطيعوا أمري إذا أمرت، فو الله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصيتموني، لا ترشدون، خذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها، وأجمعوا إليها فقد شبت وأوقدت نارها وعلا شنارها وتجرد لكم فيها الفاسقون كي يعذبوا عباد الله، ويطفؤوا نور الله. ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والجفاء والكبر بأولى بالجد في غيهم وضلالهم وباطلهم من أولياء الله، من أهل البر والزهادة والإخبات في حقهم وطاعة ربهم ومناصحة إمامهم، إني والله لو لقيتهم فردا وهم ملء الأرض ما باليت ولا استوحشت، وإني من ضلالتهم التي هم فيها والهدى الذي نحن عليه لعلى ثقة وبينة ويقين وصبر، وإني إلى لقاء ربي لمشتاق ولحسن ثواب ربي لمنتظر، ولكن أسفا يعتريني، وحزنا يخامرني من أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا [والصالحين حربا] والفاسقين حزبا، وأيم الله لولا ذلكما أكثرت تأنيبكم وتأليبكم وتحريضكم، ولتركتكم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسي متى حم لي لقاؤهم، فو الله إني لعلى الحق، وإني للشهادة لمحب».[١]

وروي انه خطب أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة وهو قائم على حجارة وعليه مدرعة من

١ . الغارات، ج ١، ص ٣١٧.

صوف وحمائل سيفه ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وكأن جبينه ثفنة بعير. فقال عليه السلام: «ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم وهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء؟ يسيغون الغصص ويشربون الرنق [أي الكدر]. قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم. أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة. (قال ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام): أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه»[1]

كان هذا حال الإمام في أواخر حكومته، أنقل لكم نكتة مهمة أخرى فيما خص العهود الذي أخذها الإمام علي عليه السلام من الخليفة الثالث لصالح الأمة حيث كان الناس يعترضون على الولاة الموجودين من قبل الخليفة الثالث في بلادهم وجاؤوا إلى الإمام علي عليه السلام معلنين امتعاضهم فقال لهم الإمام علي عليه السلام: «إنّكم تُعطَون ما تريدون، وتُعافَون من كلّ ما أسخطكم، ويولّي عليكم من تُحبّون، ويُعزل نكم من تكرهون. فقالوا: ومن يضمن لنا ذلك؟ قال عليّ: أنا أضمن لكم ذلك. فقالوا: رضينا. قال: فأقبل عليّ إلي عثمان ومعه وجوه القوم وأشرافهم، فلمّا دخلوا عاتبوه فأعتبهم من كلّ ما كرهوا. فقالوا: اكتب لنا بذلك كتاباً، وأدخل لنا في هذا الضَمان عليّاً بالوفاء لنا بما في كتابنا. فقال عثمان: اكتبوا ما أحببتم وأدخلوا في هذا الضمان من أردتم. قال: فكتبوا: ... أنّ لكم عليَّ أن أعمل فيكم بكتاب الله عزّوجلّ وسنّة نبيّه محمّد، وأنّ المحروم يُعطي، والخائف يؤمن، والمنفى يردّ، وأنّ المال يردّ على أهل الحقوق، وأن يُعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أهل مصر، ويولّي عليهم من يرضون. قال: فقال أهل مصر: نُريد أن تولّي علينا محمّد بن أبي بكر. فقال عثمان: لكم ذلك. ثمّ أثبتوا في الكتاب»[2]

وعندما سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن سبب تحسر وتأسف الناس عند ذكر حكومة علي بن أبي طالب عليه السلام؟ أجاب عليه السلام: «والله إن كان علي عليه السلام ليأكل أكل العبد، ويجلس جلسة

---

١ . نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٢.

٢ . الفتوح، لابن اعثم الكوفي، ج ٢، ص ٤١٠ـ٤١١.

العبد، وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين، فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه، ولقد ولي خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعا، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم، وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير والزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضا إلا أخذ بأشدهما على بدنه[1]»، هكذا كان الامام عليٌ عليه السلام، في حين نرى أن بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله ممن كانت لهم سابقة في الإسلام تركوا ما تركوا من الأموال والذهب والفضة ولهذا لم يَرُق لأمثال هؤلاء أن يحكم عليٌ سلام الله عليه ولم يقبل الإمام رشوة من أحدٍ على الإطلاق فقد جاء في نهج البلاغة أن الإمام كان جالساً في دار الخلافة فدخل أحدهم يحمل كوزاً مغطاةً فقال للإمام هذه لكم فتعجب الإمام وقال: «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا، وأجر في الأغلال مصفدا، أحب إلي من أن ألق الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد، وغاصبا لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها والله لقد رأيت عقيلا، وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعا، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكدا وكرر علي القول مرددا فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقا طريقي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه. أتئن من الأذى ولا أئن من لظى. وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت أصلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت. فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية. فقلت هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط أنت أم ذو جنة أم تهجر. والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت وإن دنياكم عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى. نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»[2]

---

١ . الامالي للشيخ الصدوق، ص ٣٥٦.

٢ . نهج البلاغة، خطبة ٢٢٤.

هكذا كان علي عليه السلام في حكومته الإسلامية.

مُقدّم البرنامج: أستاذنا أشرتم إلى مسؤولية الحكومة الإسلامية في استيفاء الخراج ونحن نعلم أن الإمام عليه السلام كان حساساً فيما يخص بيت المال وحقوق المواطنين هل هناك رواية في هذا المجال فيما خصَّ بيت المال وحقوق الناس؟

الأستاذ حسن رحيم بور:

هناك الكثير من الروايات سأذكر بعضها لضيق الوقت، واحدة من الروايات أن عيون الإمام أخبروهُ أن والي البصرة دُعي إلى وليمةٍ للأغنياء، لاحظوا أن الإمام كان يستفيد من عيونٍ يطمئن لهم في إيصال أدق الأخبار إليه إضافةً إلى الولاة والجهاز الحكومي وقد كتبَ في كثيرٍ من الموارد: أخبرني عيني في المدينة الفلانية. وهذا يعني وجود عدد من المحققين السريين لمراقبة الأمور دون الجهاز الرسمي والحكومي كتب إلى عامله في البصرة (عثمان بن حنيف الأنصاري) وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها يقول له: «أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه...»[1]

لاحظ هكذا كان الإمام حساساً تجاه الناس وعندما كان أصحاب الإمام يفقدون الإمام في الحرب كانوا ينظرون إلى صفوف العدو كلما شاهدوا فيها شرخاً كبيراً فهو للإمام علي عليه السلام، لكن هذا الإمام الشجاع في ميادين الحرب كان يرتعد في موضعين الموضع الأول عند سماعه الأذان والثاني لدى رؤيته يتيماً او محروماً، هذا ليس ضعفٌ في حقيقة الأمر بل عين القدرة حيث يتألم أمير المؤمنين وحاكم الشرع لمشاهدة هذه المناظر أو المشاهد ويرى الأرامل والأيتام والضعفاء قد هُمِلوا وتعرضوا للخيانة من قبل المسؤولين عن بيت المال وفي الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أتى عليه أربعون يوما ولم يأكل اللحم فليستقرض على الله وليأكله» هذا الأمر واجب على الحكومة إن كانت قادرة، ويضيف الرسول صلى الله عليه وآله إن بيت المال ضامن للمسلم المقروض بعد وفاته حتى لا يتم التعرض بالإهانة

---

١. نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٥.

لعياله وهذا كله في حال وجود فائض في بيت المال طبعاً، هناك رواية منقولة عن الإمام روتها سودة بنت عمارة الهمدانية وهي امرأة فاضلة حاول فيما بعد معاوية شراء ذمتها لتمدحه وأبناءه وتقدح علياً وأبناءه فقالت: «والله لقد جئته في رجل كان قد ولاه صدقاتنا فجار علينا، فصادفته قائماً يصلي، فلما رآني انفتل من صلاته ثم أقبل علي برحمة ورفق ورأفة وتعطف، وقال: ألك حاجة ؟ قلت: نعم، فأخبرته الخبر، فبكى ثم قال: اللهم أنت الشاهد علي وعليهم، وأني لم آمرهم بظلم خلقك، ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيها: " بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٨]، فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام. ثم دفع الرقعة إلي، فوالله ما ختمها بطين ولا خزنها، فجئت بالرقعة إلى صاحبه فانصرف عنا معزولا».[1]

هكذا كان تصرف الإمام فيما يخص بحقوق الناس، لأنه كان يعتقد أن حقوق الناس مقدسة وهذاما يؤكد عليه فقهاء الشيعة حتى أن الله سبحانه وتعالى يعفو عن تقصير الناس في حقوق الرب لكنه لا يتسامح في حقوق الناس هذا بالطبع في التعريف الإلهي والأنبياء وليس في التعريف الليبرالي والرأسمالي والغربي وهكذا عندما يسمع الإمام ويطمأن بأن أحد عماله وولاته أو قضاته خان الأمانة يُقدم على كتابة رسالة توبيخٍ أو عزلٍ على الفور ولذا نرى أن أحد الولاة كان قد خان الأمانة فكتب له الإمام: «أما بعد فإني كنت أشركتك في أمانتي، وجعلتك شعاري وبطانتي، ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي لمواساتي وموازرتي، وأداء الأمانة إلي. فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، وأمانة الناس قد خزيت، وهذه الأمة قد فنكت وشغرت قلبت لابن عمك ظهر المجن ففارقته مع المفارقين، وخذلته مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين. فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أديت. وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك. وكأنك لم تكن على بينة من ربك. وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم وتنوي غرتهم عن فيئهم. فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت

---

١ . بحار الانوار، ج ٤١، ص ١٢٠.

عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله غير متأثم من أخذه كأنك لا أبا لغيرك حدرت إلى أهلك تراثا من أبيك وأمك. فسبحان الله! أما تؤمن بالمعاد؟ أو ما تخاف نقاش الحساب؟ أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما؟ وتبتاع الإماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد. فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار. ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما وأزيح الباطل من مظلمتهما. وأقسم بالله رب العالمين ما يسرني أن ما أخذت من أموالهم حلال لي أتركه ميراثا لمن بعدي . فضح رويدا فكأنك قد بلغت المدى ودفنت تحت الثرى وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع الرجعة ولات حين مناص»[1]

مُقدّم البرنامج: عفواً بما أننا دخلنا في عمق الروايات هل لك أن تُطلعنا على مصادرها؟

الأستاذ حسن رحيم بور:

نعم لقد استقيت رواياتي هذه من بطون كتب الطائفة وهي بحار الأنوار والوافي والكافي ونهج البلاغة وكتاب الحياة في مجلداته الستة ويمكن للمُتتبعين أن يُراجعوا ذلك بأنفسهم.

مُقدم البرنامج: هل هي مصادر موثّقة ومعتبرة ويعتمد عليها إخواننا من أهل السنة؟

الأستاذ حسن رحيم بور:

نعم بعض الروايات يرويها علماء الفريقين، لقد كان الإمام جادّاً مع الجميع ولا يتكلم بوجهين وكان يُعلن ما يُريده بشكلٍ شفافٍ للغاية كما هو معروف فقد تمَّ عمل لجنة لاختيار الحاكم بعد الخليفة الثاني وكان الإمام أحد أعضائها بل المرشح الأول لخلافة عمر فقد حصل على أكثر الآراء فجاءه عبد الرحمن بن عوف وقال له: إن الآراء تميل لكفتك في الخلافة يا أبا الحسن وسأضم صوتي للمطالبين بخلافتك شريطة أن تعلن أنك ستحكم

---

١ . نهج البلاغة، كتاب رقم ٤١.

على طريقة الشيخين وكان بإمكان الإمام أن يوافق للمصلحة ويرفض ذلك بعدما يعتلي سدة الحكم ويحكم وفقاً لرؤيته لكنه رفض ذلك وأعلن أنه يعمل وفقاً لكتاب الله وسنة نبيه واجتهاداً من نفسه لم يكن الإمام أهل مماشاتٍ و توريةٍ ولم يتملق للأمة من أجل الحصول على البيعة كان يطرح الحدود الإلهية ويدافع عن حقوق الرعية بقوة كان يهدف خدمة الناس ولم يكن مراوغاً لقد قال لهم الإمام: «دعوني والتمسوا غيري» لأنه كان يعلم أن هؤلاء لن يكونوا معه حتى النهاية وكان يُريد ان يقول لهم إن حكومته وإمارته للمسلمين تختلف وإن البيعة له ستكون ذاتَ عواقب وخيمة، لاحظوا ماذا قال الإمام لهم « لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان رضي الله عنه «دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول. وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت. واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا»[1]، ورغم أن الإمام حدثهم بهذه الصراحة لكننا نرى الأمة هجمت عليه أثناء البيعة حيث يصف ذلك الإمام علي عليه السلام بالقول: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون»[2] وذات مرة كان الإمام يتحدث للناس حول مراقبة الأداء الحكومي من قبل الرعية في الحكومة الإسلامية والشيعية فقال لهم: لو شاهدتموني أغادر الإمارة قد أثريت بشكلٍ غير متعارف فشكوا في أمري وقال لأهل الكوفة بالحرف الواحد: «يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان فأنا خائن»[3].

هكذا يتحدث الإمام المعصوم مع الأمة فما بالنا نحن، هذا حال وصي خاتم الرسل وقد كان مقامه بعد الرسول يعلو كُلَّ رُسلَ السماء كان يقول وهو الولي المُنصب من السماء إلى الأمة والرعية أن راقبوا أمواله، معلومٌ أنه لن يخون الأمانة لكنه أراد أن يُعطينا الدرس في كيفية بناء المجتمع الإسلامي اليوم وعلى الناس أن تسأل وعلى المسؤولين أن يُجيبوا

١ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٩٢.

٢ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٣ (الشقشقية).

٣ . بحار الانوار، ج ٤١، ص ١٣٧.

إن حساسية الإمام على قضية حقوق الإنسان ينبغي أن تترجم على الصعيد العملي في القضاء هذا اليوم وأنقل هنا روايةً عن الإمام أنه عزل قاضياً من خيرة صحابته ويُدعى أبو الأسود الدؤلي كان صالحاً ونزيهاً للغاية فعاد الدؤلي وعاتب الإمام حيث قال له لم عزلتني ما خنت ولا جنيت؟

فردَّ عليه الإمام علي عليه السلام: إني رأيت كلامك يعلو كلام خصمك[1] لهذا عزل الإمام قاضياً نزيهاً لا لشيءٍ إلا لأنه يعلو صوته على خصمه وعندنا في الفقه الشيعي في باب مسند القضاء أن القاضي لا ينبغي أن يجلس في مسند القضاء وهو غضبان فلا يجوز له شرعاً ذلك، بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن القاضي لا ينبغي أن يحكم وهو جائعٌ أو عطشانٌ أو متعب حتى قرأت في بعض النصوص إذا كان القاضي يرتدي نعلاً أو حذاءاً ضيقاً فلا ينبغي له الحكم وما يثير تعجبي حقيقةً هي الحملة الشعواء التي تمارس ضد الحكم الإسلامي في الداخل والخارج فهل هناك أرأف من الدين بحقوق الناس وكيف يمكن فصل الدين عن السياسة إذاً.

مُقدم البرنامج: إذا كان أمير المؤمنين يعزل هذا وذاك لسببٍ أو أخر فلمن يسند الإمام الأعمال والمناصب الحساسة إذاً؟

الأستاذ حسن رحيم بور:

هناك مبحثان أرجو عدم الخلط بينهما الأول هو أن الإمام هو وصي رسول الله بأفعاله يوضح الإمام منهجيته في العمل وما طرحه كان عبارة عن أنموذجٍ فالإسلام حساسٌ في باب حقوق الإنسان وعلى المشرع أن يولي أهمية كبيرة لحقوق الناس وكذلك في القضاء والاقتصاد وبيت المال والسياسة، والثاني أن الإمام لا يستطيع البقاء صامتاً عندما يرى الخطأ، وأما القول بأن الإمام اذا وبخ وعزل القضاة والولاة فلمن يسند الاعمال والمناصب الحساسة إذاً؟ نقول إن الإمام مأمورٌ بفعل هذا لتثبيت الأنموذج الأسمى فإن لم يبق احدٌ نضطر للاستفادة من أفضل الموجودين، حتى إذا لم يكن نموذجياً وهذه المشكلة موجودة اليوم أيضاً حتى في زمن الإمام الراحل رضوان الله تعالى عليه حيث كان يعلم بوجود بعض المفسدين في الحكومة وحتى الأن في زماننا هذا حيث إن سماحة القائد يعلم بوجود

---

١ . مستدرك الوسائل، ج ١٧، ص ٣٥٩.

بعض المفسدين في الحكومة وإن بعضهم يقوم بأعمالٍ تخالف الشرع المقدس ويظل السؤال كم من الناس الصالحين تماماً تمتلك الحكومة؟ هناك أشخاص مؤمنون يمكن استشارتهم ودعوتهم للمشاركة في الحكم من الجامعات والحوزات العلمية وفي المجتمع وبين طبقات الشعب المختلفة وربما كان هؤلاء أكثر نفعاً للحكومة مما هم موجودون فيها الآن وينبغي إقامة الجسور والتشاور على الدوام، بالطبع علينا إصلاح بعض الأماكن ولكننا تارةً نضطر كما اضطرَّ الإمام علي عليه السلام لتعيين القاضي شُريح هذا القاضي الذي أفتى بجواز قتل الامام الحسين فيما بعد، بحجة أنه خرج على إمام زمانه أي على يزيد وهذا يعني ان هناك أشخاصٌ غير جديرين وغير لائقين وسُراق في حكومة علي عليه السلام وكان الإمام يتعامل معهم بحزمٍ وفي بعض الأحيان لا تصل يده إليهم، لاحظوا أن الإمام علي عليه السلام كان يؤكد على مسؤولية الحكومة تجاه الشعب ويقول إن على الولاة أن يفوا بالوعود التي يقطعونها وأن يفوا بالشعارات التي يقطعونها، قبل فترة قال قائد الثورة الإسلامية: لا تعدوا الناس وأنتم غير قادرين بالوفاء وإن فشلتم في تحقيق وعدٍ اعتذروا للأمة، وهذا الأمر نابع من وصية الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر عندما ولاه مصر عندما كان الإمام يعد الإمة ببعض الأمور كان يقول بعدها «ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم»، لاحظوا أن الإمام قالها منذ اليوم الأول لم يُجامل أحداً وهو ليس مثلنا في يومنا هذا فعندما يرتقي أحدنا سُلم السلطة يعد بأمورٍ قد لا يستطيع تحقيقها لكنه ومع ذلك يعد بما لا يستطيع ليجلب عطف وتوجه الناس.وهذا الأمر موجودٌ في انتخابات الدنيا في شرقها وغربها لكننا نرى الإمام يقول للأمة حين بايعته إن الأمر لن يتوقف على البيعة بل سيتم تمحيصكم ويقول بالحرف الواحد «ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم»[1]

هكذا كانت حكومة الإمام علي عليه السلام في ذلك الزمان. نسأل من الله أن يوفقنا وإياكم لخدمة الإسلام والمسلمين.

---

١. نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦.

التيارات المعاصرة ومواجهة ثقافة عاشوراء

علاقة قضية عاشوراء بحاضرنا

إنَّ الحديثَ عن الحسين يُعدُّ بمثابة الفكرة والنظرية وليسَ شخصيةً فقط، لقد تمَّ التعامل مع قضية الحسين عليه السلام على مر التاريخ بأشكالٍ مختلفةٍ فكرية وتاريخية، وكذلك من جهة المباحث الثقافية في إيران أشيرُ إلى نوعين منها فقط، وسأكتفي في هذا البحث بالحديث عن زاويةٍ مُحددة كانت ذاتَ مصداقٍ قبلَ الثورة وظلت كذلك بعدها. فهناكَ تعامل المحايد مع القضية باعتبار أن قضية الحسين عليه السلام لا تعني الإيرانيين فحسب، والقولُ إنَّ كُلَّ ما وقعَ للإمام الحسين في عاشوراء وكلَّ ما حصلَ من اعتداءٍ عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وقتل الإمام وأصحابه هو عبارةٌ عن حادثةٍ تاريخيةٍ عربية وقد نَفَذَ تاريخُها، وأنَّ استذكارَ قضية الإمام الحسين عليه السلام يُعدُّ مضيعةً للوقت، لأنَّ ما حصلَ في سالف الزمن لا يخصُّ مُجتمعنا، لقد كانت هذه الرؤيةُ موجودةً قبلَ انتصار الثورة وأخذت أشكالاً قومية، حيثُ قالوا إنَّ مجموعةً من العرب تبارزوا فيما بينهم فقتلَ بعضهم بعضاً، وهُزِمَ قسمٌ ورَبِحَ المعركة قسمٌ آخر، وقامت فئةٌ أخرى للاعتراض على الرأي القومي وأرادت بزعمها أن تُدافع عن الإمام عليه السلام، واستذكار قضيته بالقول: إنَّ والدةَ الإمام زين العابدين عليه السلام إيرانية، وعليه فهوَ من حيثُ الأم مُرتبطٌ بإيران ليمنحوا طابعاً عقدياً وارتباطاً وثيقاً مع قضية الإمام الحسين عليه السلام. كانَ هذا أعلى مراتب التدخل التنويري في قضية الإمام الحسين عليه السلام.

وبعدَ الثورة الإسلامية تمَّ طرحُ القضية بشكلٍ آخر، حيثُ قالوا إنَّ تأريخَ استهلاكِ قضية الإمام الحسين عليه السلام قد نفذ، وأنَّ القضية ترتبط بالماضي التاريخي، ولا علاقة لها بما

يجري اليوم، وإنَّ القضية دارت وقائعها في صدر الإسلام، وإنَّ الشيعة زادوا من حماستها دونَ مُبرر، وأضافوا لها أبعاداً في القيم. وقالوا إنها مسألةٌ تخصُّ العصر والدين وترتبط بالكفر والعدل والظلم، لكنَّ المسألةَ لم تكن بهذه الأبعاد وقد تمت إضافةُ ذلكَ فيما بعد. والحقيقة هي عبارةٌ عن معركةٍ بينَ قبيلتين عربيتين بين بني هاشم وبني أميَّة حولَ الكرسي والحكم والتاريخ، وقد تجلَّى قسمٌ من تاريخ صدر الإسلام حولَ هذا الأمر وعليه فهؤلاء يَرَوْنَ أنَّ اقصاء الإمام عليّ بعدَ النبي كانَ على هذا المفهوم والأساس، حيثُ اقتتلَ الأبطالُ من قُريش فيما بينهم حولَ الدنيا والحكم وهكذا فسَّروا الحروبَ التي خاضها الإمام عليٌّ مع الخوارج وغيرهم باعتبارها حروباً داخلية بين العرب وقد سرى هذا النوع من التفسير إلى الإمام الحسن عليه السلام ومن ثَمَّ إلى الإمام الحسين عليه السلام وهكذا فسَّروا ما حصلَ في عاشوراء.

لقد كتبوا في السنوات الأخيرة أنَّ حربَ الحسين ويزيد كانت بينَ قبيلتين وقد بدأت في جدَّي الطرفين، حيثُ قامَ جدّ الحسين عليه السلام بإقصاء جدّ يزيد عن سلطة قريش، أي غَلَبَ النبيُّ الأكرم أباسفيان وكانَ من أشراف وكبار قومه ومن أصحاب الثروة والقوة في مكة، حيثُ ذلَّه أيَّما إذلال، فجاءَ أبناءُ هؤلاء وانتقموا من بعضهم ومنحوا هذه المعارك ألقاباً من حركة أدعياء التنوير، وللأسف قرأت في بعض الصحف ما يُشير إلى ذلك. وللأسف كَتبَ أحدهم: لا يمكنُ وقفُ نزيف الدم بإراقة الدم، وقال: إنَّ الرسول أراقَ دماءَ قُريشٍ في بدر، وجاءَ يزيدٌ ليُجيبَ ما حصلَ في بدر، وحاربَ الإمامَ الحسين، لكنَّ الأمرَ تواصلَ، لأنَّ إراقة الدم ستسمر، وكانَ ينبغي وقفُها في مكانٍ ما، وإلا مالنا نحنُ وحربُ بني هاشم وبني أميَّة، إنها قبائل عربية تقاتلت فيما بينها، فتارةً يقتل هذا ذاك، وتارةً بالعكس. إنَّ تكرار هذه القضية كُلَّ عام، واستمرارَ ارتداء السواد والبُكاء واللطم، واستذكار عاشوراء وتاسوعاء، لا تعني إلا الاستمرار في ثقافة العنف، وإراقة الدماء والانتقام القبائلي، وهذا لا ينفع وينبغي أن يُقدِّمَ الإنسانُ خدمةً كبيرةً لحقوق الإنسان من خلال العمل بمبدأ التسامح والتساهل، وعلينا وقفُ هذا المسلسل من العنف وإراقة الدماء. فقد قَتَلَ أصحابُ النبيّ في بدرٍ أصحابَ وقادةَ بني أميَّة، وهكذا استمرت دوامةُ العنف والقتل، وقد انتقمَ يزيدٌ لمقتل آبائهِ وأجدادهِ في عاشوراء وكربلاء، ولا ينبغي علينا الاستمرارُ في هذا الموضوع، وهذا النوع من التسطيح في القضيَّة هو تحديداً ما كانَ يزيدٌ يُرَدِدُهْ، لا أدري هل أنَّ أنصارَ حركة

التنوير يعلمونَ أنَّ ما يدعونَ إليهِ هو ذاتُ الكلام والجُمَلْ التي كرَّرها وقالها يزيدٌ وأصحابُه.

أوضاع قريش قبل الإسلام

وعندما انتهت واقعة الطف بشهادة الإمام الحسين عليه السلام، وسيقَ الأسرى من بيت الرسول إلى دمشقَ وقصر يزيد، وعندما وضعوا رأسَ الإمام في طَشتٍ أمامَ يزيد وبدأ يضربُ بعصاً خيزرانية على ثغر الإمام وأسنانه ويُكرّر ذلك أمامَ رأس الإمام ويفعلُ ذلكَ أمامَ نساء وأطفال الإمام، ثُمَّ ردَّدوا شِعرَهُ المشهور: ليتَ أشياخي ببدرٍ شَهِدوا...

أي شهدوا ما فعله بالإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، ثُمَّ يواصلُ شِعرَهُ ليقول:

لَعِبت هاشمٌ في المُلكِ فلا خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نَزل..

وأنَّ وَالدَ الحسين وجدَّهُ أرادوا أخذَ القوة والسلطان منَّا، فذهبوا وصنعوا نظريةً كما يقول المعاصرون، وطَرَحوا الله مُقابل الأصنام وبدلاً من حياة الأشراف والطبقية، طرحوا مسألة العدل الاجتماعي، وأرادوا إزالة الزنا والشِراب والجِنسِ والرِّبا، لأنَّ ثقافة جزيرة العرب في زمان بعثة الرسول الأكرم كانت تدور حولَ هذه الموضوعات، وأرادَ الرسول صلى الله عليه وآله تغيير ذلك، حيثُ كانت العلاقات الاجتماعية تدور في أجواء الجنس والعنف والشراب والرِّبا والقِمار، ولم يكن الزنا في ذلك الحين من أجل الحصول على المال والنقود، بل كان الزنا يُعَدُّ قيمةً اجتماعية حيثُ كانت جدَّةُ يزيد أمُ معاوية وزوجة أبي سفيان هند من النساء التي كانت ترفعُ علماً وهي من النساء التي لا تحتاج إلى المال، حيثُ كانت تُمارس الفحشاء والزنا، لأنهُ كانَ قيمةً اجتماعية. حيثُ كانَ ارتباط نساء الأشراف مع سائر الأشراف والتُجَّار، وزعماء القبائل، بمثابة القيمة الاجتماعية.

وهكذا كان حال الاقتصاد قائماً على الرِّبا، والعلاقات الجنسية قائمةً على أساس الزنا، وكانوا يُقيمونَ الحربَ على أتفه الأمور كالأطفال، لقد كانَ القتلُ ثقافةً عندهم في الجاهلية وكانت مسألةُ إراقة الدماء مسألةً عاديةً في مكة ويثرب. وكانت هناك حربٌ بين الأوس والخزرج في يثرب استمرت لفترةٍ طويلة بينَ القبيلتين، وكانَ رِجالُ القبيلتين يقتلونَ بعضهم بعضاً ويخطفون نساء بعضهم بعضاً. وكانَ العربُ يتقاتلونَ على أتفه الأمور كأن يكونَ جَمَلاً مثلاً، وعليه جاءَ الرسول لإزالة هذه الثقافة وإحلال الأخلاق محلَّ ثقافة العنف وإفشاءَ

المحبة والإنسانية، جاءَ ليُوصي بالجار، ويقول للأغنياء والميسورين إنَّ عليهم أن يلتفتوا للفقراء. أوصى الجارَ بالجار حتى قال البعضُ إنَّ تأكيدَ الرسول على الجار جعلهم يظنونَ أنَّ الجارَ يَرِثُ جاره وكانت المرأةُ تُعَدُّ بضاعةً جنسيةً ومدعاةً للعار في الأسرة، وعندما كان الرجل يُبَشَّرُ بالأنثى يكفهرُّ وجههُ ويشعر بالخجل ويغضب لأنهُ رُزِقَ بأنثى.

لا فرق بين الذكر والانثى في الإسلام

في مثل هذا المجتمع جاءَ الرسول ليقولَ أنَّ البنتَ والمرأة إنسانٌ كامل تقف إلى جوار الرجل وهيَ مُتممٌ للذكر وليست إنساناً من الدرجة الثانية، حيثُ تُشيرُ الآيات القرآنية إلى أنهُما يتمتعانِ بذات الفرصة والإمكان لنيل الكمالات الإنسانية والإلهية. حيثُ يَرِدُ في القرآن الكريم: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾[1]، لقد تَعمَّدَ القرآن الكريم في مُخاطبة بني البشر بنوعيه الذكر والأنثى بالإشارة إلى من يُريد الكمالات والعبادة لله، وألا يتصور البعض أنَّ التفاوت والاختلاف بين الرجل والمرأة يدعو إلى حقوقٍ ووظائف للرجل على المرأة، فإنَّ هناك الكثير من التشابه والاشتراك يدعو إلى أن تكونَ حقوقهم وواجباتهم مُشتركةً ومُتشابهة، وهناك بالطبع وظائف مُختصَّة لا يستطيع الجنس الآخر القيام بها، وهي من خصوصيات خلق الله، وعليه يكون هناك فرقٌ واختلافٌ في الحقوق والواجبات في تلكَ النواحي وحسب، ولكن هما في الإنسانية وإمكانية التقرب إلى الله والكمالات الإنسانية، و الرُشد وتكامل الإنسان لا يختلفان عن بعضهما، وكانت هذه الدعوة التي طرحها الإسلام طارئاً كبيراً على ثقافة الجزيرة العربية، وفي يومنا هذا تظلُّ دعوة الرسول غيرَ مُستساغة لبعض سكان الأرض.

في هذا الصَّدد قال الشهيد مرتضى مطهَّري رحمه الله: «إنَّ الظُلمَ الذي مُورِسَ ضدَّ المرأة في الغرب كانَ فيما مضى من التاريخ على شاكلةٍ واليوم هو على شاكلةٍ أخرى». فيما مضى من التاريخ كانت إنسانية المرأة في عِداد الأمور المنسية، أما اليوم فإنَّ وجودها كامرأةٍ وإنسانٍ قد مُحيَّ من الذاكرة، في دورةٍ زمنية تمَّ تناسي كون المرأة إنساناً، وفي دورةٍ آخرى كونها امرأة وتمَّ في كلتا الحالتين النيلُ من المرأة، وعليه فإنَّ أدعياء حركة التنوير يقولونَ إنَّ الرسولَ

---

١. الاحزاب: ٣٥.

كانَ رجلاً واحداً لا ندَّ له وعليه لم يستطع إزاحتهم عن مواضعهم، لذلك بدأ في مسألة إيجاد ثقافةٍ خاصة وطَرَحَ شِعاراتٍ في مجال الاقتصاد، وطَرَحَ مسألة العدالة ونفي الربا، وفي مجال الأخلاق الاجتماعية نفي العلاقات الغيرَ مشروعة ومسألة الجنس. وفي مجال العنف جاء لتعديل العلاقات الإنسانية وفرض الاحترام للإنسان ودَمِهِ وماله وعِرضه.

كانَ المشركون يقولونَ إنَّ ما يأتي به النبي مُختَلَقٌ وليسَ من لَدُن البارئ وما يُوحي إليه، وعندما يتلو عليهم آيات القرآن يقولونَ إنهُ من تأليفه!! حيثُ يذهب ويستوحي مما قالته اليهود والنصارى ويتلوه على الناس. كل هذا يأتي ضمن مخططٍ وبرنامجٍ ثابتٍ من قبل الرسول الأكرم ﷺ، ولو لم يقل إنَّ ما جاءَ به هو من عند الله، فإنَّ الشباب من حوله لن يكونوا ليُخدعوا بأقواله، ولذلك فإنَّ من يؤمن به هو غبيٌّ وساذج، وكانوا يسخرونَ من الآية القرآنية التي تقول: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[1].

قيادة المجتمع بالبطش والقوة

هكذا نزلت الآيات القرآنية على مُجتمعٍ كان قتل النفس عنده كشرب الماء، وفي يومنا هذا يواصل المشركونَ قتل الناس، لكن مع أخذ التطور العلمي بالاعتبار، إضافةً إلى إيجاد آلياتٍ ونظريات جديدة، وفي ظل الظروف القديمة لم يكن الإنسان بحاجةٍ إلى طرح تبريراتٍ كما هو اليوم حيثُ يتمُّ التبرير للقتل، وكان الإنسان فيما مضى بحاجةٍ إلى ضحيةٍ وإنسانٍ بيده السيف ليضرب، أما اليوم فإنَّ عمليات القتل تتمُّ وفقَ آلياتٍ تنويريةٍ ويتم طرحُ حقوق الإنسان والحرية والديموقراطية، ويقول هؤلاء للآخرين نحنُ مُتمدنونَ وأنتم وحشيون، إننا ديموقراطيون، فإن اتبعتمونا فبها ونعمة، وإذا رفضتم ذلك قُمنا بحقنكم بمبادئ الديمقراطية وأصولها من خلال القنابل الكيمياوية والميكروبية.

وفيما مضى لم يكن الناس ليعرفوا هذه الطُرق في القتل، وكانوا يعيشونَ عصوراً قديمة، وكانوا يفعلون ذلك بضرب السيف، لكنَّ القتل في يومنا هذا يتمُّ بعدَ وضع التبريرات والتنظير لها، إنهم لا يقومونَ بالقتل بواسطة السيف، إنهم يعمدونَ إلى القتل من خلال

---

١. المائدة: ٣٢.

الضغط على زرٍّ واحدٍ ليموتَ نِصفُ مليون آدمي. وهذه طريقةٌ أكثرَ حضارية ولن يتعكر فيها صفوُ أحدٍ ولا حتى تندثرَ ملابسهُ أو تتمزَّق ويمكن للمجرم أن يفعلَ ذلكَ وهو جالسٌ خلفَ حاسوبه أو في غرفة مُطالعتهِ في المنزل أو عندما يحتسي القهوة ويُدخنُ السيجار، ويمكن للإنسان أن يبحثَ في ذلكَ ويطرحَ محاضرةً تنويريةً قبلَ أن يضغطَ على الزر وبعدَ ساعتين، يُسلِّمُ تقريراً يقول: إنهُ تمَّ في المدينة الفُلانية قتلُ خمسة آلاف شخص أو عشرة آلاف شخصٍ من الرجال والنساء والأطفال.

إنَّ هذا النوع من الجرائم والعنف يتمُّ في يومنا هذا، والتنظير لها وجعلها آلية، ولم تنتهي بل تتضاعف. تتضاعف عشرات المرات في الكم والنوع وباتت أكثر خطراً وفتكاً، نعم لقد جاء الرسول الأكرم ليُعارضَ ثقافة العنف في مجتمع جزيرة العرب، وهي لم تكن بالانتشار الذي نُشاهده اليوم، فكلُّ الذين ذهبوا ضحيةَ معارك التاريخ مما جنتهُ أيدي جنكيز خان، وفرعون وأمثالهم، لم يبلغ مِعشارَما سقطَ في الحرب العالمية الثانية، إنَّ الإعلام يُحاول تصوير الحرب على أنها كانت عالميةً، أي بمشاركة العالم، لكنها لم تكن كذلك وكانت حرباً بينَ الغربيين، وكذلك الحرب العالمية الأولى، لقد كانت حربُ الغربيين أنفسهم، وكانت من أجل تقسيم الغنائم والعالم، لقد انجرَّت الحرب إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وتحوَّلَ العالم إلى جبهة حربٍ لمصالح القوى الأوروبية والولايات المتحدة، لم تكن هناكَ حربٌ عالمية، لقد وقعت هذه الحرب بعدَ دخول الغرب في العصر الحديث وهي الفاشية والماركسية والليبرالية، وكُلُّ المدارس التي جاء بها العصر الحديث والبالغة أربعٌ وعشرينَ مدرسةً ونظريةً فكريةً وسياسية خلالَ النصف قرن الأخير.

بغض بني أمية لآل محمد ﷺ

من خلال ذلك أريد القول إنَّ رسالةَ الرسول الأكرم ﷺ ما تزالُ قائمةً إلى يومنا هذا وهي رسالة التوحيد. هي حيّةٌ وإنسانيةٌ ولم يكن المشركونَ في يومها ولا في يومنا هذا ليسمعونها، إنهم يقولونَ إنَّ النبي كان يختلقُ هذه الآيات والأوامر ليُثيرَ الجماهير، ويتسلم السلطة، وبعدَ عشرينَ عاماً من العمل الذي بدأهُ الرسول في السر والعلن قبل البعثة وبعدها قالوا إنَّ الرسولَ أغوى شبابنا والتحقوا به والآن لا يسعنا أن نفعل شيئاً، فقد شارفَ الرسول على فتح مكة فما علينا إلا أن نقول: لقد آمنَّا وندخل هذا الدين ثُمَّ نخطو الخطوة

المناسبة. وهكذا نجحوا في خطتهم. لقد انتقمَ من هُزِمَ في بدر من الإسلام في كربلاء، وهناكَ يُعربُ يزيد عن فرحتهِ بالانتصار على الحسين ويُعلِّقُ تعليقتهُ الشهيرة: (لا خبرُ جاءَ ولا وحيٌ نَزَلْ).

عندها يصبح يزيد حاكم العالم الإسلامي، والإمام الحسين يصبح يومها مُتطاولاً ومُتجاوزاً على القانون والأمن وينشد العنف ويُريد الفتنة، وعليه يُصدِرُ أمراً بهدر دمه وممن يا تُرى؟ من حفيد من حاربه الرسول لِكُفرِهِ ولقيادته المشركين، ويُصبح حفيد الرسول متمرداً خارجاً على القانون، فيُقطعُ رأسه، وظنَّ يزيدُ أنَّ الأمرَ قد انتهى وأصبحَ كلُّ شيءٍ في خبركان، ووضِعَ رأس الحسين أمامهُ وقال: لقد قضينا عليكم، وأضاف: أعرفُ أنَّ كُلَّ ما قالهُ الرسول عن الوحي وعن الآخرة وعن الله والملائكة والجن والجهاد والشهادة والعدل كانَ عبارةً عن شِعاراتٍ فارغة، وأنكم كنتم تنشدونَ القوة والسلطة حيثُ يقول في شِعرهِ: (لعبت هاشم بالمُلكِ فلا خبرُ جاءَ ولا وحيٌ نَزل).

وقد استسلمنا لكم أولَ الأمر، وها نحنُ نُعاودُ أخذَ السلطة منكم، ويقول إنَّ كربلاء هي مُقابل ما حصلَ في بدر. أولئك الذين سقطوا في بدرٍ لأنهم عارضوا الإسلام ورفعوا السلاح بوجهه وجاؤوا بعدَ ثلاثين أو أربعينَ عاماً ورفعوا المصاحفَ على الحراب وحاربوا الإمام علي عليه السلام.

أصبحت الوقائع كالتالي: الرسول ضدَّ أبي سفيان، ومعاوية ضدَّ الإمام علي في حرب صفين، حيثُ يُهزَمُ أبوسفيان ويستسلم بعدَ سنواتٍ وتُفتحُ مكَّة ويستولي الرسول على أموال جزيرة العرب، لكنهُ سرعان ما يلتحق بالرفيق الأعلى، وتأتي الأحداث التي أعقبت وفاة الرسول الأكرم والحكومات التي استمرت لعدةِ سنوات، ثُمَّ يأتي الإمام على مسند الحكم وتبدأ المواجهة بين الإمام الذي كان أولَ شخصٍ يؤمن بالرسالة وسَجَدَ لله وأولَ من رفع السيف لإعلاء العدالة ورفعة الدين، وكان منذُ بداية بلوغهِ في مكة بالخط المُقدم لكافة الحروب التي خاضها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يتوان عن الحضور في ميادين الجهاد عندما كان يشعر بأنَّ الخطر يُداهم المسلمين، وعن هذا يقول الإمام عليه السلام: «فيا عجبا للدهر»[1]، ينبغي أن أتعامل مع أناسٍ حاربوا الرسول صلى الله عليه وآله، فأيُّ زمنٍ هذا يا تُرى؟ وللأسف

---

١. نهج البلاغة، كتاب رقم ٩.

يقول: باتَ العوام يسألونَ من هو على حقٍ في هذا الصراع، والأنكا أنَّ الناسَ باتوا يقولونَ تُرى من منهم كانَ على حق؟ وأخذوا يطرحون التحاليل المختلفة في هذا الصدد، والسبب في وقوع هذه الحرب.

عجباً للإنسان كم ينسى، لقد انقلبت الأمور بعدَ أربعة عقودٍ من الزمن، تُرى ماذا حصل؟ إنهم يُقارنونَ بينَ الإمام ومعاوية، ثمَّ يقولونَ إنَّ معاويةَ كانَ داهيةً، ويستطيع إدارة المجتمع بصورةٍ أفضل، وهو ما لا يستطيع الإمام عليه، لكن الإمام يردُّ على ذلكَ ويُقسِمُ أنَّهُ أدهى العرب، لكنَّ التقوى تمنعهُ من فعل ذلك. الإمام كان يحترم الأصولَ التي يؤمن بها، ولم يكن معاوية بأدهى من الإمام عليه السلام ولم يكن سياسيَّاً بِقَدْرِهِ، حيثُ قالَ عليه السلام: «ما معاوية بأدهى مني»[1].

واقعة الطف لم تكن لولا فتاوى علماء بني أمية

لقد قال البعض إنَّ الإمام علياً إنسانٌ وَرِعٌ لكنَّهُ لم يكن سياسيَّاً، لأنه لم يكن لِيُحبذَ الناسَ لنفسه، لكنَّ معاوية كانَ أفضل.

لاحظوا أنَّ الأشخاص الذينَ حاربوا القرآن في بدرٍ رفعوا القرآن في صفين على الرماح وسيطروا على السلطة والحكم بعدَ عشرينَ عاماً، وقاموا بقتل الحسين في كربلاء. لقد فعلَ يزيدُ ذلكَ بفتوى صدرت من قاضي الحكومة من شُريحٍ القاضي، الذي كانَ قاضياً في زمن الإمام عليٍّ أيضاً. فلم يجرؤ بنو أميَّة على قتل الحسين حفيد رسول الله هكذا، لقد أقدموا أولاً على استحصال فتاوى علمائهم، لأنهم كانوا يعلمونَ أنَّ الحسين حفيد الرسول، كانَ مُبلِّغاً للدين الحقِّ والإسلام الصحيح، وأنَّ رَهْطَ بني أمية اشتهروا بالكذب وكانوا ممن يشربونَ الخمر، ويزنونَ ويَفْسِدُون، لكنهم لم يأتوا من هذا الباب بل قالوا إنَّ الحكومة القانونية هيَ بأيدينا الآن، وهؤلاء لهم عداوةٌ سابقة مع قبيلتنا، وهم يُريدونَ النيلَ من النظام والقانون والأمن، ويُريدونَ الفُرقة والاختلاف الداخلي والحرب وإراقة الدماء فما هوَ حكمُ مثل هؤلاء شرعاً وقانوناً؟

فجاءَ الرَّدُّ من شورى القضاء، أنَّ هذا خروجٌ و فتنةٌ واعتداءٌ على القانون والحكومة

---

١. نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٠٠.

ومن يفعل ذلك فهوَ مهدور الدم، وهكذا تحرَّك ضدَّ الإمام الحسين شخصياتٌ مثل عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد وشمر، وكانَ الأخير من ضُبَّاط الإمام علي عليه السلام، وكانَ من قادة جيش أميرالمؤمنين في معركة صفين، حيثُ حاربَ ضدَّ معاوية، وكانَ الإمام يتولَّى أحد محاور القتال، وكانَ الشِمرُ يُديرُ محوراً منها، والمحاور الأخرى كانت بيد الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام أو مُحمَّد بن الحنفية.

وهكذا يتبين أنَّ شِمراً كانَ من رفاق الإمام الحسين في صفين لكنهُ في عاشوراء أي بعدَ نحو عشرينَ عاماً أصبحَ ضدَّ الإمام الحسين عليه السلام. وفي ظُهرِ عاشوراء خَطَبَ الإمام الحسين في الأعداء لكنهم لم يسمعوا له وظلّوا يُصفِرون ويقطعونَ كلام الإمام، حتى لا يصل صوته، بعدها يقول الإمام لهم اهدؤوا، أما لكم أن تسمعوا آيات الله وأنا أتلوها عليكم؟ ويستمر الصفير والاستخفافُ إلى أن يقولَ الإمام أعلمُ لماذا لا يمكنكم سماعُ آيات القرآن، «فقد ملئت بطونكم من الحرام»[1] الذي أغدقهُ عليكم بنو أميَّة، وهوَ حقُّ الناس والمحرومين، وأعلمُ مدى خَوفِكُمْ وهَلَعِكُمْ من سماع القرآن، لأنَّ ذلكَ ليسَ في صالحكم بعدَ الآن، لأنَّ إقامة أحكام الله والعمل بشرع الله لا يُناسبكم.

لقد جاءَ أدعياء التنوير اليوم بنفس الجُمَل التي نطقَ بها يزيد حيثُ يقول:

لم يكن هناكَ وحيٌ ولا خبرٌ عندما حَكَمَت بنو هاشم، وأنَّ الأمر عبارةٌ عن أقوالٍ تَقَوَّلَها جدُّ الحسين ليجذبَ الناس إليه فتعادلنا بعدَ قتل الحسين وأصبحت واحدةً بواحدة.

وعندما كانَ يُقالُ لهم ماذا نفعل بالآيات القرآنية الموجودة؟ كانَ ردُّهم: أنها من ابتداع واختراع الرسول وكان عوام الناس يُخدَعونَ بهذه الكلمات، ويتساءل هؤلاء ساخِرين، كيفَ كانَ الله قريباً من الرسول ولم يكن مع الآخرين؟

يزيد وأهل البيت عليهم السلام بعد وقعة الطف

لقد كانَ المُشككونَ يحترمونَ في الظاهر القرآن والرسولَ في حياته، ويُصرِّحونَ بذلك، لكنهم انقلبوا على أعقابهم بعدَ فترةٍ زمنيةٍ ليست بالطويلة، وهنا لا بُدَّ من التذكير بخطبة الإمام السجاد عليه السلام، حيثُ لم يكن إلا شاباً يتجاوز العشرينَ ونيِّف وكانَ مُكبَّلاً بالأصفاد في

---

[1] . راجع: بحار الانوار، ج ٤٥، ص ٨.

مجلس إبن زياد حيثُ عرّى الأخير. بعدها نهضت زينب عليها السلام عقيلةُ بني هاشم لتَرُدَّ على قول إبن زياد: «كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ اللهِ بِأَخِيكِ وَ أَهْلِ بَيْتِكِ»؟

بالقول: «مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلًا، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَسَيَجْمَعُ اللهُ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ فَتُحَاجُّ وَ تُخَاصَمُ، فَانْظُرْ لِمَنِ الْفَلْجُ يَوْمَئِذٍ، ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ مَرْجَانَةَ.»[١]

ثُمَّ تُزلزلُ بخطابها مُلكَ يزيدٍ وبكت كافةَ نسائهِ والجواري حتى ثار القصر ضدَّ يزيد بفعل خُطَب الإمام زين العابدين وعمته زينب وفاطمة بنت الحسين عليه السلام، وهكذا يضطر يزيد لإقامة مجلس العزاء، ويُنكِرُ أنَّ لهُ ضلعاً في قتل الإمام أصلاً ويُلقي باللوم على عبيد الله بن زياد وبن سعدٌ وقال: أنَّهُ قالَ لهذين الرَجُلَين أن يُخمدا الفتنة ولم أقصد إراقة الدماء، إنَّ هؤلاء من الحمق أفرطوا في الأمر ولستُ المُقصّر في ذلك.

وبعدَ إقامة مجلس العزاء طَلَبَ من أتباعهِ احترام الأسرى! تُرى لماذا؟ لأنَّ خُطبة الإمام زين العابدين وعقيلة بني هاشم ألَّبتْ الموقف ضدَّ يزيد، وانقلبَ الموقف في دمشق ضدَّ يزيدٍ ما اضطرَّهُ إلى تغير التعامل مع الأسرى من آل بيت الرسول، وبخلافه فقد كانَ وضعُ هؤلاء في خرابةٍ أول الأمر وكان الناسُ يقذفونَ الأسرى بالحجارة ويبصقونَ عليهم، ويجرُّونَ شعورَ بناتِ آل محمدٍ لا بل يَجرُّونَ الأطفال على التُراب ويضربونهم أمام الجميع.

لكنَّ الموقف قد انقلَبَ عَقِبَ الخطب التي ألقاها الإمام السجاد عليه السلام والعقيلة زينب عليها السلام، بعد ذلك كانت نساء القصر والجواري يأتين لزيارة الأسرى أفواجاً أفواجاً ويُظهرنَ لهم المواساة ويبكينَ لمصابهم، حتى اضطرَ حكام دمشق إلى إقامة مراسم العزاء ومعاملتهم باحترام وقال لهم مبعوثو يزيد بإمكانكم البقاء أو الرجوع إن شئتم العودة إلى المدينة.

محاولة تشكيك الناس بواقعة الطف

وفي يومنا هذا ترونَ أن أدعياء التنوير يُرِدِّدونَ أنَّ القرآن هو كلام الله مجازاً، لكنهُ في الحقيقة ناجمٌ عن تجربةٍ نفسيةٍ خاضها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مع نفسه وبعدَ هذه الرياضة

---

١ . بحار الانوار، ج ٤٥، ص ١١٦.

النفسية خرجَ الرسولُ من الغار فخطر على باله مجموعةٌ من الجُمَل والعبارات التي ادَّعى أنها كلام الله يوحى إليه وما هذه الأقوال إلا تجارب باطنيةً ونفسيةً يقوم بها الدراويش في العادة.

وكان تصرفهم مع قضية الإمام الحسين عليه السلام بهذه الصورة حيثُ قالوا: ومن يكون الحسين؟ وماذا حَصَلَ في عاشوراء؟ إنها قضيةٌ تاريخيةٌ تخصُّ العرب ما بالُنا كُلَّ عامٍ نُردِّدُ مأساة الحسين ونضرب الوجوه ونلطم على الصدور ونبكي؟ تُرى أيُّ شيءٍ نستذكرهُ في هذه الواقعة التاريخية؟ فقد قتلَ بعضٌ بعضاً. ألم نشهد في التاريخ قتلاً في مواطنَ عدَّة والتاريخ يُذكرنا بالكثير من المظالم التي أُرتُكبت؟

ومقابل هذا النمط من التفكير ظهرَ خطٌّ آخر أفرطَ في إقامة مراسم العزاء الحسيني وكانَ بمثابة الإفراط مُقابل التفريط، وخرجَ الطور عن التعاليم الإسلامية خاصةً في ذِكرِ واقعة الطف فقد غالا هؤلاء كثيراً سواء في تدوين الواقعة، على سبيل المثال ذكروا أنَّ أبا الفضل العباس كانَ يحملُ رمحاً فألقى به صوبَ العِدا وإذا به يمضي ويقتل حتى قَتَلَ ألفاً وخمسمائةٍ وأربعةٍ وثلاثينَ شخصاً، ثمَّ اعترضهُ أحد الأشخاص وضربهُ بالسيف فَقَذَفهُ فصعدَ إلى السماءِ ولم نشهد عودته! وأمثالُ ذلك.

فقد أوجدَ هؤلاء وقائع وأحداثاً لم تحصل أساساً ويمكن تفسيرها على أنها محاولةٌ من البعض لضرب الشيعة، وربما حاول البعض إيجادَ ذلك لضرب الاتجاه الحكومي، والتحركات ذات الطابع الثقافي ضدَّ واقعة الطف، وعليه تَصَوَّروا أنَّ تعبئة الجماهير صوبَ واقعة الطف لابُدَّ وأن تُحشَّى بأمورٍ تُثيرُ الناس حتى لو كان هذا الأمرُ بصورةٍ غير صحيحة. المهم هو تحريك العواطف والشجون عندَ الناس وهكذا اختلقوا مجالس ووقائع لم تحصل ولم يُسجل التاريخ أيَّ من هذه الروايات المُبتدعة عن واقعة الطف.

كذلك تمَّ التضخيمُ في وقائع عاشوراء في أدب المراثي الحسينية. بالطبع كان هذا الوضع مألوفاً قبلَ انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وقد تحسَّنَ الوضع بعد الثورة من هذه النواحي. وكانَ الوضّاعون ينسبونَ للأئمة أشياءَ غيرَ صحيحةٍ لإثارة عواطف الناس، على سبيل المثال ومن أجل تحريك عواطف الناس كانوا يقولون: بلى، لقد ضربوا زينب فجلست والتمستَ العِدا وبَكَتْ، وقالت أنا بنتُ الرسول لِمَ تُعامِلونني بهذه المُعاملة؟ لماذا

تُعنِّفونَ الأطفالَ والصغار؟

وكانَ بعضُ رواد المنبر يُكرّرونَ ما يجري في بيوتهم وعلى نسائهم، إن اختلفَ الزوجان أو ضَرَبَ الزوجُ زوجته فتقومُ بالتماسه ِوكذا تفعلُ الأختُ مع أخيها على المنابر على أنهُ لسانُ حالِ زينب سلام الله عليها. لقد أضافوا الكثير من هذه الحواشي إلى الواقعة الحقيقية بُغيةَ إثارة العواطف. بالطبع هذه فئةٌ جاهلة فعلت هذا بقصدِ إثارة المشاعر، لكنَّ هناك أيادي فعلت ذلكَ عن قصدٍ بُغيةَ النيّلِ من الشيعة، حتى إنَّ البعضَ أضافَ إلى مراسم العزاء، فوضعَ الأثقالَ وعلقها على جلده، أو يُدخلونَ السيوفَ والإبَرَ أو يطرقونَ المساميرَ في أجسامهم وتسيلُ الدماء منهم.

هذه صورةٌ من العزاء الحُسيني التي وجِدت لمواجهة الأفكار الثقافية العلمانية التي كانت الأنظمة المُختلفة تُثيرها لحرف الناسِ عن عزاء أبي عبد الله، حيثُ ردَّدوا كثيراً في أدبياتهم: لِمَ البُكاء ولِمَ الحزنُ كُلُ عام؟ وما علاقة هذا التصرف مع الواقعة التاريخية القديمة؟

تعلمونَ أنَّ الحُكامَ قاموا بتخريب مقام الإمام الحسين عِدةَ مرات بُغيةَ طمس واقعة الطف، لمحَو ذِكرى الإمام الحسين عليه السلام، فلقد سوَّوا القبرَ بالتراب وأقاموا الحدائق، لكنَّ الشيعةَ حَفِظت الموضع الأصلي للقبر وظلَّ هذا الأمر ينتقل من صَدرٍ إلى صدر وكانوا يعلمونَ الموضعَ بواسطة الأشجار وظلوا يأتونَ إلى موضع القبر ويُسلمونَ عليه ويزورونهُ من بُعد، ثُمَّ تأتي حكومةٌ أخرى وتفتح المياه على موضع القبر وتُغرقُ المنطقة بالمياه وقد فعلوا ذلكَ في زمن بني أمية وتكرر الأمر مع بني العباس الذينَ جاؤوا إلى السلطة تحتَ يافطة الدفاع عن أهل البيت والثأر لهم.

وظلَّ الشيعةُ يُعلّمونَ أبنائهم موضعَ القبر الشريف تحديداً حتى يُشيرونَ إلى موضع قَتْلِ الحسين وأخيه العباس عليهما السلام وفعلوا ذلكَ مع مقام السيدة زينب سلام الله عليها. الشيعة حَفظت أماكنَ ومواضعَ قبور الأئمة والأولياء رغمَ كيد الأعداء، ورغمَ أنَّ يزيداً وجلاوزته قاموا بقتل السلالة الطاهرة من أهل بيت النبوة، وبهذا العمل كانَ جوابُ الشيعة على بني أمية ومن لفَّ لفهم إلى يومنا هذا، أننا سنُحي ذكرى الطف وكل الوقائع يعني كل وقائع المعركة من عصر يوم التاسع من مُحرم إلى ظهر العاشر من محرم الحرام كل عام، حتى

إنَّ بعضَ رواياتنا تقول عندما يأتي ذِكرُ الحسين تباكوا.. في إشارةٍ نوعيةٍ إلى واقعة الطف، حتى وإن لم تتأثر عواطفكم في ذلكَ الوقت وطأطِئوا رؤوسكم وتفاعلوا مع المجلس، لأنَّ اسمَ الحسين يعني الوقوفَ بوجه الظلمِ والربا والفقر والاستبداد والتكبّر والنفاق.

ملحمة عاشوراء وتفاسير المدارس المعاصرة ... عرض و نقد

بتعاليم الإمام الحسين عليه السلام ننتصر

يقولُ أنصار مدرسة أهل البيت عليهم السلام: إنهم قد دوَّنوا واقعة الطف منذُ عصر يوم التاسع من مُحرم إلى ظهر عاشوراء وباتوا ينقلونَ ذلكَ ويطرحونهُ في المجالس كلما سنحت لهم الفرصة، وقالوا بأننا سَنُعرّجُ على كربلاء في كُلِّ مقالةٍ وكتابٍ حتى وإن لم يرتبط بالموضوع ونحاول وصلَ كُلِّ شيءٍ بقضية كربلاء ولن نَدَعَ هذه الذكرى تَفوتُ علينا أو ننساها، وباتوا يُخاطبونَ أعداء الإمام على مر التاريخ بالقول: إنكم تُحاولونَ محوَ ذكرى الحسين وثورته لكننا نفعل العكسَ ونُكرسُ ذلكَ في حياة أتباع مدرسة أهل البيت حتى لو اقتضى الأمرُ أن نتظاهر بالبكاء والتألُّم حيثُ تدعو الروايات إلى التباكي حتى ولو لم يكن الإنسانُ مُتأثراً بعد وعليه أن يُطأطأ الرأسَ وأن يضعَ يديه على وجهه وعينيه[1].

هذه رسالةٌ واضحةٌ وجميلةٌ، وبهذه الصورة حُفِظَت مراسمُ عاشوراءَ والإمام الحسين عليه السلام، لأنَّ الحُكامَ استفادوا من سياسة الترغيب والترهيب لمحوا ذكرى الحسين عليه السلام، لأنَّ ذكرى الحسين يعني الثورة على الظلم والحكومة الجائرة، ويعني الثورة ضدَّ الربا والفقر، ويعني محاربة الاستبداد، ويعني محاربة الظالمين والمتكبرين، لأنَّ النفاق سيزول ولأن الإمام الحسين عليه السلام ثارَ ضدَّ هذه الأمور. إنَّ لحزب الله في لبنان قناةً فضائيةً تحمل اسمَ «قناة المنار» ويُلتَقَطُ بَثُّها في عموم المنطقة، كان قد وجَّهَ أحدُ المُشاهدينَ الفلسطينيينَ سؤالاً وهم في الغالب من

---

١ . راجع: كامل الزيارات، ابن قولويه، ص٢٣١؛ بحار الأنوار، ج٤٤، ص ٢٨٢؛ وسائل الشيعة، ج١٤، ص ٥٩٦.

الأخوة من أهل السُّنَّة، قد شاهدَ أفلاماً وصوراً عن العمليات الاستشهادية التي نفَّذها مُقاتلو المقاومة الإسلامية، حيثُ يودّعُ الابنُ أمهُ وتقول هذه الأم لولدها اذهب، وتقول للثاني اذهب. وهذا المشاهد قد شاهدَ العِصابةَ على جبين المقاتل وقد كُتبَ عليها «يا حُسين» وأمثالُ هذه الكلمات. والفلسطينيونَ كانوا قد استلهموا في انتفاضتهم وعملياتهم الاستشهادية من عمليات المقاومة الإسلامية في لبنان، حيثُ لم يكن معروفاً تنفيذُ مثل هذه العمليات من قبل، فقد بدأها أبناءُ جنوب لبنان ضدَّ القوات الصهيونية، ولذلك استطاعت المقاومة الإسلامية أن تهزم إسرائيلَ لأولِ مرةٍ في تاريخ هذا الكيان، حيثُ لم تتراجع إسرائيل عن أيةِ بُقعةٍ أخرى كانت احتلتها. وهناك الكثيرمن المناطق التي ما تزال مُحتلة في الضفة الغربية ومصر والجولان السوري، وما اقتطعته إسرائيل من البلدان العربية ما تزال تحتله، وإذا بأحد الفلسطينيين يكتب رسالةً إلى قناة المنار ويقول: هل يمكن للحسين أن يَقْدِمَ إلى فلسطين؟ الحسين الذي حَررَلبنان! لم يكونوا على إطلاعٍ كاملٍ بقضية الإمام الحسين عليه السلام، نقول لهؤلاء: نعم إنَّ بإمكان فكرالإمام الحسين أن يُحرّرَ فلسطين شريطةَ أن يتبعوا تعليماته التي ثارَمن أجلها. وهكذا فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام خطَرٌيهدّدُ كيانهم، لأنَّ ذكرى ثورته تؤرّقُ الكثيرين، لأنَّ عاشوراء تعني الثورة على الطغيان وضماناً للعدل والإنسانية والكرامة، وعندما يكون الحديث عن الصلابة والصمود فهذا يعني أنَّ الوقوفَ بوجه العدل والكرامة من قبل الأعداء يعني الوقوفَ حتى آخرقطرةٍ من دمائنا، ولذلكَ حاولَ الحكام الجائرون تضييع قبرالإمام الحسين، وفَتَحوا المياهَ على قبره الشريف وحَرَثوا الأرضَ التي تحوي قبرهُ الشريف عِدّةَ مراتٍ على مر التاريخ لتضييع علائم القبروحتى يتمَّ نسيان الإمام الحسين لكنَّ الأمرلم يُفلح.[١]

بعدها حاولوا طمسَ حقيقة ما جرى في كربلاء ثقافياً، حيثُ قالوا إنَّ عاشوراء تعني العنف تعني الجهاد تعني استخدام السلاح تعني الحماقة وظلُّوا يُكرِّرونَ هذه المفاهيم المغلوطة إضافةً إلى استخدام وسائل أخرى منها حرق المكان. لقد فشلوا في كُلِّ ما يفعلونه وقالَ أتباعُ مدرسة أهل البيت إنَّ ما حصلَ عبارة عن عارِثَبُتَ في التاريخ ولن يُمحى من صفحة التاريخ ولا يمكنهم غَسلُ هذا العارولن نسمح لهم بذلك فلا يمكنهم قتل الحسين

١ . راجع: تتمة المنتهى، الشيخ عباس القمي، ص١٦٥؛ الكامل في التاريخ، إبن أثير الجزري،ج٢، ص١٢٥.

ومن ثَمَّ تضيعُ الموضوع وكأنَّ شيئاً لم يحصل، إنَّ هناكَ سوءَ فهمٍ وانتهى لن نسمحَ بِتميّعِ الجريمة مهما حصل، وأن تدخلَ هذه الجريمة في سجل التأريخ وكفى، هكذا يقولون، ينبغي رفعُ لواء الجهاد والشهادة والعزَّة والكرامة الإنسانية من خلال قضية الحسين على الدوام ولن نسمح بمحاربة ثورة الحسين ثقافياً أو بغيرها من الطرق.

وفي الجهة المقابلة نرى أنَّ هناكَ تياراً اتَّجَهَ نحو الانحرافِ والتضخيم في واقعة الطف ولو رجعنا إلى التاريخ لرأينا أنَّ الحُكامَ المستبدين على مر التاريخ منعوا زيارة الحسين تارةً، لكنَّ أتباعَ أهل البيت تمسَّكوا بالموضوع رُغمَ معارضة الحكام ورغمَ تعرضهم للأذى والضرب والقتل أحياناً. وعندما شاهدَ حكام الجَوْرِ أنَّ أتباع أهل البيت لن يتركوا شعائر الحسين وزيارته قالوا إذاً نضعُ شرطاً لمن يُريدُ زيارة الحسين يقضي بقطع أطرافه فلم يتراجع الموالونَ لأهل البيت، بل شكَّلوا صفوفاً طويلة للزيارة وطالبوا جلاديهم بفعل ذلك لأنهم مُشتاقونَ لزيارة الحسين عليه السلام. هكذا ظلت قضية الحسين حيَّةً في ضمائر الشيعة ولو تلاحظون في إيران إبانَ الحرب المفروضة لم تكن عمليةٌ واحدةٌ من العمليات تُنفَّذُ دونَ ذكر الإمام الحسين أو التوسل به ولن تجدوا وصيةً من وصايا الشهداء ليسَ فيها ذكرٌ للإمام الحسين عليه السلام.

كانَ الأعداء يخافونَ من اسم الإمام الحسين وثورته ومن هذه التطبيقات العمليّة على الأرض في يومنا هذا وهكذا تبدو ثورة الحسين تُخيف الأعداء، لأنَّ ثورة الحسين علَّمت أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن يقف الثائر بوجه الظلم ولو كلَّفهُ ذلكَ مقتلَ ابنه الرضيع فهو سيأخذُ بدمه ويُلقيه إلى السماء ويقول كما قال الإمام الحسين: «إلهي رضاً برضاك»[1]. فقد فعلَ ذلكَ الإمام الحسين يومَ العاشر من مُحرَّم وقال بعدما ذبحوا ابنهُ الرَّضيع عبد الله وألقى بدمه إلى السماء وقالَ: إلهي إنَّ الأمرَ سَيَهُونُ عليَّ لأنهُ في سبيلك.

وتُعلمنا ثورة الحسين أنَّ شيوخاً طاعنينَ في السن مثلَ حبيب بن مظاهر التسعيني حيثُ كانَ شدَّ حاجبيه بعصابةٍ شدّت رأسهُ، لأنَّ الحاجبين كانا يسقطان على العين فيمنعانهِ من رؤية حملَ السلاحَ دفاعاً عن الإمام واسُتشهدَ بينَ يدي الإمام الحسين، لأنَّ الأعداءَ لا يستطيعون الوقوفَ بوجه هذه الثقافة. الثقافة التي تُقدمُ قرابيناً في سبيل

---

١. موسوعة كلمات الإمام الحسين، ص٥١٠؛ مقتل الحسين، مقرم، ص٧٥٣: «الهی رضی بقضائک تسلیما لأمرک لامعبود سواک یا غیاث المستغيثين».

العقيدة من الطفل الرضيع إلى الشيخ التسعيني وتعتبر هذا من أصول المقاومة. حتى لم يمنع الإمام سَبيُ أهل بيته ولم يردعهُ قَولِ الحق والثورة على الطغيان من أسر حرائره وبناته وزوجته حتى قيلَ له: سيدي! إنَّ نسائكَ ستُسبى وربما كشفوا عَنْهُنَّ الحجاب ربما تعاملوا مَعَهُنَّ كالجواري. فيقول: لا، لا يمنعُ ذلك، ولا عيبَ في الأمر لأنهُ في ذات الله. تُرى هل يستطيع أحدٌ مُجاراة هذه الثقافة؟

ولذلك ينبغي للطغاة وحُكام الترهيب والترغيب للظلمة والمستكبرين الخوف والهلع من هذه الثقافة، وينبغي لهم أن يفتحوا المياه على قبر صاحب هذه المدرسة الثورية ثُمَّ يأتونَ لمواجهة ثقافة الجهاد والشهادة وعاشوراء ولن يبقى لهم طريقٌ آخر، لأنَّ هذه الثقافة ستقضي على الظلم والظالمين ولن يستطيعَ أحدٌ الوقوفَ بوجه ثقافة عاشوراء.

ظاهرة التطبير

إنَّ مجرد إحياء ذكرى عاشوراء من كُلِّ عام حيثُ تُعبِّرُ جماهير الأمة عن حزنها فهذا يعني الخزيَ والعارَ للظَلَمَة، وأنَّ البكاءَ في ذكرى الإمام يَضعُ مشروعية الحكام أمامَ التساؤل. وعلى مَرّ التاريخ قامَ البعضُ ومن أجل إظهار المقاومة أمامَ الطغاة مُقابل التهديد بقطع الأطراف في حال التوجّه إلى زيارة الحسين، وقاموا بضرب رؤوسهم بالسيف والقول للطغاة بماذا تُخيفوننا؟ من الدماء؟ فنحنُ مستعدونَ لفعل ذلك بأيدينا ماذا تُريدونَ بعدَ ذلك؟

بالطبع ذكرتُ ذلك في سياق الرد التاريخي ولم أتحدث عن الموضوع في سياق التأييد لهذه الظاهرة، بل أردتُ الإشارة إلى ردود الأفعال التي برزت من قبل الشيعة مقابل ظلم حُكام الجور، وللأسف تمَّ تحريف هذه المسألة بمرور الأزمنة وأصبحت قضيةٌ مُفرطةٌ وخُرافية وقد استَغلَّ الأعداء هذه الظاهرة رويداً رويداً و فقدت ظاهرة التطبير فلسفتها الوجودية. وليسَت هناكَ أيةُ روايةٍ تدعوا لضرب الصدور أو الرؤوس، وكلُّ ذلك عملٌ أوجدهُ الشيعة بمرور الزمن، لأنَّ هذا الموضوع يُمارسُ من أجل الذكرى وضرب النفس سواءً بواسطة اليد أو سلاسل الحديد، وكلُّ ذلك يعود إلى الأزمنة التي كان حكام الجور يُهددونَ الشيعة في مسألة زيارة الحسين واستذكار واقعة الطف، فكانَ ضربُ السلاسل على سبيل المثال لمواجهة التهديد بالجَلْدِ من قبل الحكام لكل من يريد زيارة قبر الحسين عليه السلام.

ورويداً رويداً تحولت هذه المظاهر إلى آدابٍ وتقاليد. لا أريد هنا القول إنَّ الكثير من هذه العادات كانت ثورية وكانت في الحقيقة نوعاً من اتخاذ الموقف ضدَّ الظلم والجور، وبعدها تحولت إلى عاداتٍ وآدابٍ اجتماعيةٍ وثقافيةٍ وتمَّ تناسي فلسفتها وتحولت شيئاً فشيئاً إلى موضوعٍ خُرافيٍّ وأمرٍ غيرِ هادف، وتُصبحُ هي في حدِّ ذاتها مانعاً مثلَ ربطِ الكلاليبِ والأقفال وتعليقها في منطقة الصدر وضرب الرؤوس بالسيوف والتي يتمُّ القيام بها في بعض الأماكن.

لقد فقدت أسبابها ومصداقيتها لكن البكاء وإقامة مجالس العزاء ولطم الصدور وإظهار حالة الحزن، وإظهار الفاجعة التاريخية من قبل أتباع مذهب أهل البيت كلُّ هذه تُريدُ إيصالَ رسالةٍ مُفادُها: أننا ورغمَ مرورِ نحوِ ١٤٠٠ عامٍ من هذه الحادثة الأليمة ما نزالُ نشعرُ بالعزاء، وأنَّ الدماء التي أُريقَتْ في تلكَ الفترة من التاريخ ما زالت ماثلةً في أذهانِنا.

كلُّ يومٍ عاشوراء

في أحد الاجتماعات كانَ أحدُ الأساتذة الأوروبيين ولم يكن مُلمَّاً ببعض الأمور المذهبية، كان قد شاهدَ عبرَ التلفاز الإيراني مراسم عاشوراء على مدى يومين بعدها قالَ: ترى ما الذي حصل؟ فقيل له: إنها مراسمُ عزاءٍ لأحدِ قادة الشيعة قتلوهُ وأسروا أهلَ بيتهِ وعياله فقالَ: متى وقعت هذه الحادثة؟ لم نسمع فيها بالأخبار؟ فقالوا له إنها وقعت قبلَ ١٤٠٠ عامٍ خَلَت، فتساءلَ: ولِمَ البكاء عليه بهذه الحرارة؟ وأنتم تقولونَ إنَّ الحادثة قد وقعت قبل أكثرَ من ألف عام؟

بعدها أضافَ أنَّ طريقةَ بُكائكم هذه تُشيرُ إلى أنَّ الرجلَ قُتِلَ للتو! فردُّوا عليه بالقول: نعم. لقد أريقَ دمُ الحسين عليه السلام بالنسبة لنا كيوم أمس ولن يلعبَ عنصر الزمان والمكان دوراً مهماً في هذه القضية، لأنَّ مُناشدةَ العدل والحقيقة لا تعرف الزمان والمكان وليسَ مهماً متى أُريقَ هذا الدم. المهم أنَّ هذا الدم الطاهر أُريقَ وهذا هو المهم بالنسبة لنا. فتعجبَ كثيراً لكلِ ما يرى من اهتمامٍ بذكرى شهادة الإمام، وكيفَ يبكي الإنسانُ مأساة الحسين عليه السلام بعدَ كُلِّ هذه الفترة الزمنية الطويلة وكأنَّ الإمامَ قُتِلَ بالأمس.

معنى السجود على تربة الإمام الحسين عليه السلام

إنَّ تُربةُ الحسين بالنسبة لنا عزيزةٌ للغاية وهيَ من حيثُ كونها تربةً لا تفرق عن سائر

أنواعِ التربة ولا فرقَ بينها وباقي تُربة العراق، لكن يُقالُ إنَّ السجودَ على تربة الحسين أكثرُ ثواباً[1]. تُرى لماذا؟ وما هو الفرق بين تربة الحسين وتربة الكوفة أو البصرة أو تربة الحجاز أو همدان أو أيَّةِ ذرةِ ترابٍ في الرَّي أو أي مكانٍ آخر؟

يأتيكَ الجواب: إنَّ الفرقَ يكمن في أنَّ هذه الأرضَ والإنسان والتاريخَ شَهِدَ ملحمةً لم تُسجل في كل التاريخ ملحمةٌ مثلها. ربما كانت الأحداث التاريخية مهمة، لكن أي منها لا يرقى إلى حادثة الطف وأهميتها وعليه فإنَّ السجودَ على تربة الحسين في الصلاة تختلف عن السجود بغيرها، لأنَّ الإنسانَ في تلكَ السجدة عليه أن يلتزمَ عملياً بأسباب ذلك، وأحدُ هذه اللوازم العملية السجود لله سبحانه ومن ثُمَّ التوحيد، وهناك عملية أخرى يتمُّ تناسيها في المجتمع الإسلامي، ألا وهيَ الاستعداد للتضحية في سبيل هذه الأصول.

إنَّ السجدة على تربة الحسين تُذكرنا دوماً أنَّ هذه السجدة هي حركة توحيدية، وهيَ بغض النظر عن الفداء والإيثار والاستعداد للتضحية بالغالي والنفيس والاستعداد للموت، وألا يوجد شيء مُهماً بالنسبة (للإنسان)، أي ألَّا يكونَ أي شيءٍ عائقاً أمامَ التضحية بالروح والمال والعيال والحياة والجار والشخصية والاعتبار، وأن يكون على استعدادٍ لفقد أي شيءٍ من الوثائق والعمل، وأن يكونَ مُسلِّماً بكل شيء. هذا هوَ معنى السجدة على تربة الحسين، أي أنَّ التوحيدَ يرتبطُ بالولاية والعدالة، لأنَّ السجود على تربة الحسين تختلف مع السجود على باقي التراب، لأنها توصل التوحيد بالولاية والعدل وتوصل بينَ الإنسان والجهاد والشهادة، وهذا ما يتمُّ مواجهته ومحاولة منعه.

الحذر من الغلاة والمغالين

ومن جهةٍ أخرى ينبغي أن نقفَ أمامَ الثقافة الخرافية التي يتمُّ طرحها في المجالس الحسينية، والمدائح والإسراف في ذكر الدم وضرب رؤوس الأطفال الرُّضَّع بالسيوف على رؤوسهم باسم عبدالله الرضيع، وضرب السيوف من قبل الكبار لأنفسهم. إنها أمورٌ غيرُ واردة. حتى مسألةُ ضرب الظهر بالسلاسل ولطم الصدور، لن تَجدَ ذِكراً لها في الروايات.

الروايات تُشيرُ إلى إحياء ذكرى الحسين والبكاء في ذكرى استشهاده، وما عدَا ذلكَ فهيَ

---

١ . راجع: بحار الانوار، ج ٨٢، ص ١٥٣.

حركاتٌ رمزية أوجدها الشيعة أو الإيرانيونَ على وجه الخصوص وهي جميلة للغاية، حيثُ ترى الملايين ينزِلونَ إلى الشوارع ويذرفونَ الدموع ويلطمونَ الصدور في مراسم خاصة كأنَّ ظهر اليوم العاشر من مُحرَّم هوَ ذاكَ يومُ الواقعةِ في كربلاء. ورغم ذلك علينا أن نكونَ حذِرينَ ويقِظين ألا تخرج هذه المراسم عن المفاهيم الإسلامية والقيّمة والأحكام الإسلامية، وتتبدل إلى قضايا حمقاء خُرافية وكاذبة أحياناً، فيها المُبالغة والغلو، لأنَّ الإمام الحسين عليه السلام وسائر الأئمة نُقِلَ عنهم القول إنَّ المغالين غيرُ مؤمنين، أي من يقولُ إنَّ الأئمةَ هم أعلى مرتبة ودرجة من الأنبياء، وفي بعض الأحيان يوصلونَ مرتبتهم إلى مرتبة الله سبحانه، فهؤلاء ليسوا بمسلمين، والأئمة منهم بُراء، حتى إنَّ حُكمَ الاعدام نُفِذَ ضدَّ مجموعة من المغالين كانوا في زمن خلافة الإمام عليٍّ عليه السلام[1]، وكانَ هؤلاء يؤلِّهونَ الإمام عليّ عليه السلام، وكانَ الإمام يُعاني من أعدائه ومن هؤلاء أيضاً.

في غزوة الخندق على ما أتصور، ذكَرَ الرسول صلى الله عليه وآله إنني أعلمُ أشياءَ من عليّ لو بُحتُ بها لقيلَ في حقهِ ما قيلَ في عيسى بن مريم ولكانَ نُعِتَ بالألوهية، ولكانَ الناسُ جمعوا التُراب الذي تحت قدميه تبرّكاً[2]، لأنَّ النبي كانَ يخشى أن يتمَّ التعامل مع الإمام بعدَ وفاته بهذه الطريقة. ولكن شاهدنا في التاريخ كيفَ تمَّ التعامل معه.

وهناكَ روايةٌ عجيبة، حيثُ يُروى أنَّ الإمامَ كانَ مع جماعةٍ من أصحابه يمرونَ أمام موضعٍ ما، فلاحظَ أنَّ جمعاً تسمَّروا في الطريق، وظلّوا يُعاينونَ الإمامَ بطريقة العاشق الولهان وكالعبد الذي يرى مولاه، فرجعَ الإمام ونَظَرَ فإذا هم يهمسونَ بكلامٍ بشفاههم ويقولون: أنت، أنت، أنت. ففهمَ الإمامُ ما يقولون لأنّهُ كانَ قد أخبر بوجود مثل هؤلاء وكانوا من الغلاة. وقالَ لهم: ما بكم لعنكم الله، فقالوا له أنت الرَّب، أنتَ الإله، قالوا: أنتَ أعلى مرتبةً من المسيح ابن الله، وهناك تقول الرواية إنَّ الإمام نَزَلَ من الفرس وسَجَدَ لله و ذرَفَ الدموع واستغفرَ لهؤلاء وقالَ: إلهي أنتَ تعلمُ تنفُّري مما يقولون، إنني عبدُك ولا أرضى بما يصفوني، وأنتَ جلّت قدرتك تعلمُ صدقي، فنهضَ وكفكفَ دموعهُ وقال: أظنُّ أنكم لا تقصدونَ ما تقولون. فَردُّوا: لا بل نقصد فأنتَ الرب. فقال: استغفروا وارجعوا إلى رشدكم، وبخلافه سآمرُ بقتلكم. فقالوا: اقتلنا. لا نعودُ عن كلامنا.

---

١. رجال الكشي، ص ٣٠٨؛ مقتل الإمام أمير المؤمنين، إبن أبي الدنيا، تحقيق: محمد باقر المحمودي، طهران، ١٩٩٠م.
٢. راجع: الكافي، ج ٨، ص ٥٧ ـ ٥٨.

فأمرَ الإمام بحفر خندقٍ وإلقاء الحطب فيه، وحفروا حفرةً إلى جواره وفتحوا قناةً فيما بينهما، وأشعلوا النارَ في الحفرة، وأغلقوا الفوهة وألقوا المغالين في الخندق، واختنقوا وماتوا جميعاً. ثمَّ جاء البعض وقال للإمام: لم فعلت ذلك يا سيدي؟ كانوا من المُريدينَ لكم! لقد كانوا يعشقونك! فَردَّ الإمام: لقد انحرفوا عن التوحيد باسم علي[١]، ولا يهم إن فعلوا ذلك باسم عليّ أو ضدهُ، فهم خانوا، وعليه ينبغي معاقبة الخائنين، ولو لم يفعل الإمام ذلك لكان خرجَ البعضُ بعد حياة الإمام ليقولَ: لقد ألَّهوا الإمام وتغاضى هو عن ذلك، وقالَ: حسناً لست إلهاً ولكن سأصفحُ عنكم. ولو لم يفعل الإمام هذا بالمغالين، لم يكن ليبقى من الإسلام في يومنا هذا شيءٌ ألبته. لقد رأى الإمام أنَّ الإسلامَ كُلَّهُ والبشرية والتاريخَ تقف في كفَّة، وهؤلاء المغالونَ العشرة أو العشرون في كفَّةٍ أخرى، وأنَّ ما يقولونهُ ارتدادٌ عن الدين لذلكَ عالَجَهُمْ بما ينبغي.

لقد كانَ هدفُ الإمام القضاء على الإلحاد والانحراف والمؤامرة، سألَ البعضُ لماذا يُحكم المُرتَدُّ بالإعدام؟ بالطبع لا نعني بالمرتد من يسأل أو يستفسر أو يشك أو يجهل، فلا يصدق على هذا إطلاقاً اسم المرتد مثلما يتصور البعضُ خطأً، فهؤلاء مُستضعفونَ في أفكارهم. المُرتد هو من يفهم ماذا يقول وماذا يفعل، فهوَ مُتأمرٌ على الإسلام وعليه إنَّ من يفعل شيئاً خارجَ إطار الجهلِ فإنهُ مُرتدٌ وينبغي إصدار العقوبة ضده.

وينظر الإسلام إلى الارتداد على أنه الوقوفُ العلني والصريح وعن سبق إصرار وتصميم ضدَّ الدين ومفهوم التوحيد وهو بمثابة القتل المعنوي، أي ارتكاب المجزرة المعنوية العامة وغَلق الطريق أمامَ كُل عطشى المعرفة والروحانيات، أي خداع المؤمنين.

المرتد يقول في حقيقة الأمر إنَّ الأنبياء جميعاً كذَّابون، وإنَّ كُلَّ الأنبياء من أوَّلِهم إلى آخرِهم مُبتَدِعُون، وأنَّ البشرية خُدِعت بوجود هؤلاء وتضحياتهم وجهادهم وتحمُّلِهم الصِّعابَ والسجنَ والنفي والجوع والتعذيب والقتل. وإنَّ كُلَّ هؤلاء كانوا من الحمق، وعليه يتقاطع الارتداد والمغالاة في بعض المواطن.[٢]

---

١ . راجع: شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ج ٥، ص ٥.

٢ . للمزيد من المعلومات حول فرق المغالين راجع: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، عرفان عبدالحميد فتاح، ص ٧٠_٧١؛ مقالات الإسلاميين، الإمام أبي الحسن الأشعري ج١، ص٧٧-٨٠.

بعض النظريات التي طرحت حول واقعة الطف

هنا أودُّ الإشارة إلى بعض النظريات المطروحة حولَ عاشوراء، بعضها طُرِحَ قبلَ الثورة، وبعضها الآخر بعدَ الثورة، أي خلال النّصف القرن المنصرم في محافل ما يُصطَلَحُ عليهم بالمتنورين في داخل إيران، ربما كانَ البعضُ من طلبة جامعة شريف الصناعية التكنولوجية قبلَ الثورة يتذكرونَ ما كانَ يُطرحُ في الجامعات ولا أريدُ تحديداً ذِكرَ أينَ طُرحت هذه المقولات، حيثُ كانت هنالك عدَّةُ رؤىً في طرح قضية عاشوراء.

كانَ البعضُ ينظر إلى واقعة الطف ومسألة عاشوراء على أنها أسطورةٌ تاريخية دينية عرفية، وكانوا لا يتطرقونَ إلى تفاصيل واقعة الطف وأسبابها وهذا يُعدُّ في حقيقة الأمر تحريفاً وانحرافاً في تفسير قضية عاشوراء وقالوا: إنهُ ليسَ هنالكَ حكمةٌ في قضية عاشوراء لا من الناحية العقلانية ولا من الناحية الاجتماعية أو السياسية ولا تتضمنُ المطالبة بالعدل والقضية تتجلى في الفديَة، وهي الموضوع الذي طَرَحهُ المسيحيونَ بخصوص المسيح عيسى بن مريم، من أنّه ابن الله نَزَلَ إلى الأرض على هيئة إنسانٍ كي يُفدى به لمسح الذنب الأول للبشر. الذنب الذي قامَ به أبونا آدم عليه السلام، لأنَّ الكنيسة تقول: إنَّ جميعَ البشر يولدونَ كافرينَ ونَجِسينَ وخُبثاء، وعليه ينبغي غَسلُهُم غُسلَ التعميد. وهكذا جاءَ عيسى المسيح ابنُ الله إلى الأرض كي يتمَّ الفداء به ويُصلبَ لتكونَ روحهُ فداءً للبشرية جمعاء، لمحو ذنب آدمَ من على عاتق البشرية.[١]

وهناكَ تغيراتٌ وقراءاتٌ مختلفة في المذهب المسيحي، منها قضية الفِداء وقضية العشاء الرباني وقضية الماء والشراب والخبز الذي نأكلهُ وهو لحم ودم عيسى[٢]. والقضايا التي تطرحها المذاهب المسيحية حولَ هذه القضية، وهيَ تتعارض مع بعضها، وهكذا يقولون إنَّ الحسين كانَ يعلم بالأمر، وإنَّ قضيةَ الإمام ليست أمراً بالمعروف ونهياً عن المُنكر والعدالة والحكومة وكلاماً من هذا القبيل، إنها قضية الفدية، أي أنَّ الحسين هوَ تكرارٌ لقضية

١ . إنجيل متى، ١٩:٢٨ ـ كتاب اللاهوت المقارن، ج١، شنودة الثالث.

٢ . التفسير التطبيقي للعهد الجديد، لجنة من اللاهوتيين، ص.١٧٦، جاء في الإنجيل المقدس: «وفيما هم يأكلون، أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ, وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم, اصنعوا هذا لذكري. وكذلك الكأس أيضاً, قائلا: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم» (الإنجيل بحسب لوقا ٢٢: ١٩ , ٢٠).

المسيح، وقد طُرِحَ هذا الرأيُ مؤخَّراً في إحدى الجامعات الأمريكية من قبل أحد الأساتذة الغربيين. حيثُ يتخصصُ هذا الأستاذ بتدريس الكلام المسيحي.

وقد التقيتُ بهذا الأستاذ في إحدى الندوات وعَرَفَ أنني قادم من إيران وأنني من المذهب الشيعي، فقال لي هناكَ اشتراكٌ بيننا ونقطة تفاهمٍ يمكن أن نؤسِّسَ من خلالها الحواربينَ الطرفين، وهي قضية الحسين وعاشوراء، فقلتُ وكيفَ ذلك؟ فقال: إنكم تقولونَ في الحسين ما نقوله في المسيح، فأنتم تقولونَ إنَّ الحسين ضحَّى بنفسه وباتَ فديةً، ونحنُ نقولُ ذات الشيء بالنسبة إلى المسيح.

فقلتُ هذا ليسَ صحيحاً، نحنُ لا نقولَ هذا في الحسين. فقالَ: ألا تؤمنونَ بأنَّ الحسين كانَ مُرسلاً من قبل الله ليُضحّي بنفسه في عاشوراء كي يتمَّ غسل ذنوب البشرية؟ قلتُ: لا، لا نقولُ بهذا، نعم هناكَ نقطةٌ جيدة لبدء الحوارمعكم، ولكن ليسَ هناكَ مجالٌ للتفاهم مع بعضنا، وبتصوّري أنَّ الموضوعَ يختلف، ولكن لا بأس كي نبدأ بالتحاور.

إنَّ ثقافةَ هذا المسيحي هيَ ذاتها ثقافة القرون الوسطى لم تتغير، وكذلكَ الحالُ بالنسبة إلى ثقافات وحتى المدارس المسيحية الجديدة في الكلام المسيحي، واليهودية وأدعياء التنويرالديني من النوع المسيحي تراهم جميعاً يُكررونَ اليومَ هذه المقولة، على سبيل المثال ماذا يقول الوجوديون؟

الوجوديونَ المسيحيونَ أمثالُ: كيركيجارد، والآخرون يقولون «إنَّ الإيمان حالةٌ من القفز في الظلام»، هذا هوَ قيمةُ الإيمان في نفوسهم، أي أنَّ الإيمان في اعتقادهم نفيٌ للعقل. وللأسف فإنَّ بعضهم يقولونَ بهذا المبدأ في أوساط المسلمينَ أيضاً. حتى أنني رأيتُ أنَّ بعضَ خطباء المنبرالحسيني يقولون ما يذهب إليه الغربيون.

أقولُ إنَّ الأمرليسَ كذلك، إنَّ الاعتقاد السائد لدى الشيعة أنَّ عاشوراء تجسيمٌ للعشق الإلهي بقدرما هيَ تجسيمٌ للعقل، وأنَّ طريقَ كربلاء ذو مبنىً عُقلائيّ وأنَّ العشقَ هو استمرارٌ وتكميلٌ للعقل، لا نفي للعقل. نعم ربما كانَ في ثقافة الإسلام والشيعة ذِكرٌ للموضوع من الناحية المجازية والشاعرية حيثُ ترى بعضَ الوعّاظ يقولونَ إننا مجانين في حُبَّ الحسين، أو أنَّ حُبَّ الحسين أجنني، وأن لا عقلَ لنا نحنُ عُشاق الحسين، فإن كانَ هذا الكلام حسّياً فلا بأسَ في ذلك. وتارةً لو أردتم بحثَ الموضوع من الناحية العقلية والمحاسبات

المادية والتجارية، فإنَّ واقعة الطف وعاشوراء لم تكن بالحساب المادي رابحة، ولم تكن عقلانية، لأنَّ الإمام لم يكن يقصد النَّفعَ الشخصي فيها، فهيَ ليست من أجل النفس والنفسانية والانا.

إنَّ العقلية الدارجة في الثقافة الليبرالية الغربية اليوم عقلية رأسمالية، وهيَ ليست عقلانية بالمعنى الحرفي للكلمة، إنها نفسانية والأنا والسلطة والاستكبار أي أنَّ كُلَّ العالم هو فداءٌ لي، وأنَّ كُلَّ شيءٍ هو لي، إنني مركزهذا العالم، وأنَّ حقوقي فوقَ حقوق الآخرين، وكذا مصالحي تفوقُ مصالح الآخرين، وأنَّ القيم والأخلاق والدين والوحيَ أمُورٌ نسبية، وأنني أنا المُطلق والآخرونَ نسبيّون، والكلُّ مشكوكٌ بهم، وأنا القطعيُّ في كُلِّ هؤلاء، وأنَّ اللّذة والربحية والتجربة عندي واقعيَّة، وأنني أقف في مركزالحياة والفلسفة والباقي عبارةٌ عن زَبَدْ، ويمكن قراءةُ ألفِ موضوعٍ من الموضوع الواحد. ولكن هناكَ قراءةٌ واحدة للمصالح التي أتحدث عنها وهيَ التي أنطقُ بها لا غيري، هذا باختصار الثقافة الأمريكية الصهيونية، هذا ما يُرددهُ الإنجليز والأمِريكيانَ والصهاينة في عالمنا اليوم. وعندما يكون الكلام عن الإسلام وعن القيم الإسلامية فإنَّ كُلُ شيءٍ يكون نسبياً ومشكوكاً به، وتكون القراءاتُ مختلفة، وعندما يكون الحديث عن المصالح التي يتحدثونَ عنها تكونُ هناكَ قراءةٌ واحدةٌ وفهمٌ واحد، ولا حديثَ عن شكوكٍ أو نسبية، وأنَّ كُلَّ شيءٍ مُطلقٌ وواضح كما نقول نحن، وينبغي أن يكونَ فِكرُنا عالمياً، أليسَ هذا المنطقُ جميلاً؟

إذن فالعقلانية الحقيقية موجودة في عاشوراء، وهناكَ عقلٌ بمقدار العشق، ولو كانَ المرادُ من العقل حساب النفعية الفردية فليسَ هناكَ عقلانية في الموضوع، أي أن يقومَ رجلٌ يصطحبُ معه سبعينَ رجلاً وامرأة وطفلاً ويقف في مواجهة أشخاصٍ يعرفُ حقَّ المعرفة أنَّهم سيقتُلُونَهُ فهذا جنونٌ ما بعدهُ جنون، ولا عقلانية في هذا الموضوع أبداً. وإذا كانَ المُرادُ من العقلانية أن أعيشَ بأيّ قيمة لأكُلَ وأشرب، فإن كان معنى الحياة من أجل العناية بالأجساد والأكل والنوم فهذا خلافٌ لهذا النوع من العقل.

أما العقل بمعناه الحقيقي فهوَ أن يقومَ الإنسانُ بعملٍ تكونُ فيه المنفعة أكثر من الضرر، لتصوّرنا أنهُ تمت مُراعاةُ العقلانية في عاشوراء، بمعنى أنَّ الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه انتفعوا أكثرَ مما تضرَّروا، ولِذا فإنَّ عملهم كانَ عقلانياً، لأنهم تحمَّلوا يوماً أو نصفَ يومٍ من

الاشتباك واشتروا لأنفسهم الخُلد. ولِذا فإنَّ شُهدائنا هم الذينَ ذهبوا مشياً على حقول الألغام، وهم الذينَ اشتبكوا مع العدو، وهم الذينَ تحمَّلوا التعذيبَ في سجون الطواغيت، لم يكن هؤلاء مجانين بل ينبغي القول إنَّ هؤلاء حَسَبوا حِسابهم بصورةٍ جيدة، وكانَ حِسابهم كِحساب السوق، فإنهم قالوا مع أنفسهم لنتحمَّل التعذيب أو نُصابَ بالشظايا نُصبحُ بعدها مُعاقين نتحمَّلُ الأذى لِثلاثينَ أو أربعينَ عاماً بعدَها نُخلَّد ونَحصُلَ على الجنَّة التي وعدنا بها الرَّب، فهل خَسِرَ هؤلاء أم ربحوا؟

إنَّ من يقول إنَّ هؤلاء تَضرَّروا فإنه يُنكِرُ العلاقة مع ما وراء الطبيعة، فهوَ يتصوَّر أنَّ الأمرَ يتجلَّى في عالَمِ اليوم وحسب، وعلى هذا فإنَّ من ينظرإلى هذا الموضوع من هذه الطريقة تكون الدنيا له كالإصطبل، فمن أكَلَ أكثرانتفع، ومن ضَرَبَ الآخرينَ ومنعهم من الأكل وأكَلَ حصتهم فهوَ الرابح الأكبر.

ثمَّ إنَّ هذا التفسيريقودُنا إلى القول إنَّ كُلَّ شُهداء التاريخ هم مجانين وكلُّ مُجاهدي التاريخ بلهاء، لكن الحقيقة ليست كذلك، لأنَّ الإسلام يقول إنَّ الحياة عبارةٌ عن ممرٍّإلى الآخرة وإلى الحالة الأبديَّة، أمَّا نحنُ فقد قضينا الشطرالأوفرَمن العُمر، الشطرَالأحلى، وما سيأتي هوَعبارةٌ عن النصف الثاني من العمرالذي لن يكونَ في حلاوة النصف الأول، فهل أنَّ الإنسان الذي تنتهي حياتهُ كما جرى على الحسين خَسِرَفي المُعادلة؟ ولم تكن خطوتهُ مواكَبَةً للعقلانية؟ بتصوري فإنَّ مثلَ هذا التفسيرتفسيرٌخاطئ.

وهناكَ رأيٌ آخرَيقولُ: إننا نقومُ بالمشاركة في العزاء بُغيةَ العبادة والتقرُّب إلى الله والحصول على الثواب الأخروي، ولا علاقة لنا في الحكمة الموجودة في عاشوراء. وهذا أيضاً رأيٌ مُنحَرِفٌ. وعندما يسأَلُ أصحاب هذا الفكرعن واقعة عاشوراء يقولون لك: لقد كانت واقعة الطف عبارةً عن حرب عصاباتٍ خَسِرَفيها معسكرالحسين، لقد كانَ الحسين كجيفارا انْتَفَضَ ضدَّ الظلم، لقد كانت حِساباتهُ سياسيةً وماديَّةً وتوسُّعيَّة، وهكذا يُحوِّلونَ الحسين عليه السلام إلى ثوريٍّ ينتفضُ ضدَّ حكومات الظلم ويُقْتَلْ.

لقد كانَ هذا النوع من الفكررائجاً قبلَ انتصارالثورة وبدايتها، وذلكَ عندما كانَ الناسُ متأثرين بالثقافة الماركسية خاصةً تنظيم الفدائية منها، وكانَ جزءٌ من أدب التنويرالديني الخاطئ لا التنويرالديني الصحيح قبلَ الثورة، خليطاً من ثقافةٍ محلِّيَةٍ إسلامية وثقافةٌ غربية.

يقولُ هذا الرأي إنَّ عاشوراء كانت عبارةً عن دماءٍ وجهادٍ سياسيٍّ وأمثال ذلك، هذا ظاهرُ عاشوراء، أمَّا باطنُها فلم يكن كذلك، إنَّ أصلَ عاشوراء هو حالةٌ من العرفان. لقد كانَ أصل عاشوراءَ روحانياً وتَقرُّباً إلى الله، وأداءً للواجب الإلهي، وكانَ من أجل الشريعة وكانَ هذا جُزءً من الثورة الحُسينية، لم يكن الإمام سياسياً في كربلاء وحَسب، كما لم يكن أسطورةً وعبادة. لقد كانَ الإمام الاثنين معاً.

وهذا إفراطٌ من نوعٍ آخر، فإفراطٌ يقول أنّه ليست هناكَ أيّةُ علاقةٍ بينَ عاشوراء وكربلاء من جهةٍ مع عالَم الواقع والسياسة والعدالة والحكومة، وأن لا علاقة للإسلام بالحكومة، ولا علاقة لِعاشوراء بالحكم، وأنَّ الحسينَ عليه السلام لم يرد أصلاً الحكومة الإسلامية، وأنَّ الحسينَ أرادَ هكذا أن يموتَ، كي يجلسوا ويندبوا قَتْلَه.

وهناكَ من يقولُ إنَّ الحسين قُتِلَ من أجل السياسة وإقامة الحكومة الخاصة به، وهم في ذلك ينسونَ الأمورَ الروحانية والتقوى والعشق والآخرة والقيم الإلهية والدينَ، أي أنَّ الحسين كانَ مُناضِلاً وحَسب، أي أنَّ الإسلامَ يتجلى في السياسة. أمَّا القضايا الاجتماعية والروحانية والأخلاق والتقوى والعرفان لا علاقة لها بالإسلام وهذان المسيران مُنحَرِفان.

أمَّا الثالث فيربطُ الحسين بالفكر المسيحي، وأمَّا الثاني فهوَ الحسين المُناضل دونَ روحانياتٍ أو اندفاعٍ ديني ودونما توحيدٍ ومَعَادْ. في حين أننا نرى أنَّ الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه عاشوا لحظات عاشوراء والتاسع من مُحرَّم في أجواءٍ مُفعَمةٍ بالروحانية والتقوى والعبادة والتقرب إلى الله وكُلّ ما نقولُ عنهم كانَ كلاماً حولَ الأجر الإلهي.

وفي ذات الوقت تحدَّثَ الإمام عن العدالة والسياسة والحكومة وحقوق الإنسان والتكليف. وهناكَ قِراءةٌ أُخرى في الحسين والذي يبدو فيها ديموقراطياً هنا، هذه من الطُروحات التي جاءت بعدَ انتصار الثورة، ومازالَ بعضُ مُروِّجي هذه الأفكار يطرحونها. إنهم يقولونَ هل تعلم لماذا ذهبَ الإمام الحسين إلى كربلاء والكوفة؟ فهوَ لم يُرِدْ أن يُقتَلْ، وهوَ لم يدري أنه سيُقْتَل، وهنا يُنكِرونَ عِلمَ الإمامة، في حين أنه هناك الكثير من الروايات تقول إنَّ الإمام الحسين عليه السلام عندما وِلِدَ بَكَاهُ الرسول، وكانَ أوَّلَ من بكى الإمام الحسين عليه السلام، وفي الرواية أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله عندما بكى، سأَلَته فاطمة سلام الله عليها: مما بُكاؤكَ يا أبَتاه؟

فقال: إنني أرى مَصْرَعهُ حيثُ يتقلبُ في لُجّـهِ من الدماء، إنني أرى ذلكَ الآن[١].

الإسلام والديموقراطية

وهذا الطيف الثالث يدّعي أنَّ الإمام لم يكن يعرف أنهُ سَيُقْتَل، إنَّ الرجُلَ كانَ ينوي العملَ وفقَ المبادئ الدّيمُقْراطية، بايَعَهُ الناس، وإنَّ أكثرية أهل الكوفة بايعوه، وعليه فإنَّ بإمكانهِ الرحيل إلى هناك من أجل تشكيل الحكومة، وعندَ وصُوله إلى كربلاء بالقرب من الكوفة، انقلبت الأوضاع ونَكَثَ الناسُ عن بيعتهم للحسين، وهنا يؤَاخْذهم على فعلتهم، ويقول لهم: لقد جئتُ إلى هنا لأنّكم خاطبتموني، لماذا فعلتم بي هذا؟ ولهذا فإنَّ مشروعيتي قد سقطت، لأني قد أصبحتُ في أقليَّةٍ ويزيد وأعوانهُ في أكثريةٍ من أمرهم. هكذا تقول الديمقراطية، الحكمُ للأكثرية!

أليسَ كذلك؟ وعليه فإنَّ مجيئي إلى كربلاء ليسَ ديمقراطياً، اسمحوا لي بالعودة. ولأنَّ الإمام يعلمُ أنَّ هؤلاء لن يسمحوا له بالعودة، دعا عليهم [٢] وقالَ: أدعو الله أن يُنزِّلَ عليكم العذاب في الدنيا والآخرة. لقد أعلنتم استعدادكم للحرب والجهاد، وإقامة حاكمية الإسلام ثُمَّ نكثتم. ولم يَقُلْ أنهُ لا يملكُ حقَّ الحاكمية، وعليه ونظراً لخيانتكم وعدم استحقاقكم لأن يكونَ الحُجَّةُ فوقَ رؤوسكم، فإنني سأعودُ من حيثُ أتيت. أرادَ الإمام أن يتم الحُجَّة عليهم.

وهذا حسينٌ على أساس القراءة الديمقراطية. عاشوراء على أساسٍ ليبرالي. وها هم اليومَ يكتبونَ في الصحف والمجلات عن الحسين الديمقراطي الذي يكتسب قيمتهُ من الديمقراطية، أي أنَّ الإسلامَ بحاجةٍ إلى تزكيةٍ من قبل الديمقراطية، حتى يكونَ ذا قيمة!

وهنا اسمحوا لي أن أقولَ إنَّ أصحاب المدرسة التي تقول إنَّ الإسلامَ يكسِبُ المشروعية من الديمقراطية ليسوا بمسلمين، ربما كانوا جهلةً أو أُميين، عليهم أن يعلموا أنَّ الإسلامَ ليسَ ما يقولون. إننا قبلنا الإسلام دونَ حاجةٍ لنا بالديمقراطية، وهل يَثْبُتُ التوحيد بواسطة الديمقراطية حتى نؤمنُ بها؟ وهل يمكن الوصول إلى القيمة والعدالة والمكانة من الديمقراطية؟ وهل يتمُّ أخذُ حقائق العالم وقيمتهِ من الديمقراطية؟ وهكذا بالنسبة إلى

---

١. الكافي، ج١، باب مولد الحسين بن علي عليه السلام.

٢. الفتوح، إبن أعثم، ج٥، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

الفضائل الأخلاقية والقيَم. عليه ينبغي أخذُ القيمة للديمقراطية من الإسلام، وأن تأخذ الديمقراطية قيمتها واعتبارها من التوحيد والنّبوة والعقل والعدالة. وإذا وقفت الديمقراطيةُ مقابل التوحيد والعقل والعدالة، فإنَّ هذه الديمقراطية لا تعدِلُ عندنا وزنَ بعوضة.

إننا نقبلُ الديمقراطية في إطار الدين، في إطار التوحيد والنبوة، في إطار العدل والقيم والأخلاق. والديمقراطية التي تقف مُقابل القيَم قلتُ لكم لا تعدِلُ عندنا وزنَ بعوضة، ولا فرقَ بينها وبينَ الاستبداد والظلم، وعليه فلا فرقَ بين الديمقراطية والاستبداد من هذه الناحية. ربما كانَ الظُّلمُ من قِبَلِ شخصٍ، وربما كانَ من قبل مجموعة باسم الديمقراطية، وربما كانَ من حزب.

والمسلم عبدُ الله لا عَبدَ الديكتاتور ولا عبدَ الديمقراطية·وعليه فإننا نحترمُ الديمقراطية وحقَّ الحاكمية والمشروعية في إطار الإسلام ولا غير. وإذا ما اتفقَ في زمانٍ ما في التاريخ، إذا قررت أكثريةُ سكان الأرض بملياراتهم رفضَ التعاليم السماوية فإنَّنا لن نستسلم للديمقراطية، ونُركِنَ الإسلامَ جانباً، لأنَّ أكثريةَ العالم هم غيرُ مسلمين. ولكن ربما تقول إنَّ الإسلام سيكون قابلاً للتطبيقِ عندما تفهمه الأكثريةُ، وتقبل به، لكن ما العمل وقد رفضته الأكثرية وعارضتهُ؟ ومن خلال ذلكَ نتوصَّلُ إلى أنَّ الأمرَ غيرُ قابلٍ للتطبيق على الأرض، ليسَ لأنهُ لا اعتبارَ أو قيمةَ لهُ، بل لأنهُ غيرُ قابلٍ للتطبيق مثل الكثير من الأمور، وهناك الكثير من الناس المرضى يحملونَ الوصفة الطبية، لكن لا إمكانية لِشراء الدواء من الناحية المادية، عليه يَتَوفَّى هؤلاء هذا لا يعني أنَّ الوصفة غيرُ مجدية، وعليه فإنَّ المريضَ يتوفَّى.

وهناك تعبيرٌ لطيفٌ جداً يقول: إنَّ المجتمع الذي رَفَضَ حكم الإمام علي عليه السلام، وأرْكَلَ الإمام لم يحرم الإمام علي من كونه عليّا، بل حَرَمَ نفسهُ من مُصاحبة عليّ.

إنَّ المجتمع الذي رَفَضَ حُكمَ الإمام لمدة عشرين عام ونيّف، يليقُ به أن يكونَ طيّعاً لأمثالِ معاوية ويزيد وبني أمية وبني العباس. إنَّ المجتمع الذي يكون على هذه الشاكلة، سيحرم نفسه من وجودِ عليٍّ لا محالة.

الإمام الرضا عليه السلام والدفاع

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات الأعزاء وأشكركم للدعوة التي وجهتموها لي.

سمعنا الكثيرعن الإمام الرضا عليه السلام وفي نفس الوقت لم نسمع الكثير، نسمع الكثيرباسم الإمام لكننا قلما نسمع أقوال الإمام والموضوعات التي تطرق لها وهذه الأمورمن النواقص في ثقافتنا الدينية، نحن نسمع الكثيرعن الألفاظ المذهبية ونعيش الظواهرالدينية، لكن ذلك لا يُترجم كثيراً في حياتنا العملية، ولو جاءنا أحد ما من خارج المدرسة الشيعية وطرح علينا سؤالاً ويريد منا تعريفاً للإمام ورسالته ويقول نوروني بما تعرفونه عن هذا الإمام الذي لطالما تذكرونه بخيرٍوتتزاحمون لزيارته، لو تعرضنا لهذا السؤال كم منا سيكون قادراً على الإجابة والتحدث عن الإمام لعدة دقائق لا غير، أتصورأن البعض يستطيع تكرارعدة جمل نحفظها ثم يتوقف وينتهي التعريف وهكذا الأمرعندما نُسأل من هي الزهراء البتول وما هو دورها وكذا الحال مع الإمام الحسن والإمام الحسين، نسمع بعض الجمل المكررة على المنابروعن بعض الأئمة فلا نعرف شيئاً ولم تمَّ التعرض إلى الموضوع من خلال وسائل الإعلام الخاصة التي تعنى بالدين وكذلك المحطات العامة، فإن أجوبتنا ستقتصرعلى بعض الجمل البسيطة لا غيروأرى من المناسب هنا اغتنام الفرصة للحديث عن الإمام الرضا عليه السلام ولا أريد الإطالة هنا، سأنقل لكم بعضاً من كلام الإمام ليتعلق في أذهاننا، هناك سؤالاً مهمان ورئيسيان يطرحان أنفسهما في تاريخ المعرفة في الدنيا وسيطرحان على الدوام

على مدار البحث، السؤال الأول هو من هو الإنسان؟ وما هو شأنه في هذا العالم؟ وما هو دوره في هذا العالم.

والسؤال الثاني هو ما هي حقوق هذا الإنسان وما هي مسؤولياته في هذا العالم؟

إن كافة العلوم النظرية والعملية والحكمة النظرية والعملية منذ الازل وحتى يومنا هذا سواءً الدينية منها أو العلمانية شرقيةً كانت أو غربية أرادت الإجابة على هذين السؤالين وإن كل ما يطرح اليوم من علوم إنسانية ومعارف بشرية وعلوم اجتماعية يدور حول هذين السؤالين ربما كانت أدبيات طرح الموضوع تختلف في الألفاظ لكن الأصل واحد؛ أي السؤالين المذكورين أريد من خلال هذه المحاضرة نقل إجابة الإمام الرضا عليه السلام حول هذين السؤالين المهمين والراديكاليين بصورة مختصرة حيث يسع المقام والوقت.

فيما يخص السؤال الأول حول ماهية الإنسان ودوره في العالم، أي نسبة الله مع العالم والإنسان على وجه الخصوص ما هو التناسب الموجود بينهما؟ هناك إجابات مختلفة كما يعلم البعض على مر التاريخ المعرفي وهناك تياران انحرافيان في القضية انضوت تحت لوائهما مجموعات وجماعات عديدة حاول كل منهم دعم تياره من خلال طرح الأفكار والنظريات المختلفة وكلٌ يُروج لأفكاره، هناك نظرية متطرفة وفكرة تقول إن الله سبحانه وتعالى خلق العالم وضبط الأمر كما تضبط الساعة ثم ترك الخليقة وعليه فإن القيمة الوجودية لله تكون في شروع العالم وبدأ الخليقة وبعد ذلك فلا معنى لمسؤولية الرب وتدخله في العالم أو الحياة البشرية فالصلة مقطوعة بين الطرفين الخالق والمخلوق وأن الرب بات خارج حياة الإنسان وأنها تستمر دون إرادة الله أي ان هناك فاصلة بين المخلوق والخالق، لقد قال بعض من في الغرب وبعض من في الشرق بهذه النظرية بل حتى في العالم الإسلامي ثمةَ من قال بهذا الكلام نوع من التفويض وترك الأمور من لدن الرب إلى الإنسان حسب هذا التفسير فإن العالم يُدير نفسه بنفسه والإنسان مستقل عن الله سبحانه وتعالى ويصعد الإنسان كالرصاصة التي اطلقت من فوهة المسدس تمضي في حياتها، أي إن الرب أطلق الرصاصة أو رمى السهم من قوسه والسهم يمضي والرب في حالة التفرج ولا دخالة ربانية في حياة الإنسان وعليه فإن أصحاب هذه النظرية لا يقولون بأن الأمر منوطٌ بإرادة الله وأن العالم قائمٌ بإرادته ولا يمكن للإنسان أن يعيش لحظةً دون الرب، هم يرفضون كل ذلك وهم

في ذلك يتبعون قول أحد الشعراء العلمانيين حيث يقول إن العالم مادي والأرض هي كرة تدحرجت والإنسان طليقٌ فيها ووحيد ولذلك فهو يفتقر إلى الملجأ وهو مضطرب وحيران وغريب وقد أكل مقلبة ولذلك نراهم يسألون بجدية لماذا جئت بي يا رب إلى هذا العالم وتركتني، يقول أحد الفلاسفة في الحقبة اللينينية أوقفوا العالم أريد النزول، وهو يتساءل لماذا علينا مواصلة الدرب؟ إن هذه الفكرة والنظرية تتعارض مع استراتيجية الأنبياء الذين جاؤوا ليقولوا للبشرية إن الله سبحانه وتعالى هو رب الخليقة والعالمين فهو الخالق ورب العالمين يدير العالم والإنسان خاضع له وأنه يقوم بأي شيء وفي أي لحظة يشاء وحسب ما ورد في القرآن الكريم ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[١]، فلا شيء في هذا العالم دون إرادة الله حتى سقوط أوراق الشجر وإن كل شيء بما فيه الإنسان مشمول برحمة وهداية ودعم الرب سبحانه وتعالى وليس هناك شيء عبثي واحد في هذه المعمورة ومقابل هذا النمط من الفكر نرى أنه هناك من ينكر ولاية الرب في مقام الولاية التكوينية ولربما في مقام الولاية التشريعية على ما يبدو ولهذه الأفكار جذور غير إسلامية طبعاً ولكن في العالم الإسلامي كان المعتزلة يؤمنون بمثل هذه الأفكار إلى حد ما والاتجاه الراديكالي المنحرف الموجود والذي هو الآخر ذو جذور غير إسلامية ولكنه حجز لنفسه تذكرة في العالم الإسلامي إنما هو العقلية الجبرية وهنا سأعرض رأي الإمام الرضا عليه السلام حول هاتين الفكرتين؛ أما بالنسبة للجبرية فهم يقولون إن الإنسان عاجز عن التغيير وليس للإنسان أن يختار على الإطلاق في هذه الحياة العالم ونحن مجبرين في قبضة البارئ، ولهذا التفكر جذور غير إسلامية طبعاً، إنها أفكار دخيلة ومستوردة للإسلام ولكن وعلى أية حال فهي موجودة اليوم في داخل المجتمع الإسلامي ولقد أوجدت لنفسها الكثير من المُريدين والاتباع، إن نتيجة أفكارٍ من هذا النوع تؤدي إلى حذف الإنسان وإرادته وعقله وتحذف كل اختيارات البشر ومسؤوليتهم وتعتبر أن الدين والرب والتقدير والقضاء والقدر والقسمة الإلهية وأمثالها هي في الواقع معانٍ تم تعريفها ومن خلال احترامنا لكل المعاني القرآنية من امثال القضاء والقدر والمشيئة الإلهية وسلطته جلَّ وعلا المطلقة وولاية أمره نقر ونسلم إن كل شيء تحت قدرته حتى ما يحصل خلافاً للشريعة، لأننا نعتبر أن ذلك من قدرته لكننا لا نفهم ولا يمكننا أن

١ . الانعام: ٥٩.

نتصور أن كل هذه الحقوق يمكنها أن تنفي حق الاهتمام عند البشر وهناك تعبير غير قرآني وتفسير غير قرآني استخدم لطرح نظريته من كل الألفاظ والأفكار القرآنية ليصل إلى ضالته التي يبدو في ظاهرها الصلاحة والقدسية لكن باطنها تكفيري ومضاد للدين ويطرح علامة سؤال كبيرة أمام عدالة الرب وحكمته وإن معنى الجبرية هو إن الإنسان لا يلعب دوراً في هذه الدنيا والعالم، وعليه فهو غير مسؤول أيضاً وليس هناك قصورٌ في الأمر وإذا كان هناك شيء من هذا القبيل فلسنا مسؤولين والمسؤولية تقع على الرب وحده وعليه يجدون مخرجاً للمفاسد والظلم تحت يافطة الدين والمذهب وهكذا إن أتباع هذه المدرسة الفكرية يقولون وعند حصول أي نوع من الظلم والجور أو الجريمة إنها بمشيئة الله وهو من يريد ذلك، إنه تقدير الله! ترى ما معنى هذا؟ الجواب بسيط إن الرب هو المذنب الأول ـ أستغفر الله ـ وأن الرب لا يطلب منا أن نتحرك أو نفعل شيئاً وهو المسؤول عن هذه الانحرافات! لاحظوا هل يمكن توجيه إهانة أكبر من ذلك إلى الخالق عزوجل! محاربة العقيدة التوحيدية والأنكأ أن كل ذلك يتم باسم الدين وفي إطار مذهبي مقدس على الظاهر في حين أن القرآن الكريم يُشير بوضوحٍ إلى مفهوم مسؤولية الإنسان عن أعماله حيث يقول في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[١].

أي أينما كان هناك ظلم وفساد فهو من فعل الإنسان وليس من فعل الرب، إذن هذان تياران فكريان وكلاهما منحرفان حيث يتعرض الإمام الرضا عليه السلام للرد عليهما في جملات قصار، قيل إن الإمام كان حاضراً في اجتماع ضم كبار الشخصيات والمشاهير وقد انشغل بالإجابة على أسئلة الحاضرين وكان للإمام أخٌ يدعى زيد هو غير زيد المشهور زعيم الزيدية، فذاك ابن الإمام السجاد عليه السلام أما هذا فهو اخو الإمام الرضا عليه السلام وعندما جاء الإمام إلى خراسان كان هناك عدة أجنحة مسلحة في الطائفة العلوية على مستوى العالم الإسلامي في اليمن ومكة وجانبٍ من العراق وأجزاء من إيران حيث انتفض العلويون وأوجدوا مناطق ذاتية الحكم بالانتفاضة وحدّ السيف، واحدةٌ من الانتفاضات كانت على يد زيدٍ ولما هُزم الأخير لم يقدم المأمون على قتله، لأنه خشي من نفوذ الإمام الرضا عليه السلام ليوهم أنه لم يقتله احتراماً للإمام وتصالح معه، في تلك الأثناء كان عم الإمام الرضا عليه السلام في مكة وابن عمه أو

---

١ . الشورى: ٣٠.

أخوه في اليمن أو مناطق أخرى أقاموا إمارات وحكومات مستقلة وكان زيد إنساناً مغامراً ولم يكن ذا خلوصٍ فكري وعقائدي كان جالساً في زاوية من المجلس وقد جمع حوله بعض الأشخاص يحدثهم وكأنه صاحب دكان ويقول هل تعلمون من نحن؟ إننا أهل البيت، هل تعلمون قول الرسول ﷺ فينا؟ وكان يواصل ذكر الخصال والسجايا التي لم يتفوه بها الإمام نفسه ويقول هل تعلمون منزلتنا في الدنيا وما هي في الآخرة عندها التفت له الإمام رضا عليه السلام فقطع حديثه في المجلس والتفت إلى زيد وقال له: ما هذه الخزعبلات يا زيد؟ هل نحن أبناء الله؟ هل نحن على رابطة نسبية مع الله؟ يعفو عنا إن أخطأنا؟ هل لنا حصانة؟ ولا جناح علينا إن فعلنا خطأ؟ ما هذه الأقوال يا زيد؟ ليس للإنسان على أخيه الإنسان أي امتيازٍ أو درجةٍ عند الله دون العمل الصالح، من حصل على هذه الضمانة لتكون أنت الثاني يا زيد؟ ولو كانت الجنة مضمونة لك منذ اللحظة الأولى ودون أن تقوم بعمل صالح هذا يعني أن شأنك عند الله أكثر من أبينا موسى بن جعفر، لأن أبانا حصل على النعمة الإلهية بعد عمرٍ قضاه في الجهاد والعبادة والتضحية والسجود فإن ذهبت إلى الجنة دون كل هذه الأمور إذن أنت ذو مقامٍ أعلى عند الله، لأن الإمام موسى بن جعفر بذل مهجته حتى حصل على هذا المقام وأنك حصلت عليه دون أن تفعل ما فعله أبوك إن الجنة تُمنح بالعمل الصالح لا بالقربى والنسب ولا يصح للإنسان اليوم أن يقول أنني متدين إذن سأذهب إلى الجنة علينا أن ندفع الثمن، نعم عاد الإمام الرضا عليه السلام للجالسين وقال: ملاك الإنسان عمله الصالح وعمله للأعباء والمسؤولية[1]، ويشير الباري عزوجل في محكم كتابه إلى ادعاءات النصارى واليهود في قربهم إلى الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2]، وقالت اليهود نحن شعب الله المختار ونحن أبناء الله، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[3]، وبعد أن جاء المسلمون أراد بعضهم الادعاء بأنهم القوم الأقرب لله عز وجل دون العمل الصالح، وأننا الأمة المختارة لكن ذلك غير صحيح إلا بالعمل الصالح والتضحية والجهاد والعلم فكلام المسيحيين واليهود والمسلمين من أصحاب هذا التفكير مغلوط وغير صحيح على الإطلاق وعندها نزلت الآية القرآنية على الرسول الكريم لتقول:

---

١ . راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، باب قول الرضا عليه السلام لأخيه زيد بن موسى حين افتخر على من في مجلسه.

٢ . المائدة: ١٨.

٣ . التوبة: ٣٠.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[1]، أي إن الأمر ليس بأمانيّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا حتى بأمانيّ المسلمين لكونهم اتبعوا دين الإسلام وأن الأمر يصح بالعمل الصالح والابتعاد عن هذه الأقوال فقط وإن لم يفعل المسلمون ذلك فلا فرق بينهم وبين المسيحيين واليهود، الفارق أن البعض ولد في أسرة مسيحية والآخر ولد في أسرة يهودية ونحن قد ولدنا في أسرة مسلمة وتضيف الآية الكريمة: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ لا فرق هنا بين مسلم ومسيحي أو يهودي حتى ولو كان منسوباً إلى أهل البيت.

هناك حديث أخر يتعرض لمسألة الجبر والاختيار حيث يدعي فريقٌ وفي ما عرضنا جواباً لتلك الفرقة الأولى التي تقول إن الإنسان ترك وشأنه وأننا موجودات قُذف بها ونحن مستقلون وأن الله خلقنا وحسب، ففعل ذلك وذهب ليستريح وهو في غفوة، هنا نرى أن القرآن أجاب بدوره على أقاويل البعض حيث يصف الله سبحانه نفسه بالقول: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[2]، أي أن الله لا يغفو ولا ينام وأن كل شيء في محضر الله وتحت سيطرته ولن يخرج من يده حتى للحظة واحدة، كل شيء تابع لأمره وإدارته وليست هناك لحظة واحدة في الدنيا تغيب عن إرادة الله وإشرافه.

والتيار الذي يقول نحن وحيدون في هذا العالم وقد تركنا وشأننا ونحن نسير لوحدنا وقد تدحرجنا وينكرون وجود الله ويقولون إن من يعيش مع الله وبدونه لا فرق وأن الحياة في كل مكان واحدة، إفراط من جانبين، الأول ينفي وجود الله وينكر ذلك والثاني ينفي مسؤولية الإنسان ووجوده، بالطبع فإن هذه الأفكار ليست مختصة بالماضي في يومنا هذا توجد مثل هذه الاتجاهات في الفلسفة الحديثة في عالم الغرب والشرق وهما تياران قويان موجودان في العالم الإسلامي وخارجه، هذه التيارات ليست قديمة، إنهم يطرحون هذه الأفكار في يومنا هذا، في أحد الأحاديث المروية عن الإمام الرضا عليه السلام أن أحمد بن محمد البيزنطي جاء إلى الإمام الرضا وقال: سيدي إن أبناء منطقتنا من أتباع أهل البيت أصيبوا بعدة شبهات وقد اشتبه عليهم الامر بسبب كثرة المباحث المطروحة والتيارات الموجودة وقد وقع الاختلاف بينهم، فسأل الإمام عن السبب؟ فقال: سيدي قد مال البعض صوب الجبرية

---

١. النساء: ١٢٣.

٢. البقرة: ٢٥٥.

وآخرون يقولون بالاستطاعة، البعض يقول نحن غير مسؤولين وأخرون يقولون العكس، لأننا أصحاب إرادة ومكنة، فما نفعل إن الخلاف بين شيعتنا بدأ يطفو على السطح، فقال له الإمام عليه السلام: أكتب ما أمليه عليك إن هذه النظرية هي واحدة من النظريات الموجودة، لكن الدين الإسلامي دين خالص وهذه بشارة من الله سبحانه وتعالى، ثم قال له: أكتب ما أقوله لك، قال الله تبارك وتعالى: «يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعا، بصيرا، قويا، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك»[١]، قد لزمت لك كل شيء تريد.

ويشير حديث الإمام بوضوحٍ أن المشيئة هي بيد الله وأن الإرادة التي منحك إياها الرب هي بمشيئته فكيف تنكر عدالة الرب، لأنك تنهج نهج الجبرية، كيف تقول إننا مجبرين ولا اختيارلنا وتقوم بارتكاب المعاصي، ثم تقول إن الرب أراد لنا أن نعصيه حتى ندخل جهنم كيف يصح هذا الكلام ولو كنت محقاً في هذا فإن الجبرية تعني نفي العدالة الإلهية والآخرون من الذين يقولون إن الله قد خلقنا لكنه غير قادر على صد أفعالنا، لأنه أعطانا الخيار وهذا النمط من التفكير يسلب قدرة الخالق ويخاطب الرب عبده بالقول: إن المشيئة تتمتع بها لكنك لا تستطيع أن تنسب لي القرارات التي تتخذها أنت، نعم لقد منحتك قدرة اتخاذ القرار وعليك مسؤولية ما تفعل وهنا تتحقق القدرة والعدالة الإلهية معاً، إن حذف الرب من ساحة الحياة والكائنات يعني بداية لمفهوم العالم العلماني واللذة الدنيوية ونفي الدين، فعندما ينفون وجود الله ويجعلونه في الزاوية فهذه هي بداية للعلمنة كذلك نواجه اتجاهاً مفرطاً يفسر وجود كل شيء إلى الله ولا يعطي حيزاً للإنسان في التفكير واتخاذ القرار في حين أن الرب أراد للإنسان أن يكون صاحب القرار وهنا يظهر أتباع الفريق الآخر ليسجلوا كل شيء باسم الرب والدين ويقولون إن كل المظالم والفساد يجري بإمضاء وتأييد الدين والمذهب، لأنهم يؤمنون بالقضاء والقدر وعندما تسألهم ما معنى ذلك؟ يقولون إنه من صنع الله، أي أنهم يُحملون الرب مسؤولية ما يجري! أن الله سبحانه وتعالى أرسل آلاف من الأنبياء ليفهم البشر أنه غير راضٍ عن المظالم التي تقع على العباد، نعم أعطاك القدرة

---

١ . الكافي، ج ١، ص ١٥٢.

لتختار وتنتخب وتتخذ القرار وعليك إنقاذ نفسك بقراراتك وأن الرب قادرٌ على سلبك هذه القدرة لكنه لن يفعل، إنه يراقب حركات وسكنات الإنسان، منحك السمع والبصر والإدراك لتقرر وعليه فإن ما يقوم به الإنسان من أفعالٍ مرتبط به وما يصيب الإنسان من حسنةٍ فمن الله، علَّ البعض يقول كيف ذلك؟

الجواب: إن الله منشأ كل ما يصدر من الإنسان، ولأن الرب علم الإنسان الخير ومنحه القوة لفعل ذلك ولكن عندما تصيب الإنسان سيئة فمن عنده، ومرد ذلك أن قرار الإنسان كان غير صائب وعندها يمكن أن ننسب فعل الخير للرب، لأنه علمنا الطريق الصائب، أما فعل الشر والسيئة فهي من خيار وقرارات الإنسان التي لم يحسن فيها الاختيار وليس للإنسان أن يلقي باللائمة على القسمة والنصيب، كثيراً ما يخطئ الإنسان التقديرات واتخاذ القرارات وعندما يدفع الثمن يتململ ويقول إن ذلك من فعل الرب إنه النصيب، بالطبع يمكن النظر إلى القسمة والنصيب من زاوية أخرى، فإن أخطأ الإنسان في التقديرات ولم يراعي الأصول فإنه سيتضرر لا محالة لكن الأمر لو تم بمراعاة كافة الأصول فإنه سيحصل على نتائج إيجابية في الدنيا والآخرة عندما ننجح في اتخاذ قرارٍ ما نضيف ذلك إلى حسن اختيارنا وعندما نفشل نقول هذا ما يريده الله لنا ولا يمكن أن نقاوم مشيئة الرب، فلو ألقى أحدهم بنفسه من سطح مبنى إلى الأرض هل يمكن له أن يقول بعد ما تتكسر أطرافه بأن هذا من فعل الله وإرادته وعندما يسقط من السلالم دون إرادته يقول قسمة، نعم هما قسمتان ولكن الأولى من فعل البشر والثانية قضاء وقدر وهنا أود التأكيد أنه لا ينبغي أن يقول الإنسان أن كل ما يحصل له باختياره هو إرادة الله فلا يمكنه حصر إرادة الله بإرادته، فتارة تكون إرادة الرب أعلى وهي كذلك حتماً وهناك آثار وبركات خارجة عن إرادة واختيار الإنسان في الحياة حيث نرى البعض يسعون ويكدون لكنهم لا يحققوا أرباحاً تذكر، لكن أحدهم يحقق ذلك دون سعي يذكر وكلا الفعلين في الحلال ولا أقصد أن الفارق يكمن في حلال أو حرام ففي الكثير منها هو امتحان رباني وبعض النتائج هي من فعل الإنسان لكننا لا نشعر، فلربما فعل أحدهم خيراً لأحد فكانت النتيجة والجواب من الرب والعكس صحيح، فعندما نرى أحدهم يُهين والديه فإنه يُلقي الرد في موضوع آخر قد لا نصدق الارتباط بين الموضوعين ونتساءل ما ربط إهانة الوالدين بالعارض الجسدي

مثلاً الذي يُلاقيه الإنسان في موضع آخر وزمان أخر، لأننا نتصور أن الارتباط ينبغي أن يكون فيزيائياً آنياً، لكن هناك ارتباطاتٍ ميتافيزيقية لم ندركها فليس كل شيء مرئي وقابل للإدراك، فعندما يتصدق الإنسان من ماله قد يعترض البعض ويقول كيف الصدقة تدفع البلاء؟ هل سمعتم بهذه المزحة التي تقول ألق أحدهم قطعة نقدية في صندوق الصدقات وهمَّ بعبور الشارع، فإذا بسيارة مسرعة تصدمه وبعد حين جاء رجل ثاني وأراد أن يضع نقوداً في صندوق الصدقات نفسه، فقال له أحدهم لا تفعل فالصندوق هذا عاطل لا يدفع البلاء وأمامك منظر هذا العابر، هنا ينبغي الالتفات أن النتائج ليست فورية في أكثر الأحيان ربما كانت الصدقة ستنفع ذلك الرجل في آخرته من يدري، ليس صحيحاً ما يقال إن الله يريد لأحدهم الشقاء والسعادة للآخر اعتباطاً وليس معنى «السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه»[1] إن الله كتب لهم ذلك، بل المعنى إن ذلك يعود إلى جذور الحياة الإنسانية ينبغي تصحيح تفسير وقراءة بعض الآيات والروايات وهكذا يرسل الإمام الرضا عليه السلام هذا الرجل لأهله ومنطقته ويقول له اذهب وقل لهم ما أبلغتك فإن كانوا طلاب حقيقة فإنهم سيدركون الفاصل بين الصواب والخطأ.

وهناك رواية أخرى بهذه المضامين، قال العالم كتب الحسن بن أبي الحسن البصري إلى الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما يسأله عن القدر، أجاب فيها عن هذين التيارين المنحرفين حيث قال للسائل: «إن الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه» وفي هذا نفي للجبرية التي تقول إننا نطيع الله دون اختيار، ثم قال «ولا يعصى بغلبة» أي أن هؤلاء لا يستطيعون العمل خلافاً لمشيئة الله وأنهم لم ينتصروا على الله، إنهم في اللحظة التي ارتكبوا فيها المعصية لم يخرجوا من قبضة الله، نعم إن الله أمهلهم وفي هذا جوابٌ للقدرية، أي إن الإمام الرضا عليه السلام أجاب على تيارين منحرفين بجملتين لا غير «إن الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه ولا يعصى بغلبة» وان الله في تلك اللحظة مسلط على الإنسان، ويقول عليه السلام: «ولا يهمل العباد في الهلكة»، أي أن من يخالفه تحت قدرته أيضاً ولن يخرج الإنسان من حاكمية ومالكية لله مقدار ميلي متر واحد، إن سنة الله تقضي الإمهال كي يختار الإنسان إيمانه حراً لا يريد ممارسة الضغط والإجبار على أحد، إنه يريد الإيمان الواعي وأن حاكمية

---

١ . كنز العمال، ج ١، ص ١٠٧.

الله مطلقة، لأن مالكيته مطلقة أيضاً وغير نسبية أو مشروطة، ثم يقول الإمام عليه السلام: «لكنه المالك لما ملكهم، والقادر لما عليه أقدرهم» أي أن الله يمنح عبادة المالكية والقدرة لكنه ومع ذلك وفي حقيقة الأمر المالك والقادر الحقيقي للعالم وأن الله يعطي القدرة والمالكية مجازاً وليس حقيقة إن القدرة والمالكية الحقيقة في تلك اللحظة هي في يد الله ويضيف الإمام عليه السلام «فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن الله صادا عنها مبطئا، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به فعل وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها قسرا، ولاكلفهم جبرا»[1]، وعقب هذا البرهان الحاسم يؤكد الإمام عليه السلام لأصحابه ان من يضبط حدود هذا الكلام فقد خاصم من خالفه، في حقيقة الأمر أن الإمام هنا أراد تقوية أصحابه وإعدادهم بشكل جيد للمناظرة مع أتباع هذين التيارين المنحرفين.

دعوني أعرض لكم بعضاً مما قاله الإمام في مجال حقوق الإنسان وربما لم يسمع بعضكم بها من قبل، لاحظوا إن البحث الرئيسي في هذا الاجتماع يدور حول موضوع إن كان الإنسان مسؤولاً فما هي مسؤولية الرب وإن كان الرب مسؤولاً فما هي مسؤولية الإنسان وأشرنا إلى وجود التيارين المنحرفين وهناك تيار صائب وأصيل يدعو إلى وضع الرب في مكانه ونقصد في مكانه ليس في هذا العالم فالله أعلى من أن يوضع في مكان واحد وإنما مكانه في عالم الفكر ومقام الإنسان معلوم أيضاً فمن وجهة النظر التوحيدية فإن كل شيءٍ هو تحت سلطة الرب وفي ذات الوقت فإن مكانة الإنسان محفوظة ومعززة حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[2] وهناك كرامة خاصة لأهل التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3] وهذا يشير أن لا أفضلية لجنسٍ أو عرقٍ أو طبقةٍ أو سنٍ على آخر ولا علاقة للشغل والمال والطبقة وأمثالها الملاك عند الله هو التقوى، لكل مسؤوليته وحقوقه

الحقوق الدينية والمسؤولية الدينية مقابل الله سبحانه معلومة، هنا أريد أن أتي بأحاديث للإمام الرضا عليه السلام في باب حقوق الإنسان، الحقوق المادية والبشرية في الدنيا حتى الإنسان غير المسلم ليتضح للعالم ماهي نظرة الإسلام إلى حقوق الإنسان ونكون الأولى بادعاء نصرة الإنسان ومراعاة حقوقه، لأن قائمة حقوق الإنسان تتبع تعريفنا للبشر، فإن تم تعريفه

---

١. راجع: بحار الانوار، ج ٥، ص ١٢٤.
٢. الاسراء: ٧٠.
٣. الحجرات: ١٣.

وفقاً للحقوق الإلهية فإن له حقوقاً ووظائف وإن تم تعريفه على أساس الطبيعة، أي أن نقول أن الإنسان موجودٌ طبيعيٌ وليس إلهي عندها نعرض قائمة من الحقوق والمسؤوليات وفي نظرتنا الإسلامية فإن الطبيعة هي الأخرى إلهية وليس عندنا حدود بين الطبيعة وما وراء الطبيعة بالمعنى الميكانيكي الفيزيائي وأن كل الطبيعة هي في الواقع عرضٌ لما وراء الطبيعة ولا فاصلة في الأمر إلا في أن يكون لنا هذه الحقوق أو تلك الواجبات فإن اعتبارية الحقوق والأخلاق تتبع اعتبارية الهدف كيف يمكن لكم أن تعرفوا الإنسان وكيف تُعرفون هدف هذا المخلوق وطبقاً لهذا الأساس يمكن تعريف أخلاق وحقوق البشر وهنا يتضح نوع الاختلاف، لأن الكثير منها يتضح من خلال اختلاف النظريات المختلفة في الدنيا، إن منشأ ونوعية التعارض يعود إلى نوع الرؤية الشمولية للعالم ومعرفة الإنسان، فإن لم يكن مفهوم سعادة البشر وكماله معلوماً فلا معنى للحقوق والأخلاق، إن حقوق الإنسان والاخلاق والفضيلة والرزيلة والجيد والسيئ تكون ذا معنى عندما يعلم الإنسان معنى سعادة البشر وماهية البشر وبخلاف ذلك فإن الإنسان سوف لن يستطيع أن يقول ما هو فهرس الأمور الجيدة وما هو فهرس السيئات وماهي الحقوق وماهي الحدود من أين تبدأ وأين تنتهي وما هو السبب؟ على سبيل المثال فإننا لو جئنا إلى هذه الصالة ولا ندري هل إننا سنشهد مسابقة كرة الطائرة أم جيء بنا إلى هنا من أجل التحدث، فإن حقوقنا ومسؤولياتنا ستختلف، فلو جئنا من أجل مسابقة في هذه الصالة سيكون لنا حقوق وعلينا واجبات وإذا كان المجيء من أجل التحدث في الصالة فإن الحقوق والواجبات ستختلف، فلو جئنا هنا من أجل اللعب والتمرين فينبغي أن نناول الكرة لبعضنا البعض ونضرب الكرة فوق الشباك ولو جلسنا صامتين فإن ذلك سيكون مثار ضحك علينا، فلابد أن نتحرك ونمارس اللعبة وهذا من حق الإنسان في هذه الحالة لكن الوضع سيكون مختلفاً لو جئنا للاستماع إلى محاضرة فلو قام أحدهم بنهاية الصالة وبدأ بالعب بالكرة، فإن ذلك سيكون تعدياً على الآخرين وعملاً غير صائب وهكذا تتغير قائمة الحقوق عندما يتغير تعريفنا في هذه الصالة والمجيء إليها، فلو جاءنا شخص وسألنا من هو الإنسان وما هو الهدف من الحياة؟ لماذا جئنا إلى هذه الدنيا؟ فلو طُرح هدفٌ توحيديٌ وإلهي للقضية وقال إن الإنسان موجود أبدي عندها سيتم طرح قائمة من المسؤوليات والحقوق للبشر

عندها ستكون الصلاة والصوم والجهاد والإنفاق وكل هذه الامور جزءاً من المسؤوليات والوظائف كما ستكون له حقوق أيضاً وواجبات، فلو جاءنا أحدهم وقال إن الدنيا كالإصطبل وإن الناس وضعوا فيها كي يأكلوا وحسب ويعيشوا فيها خمسة أو ستة عقود والقوي فيها يأكل الضعيف وكل من تجاوز على حقوق الاخرين فهذا من حقه عندها يكون هناك تعريف آخر لحقوق الإنسان عندها تتغير مسؤولية الصالح والطالح والأخلاق والحسن والقبيح وكل شيء ومعها تتغير قائمة التعريف بحقوق الإنسان ففي إحدى النظريات تكون عمليات الانتحار مشروعة ويصبح الحق باطلاً ويكون هناك حق للارتداد وحق للزنا وكل هذه الانحرافات تصبح من حقوق البشر وفي نظرية أخرى أو عقيدة أخرى يتم الاعتراض على هذا التعريف لحقوق الإنسان وتعتبر هذه الأمور إعتداءاً وإهانة للبشرية أو جريمة بحق الإنسانية والاختلاف هنا يشبه حضورنا إلى صالة كرة الطائرة، المهم أن يتحدد سبب ونوع الحضور عندها يصبح من السهل تعريف الحقوق والواجبات، فلو كنا جالسين بشكل مؤدب ونستمع إلى المتحدث سيكون فعلنا صحيحاً ولكن إذا بدأ شخصٌ أو أكثر بلعب الكرة وسط الصالة فهذا نشاز يريد البعض القول إن رؤية الجهتين للموضوع مختلفة فهم يرون حضورنا ساكتين في الصالة أمراً عبثياً ونراهم لا يحسنون الأدب عندما يلعبون الكرة وسط الصالة أثناء المحاضرة، إن الفريق الثاني يريد تعريف الإنسان على أنه حيوان يبلغ من العمر أربعين او خمسين عاماً لكن نظرية الأنبياء تقول إن الإنسان موجودٌ أبديٌ وليس مؤقتاً إنه موجود إلهي إنه مختار ومسؤول.

دعوني أوضح لكم بعض الأحاديث التي ينبغي ان نقتنص منها عدة أسس ولها الكثير من الإيضاحات وهي مورد بحث وجدل كبيرين وهي محل اختلاف في المؤتمرات العلمية في باب فلسفة الأخلاق والحقوق ومورد بحثنا في هذه المحاضرة، عدة أسس أعرض إليها بصورة مختصرة وسريعة، أولاً إن مفهوم حقوق الإنسان والأحاديث التي سأعرضها ستوضح مفهوم حقوق الإنسان وانه ليس بالمفهوم الجديد بل له جذور دينية وتوحيدية، إنهم يقولون إن حقوق الإنسان كشفٌ جديد وعصري وهو من اختراع البشر وهذا ليس صحيحاً من يقول ذلك جاهل في تاريخ الفلسفة، ثانياً عندما نتحدث عن حقوق البشر فهناك جانب ديني وآخر دنيوي وهذا يستدعي أن هناك حقوق بشر إسلامية وأخرى

غير إسلامية فكيف يتم تقسيم حقوق البشر إلى دينية وعلمانية وهذا يعود إلى تعريفنا إلى حقوق الإنسان، فهل على سبيل المثال نعتبر الوحي الإلهي والعقل جزءاً من مصادر حقوق الإنسان أم لا؟ حتى نأتي وندون في الوثيقة بنود حقوق الإنسان، ما هو منشأ حقوق الإنسان؟ وما هي طريقة الجواب؟ هل نقر بالأصول التوحيدية أو المادية لحقوق الإنسان وعليه فإن حقوق الإنسان قابلة للتقسيم على هذا الأساس دينية وعلمانية، ثالثاً يدور البحث إن نسبة الدين مع حقوق الإنسان ليست مصداقاً لبحث رابطة العلم مع الدين بل نسبة النظريات الحقوقية المختلفة فنحن نقول بنظرية حقوق البشر الدينية ولنا توحيدنا وإسلامنا. وهناك نظرية حقوق البشر غير الدينية وليس هناك بحث وجدال بين العلم والدين وينبغي مقايسة النظريتين والطريق الامثل هو عقد سلسلة مباحث، ففي المدرسة العلمانية يتم قطع ارتباط الحقانية في إطار النظرية وكذلك المشروعية في إطار العمل مع الوحي والتوحيد لكننا في النظرية الإسلامية لا نقطع ذلك، فالحق في إطار النظرية في معنى الحقيقة، أما الحق في إطار العمل فهي الحقوق وهكذا فإن النظرية الإسلامية تضع لقضية الحقانية والمشروعية جذوراً توحيديةً لكنكم لا تعتبرونها كذلك بل تمضون إلى جذرٍ مادي ومن هنا يبدأ الخلاف بيننا بالطبع في مسألة حقوق الإنسان متطابقون بمقدار ثمانين إلى تسعين بالمئة وليس صحيحاً أنكم لو قلتم إن هناك حقاً للزواج نقوم نحن برفضه، لأننا مختلفين معكم هذا ليس صحيحاً فهناك الكثير من المشتركات ومع ذلك فإن استدلالنا ومصادرنا تختلف وفي بعض الأحيان يكون الاختلاف بارزاً ويحصل ذلك في باب تزاحم حقوق الأفراد مع بعضهم البعض، على سبيل المثال يهتم الآن تداول مسألة الإجهاض على أنه جزءٌ من حقوق البشر وحقوق المرآة على وجه الخصوص، فهل هذا الأمر هو حق؟ أليس الجنين بشراً؟ فذلك الجنين يريد أن يواصل الحياة فكيف يحق للآخرين إصدار حكم الإعدام بحق الآخر ما هو حق هذا الجنين؟ بالطبع فإن الوضع مع حالات المرض فهي لا غبار عليها، البحث يرتبط بإسقاط الجنين والإجهاض من باب عدم تحمل المشاق أو أن الوالدين لا يريدان الطفل، لأن لا طاقة لهم بتربية الأطفال يقولون ذلك بعد أن يصبح عمر الجنين خمسة أشهر، فلو لم يكن لهذه الأم الاستعداد الكافي لتربية الطفل فلماذا وصلت إلى هذه المرحلةِ ثم تريد اليوم إصدار حكم الإعدام ضده، فكيف يحق

لأحدٍ أن يعدم طفلاً لا لشيءٍ إلا لأن الأم لا تريد الطفل لعدم طاقتها بتربية الطفل وعندما يتم التساؤل عن مصدر حقوق الإنسان وماهية ذلك فإنه من أجل الشروع من الجذور والتصنيف الأهم والمهم.

ربما كان الاتفاق في الموضوعات يشمل ثمانين أو تسعين بالمئة من قضايا الحقوق عندما يكررون حقوق الإنسان الغربية نقول لهم هناك عشرات النظريات الحقوقية في الغرب واليوم هناك ما لا يقل عن ثلاثة نظريات في حقوق البشر وهي متعارضة مع بعضها البعض ليس أمامنا حقوق طبيعية وهناك حقوق إلهية وحق منطقي وحقوق إنسان علماني وهي حقوق لا ندري هل يمكن ضمها في إطار حقوق طبيعية دائمية أو ذاتية أبدية غير قابلة للأخذ عامة وضرورية أم إنها حقوق متقابلة عقدية ووضعية وهي مدرسة متذبذبة فكل حينٍ هم في وادٍ جديد وليس مبناهم معلوماً حتى الآن وعليه نحن لسنا أمام حقوق إنسانٍ غربية موحدة ولا ينبغي لنا كمسلمين أن نُعرف حقوق الإنسان خارج إطار الدين وليس هناك أمر ديني وآخر غير ديني، فالكل في إطار الدين لا ضده ولا خارجه بل في داخل الدين إن البند السادس من حقوق الإنسان العالمية الموحدة لها معنى وهي ضرورية إن النظام حقوقي لكل البشر يكفي إننا نستسلم لذلك لكن النظام الحقوقي لا ينبغي أن يكون علمانياً ثم هناك أساس العقود الاجتماعية المحفوظة في الحقوق الإسلامية للبشر بصورة كاملة وهي قابلة للتفويض في الحقوق الفرعية والقابلة للتفويض ورضا النفس ليست ملاكاً فلو سألنا أحدهم وهو يريد الانتحار لما تفعل ذلك؟ يقول أحب ذلك وأنا مستعد لذلك! أليس مصدر حقوق البشر رضا الإنسان، ولو سألنا آخرين لماذا تقوموا بأعمال غير إنسانية يجيبون لقد اتفقنا على ذلك فهل أن رضا الطرفين هو ملاكٌ حقوقي يستوجب المشروعية أو الحقانية والإنسان ليس مُخيرٌ على إلقاء نفسه في التهلكة لأن شخصية وسمعة ووجاهة الإنسان ليست ملكاً له وسمعة الإنسان نفحة رحمانية وروحٌ إلهية نفخها في جسد الإنسان وهذه كرامةٌ بسبب روح الإله في نفس الإنسان وعليه فإن الروح ليست ملكاً للإنسان ليتصرف معها كيف ما يشاء إنها أمانة في عنق الإنسان عليه لا يصح أن نخاطر بأنفسنا، لأننا لا نملك روحنا وكرامتنا وهي لله، لاحظوا مبادئ حقوق الإنسان وكمال البشر في هذه الثقافة وقارنوا معها حقوق البشر الإسلامية والحقوق الإسلامية للبشر فهي ذات مصدر

عقلي ونقلي معاً عليه نجد فيها الاجتهاد و التطور النسبي من باب التفريع ولنا حقوق ثابتة وأخرى متغيرة والعقل والتجربة البشرية لهما دور في حقوقنا لكن ليس في تحصيلها وفي ثقافتنا ليس هناك فارق بين حق الناس عن حق الله وهذا أحد الفروق الموجودة بين مدرسة الإسلام والعلمانية والمادية فلا ينبغي الفصل بين حق الناس وحق الله وأن أصل الحق هو الإله والمدرسة العلمانية تصل إلى حق الناس من خلال نفي حق الله سبحانه وتعالى ونحن في الإسلام نرفض ذلك ثم لا يجوز لنا فصل حقوق الإنسان عن واجباته فكلما تحدثنا عن حقوق البشر ينبغي أن نتحدث عن الواجبات الملقاة عليه وتحديد مسؤولية الإنسان مقابل الله سبحانه وتعالى ونفسه والآخرين ثم الأصل الأخير وهو الأصل المهم لا يلحظ في العالم العلماني ولا يتم الحديث عنه حيث يكتفي أنصار العلمانية بالحديث عن حقوق البشر وأنها هي الأصل الأول والأخير لكن هؤلاء يتغافلون عن أصلٍ مهم وهو حق امتلاك الآخرة والعاقبة الحسنة والتكامل الجميع هنا أحرار وحريتهم هي حرية الآخرين وهذا يعني أن حقوق الفرد غير محدودة لكن المدرسة الإسلامية لا تقول ذلك بل تقول إن حقوق الإنسان لها حدان، فللحرية حدين، الحد الأول الحرية وحقوق الآخرين والأهم هو حد التكامل والكرامة الإنسانية فبعض الأفعال لا تضر بالآخرين أو أن الطرف المقابل راضٍ لكن كرامة الإنسان ستقع في خطر وعليه فحد الحرية مرتبط بالكرامة الإلهية للإنسان وعلى الإنسان مراعاة ذلك وهذه الأمور أكثر أهمية من الحقوق المادية، لا بل تفوقها وليست بأقل منها لكن العلمانية لا ترى ذلك وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي:

أي نوع من حقوق البشر ونظامه الحقوقي ينبغي أن يكون عالمياً هناك العديد من النظم الحقوقية وأقول ينبغي أن يكون النظام الحقوقي الذي تحدث عنه الإمام الرضا عليه السلام نظاماً حقوقياً عالمياً دعوني أنقل لكم بعض الروايات عن الإمام الرضا عليه السلام لتضح لكم الصورة أكثر وليُبان لكم النظام الحقوقي الإسلامي للبشر:

قيل إن إنساناً متمولاً زرادشتي المذهب توفي في نيشابور القريبة من خراسان الحالية وكان أتباع تلك الديانة موجودون في المنطقة حينها وكان أوصى أن يوزعوا أمواله بين الفقراء فأمر قاضي نيشابور بتوزيع أمواله بين فقراء المسلمين في نيشابور وبعد أن وصل الخبر إلى الإمام الرضا عليه السلام حيث سأل أحد الأصحاب ذلك من الإمام وأراد جواب الإمام على فعلة

القاضي أجاب الإمام بانه لم يحسن صنعه، لأن الشخص لم يقل أعطوا أموالي للمسلمين بل قال أعطوها للفقراء وهنا ينبغي إعطاؤها بالدرجة الأولى لفقراء غير مسلمين، فقال الشخص: الآن وقد فعل سيدي ما العمل؟ فقال الإمام: لا يصح استرجاع ما أعطيتموه لفقراء المسلمين ولكن ينبغي أن تأخذوا ما يُعادل أموال الزرادشتي وتنفقوها على أتباع هذه الديانة من فقراء المدينة.[1]

لاحظوا واحدة من الإشكالات التي نأخذها على العلمانيين أنهم يتهموننا وفي حال تطبيق حقوق الإنسان على المقياس الديني فإننا سنهملهم لا يحق لهم التعرض لحقوق البشر الإسلامية ربما جازلهم التعرض لحقوق البشر المسيحية أو التي تقول بها الكنيسة وما شاكل ذلك لاحظوا إن الإمام الرضا عليه السلام قال ورغم أن الرجل الزرادشتي لم يُصرح لمن أعطوا أموالي ووزعوها لم يستثني أحداً لكن الإمام أمر بتوزيعها على أبناء مذهب الرجل، لأن الإمام يقول إن عقل الرجل ربما كان يقصد توزيع أمواله على فقراء أبناء مذهبه هذه هي نظرة الإسلام إلى الحقوق البشرية. رواية أخرى ننقلها لكم عن الإمام الرضا عليه السلام: عن زكريا ابن آدم قال: سألت الرضا عليه السلام عن رجل من أهل الذمة أصابهم جوع فأتى رجل منهم بولد له فقال هذا لك أطعمه وهو لك عبد قال: «لا يباع حر فإنه لا يصلح ذلك ولا من أهل الذمة».[2].

وهذا يعني أن إطعام غير مسلم في المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن ينتهي ببيعه، لأنه حرٌّ حتى ولو كان غير مسلم، لا بل زاد على الأمر أن هذا الأب المسكين لا يحق له بيع ولده لأن له كرامة إنسانية عامة.

وروي عن ابا الصلت انه قال للإمام الرضا عليه السلام: «يا ابن رسول الله، ما شيء يحكيه الناس عنكم. قال: وما هو؟ قلت: يقولون إنكم تدعون أن الناس لكم عبيد. فقال عليه السلام: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تشهد بأني لم أقل ذلك قط، ولا سمعت أحدا من آبائي قاله».[3]

---

١ . راجع: أصول الكافي، ج ٧، ص ١٦.

٢ . الاستبصار للشيخ الطوسي، ج ٣، ص ٨٣.

٣ . عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٨٣.

ترى كيف يقول الإمام ذلك وهو يدعو الناس لعبادة الله سبحانه، وفي هذه الرواية أكثر من فائدة، الأولى أن لا نجعل الناس عبيداً لهذا وذاك باسم الدين فقد تعامل القرآن الكريم بحزم مع الأحبار والرهبان من المسيحيين واليهود وقال إن هؤلاء منحرفين لأنهم يتخذون أرباباً من دون الله ولا يوجد مثل هذا الأمر في الإسلام فالإسلام يقول إن كل المسلمين والعلماء وأهل البيت وحتى الرسول الأكرم ﷺ سواسية في الخلق والمقام لكن القرب إلى الله رهين بالتقوى حيث تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، ولا ينبغي أن نسمح لأحدٍ في الإسلام أن يتبضع باسم الدين ويقول للآخرين حسناً! إنكم عبيد الله ونحن منسوبون إليه فإنكم ستصبحون عبيداً لنا بالوكالة هذا لا يجوز، نعم يجوز للإنسان أن يُطيع من يفوقه تقرباً إلى الله وأكثر منه زهداً وتقوى وهكذا كان الإمام الرضا عليه السلام يشدد على ان الإنسان يمكن أن يُطيع الآخرين لقربهم إلى الله تعالى وتقواهم ولكن من حيث الواقع فالاثنان عبيدٌ عند الله، الثاني إن بعض المغالين يُحاولون جعل درجة أهل البيت أعلى من النبي الأكرم ﷺ وهم يفعلون ذلك من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون إن أهل البيت هم عبيد الله امتازوا بالتقوى وتفسير الدين والقرآن وهم ليسوا أعلى شأناً من القرآن الكريم حيث يفعل بعض الغلاة.

أشكر حسن استماعكم وأعتذر لإطالتي هذه المحاضرة عليكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

١. الحجرات: ١٣.

الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

العولمة المهدوية

هناك الكثير من التعابير الواردة عن الحجة المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف عجل الله تعالى فرجه الشريف، والمطوَّلة عن الأنبياء من الأزل وحتى خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله.

تقسيم البحث:

أود هنا أن أُقسِّمَ المحاضرة إلى قسمين:

الأول أتحدثُ فيه حولَ نظريتين وتفسيرين لتأريخ الإنسان، ونرى أيُّهما أقربُ إلى المهدوية وأيُّهما أبعد ولماذا.

القسمُ الثاني يختصُ بالروايات المروية عنه، وسنُلاحظُ أيَّ مُجتمعٍ ينوي الإمامُ إيجادهُ في حكومته العالمية، وكيفَ ستكون العلاقات الإنسانية وحقوق الإنسان، ورُبما ستكون كلُّ روايةٍ بمثابة موضوعٍ يصلح لكتابة اطروحةٍ علمية.

النظرية الليبرالية

وتُعدّ هذه القضية من أكثر الأمور اجماعاً بينَ الأديان الإلهية، حيثُ وعدت جميعها بها، وذكرَ الجميعُ أنَّ العملَ لم يُنجز بعد وسيتمُّ على يد رجلٍ كبير، وقيلَ أنهُ أكبرُ التكاليف التاريخية التي ستُنفذُ على أكبر الرجال في التاريخ، ونرى هذه القضية واردةً في المذاهب التي نفت وجوبَ الرد، ورغم أنها لم تذكر اسماً لكنها أشارت إلى مثلِ

هذا الأمر، لا بل تعدَّى ذلك إلى المذاهب الإلحادية مثل الماركسية والبوذية وبعض التيارات المسيحية التي تنتظرُ ظهورَ المسيح، كما تنتظر مع العديد من الفرق والمذاهب نهاية التاريخ.

قالوا إنَّ الإصلاحات التي جاءَ بها الإنسان وكذلكَ تاريخ البشر ليس له بداية ولا نهاية واضحة، ولا تحكمهُ أصولٌ محددة، وأعني هنا النظرية الليبرالية التي تطرح تنظيراتها منذُ خمسين أو ستين عاماً، وتُريدُ الإيحاءَ أن لا غاية من التاريخ وقد تحدثَ أخرُ مُفكريهم ويُدعى فوكاياما عن نهاية التاريخ، ولكنها النهاية القائمة على نهايتهم هم.

صفات الإمام عليه السلام

ومن التحيات التي ذَكَرَت للإمام الحجة المنتظر عجَّلَ الله تعالى فرجهُ الشريف: «السلامُ على ربيع الأنام ونضرة الأيام»[١]. وقد روى من شاهدَ الإمام أنَّ له صفات بارزة ومميّزة وقد ذكرها الأئمة والصالحون ومن جملة ما ذكروا أنَّ لونَ بشرته يميل إلى الحنطي، وحواجبهُ هلاليةٌ ممدودة، وله عينان سوداوان كبيرتان وهو جذابٌ ونافذ، عريضُ المنكبين ذو أسنانٍ برّاقةٍ وأنفٍ مُمْتد، وطلعةٍ بهيةٍ ووجهٍ مُشع ذو قالبٍ صخري، ذو وجهٍ يميلُ إلى الصُفرة من كثرة السهر، وعلى كتفه الأيمن خال، ذو يدين عضليتين، وذو شعرٍ طويل أرخى سدائله حتى أذُنيه، ومُحياهُ جميلٌ يغرقُ في هالةٍ من الحياء الذي هو من صفات العظماء، وهيئتهُ مليئةٌ بالحشمة والعظمة والقيادة، رؤيتهُ تقلبُ الإنسان، وصوتهُ جَهوَرْيٌّ كالبحر.[٢]

تاريخ الإنسان والمهدوية

فيما يخصُ القسمَ الأول فقد قالوا إنَّ الانتظار هوَ عمليةُ التضاد بين الواقع والحقيقة، فالواقع عبارة عن الأمور الموجودة، والحقيقة تعني الشيءَ غيرَ الموجود ولكن ينبغي أن

---

١. مفاتيح الجنان، باب الزيارات، زيارة الإمام المهدي.

٢ . الكافي، الكليني، ج١، ص٤٤٣؛ بحار الأنوار، ج٣٦، ص ٣٣٧ و ٣٣٨، رقم الحديث٢٠٠؛ ينابيع المودّة، باب ٩٤، ص٤٩٣؛ فرائد السمطين، ج٢، ص٣١٤، رقم الحديث ٥٦٥؛ عقد الدّرر، يوسف بن يحيى المقدسي، الباب الثالث، في عدله و حليته، ص٦٤؛ السنن الترمذي، ج٤ ص ٤٣٨؛ كتاب الفتن، باب ٥٢ ما جاء في المهدي، ح ٢٢٣١.

يكونَ موجوداً، وهناكَ زاويتان للنظر في التفسير التاريخي للبشر، وهناك عملية المسيانيس[١] أو المسيحية وانتظار المسيح، وهوَ يعني الدعوة للانتظار انتظارٌ لما هوَ موجود، واعتراضٌ على الوضع الموجودِ على سطح البشر والذي يترافقُ والوعدَ بالنصرة القاطعة للحق والعدل في نهاية التاريخ.

لقد عبَّروا عن ذلكَ الأساس باسم النظرة المستقبلية، أي أنهم يرونَ أن الأيديولوجية معطوفة على الغد وأنَّ كُلَّ الأنباء والحوادث ستكون في المستقبل وأنَّ العالم لم ينتهي بعد، وأنَّ على المحرومينَ ألّا يقنطوا، وأنَّ على مجاهدي طريق الحرية والعدالة والوعي ألّا ييئسوا حتى ولو فَشلوا في نضالهم مرتين وثلاثاً وأربعَ من أجل تحقيق العدل، وعليهم النظر إلى المستقبل وأن يكونوا مرفوعي الرؤوس فإن قدَّموا الشهداء والخسائر وفشلوا في بعض الأزمنة عليهم أن يبقوا شامخين، إنَّ الأملَ بالمستقبل بعدَ غيابٍ استمرَّ طويلاً وينبغي انتظار الطلوع ليوم غدٍ، وتصوُّر طلوع الغد بابتهاج وليست هذه النظرية فكرةً لإقبال الرأي العام مثلما يقول بعض البراغماتيين أنَّ الإمامَ المنتظر غير موجودٍ أصلاً، وإنَّ مُجردَ الإيمان به هوَ مُفيد، فالإمام حقيقة والإيمان به مفيدٌ، إذن فهو حقيقة مفيدة ومن لم يستطع دركَ هذه الحقيقة أو التصديقَ بها فهوَ من أنصار عالم الحس، ولم يكونوا على استعدادٍ لفتح نافذةٍ من عالم المادة إلى ما وراءَ العالم المادي والنافذة التي فتحها الأنبياء، وربما اعتبرَ هؤلاء أنَّ الإمام المنتظر يفتقرُ إلى الحقيقة وربما كانَ مُفيداً وحسب. لكنَّ في الواقعَ أنَّ قضية الإمام المنتظر ليست أسطورة وقصةُ، الإمام حقيقةٌ مُفيدة وإنَّها خليطٌ من أمرين وهيَ خطٌّ للرؤية المستقبلية للإنسان ونظرةٌ إلى التاريخ الذي يتمُّ التعبيرُ عنه بالمسيانين[٢] في الغرب، وقد تمَّ وصفهُ بهذا التعبير وهذا المنهج التاريخي له ديناميةٌ محدَّدة حيثُ يقولُ إنَّ التاريخَ حيٌّ وفاعلٌ ومن جهةٍ فهوَ موجودٌ ذو شعورٍ يهدي التاريخ، ويرى أنَّ عاقبة الإنسان لن تجرَّهُ إلى الحضيض، وهيَ تأملُ خيرٍ في التاريخ وترى أنَّ شمسَ الحقيقة والعدالة ستسطع، وأنَّ الله

---

١ . اليهود المسيانيين وتتعدد التسميات حولهم مثل اليهود المتنصرون، اليهود المسيانيون، اليهود المسيحيون، المسيحيون اليهود، اليهود المؤمنون بالمسيح، العبرانيون المسيحيون. هي حركة إنجيلية بروتستانتية تؤكد على العنصر «اليهودي» في الإيمان المسيحي ويتكون أتباعها من اليهود المؤمنين بالمسيح ويعتبر اليهود المسيانيين حركة يهودية عرقيًا مسيحية دينيًا. (راجع: ويكيبيديا).

٢ . أشير اليه في الصفحة السابقة.

لن يتركَ الإنسان مع الظالمينَ وحيداً.[١]

وهناكَ منهاجٌ آخر يطرحه الفكر الليبرالي الرأسمالي من جهة الغرب، ويتمُّ ضخهُ إلى الأكاديميات والجامعات ويتمُّ التسويق له في العالم، وعندما أقولُ الغرب لا أعني الإنسانَ الغربي، فهناكَ مسيحيون يؤمنونَ بعودة المسيح، ورغمَ أنَّ كُلَّ المد الفكري ضدهم ورُغمَ أنهم أقليةٌ ولكنهم موجودونَ في الغرب، وفي الولايات المتحدة تحديداً ما زالوا يحتفظونَ بباطنهم الطيّب.

ظلم النظام الغربي لمواطنيهم

أذكرُ أنني ذاتَ مرةٍ شاهدتُ بإحدى بوابات الكنائس الكبيرة والقديمة في واشنطن، فتاة جامعية أمريكية تعزفُ على الناي وتبكي، وبعدَ جولةٍ في هذه الكنائس السبع المتداخلة في هذه المنطقة استمرت لساعتين خرجت وإذا بالفتاة تقفُ وهيَ تواصلُ العزفَ على الناي وتبكي فتقدمت إليها وسألتها عن سرِّ ما تفعلهُ فقالت: إنها نذرت أن تفعلَ ذلكَ صباحَ كُلِّ يوم أحد مادامت حيَّة حبّاً بالموعود الذي سيأتي لإنقاذ العالم. فهناكَ أيقنتُ أنَّ كُلَّ المد الذي يواصلهُ الفكر الليبرالي على الروحانيات والإنسانية والعدالة في الولايات المتحدة لم تستطع التغلب على فتاةٍ مؤمنةٍ جامعيةٍ في وسط واشنطن.

فأغلبُ المواطنين في الغرب حتى الفاسدونَ منهم مظلومون، وإنَّ نظامَ السلطة الحاكم والذي يُسيَّرُ من قبلِ نواةٍ رأسماليةٍ يهوديّة هو الذي يتحكم برقاب الناس والمجتمع في الولايات المتحدة وسائر بلدان العالم، وهم الذينَ طلبوا إعادةَ فرز الأصوات، وأعلنوا أنَّ تزويراً شابَ الانتخابات في الفترة الثانية من رئاسة بوش الابن.

وقد صرفوا ثلاثةَ ملياراتِ دولارٍ لغسلِ أدمغةِ الرأي العام من أجلِ انتخاب شخصٍ من بين اثنين، وأخذوا هذه الأموال من الشركات الرأسمالية حيثُ يعيشُ الغربُ نظامَ استعباد جديد.

إنَّ أكثرَ الأنظمة المحافظة تتركزُ في الولايات المتحدة حيثُ باتَ الفكرُ الليبراليُّ يُسيطرُ على الولايات المتحدة والعالم لما أصبحوا مُحافظين، لأنّهم يُريدونَ ابقاء الوضع الموجود كما

---

١ . ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. الحج: ٣٣.

هوَ، فيريد أولاً أن يسيطر على الناس والجامعيونَ في كُلِّ الدنيا ويقبلوا أنَّ الوضعَ الموجود والليبرالية والمصالح الرأسمالية العالمية والصهيونية هوَ الأفضلُ عالمياً، وأن يقبلَ الإنسان في الشرق أنَّ الوضع الموجود هو الأكثرُ عصريةً وهوَ آخرُ الخط التاريخي.

نهاية التاريخ والمجتمع الأميريكي

قالَ فوبر في لقاءٍ مع صحيفة دير شبيغل: «إنَّ المدينة الفاضلة[١] في كُلِّ التاريخ البشري هيَ المجتمع الأمريكي».

وعندما سألَ المُراسل أنَّ حادثةَ قتلٍ واحدة تقعُ كُلَّ ثماني ثوانٍ في هذا البلد، واعتداءً جنسياً في كلِّ تسع ثوانٍ، وهوَ أكبرُ مُجتمع مُصدّرٌ للمخدرات والسلاح الحربي والكيمياوي والنووي. أينَ هذا المجتمع من المدينة الفاضلة في كل التاريخ؟

فيردُّ فوبر بالقول: إنَّ أصلَ التفكير بالمدينة الفاضلة كذبةٌ كبيرة، ولا وجودَ للمدينة الفاضلة في نهاية التاريخ، أي لا ينبغي أن يكونَ كذلك. وأضافَ أنَّ هذا انحرافٌ فكريٌّ استولى على الذهن البشري وأنها أساطير ليست إلّا. وقالَ فوكوياما: إذا كانت للتاريخ نهايةٌ فإنهُ في المجتمع الحالي في الولايات المتحدة الأمريكية.[٢]

إنَّ هذا الفكر هو ما نُطلقُ عليها اسمَ الفكر المُحافظ أي الدفاع عن الوضع الموجود في العالم وعن هرم السلطة فيها وهوَ اليوم بيد الرأسمالية، حيثُ باتت كلُ شعوب العالم وشعوب الشرق وأفريقيا قاعدة الهرم والعالم عبيدٌ ينبغي أن يرفعوا قواعد الهرم إلى الأمام. كيفَ تمَّ توزيع الثروة في العالم اليوم؟ وكم هيَ نسبةُ الأثرياء فيه؟ وكم هي الثروة التي بحوزتهم؟ وما

---

١ . توجد العديد من الأفكار الفلسفيّة القديمة التي ارتبطت بفلاسفة العصور الماضيّة، وخصوصاً ما ظهر من فلسفة في اليونان القديمة، والتي ما زالت أغلب أفكارها تُدرّس إلى هذا اليوم، وضمن كلّ هذه الآراء في الفلسفة اليونانيّة. ظهرت أفكار الفيلسوف اليونانيّ المشهور أفلاطون الذي قدّمَ العديد من أفكاره حول الكثير من الموضوعات، وتُعتبر فكرة المدينة الفاضلة من أهمّ هذه الأفكار، بل وأكثرها انتشاراً بين النّاس والمُهتمّين بدراسة الفلسفة، ونشر أفلاطون أفكاره هذه في كتاب أطلق عليه مُسمّى (الجمهوريّة)، إذ أضاف فيه مَجموعةً من التصوّرات حول العصر الذهبيّ القادم برأيه؛ وخصوصاً عندما يُصبح المُجتمع مثاليّاً بعد دراسة المُشكلات الاجتماعيّة، ومُحاولة البحث عن حلول جذريّة لها، ممّا يُساهم في الوصول إلى مدينة أفلاطون الفاضلة. (ماريا برنيري، سلسلة عالم المعرفة ٢٢٥ - المدينة الفاضلة عبر التاريخ، صفحة ١١، ١٢، ١٣. بتصرّف).

٢ . نهاية التاريخ و الإنسان الأخير، فرانسيس فوكوياما.

معنى هذه الأرقام وما معنى من يقول ينبغي أن يظلَّ العالم على ما هو عليه اليوم؟

المهدوية والعولمة والرأسمالية

رويَ أن الإمام المنتظر سيأتي لضرب الفواصل الطبقية في المجتمع البشري، وفي الروايات[١] أنهُ لن يبقى جائعٌ في زمانهِ على وجه الأرض، وهذا يعني أنَّ المهدوية التي نُؤمنُ بها ويؤمن بها أتباعُ كلِّ المذاهب في العالم بالطبع ليسَ بمقدارِما يؤمن ويصرح بها الشيعة، لقد تحدَّثَ الشيعة بشفافيةٍ كاملة حتى إنهم ذكروا اسمَ المنقذ وطريقةَ حُكمه وهوية الحكومة بكلِ وضوحٍ، ولم نشهد مثلَ هذه التفاصيل في المذاهب الأخُرى. لو أنكم راجعتم أفكارَ ومُعتقدات الأويا ديشيمية[٢] في الإنجيل وفي التوراة لوجدتم أدلة على ظهور المنجي في آخر الزمان، ولكن دونَ الشفافية التي تحدثَ بها الشيعة في مظهره العام وأقوالهِ وشعاراته وثورته وحاكميته.

إنَّ النظامَ الليبرالي الذي يُعارضُ وجودَ المدينة الفاضلة والأصولية الدينية والراديكالية الثورية وكل أنواع الأيديولوجيات وكل أنواع الأصولية حتى غير الدينية منها، والهدفُ من هذه النظرية منع حضور الفكرة لدى الإنسان خاصةً في الجامعات الشرقية، أي أن لا يكونَ مُتأملاً أو مُنتظراً. عجباً لهؤلاء. إذن فالرأسمالية المحاصرة ليست آخرَ الخط فينبغي أن يتبادرَ إلى ذهن الطلبة هذا التساؤل، هؤلاء يُريدونَ القول أن لا شيءَ أبعدَ مما هو موجود، وهذا عينُ العلم والعقلانية، إنهُ آخرُ الخط وهذه نهاية التاريخ، وهذه هي المحطة الأخيرة وعلى الركاب النزول من القطار، لكنهم لا يقولونَ ينبغي أن تعيشوا مثلنا في رفاهية مثل الناس، وفي الولايات المتحدة خصوصاً لا يقولونَ ذلك، لأنَّ معنى العولمة سيتغير ويصبحُ توزيعاً عادلاً للثروة في العالم والاحترامَ المتبادل وهذا ما لا يُريدونهُ، بل إنَّهم يُريدونَ أن يكونَ العالم بأجمعه تابعاً لهم.

إنَّ الرأسماليين الحاكمين في الولايات المتحدة يُريدونَ قيادة العالم ويرونَ أنَّ على جميع

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢٠ «تخرج الأرض نباتها و تنزل السماء بركتها و تظهر له الكنوز» و ج ٥٢، ص٢٢٤ «و لا غارما إلا قضى دينه ولا مظلمة لأحد من الناس إلا ردها»، اعلام الورى، فضل بن الحسن الطبرسي، ص٤٣٢.

٢ . قد تكون «الأوبانيشاد» وهي الجزء الأخير في مجموعة من الكتابات الهندوسية التي تُسمى الفيدات (جمع فيدا). وتكوّن الأوبانيشاد جزءًا أساسيًا من مصادر الديانة الهندوسية، كما أثّرت في معظم الفلسفات الهندية. (راجع: ويكيبيديا: الأبانيشاد)

البشر أن يكونوا قاعدةً لهم.

هؤلاء يُعارضونَ المهدوية، ولا يُعارضونَ الرأسمالية الأمريكية، وإن كانت العالمية والعولمة تعني إمارة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم من خلال مصالح الرأسمالية التي تحكم الولايات المتحدة والصهيونية وبريطانيا فإنَّ هؤلاء يوافقونَ على العولمة وينبغي لهذه العولمة أن تبتلعَ كافة الثقافات والأيديولوجيات المعارضة والمقاومة في الدنيا، وإذا قلنا لهم إننا نقبلُ بهذه العولمة لا المعايير الرأسمالية لليهود بل المعايير التي يدعو لها مهديُّ الأمة، فإنهُ لن يبق إنسانٌ جاهلٌ على وجه الكرة الأرضية ولا ينبغي أن يظلَّ جائعٌ في القارة الإفريقية.

العولمة التي يدعو لها الإمام المنتظر تعني أن يتوفرَ الأمن للجميع وليسَ من أجل الرأسماليين وحسب، وعندنا في الروايات أن الأمنَ يتوفر في حكومة الإمام المهدي العالمية بالقدر الذي يمكن من خلاله لفتاةٍ أن تُسافر لوحدها من هذا الطرف من الدنيا إلى ذاك دونَ أن يهددها أحد[١]، أي أن يتوفرَ في عولمة الإمام المنتظر الأمن للفتيات في أفريقيا والمكسيك وأفغانستان، وليسَ فقط لفتيات الرأسماليين في الولايات المتحدة، ويُقومُ الفكرُ العولمي الليبرالي الرأسمالي، وكذلكَ المحافظونَ على مستوىً عالمي على مُعارضة الأصولية التي تدعو لمدينةٍ فاضلة تحكمُ فيها الايدلوجية والمبادئ، فهؤلاء يقولونَ إنَّ المبادئ أصلاً مفاهيمُ ومقولاتٌ غيرُ عقلانيةٍ وغيرُ علمية، ولأنها غيرُ علمية فهيَ أمورٌ شخصية ولأنَّ المبادئ شخصيةٌ أيضاً فهيَ شخصية ولأنها كذلك فلا علاقة لها بالحكم والأمور العامة. هذا باختصار معنى العلمانية. هم يقولونَ إنَّ الحديثَ عن المهدوية والعولمة على شاكلة العدل العالمي هوَ مُجرَّدُ خيالٍ ونسجِ أوهامٍ ولا يمكن تحقيقه، إنهم يُرددونَ هذا الكلام في جامعاتهم ويقولونَ بما أنَّ الأيديولوجية هي أمرٌ توتالي (totalism)[٢]، فهيَ أمرٌ عبثي، وتنشد السيطرة التامة هذا يعني أنهم يعترضونَ على أن يأتيَ شخصٌ يُدعى المهدي ويُريدُ أن يحكم الدنيا من خلال حكومةٍ واحدة، لأنَّ رواياتنا تُشيرُ إلى أنَّ الإمام يحمل البراهينَ بيدٍ والسيفَ باليد الأخرى، وعندما يحكم الإمام العالم يُحاججُ المسيحيينَ بإنجيلهم الحقيقي

---

١ . راجع: الفتن، للمروزي، ص ٢٢١.

٢ . الشمولية أو الكُلّيَّانية وهو مفهوم مستعمل من علماء السياسة لوصف الدولة التي تحاول فرض سلطتها على المجتمع وتعمل على السيطرة على كافة جوانب الحياة الشخصية والعامة قدر إمكانها، ما يميزها عن السلطوية هو أن الشمولية تسعى للتحكم بكافة أوجه الحياة بما في ذلك الاقتصاد والتعليم والفن وأخلاقيات المواطنين.

واليهود بتوراتهم الحقيقية[١] ولن تبق هناكَ حجةٌ لأحد، وعندما يُسلمُ هؤلاء بالحق من خلال المنطق والبرهان والموعظة والرحمة تُحفظُ دمائهم، وبخلافه فإنهُ سيتمُّ التعامل معهم بحد السيف.

سياسة الإمام بعد الظهور

هناكَ روايةٌ تقول إنَّ المهديَّ هو نموذج الرحمة العالمية[٢] يقومُ بطرح استدلالاته واحتجاجاته ويذكرُ كلامَ الله، ويتحدثُ مع الناس بلطافةٍ وباستدلال لكنهُ سُرعانَ ما يُجددُ سيفه، وهناكَ يتبينُ الفرقُ بينَ المهدي والأنبياء حيثُ لا يتركُ الأمورَ دونَ حل فهوَ يُكمِلُ ما بدأوه، حيثُ يرى أن المهلة التي ينبغي فيها التحدث مع الظالمين قد انتهت وليس هناك مشكلة في الجانب النظري ولا يستطيعونَ إطالةَ أمدِ المباحث النظرية وطلبَ عقدِ لقاءاتٍ جديدة علَّها توصلُ إلى حل. وهنا يلمع بريقُ السيف الذي سيجبرهم على التراجع وسحبِ أيديهم من أفواه المظلومين.

ثمَّ يخرج علينا من يقول وماذا عن«Pluralism»[٣] التعددية في حكومة المهدي؟ أي عندما تقولونَ إنَّ الحكومة العالمية للمهدي تدعو الجميعَ لاعتناق الإسلام فماذا يعني هذا؟ هل يعني أنَّه على الجميع اعتناقَ دينٍ واحد؟ وفي هذا ظُلم، وهذا يعني حسبَ قولهم إنَّ حكومةً استبداديةً ستأتي في آخر الزمان. هذه واحدةٌ من الاستدلالات ضدَّ المهدوية، حيثُ من المعلومَ أنَّ اليهود والمسيحيين بانتظار عودة المسيح، وفي رواياتنا فإنَّ المسيحَ ابنَ مريمْ يكونُ في ركاب الإمام المنتظر[٤] وأنَّ فتحَ القدس سيكون بيد الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف،

---

١ . بحار الأنوار، ج٥٢، ص ٣٥١؛كتاب الفتن، نعيم بن حماد، ج١،ص ٢٢٠.

٢ . الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٥٢٧؛ الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني، ص٦٢؛ كمال الدين تمام النعمة، الشيخ الصدوق، ج١، ص٣٠٨.

٣ . بلوراليسم تعني التعددية بمعنى قبول الكثرة، و لها استعمالات متعددة في ميادين مختلفة كفلسفة الدين، و فلسفة الأخلاق، و الحقوق، و السياسة، و ... و القاسم المشترك بين هذه الاستعمالات المختلفة هو الاعتراف رسمياً بقبول الكثرة مقابل الوحدة أو الانحصارية.و التعددية الدينية "بلوراليسم" معناها عدم انحصار الفلاح و السعادة في دين واحد بخصوصه، وإن جميع الأديان تنهل من الحقيقة، و تنتهي بالإنسان إلى النجاة و الفلاح.و الاعتقاد بالكثرة و التعدد تارة يلاحظ في حوزة الأديان المتعددة و المختلفة، و تارة بين الفرق التي تنشأ في الدين الواحد. (الرباني الگلپايگاني، علي، «نقد و تحليل البلوراليسم الديني»، ص١٩، المؤسسة الثقافية للعلم و الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، طهران)

٤ . بحار الأنوار، ج٥١، ص ٧١، ٨٨ و ٨٩ و ج١٤،ص٥٣٠- كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢.

وهناكَ يرفعُ المسيحُ صوتهُ ويقول افتحوا بيتَ المقدس، وهناكَ يتصدَّى سبعونَ ألفَ مسلحٍ يهوديٍّ للمسيح وتقومُ حربٌ مُدمّرةٌ يُبادُ فيها اليهودُ عن بِكرةِ أبيهم. هذه هي الفئة الثانية التي تقولُ عن الفئة الأولى من المؤمنين في فكرةِ ظهورٍ مُجددٍ للمسيح، وهؤلاء يواصلونَ النَّهبَ على الصعيد الدولي حيثُ يقولونَ إنَّ الإيمانَ بالمهدي والذي سيقودُ ثورةً عالمية وينشرُ العدلَ في المعمورة من وحي الخيال وهوَ خلافٌ للعقلانية، لأنَّ تعريفَ العقلانية في النظام الليبرالي الرأسمالي يعني عمليةً حسابيةً رياضيّة تقولُ إنَّ أصحاب المال والقوة هم سادة العالم، أمَّا نحنُ فنقولُ إنَّ المهديَّ سيظهرُ و سيُغيرُ ملاكات العقلانية وسيضعُ هذه المحاور الجديدة محلَّ العقلانية الشيطانية التي حكمتموها على البشرية.

العقلانية التي يدعو لها المهديُّ عجل الله تعالى فرجهُ الشريف تقولُ: إنَّ الإنسانَ مأويً لأخيه الإنسان والكلُّ مُحترمٌ بنفس المقدار، وهذه رواياتٌ وردتنا من المعصومينَ عن المهدي الموعود وسأنقلُ لكم بعضاً من هذه الروايات لتَّتضحَ لكم الصورة عن جماليّة الثورة العالمية آخرَ الزمن.

إنَّ النظامَ الليبرالي العالمي والرأسمالي الحاكم في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا يدارُ اليوم من قبل الرأسماليين اليهود والصهاينة، ولدينا في الروايات أنَّ أكبرَ عمليات المقاومة ضدَّ الإمام المنتظر تكونُ من جانب الرأسماليينَ اليهود في آخر الزمان، وتلاحظونَ اليوم أنّه نحو ستة وتسعينَ بالمئة من وسائل الإعلام في العالم هي بأيدي الرأسماليين اليهود وأنَّ أكثرَ من خمسةٍ وثمانينَ بالمئة من الجامعات المُهمَّة في العالم تُدارُ من قبلهم بدءاً من جامعة هارفارد في أمريكا إلى أوكسفورد وكامبريدج حيثُ تقفُ خلفها شركاتٌ يهودية، وعندما ننظر إلى جدول الرأسمال في العالم نرى أنَّ الثروة العالمية هي بأيديهم حيثُ يُسيطرونَ بشكلٍ مُباشرٍ وغيرِ مباشرٍ على اثنين وثمانين بالمئة من ثروة العالم.

وهؤلاء تراهم أنهم يُروجونَ أنَّ كُلَّ من ليسَ معنا فهوَ فاشيٌّ، وكلَّ من يؤمن بنظريةٍ غيرِ ليبرالية فهوَ فاشي وكل من يقف في وجه النظام الرأسمالي في العالم ولا يخضعُ له فهوَ من مؤيدي الفكر الشمولي المغلق.

هذا هوَ إعلامهم على مدى أكثرَ من نصف قرنٍ في العالم وهم يقولونَ من لا يؤمن بأصالة اللَّذة فهو مصابٌ بالوهم وكلُّ من يتحدثُ عن ثورةٍ ضدَّ النظام الحاكم في العالم

فهو مريضٌ ويُعاني من مشاكل، ثُمَّ إنهم يُحاولونَ الإلقاءَ بأنَّ المجتمع العالمي كان على هذه الشاكلة منذُ اليوم الأول.

عن أيِّ آخرزمانٍ بصبغةٍ قدسيةٍ تتحدثون؟ إنَّ هذا الكلام عبارةٌ عن خيالٍ تمزجونهُ بأنفسكم. هكذا تُريدونَ إلقاءَ الأمور للناس؟ يقولونَ أنكم المؤمنون تحاولون إعطاء صبغةٍ قُدسيةٍ لأول الدنيا وآخرها، لأنكم تُريدونَ تخريبَ وسطها، يقولونَ إنَّ المؤمنينَ يقولون إنَّ أولها كانَ صحيحاً، لأنَّها كانت بأيدي المؤمنين، أمَّا وسطُها فهو بيدنا اليوم، تُريدونَ القول إنها غيرُ صحيحة وتُريدونَ السيطرة على الآخرة وتقولونَ إنهُ سَيُصلح لكنَّ الأمورَكانت على الدوام بهذه الطريقة. كانَ هناكَ ظالمونَ ومظلومون ولم يُحرِّك أحدٌ ساكناً ولم يحصل أيُّ مكروه.

وحالنا اليوم هوكذلك حيثُ يُريدُ البعضُ أن يقولَ لنا إنَّ الأوضاعَ هي هي منذُ البداية، وفي جوابنا لهم نقول: ما تقولونهُ ليسَ صحيحاً، فالعالمُ يُدارُ دونَ تناسقٍ طبقي، لقد تحولَ العالم بفعل تصرفاتكم إلى عالمٍ مُضطربٍ تقومُ فيه الانقلابات والاغتيالات والانفجارات وكل أنواع الجرائم. وهم يقولونَ ينبغي عدم السماح لأحدٍ حتى بمجرَّد التفكيرفي مجتمعٍ أيديولوجيٍّ، فالمجتمع الذي تحكمهُ الأصولية والمِلاكات الواضحة والأصول سيصبحُ خطراً ولأنهم لا يستطيعونَ التصريحَ بخطرذلك على مصالحهم تراهم يقولونَ إنَّ من يُفكّربمثل هذه الأمور مُصابٌ بالأوهام والفاشية، وهي أفكارٌمُعقدةٌ ومغلقةٌ ومخالفةٌ للعقل وعليه فمن يُعارض الرأسمالية الغربية والعولمة على الطريقة الأمريكية فهوَ ضدَّ التطوروالهدف يكمن في حِفظ حاكميَّة الرأسمالية اليهودية والوضع الحالي في الدنيا.

أصالة اللذة وأصالة الكمال

دعونا نسأل هل أنَّ الدينَ أمرٌ غيرَ الوصف المحافظ؟ دعوني أختم الشطرالأول من المحاضرة بالقول إنَّ الليبراليين كانوا يُسفِّهونَ مبدأ الحكومة العالمية والثورة العالمية والإيديولوجية والمدينة الفاضلة، وأضافوا أنَّ الحديثَ عن مبدأ القيم والعدالة والثورة والإيديولوجية كلامٌ فارغ، وإنَّه على الناس أن يُفكِّروا في اللذات والنسبية والحساب خطوة بخطوة، يقولونَ لا تتحدثوا عن أصالة الكمال بل عن أصالة اللذة، ولا عن أصالة القيم بل عن الربحية، وأنَّ الأمورَ الواقعية العلمية عقلانية، هذا هوَ اللسان الذي يفهمه اليهود. العولمة عندهم أن يتحول العالم إلى ببغاءٍ يُقلِّدُ طريقتهم في العيش وعندما يحينُ

الكلام عن المصالح فعلى الجميع أن يُقرُّوا بمصالحنا، هذه هي اللغة التي ينبغي أن يفهمها العالم. لكنَّ الإمام الخميني جاءَ وغيَّرَ هذه المعادلة وقالَ للجميع إنَّ ما تقولونهُ هوَ لسانُ الحيوانات وليسَ عالمياً، وعندما انتشرت لغةُ الإمام الخميني في العالم وباتت تُصدَّر كُل الأفكار تحرَّكوا لِتطويقها وبدأوا من عبارة أنَّ الدهرَ عفى على الثورات وأنَّ الحديثَ عن الاستعمار وضرورة الاستقلال كلامٌ فارغ خاصةً مسألة الاستقلال في يومنا الحاضر، وأشاعوا أنَّ المطالبينَ بالاستقلال يُريدونَ الانعزالَ في جزيرةٍ لوحدهم ويضعونَ الحواجزَ ولا يقبلونَ من أحدٍ أيَّ نُصح.

وقالوا أنه لا وجودَ للاستعمار حتى تكونَ هُناكَ حاجةٌ للحديثِ عن الاستقلال، وأنَّ ما أطلقَ عليه الاستعمار هوَ نموذجٌ عصريٌّ ونحنُ تقليديون، إنهم قادةٌ عُظماء ونحنُ أناسٌ مُتخلفون وعليه ينبغي أن يركبنا هؤلاء على الدوام وإذا أردنا أن نتطوَّر علينا أن نتحمَّلَ الإهانات والتنازل عن حقوقنا وبخلافه سنُتهم بأننا غيرُ واقعيين أو أننا ممن ينشدُ الأحلامَ مثلَ أصحاب المبادئ، لأنَّ أمثالَ هؤلاء في قاموسهم يعني الإنسان الأحمق الذي لا يعرفُ كيفَ أنَّ اثنين في اثنين يُصبح أربعة، وأنهُ لم يكن ليقفَ بوجه العمالقة وإذا استطاعَ ذلكَ فلفترةٍ قصيرة ولو حصلَ ذلكَ فإنهُ من سوء الفهم والاتفاق غير العادي وينبغي حلَّ ذلك بشكلٍ أو بآخر.

لقد تحدَّثَ أصحابُ النظرية الليبرالية لنا بهذه المبادئ ليُعرفُوننا على النسبية واللذَّة وليسَ الأصول وقالوا إنَّ نهايةَ التاريخ والمجتمع النظيف مئة في المئة والمدينة الفاضلة كلها أمُورٌ تافهة. قالوا ذلكَ لنزع أسلحة القيم والمبادئ وليقول مُتَّتبعُها بعد ذلكَ عجباً إننا حمقى، أطلقنا شعاراتٍ جُزافاً واستُشهدنا من أجلها وعليه فإنَّ من أستُشهدَ قبلنا من الرجال كانوا أناساً يُعانونَ من مشكلةٍ دماغيَّة.

لقد طَرَحوا هذا الأمر عندما كانوا يتحدثونَ عن شعار النسبية أو أنَّ كُلَّ أمرٍ قابلٌ للتشكيك، وأنَّ كُلَّ شيءٍ باتَ شخصياً وعندما تقول إنَّ الوقتَ مساء ربما كانَ هذا بالنسبة لك وليسَ معلوماً بالنسبة لي، إنهُ ليل وليست هناكَ أيةُ حقيقة قطعية بينَ الأذهان العامة حتى يتمَّ التوافق بصددها أو الوقوفُ خلفها، كُلٌّ نسبيٌّ وكلٌّ مشكوكٌ به، وهكذا استطاعوا استمالةَ بعض الثوريين الذينَ بدأت الدنيا تُصبحُ محطةَ راحةٍ واستجمامٍ لهم، لا مثلَ

الشهيد رجائي الذي لم يتأثّر بأمور الدنيا وظلّ يركبُ الدراجة البُخارية حتى بعدَ أن أصبح رئيساً للجمهورية للمرور على أقاربه، وقيلَ أنه عندما وافقَ مجلسُ الشورى على وزرائهِ طلبَ من وزرائه جمعَ السجّاد الباهظ الأثمان المفروشِ تحتَ أقدامهم في الوزارات وأمهلهم نصفَ يومٍ فقط لإخراجه. الغربُ يُريدُ ألا يبقى شيءٌ اسمهُ حُكومةٌ من فئة رجائي في ذاكرة الرأي العام ويُصورُ أن هذا الرجل كانَ لا يفقه شيئاً، حتى إنّ الإمامَ الخميني عندما قال: كُلما كانَ هُناكَ مظلومٌ فهناكَ جهادٌ وتضحية، وكُلما وجدَ مثلُ هذا الوضع فنحنُ حاضرون، هذا النوع من الثقافة خطرٌ على الليبرالية، لِذا تُحاول الولايات المتحدة ويُحاول الغرب النيلَ منهُ عبرَ القول إنّ العالمَ ليس فيه ظلمٌ أبداً، وعليه لا حاجة للجهاد. لماذا ينبغي علينا أن نكونَ السباقينَ للجهاد على الدوام، ومن يقولُ أنه علينا الحضورَ في مواطن الخطر على الدوام ما دخلنا نحن فليفعلوا ما يفعلوه بأهالي البوسنة والهرسك، ما لنا و ما يفعلوه بالفلسطينيين! يُريدونَ إملاءَ هذه الثقافة علينا، لأنّ الإمام الخميني رحل ورجائي قُتِل، ولأنّ الشهادة ليست ذاتَ معنى في ثقافتهم وقد ماتت وليرحم الله الأموات، إننا نقولُ إنّ العصرَ عصرَ الأحياء وليسَ عصرَ الأموات والحياةُ توجبُ على الناسِ مُستلزماتٌ وواجبات، فهل يا ترى يعني ذلكَ أن نُساومَ مع الدول الكبرى التي تحكم الدنيا؟

الشيوعية والصحوة الإسلامية

إنها ثقافةٌ يُريدونَ إدخالها في عقول وآراء الرأي العام، ولتعلموا أنّ ما يُروّجونَ له من فكرٍ يعني فيما يعنيه مُحاربةَ المهدوية، لأنهم يعلمونَ أنّ الإمام المنتظر سيُغيّرُ المعادلة الموجودة في العالم، وعليه فهم بدأوا منذُ خمسينات القرن الماضي بطرح مفهوم عبثية الثورات، ولتتضح في أذهانكم أسبابُ مُحاربة الأيديولوجية في إيران خلالَ الفترة السابقة، وبعدَ الحرب العالمية الثانية توصلت الولايات المتحدة ونظام السلطة في العالم الغربي إلى نتيجةٍ مؤدّاها أن هناكَ عائقينِ يقفانِ بوجه تنامي القوة الغربية والرأسمالية، الأولى الشيوعية ولا نقصد بذلكَ موسكو الدولة بل موسكو الفكر الشيوعي واليساري في عموم الكرة الأرضية، حيثُ فُوجئَ الغرب أنّ اليسارية زُرعت في عموم جامعات العالم، ورفع الطلبة الشعارات اليسارية.

أمّا العائق الثاني فلم يكن واضحاً لهم وهو حصولُ صحوةٍ إسلامية وثورةٍ بقيادة الإمام

الخميني الراحل ﷺ، لكنهم عرفوا أنَّ نوعاً من التحركات المذهبية ستواجههم ولكن ليسَ على مستوى العالم، وستتعرّض المصالح الخاصة للولايات المتحدة والصهيونية إلى الخطر في بعض المواطن، لذلكَ حاربوا هذه الأيديولوجية باعتبارها نُقطةً مُشتركة، وقالوا لابد لنا أن نقرأ الفاتحة على الأيديولوجية، أقصدُ أنَّ الغربيينَ يُفهمونَ جامعات العالم الثالث أننا لن نتوصل إلى أية أصولٍ قاطعةٍ وواضحةٍ لصناعة المجتمع، لأنَّ التاريخَ ليست له غايةٌ خاصة. هذا ما يقولهُ الأوربيون والغربيون وليسَ هناكَ شعورٌ حاكمٌ على تاريخ البشر وأنَّ الصالحَ والطالحَ إلى الأعمال أمرٌ نسبي وليسَ هناكَ فرقٌ بين الحكومة الجيدة والسيئة. ولذا فإنَّ العدالة أمرٌ غيرُ مفهوم، لأنَّ العدالة تعني بمعناها الرئيسي ايصال الحقوق لمستحقيها وليسَ معلوماً ما هوَ منشأُ الحقوق وما هوَ الحق ومن هو المحق، وتصوروا أنهم كسبوا الجولة هنا، فإنَّ بإمكانهم الاجهازُ على الثورات وجعلها عقيمة، وعليه جمعوا أنصارهم إلى مؤتمرٍ في خمسينيات وستينيات القرن الماضي من أوروبا والولايات المتحدة وخرجوا بنتيجةٍ أنهُ ينبغي الإعلانُ أنَّ دورةَ الأيديولوجيات قد انتهت ولا يجوزُ بعد هذا لأحدٍ أن يتحدثَ بالأيديولوجية، وصارت المذمةُ والملامةُ تُطرحُ على الفاشية سواءً كانت باستحقاقٍ أو بغيره، لماذا؟ لأنَّ الحرب العالمية الثانية كانت قد وضعت أوزارها للتو، وكانَ على كلّ من يأتي باسم هتلر أن يبصُقَ على الأرض وكان ينبغي فعلُ ذلكَ لأنه ارتكبَ العديدَ من الجرائم. وهكذا صبّوا اليومَ جامَ غضبهم على الأيديولوجية، وهكذا حملوا على مبادئ الآخرين التي كانت تدعوا إلى العمل الاجتماعي وبناء المدينة الفاضلة وظلُّوا يُردِّدونَ أنهُ كلامٌ فارغٌ وضار وقالوا من يُريدُ صناعة الجنة في الدنيا فإنه سيصنع الجحيم لا محالة، فكانت هذه شعاراتهم وتحركاتهم ضدَّ الايدلوجية.

الثقافة الغير العقلانية

من يُكررُ اليوم أقوال السلف الليبرالي ويقول مالكم وثورةً عالميةً تنشدونَ فيها حُكم الإسلام والعدالة والاقتصاد وتصدير الثورة إلى كل الدنيا وتحرير البشر، كانت هذه الأقوال تُقال وأبنائنا في جبهات القتال يُعانونَ أحياناً من ظروفٍ صعبة، حتى أذكرُ ذات مرةٍ في عمليات خيبر كنا نفتقد إلى الماء والطعام والسلاح فلجأ بعضُ المُقاتلينَ إلى تناول الخبز اليابس، وأخذَ بعضهم بحلب الأبقار المتروكة في المنطقة التي سرعان ما قتلها قصف العدو،

وفي ظلِّ هذه الظروف الصعبة ترى روحَ الدعابة لدى المقاتلين، حيثُ كتبَ أحدهم على ملابسه (يمنع دخول الطلقات والشظايا) وآخر كتبَ على ملابسه (الثورة لن تنتظرَ حتى يصدرلها إذن الدخول). وهناكَ قلتُ للشباب: إنَّ هذا المقاتل يُقاتلُ باسم البشرية جمعاء.

لقد كانت ثورتنا تخصُّ كُلَّ الدنيا وهكذا عملَ الاستكبارُ على القضاء على هذه الثورة واقتلاع جذورها من الأعماق ومن أجل تخريب هذه الثقافة أطلقوا عليها لقب الثقافة غير العقلانية أو غير العُقلائية. لكننا في المقابل نعتبر حقاً أنَّ منطقهم القائم على أساس أصالة ومبدأ اللذةِ مُحضُ الجنون ويتساءل البعض هل إنَّ الإمام الحسين عليه السلام كانَ عاشقاً للشهادة أو يتصرف بعقلانية؟ يُجيبونَ هؤلاء على الفور أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كانَ يُنشدُ القتلَ والموت! عجباً لقولهم! وعليه يقولون إنَّ عملهُ كانَ غيرَ عُقلائي! هذا الجوابُ يصحُّ إذا كانَ مِلاكُ التحكيم رأسمالياً يهودياً حتى وإذا كانَ العاقل يهودياً، لكننا نقولُ إنَّ الإمام الحسين عليه السلام كانَ عقلانياً وتواقاً للشهادة بنفس المقدار واختار الطريقَ الأمثل بالنسبة له.

لقد خشيت الليبرالية التي بدأت حرباً ضدَّ الأيديولوجية في خمسينات القرن الماضي تحتَ شعار محاربة الأيديولوجية اندلاع الثورات من خلال مقولات الإيديولوجيين وتبدأ الأنظمة العميلة بالتهاوي واحدةً تلو الأخرى، ومن حاربَ الإيديولوجية في الخمسينات يُحاربها اليوم بعد أن اكتست وشاحاً دينياً، وبدأوا بالقول إنها قتالية ولا ينبغي إشراك الدين، لأنَّهُ هالةٌ من نور ولا ينبغي له أن يتدخَّلَ لإحقاق العدل ولا حقوق الإنسان ولا المظلومين، والدين يتجلى في الذهاب إلى الكنيسة يومَ الأحد وترتيل الأناشيد والذهاب من حيثُ أتى المصْلّي وبدأوا يقولونَ لماذا يتحدث المسلمون عن حكومة عدلٍ عالمية هذا ليسَ بأمرِ ديني وهم يواصلونَ حربَ الإسلام الذي يُريدُ إشراكَ الدين في عالم السياسة.

العجيب! إنَّ الغرب الليبرالي الذي كان يُنكرُ موضوعَ نهاية التاريخ وكانَ قد نهى الآخرين عن التحدث عنه بدأ اليوم يتحدث عن هذا الموضوع ويطلق عليها اسمَ جبر التاريخ.

لقد عادوا يُرددونَ ما قالهُ الماركسيونَ من أنَّ مُجتمعَ آخر الزمان هو جبرٌ تاريخي، وأنَّ التاريخ يمضي باتجاه الاشتراكية والشيوعية وأنَّ الثوارَ لن يكونوا أكثرَ من قابلةٍ ليسَ إلّا وأنَّ الولادة ستتمُ بطريقةٍ تاريخيةٍ وقهريةٍ والبعضُ وللأسف يؤمن بأنَّ الولايات المتحدة هي آخر الخط التاريخي المنتهي بالجبر والقهر وكلُّ مُجتمعٍ يرفضُ العبودية للولايات المتحدة يُنعت

بالمجتمع التقليدي غير العصري.

لقد قسَّمَ الاستعمار ومنذُ القرن التاسع عشر الميلادي العالمَ إلى قسمين: الأولُ مطيّةٌ يركبها القسم الآخر وهوَ سيد العالم، وأساسُ نظريتهم في هذا المجال أنَّ العالمَ ليسَ بحاجةٍ إلى سوبرمان (Supr Man) أو مُنقذٍ وهذا من مُسلمات الفكر الرأسمالي المحافظ في العالم، وأنه ليسَ هناكَ انقاذٌ في آخر الزمان وأنَّ هذه الدعوة تتعارضُ وثقافتهم لعدم وجود إنسانٍ كامل وهؤلاء يقبلونَ بمبدأ الحيوان الكامل وحسب وخلال السنوات الأخيرة قالوا: أنه ليسَ لأيِّ إنسانٍ أن يكونَ نموذجاً للآخرين! ماذا يعني ذلكَ يا تُرى؟ أي أنَّ من يؤمن بالإنسان الكامل فهوَ واهمٌ. فليسَ هناكَ مدينةٌ فاضلة لكنَّ العجبَ أنَّ مُحاربي الأيديولوجيات بدأوا بالتنظير إلى الأيديولوجية الليبرالية وباتوا كمن أسنانهم التالفة ويفتح فمهُ ضاحكاً على الدوام.

الروايات الواردة عن الإمام عجل الله فرجه الشريف

أما فيما يخصُّ القسمَ الثاني من المحاضرة المتعلق بالروايات الواردة عن الإمام الحجة، حيثُ تُفيدُ بأنَّ البشرية جمعاء تُصبحُ ذاتَ حكمةٍ ومنطقٍ وذكاء، وفي مجال العمران يتمُ بناءُ كل الأرض ويتمُّ إحياءُها ولن يظلَّ هنالكَ حيوانٌ أو نباتٌ مُتعطش ولن يظلَّ في عهد حكومته إنسانٌ فقيرٌ على وجه الأرض،[1] وتُراعي العدالة حتى في الصلاة، حيثُ يُروى أنَّ المتحدثينَ باسم الإمام في المسجد الحرام بمكة المُكرمة يُنادونَ من أتمَّ الصلاةَ والفرض الواجب إلى جوار الحجر الأسود ويُريدُ إقامةَ فروضٍ مُستحبَّة عليه أن يذهبَ جانباً ويفسح المجال للآخرين لأداء الفروض الواجبة وتكون خزائن الأرضِ وثروة العالم تحتَ تصرف الإمام ويخطب في الناس ويقول هلمُّوا، خذوا هذه ماكنتم تظلمونَ بعضكم بعضاً من أجلها، إنها ذاتُ الأموال التي أذيتم أرحامكم من أجل الحصول عليها، إنها الأموال التي تقاتلتم من أجل الحصول عليها، إنها الأموال التي ارتكبتم المعاصي من أجلها، هلمُّوا تعالوا وخذوا من هذه الأموال التي فعلتم ما فعلتم من أجلها[2]. وهناكَ رواياتٌ حولَ الهبات الغير

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢٠ «تخرج الأرض نباتها و تنزل السماء بركتها و تظهر له الكنوز» و ج ٥٢، ص٢٢٤ «و لا غارما إلا قضي دينه و لا مظلمة لأحد من الناس إلا ردها»؛ اعلام الورى، فضل بن الحسن الطبرسي، ص٤٣٢.

٢ . بحار الأنوار،ج٥١، ص٢٩، رقم الحديث٢.

المسبوقة التي يمنحها الإمام وتزدهرُ حركت الزراعة وتمطر السماء بشكلٍ لم تمطر قبلهُ وتُخرجُ الأرضُ أثقالها وخزائنها[١]، ويمنح الإمام المال لكُلِّ من يطرقُ بابه سائلاً،[٢] ويُساوي في تقسيم الأموال بين الناس وتزول أفكار الحرب والظلم والنهب والحقد وإراقة الدماء، وبظهوره تخفُ نيران الفتنة والاضطرابات وتنتهي حالةُ الضياع عند البشرية ويفتحُ أعوانهُ وأنصارهُ العالم ويُحكمونَ سيطرتهم على كافة المواضع وتُطيعهم حيوانات الصحراء وطيور البحر، وتفتخر الأرضُ بأنَّ أعوان الإمام يطؤونها وقيلَ أنَّ لِأنصار الإمام قلوبٌ فولاذية[٣] وكلٌ منهم يعدلُ أربعين[٤]. ويَنشرُ المصلح الكبير التوحيد والعدل والإنسانية في كُلِّ مكان وكذا القرآن والسنة. يقول الإمام عليٌّ عليه السلام إنَّ الحجة ينشرُ فكرَ العبودية لله عِوضاً عن الغريزة في جميع البشر.[٥]

وفي مجال القضاء تحكم محاكم الإمام بالعدل ولا يضيعُ حقُّ أحدٍ مقدارَ أنمُلة ويحكم بما أنزلَ الله ويعلمُ خائنةَ الأنفُس. كما هوَ النبيُّ داوود عليه السلام بالنظر إلى وجوه الناس ويعلم الخطط المتخفية عليه ويكشفها لأصحابها.[٦]

جاءَ أحدهم إلى الرسول وسأله: تقولونَ أنهُ سيأتي ويملئ الأرضَ قسطاً وعدلاً، كيفَ يتمُ ذلك؟ فأجابهُ الرسول مثلما تدخلُ الحرارة والبرودة إلى البيوت لا يستطيعَ أحدٌ الوقوفَ في وجهها. فيقول ماذا يعني هذا؟ فيردُّ الرسول صلى الله عليه وآله: أي لا يدَعُ بيتاً ولا أسرةً إلّا وأذاقها طعم العدالة.[٧] هذا هو الحال في أيام حكومة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وهنا دعوني أذكرُ لكم عدَّةَ أمثلةٍ، حيثُ تُشيرُ الروايات أنهُ يُوسِّعُ الطريقَ الأعظم، ويهدم كُلَ مسجدٍ على الطريق ويسدُّ كل كُوَّة إلى الطريق وكل جناح وكنيسٍ وميزابٍ إلى الطريق[٨]، أي يُغلقُ المنافذَ الخاصة التي تُطلُّ على حدود عامة الناس، وفي هذا معنىً كبير، حتى أنهُ يُغلقُ طُرقَ مياه الدفع الصحي التي يُوجدها الأثرياء صَوبَ الطرق والمجاري

---

١ . كشف الغمة، علي بن عيسى الإربلي،ج٢، ص ٤٦٧.

٢ . عقد الدرر في اخبار المنتظر، يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي، ص١٧٠.

٣ . بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٠٧، رقم الحديث٨٢.

٤ . حلية الأبرار،هاشم البحراني، ج٥، ص٣٢٧

٥ . نهج البلاغة، الخطبة ١٣٨ «يعطف الهوى على الهدى».

٦ . بحار الأنوار،ج٥٢، ص٣١٩، رقم الحديث٢١.

٧ . راجع: مستدرك سفينة البحار، ج ١٠، ص ٢٨٩.

٨ . الغيبة، الشيخ الطوسي، ص ٤٧٥

العامة ويمكن تصور ذلك من خلال مُراجعة استغلال البعض لذلك بصورةٍ أكبر بكثيرٍ من استفادة عامة الشعب. والثقافة السائدة اليوم هي أن تقومَ فئةٌ قليلةٌ من الرأسماليين بالاستفادة من كل الامكانات وتظلُ الفُتاتُ لعامة الناس. ويأتي الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ليسمحَ للأقلية من تناول كل الخيرات.

وهنا يُروى أنَّ الإمامَ عجل الله تعالى فرجه الشريف يقوم بعزل القُضاة المسيئين ليقبضنَ عنكم وليعزلنَ عنكم أمراء الجور وليُطهرنَّ الأرضَ من كلِ غاشٍ، عندها يكون الإنسان شفافاً وينتهي الكذب في المجتمع سواءً من الحاكم إلى الرعية أو العكس ويسقط الكذب والبغضاء عن المجتمع. تقول الرواية: لو قامَ قائمنا لذهبت الشحناءُ من قلوب العباد[١]، واضمحلَّ القطائعُ فلا قطائع، أي لا يستطيعُ الحاكمُ أن يقتطعَ شيئاً أو قطعة أرضٍ لأصحابه أو محاربيه.

---

١ . الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٦٢٦؛ بحار الأنوار،ج١٠، ص١٠٤ و ج٥٢، ص ٣١٦.

الإمام الخميني والصحوة الإسلامية (القسم الاول)

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيها الأخوة الأعزاء في مدينة كرمانشاه[1] وأشكر دعوتكم لي للتحدث معكم.

قيل إنه عندما كان الإنسان يمرُّ في هذه المدينة سابقاً وينادي أيها البهلوان (البطل) كان سبعة أو أكثر يردون عليه بالقول نعم ماذا تريد في إشارةٍ إلى أن هذه المدينة تُخرّج الأبطال الأشداء، أرجو أن يكون الوضع في يومنا هذا كذلك إن شاء الله.

أردت من خلال هذه المحاضرة التطرق إلى مواضيع تنال من روح المقاومة والتضحية التي قد تُروّج في أيامنا هذه ومردُّ هذه السموم هو الإعلام الغربي، سأتطرق إلى الخطوط الفكرية ومصدرها. قيل إن حكيماً إلهياً مرَّ وولده على مقبرةٍ دُفن فيها أناسٌ مهمون فوقف وقال لولده اعلم يا بني إن في هذه المقبرة أناساً كانوا يتصورون أنهم لو ماتوا فإن الدنيا ستتوقف بعد وفاتهم بثواني وإن الأوضاع ستسوء وقد دُفن هؤلاء في هذه المقبرة منذ

---

١ . هي إحدى محافظات إيران الواحد والثلاثين. مركزها مدينة كرمانشاه. يحدها من جهة الشمال محافظة كردستان ومن جهة الجنوب محافظة ايلام ولرستان ومن جهة الشرق محافظة همدان ومن جهة الغرب العراق تضم محافظة كرمانشاه اربع وعشر بلدة ويقدر عدد سكانها بمليون و ٩٠٠ ألف نسمة وجميعهم من الأكراد. أشهر المعالم السياحية في كرمانشاه: طاق بستان، نقش بيستون، معبد آناهيتا وكهف قوري قلعة. اشتهرت في العصور الإسلامية الأولى باسم (قرميسين) وهو تعريب كرماشان وهي التسمية الكردية للمحافظة إلى الآن. اكثر السكانها من اهل الشيعة و الاقليات من اهل السنة. حوالى ٤٠٪ من اهل كرمانشاه من اتباع الامام شافعى،. اهل السنة موجودون في مدينه كرمانشاه وجوانرود وباوه و ثلاث باباجانى وروانسر ونوسود ووشنوه وسنقر.

سنوات طويلة وربما قرون لكن الدنيا تواصَلَ مسيرها دون توقف.

هذا هو الواقع تارةً يشاهد الإنسان بعض المصاعب والأمور فيتحسَّر على التضحيات التي أراق الآلاف دمائهم من أجلها كيف يتم تناسيها من قبل الحكام أو الاستهزاء بها أو يُساء تفسيرها ونرى أخرين يبيعون أيدلوجيتهم بثمن بخس يحملون الأيدلوجية في كفٍّ والمقص في كفٍ أخرينقصون من هذه الأيدلوجية طبقاً لأهواء البعض فإن واجه ثقافةً غربية يُقدِم على تحريف المذهب والأيدلوجية و الثورة كي تكون مقاساتهم متناسقةً من الرؤى الليبرالية والرأسمالية وفي فترةٍ زمنيةٍ كانت المِنطقة تعج بالأفكار الماركسية وكان اليسار حاكماً فإن أدعياء التنوير كانوا يُطبقون الإسلام على مقاسات اليسار أينما يحلون فإنهم يختارون ديناً جديداً.

طبقاً لأوضاع المحيط والأجواء الغالبة أي تكون لهم قراءةٌ تتناسب مع الوضع الموجود ويكون إسلامهم موافقاً لرغبات الملكيين أو إسلاماً يوافق الرغبات الليبرالية والعلمانية أو إسلاماً يُطابق الميول الماركسية فهؤلاء يحتفظون بنسخ متعددة من الإسلام هي معهم أينما حلّوا، إن الثقافة الليبرالية الرأسمالية اليوم تبدو كالسرير الذي قيل إنه وضع للأفراد لقياس طولهم فإن كان الشخص أطول قطعوا جزءاً من قدميه ليكون موافقاً لمقاس السرير وإن كان أقصر سحبوه ليكون على قدر المقاس لقد فعلوا مع ثقافة الثورة ذات الشيء فما كان من ثقافة الثورة وأيدلوجيتها معارضاً للثقافة الليبرالية الرأسمالية أو أكبر منها تمَّ قَصه وعندما تكون رؤية الدين والإسلام والثورة مع الرؤية الليبرالية الرأسمالية مختلفةً يحاولون جرَّ هذه الرؤية وتمديدها للتطابق مع الرؤية الليبرالية المهم بالنسبة لهم الثقافة السائدة في وسائل الإعلام العالمية والغربية والتي يُعبر عنها هؤلاء بالقضايا الإنسانية و الثقافة العامة والإنسانية وعندما يُشاهدون التضحويّون هذه القضايا.

وهذا الإعلام الكاذب يتألمون حقاً خاصةً أولئك الذين شاهدوا أصدقاء و إخوةً لهم في الجهاد يُذبحون لكن الذي يُطيّب خواطرهم هو جملةٌ سمعتها من أحد الشهداء وهو الشهيد محمودي كنا قبل انطلاق العمليات وعبور الخط الأول جالسين لنصف ساعة نتحدث وإذا به يقول لي: هل تعلم عندما يتحدث الإمام (الخميني) أو أولياء الله عن التكليف والمسؤولية الاجتماعية معنا أو عندما يقول القرآن الكريم ويحثُّ المؤمنين على

مساعدة ونصرة أوليائه ومبادئه فإن الله سيكون معهم ويساعدهم فإن هذا يعني - و الكلام للشهيد محمودي - إن الله عزوجل لا ينتظر قدوم أحدٍ ولن يتأخر بسببنا ولا نتصور أنه إذا سحبنا أنفسنا جانباً فإن الحقائق والفضيلة والقيم التي جاهد من اجلها الأنبياء ستزول، وأضاف لقد جئنا إلى الخط المقدم من الجَبهة ونحن في قوات الصولة لكنني لا أشعر بأننا نقف في قطب العالم وكل الأولياء والأنبياء والدين وجهود الصالحين على مدى آلاف السنين وناشدي العدل على طوال التاريخ سيكونون بانتظار تضحياتنا على العكس قال لي الشهيد محمودي إنني أرى إنها الفرصة المواتية لي تاريخياً وهي لن تسنح للكثيرين أن أمضي وأشارك في هذا الجهاد وكلما أنظر إلى نفسي لا أرى فيها المستوى اللازم كي أُصبح من هذه الثُلّة وأشارك في هذه العمليات

في حين كان من الممكن أن يكون هناك أناس كثيرون لكنهم ليسوا معنا على أية حال، لقد كان الشهيد محمودي يرى الموضوع من زاوية مخالفة كان مؤمناً أن الحقيقة و الفضيلة والعدل وبقاء التاريخ والإنسانية ليست مدينةً بوجودنا وتضحياتنا لأننا لم نكن شيئاً بل كان الإسلام وسيظل ولن نبق نحن في هذه العُجالة علينا العمل طبقاً لمسؤوليتنا ولا غير كان يقول علينا أن نجاهد في سبيل الله كي نبلغ الرشد و التعالي أن نُضحي حتى نبلغ الكمال وليس لنا حقٌ في رقبة أحد ولسنا شيئاً يُذكر لن يُدين الله لنا ولا الأمة وكان يقول إن كتب الله لي الشهادة في هذه الليلة فإنني سأكون مديناً، لأن الله فوَّضَ لي فرصة التضحية والكمال وكان بإمكانه أن يحرمني من هذا الفيض، لقد وهبني الإيمان وروحية الجهاد في حين أن أجيالاً متعاقبةً جاءت إلى هذه الدنيا ورحلت وكانت محرومةً من هذه النعمة، عندما قال الإمام (الخميني) الراحل إبان الحرب المفروضة واصفاً إياها بالنعمة فكان قصده هذه المشاعر والأحاسيس لكننا شهدنا بعد الإمام الخميني أن البعض أقدم على تفسير ذلك بأن الإسلام يُحب الحرب والعنف، نعم لقد تصور هؤلاء الناحية المادية من الأمر إن من ينال من فكر الجهاد يفعل ذلك لأنه لم يكن حاضراً في سوح الحرب ولم يرى أمثال الشهيد محمودي.

يُخاطب القرآن الكريم بعض المسلمين الذين يمنون على الرسول الأكرم في إسلامهم أنهم جاؤوا من أجل التضحية وما شاكل ذلك حيث تقول الآية الكريمة من سورة الحجرات:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.[١]

قال الشهيد محمودي : لست قلقاً من استشهادي في هذه الليلة. لكن هناك سؤال يشغل ذهني وهو أنني لو ذهبت في هذا المقتبل من العمر ألم يكن من الأفضل أن أبقى لعقودٍ أخرى أُصلِح نفسي أكثر وأمضي صوب الكمال لكنني سأحرم من هذه الفرصة إنني أفكر في هذا الأمر وحسب وهناك تذكرت وبفضل الله روايةً عن الأئمة المعصومين تقول: الشهيد ينمو عمله[٢] في الجانب المعنوي والملكوتي لن نفهم نحن هذا المعنى لكن بركات تضحياته تظلُّ إلى أبد الدهر، لأنه لو لم يكن حاضراً في جبهات القتال لم تكن هذه القيم موجودةً اليوم لقد خُلِّد، لأنه ضحّى وعليه فإن الأجيال اللاحقة التي تعيش هذه القيم وتأنس بها وتتربى في ظلها وتنمو فإن الشهيد يكون شريكاً في كل أعمال الخير هذه، أي أن كافة مراحل الكمال التي يصل إليها الأخرون بفعل تضحية الشهيد وعليه فكل الحسنات ستُسجَّل باسم الشهيد لأنه لو لم يفعل لكان مسار المجتمع في وادٍ أخر وعندما أبلغته بمعاني الحديث اطمأن الرجل ومضى إلى الشهادة باطمئنان، فلو اطمأن الإنسان إلى نتيجة عمله فإنه لن ييأس ولن يخاف ولن يكون هناك بأسٌ عليه ولن يخشى الإنسان من قلَّة الناصر أو كثرة الأعداء فليكونوا ما يكونوا، العدد ليس مهمَّاً بالنسبة لنا إن عدد الأشخاص الذين يقفون في صفوف الباطل لن يجعله حقاً ولن يتحول الحق باطلاً لقلة الناصرين، يقول البعض إن العالم يُروج للباطل ويُكرر ذلك لكن التكرار لن يُسقط عنه كونه كلاماً باطلاً، فليس صحيحاً أن تكرار الباطل يحوله إلى حق ولا ينبغي للإنسان أن ييأس وعندما تكون أفكاره بهذا المستوى من اليقين بصواب طريقه فإنه لن ييأس حتى لو سقط أرضاً مئة مرة، أتذكر أننا في عمليات بدرٍ لم نوفَّق لقد لحقت بالقوات الإسلامية خسائر وأضرار كبيرة لكن هذه العمليات كانت بالنسبة لنا فتحاً أيضاً، كان فيها فتوحاتٌ روحانية حيث فاجئنا الإمام (الخميني) ببيانٍ وجَّههُ إلى المقاتلين كانت المعنويات مُنهارة في ذلك الوقت، أقول هذا لمن لم يُدرك أيام ملحمة الدفاع المقدس من الجيل الجديد لقد

١ . الحجرات: ١٣.

٢ . راجع: مكيال المكارم للميرزا محمد تقي الاصفهاني، ج ٢، ص ٢٩٨؛ وراجع: المستدرك للحاكم النيشابوري، ج ٢، ص ٧٩.

جاء في بيان الإمام (الخميني) إننا لا نحارب من أجل الهزيمة أو النصر ولا نحارب من أجل حفنة ترابٍ وعليه لو تنظرون إلى رسالة الإمام عند سيطرة القوات الإسلامية على الفاو أو عندما حُررت خُرمشهر[١] قال الإمام: لقد حرر الله هذه المدينة ـ أي خُرمشهر ـ حتى لا نصاب بالعجب والغرور.

لقد كان الإمام رحمة الله عليه يُلهم المقاتلين بالمعنويات العالية حتى إبَّان الهزائم العسكرية أتذكر في عمليات بدرٍ حارب رجال الضفادع البشرية خطوط العدو لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة ولم تصل الإمدادات فمن كان يسقط شهيداً كان يظل هناك ومن يصاب بجروح يظل هناك أيضاً كانت قوات الصولة قد ركبت الزوارق وجّذفت لمسافة أربعين كيلومتراً في المستنقعات لقد استغرقت العملية نحو ثلاثين ساعة لم تصل الإمدادات، لأن القوات الصدَّامية استخدمت الأسلحة الكيمياوية على مدى يومين وعندما تم نقل الجرحى إلى المقرات الخلفية جاء نداء الإمام بلسماً للجراح قال الإمام لقد هزمنا هنا لكننا لم نرتكب معصيةً لم نكن مأمورين بالنصر كان علينا أن نؤديَ الواجب وقد فعلنا ولو كان التكليف الشرعي نصراً دائماً فإن غالبية الأنبياء والأئمة عصوا الله، لأن الأنبياء لم يُحققوا الهدف في غالبية معاركهم مع قوى الباطل، إذاً فالهدف القيام بالواجب والنصر أو الهزيمة أمران ماديان غير مُهمَّين وبعبارةٍ أخرى فإن هزيمتنا نصرٌ أيضاً.

لقد أوجد القرآن الكريم ثقافةً جديدة بين المسلمين في صدر الإسلام جعلت منهم القوة الأولى في المنطقة خلال نصف قرن ومن ثمَّ في العالم، ذلك أن القرآن كان يقول للمسلمين إنكم في الحرب والجهاد إما تنتصرون أو تُقتلون وهذان الأمران لا يختلفان من الناحية القِيَميّة حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿إحدى الحُسنَيين﴾[٢] ليس مهماً أن تقتُل أو تُقتَل فليس القتل هدفاً إنه مسؤوليةٌ ووسيلة.

لاحظوا أن المخطط المرسوم عالمياً من قبل الولايات المتحدة هو مهاجمة هذه الثقافة، لقد وجهت الولايات المتحدة بعض الأنظمة العربية والإسلامية الدائرة في فَلكها بجذف

---

١ . هي مدينة إيرانية تقع على الضفة الشرقية لشط العرب فى محافظة خوزستان في جنوب غرب إيران. وهي تبعد حوالى ١٠ كيلومترا شمال مدينة عبادان. يبلغ عدد سكان المحمرة نحو ٣٣٨,٩٢٢ نسمة.

٢ . التوبة:٥٢.

بعض آيات القرآن التي تحضُّ على الجهاد والمقاومة وتدعو للقيام ضدَّ الظلم وتتحدث عن الإسلام السياسي من الكتب المدرسية، لأنها وبحسب رأيهم تُحول المسلمين إلى إرهابيين في المستقبل على حد زعمهم، طبعاً على حد زعم الأمريكيين وإلى مقاومين يقفون بوجه مؤامرات ومخططات واشنطن، لقد فعلوا ذلك في أفغانستان ويُريدون تطبيق ذلك في العراق، إنهم يتصورن أن مشروع المقاومة ضد المعتدين ينتهي بهذه الصورة، يُريدون القول إنَّ مفهوم الجهاد والتضحية والمقاومة هي مشاريع يتبعها البُلهاء يريدون تعميم هذا الرأي لكننا لو أشعنا ثقافة الشهيد محمودي فلن نشعر بالتعب أو اليأس أو الخوف وهكذا حارب المسلمون في الصدر الأول من لإسلام واستطاعوا فتح العالم، هكذا وبهذه الروحية حارب المقاتلون الإيرانيون في الحرب المفروضة وكانوا الغالبين قُتِلوا أو انتصروا وعلى هذه الطريقة حارب حزب الله لبنان واستطاع تحرير الجنوب وأذلَّ إسرائيل لأول مرة في تاريخها وقد انتقلت هذه الثقافة إلى أزقة الضفة الغربية والقطاع وفي أزقة النجف وكربلاء والعراق وفي أفغانستان ونشهد كل يوم تظاهرات ضد الأمريكيين وممارساتهم، لقد أعلن أحد المُنظّرين الإستراتيجيين الأمريكيين حول الإمام: صحيح أنه رحل عن هذه الدنيا لكنه من عليائه يصب علينا الزيت، لقد رحل لكنه موجود.

ويُضيف أن التقييمات التي قمنا بها تشير إلى أنَّ ثمانيةً وعشرين بلداً إسلامياً مُعدَّاً لانطلاق الثورة فيها ولكن بدرجاتٍ مختلفة وهذا ما نراه اليوم من ثوراتٌ دينية وعلينا فعل شيءٍ ما، علينا القيام ببعض الإصلاحات في الأنظمة التابعة لنا ونعطي مقداراً من الحرية والديمقراطية تحت السيطرة وبالتعريف الأمريكي كي نقف بوجه اندلاع الثورات ونحصل على صمام أمامٍ في هذه البلدان، لكنه يُضيف ورغم ذلك فنحن في طريقٍ مسدود فإن منحنا الديمقراطية في البلدان الإسلامية ومن خلال كون أنظمتها عميلة لنا وليست هناك انتخابات، فإن أجرينا انتخابات فيها فإنَّ الطامة الكبرى أن القوى ذات التوجهات الإسلامية هي التي ستنتصر القوى المؤيّدة لإيران وإن لم نقم بالإصلاحات بسنواجه ثورة سنواجه ثورات وإن قمنا بالإصلاحات فإننا نكون كمن يُسلم الأمور لأعدائه.

ويُضيف المُنظر الأمريكي لقد تقاعسنا قليلاً مع الثورة الجزائرية وتركيا وفلت العقال من أيدينا وقد استطعنا السيطرة على الأول ونحن نحاول تليين الثاني كلما نشهد انتخابات

حُرة يفوز بها الإسلاميون وبشكلٍ قاطع وبخصوص العراق حاولوا عرقلة الانتخابات وقالوا إن الشعب خرج للتو من الديكتاتورية والاستبداد وهو ليس مُعداً للديمقراطية بعد، والديمقراطية تضر به لكن الحقيقة لم تكن كذلك، لقد كانت خوفاً من المارد الإسلامي وحاولوا تأخير الموضوع لعقدين لخوفهم من وصول الإسلاميين ومؤيدي الثورة الإسلامية إلى الحكم وهذا ما حصل رغم أنفهم، لاحظوا كيف يُقنّن الأمريكي الديمقراطية ويُريدها في بلدٍ ويمنعها في بلد آخر، لكن اليقظة دبَّت في عقول و نفوس المسلمين وهي ماضيةٌ لقلب المعادلة في العالم أجمع ورغم كل هذا الوعي الذي يعجّ بالعالم الإسلامي هناك قلةٌ في إيران وغيرها من البلدان الإسلامية يقولون إن زمان الإيدلوجيات والدين الحكومات الدينية والثورية قد ولّى وكذلك موضوع الجهاد والشهادة والتضحية والنضال! نعجب لأفكار هؤلاء! عندما بدأ العالم يتبع الأفكار التي نادت بها الثورة يخرج أمثال هؤلاء بهذه الأقاويل، بالطبع هؤلاء من الطيف الاجتماعي الذي لا يريد تحمل الضغوط أو أن يتجرّع مرارة الصعوبات أو أن يدفع ثمن المقاومة، فلو نظرنا إلى القرآن الكريم نرى أن كُلَّ الأنبياء تحمَّلوا مشاكل أكثر منا آلاف المرات ألم يسمعوا بالآية الكريمة التي تقول: ﴿ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلِكَ فَصَبَروا على ما كُذِّبوا و أُوذوا حتَّى أتاهُم نصرُنا ولا مُبدِّلَ لكلمات الله ولقد جاءَكَ من نَبأ المُرسَلين﴾.[1]

وتعني الآية التي تخاطب الرسول ﷺ بالقول إن الأنبياء الذين سبقوكَ عانوا وقاوموا العذابَ ورأوا المصائب والحرب النفسية والإعلامية لكن صبرهم واستقامتهم أدت بهم إلى إتيان النصر الإلهي وتؤكِّد الآية أن هذا المعنى هو قانون إلهي ولا تبديل لهذه القوانين وهذا يعني أن استمرار الرسالة لن ينفع مع أناسٍ مرعوبين خائفين من الأعداء من أناسٍ قد يستسلمون أو أولئك الذين يفقدون هويتهم بمجرد إرعابهم أو تعرُّضهم لحرب نفسية أولئك الذين لا يستطيعون تحمُّل العذاب والسباب أولئك الذين يستسلمون لمجرّد زمجرة الأعداء وصخبه ويفقدون شعاراتهم واحداً تلو الآخر، هؤلاء لن ينفعوا للمضي في طريق ذات الشوكة، حيث يقول سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه إن على المؤمنين أن يصبروا و يُصابروا حتى يأتي نصر الله ولا يخشوا الوعيد والسباب، حيث يقول أعزّ من قائل: ﴿إنَّ الَّذينَ قَالُوا

---

١. الأنعام: ٣٤.

رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تتنزّل عليهِمُ الملائكة ألّا تخافوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنْتُم تُوعَدُون﴾.[١] أي أن على الإنسان أن يصبر ويُصابر ويثق بالوعد الإلهي الذي لا خُلفَ فيه، ويُشير القرآن الكريم في موردٍ أخر عن الامتحان الإلهي وضرورة الصبر والمقاومة حيث تخضّ حرب الأحزاب عندما كانت المدينة مُحاصرة وكان الوضع حرِجاً بالنسبة للمسلمين ودبّ الجوع والجزع في صفوف المحاصرين وبدأ البعض يشك بنصر الله عز وجل ووعد الرسول حيث كانوا يرون كثرة الأعداء، فعندما كان الرسول يشارك المسلمين في حفر الخندق وكان قد شدَّ بطنه الشريف بحجرٍ كي لا يُحَسَّ بالجوع وكان المسلون المحاصرون يبحثون عن جلد ماعز غير مدبوغٍ حتى يضعونه تحت أسنانهم لِيَتَقَوّتوا به قليلاً، وإذا بالرسول يقول لهم ويخبرهم عن المستقبل ويقول بعد ما ضربَ بِمعوَله صخرةً وصدر منها البرق إنه يرى في هذا البرق فتح إمبراطورية الروم فابتسم البعض لقول الرسول ﷺ وواصل الرسول الضرب وصدر البرق ثانيةً فقال ﷺ: إني رأيتُ فتحَ إيران. وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا».[٢]

وبينما يُحدثهم الرسول عن المستقبل وإذا بالبعض يقول يبدو أن الجوع أثّر على الرسول نحن نعاني من الجوع وليس أمامنا ما نأكله، لأن الكفار يُحاصرون المدينة وليس معلوماً أن نظلَّ أحياءً حتى هذه الليلة وألا تؤسر نساؤنا و يُصبحن إماءً أو جواري عند الأعداء أو يُقتلون تحت حوافر الخيل وترى الرسول يُحدثنا عن فتح الروم وإيران، لو تحدَّث أحدنا عن سقوط الاتحاد السوفيتي قبل سقوطه وانفراط عقده هل كان يصدّق أحداً ذلك؟ لكن الأمر تحقق وتنبأ الإمام (الخميني) الراحل ذلك واليوم عندما نتحدث عن الولايات المتحدة وإسرائيل ونعلن أنهما في طريقهما إلى السقوط والزوال يتعجّب البعض من مقولتنا ويقول إن هذا غير ممكن، لقد قالوا نفس الكلام للرسول في الصدر الأول من الإسلام، وبالعودة إلى حصار المدينة كان هناك منظر يراه المؤمنون والمُشككون من زاويتين مختلفتين ولكلٍ نتيجةٌ مختلفة حيث قال ضُعفاء النفس: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣]

---

١ . فصلت: ٣٠.

٢ . السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص٤٤٩؛ موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، ج١، ص٣٢٥.

٣ . الأحزاب: ١٢.

أي أنَّ وعود الرسول هي كذبٌ وخداع، هذا من طرف ضعفاء النفس من المسلمين ولكن كان للمؤمنين رؤيةٌ أخرى حيث يقول الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه عن وصف المؤمنين للموقف: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.[1] أي ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[2] فإذا ثابر المؤمنون وضحّوا فإن الله سيكون في عونهم، لقد شهدنا هذا الموقف في الحرب المفروضة حيث استشهد أحد رفاقنا وكان من قوات الاستطلاع استشهد إثر الجوع والبرد حيث عُثِرَ على جثمانه بعد نحو عشرة أيام وكان الفصل شتاءً والبرد قارصاً وكان يمضي في هور الهويزة ثلاثة أو أربعة أيام، قُلتُ لوالدة هذا الشهيد: لا تظني أن التضحيات التي قام بها ولدُك في الخفاء والصمت ولم يكن أحدٌ ليعلم بها حتى أنتِ ستذهب هباءً منثورا، لكل شيءٍ حسابه، ربما قال البعض إن الذي حَصَلَ لم يكن بفعل حكمة وإن من استطاع أن يملأ جيبه في هذه الدنيا فهو الرابح ليس صحيحاً، لأنَّ كُل الأعمال مُسجلة على الإنسان أصغر القرارات والخطوات التي نتخذها مسجلة حتى الهواجس والأفكار التي تنتابنا كُلها مُسجلة في كتاب النفس وجريدة العالم وإن كان الناس يجهلون الأمور فترةً من الزمن سيفهمونها يوماً ما وسيعلمون من الصادق ومن هو الكاذب وليست الدنيا مثلما يقول البعض أنها هرجٌ ومرج فلكل شيءٍ حسابٌ وكتاب، قلت لها عندما كانت الشهامة عند ولدك في استطلاع مواضع العدو تركت أعماله وبطولاته هذه دون أن يشعر هو ودون أن تُفكري أنتِ تركت أثاراً في نفوس الجيل الجديد في كل الوطن الإسلامي الكبير وتحوّلت إلى عملياتٍ استشهادية في فلسطين، لم تذهب دماء شهدائنا الذين سقطوا في مختلف المواضع والجبهات ولن تضيع في التاريخ، فالقرآن الكريم يقول عن تضحيات هؤلاء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[3] إن الله سبحانه وتعالى ليس مثل بعض البشر الذين يُريدون الاستفادة الإعلامية وجذب المسلمين إلى طريقةٍ يطرحون أموراً غير واقعيةٍ وصعبة التحقق وطبقاً لتعريف الأنبياء فإن الشهداء هم من يُحيون حياةً طيبة وطبقاً لتعريف الأنبياء فإن الكثير من الأحياء أمواتٌ لكنهم يتحركون وحَسب.

قلت لوالدة الشهيد إن تضحيات ولدك تُدوِّي اليوم وتدُكُّ عروش الطغاة في فلسطين

---

١ . الأحزاب: ٢٢.

٢ . محمد: ٧.

٣ . آل عمران: ١٦٩.

ولبنان والعراق و أفغانستان و شمال أفريقيا.

بالطبع ينبغي ان يُفكر الإنسان في إنقاذ أبناء جلدته ويسعى لذلك ولا أريد القول بما أن الله موجود وكل شيء بيده فليست أمامنا أيةُ مسؤولية وأن نطمئن ونذهب في سباتٍ عميق، علينا ألا نخشى ولا نخاف وأن نبذل جهودنا لا أن نجلس مثل قوم بني إسرائيل إذ قالوا لموسى لمّا دعاهم للحرب ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1]، أي أنهم لم يكونوا يُريدون تعريض أنفسهم للخطر ويقولون لنبيّهم اذهب أنت وحدك، فإن استتب لك الأمر فإنا سنكون معك ويردد البعض هذه العبارات في يومنا هذا إبّان الحروب وحمّة الوطيس، وهنا نتساءل هل يمكن أن يكون الإنسان مُعانياً من الآلام و مُلبيّاً للنداء و يفعل ذلك ما وَسِعَهُ ذلك وفي ذات الحال يظل هادئاً غير يائس وغير خائف من شيء، هذه أوصافٌ تمتع بها الإمام)الخميني) الراحل، فلو رأيتم الإمام في هدوئه ووقاره لظننتم أنَّ هذا الرجل كان بعيداً عما يجري حوله من أمور الدنيا وليس له شغل بالسياسة ولا بأمور المجتمع ليس له أدنى ارتباط بأي شيء كان هادئاً للغاية عندما عاد الإمام إلى أرض الوطن بعد نفي استمر لخمسة عشر عاماً وعاد ظافراً والثورة التي قادها على أعتاب النصر النهائي سأله عدد من الصحفيين الأجانب الذين رافقوه في الطائرة إلى طهران ما هو شعوركم الأن؟ فقال الإمام إني مرتاحٌ للعودة إلى أرض الوطن إنه شعورٌ طيب قالوا له ما هو شعورك وأنت قائد من ينادي بالجمهورية وأنت قائد الثورة؟ فمسح على لحيته الشريفة وأجاب لا شيء لا أشعر بشيءٍ خاص، لماذا يا ترى أجاب الإمام بهذه الطريقة؟ لأنه لم يكن يعمل من أجل الانتصار ولم تكن الهزيمة بالنسبة له امراً مهماً، لقد كان الإمام يعمل بالواجب و بالمسؤولية الملقاة على عاتقه فإن انتصرت الثورة فبها وإن لم تنتصر فقد عمل بالواجب وأداء التكليف.

عندما هاجم المقبور صدام إيران هلعنا جميعاً وكنا نحن لا نمتلك جيشاً منسجماً والثورة بعد لم تبسط ذراعها على البلاد وكانت هناك قلاقل داخلية فثلاثة من محافظات إيران كانت تعاني من تحركات أعداء الثورة وكانت قاب قوسين من الانفصال حتى أن

---

١ . مائدة: ٢٤.

جامعة طهران كانت تشهد سجالاً سياسياً وينجرّ الأمر إلى مواجهة مسلحة وكان قد عُثِرَ على أسلحةٍ خفيفةٍ من داخل غرف بعض المجاميع المسلحة وفي هذه الظروف الداخلية التي كانت الثورة تعاني منها وإذا بصدام يهاجم إيران وقلنا جميعاً لقد انتهت الثورة و إذا بالإمام يُطل على الناس من حسينية جماران ويقول: قد رمانا أحد المجانين بالحجارة سنذهب ونستعد لتأديبه كُل شيء على ما يُرام! أو عندما احتل بعض الطلبة الجامعيين وكر التجسس الأمريكي في طهران حركت الولايات المتحدة بعض أساطيلها وفي تلك الأيام عندما كانت الولايات المتحدة تفعل مثل هذا الأمر فإن حكوماتٍ بعينها كانت تسقط وإذا بالولايات المتحدة تُقدّم أساطيلها صوب إيران وأطل الإمام على الأمة وقد كان الجميع ينتظر مقولته فقال رحمة الله عليه وبكل هدوء: ليس بوسع الولايات المتحدة ارتكاب أية حماقة.

لقد سمعنا هذه الكلمة اليوم وتكرر المشهد علينا وباتت جملة عادية لكنها في ذلك اليوم لم تكن مألوفة فكيف يقول إنسان هذا القول وأمريكا من الناحية العسكرية القوة الأولى في العالم وتمتلك أكبر إمبراطورية إعلامية وقدرة تجسس وأقماراً صناعية ومعلومات كيف لا تستطيع فعل شيء وشهدنا بأنها لم تستطع فعل شيء، لقد خططوا للقيام بانقلاب عسكري فتم الكشف عنه و اعتقال المتآمرين، لقد خططوا لانطلاق طائرات حربية من قاعدة نوجا العسكرية بهمدان لتقصف طهران ومقر الإمام ويطل الإمام على الأمة ويقول :حسناً لو افترضنا أنكم استطعتم قصفنا ألا تُريدون أن تنزلوا من السماء إلى الأرض هل تريدون حكم الشعب من السماء، أتعتقدون أنكم لو استطعتم من خلال الإنزال الجوي أن تصلوا أرض إيران أتعتقدون أن الشباب الثوري كان سيدعكم وشأنكم، إن ثورتنا حيَّةٌ نابضةٌ في عروق الأمة وطالما بقيت الأمة في الميدان وكانت يقظةً لما يدور حولها فإن الانقلابات والقنابل الكيماوية والذرية والجحفلة العسكرية والاحتلال والحروب لن تُجديَ نفعاً معها وقد ظنَّ هؤلاء إن الإمكانيات العسكرية الهائلة ستَمكنهم من الانتصار، كما فعل صدام عندما شن الحرب على الثورة الإسلامية وظنَّ أن العُدّة والعدد ستنفعه، لكن صمود المقاتلين في الجبهات وبيدٍ خالية وعلى مدى ثمانية أعوام من الحرب المفروضة أفشل خطط الأعداء من الإجهاز على الثورة الإسلامية الفتية، بتصوري أن إيران انتصرت في الحرب على صدام بعد تحرير خُرّمشهر في عام ١٩٨٢ وبعد هذا التاريخ واجهت إيران جحفلة كل قوى

الاستكبار ضدها فقد حارب جند الإسلام كل قوى العالم بما فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا عبر الدعم المادي من قبل البلدان العربية في المنطقة وقد تم أسر مقاتلين من سبعة أو ثمانية بلدان غير العراق وكل الحروب الكلاسيكية هي عبارة عن قصف مدفعي تمهيدي ومن ثم إغارة للطيران الحربي وبعدها تقدم للدروع يتبعهم قوات برية ولم تكن هناك في الجهة الإيرانية حرب كلاسيكية بهذا المعنى بل كانت هناك قوات للتعبئة مُتشكلة من المتطوعين ومن الشباب الذين آمنوا بالثورة والقائد لبّوُا النداء وتحركوا لصد العدوان بصدورٍ عارية وفي جميع العمليات عندما كانت قوات الصولة تتقدم لكسر خطوط العدو الأمامية كان الشباب ينتشرون على طَوال خطوط التماس ويفترشون الأرض استعدادا لهجوم مضادٍ تقوم به الدروع الصدَّامية للقيام باقتناصها دون أن يكون لهم ساتر وفي إحدى العمليات كان المقاتلون من قوات الصولة في الأرض الحرام وكانوا منهكين إثر التقدم راجلين لمسافات طويلة إلى خطوط التماس ومواجهة العدو في الليلة الأولى فكان بجواري أحد حمل سلاح (R.P.G) قلت له لماذا لا تستعد لضرب الدبابات وهي تتقدم؟ فكان يرد عليّ إنني متعب لم أنم منذ ليليةٍ أو اكثر دعني أستريح! أيقظني عندما تقترب الدبابات لمسافة خمسين متراً وحسب! تعجبت من عدم اكتراث المقاتلين ولاحظت أن كل من نطلق عليهم صيادي الدبابات يفعلون ذلك لم يكونوا يهابون تقدم العدو حيث كان السهل مملوءً بالدبابات التي لا أدري من أي مكانٍ جاءت كان المقاتلون يفرحون عندما كانوا يشاهدون مدفع مئة وستة المحمول يأتي لنصرتهم، بهذه الإمكانات المتواضعة استطاع جند الإسلام أن يوقفوا زحف العدو ومن ثم جعلُهُ يتقهقر لقد حيَّرت تكتيكات جند الإسلام الأعداء حتى إن بعض الخبراء العسكريين كانوا يقولون إن خُطط الحرب الإيرانية كانت خطط حرب العصابات لكنها تشبه الحرب الكلاسيكية، لقد غيَّر صمود وفِعل القوات الإسلامية معادلات الحرب، إننا اليوم نشهد ثمار التضحيات والحرب التي خاضها المقاتلون دون أدنى أملٍ بالنصر إلا بجهة أداء التكليف والواجب كانوا في ذلك ينفذون حرفياً تعليمات الإمام الخميني رحمة الله عليه الذي كان يُردد على الدوام نحن نعمل بالتكليف غير عابئين بالنتائج وقد سيء فهم مقولة الإمام حتى إن أحد الطلبة استوقفني في إحدى الجامعات وقال: هل تعني مقولة الإمام إن الإنسان عليه أن يُعطّل عقله وتفكيره ويعمل دون أن

يحسب حسابات الظروف والنتائج؟ فقلت له إن معنى كلمة الإمام هو أن على الإنسان أن يُفكر مليّاً ويُحرك عقله لمعرفة التكليف والواجب الملق عليه ومن ثم تحريك العقل صوب عمل ما ينبغي القيام به والانتصار، علينا أن نُبرمج ونخطط ولكن هذا الكلام الذي يقوله الإمام نعمل بالتكليف غير مهتمين بالنتيجة لا يعني أنه إذا لم ننتصر نقول لقد ارتكبنا حماقة ولن نقول إن كل أفكارنا كانت غير صائبة بل نقوم بالتخطيط كي ننتصر ونعد العدة الممكنة لكننا لا نعبد الانتصار إنها النقطة المقابلة للبرغماتية التي تقول لا ينبغي للإنسان دخول صراع دون الاطمئنان للخروج منه منتصراً، أي أن يكون النصر واضحاً وعينياً كمن يرى فاكهةً على شجرةٍ ويطمئن إلى أنه قادرٌ على تناولها وبخلافه فلا ينبغي له الإقدام، هذا المنطق يشبه التجارة إنه ليس بالجهاد لكن ثقافة الإمام علّمت الأمة أن عليها أن تخطط وتبرمج بهدف النصر ولمّا تعجز عن تحقيقه تقول لقد أخطأنا وأن المساركان خطأً، نعم ينبغي الالتفات إلى آلام الأمة في زمن الرسول كان ﷺ يسعى كثيراً لجعل الناس مؤمنين حتى نزلت الآية الشريفة تخاطبه ﷺ وتقول له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١]. أي أنك يا رسول الله تريد إهلاك نفسك في هداية الناس عليك بالعمل طبقاً للتكليف وتترك الباقي، آمَنَ الناس أم لم يؤمنوا، إن العشق الحقيقي هو عشق الله وإتباع أوامره وعلى رأس أوامر الله الاجتماعية إقامة العدل الاجتماعي والمشاركة في ذلك كلٌّ حسب استطاعته مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف ولو شاعت هذه الاعتبارات في الجيل الجديد ووجدت أرضيتها عندها سنمتلك مجتمعاً وجيلاً وجبهةً لا تعرف الكلل أو الملل، لأنها مشفوعة بقوة العشق الإلهي ولا يمكن ذلك مع العشق الخيالي أو الرغبات الكاذبة وحُب الدنيا فكلها أوهام، قيل إن العشق المادي يعني ان الإنسان إذا بلغ معشوقه فإن الرغبة والعلاقة ستبرد بعد حين، قيل إن مجنون ليلى كان يبحث عنها وإذا بالنعاس يغلبه من شدة التعب فينام وإذا به يرى في المنام امرأة تناديه ففتح عينيه ورأى أن المرأة تقول له إنني ليلى، فقال المجنون أصحيحٌ أنتِ ليلى؟ فقالت نعم، فقال أرجو أن ترحلي، لأنني أريد أن أبقى عاشقاً ولست بحاجة لك. هذا عشق مجازي لقد قال الإمام هناك حبٌ وعشقٌ للقدرة والثروة والشهرة هذا عشق مجازي والكل يتصور أنه ينشد أشياء، الكل ينشد العشق الحقيقي إنه يُنشد الله

---

١ . الشعراء: ٣.

لكن البعض لا يعرف من يقصد وعليه فإنهم يُضلون الطريق العشق الحقيقي هو العشق الذي لا يبرد ولا ينتهي وليس فيه خوف أو يأس والتاريخ حافلٌ بالرجال من المجاهدين والشعراء الذين ارتدوا على أعقابهم بعد فترة وجيزة وقالوا للناس وأبنائهم لا تسلكوا الطريق الذي سلكناه إنه طريق مقفل ومسدود، ترى لماذا؟ لأن عشقهم كان مجازياً كاذباً تراهم كالعشاق في الشوارع يتبعون المعشوق لغاياتٍ في أنفسهم ولذلك ترى أن مثل هذا العشق ينتهي بمرور فترةٍ وجيزة بعد أن يقضي العاشق مع معشوقه وطراً، لكن العشق الذي علمه الإمام للأمة كان عشقاً حقيقياً، أي أن العاشق يتبع المعشوق لنفس المعشوق وليس لحاجةٍ في نفسه هو ولذلك فمثل هذا العشق يكون دائمياً ولذلك ايضاً نرى التاريخ مليئاً بالثوار النادمين وما أكثر المجاهدين الذين خانوا الأمانة وكل أولئك الشعراء الحماسيين الذين تحولوا إلى تُجار وكل الأبطال الذين تحولوا إلى عملاء سبب ذلك يعود إلى أن هؤلاء لم يكونوا ينشدون الحقيقة ولم يروا اختلافا بين القيم المحسوسة والمادية مع القيم المعقولة وأضيف هنا مقولةً للشهيد مطهري حول الاختلاف بين القيم المعقولة والخير المعقول أو المحسوس وأرجو من الحاضرين الالتفات إلى ذلك، لأن فيه الكثير من الإيضاحات حول القضايا والشبهات الواردة في هذا المجال بشكل مباشر وغير مباشر.

لقد سمعتم كثيراً أنه عندما يُراد وصف الإنسان الهادف يقولون إنه ذو أفكارٍ خيالية وعندما يُراد وصف إنسان مُختل العقل ويعيش في عالمه يقولون إنه عاشق وهذا يعني أن لا حكمة ولا عقل في تصرفاته، أو أنه يعيش صراعاً بين العشق والعقل صراعاً بين القيمة والربحية ويُقال للناس هل أنتم تُنشدون الربح أم القيم فإن كنت من الأُناس العاقلين أو ممن يتبع القيم فيقال إنك من المجانين، فالإنسان العاقل في تصورهم يجب أن يكون واقعياً أو توصف بالإنسان المثالي الذي يجري خلف الأحلام والخيالات على أية حال، فإنك من المجانين لا بد وأنكم سمعتم هكذا أوصاف وتقسيمات وبأشكال مختلفة وشاهدتم وقرأتم ذلك وإن خَجِلَ البعض في النعت والتصريح فإن صمدتم يُشيروا إلى هذه التسميات ضدك، أين تكمن هذه التسميات والنعوت؟ جذور هذه التسميات تعود إلى المذاهب المادية والليبرالية والماركسية والفاشية وكل أشكال المذاهب المطروحة في الغرب فهي مُشتركة في الأسس والمبادئ إنهم لا يُعيرون أية اهمية للقيم ولا يرون أية قاعدة ثابتة أو مُعتبرة

للأصالة الإنسانية، إنهم يرون العالم والإنسان على هيئةٍ مادية بحتة وعندما تتحدث لهم عن القيم فإن أدمغتهم وافكارهم تتجه صوب الخير المحسوس أو الملموس، القيم الدنيوية التي يمكن حسابها ووضعها في كفة الميزان وعندما تقول لهم إن هناك بعض الأشياء في العالم هي قيم معقولة قيم معنوية ولا يمكن مشاهدتها ولا وضعُها في كفة الميزان عندها يُحارون في فهم المسألة وعندما تكون رؤيتهم الاعتقادية هكذا فإنهم سيفهمونك عندما تتحدث عن القيم والخير الملموس عن الربحية المادية ولكن عندما يُصار إلى الحديث عن الخير المعقول والكمال المعنوي، لأن حُكماء الإسلام يرون أن أساس الخير شاخصةٌ وهو الكمال لكن الغربيين لا يؤمنون بالكمالات العقلية والمعنوية وعليه فإن إعلامهم قائمٌ على هذه الأفكار وكل هجماتهم ضد الإسلام تتم عبر هذه الأوصاف فتراهم يقولون إن الشهداء والمضَحّين أناسٌ بُلَهَاء وإن طلب الاستشهاد يعني أن العقل مصاب ولا يعمل بصورته الطبيعية، لأنهم يرون كل الأشياء في الحسابات المادية، وهل من إنسانٍ يا ترى لا يعي أن الوقوف أمام الرصاص خطر؟ إنهم يتصورون أن من يتقدم للتضحية والفداء ويقف بوجه الموت من اجل تثبيت العدل والقيم السامية لا يعرف معنى الرصاص وما هو فعلها مع ابن آدم، ربما أصابته رصاصةً حولته إلى مُقعدٍ يعاني لثلاثة عقود وربما وقع في أسر الأعداء وهو لا يدري فهل من يعي هذه الخطورة يُقدِم على هذا الفعل والعمل، وعندما نقيس هذه الأمور وفق مقياس العقل المادي ولنقل بصورةٍ أدق النفساني لكنهم يُسمّونه العقلاني، فإننا سنرى أن كُل التضحيات على مدى التاريخ هي عبارةٌ عن خِبْل وأن عقله لا يعمل لكننا إذا أخذنا الأمور وفق تعريف الأنبياء الذين يرون أن الخير المعقول أو الكمال المعنوي أعلى من الخير الملموس وأن الخير كل الخير في الكمال الروحاني وعندما يقبل الإنسان هذه الرؤية فلن تكون التضحيات حمقاء، بل عين العقل وعليه هنا لي أن أتساءل هل أن الذين يقولون أن كفة العشق رجحت على كفة العقل في كربلاء صائبون في قولهم؟ لقد كان العشق والعقل كلاهما في كفة واحدة في كربلاء لم يكونا في كفتين مُتقابلتين ألبتة. بل إن عقول المشاركين في ملحمة الطف كانت ناضجةً أكثر من غيرهم، كانوا الأفضل لقد قلّبوا الأمور وقالوا مع أنفسهم نصف يوم من العطش والاشتباك والضرب بالسيف سيجعلهم يحصلون على الخلود الأبدي وهذا ليس ضرراً بل ربحاً كاملاً في الحقيقة، فإن القيم تعني

الربحية، لكن من يرى أن الربحية تقف في النقطة المقابلة للربحية والعقلانية فهم يروجون اليوم إلى مقولة ان كُل ثورة ضد الرأسمالية والليبرالية والصهيونية في العالم تُعدُّ جهداً مؤقتاً مصيره الفشل، نصر وخير ملموس أكثر من الانتصار الذي حققناه بفعل التضحيات التي تمت خلال السنوات الأخيرة.

أليست العزة التي نتمتع بها اليوم خيراً ملموساً وإذا وقفنا عند أقوالهم عندما يتحدثون عن ثمانية وعشرين بلداً يُريدون تقليد إيران في إشعال نار الثورة أليست هذه عزة لإيران؟ وعندما يقول أحد الإستراتيجيين الأمريكيين من أساتذة جامعة هارفورد الأمريكية إنه ومع زوال العالم السوفيتي بقي العالم بقطبيةٍ ثنائية، القطب الأول يتمثل في الولايات المتحدة والثاني بقيادة إيران التي لا تملك أسلحة ولا أقمار صناعية ولا أجهزة ولا قنابل كيمياوية لكنها تمتلك قوة تتمثل في قوات التعبئة الجماهيرية أليست هذه الأمور خيراً ملموساً ولأن الغرب لا يمكنه الوقوف على الخير المعقول والروحاني إلا من خلال الحسابات المادية فندعوه للحساب خلال العقدين الماضيين ولنرى الشعوب المحيطة بإيران كأفغانستان هذا البلد كان أسير الاتحاد السوفيتي المنهار وخسر نحو مليونين من أبناءه في المواجهات واليوم خرج من أيدي الروس وبات في أيدي الأمريكيين ولكن ماهي النتيجة إنه يعاني من الأمن والرفاهية والإمكانات والحرية.

على أية حال أشكر حسن استماعكم وأعتذر عن الإطالة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإمام الخميني والصحوة الإسلامية (القسم الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيها الأخوة الأعزاء ورحمة الله وبركاته، لقد كان الكثير من الثوار والساسة يقولون للإمام هل تتصور أن الشاه يزول يوماً ويُزاح عن السلطة؟ هل يمكن أن يزول الشاه؟ ليكون هناك ثورة وتصبح الحكومة بيدكم؟ إنه تصور مضحك حقاً! ألم يقولوا ذلك للإمام ونحن لم نكن حتى بداية عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف(١٩٧٨م) نرى أن الثورة ممكنة في إيران ولو كان أحد يقول في أوائل عام (١٩٧٨ م)إن الشاه سيسقط في فبراير(شباط) من عام تسعة وسبعين وستقام حكومة إسلامية جمهورية، لم يكن أحدٌ ليصدق هذا الأمر وكل من كان يسمع سيطعن في صحة الأقوال، لكننا شاهدنا أن الامة صمدت بوجه الطاغوت وتحقق النصر، في عام ثلاثة وستين كان هناك عقيد في شرطة الشاه بمدينة قم يؤذي الناس ويهاجم المدرسة الفيضية للعلوم الدينية بعدها أرسل الإمام من يقول له إعرف حدك وإلا سنؤدبُكَ بعد حين حتى أن الإمام خاطب الشاه بالقول لا تتمادى في غيّيك، لأنني سأطلب من الشعب طردك من إيران،كان البعض يسخر من أقوال الإمام حتى أنَّ ذاك العقيد لمّا جاء لإعتقال الإمام في عام ثلاثة وستين(١٩٦٣ م) قال بحالة من السخرية للإمام: تريد أن تقوم بخطواتٍ كبيرة، بأي قوة تفعل ذلك؟ أين جندك؟

فردَّ عليه الإمام بالقول: إن جندي اليوم في المهد، فردَّ العقيد: أردتَ أن تؤدبني؟ هل ستفعل ذلك بهؤلاء الأطفال؟

كان الجميع يقول فيما خصَّ الثورة عند انطلاقها وإبان الحرب المفروضة إن الأمر

مستحيل، لكننا شهدنا أن الثورة انتصرت وإيران صمدت في الحرب وطردت المعتدي من أراضيها وكانت المرة الأولى في تاريخ إيران أن تدخل حرباً لا يتم فيها انتزاع جزءٍ منها واليوم ترون بحمد الله أن الثورة عَظُمت واشتدَّ عودُها وقد زال صدام إلى الجحيم، وعندما قال الإمام وهو يُخاطب غُرباتشوف: عليكم بالبحث عن الشيوعية في المتاحف.

سَخر البعض وقال ماذا يقول الإمام؟ إن الماركسية تتحكم بنصف الدنيا وأن القوة الصاروخية للإتحاد السوفيتي أقوى من أمريكا في بعض الإماكن كيف يقول الإمام إبحثوا عن الشيوعية في المتاحف، وأضاف الإمام أنه يسمع صوت تهشُّم عظام الشيوعية، ألم يحصل ذلك؟ ألم يكن الجميع مقتنعاً باستحالة ذلك.

في عام اثنين وتسعين(١٩٩٢م) ذهبت إلى منطقة البلقان وإلى ألبانيا تحديداً وكان بلداً شيوعياً كان الإسلام ممنوعاً ويحاكم النظام من يعتنقه لم يكن طوال الحكم الشيوعي مسجدٌ ولا قرآن وإن عثر المصحف عند أحدٍ حُكِمَ على ذلك، كان هناك شيخ طاعن في السن وكان مفتياً للبلاد لا أدري أهو على قيد الحياة الآن أم لا، وكان من كبار علماء أهل السنة، زُجّ به في السجن لخمسة وعشرين عاماً وقد تم الإفراج عنه بعد إصلاحات غُرباتشوف قال لي عندما وجَّه الإمام خطابه التاريخي إلى غرباتشوف: دخل في السجن نسخةٌ من الرسالة التاريخية بصورة سرية وقد تداولها الشبان المعتقلون إبان النظام الشيوعي وحفظوها عن ظهر قلب وكأنها القرآن وعندما كان يأتي نزيل جديد بالسجن كان الشبان يُطلعونه على رسالة الإمام حرفاً حرفا، كان حديث الإمام مهماً بالنسبة لهم، لأنهم من ضحايا النظام الشيوعي فقد كان الأمر بالنسبة لهم بمثابة الهزة الكبيرة، كيف لرجل في إيران عالم دين يتنبأ بسقوط الشيوعية ويقول إنها وصلت إلى نهاية الطريق ويخاطب رئيس الإتحاد السوفيتي بكل حزمٍ ويقول له: أرسل رجالك ليحققوا حول الإسلام.

لم يكن أحدٌ يجرؤ على مخاطبة هؤلاء قبل ثلاثة عقود، لكن الأمر بات معتاداً بعدما نجحت الثورة في إيران وبعدما فعل ذلك الإمام الخميني رحمة الله تعالى عليه وبعدما عجز الإستكبار عن الوقوف بوجه الثورة الإسلامية نراه أقدم على صناعة نماذج مُزيّفة عن شخصية الإمام حتى ان صدام المعادي للدين والعقيدة الإسلامية والذي قضى عمره في محاربة الدين والعلماء وكل يوم تُكتشف قبور جماعية تضم العلماء والمجاهدين في

العراق نراه يرتد على عقبيه ويصبح في أواخر عمره مسلماً مؤمناً ويضع كلمة الله أكبر على علمه ويضع تسمياتٍ إسلامية على كتائبه وألويته كالحرس وقوات التعبئة في إيران، لأن الجميع فهم مايجري في العالم حتى ابن لادن الذي ظهر فجأةً ولا ندري حقيقة الرجل والقاعدة كيف أُنشِئَ هذا التنظيم المشكوك به لأنه وكما هو معروف فإن جماعة طالبان في أفغانستان صنيعة أمريكية وأجهزة الإستخبارات في بعض الدول التابعة للولايات المتحدة وقد انشأت الجماعة لمحاربة الإتحاد السوفيتي ثم تم توجيه هؤلاء ضد الشيعة في أفغانستان، لا أريد هنا القول إنّ هؤلاء عملاء تابعين لهذا وذاك ربما كان لبعضهم معتقدات وتصورات مزيفة أو حقيقية على أية حال كان هناك أناس بتوجهات وهابية حيث بدأ هؤلاء بتقليد الأدب السياسي للإمام ولو راجعتم التسجيلات الصوتية لإبن لادن سترون أنها تقليدٌ لخطابات الإمام ولكن باتجاهٍ ومنحاً وهابي وربما كان هؤلاء مزيفون من صناعة المخابرات الأمريكية لصد أمواج الثورة الإسلامية من خلال تبني عدد من التفجيرات ونشر العنف والإرهاب وهكذا يقرر الغرب غزو أفغانستان والعراق وحل القضية الفلسطينية عبر خارطة طريقٍ يرسمونها هم وسيتم خلال عامين الإنتهاء من كل المشاكل تحت يافطة محاربة القاعدة، هكذا كانوا يتصورون ويعتقدون، ربما كان ملف القضية مصطنعاً في أساسه وهذا ما أرجحه فقد خشي الإستكبار من تعاظم المد الإسلامي في عالم أهل السنة والميل صوب الإمام والثورة الإسلامية فارتأى هؤلاء أن يُنشؤوا تياراً وهابياً أمريكياً بديلاً لإبعاد أهل السنة ومن ثم القيام بأعمال إرهابية ليتمكنوا من قمعهم وهناك احتمال آخر وهو أن هؤلاء أناس مؤمنون ولذلك اتجهوا إلى أفغانستان لقتال الإتحاد السوفيتي ثم قادتهم الإنحرافات الوهابية لمحاربة الثورة الإسلامية وإذا بهم يستيقظون فيجدون أنهم أصبحوا ألعوبةً بيد الولايات المتحدة والسياسة القذرة ولهذا كان يتم تزويدهم حتى ذلك اليوم بكل أسباب القوة والسلاح وعندما أعادوا فواهات بنادقهم صوب الولايات المتحدة انتهت فترة صلاحيتهم وكان على الأسياد أن يقضوا عليهم ولو سلمنا بأن هذا هو ما حصل فيمكننا القول إن الأمر من نتائج الثورة الإسلامية في إيران ذلك أن الوهابيين كانوا يفصلون بين الدين والسياسة وعندما كان الحجاج الإيرانيون في مكة يريدون التظاهر ضد الإستكبار كان شيوخ الوهابية يقولون لا يجوز الحديث باسم السياسة أيام الحج، فماذا تغير حتى

أصبح هؤلاء سياسيين إلى هذا الحد، وهكذا نخلص إلى أن كثيراً من الحركات التحررية سواء كانت مصطنعة أو حقيقية فهي من آثار الثورة الإسلامية وتضحيات شباب الثورة، أليس هذا نصراً، وعندما يقول الأمريكيون والبريطانيون حتى الصهاينة في إسرائيل ليست أمامنا مشكلة تذكر إلا إيران، فلو تراجعت قليلاً فإننا سنحل مشاكل المنطقة في فلسطين ولبنان وكل الشرق الأوسط في ستة أشهر، لكن إيران هي المانع، لأن المقاومين في فلسطين ينظرون إلى إيران بصورة الملهم لهم، عندما تحدث الإمام عن تجرّعه السُّم، علينا أن نوضح ماذا يعني الإمام بذلك ماذا كان يقصد؟ أولاً إن الإمام لم يقدم تنازلاً، كان للإمام في الحرب المفروضة هدفان، الأول طرد العدو من الأراضي الإيرانية وقد فعل ذلك، والثاني أن الإمام أراد أن يقتص من الجاني صدام والإطاحة به وهذا ما لم ننجح فيه، لأن الدنيا والعالم كله وقف خلف صدام و زودوه بكل أنواع الأسلحة الميكروبية والكيمياوية وحتى الذرية وباتوا متورطين بعد الحرب، لأنهم كانوا يعلمون مالذي زودوا صداماً به وكانوا يقولون له أعد إلينا الأسلحة كان ينكر ذلك، ويعيدون عليه الكرَّة بإعادة تلك الأسلحة المحظورة إليهم دون إستجابة من صدام، كان أحد المسؤولين عن البرنامج النووي في نظام صدام أعلن أنه كان باستطاعة صدام بعد عامين أن يمتلك القنبلة الذرية لكنه استعجل الأمر وهاجم الكويت لقضاء نزعاته التوسُّعية والعدائية وأن التجهيزات التي زوودَ بها النظام العراقي البائد كانت من الغرب بغية استخدامها ضد إيران، وأضاف ذلك المسؤول البعثي السابق كان بإمكان العراق صناعة قنبلة خلال ستة أشهر وأن الغرب المتمثل بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا زودته بكل المعدات لصناعة قنبلة وضرب إيران التي بدت للجميع أنها ستنتصر في الحرب ضد صدام وهكذا تم مدُّ صدام بالأسلحة المحظورة، فاستعاد الفاو وحلبجة وجزر مجنون ولو كان تقدم خطوة أخرى لحسم الأمر لصالحه من جديد وأضاف ذلك المسؤول لم تنفع الأسلحة الكيماوية على الجبهات بالشكل المطلوب وعليه لم يبق أمامنا غير استخدام الصواريخ الكيماوية ضد المدن الإيرانية أو القنبلة الذرية وقد زودنا بها الغرب، عندها قال الإمام لقد كان الواجب يقضي بتأديب المعتدي الظالم لكننا لم نستطع، دخلت الولايات المتحدة الحرب وبدأت بضرب سفننا وأرصفتنا البحرية وأسقطوا طائرة ركاب مدنية وبذلك أرادت القول إنها موجودة بكل ثقلها وأنها لن تسمح لإيران بالسيطرة على العراق.

أرجو أن تعودوا إلى خطاب الإمام في قبول القرار (٥٩٨) الصادر عن مجلس الأمن لم يكن رسالة سلامٍ لقد كانت رسالة حربٍ، عندما صدر بيان قبول إيران للقرار (٥٩٨)كنت في منطقة كرمانشاه وكان هناك حديث حول ضرورة تقدم القوات الإسلامية صوب خطوط المواجهة وقيل إن الأوامر صدرت لقوات الحرس بالنزول إلى الجبهة الجنوبية، لأن الأعداء يتقدمون على المواضع الإيرانية في الشلامچه وكوشك والحسينية، حتى ان قوات العدو وصلت إلى طريق أهواز خرمشهر في بعض النقاط وعندما توجهنا إلى الجنوب تقدمت قوات رجوي والمنافقين في منطقة إسلام آباد بمساعدة البعثيين آنذاك، لاحظوا أن الأشخاص الذين رفضوا الإنصياع لأوامر الإمام أصبحوا عملاء بيد صدام لأكثر من عشرين عاماً وهم اليوم عبيدٌ بيد أمريكا وبريطانيا ومن يرفض الحقيقة سيصبح ذليلاً لا محالة.

قال العلامة الأميني حول أحد رجالات الصدر الأول في الإسلام: حيث لم يكن قد بايع الإمام علياً عليه السلام عندما اختير خليفة للمسلمين لكنه أجبر بعد عشرين ونيف من الأعوام على مبايعة الحجاج بن يوسف الثقفي ذلك الجلاد الخبيث، فعندما تولى الإمام علي عليه السلام الخلافة قيل له تعال وبايع الإمام وامدد يدك له، قال إنني أحتاط شرعاً وقال إنني على مشكلةٍ معه.

فقال له الإمام علي عليه السلام: حسناً لا تبايع ولكن لا تقف في طريق خلافتي وتشق عصا الطاعة لا توجد الفتن لي، إذهب وعش حياتك كسائر الناس.

لكننا نرى أنه بايع الحجاج الظالم والجزار ولم يقل بالإحتياط الشرعي، ولـمّا ذهب لمبايعة الاخير كان الحجاج قد تحرك صوب مكة لنهبها وقتل أهلها فخرج إلى خارج مكة لاستقبال الحجاج، فقال له جلاوزة الحجاج: ماذا تريد؟ قال: أريد بيعة الحجاج، فقالوا له: لو صبرت إلى يوم غدٍ أو بعده لكنا وصلنا مكة ولم تكن بحاجة إلى هذا العناء. فقال: إنني سمعت الرسول صلى الله عليه وآله يقول: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وخشيت أن أموت في ليلتي هذه ولم أبايع وفي ذلك مخالفة شرعية! فلما دخل على الحجاج كان الحجاج يشرب الخمر ومعه الجوار وغير ذلك فقال للرجل كما ترى إنني منشغلٌ ويديَ مليئتين، فأخرج رجله من تحت الغطاء وقال تعال وامسح يدك بقدمي. ففعل الرجل

ذلك وقال إنني أُشهِدُ الله و رسوله إنني بايعت الوالي.[١]

في يومنا هذا رفض البعض مبايعة الإمام الخميني باليد فذهبوا لمبايعة أقدام صدام والولايات المتحدة وآخرين ومن يفعل ذلك في يومنا هذا سيكون على هذه الشاكلة بعد عقدٍ من الزمان أو أكثر، إنهم يريدون القول إن أية مقاومة أيديولوجية إزاء الظلم العالمي للغرب هي عبارةٌ عن صور للدكتاتورية غير المقبولة وهؤلاء يقولون إن العشق حماقة والمعتقد عصبية والعقلانية تعني التسليم والمهادنة، إنهم يُعبرون عن المقاومة بالقول: إنها تعني العنف، يصفون الإمام بالإنسان العاشق الذي جاء مع من حوله من المريدين وقد خلطوا الأوراق وأججوا الدنيا في العقد الأول من الثورة، أثاروا الدنيا واليوم قد انتهى كل شيء، لقد انتهت اللعبة، فليرحم الله أمواتكم، إنهم يريدون القول إن زمان الجمهورية الفضيلة والتطلعات قد انتهى وقد وصلنا إلى زمان جمهورية التلذذ، هذا ما يريده البعض للثورة والبلاد، يقولون إن علينا أن نحفظ إرث الثورة التي بقي بين أيدينا في المتحف، إنهم يريدون تغيير ثقافة النخب الثورية بثقافة النخب التكنوقراطية التي لاتؤمن بأي هدف غير الأهداف الغربية، ومن ثَمَّ تؤول إدارة الثورة ومقودها بأيدي أصحاب رؤوس الأموال والأثرياء، يقولون إن زمان النخب الأيدلوجية والكارزمية قد ولّى، يجهلون أنه لا يمكن بناء مجتمع عبر التشكيك وأن الثورة التي بدأت باليقين والإيمان لا يمكن أن تستمر بواسطة الشكوك، يتصورون أن الدين عبارة عن فرضية أو نظرية ولا يمكن للإنسان أن يستشهد في طريق الفرضية، إنها فرضية كسائر الفرضيات الموجودة، هذه هي نظرتهم للدين، إن أدعياء التنوير يريدون نشر مقولة أن عهد الترويض والتضحية قد ولّى وآن الأوان للعيش بلذة، إنهم يبدلون أفكارهم كما يُبدلون ملابسهم الداخلية ينعقون مع كل ناعق ويبدلون أهوائهم طبقاً للحكام، يريدون القول لنا وللأجيال القادمة إن الذين ضحوا بأرواحهم في زمن الإمام فعلوا ذلك بشيءٍ من التعصب والتشديد على النفس، لقد جاؤوا إلى هذه الدنيا شهداء أصلاً وكانوا رجالاً حزموا أمرهم وقد وضعوا خارطة الدنيا أمامهم وكانوا يفكرون على الدوام في تصدير الثورة إلى كل البشرية كانوا يتحدثون عن السلطة الإستكبارية وصحيح أن هؤلاء حققوا انتصاراتٍ بشكل يثير الإعجاب من العقد الاول من الثورة واستطاعوا أن يقلبوا معادلات المنطقة والعالم رأساً

١. راجع: المسترشد لابن جرير الطبري، ص ١٧٧.

على عقب لكن الزمن اليوم قد انقلب عليهم ويشيرون إلى تجرع الإمام للسم.

في منطقة العمليات كنا ننصت المذياع وهو يقرأ رسالة الإمام حول قبول القرار(٥٩٨) لقد كانت أوضاع الجبهة غير طبيعية وكانت الكثير من الخطوط قد خُليت من المقاتلين لم يكن هناك نسق وهناك قال الإمام إن كان لي من جاه عند الله فإنني تعاملت به مع ربي، لقد تجرعت السم كان المقاتلون ينصتون ويبكون وهم يتحلقون حول المذياع وكانوا يفترشون الأرض ويبدأ بعضهم يحثّ التراب على رأسه، إن بعضاً من المقاتلين كانوا قد قضوا سبعة أو ثمانية أعوام في الجبهة وعلى أجسامهم أثار الحرب من شظايا وقطع من القنابل وكان البعض يقول لصاحبه إن الحديد يملأ جسمك وأسمع صوت طرقه عندما أضرب أي قطعة من جسمك، كانوا يبكون ويقولون لقد جرعناك السم أيها الإمام الهمام، نرجوا أن تكون راضياً عنا، هكذا كانوا يقولون، كنت أقول لهم لقد بذلتم ما استطعتم وقدمتم أنفسكم على طبق من الإخلاص لخدمة الدين، الإمام لا يقصدكم، لاحظوا كم ضحى هؤلاء بأنفسهم لكنهم يرون في اللحظات الأخيرة أنهم مازالوا مقصرين ولم يؤدوا الواجب بالشكل المطلوب، لم نر في كلام الإمام ذرة تنازل أو خنوع أو إننا أخطأنا أو علينا العودة عن المبادئ، بتصوري فقد أنهى الإمام حربه مع صدام في رسالته وبدأ حرب عالمية مع الإستكبار، لاحظوا جُمل الإمام التي تقول أيها الشبان الثوريون أبنائي الأعزاء إحفظوا غضبكم الثوري المقدس في صدوركم، شدوا الأحزمة واستعدوا لم يتغير شيء، لقد عملنا بما أملاه علينا التكليف ولم يُصار إلى تنازل وبعد هذا لنا واجب آخر وعلينا العمل به ليس في هذا الحديث ذرة من الذلة أو الإنهزام ولاحظنا ما الذي حصل بعد ذلك بفترة وجيزة هجم صدام على الكويت واشتبك مع حلفاءه بالأمس وبدأ التراشق الكلامي وبدا صدام يقول إنه حارب من أجلهم وكراسيهم وعليكم اليوم أن تردوا الجميل بحذف القروض والأموال المستحقة، لكنهم كانوا يقولون لا لقد فعلت ذلك بملئ إرادتك وعليك أن تُصفي ديونك، لقد انتهت الحرب وزال الخطر الإيراني لقد شاء الله أن يقع بينهم الخلاف والبغضاء، كان الإمام الخميني يقول: على الأعداء أولاً أن يُعلنوا أنهم شرعوا بالحرب، لماذا تتحدثون عن وقفٍ لإطلاق النار والعودة إلى الحدود؟ من هو المسؤول عن إزهاق كل هذه الأرواح؟ من المسؤول عن العدوان والجريمة، إنهم يأتون اليوم للقول انتهى كل شيء فليعُد كلٌّ إلى

بيته وكان الإمام يرفض ذلك، يقول لهم حددوا المعتدي أولاً ولم يُعلنوا ذلك حتى نهاية الحرب، كانوا يدعون إلى وقف إطلاق النار ورجوع القوات إلى الحدود وبعدها لنجلس ونتحدث ونرى ماذا حصل نتحدث مع شخصٍ كالأرعن صدام الذي لا يمكن الوثوق بأيٍ من أعماله، إنه إنسانٌ عديم المشاعر عندما هاجم الكويت خرج الجميع ليقول إن صدام هو الذي بدأ الحرب على إيران وأنه المعتدي وقال لهم صدام لقد زودتُموني بالأسلحة الكيمياوية وفعلتم ما فعلتم لقد حاربت من أجلكم أنتم الذين حركتموني، وبدأ الطرفان بكشف الأسرار التي لم يكونوا ليتحدثوا عنها قبل ذلك، تجرع الإمام السم في الظاهر لكن الحقيقة أن الإمام جرّع الآخرين سُم، إن السُم الذي يتحدث عنه الإنهزاميون اليوم هو الإستسلام، فليذهب هؤلاء ويرى كيف حال من ركن للمهادنة والإستسلام، هل حاله أفضل مما كان عليه في السابق؟ لقد كان الإمام يرى الشهداء قمة في العدل والزهد والتواضع، كانوا مُعدّين للشهادة، لأنهم كانوا يشعرون بأن الله قد اختارهم، كانوا يشعرون أنهم أصحاب رسالة عالمية، كانوا متحمسين كما ينبغي، كانوا مؤمنين بالإنتصار وحتمية ذلك، كانوا مؤمنين به حتى لو أدى ذلك إلى قتلهم، كانوا مؤمنين أن ثورتهم ستترك آثارها على الشرق الأوسط والعالم الإسلامي ومن ثم كل العالم وسيتم تحرير الجميع عندها كنا نضحك من هذه الأفكار، لأننا لم نكن نستوعبها، لكنهم اليوم يُذعنون بذلك، عندما احتل الأمريكيون العراق قالوا إنه ثمرة ناضجة جاهزة للإبتلاع، لأنهم كانوا قد تعاملوا مع صدام وظنوا أنهم ذاهبون إلى نزهة لكننا شهدنا المقاومة في بغداد التي تحدث نظام صدام عنها جزافاً إنها ستكون المعركة الفصل، بدأ النظام يفقد المدن واحدة تلو الأخرى وادعى أنه يريد الحرب في بغداد لاحظتم أن المقاومة التي حصلت في أم قصر كانت أكبر من المقاومة في بغداد وبعد سقوط الصنم قالوا إن العراق بات لقمة سائغةً، لكن الأمريكيين واجهوا الإحتجاجات الكبرى في البصرة والنجف وكربلاء والكاظمية وبغداد كانت بعض التظاهرات والإحتجاجات تتعدى الملايين خاصة في بغداد حيث كان المتظاهرون يرددون شعارات الموت لأمريكا ورددوا هتافات تنادي بالحكم الإسلامي وذات يوم قال أحد المُنَظّرين السياسيين الأمريكيين مُعرباً عن تعجبه لقد أزحنا صداماً وفعلنا ماكانت تريد إيران فعله في الحرب مع العراق، لقد فعلنا ذلك بالمجان لإيران، أزحنا صدام لنضع العراق

تحت تصرف ثقافة الإمام والثورة وعلينا أن نقلع عن الحديث عن الديمقراطية في هذا البلد، ألا يُشاهد المغرضون كل هذه الإنتصارات! إنها نتيجة التضحيات التي قام بها المقاتلون في الجبهات حيث كانوا يُقاتلون في النهار ويُضمدون جراحاتهم في المساء ويستعدون لقتال يوم غد وهم فرحون مستبشرون، يُريدون القول إن ثقافة ذلك العهد قد ولّت يحاولون التقليل من عظمة النصر الذي تحقق بفعل الإمام الخميني والثورة ويحاولون استبدال معتقداتنا الثورية بمجموعة من الشعائر المُهدئة والتقليدية غير الضارة يقولون احتفظوا بدينكم ومذهبكم وأمانيكم، ولكن عليكم أن تتخلوا عن أفكاركم حتى نصبح كالأسد بلا أنياب، يريدون تحويل الثورة إلى أسدٍ بلا أنياب، ثورة لا تستطيع الدفاع عن أهدافها وتطلعاتها وستكون الثورة بعد اليوم مكتفية بطرح المباحث وإلقاء المحاضرات، تتم الدعوة للجلوس سويةً والحديث من قبلنا، عندها نسمع جواباً يقول لا كلام لي معكم، أريد احتلال بلدكم، بعدها قد نجلس ونتحدث ونرى أن البعض يكرر لنجلس ونتحاور معهم، يريد الإستكبار أن يُغير القيم إلى عادةٍ وتسلية، يريد استبدال صورة الثورة الناشطة والمتوقدة إلى صورة ثورة مضطربة والقول إن موت الثورات أمرٌ حتمي وإن كل الثورات تصاب بعد حينٍ بالإنجماد ومن ثم إطلاق بعض العبارات السفيهة للثورة في الداخل للجيل الجديد وعلى مستوى العالم وسائر الشعوب والقول إن الذين أقاموا الثورة ودافعوا في الحرب لم يستخدموا عقولهم وقد واجهوا قوى السلطة في العالم، إننا اليوم نريد تحكيم العقل وجعل الأفكار وطنية كي يقف الجميع على عبثية المقاومة وعدم فائدتها، يريدون استبدال أعظم ثورةٍ معاصرة إلى ذكرى مميتة، كلما جاء الحديث عن الجبهة وقوات التعبئة وأمثالها يتصور البعض أنهم يتحدثون عن الأموات فهم يقولون لقد كانت تضحيات جمّة رحمهم الله يا له من زمان إنتهى كل شيء، مثلما يقول المعاصرون والأمر يبدو استذكاراً للذكريات المُرة أو النظرة المرّة إلى تاريخ حلو جميل والقول يا له من زمان لقد انتهى ورحل ولا يمكن اليوم القيام بمثل تلك الأعمال لقد تغييرنا وأصبحنا ملوثين لا دين لنا ويبدو أن الجيل الصاعد يعشق الولايات المتحدة فقد أعلنت إذاعة صوت أمريكا في مقابلة مع أحد الأمريكيين حيث قال لا ينبغي الإنفعال كثيراً نحن لا مشكلة لنا مع الشعب الإيراني ولا ينبغي أن نحاربهم مثلما فعلنا مع العراق يكفي أن نضعف أيدلوجية وسنفعل ذلك والأرضية مواتية

الآن ولو رجعنا إلى الأرقام المعلنة رسمياً لشاهدنا والكلام للأمريكي فإن ٧٠ بالمئة من أبناء الشعب الإيراني أوقدوا الشموع في شوارع إيران بعد مهاجمة برجي مركز التجارة في الولايات المتحدة، ٧٠ بالمئة من أبناء الشعب الإيراني، حسناً إن كانت الإحصائية التي أعلنها هذا الامريكي صحيحةً فهذا يعني أن الشعب الإيراني يعارض الإرهاب، إن الثورة الإسلامية تعارض التفجيرات والإغتيالات وقتل الناس الأبرياء ولو حصلت مثل هذه العمليات في خارج إيران أيام حياة الإمام الخميني لا يمكن مباركتها من قبل إيران حتى إن البعض اقترح على الإمام إبان حكم الشاه القيام بتفجير مقرات السافاك واحتمال سقوط عدد من الأبرياء المارة، لكنه رفض لأن ثقافة الإمام والثورة لم تكن قائمة على هذا النمط من العمل السياسي ولو أرادت الثورة أن تتبع هذا النهج لكانت الخسائر في صفوف الإستكبار كبيرة فكان يكفي إعداد عدة آلاف من الإستشهاديين وهم موجودون إلى يومنا هذا وإرسالهم إلى أصقاع الأرض المختلفة إنها موجودة في كل أنحاء الدنيا، فلو كان قرار الثورة استخدام هذه الطريقة في العمل السياسي لكنا نشهد كل يوم عشرة إلى عشرين انفجار، ثورتنا لا تؤمن بهذه الطريقة والمنهجية في العمل السياسي، ثورتنا وإمامنا الراحل رضوان الله تعالى عليه أكدَّ منذ اليوم الأول على ضرورة التحدث إلى جماهير الأمة ينبغي توعيتهم وإيقاظهم ليُقرروا بأنفسهم ولكن نحن أهل الدفاع والحرب إذا ما هوجمنا واعتدي علينا نحن لن نكتفي بالحوار والإستدلال عندما تكون مصالحنا في خطر نحمل السلاح ونقتل ما نقتل، هؤلاء يريدون القول إن كل من يدافع ويحارب ويجاهد إنه إرهابي وداعية عنف.

وفي ختام هذه المحاضرة أنوي التطرق إلى روايتين للإمام علي عليه السلام وهي تناسب هذا المقام والظروف التي نمر بها وسيتبين أن هذا النوع من النقاش كان موجوداً منذ القدم ومنذ زمان الإمام فقد كان البعض يحاول زرع اليأس في نفوس المجاهدين والندم على أعمالهم السابقة والقول لقد كنتم على خطأ وكنتم متطرفين في أفكاركم وإن ما قمنا به لم يكن صحيحاً، فقد كان الإمام علي عليه السلام مشاركاً في جميع الحروب والغزوات وقد أجهز على أعداء الإسلام ومحاربي الرسول وأوقع بهم شر وقيعة، وعندما استشهد الإمام علي عليه السلام أكد الإمام الحسن عليه السلام عندما جاء ليؤمَّ الصلاة بعد الإمام علي إن السيف الذي نزل على رأس الإمام وهو في محراب الصلاة كان انتقاماً لما فعله الإمام في بدر وأحد حيث قتل الكثير من أشياخ العرب من

المشركين، إننا نعلم من الذي يقف وراء ذلك، وعندما توفي الإمام في ليلة الحادي والعشرين من رمضان المبارك أمّ الإمام الحسن عليه السلام صلاة الصبح في اليوم التالي وعدد سجايا الإمام علي وصفاته وقال: «أيها الناس في هذه الليلة نزل القرآن، وفي هذه الليلة رفع عيسى بن مريم عليه السلام وفي هذه الليلة قتل يوشع بن نون، وفي هذه الليلة قتل أبي أمير المؤمنين عليه السلام والله لا يسبق أبي أحد كان قبله من الأوصياء إلى الجنة، ولا من يكون بعده وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ليبعثه في السرية فيقاتل جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يجمعها ليشترى به خادما لأهله»[1]، عندها يتساءل الإمام هل رأيتم خليفة يموت ولم يورث مالاً ولا ذهباً؟ وعندما ولّي الإمام علي عليه السلام الخلافة جاء الناس لبيعته فقال له بعض أصدقاءه ومحبيه يا علي لك الكثير من الأعداء، فقد قتلت الكثير من رجال العرب ومن القبائل والشخصيات البارزة إنهم يضمرون لك العداء لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء في حياة النبي صلى الله عليه وآله وأضمروا الحقد في قلوبهم.

فما كان من الإمام إلا أن يقول إن ما فعله كان من أجل الحق والعدل وإنه لم يكن على عداءٍ شخصي مع أحد وأن حروبنا كانت عقائديةً وستكون بعد اليوم كذلك وليس لي مجاملة مع أحد كان الخلاف مبدئياً حاربنا من أجل الحق، بعدها قال عليه السلام: لو أرادوا القصاص فليأخذوه من الحق الذي كسر ظهورهم وإنني لست مديناً باعتذارٍ لأحد.

هكذا واجه أمير المؤمنين وضعاً جديداً بعد أكثر من عشرين عاماً على وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فقد جاء الجيل الثاني والثالث وقد احتل بعض الذين حاربهم الرسول هم وأبنائهم وأبعدهم مواقع في السلطة كان البعض يقول للإمام إن هؤلاء الرجال المعارضين لك شخصيات معروفة، فمعاوية من كُتّاب الوحي فكيف يمكن أن يكون غير مسلم. فرد الإمام عليهم بالقول: إن أعدائي والمعارضين لي هم من الكفار من أمثال معاوية. وكان يردد معاوية: أن علي وأولاده اعتادوا على إطلاق صفة الكافر عليّ إنني مسلم كيف أصبحت كافراً، فإن أسلمت يا علي قد أسلمنا أيضاً فإن كنت من صحابة النبي فإننا كذلك لكن الفرق يكمن في أنك أول القوم إسلاماً ونحن أسلمنا بعد عشرين ونيّف من الأعوام، إن كنت يا علي من أقارب الرسول وصهره فإن الرسول صهرنا ماذا تقول بعد ذلك؟ ياعلي

١ . روضة الواعظين، ص ١٣٨.

لك رؤية وفهم عن الإسلام ولنا فهم آخر، لنرى مالذي يخشاه الجمهور؟ حيث كان معاوية يشتري ذمم الناس لكن الإمام في الطرف الآخر لا يبرم الصفقات مع أحد لذلك خلت الساحة من حوله، ويؤكد الإمام انه فكر ملياً في العودة إلى الحرب مع معاوية وظل يُفكر من الليل حتى الصباح وكان الإمام في طور الإعداد لجيشٍ من مئة ألف مقاتل بعد حرب صفين ليتوجه إلى معاوية ويقضي عليه، لكن الأجل لم يمهله واستشهد في محراب الصلاة، فالإمام يؤكد انه وصل إلى نتيجة مؤداها أن يقاتل معاوية حيث كان الأخير مظهراً من مظاهر الكفر ولو أنه كان يتظاهر بالإسلام وكل من قاتل الإمام يتم لعنهم اليوم على لساننا لم يكونوا جناةً بالفطرة، فابن ملجم كان من جنود الإمام وحارب معه وكان من حراس الإمام، لكنه في نهاية المطاف أقدم على قتل الإمام، وكذلك الشمر الذي يُلعن على لسان المسلمين كان من قادة جيش الإمام، كان مقاتلاً في صفوف المسلمين حتى إنه أصيب بجروح وكان في صفين من ضباط جيش الإمام علي وقاتل إلى جانب الحسن والحسين لكنه بعد عقدين من الزمن تغير وأصبح في صفوف أعداء الإمام حتى أن القساوة والشقاء دعته لاحتزاز رأس الإمام سلام الله عليه، لم يكن أياً منهم جلاداً أو خائناً منذ البداية، بل كانوا أناساً ذات سجلٍ فاخر لكن عاقبتهم كانت سيئة، كان الإمام يوجه نداءاً للنفير العام لكن الإجابة كانت ضعيفة حتى إن البعض كان يقول لا طاقة لنا بالحرب فكانت العبرة تخنق الإمام، حتى إنه خطب في يومٍ ما وقال«ولقد كنا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ومضيا على اللقم وصبرا على مضض الألم وجدا في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر حتى استقر الاسلام ملقيا جرانه، ومتبوئا أوطانه، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود، ولا أخضر للإيمان عود، وأيم الله لتحتلبنها دما، ولتتبعنها ندما»[1]

وفي موضعٍ آخر يتحدث الإمام عن تقاعس المسلمين في التحرك لنصرة دين الله وعدم الشعور بالأسى ويسأل الإمام لما كل هذا التراجع لما كل هذا التقاعس ويقول لو كان احدكم

---

١ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٥٦.

تعرض للإهانـة لانتفض لكن الامر عندما يخص إشاعة العدل وحقوق النـاس يتقاعس الناس أليست هذه مواثيق الرسول وقد ضيعتموها لم كل هذا الجفاء ألستم من نزلت عليه أوامر الله ألستم من حلق في السماء، لأن الله سبحانه خاطبهم ألم تنزل في حقكم آيات الله ألم تكن أحكام الله تُجرى بأيديكم إلى باقي بني البشر، أما حالكم اليوم فتقهقر و رجع إلى الوراء حتى أعطيتم مواقعكم لمخالفي العدل وأصبحتم مطايا الذل تُساومون وتلتزمون الصمت تمشون إلى مصالهم فرادا وتتبعون كل شبهة وقد غرقتم في شهواتكم وقد ملئت قلوبكم بحب المال والقدرة والثروة، فأقسم بالله لوأن أعداء الله فرقوكم على نجوم السماء ولن يبقى منكم أثرٌ فإن الله ماضٍ في أمره وسينهض بالراية أناسٌ آخرون فإن لم تكونوا أهلاً لذلك استُبدلتم وعليكم التعويض عما فات، ينبغي أن تقوموا بالواجب إعملوا ليوم تحفظ فيه كل الذخائر فإن لم ينفعكم عقلكم اليوم فمتى سينفعكم إحذروا النار الإلهية المحرقة وشراب ذلك اليوم من حميم أريد ان أصلح المجتمع المريض بأيديكم ولكن كيف أفعل ذلك وأنتم الداء[1]، هذه جملٌ نطقها الإمام علي عندما أصبح الحكومة في خطر وكان يدعو الناس للحرب ولا من مجيبٍ إلا نفرٌ قليل بعدها قال الإمام لأهل الكوفة سأدعو الله أن يخلصني منكم ويعوضني بأحسن منكم وأنتم أيضاً ادعو الله أن يُخلصكم مني وأن يرزقكم من تحبونه وتريدونه، قال عليه السلام أيضاً: «اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا مني، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء، أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم:

هنالك لو دعوت أتاك منهم * فوارس مثل أرمية الحميم»[2]

وهكذا استشهد الإمام بعد فترة وجيزة من هذا الدعاء وصعد إلى السماء إلى جوار رسول الله ووقع أهل الكوفة بيد معاوية وأمثال معاوية وعلى من يُردد في يومنا أقوال التراجع والتوقف عن مبادئ الثورة عليه أن يعلم أن مصيره سيكون كمصير الذين خذلوا الإمام علي في صدر الإسلام.

أشكر حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

١ . راجع: نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢١.

٢ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٥.

الانسان بين الجبر والتفويض

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيتها الأخوات العزيزات، أساتذة وطلبة جامعة الزهراء المحترمون، أشكر بادئ ذي بدء دعوتكم لي.

ونحن نعيش عالماً ينظر من زاويتين خاطئتين إلى المرأة، لا بدَّ لنا من طرح زاويةٍ ونظرةٍ ثالثةٍ للمرأة وهو ما نطلق عليه اسم الحل الزينبي.

الأول وهو المعمول به في عالم اليوم وللأسف يكمن في أنَّ كرامة المرأة تقوم على تعريها، وأن تكونَ سلعةً تُعرضُ للآخرين فهُم يتحدثون عن تحرر المرأة وحريتها والكشف عن المرأة تحت مفهوم السفور وتعرية المرأة ووضعها سلعةً أمام الآخرين، وهذه النظرة تحصر قيمة المرأة في جسدها بالجاذبية الجنسية أمام الرجال وعوضاً عن حصر كرامة المرأة في شخصيتها وعلمها ومعارفها وكرامتها الإنسانية وقيمها العقلانية والمعنوية نراهم يقولون إنَّ قيمة المرأة تكمن في تعرّيها وفي بدنها وجَذَبَتِها الجنسية وعندما نتحدث عن كرامة المرأة وحقوقها ولا أريد القول كُلَّ حقوق المرأة ولكن جُملةٌ من حقوقها تتمّ الإشارة إلى تعرّيها، وهذه رؤيةٌ خاطئةٌ جداً وهي تحقيرٌ للمرأة كانت ولا تزالُ موجودة.

وهناكَ رؤيةٌ ثانية تقف على النقيض حيثُ تعتقدُ أنَّ كرامة المرأة تكمنُ في انزوائها وانطوائها عن ميادين المجتمع والسياسة والعلم والثقافة، أي أنَّ أصحاب هذا الرأي يقولون أنهُ ينبغي للمرأة وبُغية حفظ كرامتها إخراجها من الساحة.

وقبلَ الخوضَ في موضوع محاضرة اليوم ينبغي أن نوضِّحَ أولاً بعض الأمور منها:

أولاً: إنَّ للمرأة والرجل جوهرةٌ مُشتركة ولهما كيانٌ إنسانيٌّ وإلهيٌّ واحد وهما مُتشابهان في الحد الأكبر وهناكَ اختلاف في الحد الأصغر، أما التشابه الكبير في الحد الأكبر اشتراكهما في الجوهرة الإنسانية والشرف والكرامة الإنسانية وهما متشابهان في الحد الأكبر من الخصال الجسمية والنفسية والذهنية.

وهناكَ اختلاف في الحد الأدنى من الناحية الجسمية والأعصاب والاحتياجات والرغبات والأهلية ونوع اللَّذَّة ونوع الحساسية.

ثانياً: إنَّ الاختلاف الحقيقيَّ الموجود بينَ المرأة والرجل وهو يشمل القِوى الجسمية والنفسية ففي بعض الأحيان نَجِدُ عندَ نسبةً أكبرَ عندَ الرجال وفي بعض الأحيان عندَ المرأة، أي أنَّ الحاجة بين الرجل والمرأة مُتبادلة فتارةً نرى أنَّ قوةً من القِوى تكون عند المرأة أقوى والعكسُ صحيح، سواءً كانت المرأة في قالب الأم والأخت أو الزوجة.

وفي إحدى المُحاضرات قلتُ لو انعدم وجود المرأة في المجتمع لكانت الأسرةُ فقدت معناها الفيزيائي إضافةً إلى الروحاني والنفسي، وإذا فُقدت المرأة من المُجتمع، فإنَّ الرجال سيكونون مُشردين بِلا مأوى وسيفترِشونَ الأرضَ ويلتحفونَ السماء، وفي الجانب الاخر نرى أنَّ الرجل يكونُ في بعض المواطن قوياً تحتاجهُ المرأة.

لقد أوجدَ الله سبحانهُ وتعالى هذه الاختلافات الحقيقية بين الرجل والمرأة لحكمةٍ كي يجعل الطرفين مُحتاجَين لبعضهما البعض ويؤمِّنون احتياجاتهم من الطرف الآخر.

ثالثاً: إنَّ الاختلاف الواقعي يُصبح في الحد الأدنى كما قلنا وهو يتمثّلُ في الاختلافات الحقيقية في الجسم والنفس والأعصاب، أمّا بالنسبة للمُشتركات فهي تقع في الحد الأكبر والأعلى وربما جازَلنا القول إنَّ التشابه بين الرجل والمرأة يصلُ إلى خمسةٍ وتسعين في المئة، والاختلاف يكمن في خمسة بالمئة الباقية وهو اختلاف حقيقي، لكن ذلك لا يعني الاختلاف المبدئي بينهما فليسَ صحيحاً إن كانَ الرجلُ مفتول العضلات فإنَّ قَدْرَهُ سيكون أعلى من المرأة، لأنَّ القيمة والكرامة للرجل والمرأة تُقاسُ بالتقوى وبالعلم والمعرفة والروحانيات والإنسانية وليسَ بالنوع ذكراً أم أنثى، هي ليست بالطبقة الاجتماعية أو الثروة أو القدرة أو القومية كما هي ليست بالجنس أيضاً.

رابعاً: إنَّ التشابه في حده الأعلى والاختلاف في حده الأدنى حيثُ نشهدُ قوة الرجل في

بعض الأمور أكبر من المرأة وفي أخرى العكس صحيح، وكما قلنا إنَّ هذا لا يُشكل أفضليةً ولا قيمةً لجنسٍ على أخر لكنَّ هناكَ اختلافات حقوقية، فالشبه في حده الأعلى يوجِبُ توافق الأحكام في حدها الأعلى من حقوقٍ ومسؤولياتٍ أخلاقيةٍ و شرعية وقانونية، أما الاختلاف الجزئي في الجسم والنفس والذهن بين الرجل والمرآة لن يقود إلى ترجيح أحدهما على الآخر اللهم إلا إيجاد اختلافات في بعض الحقوق والمسؤوليات.

خامساً: الاختلاف الحقوقي لا يؤدي إلى اختلاف مبدئي، على سبيل المثال في باب النفقة، يبدو الظاهر أنهُ امتياز كامل للمرأة، لأنها غير مسؤولةٍ اقتصادياً، لكن لها حقوقاً اقتصاديةً على عكس الرجل، الرجل الذي يُعدُّ مسؤولاً اقتصادياً عن الأسرة وهذا في صالح المرأة على الظاهر.

ورُبَّ قائلٍ من الرجال يقول: لماذا هذا التمييز؟ لكننا نرى في بعض المَوَاطن أنَّ الرجل يحصل على سهمٍ أكبرَ في مسألة الإرث، وهذا يعود إلى الاختلاف الحقوقي والمسؤولياتِ الموّزعة بين الرجل والمرأة وهذا أيضاً لا يُعدُّ اختلافا في القيم والمبادئ، فلو كانت المرأة حصلت على امتياز هناكَ فقدته في هذا المكان ولو حصل أنَّ الرجل أو المرأة حصلا على امتياز فهذا الأمر لا يُقدم أحداً على أحدٍ ولا يؤخِّرهُ، إذاً ما هو المقصود وما سبب ذلك؟

إنَّ سبب الاختلاف الحقوقي هو الاختلاف الحقيقي، فإن كان الاستعداد الجسمي والنفسي في المرأة أكثر من الرجل أو العكس فإنَّ ذلك الاختلاف ينعكس على الاختلاف في الحقوق، ونُكرِّرُ أنَّ هذا الاختلاف لا يحطُّ من قيمةِ جنسٍ أمام الآخر، بل إنَّ المعنى في الاختلاف يعود إلى الاستعدادات والرغبات والاحتياجات وعليه فإنَّ الاختلاف في المسؤوليات ينبغي أن ينحصر في هذا المقام ولو لم يكن الاختلاف موجوداً، فإنَّ التعادل كانَ سيختل وسيعود الضرر إلى المرأة والرجل على حدٍّ سواء وسينجرُّ إلى انهيار كل شيء ومنها الأسرة والإنسانية والراحة لِكلا الطرفين، فلو كانت مسؤوليات وحقوق المرأة والرجل الدين يختلفان في الحد الأدنى مُتشابهة فإنَّ هذا الأمرَ سينعكس بالضرر على الطرفين ولم نكن لنشهد تشكيل الأسرة، ولم يكن الرجل أو المرأة يتحمَّلان بعضهما البعض فالخصوصيات الجسمية للطرفين مُختلفة من الأعصاب والنفس إلى التحمُّل، فهناكَ إمكاناتٌ تتوفرُ عند أحد الطرفين لا تتوفر عند الآخر وعليه ينبغي أن تكون المسؤوليات مُختلفةً نوعاً ما.

سادساً: لا ينبغي للرجل والمرأة أن يُسيئا الاستفادة من الاختلافات الحقيقية الموجودة عندهما، ولا يصحُ أن تستغل المرأة قدرة تأثيرها على الرجل لكونها أنثى وكذلك لا ينبغي للرجل أن يستغل قوة عضلاته ضدَّ المرأة، بل عليهما أن يُكمِّلا نقائص بعضهما البعض، المرأة والرجل في الثقافة الإسلامية شركاء ورفاق وليسا مُتنافِسَين، فلو جرت المُقارنة بين المرأة والرجل على هذا الأساس ستؤدي إلى خصامٍ بينَ الطرفين وهذا موجودٌ في الثقافة الغربية، ولذلك نرى أنهُ كلما ظهرت حاجةٌ أو اقتضت الضرورة جرت المقارنة بين الرجل والمرأة هناك، في حين أنَّ المُقارنة ليست صحيحة على الدوام إنَّ أساس العلاقة بين الرجل والمرأة في الثقافة الإسلامية تقوم على أساس المحبة والزمالة والمساعدة لا المقارنة والعداء وتعيير الآخر بما عنده من عدمه، فهما وحدةٌ واحدة ولا ينبغي الفصل في التعريف بين الرجل أو المرأة، ينبغي تعريفهما معاً وهذه نكتة مهمة ينبغي أصلاً إصلاح زاوية الرؤية، فلو نظرنا من تلك الزاوية إلى المُقارنة فإنَّ كُلَّ شيءٍ سيكون سيئ، ولو نظرتَ من زاوية الجمع بين الرجل والمرأة فإنَّ كُلَّ الأمور ستكون على ما يُرام، فلو كانَ نصيب الرجل من الإرث أكبر فمردُّ ذلك يعود إلى أنَّ المسؤولية الاقتصادية للبيت والمرأة هي بعهدة الرجل ولو كانت النظرة إلى الرجل أو إلى المرأة على النظرية الغربية إنهما مخلوقَين لا فرق بينهما فإنَّ كُل شيء سيتأزّم ومع ذلك فإنَّ الحياة لا تُدارُ بالحقوق والقانون ينبغي أن يكون هناكَ جانبٌ للأخلاق والمحبة ولا يمكن إدارة الأُسَرِ بالقانون وحسب، فالأسرة التي يحكمها القانون الصرف ليست أسرةً، بل هي سجنٌ وستكون كالحرب الباردة في ظل حياةٍ زوجيةٍ متواصلة، حياةٌ في الظاهر وخصومةٌ في الباطن.

سابعاً وأخيراً: لا ينبغي استغلال الاختلاف الحقوقي ضد الطرف المُقابل في الأسرة مثلما هو الحال في الاختلافات الحقيقية، فلو كانت المرأة غير مسؤولة اقتصاديا فلا ينبغي لها استغلال الموقف وتحميل الرجل ولو كانَ الأخير يتمتع بحقوقٍ مدنيةٍ أكبر فلا ينبغي له أن يستغل ذلك ضدَّ المرأة ولو أساءَ أحدُ الطرفين فإنَّ على المحكمة والقانون أن يكون الفيصل ويهُبَّا لنصرة المظلوم والأخذ بِحَقِّه.

لاحظوا كم هو الفارق في الرؤيا إلى مسألة المرأة والأسرة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، في هذه المحاضرة نريد الحديث عن المرأة ودورها بعيداً عن ارتباط الموضوع

بالرجل، المرأة وبغض النظر عن كونها أُمّاً أو زوجةً أو أختاً فهي إنسانٌ مستقل له شرفه الذاتي وكرامة إنسانية، والمرأة مُجردةٌ دونَ الأسرة يمكن أن تتبع أحدَ طرقٍ ثلاث:

أولاً: إن أرادت حريةً أو منزلةً اجتماعية على النمط الغربي فما عليها إلا وضع الشرف والكرامة جانباً، أي أنَّ الحل يقوم على أساس السفور والعُري.

ثانياً: إن أرادت القدسية والكرامة والطهارة فما عليها إلا ترك المنزلة الاجتماعية والعلمية والسياسية والثقافية والمشاركة الاجتماعية.

ثالثاً: هناكَ الحل الزينبي الذي يحفظ كرامة المرأة وشرفها إلى جانب حضورها الفاعل وسط المُعترك وكذلك إلى جانب كونها محور الأسرة وحِفظها، فإن انعدمت الأسرة فإنَّ كرامة المرأة ستكون في خطر، وإن تمَّ تعريف المرأة خارج إطار الأسرة فإنَّ أمْنَ وحُرمة وكرامة المرأة ستكون في خطرٍ أيضا.

إنَّ الحل الزينبي يعني أنَّ بإمكان المرأة أن تحضر وسط المُعترك، مُعترك الحياة ليس وسط الأسرة وحسب، بل وسط المُعترك السياسي والعلمي والثقافي في المُجتمع كما كانَ الموقف مع زينب سلام الله عليها عندما وقفت إلى جانب المحافظة على الشرف والكرامة والطهارة.

فإنَّ بإمكان المرأة أن تكون حافظاً وحارساً للشرف البشري على طَوال التاريخ وحتى يومنا هذا نحنُ نخوضُ في ذِكرِ زينب ما تزال العقيلة الهاشمية مُلهمةً للثوار والمطالبين بالعدل وكبار المجاهدين في التاريخ وهي المُلهم الأكبر للنساء والرجال العظماء.

أريد من خلال هذه المُحاضرة أن أُبيِّنَ مركز المرأة في الجهاد الديني والإلتزام السياسي والتحرُّك الاجتماعي في قيادةٍ واحدةٍ من أكثر الحركات الإصلاحية الدينية دمويةً على مر التاريخ، حيثُ ما تزال هذه الملحمة مُلهمةً وستكون كذلك، وكيفَ حَفَظت كرامتها وطهارتها وكيفَ صمدت سلام الله عليها في المُجتمع ولم تَفُرَّ من المُعترك ولم تَحُطَّ من شرفها وطُهرها الأنثوي، لقد خَطَبت السيدة زينب سلام الله عليها في الكوفة إذاءَ الناس ومن ثَمَّ إذاءَ ابن زياد، زينب الأسيرة المُكبَّلة، زينب بعد الحسين سلام الله عليه، زينب التي رأت كُلَّ هؤلاء الشهداء، زينب بعدَ المعركة، لاحظوا كيف خطبت عقيلة الهاشميين بعد كُل هذه المصائب فحوَّلت الهزيمة إلى انتصار بشكلٍ أو بآخر، وكيفَ وجَّهت أصابع الاتهام إلى نظام الجَور والفساد من آل بني أمية، جيءَ بالسبايا من كربلاء إلى الكوفة وأهل الكوفة أناسٌ

مؤمنون متدينون ومُحبّونَ لأهل البيت عليهم السلام يُكِنّونَ الاحترام لزينب وللإمام علي عليه السلام، وقد كتبوا الرسائل للإمام الحسين يطلبون منه القدوم وتخليصهم من حكم بني أمية، ولم يكونوا أناساً طيبين، لأنهم لم يقفوا إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام وهناكَ تُخاطبهم العقيلة زينب بالقول بعدَ أن أومئت إلى الناس فسكنت الأنفاس والأجراس واندفعت بخطابها مع طمأنينة نفسٍ وثبات جأشٍ وشجاعة حيدريةٍ:

الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار أمّا بعدُ يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر أتبكونَ فلا رَقَئَتْ الدمعة ولا هدأت الرَّنَّة، إنما مَثَلُكُم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثًا، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ألا وهل فيكم إلا الصَلِفُ والنَطِف والصدر الشَنف ومَلِقُ الإيماء وغمز الأعداء أو كمرعى على دمنةٍ أو كفضةٍ على ملحودة...[١]

حتى آخر خطبتها عليها السلام وفي مجلس ابن زيادٍ يظهر من زينب سلام الله عليها موقفٌ بطوليٌّ آخر رغم أنها مُكبّلةٌ وأسيرة وهي تقف بين يدي جلادها الذي أراقَ دماء اهل البيت عليهم السلام وهو الذي يسكت أمامه كل الناس خشية بطشه، فيطلق ابن زيادٍ الذي اعتبر نفسهُ منتصراً في الحرب لِلسانه العنان، لكن عقيلة بني هاشم ترد عليه الصاع صاعين.

قال الرواة لمّا أدخلت السبايا إلى قصر ابن زياد دخلت زينب سلام الله عليها في جملتهم متنكرةً وعليها أرذل ثيابها، فمضت حتى جلست وحفّت بها إماؤها فقال ابن زياد من هذه التي انحازت ناحيةً ومعها نسائُها؟

فلم تُجبه العقيلة، فأعادَ القول ثانية وثالثة يسأل عنها، فقالت له بعضُ إماؤها إنها زينب بنت فاطمة بنت رسول الله، فأقبلَ عليها ابن زياد وقال لها:

الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذبَ أُحدوثتكُم.

فردت العقيلة الهاشمية بالقول:

الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمدٍ صلى الله عليه وآله وطهّرنا من الرجس تطهيرا، وإنما يُفتضحُ الفاسقُ ويُكذَبُ الفاجر وهو غيرُنا والحمد لله.

فقال ابن زياد:

---

١. الاحتجاج، ج ٢، ص ٣٠.

كيفَ رأيتي فِعلَ الله بأهل بيتك؟

فقالت سلام الله عليها: ما رأيتُ إلا جميلا، هؤلاء قومٌ كَتَبَ الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجونَ إليه وتختصمون عنده فانظر لمن الفلجُ يومئذٍ، ثكلتك أمك يا بنَ مرجانة[1].

لاحظوا هنا أنَّ ذكاءَ جواب العقيلة الهاشمية في التفسير الصحيح لمسألة التقدير الإلهي حيثُ تضعُ من خلاله حيزاً لمسؤولية الإنسان وحرية خياره، ولم تفسر التقدير والمسؤولية الإلهية على أنها حالةً من الجبر لم تترك المجال متاحاً لتساوي الجلاد والضحية.

إنهُ نوعان من الرؤيا الموجودة على مر التاريخ نظريتان مغلوطتان لعلاقة الرب بالإنسان عن دور الله والمشيئة والتقدير الإلهي ودور الإنسان والحرية والمسؤولية واختيار الإنسان وكِلا الأمرين مغلوط.

الأول يتحدث عن التقدير والجبر الإلهي وهو بذلك يقمع حرية الإنسان وينفي خيار الإنسان ويسلب الإنسان مسؤولية عمله وهذا رأيٌ يلقي بمسؤولية كل أنواع الظلم والفساد إلى الله وهو في ظاهره تقديرٌ ويريد القول إنَّ الله مشرفٌ على الأمور وإنَّ ما يحصل هو مشيئة إلهية لكنه في ذات المقام يريد وضع العدل الإلهي تحت المجهر حيث ينكر هذا الرأي حرية وخيار الإنسان وكذلك شعار العدل الاجتماعي والثوري، وعندها تكون مشروعية النظرية محكومة وهذه بالتحديد الأفكار التي أرادَ ابن مرجانة ومعاوية وآخرون الترويج لها في المجتمع وذلك بغية وضع وجاهةٍ وغطاءٍ دينيٍ وإلهيٍ لكل أنواع الظلم والفواصل الطبقية والجرائم والقتل والأعمال القذرة.

وهناك رأيٌ وفكرٌ آخر إزاء الفكر الأول حيث يريد الدفاع عن استقلال الإنسان وعن حرية اختياره وحق انتخابه ويصل بحرية خيار الإنسان إلى الحد الديكتاتوري ويصبح الإنسان مُطلق العنان لاختيار ما يشاء، أي إلى حد ديكتاتورية الإنسان ضدَّ أخيه الإنسان وضدَّ الرب وهذا النوع من الفكر يريد الترويج لاختيار الإنسان ونفي القدرة الإلهية وأنَّ العالم تحت سيطرته.

---

١ . راجع: الارشاد للشيخ المفيد، ج ٢، ص ١١٥.

لاحظوا أنَّ الفكر والرأي الأول يُحاول القول إنَّ كُلَّ شيءٍ هو مشيئةٌ إلهية ويسلب مسؤولية الإنسان وحقهُ في الاختيار وهنا نرى ألا فرقَ بينَ الإنسان الصالح من الطالح فإن كانَ كُلُّ شيءٍ بمشيئة الله فما هو دور الإنسان إذاً؟

ولما أصبحت هناكَ جنةٌ ونار ولماذا بُعثَ الأنبياء؟

ولو مضينا في هذا الفكر فإننا سنتعدّى على حكمة الخالق وهذا ما لا يصحُّ على الإطلاق وفي جانبٍ آخر نرى أنَّ البعض يُريدُ تصحيح حكمة الله ورحمته وعدله، يقوم بحذف الله أي يجعل الإنسانَ مختاراً إلى حد الديكتاتورية ويجعله مستقلاً عن الله وهو ذات المسار الذي أرادَ المعتزلة الترويج له.

أمّا الرأي الأول فكان للأشاعرة، وهكذا فقد دافع المعتزلة عن حرية اختيار الإنسان بطريقةٍ يحذف من خلالها قدرة ومشيئة الرب، حيث يُقدِّم على تصغير الرب وإضعافه ووضعه مُقابل الإنسانِ ومنافساً له، ويرونَ أنَّ العالم والإنسان هما خارج السيطرة الإلهية والمشيئة الإلهية وإن جازَلنا التعبيرُ إرسال الرب في إجازة وهو ذات الفكر في إطار الكلام الذي يُروِّجُ لهُ أنَّ الرب صانع الساعة، نتحدث في المباحث الكلامية في الغرب، يقولونَ إنَّ الربَ صنع الساعة وأعدها ثم ذهبَ إلى حال سبيله أو بالأحرى نام، وأنَّ العالم ليسَ تحتَ سيطرة الرب حيثُ يردُّ القرآن الكريم على هذا النمط من الفكر بالقول في آية الكرسي: <لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ>، أي أنَّ الربَ يُشرفُ على كُلِّ شيء، وفي ذات الوقت فإنَّ الإنسان مسؤولٌ هو مختار وحُرٌّ ويتخذ القرارات لنفسه، هذا هو الطريق الثالث، الطريق الزينبي حيثُ تردُّ العقيلة الهاشمية على ابن زياد بأننا نرفض الجبرية التي يُروِّجُ لها بني أمية، ونعارض طريقة التقدير الإلهي الذي تُروِّجون له، وكذلك فكرة الإنسان المستقل عن الله والديكتاتور الذي يحاول فرض رؤاهُ على أخيه الإنسان وحتى على الرب، وهنا تدافع زينب عليها السلام عن حرية الإنسان وحقه في الانتخاب ومسؤوليته في الانتخاب دون أن يكون خارج إطار السيطرة الإلهية وأنَّ الإنسان المختار المسؤول لا يتقاطع مع المسؤوليات الإلهية.

وبالعودة إلى ابن زياد فإنه حاول استغلال هذه الآراء المنحرفة ليقول إنَّ ما حصل لآل الرسول كانت مشيئةً إلهية، ليبعد عن نفسه الجريمة، لكن العقيلة الهاشمية تردُّ على ابن زيادٍ بما يليقُ به، حيث حاول الاستهزاء بالسبايا وأهل بيت النبوة، لقد حاول ابن زيادٍ

القول إنَّ فعلتهُ مشروعة وهذا تحديداً من خلال قراءة الدين في خدمة الحاكم والدولة حيثُ أصبح الدينُ آلةً بيد الحكومة اليزيدية المستبدة، وعلى العكس نرى أنَّ زينب عليها السلام تردُّ بأن تكونَ الدولة والحاكم والسياسة أداةً بيد القيم والمبادئ الدينية، ولا ينبغي أن يكون الدين ألعوبة بيد السلطة وينبغي أن تكون السلطة في خدمة الدين.

لقد حاول ابن زياد أن ينفي عن نفسه الجريمة أولا والقول إنَّ الانتصار في الميدان دليل حقَّانية الموقف اليزيدي ضدَّ الحسين عليه السلام، لأنه لو لم يكن ذلك برضا من الله لم يكن ابن زيادٍ قد انتصر في المعركة وهكذا فإننا على حقٍّ بحسب ابن زياد.

وتردُّ زينب أنَّ ما حصل كانت جريمة وأنَّ هذه الدماءَ لن تذهب هدراً وأنَّ الجريمة لن تقع دون جانٍ وهو شخصك يا ابن زياد.

ربما لاحظتم الكثير يتحدَّثونَ عن الظلم، لكنهم لا يُشيرونَ أبداً بأصابع الاتهام إلى الظالم، يُثرثرونَ أنَّ الظلم سيئ وهو طبقا لأقوال المُتحكمين والفلاسفة جزءٌ من المستقلات العقلية، فلا داعي لأن تقول ذلكَ أو أن يقول الدين ذلك، فالظلم عملٌ سيئ يُقرُّ بذلك القاصي به والداني، المهم أن نمسك بالجاني والظالم ونُشيرُ إليه ونقف بوجهه وهذا ما فعلته زينب عليها السلام.

ونرى العقيلة تقول في جوابها على ابن زياد:

ما رأيتُ إلَّا جميلا، ولا يصحُّ أن تنسُبَ جريمَتُك إلى الله سبحانه وتعالى، المهم أنَّ الشهادة والسبيَ ليست هزيمة وليسَ قُبحاً ومزلَّة إنها عين الجمال المُطلق، وعندما تكون الهزيمة في سبيل الله فهي ليست قبيحةً بل جميلة وإننا إذ نشكر الله على كل المصائب التي لحقت بنا في كربلاء وإنها قمَّةٌ في الجمال.

تقول عقيلة بني هاشم ذلك وهي الأسيرة المُكبَّلة، تقف أمام الجلاد الذي يُريدُ أن يسمع منها الذِلَّةَ والمسكنة والاعتذار والالتماس والعفو والرحمة، لا تظنُّوا يا ابن زياد أنَّ التقدير كانَ قد استشهد رجالنا، بل هو من فِعل جريمةٍ ارتكبتموها أنتم، فالشهادة كانت مُقدَّرةً لهم وهي ذاتُ قيمة وأنتَ مسؤولٌ عن عملك الذي كانَ مُقدَّراً من قِبَل الرب والله مُشرفٌ على الأمر وبيده العالم حتى في لحظة قتلكم الحسين عليه السلام، لأنَّ البعض يقول أينَ كانَ الله عندما قُتل الحسين عليه السلام؟ ولماذا لم يفعل شيءً؟

نعم إنَّ الله موجود وحاضر في كُلِّ صغيرةٍ وكبيرة وهو يشهدُ كُلَّ شيء، لكننا لا نستطيعُ أن نُملي على الله ماذا يفعل علينا أن نهتمَ بأمورنا وبرامجنا وأنَّ الحكمة الإلهية واسعة وفيها يستشهد الحسين والله يشهد ذلك، ويُقتل علي الأصغر حتى أنَّ الله رأى وسمعَ حديث الحسين عليه السلام مع القوم عندما طلبَ الماءَ لطفله الرضيع وما تلى ذلك من ذبحه وهو على يد والده، وفيما رفعَ الحسين الرضيع إلى السماء وقال:

اللهم إنَّ كُلَّ ما جرى جميلٌ لأنه في عينك ومن أجلك

وهكذا تقول زينب لابن زياد.

لقد كانَ هؤلاء شهداءً من الأزل، لقد قدَّرَ الله أن تكونَ وفاتهم بطريقة الشهادة في أي مسيرٍ وأي وقتٍ وحتى مكان ذلك، وقد تقبَّلَ هؤلاء الحكم الإلهي بكُلِّ وعيٍ وعشق وتُخاطب ابن زياد:

عَجِبْتُ من فَرَحِكَ بِقَتلِنا أيُّها البائس، إنهُ ليسَ فرحُك بل فرحنا نحن، نحن أصحاب الفرح، لأننا عملنا بالواجب وسيضعك الله عما قريب وجهاً لوجهٍ مع هؤلاء الشرفاء وهذا هو الحكم اللاحق لله سبحانه وتعالى.

ولمَّا عَجِزَ ابنُ زيادٍ عن إجابة زينب عليها السلام لقوة منطقها وتأثيرها في الحاضرين قال:

هذه سجاعةٌ ولَعُمري لقد كانَ أبوها شاعراً.

فقالت: يا ابن زياد ما للمرأة والسجاعة وإنَّ لي عن السجاعة لَشُغلاً[1].

ومعلومٌ أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام كانوا يتحدَّثونَ العربية بأجمل العبارات وأكثرها بلاغةً.

لقد أرادت زينب عليها السلام القول إنَّ عليهم تكليفٌ دنيوي لا هدف دنيوي، وعندهم تكليفٌ سياسي لكنهم ليسوا سياسيين بالمعنى الحديث، أي أنهم لا يُنشِدونَ القدرة بأي ثمنٍ كان، وأنَّ دخولهم يأتي بغية النهوض بالحقيقة والأخلاق والمعنويات وإنقاذ البشر والعدل لسنا طُلاب دنيا ولكن لنا مسؤوليةٌ ينبغي أداءُها وأنَّ معيار الهزيمة والنصر عندنا لا يعني البتة أنَّ القاتل هو المُنتصر دوماً، وأنَّ المقتول هو المُنهزم.

---

١ . راجع: الارشاد للشيخ المفيد، ج ٢، ص ١١٦.

ربما صدقَ هذا الكلامُ في عالم الحيوان لكن الأمر في عالم الإنسان مختلف، لقد أرادت العقيلة الهاشمية أن تقول إنهم كانوا واثقين مما سيحصل في كربلاء ومن قَتَلَهُم على يد الأشقياء، حتى أنَّ الأمركانَ واضحاً للإمام علي عليه السلام حيثُ كان يُصلي في المسجد وقد جاءهُ نبأ ولادت زينب فأخبرهُ أحدهم لقد رزقَك الله ببنتٍ أسماها الرسول زينب وهو بمعنى زينة الأب، فابْتَسَمَ الإمام هُنيئةً وسكتَ وردَّدَ مع نفسه كربلاء كربلاء[١].

وقد حصلت واقعة الطف بعدَ نصف قرنٍ من الزمان من ولادة زينب عليها السلام، وعندما جاءَ ابنُ عمها يطلب يدها اشترطت عليه أن يسمح لها بالتوجه مع أخيها في سفر مصيريٍّ وتاريخي، لأنَّ عبدالله لم يأتي إلى كربلاء رغم أنَّ ولديه رافقا أُمَّهُما واستشهدا دونَ الحسين عليه السلام.

أريد التأكيد هنا أنَّ أهل البيت عليهم السلام كانوا على علمٍ كاملٍ بالقضية، وقد أخبرهم الرسول صلى الله عليه وآله بذلك، حتى أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كانَ يعلم.

ففي حرب صفين عندما كانَ الإمام عليٌّ عليه السلام يتقدم في الصحراء تجاه موقع الحرب تجاه الشام، فوصل الصحراء فتوقف وترجَّلَ من جواده وأخذَ حفنةً من التراب وشمَّها، بعدها سألَ ما اسمُ هذا المكان؟

فقيل له: نينوى.

فقال عليه السلام: هنا يُقتل الحسين، هذا المكان الذي وُعدنا به.

ومن خلال ذلك يتضح لنا أنَّ زينب عليها السلام كانت تعلم إلى أي مكانٍ تحديداً هي ذاهبة وإلى أي مصيرٍ، وهنا نستذكرُ معنى قول زينب إنَّ ثورة الحسين عليه السلام هي من أجل بلوغ الحد الأعلى من السعادة وبلوغ الحد الادنى من سعادة الآخرين.

لماذا تقول الحد الادنى من سعادة الآخرين يا ترى؟

لأنَّ الآخرين أناسٌ لهم حق الاختيار، ونحن مسؤولون إزاءَ أنفسنا في الحد الأعلى، أمَّا الآخرون فهم مسؤولون عن أنفسهم، أي أننا نُعِدوا الأرضية للناس فمن شاءَ نجى ولا يمكن أخذ الإنسان إلى الجنة سوقاً أو قهراً، ولكن يمكن تبيينُ الطريق أمامهُ ومساعدته.

---

١. راجع: زينب الكبرى، ص ١٦ ـ١٧.

هذا هو منهجنا وعملنا، أرادت العقيلة زينب أن تقول:

إنَّ الحسين لم يكن مُجبراً على العيش في مُجتمعٍ يصنعهُ الآخرون يفصلونه كيفما يشاؤوا، وعلينا الإقرار به والعيش وسطهُ بل نحن أناسٌ أحرار ومسؤولون لنا الحق والسلطة والواجب أن نمضي صوبَ مجتمعٍ ونقوده صوب الاهداف السامية والمتعالية، ليس مهماً أن ننجحَ في ذلك أم لا، لأننا بشرٌ وطاقة البشر محدودة.

أرادت زينب سلام الله عليها أن تقول:

لم نُهزم، لأننا لم نكن نُريدُ تحويل الدنيا إلى نعيمٍ، ولن نستطيع ذلك، لأننا لا نريد ان نأخذ الجنة محلها في الدنيا، ولسنا مسؤولين إزاءَ ذلك أيضاً، لأنَّ الجهل والفقر والمرض والوساوس والذنوب لن تترك البشر مادامت الدنيا قائمةً وهذه الأوضاع ستكون قائمة ربما ضَعُفَت لكنها لن تزول نهائياً.

لقد قالت زينب عليها السلام:

لم يكن الهدف هو الانتصار، فإن تحقق فبها وإن لم يتحقق فلم تخسر شيئاً.

هنا أودُّ الإشارة إلى نكتةٍ يتمُّ تداولها في عالم اليوم وهي نوعٌ من الحالة النموذجية المادية والتي أتصور أنها تُعدُّ تناقُضاً، لأنها في الأساس تأتي إزاءَ الماتويالية أو الواقعية حيث يقولون: ينبغي على الإنسان أن يُتعب نفسه في البحث عن المدينة الفاضلة، كلُّ ما هو موجودٌ علينا هو الاعتراف برسميتهِ والتسليم له وتأييده، ولكن عليكم أن تبحثوا في هذا المقام عن حقكم الشخصي بين المنافسين لا ينبغي أن نخوضَ في تغيير الأوضاع، ويتم إطلاق عبارة:

الرئالية والواقعية على هذا النمط من التفكير أو الماتريالية في أحد المعاني، وتقف إزاءَ هذا النمط أفكارٌ نموذجيةٌ لا ترضى بالوضع الموجود وتدعو إلى بذل الجهود من أجل الوصول إلى الوضع المطلوب.

في العالم المسيحي شهدنا بعدَ سقوط الدين في أوروبا حيثُ لم تكن جذور هذا الدين ضاربةً في الأعماق ولم يكن بوسعه الدفاع ثُمَّ نسخُ المسيحية، ظهرَ تيارٌ يدعو إلى النموذجية المادية أي النموذجية الماتريالية أي أنَّ الإنسان وفي ذات الوقت، الذي يؤمن فيهَ بالقيم

الحقيقية الكامنة وراء المادة لكنه غير مؤمن بالمعنويات والروحانيات وهو في ذات الوقت إنسانٌ مثالي أي مثاليةٌ دونَ المعنويات، أليسَ هذا وضعاً عجيباً وغريباً يا تُرى؟

لا يمكن أن يستمر الإنسان بهذه الأفكار لأنه سيحيدُ عن جادة الصواب وسط الطريق عندها لن يظلَّ الإنسانُ مثالياً أو مادياً.

هذا ما حصل في إطار الأيدلوجيات البشرية خلال القرون المنصرمة وأدت إلى ظهور الجرائم والأعمال التي شهدتها البشرية، كذلك الفاشية والليبرالية والماركسية والمدارس الفكرية الوضعية المختلفة وآخرُها الأيدلوجية العلمانية وعندما بلغوا مرحلة اليأس خرجوا علينا ليقولوا إنهُ عصر نهاية الأيدلوجيات ونهاية الأمل، وعصرٌ ينبغي ولا ينبغي.

إنهم صادقونَ بتصوري، نعم إنه عصر نهاية الأيدلوجيات الوضعية والعلمانية، لقد انتهى الأمرُ لكل هؤلاء لأنهم لا يستطيعون إعطاء الوعود والآمال للبشر بعد اليوم، إنَّ الأيدلوجية ليست محصورةً في الفاشية والماركسية وأمثالها فالأيدلوجية تشمل الليبرالية والرأسمالية التي تُعدُّ العلمانية أكثر انواع الأيدلوجيات قساوةً في عالم اليوم، وتبدو هذه النكتة ذات أهميةٍ وهي أنَّ الأنسانَ الذي يقصد المثالية المادية الجرداء إنه بعد فترةٍ من الزمن سييأس من العمل الإيجابي وسينصرف عنه إلى أن يبلغ مرحلة الخواء، أن يُصبح شكاكاً أولاً ومن ثَمَّ يعيش حالة الخواء أو يُصبح متمرّداً أو مريضاً ويُسيء الظن ويُصاب بالسادية حيثُ يُقدمُ وباسم إصلاح البشر إلى ارتكاب الجرائم بحقهم، يصاب بنوعٍ من السادية ثَمَّ يبدأ بإلحاق الأذى بالآخرين ومن ثَمَّ إلحاق الضرر بنفسه، وهكذا يتحول أصحاب الرذائل وأشباه الثوريين إلى محافظين مُتشددين وينتشر الزعر وتُفرض القيود، بالطبع هناكَ تعبيران للمحافظين:

الأول يُطلق على من يحتاط في أموره ويوصفُ بالرجل العاقل وأهل المحاسبة والذي لا يقوم بعملٍ ما دون حساب، أي يكونُ مُخططاً ومُبرمجاً ولا يُجازف ولا يُخاطر ولا يُغير المعادلات والأسس الموجودة في المجتمع.

وهناك نوع من المحافظين بالمعنى السلبي وهم الأناس ذوي العقول المُتحجرة غير المُقتنعة بالتغيير يُحاولون توجيه الواقع الموجود طبقاً لمصالحهم.

هناكَ نوعان من المحافظين لو أردتُ تبسيط المثال وشاهدنا قيادة السيارات الفارهة

فإننا نرى أنَّ سائقيها يُحذرون اقتراب السيارات العتيقة، ولو شعروا بالخطر فإنهم ينأونَ بسياراتهم عن السيارات القديمة والمسرعة أحياناً، أي يحتاطونَ ويبتعدون عن الآخرين في السياقة خوفاً على سياراتهم.

هذا النوع من الاحتياط يُسمَّى الاحتياط السلبي أي أنه حفاظاً على مصالحه يبدأ بالتراجع في كُل مرة، إنه يؤمن بأساس المصلحة وليس أساس المبدأ والعمل.

وهناك احتياط من نوعٍ عقلاني وهذا ما نجدهُ في قيادة السيدات للسيارات حيث يستطيع الفرد أن يُميّز قيادة النسوة للسيارات من بعيد، أي أنَّ النساءَ يقمنَ بأخذ الاحتياطات اللازمة التي لا يُراعيها الرجل وينبغي تفكيك هذا النوع من الاحتياط ورُغمَ انهُ يُراعي مصالحه أولاً إلا أنهُ ليسَ سلبياً كما هو الحال مع مراعاة المصالح الفردية والاجتماعية في الثورة، فهناكَ بعضُ الماديين يقولونَ إنَّ ربَّ المؤمنين نائم كيف له أن يرى قضايا مثل عاشوراء والحسين وزينب وسائر المظالم التي تُرتكب على صعيد المجتمع البشري ويظلُّ ساكتاً أيُّ إلهٍ يرى هذا ويظلُّ ساكتا، فالأفضل أن يقولوا أنهُ نائم ويرى المفاسد في الدنيا ولا يتحرك، لكن القرآن الكريم يردُّ على هؤلاء بالقول:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[١]

لقد جعل الله البشر أحرارا وعليه فإن القبائح هي من فعل الإنسان، لا وجود للقبائح في الدنيا من دون البشر أنفسهم ويُضيف القرآن في ردّهِ على المُفترين على الله تعالى بالقول:

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ﴾، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[٢]، وكذلك يقول: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

إن على الإنسان أن يختار بين السعادة والتكامل والجنة و هي ليست إجبارية، إنَّ الله منحَ الإنسان عقلاً ليختار وأرسلنا الأنبياء كي يُحدثون الناس فيظل الاختيار بيد الإنسان، وأنَّ الربَ لا ينام ولن تخرج الأمور من بين يديه.

لا يمكن للإنسان أن ينسب الظلم والرذيلة إلى الرب وأنَّ الحياة امتحان للإنسان سواءٌ كانَ فقيراً أو غنياً، متعلماً أو أُمّياً، امرأة كانت أم رجلاً، كبيراً أو صغيراً، شاباً أو كهلاً، سالماً

١ . الروم: ٤١.

٢ . الشورى: ٥٠.

٣ . الشورى: ١٢.

أم مريضاً، ولذلك نرى زينب تقول وفي أحلك الظروف المادية التي يمر بها الإنسان إنها لم ترى إلا جميلاً.

إنَّ نظرة الحوراء زينب عليها السلام لا تعرف وجهاً للفشل، وتقول إن ما يحصل هو نوعٌ من التكامل وأنَّ أهل البيت عليهم السلام يقومون بالواجب المُلقى عليهم، يتدخلون في السياسة والاقتصاد والعلم، لأنَّ لهم مسؤولياتٌ تجاه الأسرة والمُجتمع، وأنَّ كُلَّ ما يقومون به هو من أجلنا ومن أجل التكامل لا من أجل التسلط على الآخرين، فإن انتصرنا فلا بأس وإن هُزمنا فليس هذا بالأمر المهم.

يقول الماديون إنَّ إلهكم في غفوة وإنَّ العالم خرج من سيطرته، وفي الجهة المُقابلة هناكَ من يحاول توجيه الظلم بالقول إنه قضاءٌ وقدر، يريدون قبول الظلم تحت مُسمى التقدير الإلهي، وهناك فريقٌ أخر ظَهرَ ليقول إنها مشيئةٌ إلهية يرضى من يرضى وليرفض من يرفض وهذا هو الفكر الأشعري حيث يقوم على أساس أن ما يجري إما ظلمٌ أو ليس بظلم، وإن كانَ كذلك فلماذا أيَّدَ الله هذا إذن؟

ويأتينا الجواب: إنه شأنٌ إلهي، وهو يريد أن يكون ظالماً فماذا تقولون إنَّ الرب يُريد أن يعرف من هو الفضولي في هذا المقام، هذا هو جواب الأشاعرة لا بل يتقدمون خطوةً إلى الإمام ويتساءلونَ ما هو الجيد؟ ما هو الطالح؟ما هو الظلم؟ ما هو العدل؟

إننا لا نعي حقيقة الأمور، إنَّ كُل ما يجري هو عين العدل، أي أنهم يحاولون رويداً رويداً توجيه الظلم الذي يجري على الإنسان بفعل الإنسان بأنهُ رباني.

أما الثقافة الإسلامية وثقافة تفسير أهل البيت للقرآن فهي ثقافة وتفسير زينب عليها السلام، أي أن القدرة الربانية هي في مقامها ومكانها، والمسؤولية الأخلاقية للإنسان هي في موضعِها أيضاً، ولا مُنافات في ذلك إنها أمرٌ بين أمرين أي لا جَبرَ ولا تفويضَ إنما أمرٌ بينَ أمرين الحقيقة شيءٌ ثالث وهي التي تمنح زينب عليها السلام القوة والشجاعة والطمأنينة.

وهنا أودُّ الحديث عن أبعادٍ أخرى في شخصية العقيلة زينب عليها السلام، فهي كما معروفٌ إنسانةٌ تقيةٌ وورعة وهي إلهيةٌ بمعنى أنها من زوي المُكاشفة والكشف والشهودات المعنوية والباطنية التي تحلَّت بها زينب عليها السلام، فبالإضافة إلى علمها وشجاعتها ومسؤوليتها تجاه الأسرة والزوج والأبناء فقد كانت من أهل المُكاشفة.

نُقل عنها وهي في الطريق إلى كربلاء إنها سَمِعت مُنادياً يتحدث عن الشهادة وأن القافلة تمضي إلى موعدٍ مع الدم عندها تقول زينب لأخيها الحسين سلام الله عليه حيث كان عليه السلام يتفقد القافلة وهي في طريقها إلى كربلاء قالت له سمعت صوتاً من عالم الملكوت يقول إن هذه القافلة ستمضي إلى حدفها وبحرٍ من دماء.

فردَّ الإمام الحسين عليه السلام عليها بالإيجاب وأضاف ستكونينَ مسؤولةً عن القافلة من بعدي، ستكونين بلا من يحميكي وسأترُككي في حمى الله.

لاحظوا أنَّ العقيلة زينب وفي تلك الظروف الحرجة يبدو أنها قلقةٌ على مصير الحق والباطل في المعركة الواقعية على الأرض، لم تكن من أصحاب العرفان التصوف السلبي الذي يقول لقد ذهبنا وانتهى كل شيء فليحصل ما يحصل، فليحصل ما يحصل من ظلمٍ وعدلٍ وفقرٍ وغناً أو الفواصل الطبقية ولا علاقة لنا بالآخرين، نرى زينب في الملكوت وهي تستشعر مُكاشفةً وهي في ذات الوقت على الأرض تتابع ما يجري وسط ميدان المعركة والجهاد السياسي والثوري وهي قلقةٌ على ما ستؤول إليه الأوضاع.

في التاسع من مُحرم تأتي إلى خيمة الحسين عليه السلام وتقول له لقد ذهب الناس وبقينا وحدنا عدا رهطٍ قليلٍ فهل يا ترى سيتركوننا لوحدنا؟ أم أنهم سينجحون في الامتحان؟

أخشى أن يُسلموكَ إلى العِدى.

فيُطمئنها الإمام بالقول: أخيَّة لم تعد بلوتهم وخبرتهم فلم أجد فيهم إلا الأشوسَ الأقعس، يشتاقون إلى المنيّة دوني اشتياق الطفل إلى محالب أمه وسيُقتلون معنا يوم غد، عندها تعالى نحيب وبكاء العقيلة زينب، فسمع نافع الذي كانَ قريباً من خيمة أبي عبد الله فيجهشُ هو بالبكاء أيضاً، لأنهُ سَمِعَ العقيلة تشكُّ نوعاً ما بمصداقية من بقي مع الحسين، فعادَ إلى خيمة الأصحاب وقال لهم: سمعت العقيلة الهاشمية وهي لم تطمئن بعد إلى ثباتنا مع الحسين عليه السلام.

بالطبع لم يكن حدثُ وشكُّ زينب ببعيد لأنَّ الكثيرين نكثوا بيعتهم للإمام الحسين عليه السلام، فجاءَ الأصحاب إلى خيمة زينب والحسين وبدأ كلٌّ منهم يخطب أمام زينب عليها السلام فقال أحدهم والله لو قُتلتُ ألف مرة وعدتُ إلى الحياة من جديد فلم أتردد بالوقف إلى جانب أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وقال أخر معاتباً: كيف لا تعرف زينب تعلقنا بالحسين وأهل البيت عليهم السلام.[١]

لاحظوا أن معنويات زينب عليها السلام وهي تمرُّ بكل حالات المُصيبة لكنها تنظر بعين العرفان الإيجابي إلى الأمور وهي في انقطاعها إلى الله وسيرها الملكوتي ورغم كل المحن التي تمرُّ بها تقول لابن زياد إنها لم ترى إلا جميلاً، لأنها ترى أنَّ كل شيء لله وفي قبضته ولذلك فهي تُقرُّ وتصحبها الطمأنينة.

ونقل أنَّ العقيلة زينب عليها السلام كانت ولشدة المصائب التي عانت منها حيث أستشهد رجال أهل البيت وسُبيت النساء والأطفال لا تستطيع الصلاة من وقوف ومن أرادَ أن يعرف قوة زينب وشجاعتها ورباطة جأشها فلينظر إلى دعائها في صلاة الليل، حيثُ تدعو ربها وتقول: يا من سجدَ لكَ سواد الليل وبياض النهار وشعاع الشمس وحفيف الشجر ورؤى الماء، يا عماد من لا عماد له[٢].

إنَّ هذا الدعاء منحَ زينب عليها السلام كُلَّ هذه الشجاعة والسكينة والعزة والحكمة والقوة وتقول للنساء والصبيان والأطفال الصغار: لا تأكلوا من تمرهم وخُبزهم لقد خانونا ومن ثَمَّ يُقدمون لنا الصدقات، نحن أبناء الرسول لا تحلُّ لنا الصدقة.

وتدعو السبايا لتحمل الجوع والعطش فيرفض الأطفال الخبز والتمر ويُعيدوه لأصحابه من أهل الكوفة.

إنَّ التصرف المعنوي لزينب عليها السلام والذي تلاحظونه في هذه الواقعة ليسَ مغايراً للمسؤولية الاجتماعية وليسَ معنويةٌ عمياء لا منطق لها، إنها معنويةٌ قائمة على المعرفة والوعي وهي متفاوتةٌ مع المعنويات القائمة على الجهل، إنها معنوياتٌ قائمةٌ على الوعي والشجاعة والعزم والإرادة الحديدية والمسؤولية الاجتماعية تجاه اليتامى والمظلومين، وهي تتفاوت مع المعنويات المنحرفة التي نُشاهدها اليوم تُنشر في العالم.

أشكر حضوركم الكريم ومشاركتكم القيمة، أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقكم لمرضاته إنهُ خير مجيبٍ للدعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

١ . موسوعة الامام الحسين عليه السلام، ص ٤٩٣ـ٤٩٤.

٢ . راجع: عقيلة الطهر والكرم موسى محمد علي، ص ٧٠.

أدعياء التنوير وحقيقة العلوم الانسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن ما يُطرح اليوم تحت مُسميات العلوم الإنسانية ليس في حقيقة الامر علوماً إنسانية بمعناها العلمي البحت، إنها مدارس مختلفة من الأنتربولوجيا تنظر إلى الإنسان من خلال رؤىً خاصة ولها تعريف خاص من الإنسان وتطرح عليه توصيات خاصة فهي علومٌ إنسانيةٌ تطرح توصيفاً للإنسان من الناحية الفردية والاجتماعية أو في إتجاهه المادي أو الروحاني، ولنا كمفكرين ومثقفين مسلمين رؤىً نقدية على هذه الأوصاف نتفق مع بعضها ونرفض أخرى، ولنا دليلنا في هذا وإذا قيل لنا إن النظرة الدينية للمجتمع الإسلامي وعلم النفس الإسلامي والعلوم التربوية والاقتصاد الإسلامي لا يمكن أن تقودنا إلى المدنية والحضارة لذلك ينبغي إنتاج علوم إنسانية جديدة وهذه العلوم حكرٌ ترجمتها علينا من الغرب! نرد على هؤلاء ونقول: علينا الخوض في الأمر، علينا أن ننظر اليها من زاوية محايدة وعلمية مُستندة إلى قواعدنا الفقهية وإذا مارسوا ضدنا الضغوط وقالوا عليكم القبول دون تمحيصٍ أو تقليب، نرد عليهم: نحن لسنا في سوق فاكهة وخضار! ولن نختار ما تُريدون، بل علينا اختيار الخضار والفاكهة الأفضل، هذا ينفعنا، حينها سنقبل به ولكن سنضيف عليه أشياء أخرى لتكتمل الصورة وهكذا الحال في الاقتصاد، ينبغي تأسيس سوقٍ للبورصة الفكرية لمواد العلوم الإنسانية والتجريبية والعلوم الرياضية، لابد من إيجاد خارطة طريق مثلما يفعلون في الحروب، هل شاهدتم الجنرالات يرسمون الخطط ويُدققون في مواضيعهم الدفاعية؟ يُحددون مواقع العدو.. إن أولئك الذين يحاربوننا بواسطة الثقافة

علينا التخطيط لمقابلتهم وتحديد الخطوط الاصلية والفرعية، لذلك ينبغي إيجاد خطوط تموينٍ وعتادٍ ومتابعة الوضع على الأرض في حال تقدمنا أو تقهقرنا كُل ذلك يتم عبر امتلاك خارطة طريق، علينا امتلاك تلك الخارطة في مجال العلوم والمعارف خاصة العلوم الإنسانية والطريق الوحيد لتحقيق ذلك يكمن في دعوة مفكري ونُخَب المسلمين وأصحاب النظريات ويتم إعطاء الحرية والأخلاق والمنطق حقها بصورة متكاملة، ومقدمةُ كل ذلك أن نؤمن بمقولة: «إننا قادرون» وعندما يطرح المشككون آرائهم ينبغي أن نرد عليهم بالقول: لقد أصبح ممكناً الخوض في هذا الموضوع، المهم أن نعلم أن هؤلاء خططوا وغذونا بأفكارهم على مدى قرون من الزمن، بالطبع ألقي اللوم على الأفكار المتحجرة والقشرية التي تحكمنا منذ قرنين من الزمان أو أكثر هناك مسؤولية كبيرة تقع على أصحاب الفكر المعرفي السطحي وكذلك الظلم السياسي الحاكم في العالم الإسلامي، إن المسؤولية الكبيرة في إبتعادنا عن المعارف الإسلامية في ركودنا العقلي والمعرفي والسياسي والإجتماعي الناجم عن إبتعادنا كمسلمين عن الإسلام وكيفية تعامل النُخب والحكام مع الأمة، هناك تقصير كبير يقع على عاتق الحوزات العلمية والروحانيين، خاصةً في المئتي عامٍ الماضية، بالطبع يجب التذكير أنه ما رُفع علم للثورة والإستقلال والمقاومة الثقافية قبالة الإستعمار إلا وكان بأيدي الروحانيين الصالحين، لكن النظام التعليمي للروحانيين والحوزة كان مُقصِّراً وللأسف خلال المئتي عامٍ الماضية، كان عليه أن يجتهد ويُفكر ويعمل ونحن حينما نتخلى عن الإجتهاد ولا نطرح حلولاً فكرية للعيش في المجتمع الديني، فإن المجتمع لن يبقى مكتوف الأيدي ولذا إنبرى الطرف الأخر لطرح أفكاره من خلال الترجمة وإدارة حرب نفسية علينا مُوهِماً أن ما يطرح هو وحيٌ يُنزل.

إن ما تمَّ طرحه خلال المئة عام الأخيرة من دعوات تنويريةٍ مُلبسة بلباس الدين وغيره وبتصوري وبغض النظر عن كونه هجوماً ثقافياً غربياً أو شرقياً شيوعياً أو كابيتالستياً يقود بالدرجة الأولى إلى الفقر في مجال البرمجيات وعدم إنتاج الفكر من قبل المسلمين، لقد قصَّرت النُخب العلمية الدينية التي كان ينبغي عليها طرح الأفكار حول القضايا المستحدثة والإجابات النظرية والطرق العملية، بالطبع هنا لا ينبغي تناسي الضغوط التي مورست ضد العلماء التي كانت تجعلهم في خانة المعارضة دوماً، كما كان وعلى فترة طويلة من تاريخنا

إرتاداء زي العلماء محظوراً ولكن وعلى أية حال سواء كان السبب سياسياً أو إجتماعياً هناك حالة قصور أو تقصير أو الإثنين معاً وكانت النتيجة أن تواردت الأفكار الأجنبية عبر الترجمة خلال القرن الماضي، فلو كان موضوع الترجمة قد أوقف عند حدّه لتوقف السيل التنويري الآتي من الغرب والجميل أن معنى التنوير كان مختلفاً من فترة إلى أخرى وكان مُتميَّزاً في كل فترة على شاكلة وظاهر أناقة وتصفيف الشعر والشارب طبقاً لزعيم الفترة التنويرية، فتارةً كانوا يضعون شارباً كصادق هدايت[1] «الشارب الهتلري» وكان التنويريون منتقدين للوضع تارةً ومن المتصدين للمسؤوليات الإجتماعية من النوع الإشتراكي تارةً أخرى عندها كان الشارب على شاكلة نتشيا غليظاً وتارةً كان التنويريون يتهربون من كُل مسؤوليةٍ ويُعارضون كل الأيدلوجيات وكانوا ضد كل ما يجب وما لا يجب. وهنا كان عليهم أن يُحلقوا اللحية والشارب وإن لم يفعلوا فهم ليسوا من الجماعات التنويرية ولو شاء أحدهم أن يكون ذا عنوان ديني فلا بأس بوضع اللحية والشارب وعليه ان يَزورَّ القميص حتى الرقبة وهكذا فإن ظاهر دعاة التنوير كان مرتبطاً في الشكل والأداء في الفترة الزمنية والبلد الأوروبي الذي يحمل منه أفكاره، فلو كان من العائدين من فرنسا في الخمسينات أو الستينات من القرن الماضي فإنه كان يحمل أفكاراً وجوديةً في الفلسفة وإشتراكيةً في الفكر الإجتماعي وهكذا تصبح حركة التنوير ذات طابع إشتراكي يساري، ولو كان الشخص عائداً من إنجلترا كان مهتماً بثقافة الأمبيلستيا والفلسفة التحليلية وكان من أصحاب المدرسة المنطقية الحديثة ومُطّلعٌ على عالم أنجلوساكسون وأنجلو أميركن عندها سيكون من أنصار الحركة الليبرالية والإباحية ولو ذهب الشخص إلى ألمانيا ودرس هناك لكان من المتأثرين بمارتن هايدغر أو كانط، عندها ستكون حركة التنويرمتأثرة بهما.

كانت هذه مصيبة العالم الإسلامي وإيران فقد كان التنويريون يطرحون ما يحلو لهم من ترجماتٍ ولم يكن مهماً من أي نحلةٍ كانوا وما هي الأهداف السياسية والإجتماعية التي كانوا يُنشدونها.

لو توقفنا وسألناهم ما هي أهدافكم المعرفية؟ لعجزوا عن الرد، إنهم يُشتتون أفكار

---

١ . صادق هدايت هو كاتب إيراني يعتبر مؤسس القصة القصيرة في إيران. من أبرز أعماله رواية «البومة العمياء» التي نقلها إلى العربية الدكتور إبراهيم الدسوقي. (راجع: ويكيبيديا، صادق هدايت).

الناس وعليه فإن الحركة التنويرية ليست فكراً، بل هي طريقةٌ مختلفة الإتجاهات، فالعالم الإشتراكي كان يبحث في طريقه للفكر الإجتماعي والعلوم الإجتماعية وكذلك العالم الرأسمالي، فلو ذهب أحدهم إلى مدرسة «ماكس فيبر» فإن رؤيته للعالم ومنطوقه التنويري سيكون من النوع الرأسمالي، ولو ذهب أخر إلى المدرسة الماركسية في الشرق أو الغرب، فإن نظرته ستكون كذلك وهكذا فنحن لا ندري هل إن التنوير يعني الإباحية والفرار من المسؤولية؟ أم العكس؟ وهل إن الحركة التنويرية هي قبول لقبح وحُسن ذات الأفعال والأشياء وقبول القيم الأخلاقية؟ وهل تتمتع بحس التضحية الإجتماعية أم أنها نفيٌ كلي للملكات القيمية وكل الممكنات وغير الممكنات وكافة الأيدلوجيات ودعوةٍ لعدم المبالات والإباحية والتشكيك؟ وإن كانت تنويراً غير ديني، فإنها تعني هذه الأوصاف بصورتها العارية وإن كانت دينية فإنها كانت ستطرح عناوين دينية للتنويه، فلو كان المتعلم قادماً من إنجلترا لطرح لنا تنويراً دينياً على الطريقة الإنجليزية! أي بمعنى انه يطرح التصوف في المسؤولية في المقام الإجتماعي وهذا التصوف يتعارض مع الأصول العقائدية والفكرية الدينية من جهةٍ، ومع القوانين الإسلامية والدينية والمسؤولية الإجتماعية من جهة أخرى وهكذا فإن المدارس الفكرية الغربية تتعارض فيما بينها من جامعةٍ إلى أخرى وعليه فلو طرح أحدهم مبادئه التنويرية يكفي أن نعلم البلد الذي قدم منه لنقول إنه من أتباع أي حركة تنويرية وكيف يفكر وماذا يقول في باب العلوم الفلسفية السياسية لأن كل ما يقوله هو عبارة عن أطر متكررة وهؤلاء يحملون أفكاراً متأخرة عن تاريخ صدورها ثلاثة عقود، لأنهم يعتمدون على عالم الترجمة الذي يأتي نتاجه متأخراً بطبيعة الحال ولجهلنا بالثقافة الغربية نتصور أن أذهان التنويريين مُتَّقدة وان علينا أن نتبع مايقولوه بالكامل وعلينا أن نعيا أن هؤلاء ليسوا مُنظّرين ولا مُفكرين، إنهم مراهقون ينقلون لنا موضوعاتٍ غير ناضجة لكنهم وللأسف يُلقون آذاناً صاغيةً لما يقولون، لأنا فقراء في الفكر ولم نفعل ذلك منذ مئتي عام وقد نسج العنكبوت خيوطه حوالي جماجمنا وعقولنا وهكذا ظلت أذهاننا خالية، فهذه الافكار تُعد إبتدائية هناك لكنها وبعد ترجمتها تصبح بالنسبة إلينا وحياً مُنزلاً علينا الإستماع إلى هؤلاء المراهقين دون الأخذ بأقوالهم على محمل الجد، فيما مضى لم تكن هناك وسائل ترفيهية للصغار مثلما هي اليوم، فكان بعض الأطفال يدق أجراس بيوت الناس ويفرون وذات

يوم لم يستطع أحدهم دق جرس باب، وفي هذه الأثناء مرّرجل محترم من هناك فسأله ما المشكلة يابني؟ قال سيدي لوسمحت إضرب لي الجرس، فما كان من الرجل إن فعل ظناً منه أنه بيت الطفل، بعدها قال الطفل: أحسنت يا رجل هيا لنهرب فلو جاء صاحب البيت لضربنا معاً!.

إن الطريقة التي تعامل الغرب معنا من خلال طرح ترجمات أنصاره خلال القرن الماضي تشبه إلى حدٍ كبير طريقة ذلك الطفل المخادع فهؤلاء كانوا يطرحون فكرةً محددةً ويشكلون حلقة فكرية وبعد عشرين عاماً يأتي أحد تلاميذ صاحب المدرسة الأصلية وقد درس في بلد أوروبي ثاني ليطرح فكرةً تتعارض تماماً مع ما طرحها أستاذه عندها تتشكل حلقة جديدة ولو كان الفرد ذو ميول دينية أو قد نشأ في بيئة دينية وكان يرغب بطرح التنوير بلفافة دينية إستخدم المذهب لصالح حركة التنوير التي ينادي بها ومهما يفعل فإنه لا يستطيع طرح فكره التنويري الإسلامي أكثر من الوجودية الدينية ويكون الناتج إسلاماً بقراءةٍ إشتراكية وآخر يطرح إسلاماً ليبراليلاً وإسلاماً فاشياً وإسلاماً منطقياً حداثوياً واليوم نصادف الإسلام الليبرالي بكثرةٍ كما هو الحال إبّان الثورة الدستورية في إيران قبل أكثر من قرنٍ من الزمن أي الأفكار المطروحة أيام الميرزا آخوند زاده وتقي زاده وأمثالهم إنهم يكررون ذات الأفكار الرجعية بإطارٍ تنويري، ولمّا كانت العلاقة بين الدين والمسيحية والكتاب المقدس ورجال الدين في الغرب غير واضحة إضافةٍ إلى قضية التعقُّل في الإطار المعرفي وقضية العقل والعلم وحقوق الإنسان في إطار الحكمة العملية وإصلاح المجتمع وللوصول إلى العقل والعلم وحقوق الإنسان التي كانت تَشعُّ من العالم الإسلامي إلى أوروبا في القرون الوسطى بات عليهم الإختيار بين الدين المسيحي والكنيسة فاختاروا طريقهم دون تحكيم العقل والإنسانية وعندما بحث هؤلاء في الدين خاضوا في سبعة مجالات بصورةٍ أكاديمية إضافةً إلى بحث فروع أخرى والتي تُعدُّ هي الأخرى تلفيقاً من بعض الفروع معاً هم يخوضون في علم الإجتماع الديني وفي علم النفس الديني وتاريخ الأديان وفلسفة الدين والظواهرية والمذهب الإنساني والآثار وفي أقل التقادير يخوض هؤلاء في سبعة مجالات مرتبطة بالدين في أكاديميات الغرب وهناك العديد من الفروع والإتجاهات الجانبية التي يخوض فيها هؤلاء مثل الراداكسيونية والفوكسيونية والإيطاريين والعَمَلانيين والتحليليين

والنموذجية الألمانية حيث يوجد في الغرب أربعة إتجاهاتٍ تتعارض فيما بينها وهي تبحث حول الدين وهكذا يأتينا أحد أدعياء التنوير من عَلَقَ له عالق في إحدى تُروس المُحرك الفكر الغربي ويطرح علينا فكرة تنويرية عقلانية مترقية مقابل المذهب دون أن يلتفت إلى الفارق بين الإسلام والمسيحية والقرآن والإنجيل وتراه يُكرر معلوماته كالببغاء وهنا أؤكد أن ذلك لم يكن ليحصل لولا تقصير الروحانيين خلال القرنين المنصرمين فقد أدى هذا القصور إلى تورطنا مع هؤلاء من الناحية النظرية والعملية في تقديم إطار حل ساهمَ في مهاجمتنا بصورةٍ ثقافية وربما جازلنا التعبير إن القسم الأعظم من ذلك كان قصوراً لا تقصيراً، لأن مجال العمل كان منعدماً تقريباً واليوم نرى الغرب وأذنابه يطرحون علينا مذهباً جديداً تحت مسمى قراءةٍ جديدة للدين وهي تلفيق لعدة أفكارٍ وإتجاهاتٍ راجت في أوروبا حول الدين المسيحي وخاصة على يد البروتستانتيين وفي الإلهيات الليبرالية البروتستانتية خاصة في نصف القرن الأخير في أوروبا وأمريكا حيث يتم ترجمتها بتغيير بعض كلماتها فعندما يقال آيات الإنجيل يذكرون آيات القرآن وكلما يأتي ذكرٌ للروايات الكنسية يُحولونها إلى رواياتٍ إسلامية وهنا يبدو أن الأمر عبارة عن إستنساخ وليس ترجمة وهكذا يتم صناعة دينٍ يبحث في الإسلام وقوانينه يقولون إن القوانين الإجتماعية والسياسية والإقتصادية التي تخص الحكومة والمجتمع في الإسلام وما يخص المعاملات كانت ذات تاريخ وقد نفذت صلاحيتها وأكل عليها الدهر وشرب وباتت من الماضي وهي كانت بالإساس مخصصة لفترة زمنية محددة فقد عفى عليها الزمن وهي تتعارض مع حقوق الإنسان بالطبع على التفسير الليبرالي، لأن حقوق الإنسان في النظام الليبرالي مُعرَّفة ومُحددة وهي تعني ما يقولونه وما يُعرِّفونه هُم ولهذا المقدار حقوق خاصة ومحددة وعليه فإن أي تعريف أخر لحقوق الإنسان وأي فهرست لحقوق وواجبات الإنسان تتعارض مع ما يطرحون يُعد خروجاً على البشر، بالطبع فإن تعاريفهم لحقوق الإنسان هي على الورق وحسب وفي المجال العملي نرى كيف يخادعون أنفسهم، صحيح ان القوانين الإجتماعية وأحكام المعاملات في الإسلام ليست تأسيسية ولنفترض أن قسماً منها غير تأسيسي وهو من إمضاء البشر فهل ينبغي أن نستنتج أنها غير قابلة للتطبيق على أرض الواقع أو الخروج بنتيجة مفادها أن تاريخ صلاحية هذه الأحكام قد إنقضى؟ أي إستدلال وأي منطقٍ هذا الذي يقولونه! صحيحٌ

إن الأحكام ثانوية وليست من أصول الدين وليست من جوهر الدين ولا ينبغي ان نتوقع من الدين أن يخوض في الجزئيات، يقولون إن الدين عنيفٌ يعارض العرفان أي أن الشريعة ضد العرفان وهؤلاء يُسيئون إستغلال الأدب العرفاني أو يُحرفونه من خلال الضرب على وتر الخلاف الموجود بين بعض العرفاء والفقهاء، بالطبع تجدر الإشارة أن هناك مجموعةً من أدعياء المتصوفة من المنحرفين يُقدمون على إرتكاب كل موبقةٍ وهم متعارضون مع بعضهم البعض لأنهم مرضى في الحقيقة يعانون من مرض فكري لكن الفقهاء والمجتهدين الصالحين عرفاء حقيقيون متشرعون لا يتعارضون على الإطلاق ولذلك فإن كبار عرفائنا هم كبار فقهائنا في ذات الوقت وليس هناك شجارٌ بين العشق والعقل في الثقافة القرآنية والروائية على الإطلاق وليس هناك خلاف بين العرفان والشريعة ولا خلاف بين الطريقة والحقيقة في الثقافة الإسلامية وعندما يجهل الطرفان بعضهما البعض يحصل الشجار، إن الشجار يقع عندما يجهل الطرفان بعضهما البعض أو عندما يتخفى البعض حواجزه أو عندما يتم التعامل مع هؤلاء بصورة غير عادلة وهكذا تصبح حرب العقل والعشق التي هي في الواقع عراك الفلسفة والعرفان نزاع الفلاسفة مع العرفاء أو نزاع الشريعة والتصوف والعرفان وكل هذه الدعاوة ليست ذات عمق وجذور إسلامية حتى إن هذه الأمور عندما كانت تحصل في القرون الإسلامية الأولى كانت بسبب الترجمة القادمة للمسلمين من المدارس الغربية والشرقية حيث شهدنا نمو حركة الترجمة وظهور التيَّارات الكلامية المختلفة وهي غير موجودة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام كتيَّارات الجبرية والمعتزلة والمشبهة في فترة زمنية معينة وكان ذلك بفعل تأثيرات الترجمة والعجيب أن جميعها كانت تستند إلى القرآن وتصبح تنويراً دينياً فيما بعد لكن التنوير الديني بمعناه الصادق والحقيقي كان عند أناسٍ شعروا أن ثمة ما ينقصهم وتسائلوا لماذا رغم ما بأيدينا من مصادر دينية عظيمة لا نستفيد منها حيث نواجه الكثير من المشاكل؟ ولماذا لا نفكر بطريقة إسلامية لحل قضايا العصر؟ وكانت هذه من الهواجس والأمور المهمة التي شعر بها أصحاب التنوير الحقيقيين وقد إنبرى جماعة في كل فترة زمنية لتصحيح الأمور واستطاعوا فك رموز بعض الأشياء ورفعوا خطوات كبيرة لكنها لم تكن الخطوات الأخيرة، إن المجتمع بحاجة ماسة إلى أمثال هؤلاء.

حسناً فلنعود إلى أدعياء التنوير الذين تركوا الدين تحت المسميات التي أشرنا إليها

ودعوا إلى إسلامٍ بلا قوانين وإسلام بلا أحكام والمقصود الأحكام السياسية والإجتماعية والإقتصادية وكان هذا الأمر بمثابة المقدمة لإيجاد نظام علماني وإسلامي من النوع المسيحي البوذي وعندما نتساءل لماذا هذا الاصرار على إقصاء القوانين الإسلامية؟ يقولون لك أن أساس الدين هو العرفان وأن القوانين والشريعة وأمثالها تبعث على الرياء والعنف وهي قوانين قديمة وليست جوهر الدين فلنتركها! حسناً تم ترك القوانين الإجتماعية للدين بقي عندنا أحكام العبادات، لأن هؤلاء تركوا من قبل أحكام المعاملات وبقية الأحكام الفردية كالصلاة والصوم والحج ولنتساءل كيف سيتم إقصاء هذه أيضاً وعندما نسألهم هل إنكم ستبقون على عقائد الإسلام واخلاقه وعباداته؟ سيكون جوابهم لا! حجتهم ان هناك إشكالية أخرى وكل ذلك بفعل عمليات الترجمة في الإلهيات الليبرالية البروتستانتية المتأخرة في الغرب خلال نصف القرن الأخير حيث طرحت الأفكار التعددية والنسبية والمعرفية وكل هذه التيارات جاءتنا عبر الترجمة وهكذا فقد خطى هؤلاء الخطوة الأولى لحذف الدين من الحياة الإجتماعية، لأنه وكما هو معلوم فإن الفقه تجسم ظاهري للعرفان فعندما يقولون إنهم يُريدون العرفان للفقه يتصورون أنهما منفصلان عن بعضهما البعض، فإذا لم يتم ربط العرفان بالممكن وغير الممكن وإذا لم يتحول إلى قوانين للحياة الإجتماعية والفردية فإن تلك القيم العرفانية ستسير في عالم التيه والضياع ويقوم كل شخص بتفسيرها وتعبيرها بالطريقة التي تلائمه وهذا تحديداً العرفان الذي ينشدونه، العرفان الذي يُروج له الليبرالي البروتستانتي خلال الستين عاماً المنصرمة إنه تجربة باطنية، الدين قد جاء من أجل الحيرة ولم يأتي لهداية الناس هكذا هم يقولون! وعندما نسألهم عن المعرف وعقائد الإسلام يقولون لنا لا دخل للعقائد! أليس الدين من أجل المعنويات؟ ثم أليس الدين من أجل العرفان؟ فما دخل العقائد بالمعنويات! ليس مهماً كيف تفكر بالله وكيف تنظر إليه سواءً آمنت بوجود إلهٍ واحد أو اكثر أو آمنت بالثالوث أو حتى آمنت بالشيطان، لأنها عبادة أيضاً فتلك تجربة باطنية ونفسية أيضاً أليست عبادة الأصنام تجربة باطنية هي الأخرى؟ فعبدةُ الأصنام ليسوا مُلحدين إنهم يجلسون في معابدهم ويُجرون تجارب باطنية، أصحاب المدرسة الغربية يؤمنون أن كل ذلك يُعد تجربة باطنية ونوع من العبادة أليست التعددية ديمقراطية؟ لا يجوز لك أن تفعل ما فعله إبراهيم في حمل المعول وتهديم الآلهة إنها مُقدسة

بالنسبة لأتباعها، لماذا تمنعون تجربة دينية يقوم بها هؤلاء؟ لو قُلت ان عقيدة الإسلام صحيحة والأخرى خاطئة فقد أجرمت واعتُبِرَ ذلك نوع من التعصب والأنانية وهذا يؤدي إلى العنف كما يقولون، عندما نسألهم ما هو الحل إذاً؟ يقولون عليك أن تكون مُشككاً نسبياً وتقول إن كل الأديان على حق وكل المدارس والأفكار والتيارات محترمة وصحيحة وكلٌ يُصلي لمعبوده بطريقته سواءً من عبد الشيطان أو عبد الله كلٌ سَلك طريقة خاصة تقوده إلى مقصد واحد وليس هناك معنى للتوحيد والشرك والإسلام والكفر وليس هناك حق وباطل ترى ماذا تقول التعددية؟ تقول ليس عندنا حقٌ وباطل ولا يمكننا أيُها الإنسان أن تُصدر احكاماً وهكذا فقد أقصوا العقائد وقالوا: إن معارف الإسلام هي جزميةٌ أو دوماغتية وهي مصدر العنف وضد التعددية وضد التسامح والتساهل، الأصل هو العشق وليس العقل الدين من العقائد القديمة، لقد كان العرب مؤمنين ببعض الأشياء التي اخبرهم بها الرسول حيث كان يعيش معهم وكانت المفاهيم تخص ذلك اليوم والمجتمع القديم ولم يأتي النبي بشيءٍ جديد ولا معتقدات جديدة ولم يكن كلامه جديداً وأن الرسل كانوا يأخذون كلام البيئة المحيطة بهم ويُعيدونه بطريقةٍ مُمَنتجة وكان الرسول تحصل له مُكاشفة شاعرية بعدها يطلع على الناس والقصة معروفة ويطرح المفاهيم بصياغاتٍ عربيةٍ رائجةٍ وهي خليط من الخرافة والحق والباطل ولأنه كان يتمتع بكاريزمة شخصية عَمِلَ على طرح مشروع إجتماعي فقال له الناس إنك رسول وأن الرسل لا فرق هم مع الشعراء إنهم أصحاب تجربة باطنية، أي انهم أقدموا على صناعة مفاهيم واختلقوها، دعوني احدثكم عن الكاريزما ربما كان إصطلاحها الرائج يُستخدم للقول أن الأنبياء كان لهم نفوذٌ وتأثيرٌ في المخاطبين وأن الشخصية الكارزمية هي شخصية إيجابية، أقول على العكس من ذلك فهي تعني حسب تقسيمات وِبر للمشروعية فإنه يُقسمها إلى تقليدية وعقلانية قانونية كارزمية فالحديث عن الجاذبية الكارزمية والمشروعية الكارزمية ليس لها سبب عقلي وهي ليست من واقع السنن والقوانين المجتمعية بل هي ناجمة عن تفسير أني ونفسي على قطّاع وسطي من المخاطبين.

لا يقال إن لبوذا وغاندي والإمام كاريزما فحسب، بل إن لينين كان شخصية كارزمية أيضاً وكذلك هتلر وهكذا كان الأنبياء وكل التحركات ضد الأنبياء كانت لها كاريزما أيضاً وخلاصة الأمر أن الكاريزما مُختصة بكل صاحب أتباع والكاريزما جيدة في ظاهرها لكنها

في الباطن نقد صريح لأساس الفكر الديني، وهكذا فإنهم باتوا يقبلون بنقطة من الدرجة الثالثة، لأنهم يرفضون الإعتراف بالنقطة الأصلية المتمثلة بالدين والوحي ولا نريد هنا الخوض في بحث الكاريزما لأنه ليس بحثنا وهكذا يُقدمون على صناعة دينٍ عن طريق عناوين متعددة ويُصار إلى إعادة ترميمه، إنهم يفعلون ذلك منذ مئة عام منذ الثورة الدستورية إنهم يطرحون لنا هذا الدين والسبب في ذلك أن العلماء لم يقوموا بطرح مبدأ الإجتهاد في الأحكام وفقاً للمتغيرات بالطبع فقد إنطلق العلماء اليوم إلى ملء حالة الفراغ هذه ونسأله تعالى أن يُظهر علماء من الطراز الأول في المستقبل خلال العقدين المُقبلين ليتحملوا المسؤولية، وفي الجامعة ينبغي ان يكون هناك شبابٌ من أمثالكم لحمل أعباء هذا العمل الكبير لا أن ينتهي كل شيءٍ بعد الزواج بإيجاد فرصة العمل المناسبة، أرجو أن لا تنسوا المسؤولية الملقاة على عواتقكم ولا تتصوروا أن مسؤولياتكم في تغير العالم مرهونة بسنوات الدراسة، إحفظوا هذه المعنويات لديكم إلى الأبد عيشوا حياتكم إلى آخر لحظاتها كالعالم المتمرس، فإن واجهتكم مباحث العدل كونوا عُدولاً محترفين وليكن هذا التصرف ديدنكم في الحياة لا تتصوروا أن حضور الإجتماعات والمحاضرات يتم لأنكم لم تحصلوا على فرصة العمل بعد عليكم أن تواظبوا على حضور مثل هذه الإجتماعات وتصغوا إلى المتحدثين وعندما تجدون فرصة العمل تُقاطعون هذه الجلسات للإستمرار في المطالعة، حسناً لنعود إلى موضوع أدعياء التنوير الذين إعتبروا أن العقائد ليست من الدين ولا من المعارف وقالوا إن المعارف متساوية وليس هناك حقٌ أو باطلٌ وليس كل شيء قابل للتحكيم ولو كانت المعارف والعقائد جزءً من الدين فإننا ـ والقول لأدعياء التنوير ـ لا يمكننا إصدار الأحكام، لأن الآيات والروايات والتفاسير مختلفة في كل حادثة فلا وجود للأمور المُسلَّم بها في الإسلام ولكل إنسان قراءته من الدين وليست هناك قراءة رسمية أو غير رسمية وعليه أصبح الدين بلا قوانين سياسية ولا إجتماعية ولا إقتصادية أولاً، وأن الدين بات بلا معارف ولا عقائد ثانية وأن هذه الأمور عفى عليها الدهر ولكل إنسان طريقة يُفسر بها الدين ويمكن إعتبار بعض الأمور أصلية وأخرى فرعية وبالعكس ولك أن تصقل الدين وتحذف ما تشاء حتى يأتي متناسقاً مع المدرسة الفكرية التي تريدها لا فرق بين وجوديةٍ أو فاشيةٍ أو ليبرالية أو ماركسية! قيل إنهم وضعوا سريراً ومددوا عليه الناس فمن كانت قامته أطول قطعوا

وعليه فإن الأنبياء جاؤوا من أجل متوسطي البشر بحسب أدعياء التنوير وهنا نسأل هل تُقرون يا أدعياء التنوير بأن الدين جاء من أجل الروحانيات والعرفان؟ أليس كذلك؟ أي العرفان الفردي والروحانية الشخصية وقد تبيَّن فيما تقدم أنكم تعتبرون الأخلاق ما وراء الدين وإنها غير دينية ولذلك طرحوا الأخلاق العلمانية وقالوا إن فائدة الدين تكمن في الدفاع عن الأخلاق العلمانية أمام عوام الناس وعندها يكون إسمها أخلاقاً دينية وبخلافه فلا وجود للأخلاق الدينية وغير الدينية والأخلاق غير قابلةٍ للتحكيم، بل ينبغي أن يكون هناك تعددية أخلاقية وكل الأعمال والأفعال محمودةٌ أي سلامٌ دائم ولا يمكن نعت أي موضوع بالقول أنه سيئ، بالطبع هناك في الثقافة الإسلامية قولٌ يدعو إلى عدم إصدار الأحكام ضد أحد وفي الروايات الشيعية إشارة إلى نهي الإنسان عن القطع بذهاب أحدٍ إلى الجنة وآخر إلى النار فلا يمكن إصدار الحكم إعتباطاً فالمُسيء ربما تاب قبل وفاته وربَّ إنسانٍ مؤمنٍ قام بالكثير من التضحيات وإذا به يُصاب بسوء العاقبة، فهناك الكثير من الناس وأخص بالذكر نفسي لسنا على جادة الصواب وهناك الكثير من المؤمنين قدموا التضحيات لكن سوء العاقبة حولهم إلى كبار مُجرمي التاريخ فليس في التاريخ البشري ذنبٌ أكبر من قتل الإمام علي والحسين والأئمة المعصومين عليهم السلام فقد قتلوا على يد أناسٍ كانوا قبل إنحرافهم مؤمنين، فابن ملجم كان من قُدامَ جند علي وحارب بمعية الإمام في عدة حروب، أما شمر الذي إحتزَّ رأس الحسين فقد كان من قادة جند الإمام علي في حرب صفين لكنه وبعد عقدين من الزمن جاء لقتل الإمام الحسين في كربلاء وفي رواياتنا دعوة لحسن الظن بالناس والتأكيد على شك الإنسان في بصره ونفسه قبل إتهام الاخرين بالخطأ، لكننا والمصيبة أعظم نرى عكس هذا نُنزه أنفسنا ونتهم الآخرين، كل ما قلناه صحيح في باب القضاء لكن هذا الأمر لا يستدعي أن نقول إن القيم نسبية في الإسلام، نعلم جيداً أن بعض الأعمال تقود للجنة وبعضها تقود إلى النار، لكننا نجهل باطن الإنسان والأعمال، فالإنسان بحر عجيب وعميق يعادل سبعة محيطات ونحن نجهل مستقبلنا فما بالك بالآخرين ولا يمكن للإنسان أن يتنبأ بما سيؤول إليه مصيره إلا أولئك المتقين الذين أعدّوا النفس لكل شيء لكن الفكر العلماني لا يؤمن بهذا بل يقول إن الأخلاق أمرٌ نسبي الكل طيبون حتى الشيطان فقد كان طيباً لأنه مخلوق الله، بالطبع نال

موضوع الشيطان قسطاً وافراً من البحث والإهتمام في أروقة الفلسفة الدينية في الغرب ومن قِبل قداما المتكلمين إن مبحث مهم، حتى انهم خاضوا في سبب خلق الشيطان ومسألة الخير والشر وإنتخاب الإنسان ومسؤوليته، سعادته وشقائه، تكوينه وتشريعه وهو خارج عن موضوع بحثنا بالطبع.

وبالعودة إلى الإسلام الذي أنقص منه العلمانيون وأدعياء التنوير أحكامه وقوانينه وآدابه الإجتماعية ومعارفه وعقائده وقالوا إنه قابلٌ للتفسير كيفما تشاؤون أسقط الأخلاق منه ليتحول الدين إلى علماني يتبعه العامة ولو جئنا إلى الروحانيات والعرفان سنرى أنهم يُشكلون عليهما أيضاً، لأن الفكر الإسلامي عرفان وكشف وشهود ومُكاشفة وهذه أمور معرفية قابلة للفهم، فالعرفان يعني المعرفة والكشف، لكن الثقافة الغربية والإلهيات الجديدة في الغرب جاءت بكلماتٍ ننعتها بالعرفانية لكنها ضد المعرفة وهو ذات التعبير الذي أطلقه «سورين كيركيجارد» وهو رائد المدرسة الوجودية حيث نشر هذا القس الأوروبي كتاباً حول النبي إبراهيم عليه السلام وقد تُرجم، وله أيضاً كتاب «خوف ورعدة» وهو إنسان يشعر بهاجس روحاني في الغرب روحانية على قدر المقام بالطبع وهو عرَّاب العرفان الأوروبي المتأخر وقد خرجت من رحم فكره الوجودي مدرسة الحداثة وروحانياتها التي تُعدُّ علمانية بالطبع، يقول هذا القس: الشجاعة الكبيرة هي القفز إلى المجهول، أي إن قيمة الإيمان هي القفز في مكانٍ تجهله ومع ذلك تُقدم على القفز في الظلام ولو وضعنا هذا المنطق مقابل تعريف العرفان في الثقافة الإسلامية لنجد أن العرفان عندنا يعني القفز إلى النور وصوب النور وإرتقاء قُلل المعرفة والمعرفة الشهودية والباطنية إنه وعي من نوع فاخر ولطيف إنه أكثر لطفاً من المعرفة الأصولية والعقلية والمعرفة الحسية والتجريبية لا أدعي لنفسي انني من هؤلاء لكن مطالعتي لأقوال أهل العرفان ومطالعتهم تُشير إلى أن الوعي الذي وصل إليه أهل العرفان ظريف للغاية وهكذا يصف أدعياء التنوير الدين بالظاهرة ما فوق التصور كالتخاطر وإنها تبريرٌ ماتريالي طبيعي وعليه لسنا بحاجةٍ إلى فرض وجود الله والنبوة، فالنبوة في تفسيرهم نوع من الشاعرية ويرون أن العرفان غير مرتبط بالقوانين والأحكام والعقائد والمعارف وعرفانهم يختلف عن العرفان في الإسلام حيث يرتبط العرفان الإسلامي بالقوانين الإسلامية وبالمعارف والعقائد الإسلامية وهي جميعاً تركيب واحد،

فالإسلام مثلثٌ من ثلاثة أضلاع العقائد والأخلاق والأحكام وعندما نقول إن الروحانية وباطن الدين وقوانينه ومعارفه جاءت لإنماء المعنويات الإنسانية المرتبطة بالوعي والقوانين والتصرف الإجتماعي الفردي في مجال العبادة والأسرة والسياسة والإقتصاد وكل شيء وهي غير قابلة للتفكيك نرى انهم يقولون إنها غير مرتبطة بالعقائد والقوانين ويستندون إلى الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1].

نعم ربما كانت الروحانية غير ملزمة وهذا جميل حيث يقولون إن كل الأمور الباطنية والروحانية نسبية لعدم إمتلاكها إعتباراً أو حجية معرفية وهي ليست وعياً بل نوع من الأحاسيس ولتكن من أي نوع كانت ولكن لو سألناهم هل تقبلون إذاً بالقوانين التعبُّدية؟ لقالوا لك: لا. ولو سألتهم: هل تقبلون بالإحكام الإسلامية على أقل تقدير كأحكام الصلاة والحج والصوم؟ سيقولون لك: لا أيضاً، لأن فيها مشكلة هي الأخرى، يقولون إن شكل العبادة غير مهم، فالبوذية نوع من التجربة الروحانية والعرفان للهنود الحُمر والمسلمون كذلك واليهود الكل متساوٍ في العبادة لا أريد هنا أن أقول إن عبادة غير المسلمين فاقدة للقيمة ولا أريد القول إن غير المسلمين يدخلون النار والمسلمون جميعاً في الجنة لا أقول هذا والقرآن يشير الى إن الكثير من المسلمين جهنَّميون وكذلك رواياتنا أيضا تشير الى أن الكثير من غير المسلمين والمستضعفين الذين لم تصلهم رسالة الإسلام لن يُزج بهم إلى النار ولكن هذا لا يدعونا للقبول برأي النسبية الذي يطرحه أدعياء التنوير وللقبول بمبدء أن كل العقائد متساوية وأن أشكال العبادات غير مرتبطة بمحتواها وكلها متساوية ولك أن تتعبد بأي طريقةٍ شئت.

كنا في مطار فرانكفورت وكانت هناك غرفة مخصصة للعبادة يحق للجميع التعبد فيها كل على شاكلته، بالطبع التعبد في غير هذا المكان ممنوع، توجهنا بمعية بعض الإخوان إلى الصلاة لاحظنا أن مسيحياً يتعبد وإلى جواره أحد اليهود وبوذيٌّ في طرف ثالث وكان هناك شخص من اتباع الديانات الجديدة حيث وضع أمامه صورةً وأجرى مقابلها حركات رياضية وهو مغمض العينين، الشيء الملفت أن كل من جاء إلى غرفة التعبد هذه جاء لإقامة نوع من الإرتباط مع القوى ما وراء الطبيعة، إذاً الجميع مُذعِن أن الإرتباط مع عالم

---

١. البقرة: ٢٥٦.

ما وراء الطبيعة واجب، هنا يتبادر إلى الذهن سؤال: هل أن تصور الجميع عن الرب واحد ومتساوٍ؟ ألا يختلف الرب من دين لآخر؟ ورغم أن أصل توجُّهِهم إلى الله واحد لكن نوع التوجه مُهمٌ بمقدار أصل التوجه بل هو أكثر أهمية.

لابد أنكم سمعتم بالمذاهب التي ظهرت في القارة الأمريكية حيث اقدم اتباعها ومن أجل التقرب إلى الله بعملية إنتحارٍ جماعي، تجمع المئات حول بعضهم البعض وتلوا الأذكار وانتحروا بشكل جماعي تقرباً إلى ربهم! إنه أوج العرفان! وفي اليابان كانت هناك فرقة تؤمن بقتل الناس خدمةً لهم وعندما قُبض على زعمائها إعترفوا بأنهم يُريدون إيصال الناس إلى حال الروحانية والعرفان أسرع مما ينبغي! فمن يقول إن شكل العبادة وطريقة تجسُّم العرفان ليس مهماً بل أن أصل العرفان مهم وحسب، أن دور الشريعة وفقه الشريعة وأحكام العبادة يتجلَّى في تعليم الناس أن أصل الإلتفات إلى ما وراء الطبيعة لازم لكنه غير كافٍ عليك إصلاح عقائدك ونوع معرفة الله إن الشرك والتوحيد كلاهما يختصان بما وراء الطبيعة، المشرك يؤمن بما وراء الطبيعة أيضاً إنه غير مُلحد ويؤمن بوجود الله الواحد وآلهة متفرقون، إنه أكثر إيماناً منا وعليه فإن طريقة ومنهجية التوجه إلى قوى ما وراء الطبيعة ومعارف ذات المبنى النظري للتوجه الروحاني ونتائجه وشكل العبادة فيه أمورٌ مهمة في الشكل والمحتوى ومرتبطة بعضها ببعض، في المقابل نرى أدعياء التنوير أقدموا بأشكالٍ مختلفةٍ على الإنتقاص من الدين، لأنهم في الغرب لابد وأن يفعلوا ذلك، لأن الدين الذي عُرض عليهم دين منسوخ حسب النظرية الإسلامية فنحن نؤمن أن ما عُرض من المسيحية واليهودية وما يؤمنون به من دين ومن رب وما هو موجود بين أيديهم اليوم ليس ذلكم الدين الذي بُشِّروا به، بل أن النسخة الموجودة بين أيديهم مُحرَّفة، بالطبع هناك أمورٌ في الدين لا تُحسب بحساب المادة والعقل وعندما يريد مجتمع ما ان يكون مؤمناً شريطة أن يتوافق ذلك مع العقل وحقوق الإنسان فعليه أن يُغير بالدين ويحذف بعض أقسامه ويجري عمليات تجميل له عندها لن يبقى من الدين غير إسمه وطبقاً للإحصاءات الرسمية الأخيرة فإن ثُلثي القساوسة لأحد المذاهب المسيحية في الولايات المتحدة يعانون من أمراض جنسية، لأنهم مثليون! لماذا وقعوا في هذا الحضيض؟ لأنهم وضعوا الأخلاق والتوحيد والروحانيات جانباً وآمنوا بالتساهل والتسامح، قالوا إن الجميع على حق حتى يتخلصوا

من العنف والعصبية، رفضوا الحقائق فبات كل شيء مباحاً وجائزاً، أية مسؤولية له قبالة العدالة وحقوق الإنسان وقبالة الجحفلة المتواصلة في العالم والجرائم واستخدام القنابل الكيمياوية والنووية من أنت حتى تتحدث باسم الرب والمسيح؟ ماذا إذن عن حقوق الإنسان أين العقل والمنطق؟ في أول الثورة جاء ممثل عن البابا إلى إيران فقال له الإمام أريد منكم أن تكونوا والبابا مسيحيين بحقٍ وأن تسلكوا ذات الطريق الذي سلكه السيد المسيح وفي واحدةٍ من الندوات إلتقيت بروفسوراً أمريكياً يعتنق المذهب البروتستانتي فقال لي إنه كان ضمن الوفد المسيحي الذي إلتقى الإمام أول الثورة واضاف لقد تأملت كثيراً في مقولة الإمام لنا كونوا مسيحيين بحق وأقولها بصدقٍ لقد تراجع مسيحيو الغرب عن الدين كثيراً واليوم يُريدون فعل ذات الشيء مع الإسلام يتصورون أن الإسلام يعيش المشكلات التي عاشتها الديانة المسيحية في الغرب، ربما يسأل سائلٌ لماذا نعيش اليوم إنحداراً في واقع المسلمين؟ ويقول آخر إلى متى نقف خلف السلف من المسلمين ونقول كنا كذا وكذا، علينا الإعتراف بواقع الحال؟ ويسأل أخر لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم إذن .. ويستنتج أن العيب في الإسلام لكن هذا غير صحيحٍ ليس بوسع أحد أن يتهم الإسلام بالرجعية والإنحطاط والقول إن الفكر والأحكام والقيم الإسلامية تدعوا لبقاء المسلمين متأخرين فقراء ومغلوب على أمرهم وأن يظلوا مُقلدين وتابعين، لو فتشنا القرآن لن نعثر على آيةٍ تدعو لذلك ولن نجد هذا في الثقافة الإسلامية أيضاً وكلما بحثنا في الإسلام وجدنا أنه يدعو إلى العقلانية والنظم والسعي والحساب والتدبر والمطالعة والتعاون والإتحاد والصدق في مسائل الدين والدنيا والآخرة، كم منا لا يكذب في يومه؟ كم منا صادق في أفعاله وأقواله؟ أليس الإسلام حساساً في مسألة الإسراف والتبذير؟ أليست حياتنا الفردية سواءٌ كنا مؤمنين أو غير ملتزمين مليئة بالإسراف؟ ألم يؤكد الإسلام على ضرورة الإهتمام بالجار؟ وقال لو نام إنسانٌ وجاره جائع فهو ليس بمسلم، إنه ليس من امة محمد ﷺ[1]، ويلٌ للمصلين أي ويلٌ للمؤمنين الذين يمنعون الماعون أي يقفون امام إعطاء الزكاة وتعديل الثروة ولا يحضون على طعام المسكين[2] هكذا يؤكد الإسلام على التكافل الإجتماعي، فأين نحن من الإسلام؟

---

١ . راجع: المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ١٥٤) برقم: (١٢٧٤١).

٢ . راجع: سورة الماعون.

فلو عملنا بالإسلام بحذافيره لن تجدوا أي إنحطاطٍ أو تخلف أو رجعية، هلّا دللتموني على مجتمعٍ لا يكذب ولا يأكل الربا ويُفكر بالجار ولا يسرف ولا يُبذر ولا يستغيب ولا يخون الأمانة ويكون متخلفاً أو رجعياً، يؤكد الإسلام على مبدأ: «زكاة العلم نشره»[1] ويوجب على جميع الأمة التعلّم سواء كانت إمرأة أو رجل، فهل هكذا مجتمع سيكون منحطاً يا ترى؟ إن المجتمع الذي يفكر في جاره الجائع مجتمعٌ ينعدم فيه الفقر والجوع وإن المجتمع الذي يدار بواسطة أهل الخبرة والإطلاع والمتدينين مجتمع ناجح، فالمتخصص الذي ليس له دين يضر ولا ينفع حيث يستغل تخصصه في سرقة المجتمع مثلما هو حال العلم والتقنية الموجودة في الغرب والمخصصة للحيوانات لا للإنسان.

شكراً لكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

١. جامع احاديث الشيعة، ج ٨، ص ٣١٣.

هوية الإنسان المعاصر

إسهامات العلماء المسلمين في الحضارة المعاصرة وتأسيسهم للعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهادة الجامعية ليست مقياساً للعلم

ذاتَ مرةٍ أيُها الأخوة والأخوات تحدثتُ في جامعةِ طهران حولَ المرحوم الشهيد مُرتضى المُطهري والمرحوم الدكتور الشهيد علي شريعتي، بالطبع دعوني أفتحُ شارحةً هُنا لأقول ليست كل النظريات والأفكار الواردة في أقوال وتأليفات العُظماء مقبولةً مئةً في المئة. وهذا ليس صحيحاً، كذلك من الناحية العلمية ولا حتى الثقافية، بل أنَّ المنطق يقول على الإنسان أن يتفحصَ الأقوال والأفكار ويتبينَ الصحيحَ منها والخطأ أحياناً، لا بل أن يُعطي درجةً لكل فكرةٍ وطرحٍ ومشروع. ولا أتصورُ أنه من المنطقي أن نَجْزِمَ بصحةِ وبُطلان أقوال وأفكار أحدهم دونَ ما تحقيق وهذا الكلام يصدق على هاتين الشخصيتين العظيمتين اللتينِ كانت لهما آثارٌ طيبةٌ في الثورة الإسلامية والمجتمع في إيران.

إنَّ الموضوع الذي طرحتهُ في جامعة طهران والحديث ما يزال حول الشهيد المُطهَّري وعلي شريعتي كانا يُعانيانِ أثناء التدريس بالنسبة إلى الشهيد المُطهري في مسألة شهادة الحقوق الجامعية. وبالنسبة للدكتور شريعتي سواءً كانَ في الخارج أو في إيران كانوا يقولونَ له إنَّ شهادتكم الجامعية غيرُ مُستوفية وأنَّكَ لا تعرفُ شيئاً و... إلخ. ثُمَّ وجَّهوا لي سؤالاً،

هل أنني عندما أعيبُ على الشهادات الجامعية، فهل يعني أني أعُارض الاتحادَ بين الحوزة العلمية والجامعة؟ فأجبتُ أنني لم أعُارض ولم أتفوه بهذا الكلام وقلتُ لهم لدينا نوعان من الوحدة: وحدةُ أجزاء الحَجَرْ، أي الوحدةَ الراكدةَ والصامتة. هذا هو نوع من الوحدة المنسجمة في شكلها الفاقدة لكلِ خصوصية. أمَّا الوحدةُ التي ننشُدُها فهي وحدةُ أمواج البحر، الوحدة المتحركة والسيَّالة إنها نوعٌ من التعامل الحي، إنها نوعٌ من الحركة ليست نوماً تاريخياً، لكننا نتمتعُ بحسّ الحركة والتكامل.

أتصورُ أنَّ طريقةَ استماع البعض للمحاضرات مغلوطة فهم يُريدونَ أن يسمعوا ما يحلو لهم لا ما يقوله المُحاضر. بالطبع أريدُ الإشارةَ هنا إلى أنَّ التعامل العلمي والنقدي مع الجميع جائز، بل هوَ لازم عقلاً وشرعاً، وتطور ونمو العلوم مقرونٌ بالنقدِ لآثار وتصانيف السلف الصالح، وقد تمت إساءةُ فهمِ ماكنتُ قصدته من خلال الحديثِ عن مشكلة الرَجُلين مع الأوساط الجامعية، حيثُ كانت قد أثيرت الشبهات حولَ مدارجهم العلمية، قد يُثار الكلام حولَ الشهيد شريعتي في دراسته لعلم الاجتماع بصورةٍ كاملة، وإن كان كذلك فهوَ ليس عيباً في الرجل، فليكن أنَّ الرجل لم يدرس الأمر بصورته الأكاديمية، وهذا ليس عيباً، لأنَّ الرجلَ تحدثَ بمقدارِ مئةِ مُدرسٍ وأُستاذٍ جامعي وخاضَ في علم الاجتماع العملي، وللشهيد كلمةٌ طريفةٌ حولَ علم الاجتماع حيثُ يقول: (إنَّ علمَ الاجتماع هو عنوانٌ جاهزٌ لكل الأمور الغير العلمية أو أنها تفتقرُ إلى الدليل المُحكم أو التي ليس لها اسمٌ يتم وُضع هذا الاسم أي العلوم الانسانية)، وكان يقول لو سئل طالبٌ جامعيٌّ في أوروبا ماذا تدرس؟ يردُّ بالقول أنه يدرس الكيمياء أو الاقتصاد أو الفيزياء أو الطب فهذه علومٌ معلومةٌ معروفة. في بعض الأحيان كان البعض يكتب رسالته الجامعية حولَ موضوعٍ لا يمتُّ بصلةٍ للعلوم المعروفة، على سبيل المثال، كأن تكونَ حولَ مراسمِ ختان الذكور في إيران. ثُمَّ كان يُسألُ حولَ أيّ موضوعٍ أخذتَ الدكتوراه؟ لم يستطع أن يقولَ لهم حولَ الختان! فكان عليه إضافةُ مفردةِ log الأجنبية إلى مهنة الختان.

الإنسان القديم والإنسان الجديد

عندما طرحتُ هذا الموضوع كانَ القصدُ أن أقولَ إنَّ الذينَ يُشكِلونَ على الشهيدين مُطَهَّري وشريعتي في أنهُما لم يدرُسَا علمَ الاجتماع بشكلٍ أصولي، كانوا يمنحونَ الشهادة

الكاملة لكُلِّ من كان أنيقاً ويحفظُ عدداً من المعلومات عن ظهرِ قلب. لقد أخطأ البعضُ الفهم، لم نكن نعني عِلمَ الرجُلين، بل كانَ إشكالاً على الجامعة في تصرُّفاتها.

السؤال الثاني المطروح هوَ: ما الفرقُ بينَ الإنسان القديم والإنسان الجديد؟ هل أنَّ الأخيرَ أهلٌ للسيطرة على الدُنيا ويتسلح بالعلوم الجديدة؟ والإنسان القديم لم يكن كذلك؟

لقد أشرتُ سابقاً إلى أنَّ البعضَ صنعَ أسطورةً باسم الإنسان المعاصر والإنسان القديم. صحيحٌ أنَّ الإنسانَ يتكاملُ في العلمِ والتجربة والصناعة وطريقة الحياة وهوَ تحولٌ في حدِ ذاتهِ، ورُغمَ أنَّ البعضَ يُعارضُ إطلاقَ كلمة التكامل على الأمر، إلا أنهُ في بعض النواحي تكاملٌ لا محالة. لكنَّ الاختلافَ التاريخي والتجريبي والمدني لا يعني اختلافاً ذاتياً في ذاتِ بشر اليوم عن ذاتِ بَشَرْ الأمس أو قبلَ ألفِ عام أو الاختلاف في حد التعارُف. علينا التدّقيقُ في هذه الناحية هل هيَ على هذا الحال؟ وهل يعني ذلكَ أننا أمامَ بشرٍ قديمٍ وآخر جديد؟ وهُما مختلفان ومُتباينان ذاتاً وأصلاً؟ وهل أنَّ الإنسانَ القديم، ولنفترض قبل ألفِ عام لم يكن يُفكر في السيطرةِ على الطبيعة ومواردها؟ وهل أنَّ ما حدثَ مع الإنسان الجديد كانَ عبارةً عن قفزةٍ نوعية جرّتهُ إلى هذه الأفكار؟ وهل مثلُ هذه التساؤلات صحيحةٌ أساساً؟

لقد طُرحت هذه التساؤلات في القرن التاسع عشر أي بعدَ قرنين من الثورة الصناعية، لكن هذا الأمر لم يكن على هذه الحالة بعدَ عشرات السنين من الطرح الأولي لها اليوم. أي أنّهم اليوم باتو يتراجعونَ عِدةَ كيلو متراتٍ عن هذه الأقوال في المحافل العلمية، اللهمَ إلا في المحافل السياسية والمباحث اليومية وعليه فلا أصلَ علمياً للأمر.

إنَّ المباحث العلمية في عالم اليوم تؤكدُ عَدَمَ صحةِ هذه المقولات وتذهبُ الدراسات الحديثة إلى أنَّ الكثيرَ من الحوادث التي شهدها العالم كانت عفوية، أي لا دليلَ علمياً لما توصلَ إليه الإنسان. ولم تكن هناك طريقةٌ منهجيةٌ في الاكتشافات، وليسَ هناكَ في الغرب من يقول اليوم إنَّ ما تمَّ التوصل إليه هوَ عبارةٌ عن علومٍ جديدةٍ واكتشافاتٍ مُبرمجة. لقد أشرتُ سابقاً إلى أنَّ الاستقراءَ كانَ بمثابة العصا المُسلطة على رأس الفلسفة والسيف المُشرع على النصوص الدينية التي نُعتت لفترةٍ زمنية أنها ضدَّ العلم. وكذلك رُفعَ ضدَّ كُلِ تجربةٍ جديدةٍ وما وراءَ الإدراكِ والمشاعر حتى باتت مُكفَّرةً ومدعاةً للسُخرية.

لكنَّ الأوضاعَ تغيرت وفقدت أصالةُ التجربةِ مُناصيرها، ولم يبقَ هناكَ من يدعمُها. ويُقال اليوم ألّا فائدةَ من تجربةٍ دونَما نظريةٍ ذهنيةٍ ودونَ مُساعدة العقل. إنَّ القوانين العلمية والاكتشافات هيَ نتاجُ النشاطات العشوائية غير المُنظمة، وتعّد النَظمُ والترتيبُ عاملاً مُساعداً لا أكثر، لأنَّ التجربة في حدِّ ذاتها ليست قانوناً علمياً. لقد تراجعت نظريةُ التجربة المادية، فقد تراجعَ أولئكَ الذين كانوا يشترطونَ الإثباتَ في القولِ بعلميةِ الأمور، وقالوا إنَّ الإثباتَ لا يحتاجُ إلى التجربة بل النفي والإبطال بحاجةٍ إلى تجربة. لكننا نواجهُ اليوم صرعةً جديدة تقول: إنَّ النفيَ بالتجربةِ غيرُ ضروري، لأنهُ لا يُعَدُّ شرطاً علمياً لشيء، لأنَّ العلومَ لا تمتلكُ ملاكاً في الأساس. فأولئكَ الذين قالوا خلالَ القرنين الماضيين إنَّ الكمية الدينية والفلسفية والعقلية والأخلاقية غيرُ ممكنة، لأنهم كانوا يرونَ أنَّ هذه المباحثَ مشكوكٌ فيها. يقولونَ إنَّ الحكمية العلمية والتجريبية غيرُ ممكنةٍ أيضاً. عن أي بشرٍ جديد يتحدثُ هؤلاء؟

العلوم التجريبية

لقد أذعنوا اليوم أنَّ العلومَ التجريبية لا يمكنها أن تكونَ قاعدةً صُلبةً أو هراوةً فوقَ المعارف والمفاهيم، وعليها أن تكونَ أكثرَ تواضُعاً وأقلَّ ضجةً. يقولونَ ليسَ هناكَ في العلوم الجديدة أمرٌ علميٌّ قطعي، أمَّا اليوم فلسانُ حالهم يقول: إننا نقومُ بعمليةِ حدسٍ ونقومُ بالإبطال حتى إشعارٍ آخر، ليسَ لنا علمٌ بالأمر، يكفينا أن يقومَ العلمُ بحلِ مشاكلِ الحياة، ليس مهماً أن يكونَ الأمرُ صحيحاً من عدمه، وعلى كلِّ أمةٍ أن تُقدِمَ على حل مشاكلها وهكذا يُصبح العلمُ مناطقياً. وهكذا فإنَّ كُلَ أمةٍ تُفكرُ بصورةٍ علمية، سيمكنها التغلب على مشاكلها، بل على الإنسان أن يقولَ قولَهُ ويفعلَ فعلتهُ، والأمورُ ليست بمقدسةٍ وليست هناكَ خطوطٌ حمراء.

العلوم التجريبية الطبيعية منها والإنسانية تختلفُ عن بعضها البعض. كان أصحابُ المذهب الوضعي يقولونَ إنَّ العلومَ هيَ مثلُ العلوم التجريبية وهيَ كالعلوم الجديدة، وكلُ عُلمٍ قائمٌ على الميتافيزيقية. هذه آخر النظريات التي نالت رضاهم، أي أنَّ للعلوم التجريبية أصولَ ما بعدَ الطبيعة، وهم يمنحونَ كُلَ علمٍ اعتباراً نسبياً وفقاً للأصول الميتافيزيقية أولاً، ويسوقونهُ إلى ما يُريدونَ ثانياً. وهكذا ارتضوا أن العلومَ الإنسانية التي ولِدت أو أُستُنسخت

في الغربِ على أنها علومٌ طبيعية، لم تكن ذاتُها العلوم الإنسانية، وللعلوم الطبيعية نظريتُها حتى إشعارٍ آخر.

ومن خلال ما تقدمَّ يتبينُّ أنهُ ليس هناكَ معنىً لرُقيّ العلمِ أو تكامُله. يقولونَ ذلكَ أيضاً، وأصبحوا اليوم يقولونَ: إننا نواجهُ أزمةً في العلومِ في المعارف، وقَبولُ مبدأ النسبيةِ والتاريخية. أي أنَّ كافةَ النظريات باتَ لها تاريخُ استهلاك وليست هناكَ نظريةٌ صحيحةٌ بالمفهوم العام في العلوم الجديدة. وأذعنوا أنَّ كلَ النظريات في مُختلف مجالات العلوم مقبولةٌ حتى إشعارٍ آخر. أي أنَّ لها تاريخٌ مُحددٌ وهيَ نسبيةٌ ومُرتبطةٌ بالنتائج. وعليه فإنَّ العلومَ الطبيعية الجديدة تعرضت للكوارث الطبيعية هي الأخرى، وبعدَ أن كانت الإلهياتُ مشكوكاً بها، باتت الطبيعياتُ كذلك. وهكذا بدأت وحدةُ العلومِ تفقد معناها، وهكذا يفقد الارتباط المنطقي بينَ العلومِ معناه. وهناك الكثيرُ منَ الأمورِ المطروحةِ في الدُنيا والجامعات لا يُعرفُ مدى ارتباطها بالعلوم المختلفة، لأنَّ حُدودَ العلوم قد تغيرت وباتت مُعرضةً للتساؤل. بالطبع هذا ليسَ عيباً في العلوم ولا أقصدُ هُنا إهانة علمٍ ما، لكننا عندما نتحدثُ عن الإنسان الجديد والعلم والعلوم الجديدة، ينبغي علينا التوقف لمعرفة الأمور التي يتمُّ الحديثُ عنها أولاً، وينبغي ألا نُكرّرَ أقوالَ القرن الثامن عشر والتاسع عشر ثانياً، وعلينا أن نُدركَ أنَّ الأكاديميات في عالم اليوم لا تعترفُ بالعلوم دونَما تطبيق، سواءٌ كانَ التطبيقُ علمياً أو غيرَ علمي. إنَّ الأسلوبَ العلمي كانَ يوماً ما أسطورةً ودلالةً على الحداثة والبشر الجديد، لكنها اليوم زالت وباتت في خبركان. وأمّا ما يوصف اليوم بالبشر القديم، فهي دلالةٌ على أنهُ غيرُ عارفٍ بالعلوم الجديدة، وليسَ له في السيطرة على العالم. هنا يتبادرُ إلى الذهن هل كانَ الإنسان القديم غيرَ قادرٍ على السيطرة على العالم حقاً؟

أثر العلماء المسلمين على العلوم وتقسيماتها

بتصوري أنَّ معانيَ البشر الجديد والقديم ماهيَ إلا أسطورة، لأننا لانعرفُ شيئاً بهذه الأوصاف. بشرٌ قديمٌ وآخر جديد! فإنَّ ذاتَ البشر لم يتغيَّر، يمكن أن تكونَ العوارضُ قد تغيَّرت وليست ذاتُ البشر. نعم فإنَّ تجارب البشر قد تغيَّرت، وكذا الآليات والتقنية، حتى أنَّ جانباً منها يُعدُ بتصوري تكامُلاً وهؤلاء يقولون: إنَّ تكامل العلم أدّى إلى ظهورِ أزمةٍ باسمِ العلم، لأنَّ التكامل يعني المُضي في خطٍ سيرٍ ثابتٍ مُتحد الموضوع بارتباطٍ منطقي

يأخذُ منحاً تصاعُدياً، وعندما يتعثرُ الارتباطُ فإنَّ التكامل سيكون بلا معنى. يقولونَ إنَّ التكامل يعني أنهُ عندما تمضي الأمور وفقَ جدولٍ زمنيٍّ نحوَ الرُّقي، تبلغُ حداً ليسَ معلوماً فيهِ أيُّ شيء، عندها يشكونَ في أصلِ التكامل من عدمه. لذا نراهم يقولون أننا نواجهُ أزمةً في المنهجية العلمية المُعاصرة وليسَ أمامنا مُشكلةٌ في المُضي صوبَ تكامل المباحث العلمية.

دعوني أضرِبُ لكم مثلاً لِتلاحظوا هل أنَّ الحضارة الإسلامية تخصُّ العصر التقليدي القديم أم عصرَ الحداثة والعصرَنة؟ أي هل أنَّ مُفكري وعلماء المسلمين هم من البشر القديم أم الجديد؟ وطبقاً للتقسيمات الموجودة فهم من البشر التقليديينَ القُدامى. والسؤال المطروح، أنَّ ما أقوله هوَ من كتب التاريخ العلمية للغربيين أنفُسهم، لم يكتب المسلمونَ ذلك، لقد دوَّنتُ بعضَ الملاحظات من كتب الغربيين تقول أنَّ أساسَ العلوم التجريبية والعلوم الحديثة وكذا السيطرة على الطبيعة كانَ من نتاجات العلماء المسلمين الذين عاشوا إبانَ الحضارة الإسلامية والفارقُ أنَّ المسلمينَ لم ينفوا الإلهَيات أو الدين.

لكننا في الغربِ نلاحظ أنهُ كُلما ازدادت حرارة محرّك العلوم التجريبية خفت حِدةُ الإلهيات المسيحية لا بل حُذفت، لكنَ الأمرَ كانَ معكوساً في المجتمع الإسلامي، وعليه فإنَّ الالتفات إلى العلوم الجديدة والسيطرة على الطبيعة كانَ موائماً للاتجاه الديني ومُسايراً له. وعليه فإنَّ البشرَ لم يتغير وذاته القديم والجديد لا فرق بينهما. نعم هناكَ فروقٌ في الاستفادة من العلوم، فالتجارب العلمية الجديدة تغيرت عما كانَ عليه الوضعُ سابقاً، وعليه نصلُ إلى أنَّ مُحرّكَ الحداثة والتطور العلمي كانَ عندَ المسلمينَ الأوائل أو ما يصطلحونَ عليه مع التقليديين. بالطبع فإننا نرفضُ هذه التسمية التي ابتدعوها للمسلمين بالتقليديين، ولأنفسهم بالحداثويين والمعاصرين فهذه أسطورةٌ جديدة من نتاجات الغرب. وحتى الساعة طرحَ الغربيون عشرات الأقوال المُتناقضة وليسَ في أحدها أيُّ استدلالٍ أو إثبات. وبتصوري كلُ هذه المقولات إنما طُرحت للتأثير على قدرة الذهن وسأتناولُ بعضَ الموضوعات الواردة في كُتبهم حولَ علماء المسلمين، ومكانتهم من العلوم الجديدة وسيطرة المسلمين على الطبيعة، لنُبينَ هل أنَّ النعتَ الدائم للمسلمينَ من أنهم أُناسٌ تقليديونَ وقدماء يتطابقُ مع ما هوَ واردٌ في كتبهم أم لا؟

إنهم يقولونَ: إنَّ تصنيفَ العلوم الجديدة تمّتْ في أول مرة على يد المسلمين، ولو نظرنا إلى آثارٍ غيرَ إحصاء العلوم للفارابي والذي كانَ له الحظُ الأوفر في تقسيم وتدويل العلوم في العالم، مثلُ تصانيف غوندو سالينوز والذي يُعرَّفُ في الغربِ على أنهُ المنعطف في تصنيف العلوم الحديثة، لوجدنا أنَّ كتابَ الأخير عبارةٌ عن اقتباس وإعادة كتابةٍ لإحصاء علوم الفارابي. على أيةِ حال فإنَّ تقسيمَ العلوم الجديدة تمَّ على أيدي المسلمين بقرونٍ قبلَ الغربيين. بالطبع مع عدم نسيانٍ ما وراءَ الطبيعة، وأنَّ الإنسان الجديد المُعاصر والمُتحضر في الغرب وصلَ إلى هذه العلوم متأخراً بقرونٍ بعدَ وصول البشر التقليدي المُسلم والقديم لها.

وهنا أُحاولُ أن أمُرَّ مرورَ الكرام قُبالةَ بعضِ كتاباتهم بخصوصِ المسلمين وتأليفاتهم، حيثُ ذكروا أنَّ أُسُسَ الرسم على السطح الكُروي وعلم المساحة والتسطيح وحساب السرعة والمسير وسرعة حركة القمر وصور الكواكب على سطحٍ مستوٍ والحسابات الكروية وحساب سطح الكرة الأرضية في وقتٍ لم تكن الأقمار الصناعية موجودة. وفي وقتٍ كانَ العالم يظنُّ أنَّ الأرضَ مُسطحةٌ غيرُ كُروية، أي أنَّ المُسلمينَ وصلُوا إلى كُلِ هذه العلوم قبلَ خمسة أو ستةِ قرونٍ قبلَ الغربيين. وقامَ العلماء المسلمون وغالبيتُهم من الإيرانيين بصُنعِ نماذجَ تُشيرُ إلى الفضاءِ والأجواء والنجوم. وهكذا فإنَّ المُسلمينَ ضالعونَ ومُتَبَحِّرونَ في الفيزياء والميكانيك والنجومِ والهيئة. وكانت الثورة العلمية قد حَصلت في العالم الإسلامي أولاً ثُمَّ ما لَبِث الغربُ أن قامَ بالترجمة. وبعدَ قرونٍ طُرِحَتْ هذه العلوم بأسماء العلماء الأوروبيين. ولو رَجعنا إلى أبو ريحان لوجدنا أنَّهُ أقدمَ على اكتشافاتهِ قبلَ أربعة أو خمسةِ قرون مما وصلَ إليه الأوروبيون في علم المِساحة والتسطيح. تُضافُ إلى ذلكَ دراساتٌ سياحيةٌ طرحها المُسلمونَ قبلَ قرونٍ مما ذَكَرهُ الغربيون، أي أنَّ العلماء المسلمين كانوا كاشفينَ للأراضي والأماكن الجديدة في العالم وكاشفي أحوال التيارات وغيرها. وإنَّ النظرية التي طرحها البيروني في باب التصاعُد الهندسي والبيوت الشطرنجية الشكل، كانت بمثابة التطور الكبير الشكل في عالم الرياضيات والهندسة، وأنَّ آراءهُ قريبةً اليوم من آراء العلماء المُتأخرينَ في العالم. لقد توصلَ المسلمونَ إلى الحركة في البحار بواسطةِ البوصلة واستطاعوا بواسطة ذلكَ صناعةَ السّفُن التي تطوي المُحيطات والبحار، وكانَ المُسلمونَ أولَ من وضعَ خارطة اليابسة والمُحيطات في الكرة الأرضية.

إنَّ ما يتحدثونَ عنهُ من كشفِ القارة الأمريكية بواسطةِ كريستوفركولومبُس وآخرين ليسَ صحيحاً، فقد أشارت آثارُ المُسلمين إلى ذلكَ، وتمَّ وصفُ القارة الأمريكية قبلَ خمسمائةِ عام من كشفِ كولومبُس[1]. كما هوَ معلومٌ أنَّ البحّارة المسلمين كانوا ينطلقونَ من إسبانيا الأندلس إلى تلك القارة. وكانوا يتعاملونَ مع أبنائها وفقاً للأصول التجارية ويعودونَ أدراجهم دونَ حادثٍ يُذكر. أمّا بالنسبة للغربيين فقد ذهبوا إلى مناطق الهنود الحُمر وقاتلوهم بُغية السيطرة على أراضيهم لذلكَ تأخروا عن المُسلمين في الوصول إلى هناك. وكما هو معلوم فإنَّ البعضَ كانَ يتحدثُ عن كشف القارة الأمريكية باعتبارهِ بدايةَ عصر الحداثة في تاريخ الحضارة الغربية، حيثُ بدأت حركةُ الملاحة البحرية، لكنها في حقيقة الأمر جاءت مُتأخرةً عن حركة الملاحة الإسلامية بقرون. لقد كانَ المُسلمونَ أولَ من عبرَ منطقة (رأس الرجاء الصالح) ورسموا الخارطة الجغرافيةَ وأوردوا ذلكَ في تصانيفهم، وبعدَ قرون توصلَ الأوروبيون إلى ذلك.

العلماء المسلمون والرياضيات

أمّا في باب الهندسة الفضائية، فهم يعتبرون أنَّ (السّير لانوفشيري) في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي هو واضعُ أُسسِ هذه الهندسة. لقد تحدثَ ذاتُ السّير في تصانيفه عن نظريات الخواجة نصير الدين الطوسي ومنها الأساسُ الخامس من أُسس الهندسة المُسطحة للخواجة نصير، والتي اعتبرت فيما بعد أساسٌ للهندسة الفضائية، وهم لا يتردّدونَ في قولِ إنَّ تأريخ هذه الهندسة يعودُ إلى القرن الثامن عشر، لكن الحقيقة ليست كذلك. لو عُدنا إلى الهندسة التحليلية في تاريخ العلوم الجديدة لوجدنا أنّهم ينسبونها إلى ديكارت[2]، لكنَّ الحقيقة أنَّ اسمَ هذه الهندسة وكذلكَ علمَ الجبر هوَ من اختراع المسلمين، فالرياضيات والهندسة هيَ من ابتداع المُسلمين. وبعدَ أن تمَّ تلفيقُ الجبر بالهندسة أصبحَ اسمُها الهندسة التحليلية، ولم يكن هناك وجودٌ للحضارة الإسلامية وعلم الجبر والهندسة التحليلية قبل ذلك أي قبلَ الحضارةَ الإسلامية. وهكذا فقد وصلَ المسلمونَ إلى هذه الهندسة قبلَ خمسةِ قرونٍ من ديكارت.

---

1. Christopher columbus.
2. Descartes.

ونرى هذا الأمر يتكرر في كل أنواع العلوم، حيثُ يقومُ الأوروبيونَ بنسبها إلى أنفسهم بكلِ وقاحةٍ، ولو راجعتم التاريخ المُدوَّن لـلاحظتم أنهم حذفوا منهُ تاريخَ الحضارة الإسلامية، وإبداعات المُسلمين في مُختلف العلوم مثل الطب والجراحة والنجوم وأمثالها. إنَّ ما نقوله اليوم طبقاً لما هوَ موجودٌ في تاريخهم، هو في الواقع نزرٌ يسير مما بقيَ من الحقيقة.

لقد أقدم الخوارزميُّ على اختراع علم الجبر، وجاءَ ذلكَ في كتابٍ مُستقلٍ حمَلَ عنوان (الجبر والمُقابلة)، وكانَ بمثابة العلم المُستقل عن الهندسة، هكذا وردَ في النصوص الغربية. وعندما يقول الفرنسيونَ ما هو الخوارزمي، لكنَّ لفظةُ تغير لقد وصلَ إلى مُحاسبة المخروطِ وحلِ معادلات الدرجة الثانية. وحتى أوائل القرن السابع عشر كانَ كتابُ الخوارزمي نصاً أصلياً لتدريس مادة الجبر والمُقابلة في الجامعات الأوروبية، حيثُ قامَ روبرت جِسري[1] بترجمتهِ في أواخر القرن السابع عشر إلى اللغة الإنكليزية وطُبعَ في لندن.

وكمثالٍ آخر فإنَّ مُعادلةَ السرعة والمُعادلات المرتبطة بتعيين مواقعِ ومنازل القمر هي من اختراعِ أبي الوفاء وهوَ عالمٌ إيراني. وهيَ نظريةٌ ينسبونها اليوم إلى تُفك راها في القرن السابع عشر الميلادي، لكنَّ أبا الوفاء ذكرَ ذلكَ في تصانيفهِ وتصانيفِ طلبتهِ قبل ستمائةِ عام. وعندما يسألُ الإنسان عن العلوم الجديدة، يطرحُونَ أمامه عدداً من الأسماء الأوروبية تعودُ إلى القرون الميلادية السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، لكنها في الأصلِ تعودُ إلى علماء مُسلمين كانوا في القرون الميلادية الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. على سبيل المثال انظروا إلى علم المثلثات من آثار الخواجة كتاب (شكلُ القِطاع) وهوَ كتابٌ تمَّت ترجمتهُ إلى الإنكليزية والفرنسية قبلَ عدة قرون وباتَ مرجعَ الأوروبيينَ في المُثلثات المستوية والكروية وكشف المُعادلات الستة للمثلث الكروي القائم الزاوية.

إنَّ اتساعَ رُقعة الرياضيات مدينةٌ لكشوفٍ كبيرة في الرياضيات قامَ بها المُسلمون وقد نُسبت إلى آخرينَ جاؤوا بعدَ مئات السنين، وهنا أودُّ أن أذكُرَ لكم عبارةً أوردها أحدُ المؤرخينَ في مجال العلوم والحضارة وهو بريطانيُّ الجنسية حيثُ يقول: لقد حلَّ المسلمونَ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي أكثر المسائل الهندسية والرياضية تعقيداً، وأقدموا على حلِّ مُعادلات الجبر من الدرجة الثالثة بواسطة المقاطع المخروطية. وأبدعوا

1. Robert jessri.

أيّما إبداعٍ في المثلثات الكروية. ويُضيفُ هذا المؤرّخ البريطاني، في ظلّ هذه الظروف كانت الرياضياتُ لدى أوروبا لاتعدُ كونها حسابَ جدول الضرب والجمع والتفريق والتقويم والأمور الابتدائية، في حين أنَّ المسلمينَ في ذلك الوقت كانوا ينقدونَ الرياضيينَ اليونان وهندستهم ورفضوا أصولَ إقليدس[1] و بطليموس[2]. وبعدَ ثلاثة قرون تمت ترجمةُ هذا الكتاب من العربية إلى الإنكليزية، وهناكَ تتعرفُ أوروبا على أصلِ هندسة إقليدس، في حين أنَّ المسلمينَ كتبوا نقداً على ذلك قبلَ مئات السنين. وهناكَ الكسور العشرية واكتشافاتٌ رياضيةٌ أخرى بحدودِ نحو ثلاثينَ مسألةً رياضية وهندسية.

لقد أوردوا أسماءَ العشراتِ من العلماء من أمثالِ (غياث الدين الكاشاني)، و (ابن هيثم)، و (أبي سهل)، و(ابن نجدين)، و(أبي الحسن الهروي)، وغفلوا أو تغافلوا عن أسماء العشرات أو المئات الآخرين من العلماء في الرياضيات، ولم يوردوا أسمائهم في تاريخ العلم الجديد. حتى أنَّ بعضَ الأسماء لم تردْ على خواطرهم ومسامعهم من قبل.

وهنا لابدَّ من الإشارةِ إلى إبداع علامة الصفر واستخدامات العدد، والذي تمَّ على يد (محمد بن أحمد)، حيثُ اقترحَ دائرةً صغيرةً لمساواة طرفي المعادلة، ومن ثمَّ وضعوا اسمَ الصفر له. وقد تمت ترجمتهُ إلى النصوص المترجمة بكلمةِ صفر بالإنكليزية. ولو رجعنا أكبرَ نظريات الضوء في العالم لوجدنا أنفسنا أمامَ (ابن الهيثم) والمعروفِ في الغرب باسم الهازم. والأخيرُ من أكبر المبدعينَ في علم الضوء، ووضعَ أسساً مهمةً في باب الأجرام الفلكية. وقد أوجدَ علماً جديداً باسم معرفة الضوء، وهو عبارةٌ عن تركيبٍ من الرياضيات والفيزياء، وقد أثبتَ حركة الضوء المستقيمة وحلَّل خصوصيات الظل واستخدام العدسات، وطريقة انتاج العدسات المختلفة ولأغراضٍ متعددة. وهو صاحبُ نظرية الغرفة المُظلمة والتحليل الرياضي لحركة النور وكانَ قابَ قوسين أو أدنى من صناعة المُكبرات، وبعدَ ثلاثة قرونٍ من دراساته ظهرت مجموعةٌ من العلماء في الغرب أُطلقَ عليهم اسمُ مُخترعي المُكبرة وواصلَ هؤلاء البحثَ واتجهوا صوبَ اختراع الميكروسكوب و التليسكوب و اختراعاتٍ أخرى أدت إلى ظهور العلم الجديد.

---

1. Eqlidis.
2. Ptolemy.

والطريفُ أنَّ هؤلاء ذكروا في تحقيقاتهم وأبحاثهم أنهُ لولا دراساتُ وأبحاثُ ابن الهيثم لما كانوا وصلوا إلى ما وصلوا إليه. وهناك الكثيرُ من الاكتشافات والاختراعات التي توصل لها العلماء المسلمون، حيثُ كانوا أولَ من استخدمَ الأسطوانة المُدرجة في المُختبرات، وقد أجروا التجارب الكثيرة لتحديد زاوية انكسار النور في الماء والهواء والأجسام الشفافة، وقد واصلَ تلامذةُ العلماء المسلمين المسير.

وهناكَ (جابر ابنُ حيان) وهو من الأسماء اللامعة، وعلماء لم نسمع بهم، عملوا على قانون مُحاسبة الزوايا الصغيرة وقانون معرفة تكبير العدسات المُسطحة والمُحدبة. ويقول بعضُ المؤرخين والناقدين الغربيين: إنَّ ما حصلَ في القرن السابع عشر والثامن عشر لم يكن ثورةً علميةً ولا تقنيةً ولا ثورةً صناعيةً في أوروبا وهو ما يُصطلحُ عليه اسمُ: بداية العهد الجديد والبشر الجديد والعصرية والحداثوية، وأنَّ الأمرَ لم يكن يتمَّ لولا مطالعةُ وترجمةُ المكتبات العلمية للمسلمين، ودونَ استنساخِ آثارهم والصناعات الموجودة.

بعدها جاءت أسرةُ (موسى بنُ شاكر)، حيثُ كانت هذه الأسرة أهلَ معرفةٍ بالميكانيك والفيزياء فرداً فرداً، حيثُ دوَّنَ أبناؤه فيما بعد كتاب (الحيل)، وكانت هذه المؤلفات مرجعاً في باب صناعة الأدوات والأجهزة الميكانيكية والرافعات، والتي أخذت فيما بعد أبعاداً جديدةً بمرور الأزمنة، وكانت الأساس في خلق الثورة الصناعية في أوروبا.

ولو عُدنا إلى المقولة التي تتحدثُ عن البشر الجديد والقديم، لوجدنا أنَّ كُلَّ العلوم تطورت بفعل الأساس الذي طرحهُ المسلمون، وعليه فإنَّ ما يُطلقُ عليه الغرب اسمَ البشر التقليديين، هم من قامَ بكلِ هذه الابداعات والاكتشافات والاختراعات أو وضعَ لبنتها الأساسية. هنا لابُدَّ من الإشارةِ وبما أنني من نُقاد النظرية الغربية، فإنني هنا لا أريدُ أن يخرُجَ الإنسانُ بنتيجةٍ مؤداها أنَّ الدفاع عن الأمور الدينية لا يعني إنكارَ البشر الجديد ونموهُ وتكاملهُ وعصريتهُ. أنا أحاول القول: إننا ينبغي أن نوجدَ تعريفاً مُتقناً وصحيحاً. نعم ينبغي أن نوجدَ تعريفاً صحيحاً ومُتقناً للعلم. وينبغي أن يتضحَ هل أنَّ معرفةَ الإنسان هي حقيقةُ معرفةٍ تفي بالغرضِ لما للإنسان من مكانةٍ كبيرة؟ أو علينا حذفُ هذه المقولة العلمية التجريبية وعلينا الأخذُ بيدها نحو التكامل؟

إنَّ ما نقوله في هذه العُجالة هو أنَّ ما يطرحونهُ تحتَ شعار انجازات الإنسان المعاصر

ليست سقفاً بل هو القاعُ والسطح، وعلينا أن نمضي إلى الأمام أكثرفأكثر. ثمَّ علينا أن نعرفَ أين هي البداية؟ وأن نُدقِّقَ في التفسير المطروح حولَ كلِ قضية، هل هو صحيحٌ أم لا؟ كما هو معلومٌ فإنَّ أفضلَ طريقٍ لتعطيل الفكر والعقلانية في أمةٍ ما، هو اختلاق الأساطير. وأفضلُ طريقٍ لتعطيل إرادة ومضي هؤلاء نحو التنمية هو الإيمان بالجبرية. كلنا يعرفُ ولا أحدَ يُنكرُ أنَّ الحياةَ المكررة دون تطورٍ وتحول ستكون مُملة وغير قابلة للتحمُّل، والبشر لا يمكن له أن يظلَّ بلا تطور، والأمرُ لا بُدَ منه وغير قابل للاجتناب، وعليه فإننا على ما يبدو لا نُريدُ طرحَ قضية التطور والتحول وظهور العلوم الجديدة، بل نريدُ طرحَ مُغالطةٍ بين كل هذا الكلام الصحيح والصائب المطروح. وعلى ما يبدو وللأسف فإنَّ هذه الأفكار تسيطر على الكثير من الأذهان وعلينا السعي لإزالة هذه المُغالطة وتعريتها[١].

ها قد شارفَ وقتُ المحاضرة على الانتهاء أشكركم جميعاً على صبركم وحلمكم واستماعكم لأقوالي وربما كانَ بعضُ الحاضرين لا يوافق على ما جاءَ في حديثي وله استدلالاته الفقهية، فلا ضيراً في ذلك لأنَّ القصدَ هو بحثٌ علمي وعُلمائي وإحياءٌ لهذا المسير دونَ أن نتناسى التمسك بالوحدة والأخوة، والوقوف صفاً واحداً مع الأخوة في كافة المذاهب سواءً من الشوافع أو الأحناف في إيران.

شكراً لكم مرةً أُخرى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

١ . للمزيد من المعلومات حول تاريخ العلوم عند المسلمين راجعوا: المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم، ابن‌الجوزي، جمال‌الدين أبى الفرج عبدالرحمن، الجزءالاول، حققه وقدم له الاستاد الدكتور سهيل زكار؛ مراتب العلوم، ابن‌حزم الأندلسي، أحمد، تحقيق دكتراحسان عباس؛ تجارب‌الأمم، إبن‌مسكويه، أبوعلى، الجزء الاول، حققه و قدم له الدكتور أبوالقاسم إمامى.؛ الآثار الباقية عن القرون الخالية، البيروني، أبوريحان.

الشجاعة المعرفية

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ أحبتي، إخوتي وأخواتي الطلبة الجامعيين، لقد وعدتكم فيما مضى أن أجيب على الأسئلة التي تلقيتها منكم وقد تم تصنيفها إلى مجموعات متنوعة لكنها في الأغلب تحكي حالة يشترك فيها الطالب الجامعي وهمومه في المرحلة الراهنة، هناك فرق كبير بين الأسئلة والأجوبة المتعارفة في عالم اليوم والأسئلة والأجوبة على الطريقة السقراطية[1] ليس الحوار عبارة عن نقل معلومات باتجاه واحد من المحاضر إلى السامع لإفهامه بدائيات الأمور، الحوار الحقيقي السقراطي عبارة عن طريقة للتفكير وانتقاله وهذا المنهج مثمر ودقيق لكنه مشكل في نفس الوقت وهو يتعدى طريقة السؤال والجواب المتّبعة في عالم اليوم، لو نظرنا إلى الحوارات السقراطية في تاريخ الفلسفة سنرى أنها تدور حول أهم القضايا التي ماتزال قائمة بعد أكثر من ألفي عام للتساؤلات الأصلية للبشر وستظل هكذا إلى آخر الدنيا، لأنها شفافة وبسيطة وأن يتم بواسطتها الحوار بين السائل والمجيب ويُحوّل هذا النوع من الحوار أكثر الأسئلة تعقيداً إلى أكثرها بديهية حيث يصل السائل إلى جوابه بنفسه ومشاركته وبواسطة ذهنه ولن يكون هناك ضغط على ذهنه ويتم الوصول إلى النتيجة المرجوة بمشاركته وهذه الحوارات السقراطية في تاريخ الفلسفة والأخلاق كانت حوارات ناجحة للغاية وللأسف فإن نظامنا التعليمي في

---

١ . طريقة سقراط هي نوع من أنواع الجدل بين أفراد متعارضي المواقف تقوم على تبادل الأسئلة والأجوبة لإثارة التعليل العقلي وإنارة الأفكار الجديدة. وتعتمد بالعادة على تحويل الدفاع عن فكرة معينة إلى هجوم على نقيضها كما تتم بمحاولة جر الخصم إلى مناقضة نفسه. (راجع: ويكيبيديا).

الجامعات والحوزات العلمية لا يتبع هذا الأسلوب كثيراً.

إن الحوارات السقراطية تعدّ نوعاً من التعليم الفكري وهي نوع من تمارين الحكمة والتعقل بمشاركة الطرفين لا بل هي أبعد من التدريس والتعليم والمعلوماتية، إنها مشاركة في الكشف، إنها تعاونية معرفية يتشارك فيها السائل والمجيب معاً وكان لها دورٌ كبيرٌ في تقدم المعرفة، لأن هذه الطريقة تقود المتحدث والمخاطب إلى النتيجة المطلوبة أي أن لا وجود للقوالب الجاهزة ولو كانت فهي غير ظاهرة للعلن ليأتي أحدهم ويُحملها على الآخر، علينا أن نتعلم هذه الطريقة في الحوار وكما يقول بعض الأصدقاء إنها نوع من المفاكرة أي الفكر الإثنيني أي الفكر المشترك وهو ليس من نوع علامات الاستفهام التي ترسم أمام السائل وعلى المسؤول حلها، بالطبع لا أريد النيل من الأسئلة الاستفهامية وإجاباتها التي تقود إلى فهم ووعي الناس ففيها الكثير من الفوائد، لكنني أتصور لو كان لنا كهذه الحوارات لكان أفضل، إذاً علينا إحياء هذه الحوارات في الجامعات والحوزات العلمية وفي مثل هذه الحوارات يخرج الإنسان من الحوار وهو مفعمٌ بالنشاط والحيوية، لأن الجواب لم يفرض عليه، وأن المتحدث ساعده من الوصول بنفسه إلى الجواب والنتيجة.

هذه هي طريقة حديثة وحوار وتعليم الأنبياء مع مخاطبيهم على مر التاريخ وهكذا صنع الأنبياء والحكماء الربانيون في التاريخ، لم يأتوا التحميل أي تحميل البشر عدداً من الأمور الحتمية والجزمية ولم يقولوا من لم يرد الدخول في جهنم عليه أن يتبعنا بل جاؤوا إلى الناس وأفهموهم الأمور حتى اطمأن الناس أن النتيجة التي أعلنها الأنبياء والحكماء لهم هي النتيجة الحقة ولنكن مطمئنين لو أن الإنسان أُقحم بنتيجةٍ لم يتوصل إليها فإنه سوف لن يدافع عنها وقت الحاجة ولا تتصوروا أن الجهاد المرير الذي قام به كبار المجاهدين والشهداء على طول التاريخ في طريق المعرفة والحقيقة من أمثال جهاد الشهيد الأول والثاني والثالث وكل الشهداء الذين لم يتم إحصائهم بعد لم يقوموا بالتضحيات والإصرار على نظرياتهم من خلال تبادل بعض الكلمات، فلو لم تكن هذه النتائج مقبولة لديهم بصورة كاملة لما رأيناهم يُضحون بحياتهم من أجلها ولم يكن الإنسان ليتنازل عن ماله وروحه وسمعته وعن أولاده وحيثيته، وما ثبت على مسألة ما إلا لأنه قد وصل إليها بكل جوارحه وأفكاره وكانوا هم أيضاً مشاركين في مجال الفهم والمعرفة ولم تكن المسائل قد حُمّلت عليهم ولو تم إيجاد

هذا النظام في مؤسساتنا التربوية والتعليمية فإننا سنصل إلى حقائق أكبر وأكبر في المستقبل والنتيجة سوف لن تنحصر في المعلوماتية، بل ستتعدى ذلك إلى ولادة تدريجية لليقين في نظر المشاهدين والناظرين وسيكون هناك سلوك عقليّ برضا الطرفين ولن يكون تركها عملية بسيطة في المستقبل.

واحدة من الأمور المحيرة للمعرفيين في الغرب خلال العقد الأخير قضية التضحية من أجل الفكر، إنهم يقولون إن الفيزيائيين والكيميائيين عندما يصلون إلى نظرية ما يطرحون أدلةً كافية لإثباتها، لكنهم لا يؤمنون بها، إن الإيمان بالشيء أمر مزعج لأسماعهم في إطار الأمور المعرفية للعلم، فهم غير مؤمنين بالمباحث المطروحة من قبلهم وهكذا رأيهم بالنسبة إلى النظريات الدينية والأخلاقية والفلسفية، يتساءلون كيف أن إنساناً يستعد للموت من أجل فكرة هل ينبغي أن يموت الإنسان من أجل هذه الأمور! النظرية ملك للإنسان لا الإنسان ملك للنظرية، بالطبع من منظارهم الأمر صحيحٌ كل شيء للإنسان، لأن كل شيء يقاس بالمصالح الكمية للفرد، لكن هؤلاء يواجهون مستوى أعلى وفي مجال أرفع وأكثر تعالياً يواجهون أموراً مختلفة يقولون إن الماء مكونٌ من واحد هيدروجين واثنين أوكسجين أليس كذلك؟ فهذا لا يحتاج للدفاع والإصرار، لكن الأمر في سطح معرفي آخر يختلف فإن هناك حقائق لو وصل إليها الإنسان وقبلها وفهمها فإن هذه الأمور ستكون مرتبطة بمستقبله، بخلوده، بإنسانيته وهي ليست بالأمر الذي يمكن العبور منه ولن يعود الأمر مهماً بالنسبة للإنسان وقع في خطر أم لا، قُبل أم رُفض، من أخطائهم أنهم يعتبرون الإيمان المستظهر بأدلة قوية عقلية تعصباً ولو كان كذلك فهذا يعني عصبية في النظرية وعنفاً في العمل، أي مقاومة وتصلباً وعلاج هذا الأمر بالنسبة لهم التشكيك في كل المصاديق والقول إن مصالح الإنسان الدنيوية أهم من المبدأ والفكرة وفي تلك الرؤية ليست هناك ما هو أهم من المصالح المادية، يقولون ليس هناك في الحياة شيء يستحق أن يضحي الإنسان من أجله بمصالحه، مفهوم التضحية هو الاختيار المتعمَّد والواعي للعذاب، هذه كلمات يُروجونها في المنطق المادي، لأن المفهوم المادي يرى أن كل الأشياء هي للمصلحة الشخصية وليس هنالك شيء أعلى من المصلحة المادية، وفي الطريقة التي تحدثت عنها في الحوار سنصل إلى سلوك عقلي يتم برضى الطرفين وسنبلغ قمة المنطق والاستدلال والتسامح، إضافة إلى أننا سنكون مطمئنين

بقيمة النتيجة التي سنحققها وعلينا الحفاظ عليها لا أن نقوم باختطاف إنتاج وثمار الآخرين ولذلك عُدَّ سقراط شهيد المعرفة، شهيد طريق المعرفة عندما اعتقل لأنه نطق بشيء لا يؤمن به المشككون وأصحاب اللذة مارسوا عليه الضغوط كي يتراجع فسجنوه فأوصل طلبته ومُريدوه رسالة له في السجن مفادها: أن بالإمكان إخراجك من السجن لتفرّ، فقال لهم: لم الفرار؟ عليَّ أن أصمد، لأنني خاطرت بنفسي من أجل إيماني بنظريتي ولو قررت فهذا سيعني أن الحقائق التي حُبست من أجلها غير جديرة بالتضحية وهكذا تجرع الموت بنفسه وأراد بفعلته هذه أن يقول لنا أن الحقيقة التي ضحى من أجلها كانت تستحق تماماً أن يفعل ذلك ولا قيمة للحياة التي لا تدوم يومان أن يفعل ذلك، إن الحياة بلا حقيقة، الحقيقة التي توصلت إليها ثم أتغاضى عنها من أجل الخوف أو من أجل الحياة لا تساوي شيئاً بالنسبة لي، إن على الطلبة الكرام أن يلتفتوا إلى أن الحوار والسؤال والأجوبة لا تعني تناول كبسولة من المعلومات دون جهدٍ أو تعب وهذا أمر مغلوط وخطر للمعرفة.

واحدة من الآفات في ثقافتنا الجامعية والحوزوية أن البعض يجيب عن يقين مُعلَّب دونما تعب يقول بعض الأصدقاء إنه يريد مطالعة بعض من الكتب وهو يتصور أن مطالعة خمسة كتب ستحوّله إلى إنسانٍ آخر ويصبح كيمياوياً! لا يفكر ان المتحدثين والعلماء قضوا حياتهم في مطالعة الكتب ثلاثة أو أربعة عقود وهم يطالعون الكتب كتبوا آلاف الصفحات وألقوا بها جانباً في بداية الأمر فلا يتصور أحد أن مطالعة خمسة كتب ستجعل منه علامة الدهر وسيفهم كل الأمور، لا أو يريد أن يصبح مُنظّراً وهذه حالة غير صحية أو أخلاقية في مجال العلم تتعارض مع تكامل وتنامي النفس الإنسانية، ينبغي ألا يفكر الإنسان في كبسولة العلم أو حبة الفضيلة يبتلعها مع كوب ماء وينتهي كل شيء، ينبغي أن تكون مطالعة الكتاب صفة متجذرة وأصلية عند الطالب ثم فيما تبقى من يومه يهتم بأمورٍ أخرى، فعلى الإنسان أن يحترف مطالعة الكتب في الدرجة الأولى ويتابع الحقيقة والعلم، إن التعلم هو أصل القضية لا فرع، ليست المطالعة لوقت الفراغ ينبغي أن تكون باقي الأوقات أي أوقات الفراغ لدعم مشروع القراءة والمطالعة، هذا هو معنى الطالب الجامعي أو الطالب في الحوزات العلمية، يتصور البعض خطأً أن العلم عبارة عن مجموعة من المصطلحات والألفاظ والمعادلات المتعددة والمتعددة الاستخدام يمكن عبرها فعل ما نريد هذا خطأ وهو

حالة خطرة فعوضاً عن إنماء النفس وتعاليها وعوضاً عن تسلق مدارج العلوم نقوم بإحضار العلم وإنزاله فيما بيننا، أي نقوم بتقليل المفاهيم المتعالية لتصل إلينا، هناك موضوع جميل دعوني أذكره لكم لقد طرح حكماءنا موضوعاً مهماً وجديراً باسم اتحاد العالم والمعلوم، اتحاد العلم والعالم والمعلوم، واتحاد العاقل والمعقول وهناك يوضحون كيف إننا نعلم شيئاً فإن ذلك يعني أن نفسنا وروحنا ذهبت إلى محضر ذلك العلم لا أن يتم الإتيان بالعلم إلى محضر النفس وهذا يعني أن العلم هيئته خارجية وهذا يعني أيضاً اننا نصعد سلّماً إلى الأعلى لنكون في حضرة العلم وثانياً سيكون العالم والمعلوم واحداً، أي العالم هو المعلوم وهو العلم ذاته هو العالم والعلم، أي إن كل إنسان يصبح ذات الحقائق التي توصل إليها، أي أن العاقل والمعقول والعقل في هذا البيان الذي قال به بعض الحكماء المسلمين واحد.

وقد بدأوا في هذا البحث من مسألة علم الله بالأشياء بعدها بحثوا في علم المجردات ومن ثم علم العقول والنفوس وبعدها في مجال علم الإنسان وماهي نظرته إلى الأشياء وكيف نطّلع كبشرٍ على الأمور وماذا يعني الاطلاع وما هو معنى المعرفة وهي من المباحث المهمة في أصل علم المعرفة وهذه النظرية تعني ان علمنا للأشياء ليس معناه أن يأتينا شيء من الخارج يضاف إلينا ويعرض علينا العلم ليس كذلك، بل إننا سنصبح شيئاً آخر سنتحد معه ومعنى هذا أن الوصول إلى الحقيقة هو نتاج رقي النفس أولاً واتحاد النفس مع الحقيقة ثانياً وهذا بحث مهم للغاية في معرفة الوجود النفساني وهناك آثار مهمة للغاية في معرفة العلم والذهن وكذلك في علم النفس هناك آثار كثيرة وفي التربية والتعليم آثار مهمة وكثيرة خلاصتها هو ما عرضنا له ولا أريد الإطالة في هذا البحث لأنه بحاجة إلى مقدمات وهو ليس موضوع محاضرتنا هذه بالإضافة إلى أن صوتي يعاني من مشكلة البحة لكنها مقدمة ضرورية فيما خص الارتباط مع التفسير لكسب المعرفة ويعني كيفية النظر إلى العلم، لأن الحكماء يقولون إن الصورة لا يمكن دركها إلا إذا أصبحت مجردة، أي أن موطنها أمر مجرد كما يقولون نفساً كانت أم عقلاً ووجوده الذهني يعبّر عنه بالعلم أو المعرفة وهو مستقلٌ كسطحٍ مستقلٍ من الوجود حيث نصبح نحن وهو واحد وعليه، فإن العلم لا يعني مقداراً من الكلمات على الورق، العلم حقيقة خارجية مجردة أولاً ولها مراتب ثانية وعندما نذهب في حضوره نصبح وإياه واحد، لأننا نتحد مع المعلومات والمعقولات التي

نحصل عليها ونعقلها، أي إننا نرحل سوية من هذا العالم ونحشر سوية هي ذات معقولاتنا، نفسنا هي أخلاقنا وعقائدنا وأعمالنا ولها جذورٌ في معقولاتنا ومنشأها هي المعقولات وهذا بحث مهم، بالطبع هو ليس مورد إجماع الحكماء والفلاسفة المسلمين فهناك من يعارض هذه النظرية لكن ثمة من يوافقها من كبار الشخصيات الإسلامية كما لها معارضون كبار أيضاً، لكن المهم والمثير بالنسبة لي هنا وأردت الإشارة إليه قليلاً هنا هو نوع زاوية النظر إلى العلم والمعرفة وبخلافه فهي ليست معروضة للبحث في هذه المحاضرة فقد كانت شخصيات كبيرة من أمثال ابن سينا مخالفاً في بعض آثاره لهذه النظرية وموافقاً لها في بعض الآثار الأخرى، ويوافق في مجال العلوم المجردة ويُقربها، أي أننا نتّحد مع ما نعلم فتكون معلوماتنا «هي نحن ونحن هي» ويرفض هذا التقسيم في عدد آخر من آثاره، أما شيخ الإشراق فيوافق بشكلٍ ما عليها، و الملا صدرا يوافق هذه النظرية بقوة ويدافع عنها ويقبلها بالكامل حتى أنه يُبسط في الإدراكات الحسية ويقول إننا نقوم ببعض الأشياء على الإدراكات الحسية وسيقع اتحاد في ما بعد ويضيف أدلة أخرى إلى هذه القضية وينبغي أن تكون نظرتنا إلى المعرفة والفهم والنتيجة المحصلة من العلم ونظرتنا إليه مرتقيا ومتعالية أكثر فأكثر، وآخر نكتة وددت الإشارة إليها في هذه المقدمة المطولة هي أن نظرية الاتحاد أي وحدتنا مع المعقولات سواءً قبلنا بها أو رفضناها علينا أن نعي إن قبلناها بأي معنى نغفل ذلك، لأن من الممكن وضع معانٍ متعددة لها والموضوع المهم الذي ينفع اجتماعنا هذا هو أن نعي ارتباط العلم مع المسؤولية، لأن العلم يأتي بالمسؤولية على الإنسان، فالإنسان بعد العلم ليس كمن قبله ولو كان واحداً لتبين أن لا وجود للعلم أساساً بل هو عبارة عن مصطلحات مضبوطة ولأن الإنسان سيختلف من حيث المسؤولية وما أقوله هو أبعد من العلوم الطبيعية والتجريبية والحسية وهو الذي ينبغي في الحقيقة إطلاق كلمة العلم عليه بالدرجة الأولى، لأن هذه العلوم علوم مهمة للغاية تجريبية ولكنها أداة لاستمرار الحياة. لكن العلم الذي نتحدث عنه هو الهدف والأصل الغائي من الخلق، أي إننا جئنا إلى هذه الدنيا من أجل العلم وفي خدمة العلم وتحت إشراف العلم وبخلافه فإنه ليس في صالح البشرية بل بضررها تماماً وإن كان تحت ظله تابعاً له فإنه سيكون علماً ذا قيمة للغاية وسيكون هذا العلم أداةً تجريبية حسية في ذلك المسار، لأنه سيكون في خدمة بناء الإنسان

المتعالي وعندها يصبح العلم التجريبي حساً والعلم الآلي مقدساً ويلق قيمة دينية ويصبح في إطار التكليف الشرعي أساساً لا يمكن أن يصبح الإنسان متعلماً ولا يحصل في جوهره تغيير ولا يمكن أن يصبح الإنسان لا أبالياً بعد العلم ولن يستوي تصرفه قبل العلم وبعده وإن لم يغير العلم تصرفاتنا فهو ليس بعلمٍ إذاً، إن التغيير العلمي عند الإنسان يوجد له مسؤولية وتقول رواياتنا أن حساب يوم القيامة يكون على أساس درك وفهم وعلوم عقل الإنسان كلٌّ يحاسب على مقدار ما يعلم وعليه، فلن نكون متساوون في المحاسبة ولكلٍ كتابه يوم القيامة كلٌّ بقدر عقله ودركه من العالم والحياة وعليه فإن مسؤولية من يعلم ليست كمن لا يعلم ومنزلتهما غير واحدة ومنزلتهما ومسؤوليتهما تختلفان، عندما يسأل القرآن في الآيات ويطرح تساؤلاً فإنه يدعو الإنسان صوب التفكير والتأمل وفي كل ما يأتي بالآيات القرآنية من «هل» أو «همزة الاستفهام» و «كيف» يريد فيها دعوة الإنسان إلى الفكر، يريد إجبار الإنسان على التفكير والتأمل، لا يريد جواباً بالضرورة وعندما يقول الباري عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] هذا سؤال لو سألتموه من طفل مميز فإنه سيجيبكم بصورة صحيحة، تُرى لماذا يسأل القرآن هذا السؤال البديهي؟ إنه يفعل ذلك كي يذكرنا بمسؤوليتنا ويقول إن المنزلة ليست واحدة وهناك رواية[2] تقول إن الجهلاء مسؤولون عن عدم ذهابهم إلى العلماء، لن يستطيعوا القول إننا كنا جهلة سيكونون مسؤولين لماذا لم يذهبوا إلى العلماء، وفي نفس الوقت فإن العلماء مسؤولون أكثر، لأنهم لم يذهبوا صوب الجهلاء، لماذا؟ لأن العلم يأتي بالمسؤولية، لأن الجاهل لو قام بالفعل ألف مرة وفعله العالم أيضاً ربما كان في الظاهر واحداً لكنه في الواقع ليس واحداً إنهما عملان في إيجابيته وسلبيته، حسنةً كانت أم سيئة، إن حسنات العالم والجاهل تختلفان وكذلك الأمر بالنسبة إلى السيئات ربما كانا في الظاهر عملاً واحداً، لأن العمل ليس في فعله الظاهري بل هو في روح العمل ونيته الفكرية، أي استدلال العمل مع الاستدلال عليه و هذا أيضاً جزءٌ من العلم واستدلال العالم يختلف مع استدلال الجاهل للقيام بعمل ما وعليه فإنا نكون أمام عملين وليس عملاً ظاهرياً واحداً وهذه نكات مهمة ربما جذور ذلك تعود

---

١ . الزمر: ٩.

٢ . راجع: عوالي اللئالي، ج ٤، ص ٧١.

إلى النكتة التي طرحتها، فالعلم مهم وجزءٌ من أهميته يعود إلى أن العلم التزامٌ ومسؤولية والعالم بلا مسؤولية ليس بعالم، بل هو حافظٌ لمجموعة من الكلمات والمصطلحات وعليه فإن كان تنويرياً يجلس في قُللٍ رفيعة وعالماً حوزوياً ينشد الراحة ولا يتحمل المسؤولية فإن الأمر لا يفرق والعالم الذي يستعلي وينظر إلى البشرية نظرةً فوقيةً متكبرة ويرى كل البشرية أناساً وذرات صغيرة ولا فائدة من ورائها، مخلوقات إضافية فإنها جاءت بالصدفة مثل هؤلاء الناس حتى ولو كان بروفسوراً أو علامة لدهره فإنه ليس بعالم وفي أقل تعبير فهو غير عاقل وهذه آخر نتيجة أردت الوصول إليها وهي أن العلم يوجب الشعور بالمسؤولية والهم يوجد التكليف والعالم بلا شعور بالمسؤولية كالمرفه الذي لا يشعر بآلام المسؤولية وكلما وجد العلم والثروة والسلطة فإن ذلك لن يعد مسؤولية أو إحساساً بها وعندها سيكون كهذا العلم والثروة والسلطة ضد البشرية ولو كان دون ضجة أو جلب والنتيجة الأخرى التي نستنتجها من هذا الموضوع هو ارتباط المعرفة بالشجاعة، فالمعرفة بحاجة إلى الشجاعة وتأتي بالشجاعة عليه، ينبغي أن يكون الإنسان مُزوداً بالشجاعة ولا يخشى المعرفة، لأن الكثيرين يخافون وعندما سنعرف ما يجهله الآخرون سنكون أكثر شجاعةً، لكننا في بعض الأحيان نقمع هذه الشجاعة، لأننا نخشى أن نصبح شجعاناً في حين أن علينا ألا نخشى، لأن العالم أقوى من الجاهل وهناك قلنا فيما سبق إن الذي يعلم تكون مسؤوليته أكبر من الذي لا يعلم وهنا نضيف عامل القوة للعلم وعليه فليس على القوي أن يخشى الضعيف ولا ينبغي إتباع الضعيف حتى ولو كثر عددهم، لا ينبغي لنا أن نكون مثلهم وقديما قيل كن شجاعاً ولا تخشى الجاهلين رغم كثرتهم ولو خفت فلست بعالم وعليه فإن مدركي المعرفة حقاً علماء شجعان كانت هذه مقدمتان أردت بيانهما حول مسألة المعرفة والعلم لعل ذلك يفيدنا في محاضرات قادمة تنفع مسألة الحوار.

أبدأ بالأسئلة بمسألة الشك وهو موضوع جيد في بدايته وسيئ في نهايته، لقد طرح الموضوع بأشكالٍ مختلفة مثل الربط بين التشكيك والتجربة والحداثة مع الأخلاق، هذه خلاصة لعدد لا بأس بها من الأسئلة المطروحة، يقول أحد السائلين هل أن التشكيك يعد طريق خلاص للبشرية المعاصرة في محاربة الخرافات وهل فشل في ذلك الشك وأيدولوجيته؟ سأحاول الإجابة على مجموعة أسئلة الشك والتشكيك في ثلاثة أجزاء

ومحاور، السؤال المطروح هل أن التشكيك طريق للخلاص من أجل محاربة الخرافات؟ فلو كان التشكيك مصطنعاً ومن اختراع البشر وقد اخترع لهذا الأمر لكان من المنطق والتاريخ أن يفهم الإنسان أنه سلاح ومنهجية غير صائبةٍ لمكافحة الخرافات لا بل أن نتائجها عكسية ذلك أن التشكيك يعني طرح التساؤلات على مشروعية العقل من أجل التحكيم أليس التشكيك يعني النقطة المقابلة للعقلانية، التشكيك هو النقطة المقابلة للمعرفة، التشكيك يعني محاربة المعرفة، يعني أن لا تكون مطمئناً من جانب شيء ما وأن الإنسان سيعجز عن معرفة الأشياء ولا يمكن الحكم في أي موضوع كان، فعندما يقدم الإنسان على طرد العقل ويسلب الإنسان قدرة وأدوات الحكم وعندما يثير علامات السؤال والاستفهام حول العقل كيف يمكن للإنسان أن يتحرك صوب محاربة الخرافات بأية وسيلة وكيف؟ ماهي الخرافة؟ ولماذا نطلق عليها خرافة ولماذا تبدو الخرافة خرافة؟ لأنها تفتقر إلى البرهان العقلي ولو انعدم العقل وانعدمت البديهيات وبات كل شيء مشكوكاً كيف لي أن أثبت أن شيئاً ما خرافة وكيف أُثبت أن الخرافة سيئة وما هو الفرق بين الخرافة وغيرها إذاً؟ وعليه فكل شيء بات خرافة وعليه فلو أراد أحدنا مواجهة الخرافة بهذه الطريقة أو الأجزاء المغلوطة من السنن الفلسفية أو الدينية الموجودة في أوروبا أو أي مكان آخر في العالم فإن هذه الطريقة ستؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة وأن المسار سيكون مغلوطاً إن النأي بالنفس عن الخرافة ممكنة بالعقل والمعرفة وباليقين لكن باليقين المدعم بالدليل وينبغي أن يكون هناك آلية للاستدلال والاستنتاج كي يمكن القول «إننا لا نستطيع الوصول إلى أي شيء من أي شيء» وإن الفكرة ألف خرافة، لأنها وصلت إلى نتيجة دون إيجاد حالة ارتباط واستنتاج علمي أن يضع علامة استفهام أمام هذه الفكرة وعندما لم يكن هناك سؤال فلن يكون هنا إمكان للجواب ويصبح كل شيء مشكوكاً كيف يمكن فهم أن شيئاً ما خرافة وما هو الشيء الذي ليس بخرافة؟ كان هذا جانباً من إجابتي على سؤال التشكيك الذي طرحه أحد الطلبة، بالطبع فإن الشك بداية طيبة لكنه نهاية سيئة إن الشك في عالم الفكر كالألم في عالم الجسم وعندما يشعر الإنسان بالألم يعلم أن شيئاً ما قد اختل في نظامه الجسمي فيتجه إلى العلاج، ليس الألم هدفاً بل نبقيه موجوداً في الجسم على الدوام، الألم علامة دالة على المرض وطلب العلاج، الشك ألم في عالم الفكر وفي عالم المعرفة وعندما نشعر بالألم

الفكري فهذا يعني أن هناك نقصاً ومرضاً ينبغي علاجه وعندما نغلق باب العلاج ونقول إنه لا نستطيع الإجابة على الشك عليه نكون كمن يحول الألم إلى الهدف والفكرة الأفضل وهذا خطأ والقسم الآخر من السؤال كان هل أن هذه الطريقة هي الطريق الأمثل والحديث للمواجهة نقول إن هذا ليس صحيحاً ولا حديثاً ... وكانت استمراراً لبعضها البعض، هناك نظرية أصلية يتم على الدوام صياغتها وقولبتها بأشكالٍ جديدة وتعود تاريخياً إلى ما قبل أرسطو وسقراط حيث ذهب الرجلان إلى محاربتها وكانت تعتبر المعرفة غير ممكنة سواءً الواقعية منها والقيمية الأخلاقية وهذا التشكيك يعد تشكيكاً صادقاً، لأنهم كانوا يقولون لا ندري وهذا هو التصرف الصحيح والحكيم فالمشكك لا ينبغي أن يقول غير ذلك حتى بخصوص الأصالة لا ينبغي للمشكك أن يبدي رأياً وعليه أن يقول أنه لا يعلم شيئاً وعليه أن يكون مشككاً عولمياً واسعاً، أما الموجة الثانية فهي ترافقت مع عهد الثورة الصناعية في الغرب الرينيسانس[١] والحالة المذهبية التي ظهرت ضد جزم الكنيسة وضد الميتافيزيقية اليونانية، أما الموجة الثالثة فهي متأخرة بدأت بـ«هيوم»[٢] واستمر تشكيك الموجة الثالثة إلى يومنا هذا حيث انجرت التجريبية المتعصبة إلى التشكيك المفرط ذلك يعني التشكيك بكل العلوم وهذا ناجم من التجريبية، أي أن الذين نفوا اعتبارية العلوم إلا التجريبية والحسية منها بعدها توصلوا رويداً رويداً إلى التشكيك، لأنهم أدركوا أن العلوم الحسية لا توصل لوحدها إلى اليقين وأنها لا توصل الإنسان إلى أي شيء يذكر وعليه كان هناك ارتباط كبير ومنطقي وتاريخي بين التجريبيين والمشككين وربما كان مسار الفلسفة الغربية الجديدة عبارة عن إعادة تشكيل التيارات السفسطائية اليونانية وهذا يعني أن هذا المساركان موجوداً فيما مضى ويتابع إلى يومنا هذا وإذا ذهب إنسان إلى فرنسا في يومنا هذا فإنه

---

١ . عصر النهضة (بالإيطالية: Rinascimento) هو عبارة عن حركة ثقافية استمرت تقريبا من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر. وكانت بدايتها في أواخر العصور الوسطى من إيطاليا ثم أخذت في الانتشار إلى بقية أوروبا. على الرغم من توافر الورق واختراع حروف المونوتيب التي ساهمت في سرعة انتشار الأفكار أواخر القرن الخامس عشر، إلا أن تغييرات عصر النهضة لم تنتشر بشكل موحد في جميع أنحاء أوروبا.

٢ . ديفيد هيوم (باللاتينية David Hume) (ولد في ٢٦ أبريل ١٧١١ - توفي في ٢٥ أغسطس ١٧٧٦)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الاسكتلندي.

اشتهر كمؤرخ بداية، لكن الأكاديميين في السنوات الأخيرة ركزوا على كتاباته الفلسفية. وكان كتابه تاريخ إنكلترا مرجعا للتاريخ الإنكليزي لسنوات طويلة.

سيرى استمرار هذا المسار وهو الغالب وهو أصل التيار التقليدي ولو توجهنا إلى إنكلترا في عالم الإنكلوساكسون[١] فإن الجو العام هو تجريبي وأن العراك بين العصرنة والتقليدية في إطار المعرفة وجذورها ترتبط بالموضوع الذي أشرنا إليه وأن عرّابي هذا الاتجاه كانوا أمثال «هيوم» وهو مستمر إلى يومنا هذا حيث تم وضع علامات استفهام امام المباحث ما وراء الطبيعة والدينية والأخلاقية، أي أن «هيوم» وضع علامات استفهام أمام أدلة إثبات التوحيد والمعاد وخلود النفس والأخلاق وفلسفة الكلام وكل شيء بعدها شكك في التجربة والمعرفة التجريبية.

السؤال الثالث حول ارتباط التشكيك بالعصرنة والحداثوية صحيح أن المبدأ الحداثوي بدأ بالتشيك ضد الجزم اليوناني والمسيحي لكنه قاد إلى جزم من نوع جديد وهذا تحديداً هو الاتهام الذي يوجهه التقليديون في الغرب ضد المتجددين والعصريين يقولون لقد بدأتم بشعار التشكك في الأمور أو التشكيك في الأمور ولتكن لديك جرأة التشكيك ووصلتم إلى أمورٍ جزمية جديدة باسم الحداثة وغلّبتموها على كل شيء إن نعاني مرة أخرى من نوع السكولاستيك[٢] الجديدة، إننا مبتلون برؤية شموليةٍ مغلقة اسمها العصرنة والحداثة ويتهم التقليديون الحداثويين بأنهم ابتدعوا خرافة جديدة جزمية يقولون إن التجدد آخر خرافة ابتلى بها البشر وينبغي هزيمة هذه الخرافة وليس هناك شيء جزمي على الإطلاق ينبغي كسر جزمية الحداثة وبغيره فهي خرافة، والجزء الأخير من مجموعة الأسئلة التي طرحها الطالب تخفي الارتباط بين التشكيك والأخلاق مسألة الممكن والواجب وارتباط الأحكام الحقيقية مع الأحكام الاعتبارية وارتباط الشمولية مع الأيدلوجية وهذه الأمور هي من

---

١ . لأنجلوسكسونيون (بالإنجليزية: Anglo-Saxons) هم القبائل الجرمانية التي غزت وسكنت بريطانيا في القرن ٥ والقرن ٦. تلك القبائل هي الأنجلز، والسكسون، واليوت. وقد تركوا أوطانهم الأصلية وهي شمال ألمانيا وهولندا والدانمارك، واتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية. واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية في القرن الخامس بعد الميلاد، وبعد حوالي مائتي عام انضمت هذه المجموعات الثلاثة في مجموعة واحدة دعيت بالأنجلو- ساكسون.
استخدم هذا المصطلح (انجلوساكسون) كتاب غاليون للتفريق بين الغزاة وبين سكان بريطانيا الذين كانوا فيها قبل مجيء هؤلاء الغزاة.

٢ . الفيلسوف السكولاستي؛ اللاهوتي السكولاستي الشديد التمسك بالتعاليم والاساليب التقليدية الخاصة بمذهب او فرقة؛ دراسي؛ سكولاستي متعلق بالفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى مدرسي؛ عالِمٌ بِعِلْمِ الكَلام (راجع: معجم المعاني).

الموضوعات التي طرحها هيوم في فلسفة الغرب وورطهم بها والموجودة حتى يومنا هذا فمسألة الوجوب غير ممكنة أساساً وإذا التفت الطلبة الأعزاء لهذا الموضوع مع صعوبته وكونه غير سلس فإن الكثير من الأمور ستحل أمامهم والموضوع واسع في فلسفة الأخلاق وبحث المعرفة لكننا لن ندخل في صلب الموضوع ونشير إليه بشكل عابر إن الارتباط بين التجربة والتشكيك في الوجود وينبغي معلوم النتائج أي عندما نحُدّ من درجة واعتبارية المعرفة لصالح التجربة وعندما يتم إغلاق طرق التجربة المادية أو الشخصية أو أي طريق للمعرفة طريق العقلانية والشهود الباطنية وطريق الوحي وقمتم بتدمير وتخريب قاعدة الأمور البديهية فمن الطبيعي أن كل شيء ما وراء التجربة سيكون مشكّك به أو أنه مشكك به ينبغي نُكرانه ومن خلال كون التجربة غير قابلة للتبرير والتوجيه ولا تقود إلى العلم تصبح مشكوك بها ونتيجة ذلك تكمن في «يمكن» و«ينبغي» إن الموضوع الذي طرحه هيوم ولاحظنا نتيجته في مجال التجريبية والشكّاكية في مجال الأخلاق هم يقولون إن الأحكام الأخلاقية الجيدة منها والسيئة ينبغي ولا ينبغي القيم واللا قيم هذه أمور غير ملموسة ليست تجريبية وليست كالميكرفون والورق أمامنا عليه فهي غير قابلة للمعرفة وهذا حال كل شيء يدخل في هذا الإطار في المجال الأخلاقي أو الحقوقي وكل ما يوصف باصطلاحٍ بالأحكام الاعتبارية أي فيها ينبغي ولا ينبغي وعليك أن تفعل وعليك ألا تفعل جيد، سيئ، ضروري، وممنوع، واجب، وحرام، وكل ما هو مثل هذه المصطلحات يمكن اعتبارها أحكاماً اعتبارية ولا عيب في هذا التعبير ولكن هناك معنيين؛ الأول أن الأحكام غير معتبرة وغير تجريدية محضة وبمعنى آخر أنها معتبرة، أي أنها بحاجة إلى تدخل الذهن الإنساني لكنها متجذرة في الحقائق في نفس الوقت ولها اعتبار حقيقي وواقعي إنهم يقولون عندما تقول إن هناك مسجل على الطاولة فهذا التقرير ذو معنى، أي أن الجملة ذات معنى، لأنه يمكن لمسها وإحساسها يمكن تجربتها ولمسها لكنك عندما تتحدث عن الإيثار والتضحية فإنك تقول أشياء لا معنى لها عندهم لماذا؟ لأن ما تقوله غير ملموس عندهم فالشيء القابل للمشاهدة والمقابلة والتحسس والتجربة يكون مقبولاً ولنا أن نتساءل لماذا عندما يتحدث أحدنا حول القصص الدينية وعالم الغيب وما وراء الطبيعة وحول الأخلاق وحول الحقوق لماذا نقول إن الجُمل هذه ليست ذات معنى إنها لا تحكي واقعاً أمامنا ذلك لأن الحقيقة

وطريقة الاتصال معها قد حُصِرت في التجربة الحسية، لأن الحقيقة في هذه المدرسة الفكرية مادية، أي أن كل شيء غير مادي غير موجود والنظرة المادية تنظر إلى الأخلاق والحقوق والأحكام و الشريعة نظرة مادية هم يقولون إن الأهداف والقيم تعني الخيال المحض الخيال المتصل دون رابط مع الخيال المنفصل كما يقول الحكماء هم يريدون أن يقولوا أن القيم في النقطة المقابلة للواقعية والمنطق، إنهم يقولون ألا دليل عقلي واحد يعمل لصالح الأخلاق العقل لا يستطيع درك الواجب وعدمه العقل يعني التجربة بتصورهم لا العقل الذي يتجاوز التجربة ولا العقل الفلسفي العقل الذي يخوض في عالم الأخلاق والأحكام والحقوق فهذا مالا يسمونه العقل أصلاً، لأن العقل لا ينبغي له أن يتدخل في تلك المجالات لأنه قاصر عن ذلك ولا قوة للحكم لديه عليه، فإن عقل التجريبيين لا يرقى لعقل الحكماء المتألهين أي أن هذا العقل قاصر لأنه لا يستطيع النظر إلى ما أمامه ولا إلى ما وراء الحائط عليه، فإن التعريف الذي يطرحه عن الحقائق محدود للغاية وعليه، فإن الجمل الحاوية للموضوع الأخلاقي والديني والحقوقي والقيمي وأمثالها يكون رادار العقل فيها أعمى لا يمكنه الفهم أي يصاب باختلال المشاعر ولا يمكن فهم معنى الجمل وطبيعي أن يكون مشككاً في أقل تقدير بالأمور الخاصة بما وراء الطبيعة وهذا أكثر وجوه التشكيك احتراماً وبخلافه فينبغي أن يكون ملحداً به وقد فعلوا ذلك بمرور الزمن، يقولون في هذه المدرسة إن الأخلاق تستند إلى العاطفة ويقوم «هيوم» ببحث هذه القضية بشكل مباشر ويقول أن المخرج الوحيد للأخلاق يكمن في العاطفة وهذه العواطف تتبع هوى وأحاسيس الإنسان فتارة تخفق عواطف الإنسان تجاه إنسانٍ وتجاه حالة معينة وتارة لا، كالإنسان يحب نوع من الطعام ولا يحب آخر فلن تجد تفسيراً علمياً لذلك وعليه فلا شيء في العالم هو جيد أو سيئ في ذات الوقت لا صحيح ولا خطأ كل الأفعال سواء، خلاصة الكلام أن مصطلح «ينبغي» و «لا ينبغي» غير مرتبط بالواقع وما يقال أن ينبغي مفصول عن الإحساس إلا بمعنى أن القيم ليست ذات مبنى واقعي وحقيقي وأن القيم والاعتبارات الحقوقية و الأخلاقية ليست ذات منشأ حقيقي وواقعي كلها مصطنعة وأن تفكيك المعرفة عن القيم طبقاً لما يقوله «هيوم» تفكيكٌ للوجود من الحتمية، أي تفكيك الرؤية العالمية من الأيديولوجية ويقول لك قل ما تشاء الأمر بسيط فكل ما تقوله وتخبر عنه يقولون لك وليكن، عندما تقول إن

العمل «ألف» سيؤدي إلى نتيجة «ب» وهذا ينفع في الدنيا والآخرة يقولون لك وليكن، هذا جوابهم لكل ما تقول ولذلك أطلقت على هذا النوع من الفلسفة وليكن، خلاصتها أن أصحاب هذه المدرسة الفكرية يرتضون الاعمال الغريزية ويفهمونها ولا يفهمون الفطرة والأخلاق والتوصيف العقلي والأخلاقي، أي أنهم يتقبلون ويفهمون ما يخص الجسم، لأنه تجريبي ولو قلت لهم إنكم بفعل هذه الأمور ستنحطون وستسقطون يقولون لك وليكن، لا يدركون أن المحصلة ستقودنا إلى أصل وأساس الوجود الإنساني عندها لا يستطيع الإنسان أن يكون محايداً وعليه فإن حب الذات وحب النجاة وحب الكمال والانعتاق صوب الجمال والأشياء الفطرية الأخرى لا تحتمل وليكن.

وبتعبير الفلاسفة أن الشيء الذاتي لا يعلل وعليه لا ينبغي أن لا نبحث عن سببٍ للأشياء الذاتية ولا دليلاً لها وعليه فمن يريد النجاة وعدم السقوط وعدم الانحطاط عليه في أقل تقدير أن يخوض في مسألة النفع والضرر الخاص به لكن هذه العملية قد تستغرق وقتاً طويلاً وتستمر على طوال الدنيا والآخرة والأبدية وهذا لا يحتاج إلى ممانعة وليس المكان الخاص به لأن القيم الأخلاقية والحقوقية ليست تجريبية ولا حسية لذلك ينظرون إليها في ظل هذه المدارس بشيء من التشكيك والربط بعدها تراهم يقولون إن بإمكان كل شخص وطبقاً لمصلحته أن يختار ما يريد ولا سبب توجيهي لفعل ذلك لا استدلال لصالح القيم أو ضدها في هذا الأمر وأن الدعوة إلى التكامل والنجاة والجمال والكمال مرفوضة عندهم، لأنها لا تستند إلى حقائق في حين أننا نرى أن الامور الاعتبارية التي لا تستند إلى الحقائق في العالم غير نافعة وعلينا معارضتها وعليه يمكننا القول إن كل «ينبغي» و«لا ينبغي» ليست مجازية فبعضها صحيح والآخر غير صحيح لكن تلك المدرسة الفكرية ترى في كل معاني ينبغي ولا ينبغي مجازية بنفس القوة لماذا؟ لأن الإنسان هو الذي يختار ما هو الجيد وما هو السيئ.

أستميحكم عذراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بداية الدور العالمي للمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أيها الحفلُ الكريم، الأخوة والأخوات الجامعيون والأساتذة المُحترمون.

بدايةً أشكركم على إتاحتكم ليَ الفرصة للحديث عن عظماء صنعوا التاريخ الحديث، ليسَ الاجتماع هذا خاصاً بإحياءِ ذِكرى عدَّةِ آلافٍ من الشباب الجامعي الذينَ كتبوا عُهودَهُم بالدم ودافعوا عن المُعتقد، بل إنَّ الاجتماع مُخصَّصٌ أيضاً لإحياء المنطق المُقدَّس، الذي دَفَعَ بهؤلاء للانطلاق بعينٍ مفتوحةٍ وعزمٍ راسخ في أُتُونِ الحرب.

إنَّ التجمع الكبير الذي أقمتموه والحضور المتراص حيثُ أنَّ بعضكم لم يلقَ مكاناً للجلوس يُثيرُ فيّ العزيمة والثبات على أنَّ هذه السلسلة الإلهية مازالت مُتماسكة والشهادة في سبيل الله ذخيرةٌ لم تنضب بعد من أجل مقاومةٍ تاريخيةٍ ونضالٍ عالمي.

كانَ المجاهدونَ على مر التاريخ السَّبَّاقون لفتح بوابات التاريخ ليلتحق بهم الرَّكب بعدَ أن عبَّدوا الطريقَ بدمائِهِم ليكونَ سَهلاً يسيراً للقادمين، وحتى يومنا هذا ليسَ معلوماً هل اختار الشهيد الشهادة؟ أم أن الشهادة هي التي اختارتَ الشهيد؟

و رُغمَ الاختلاف في الرُّؤى لكنَّ الواضح أنَّ الشهيد عاشقٌ ربَّاني والشهادة دون هذا العشق غيرُ قابلةٍ للتوضيح، لأنها مُعاملةٌ مع الدنيا، بل أكثرها في حياة الإنسان ومثل هذه المعاملة ينبغي أن تكونَ مُعطَّرة بعشقٍ ربَّانيٍّ كبير أكبر من كُل الحياة، وبغيرها ستكونُ عملاً غيرُ معقول، ورُغمَ أنَّ الشهيد يُفكِّرُ في المعشوق والرَّب لا في الرّبحيَّة رُغمَ ذلك فالشهداء أدرى أيةُ قيمةٍ يحتاجها هذا العشق الربَّاني.

في المفهوم الإسلامي فإنَّ الجهاد والشهادة والعشق الرباني والعقل لا يُضيّقان على بعضهما البعض، فالعشق في الثقافة الإسلامية لا يتصارع مع العقل ولا يعبر فوق جنازة، فالعشق في المفهوم الإسلامي يستند إلى العقل ويجلس على أكتافه، وعليه فنحنُ في هذه الثقافة لا نقومُ بتقسيم أعمال الإنسان إلى عقليةٍ وعشقيةٍ ربَّانية بل نُدافع عن هذا العقل الذي يفهمُ العِشقَ الربَّاني، ورُغمَ أنهُ يعترفُ أنهُ أقصرُ من العشق تأثيرا لكنهُ في الأصول يتوافق مع العشق ونرى أيَّ تضادٍّ في الثقافة الإسلامية بينَ التعبُّد والتعقُّل، ولا بينَ العشق الربَّاني والعقل ونرى هناك في الفلسفة والعرفان يُقسِّمونَ العشقَ إلى حقيقي وآخر مجازي وكاذب، ويعود تصرف الإنسان إلى نوع العشق الذي يؤمن به من تصوُّرٍ وتصديقٍ للعاشق والمعشوق، وعندما يتحدث الحُكماء والعرفاء عن العشق يُقسِّمونهُ إلى أنواع العُشاق ويقولونَ إنَّ البشر وعِشقَهُم يُقسَّمُ إلى عدة طبقات، ويَرَونَ إنَّ العشقَ هو أعلى من البشر ويقولون إنَّ كُلَّ الموجودات في العالم تعيشُ قافيةً في محيط العشق لكنهُ يختلف من عشقٍ إلى آخر.

يقول أصحاب نظريات العرفان إنَّ الموجودات التي تتبعُ مَيلَها الطبيعي ولا تملك الإرادة وهي طبيعية فَعِشقُها من النوع المُخمَّر في الطبيعة، وهؤلاء يعملون وفق الحنين و الشوق للطبيعة، إنهم لا يُقرِّرون، بل يُسيرونَ في تيار نهر العشق الحاكم على كُل العوالم والأجرام السماوية وهناكَ موجوداتٌ لها إرادةٌ، وعشقٌ، هؤلاء يُقسّمون إلى نوعين أو ثلاثة؛ البعض منه عشق حقيقي والآخر مجازي والثالث عِشقٌ كاذب، وهناكَ اختلاف في تحديد نوع وطبيعة العشق بأنواعه بينَ الفلاسفة والعرفاء، لكنَّ حديثنا عن العشق الحقيقي والمجازي لا يتطَّرقُ إلى العشق والميل الجنسي.

ولا تعتبر الثقافة الإسلامية العشق والميل الجنسي أمراً خبيثاً وليسَ فِعلاً مُحرَّماً، إن كانَ في مسارٍ عقلي وشرعي فهو حقٌّ طبيعي، وإن تعاملت بعض المذاهب والأديان والمدارس مع العشق بقساوة، إلا أنَّ الإسلام لا يقمع هذا الحق، بل يسوقُهُ ويهديَهُ ويُقوّمهُ.

بالطبع لا يقصد العرفاء والفلاسفة بالعشق المجازي عِشقاً جنسياً وقد صرَّحوا بذلك، لقد التبس الأمرُ على البعض في تفسير العشق المجازي والأفلاطوني وأرادوا إضافةَ مصاديقَ أخرى له، أو إلباسَهُ لباساً آخر وتوجيههُ، ولا حاجة لمثل هذه الأمور، لأنَّ العشق الطبيعي

مُعترفٌ به في الثقافة الإسلامية وليسَ لزوماً ان نجعلهُ عرفانياً ليكونَ جائزاً.

ثانياً إنَ ما ينسِبَهُ بعضُ العرفاء إلى هذا العشق لا يقصدون به العشق الجنسي الذي يتجهُ صوبَ الغرائزو تلبيتها، وإذا كانَ هناكَ اختلاف بينَ العرفاء والفلاسفة في هذه القضية أو بينَ العرفاء معاً أو بينَ الفلاسفة معاً وفي العادة فإنَّ العرفاء أكثرُ تشدُّداً في العشق من الفلاسفة، على عكس المُتعارف من أنَّ العرفان يُعطي مجالاً أكثر للعشق الحقيقي والمجازي في النمو، وفي العرفان التقليدي فإنَّ عُرفاءنا حساسونَ في تسمية وصف العشق والعاشقين وأكثر تشدُّداً من الفلاسفة.

وفي حين أطلقَ بعض الفلاسفة مُفردة العشق المجازي على العشق الحقيقي أحياناً، نرى أنَ العُرفاءَ رَفضوا تسمية ذلكَ بالعشق المجازي أساساً، بل اعتبروه كاذبا لا بل أنَّ مستواه أقل مما يُطلق عليه اسم العشق ومن تحدَّثَ عن العشق المجازي في أنَّ الإنسانَ يعشقُ إنساناً في الدنيا ويكون كذلك مقدمة لعشق الأنسان لربه وهنا القصدُ من العشق هو عشق الفضائل والخصوصيات في الفرد، وقد صرَّحت بذلكَ النصوص الفلسفية وذكرت أنَّ هذا العشقَ هو حُبُّ الفضائل والأخلاق بالدرجة الأولى وذكروا إنَّ عِشقَ الصفات العقلية في فردٍ ينجرِّإلى عشق الذات العقلانية فيه، وعلى هذا قالوا إنهُ جسرٌإلى العشق الحقيقي، وفي مثل هذا النوع من العشق تكون الأخلاقُ هي المُراد لا أعضاء البدن.

ذكرتُ أنَّ الرغبة الجنسية هو حقٌّ طبيعي محفوظٌ في مكانه وقوانينهِ في الثقافة الإسلامية، ومثلُ هذا العشق لا يمكن ذِكرهُ والتعبيرعنه في عداد العشق الوارد في الفلسفة والعرفان، ودَّدتُ أن أوَّضِحَ ذلكَ لكي لا يختلط الأمرعلى البعض.

والشهيد عندما يتوجه إلى سوح الوغى يكون عاشقاً حقيقياً، أي أعلى مرتبةً من كل أنواع العشق المجازي الطاهرمنه وكُلِّ أنواع العشق المُنبعثة من أهواءٍ طبيعية، وقد عبَّرَ عنه العرفاء بأنهُ نوعٌ من الانانية، وهكذا نعي أنَّ العشق الحقيقي هو حُبُّ الآخروفيهِ يفنى العاشقُ في المعشوق، أمَّا في العشق الكاذب، فإنَّ العاشق يُذيبُ المعشوق في نفسهِ ولِنفسه، أي يُريدُ المعشوق لنفسه وهذا فرقٌ واضح بينَ الاثنين ويُعدُّ الحدَّ الفاصل بينَ العشق الحقيقي والكاذب والفاصل بين الصدق والكذب، وهكذا يتضحُ لنا أنَّ من يُريد الإباحية تحت عنوان العرفان فهو مخادعٌ لا محالة، لأنَّ الفلاسفة يرفضونَ ذلكَ أيضاً فما

بالـكَ بالعرفـاء الذيـن قُلتُ إنهم أكثرُ تشدُّداً.

يتطرَّقُ ابنُ سينا في كتاب الإشارات إلى موضوع العشق ويذكر أن العشق العفيف أو المجازي هو ليسَ بسلطان الشهوة، أي أنَّ العشقَ الحقيقي هو عارٌ عن سُلطة الشهوة وهكذا فإنَّ العشقَ الحقيقي وإن انطلق من حُب الإنسان للإنسان ينبغي أن يكونَ مُجرَّداً من الشهوة وقد خاضَ في ذلكَ الفلاسفة والحكماء منذُ القدم وحتى يومنا هذا، ولو شئتم التعقب في هذه المسائل راجعوا آراءَ العلماء الذينَ يصِفونَ عِشقَ الفضائل، يفصلونَ بينهما وقِوام المعشوق في عينيه وحواجبهِ وما شاكَلَ لك، إنهُ تلطيفٌ للسرِّ عن طريق الأخلاق والصفات الكريمة والفضائل في المعشوق والتي تقودهُ إلى الحقيقة المُطلقة، أي عُبُور من العشق المجازي إلى العشق الحقيقي.

وقد اختلف الخواجة الذي شَرَحَ الإشارات مع ابن سينا في تقسيم العشق المجازي والحقيقي، ويذكرُ بصراحة أنَّ العشق النفساني الذي نعبر عنه بالمقدمة إلى العشق الحقيقي هو علاقةٌ روحانية وارتباط جوهري بينَ نفس العاشق ونفس المعشوق، وليسَ علاقة غريزيةً أو جنسية ثمَّ يقول الخواجة وابن سينا معاً هناكَ عِدَّةُ أشكالٍ من العاشق والمعشوق وَرَدَ وصفُها في الفلسفة والعرفان والكلام، ولو كانَ هناكَ عشاقٌ من هذا النوع فهُم مُرحَّبٌ بهم.

يقول ابن سينا: إنها الخطوة الأولى على الطريق، أمَّا الثانية فهي المضي صوبَ العشق الحقيقي.

ويذكرونَ إنَّ العشق الجنسي غيرُ عفيف، والعشق العفيف هو الذي بحثهُ أهلُ العرفان والفلسفة، ومع هذا ذكروا أنَّ العشق الجنسي ليسَ ذنباً ويصبح مشروعاً وفقَ أُسُسٍ وضوابط.

كانت هذه مُقدمةً لندخل موضوع الشهداء، فلم يكن صحيحاً أن نخوضَ فيهم دونَ توضيح مسألة العشق الذي يجرُّ هؤلاء إلى الاستشهاد في سبيل الله، ولنرى ماذا فعلَ الشهداء بأنفسهم وبنا، وبالتاريخ وعالم اليوم، فما فعلوه في أنفسهم تقدَّمَ ذِكرُه، لكن ما فعلوه بالتاريخ والعالم المعاصر فهو السؤال الأول المطروح لكل من يُريد خوضَ غمار التاريخ المعاصر، وعلينا أن نعرف اليوم على أي شيءٍ نقفُ ونَسْتَنِد، أي قبلَ أن يُضرِّج الشُهداء

بدمائهم ويُغيّروا وجه التاريخ والبشرية.

لقد ظهرَ هؤلاء الشباب وبرزوا في وقتٍ أجمع فيه علماء علم الاجتماع المرموقين من اليمين واليسار في العالم أنَّ أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين سيشهدُ أُفُولاً للدين، لقد أعلن ذلكَ كبار علماء الاجتماع الذينَ بحثوا في أمور الأديان أيضاً، فقد أجمع هؤلاء بأنَّ العالم سيتحولُ إلى علمانيٍّ في أواخر القرن العشرين ذُكرَ ذلك في نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين وآثارهم موجودة، ومن تخصَّصَ في علم الاجتماع يُدرِكُ جيداً ما أقول.

لم يستدل هؤلاء العلماء على أقوالهِ بأدلةٍ علمية، قالوا إننا سنشهدُ نهاية عصر الدين وزوال الإيمان، إنَّ عصر الإيمان الفردي في أجواءٍ نسبية وأنَّ عصرَ العلمانية سيبدأ، وأضافوا أنَّ سيراً قهرياً وتاريخياً محتوماً سيقعُ ويؤدي إلى زوالٍ تدريجيٍّ للدين ومَيعانِهِ وذَوابانِهْ وقيلَ إنَّ المادة الحمضية للحداثة سوفَ لن تُبقي شيئاً من الإيمان والدين والروحانيات.

وكانت توقعاتهم للعقود التي نعيشها نحن اليوم، لكن الشيء الذي حصل هو ظهور تيارٍ دينيٍّ قويٍّ فَرَضَ نفسهُ على العالم وعُرِفَ باسم الأصولية الدينية، لم يكن مُختصَّاً بالأصولية الإسلامية وحسب بل أصبحَ هناكَ عودةٌ للدين في كافة الأديان والمذاهب.

حتى إننا نُلاحظُ الولايات المتحدة الأمريكية التي تُعدُّ عرَّابة العلمانية، باتت اليومَ تقودُ حُروبها بأدبٍ دينيٍّ مذهبيٍّ مسيحي، أي بأدبيات الحروب الصليبية إن صحَّ التعبير.

ويَسْعَونَ اليوم عبر إمبراطورية الإعلام والدولار والعسكر والأدبيات الديمقراطية، والمنهجيات الفاشية المعسولة بأفكار المُحافظين الجدد والعنف الصليبي وشبه الديني فَرضَ سيطرتهم على العالم بواسطة عقيدةٍ ليبرالية رأسمالية وجعلها إمبراطورية الأرض المُطلقة، خاصةً بعدَ انهيار إمبراطورية الشرق الشيوعية، وتصوَّروا أنَّ العالم باتَ في قبضتهم وأنَّ الجميعَ سيُسايرهُم إمَّا طمعاً أو خوفاً، ولم يبقَ أمامهم حتى منافسٍ واحد، ولما ظنوا أنَّ كُلَ شيءٍ قد انتهى وإذا بِهم يواجهونَ صحوةً إسلامية وشعاراتٍ يُردِّدُها أبناؤها في العقد الأول من عمر الثورة الإسلامية.

هؤلاء الدين قدَّموا التضحيات واستشهد منهم الكثيرون وربما لم يكن يدورُ في خَلَدِ هؤلاء أنَّ أفكارهم ورؤاهم ستتحقَّقُ بعدَ عقدين من الزمن وتنتشر في كُل العالم.

لقد تحوَّلت الثورة وشِعاراتُها بفضل هذه التضحيات الجِسَام إلى ظاهرةٍ عالمية، وباتت الشِعارات التي ردَّدها الشهداء هي التيار الاصلي لِمُقارعة الاستكبار، وما نُشاهدهُ اليوم من هجومٍ عسكريٍّ وإعلامي ورأسمالي مُتزامنٍ ضدَّ الإسلام يُعدُّ لا سابقة لهُ في تاريخ الاستعمار العالمي في منذُ الأزل وحتى يومنا هذا، لقد توقفَ هذا الاستعمار بما يمتلكُ مُقابل ثورتنا بدءاً من إندونيسيا وماليزيا إلى القرن الإفريقي، ومن أسيا الوسطى إلى جزيرة العرب ومن حدود الصين إلى البلقان.

لقد انتشرت أفكارُ آلاف الشُهداء في كافة ربوع العالم وكُلما ذهبتم إلى محافل التنويريين أو الجامعيين أو السياسيين تَرَونَ أثاراً من أقوال وأفكار الشهداء، حتى أنَّ انسجاماً غيرَ مسبوق باتَ اليوم موجوداً بين أقليات المُسلمين في كافة نواحي العالم.

وهكذا أصبحَ المسلم والمسلمون في أنحاء الدنيا خطراً حقيقياً أمامَ مفهوم السلطة العالمية، هذا هو حال العالم ومكانة الثورة الدينية في عالمٍ علمانيٍّ ومُحافظ، وهذا من ثمرة دماء الشهداء في عالمٍ كانَ في طريقهِ إلى العلمنة تُرى ماذا فعل الشهداء حتى اضطُرَّ المستكبرون العلمانيون وعندما يُريدونَ شنَّ حربٍ ضدَّ المسلمين إلى استخدام أدبيات الدين، لم يكن الوضع هكذا قبل نصف قرن، ولم يجرؤ التنويريونَ لا بل كانوا يخجلون من أنفسهم عندما يُريدونَ التحدّث باسم الدين.

اليوم نرى إنَّ الإسرائيلي والصهيوني يتحدَّث بأدبياتٍ دينية، عن الأدبيات اليهودية وهكذا يفعل الأمريكيون عندما يتحدثونَ باسم المسيحية وكذلك يفعل الاوربيون حتى أنَ شِقاقاً وقع في الاتحاد الأوربي عندَ تدوين الدستور، حيثُ دعت بعض البلدان لإدخال الدين في الدستور.

لقد تحوَّل الأمر إلى قضية العالم الأولى، وقبل أن يسقط الشهداء لم يكن تعريف الدين واضحاً في العالم، لقد تمَّ تعريف الدين بشكلٍ منقوص وأمرٍ ثانوي وفي حَد الخُرافة وكانَ للدين تعريفٌ ووظيفةٌ أخرى، إنَّ أقوى منزلة أعطاها هذا الفكر للدين هو أنهُ في ظل الدوران الجبري القهري للحداثة في الدنيا هو أن يكون إفيوناً للشعوب يُسكِّنُ أوجاعهم في ظل التطورات الحاصلة وهذا ما قالهُ اليمين واليسار على حدٍ سواء.

لم يكن قصد الشيوعيين والماركسيين من إهانةٍ للدين عندما وصفوهُ بأنهُ إفيون

الشعوب، لم يستخدموا معنى الإفيون سلبا، يتصور البعض خطأً أنَّ هؤلاء أطلقوا هذا المُصطلح لإضعاف الدين أو النيل منه.

لقد أرادَ ماركس وهو لا دينيٌّ بالطبع، أرادَ من هذه الجملة أو هذا المُصطلح أن يقولَ إنَّ الدين مفيدٌ للناس كما هو الأفيون لهم، أي أنَّ للدين دوراً لتسكين آلام المجتمع بالطبع صدقَ ما قال ماركس الذي تحدَّثَ عنها والموجودة في أوروبا والغرب والمعسكر الشرقي ولا يصدق لعموم الأديان، وقال البعض أنَّ الحداثة هي العلمنة والجبر والقهر وأنَّ مصير العالم وكلَّ المجتمعات أيلٌ إلى ذلك وأنَّ على العالم أن يتخلى عن الدين ويستخرج منه ذلك الشيء الذي يصفهُ ماركس بالإفيون، لكنَّ السحر انقلب على الساحر فدارت عجلة التاريخ بشكلٍ لم يَرُق لهم ويمكن تقسيم الدين وتأريخهُ والثقافة العالمية إلى قسمين: الأول دينٌ وثقافة قبلَ الشهداء وآخر بعدهم، هذه هي فصول التاريخ الجديد، قبل تضحيات شهدائنا لم يكن الدين برنامجاً معرفياً ولا أخلاقياً ولا قانونياً من أجل تصرفاتٍ اجتماعية، حتى إنهم كانوا يُهاجمون الإسلام السياسي وما زالوا، وقسَّموا الإسلام إلى سياسي وغير سياسي، حتى أنَّ هذا التقسيم سياسيٌّ بتصوري.

لم يُقدم أحدٌ في الإسلام على أدلجة الدين، لأنَّ الدين هو في ذاته غير سياسي، وهنا أقول لكم لماذا لم يتم أدلجة البوذية؟ ولا حتى أغلب الأديان في أمريكا اللاتينية وأفريقيا، حتى ولو استخدمت القوة إذاً لماذا تتمُّ أدلجة الدين الإسلامي؟

كانت صورة الدين قبل تضحية الشهداء مرتبطة في المحتوى مع العقلانية في مجال المعرفة، ولا ارتباط في المحتوى مع العدل في مجال إدارة المجتمع.

وعندما كانَ يدور الحديث عن المعرفة والاستدلال والعقلانية، أو يدور الحديث عن موضوع حقوق الإنسان والعدل أو مبحث النظام الاجتماعي في الدنيا يُقال للباحثينَ إنَّ هذه الأمور غير مرتبطة بالدين ولا ينبغي خلطُ الدين معها، فلو استدل أحدنا عقلياً بأمورٍ أخلاقية أو أعطى تفسيراً عقلياً للحياة وأصرَّ على ذلك، لأنَّ كلامه يقوم على أُسُسٍ استدلالية وعقلية حتى وإن كانَ المبدأ والهدف أمراً دينياً، وهذا هو أساس العقلانية والتوحيد، فيقولون لك لا يصحُّ كلامُك، وأنكَ خرجتَ عن أصول الدين وأنكَ تخوضُ في أمرٍ ديني، إن كان الدين يُعطي الإرشادات في الحياة البشرية لحياةٍ أفضل قالوا إنَّ هذا دينٌ

دنيوي مؤدلج ومُسيَّس وهو خارجٌ عن الدين وعن كونهِ دين الأساس.

كانت هذه صورة الدين قبل تضحيات الشهداء في الثورة الإسلامية في إيران، كانت هذه الفكرة الغالبة في الجامعات وفي فروع الدين وفي فلسفتهِ ومباحث الإلهيات والمباحث الفلسفية والسياسية وما يزالُ يُدرَّس في جامعات العالم، لكنَّ كُلَّ هذه الأفكار باتت تحت المجهر كما هو الحال مع نظريات علم الاجتماع، لقد باتت كُل النظريات المطروحة حولَ الدين مُعرَّضة للانتقاد والتساؤل، كانوا يقولونَ إنَّ الدينَ منفصلٌ عن العقل نظرياً وكذلك في المجال العملي عن العدل، أي كانوا يُفكِّكون الدين عن العقل في المعرفة، ويُفكِّكونَ الدين عن العدل في الحياة الاجتماعية ومن العدل وحقوق الإنسان حتى إنهم فصلوا الدين عن الروحانيات والأخلاق وبات الدين وجهاً روحانياً واستعلائياً شخصياً ونسبياً قابلاً للتأويل ألف مرة دونما استدلال ولا ارتباط له بأصول الحياة البشرية أو الأصول الاجتماعية، أي أنهُ أمرٌ فرديٌّ وشخصي، هذا هو تعريف الدين قبل الشهداء كانَ أغلب علماء علم الاجتماع لا دينيين، وقد طَرَحوا سبعَ وثماني نظريات رئيسية حول الدين وطبقاً للنظرية الأصلية لهؤلاء فإنَّ العالم ينبغي أن يكونَ الآن وطبقاً للمسار القهري في العالم غير ديني حتما وقد جاؤوا بالكثير من الاستدلالات لذلك، لكن الواقع الذي نعيش فيه اليوم مُشبعٌ بزخمٍ دينيّ كبير في كافة المُجتمعات الشرقية والغربية من إسلامية وغير إسلامية، شكلاً عَطَّلَ أو يُعطِّلُ معه كافة النظريات المطروحة من قِبَلْ العلمانيين كما أشرتُ أيها الحضور الكرام فإنَّ الغربَ العلماني باتَ اليوم يُردِّدُ شِعاراتٍ مسيحية ويتحدَّثُ بأدبياتٍ دينيةٍ صليبية، هكذا غيَّرَ شُهدائُنا ثقافة العالم وغيَّروا مسار العالم، لقد كانَ التعريف الأوروبي الغربي للدين غيرَ ما نراهُ اليوم، وفي بعض الأحيان نراهُم اليوم يُكرّرونَ التعاريف السابقة، لأنهم باتوا في ورطةٍ من أمرهم فتعاريفهُم السابقة تتعارضُ ما يُنادونَ به اليوم، دوَّنتُ عبارةً عن نيتشا[1] وكانَ رجلاً إستثنائياً حيثُ يقول، وكانَ مؤثِّراً في عقول الأوربيين، وصَدرت في حقّهِ تعاريفَ كثيرة بعضُها يتعارض مع بعضه، ففي بعضها يوصفُ بالمجنون الذي جاءَ بفلسفةٍ قصدُها الإطاحة بكل القيم والثقافات، والآخَر تصفُهُ بأنهُ عرَّابُ الحداثة والفكر الحديث، والبعضُ

---

١ . فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث (الميلاد ١٥ أكتوبر ١٨٤٤، الوفاة: ٢٥ أغسطس ١٩٠٠). راجع: ويكيبيديا.

يراهُ بأنهُ عرَّابُ الوجودية، وآخرونَ يَرونَ أنهُ عرَّابُ العدمية الكبير، هناكَ تعاريفُ مُتناقضة لهذا الرجل حتى أنَّ البعضَ عدَّهُ بالجوهر الأساسي للحداثة، لكن ما يهمُني في هذا الرجل أنهُ أكثرُ رجال أوروبا ومُفكِّريها صراحةً في التاريخ وهو مُعارضٌ للدين والمسيحية بشدة، له عِباراتٌ وكلماتٌ قِصارٌ قوية ومؤثِّرة، وربما كانت عباراتهُ ضدَّ المسيح والمسيحية والكنيسة من أقسى العبارات في تاريخ الغرب، إنهُ معارض للديمقراطية أيضاً.

لقد اخترت التعرُّضَ لنيتشا لِأقواله وآرائهِ في شبح الدين وضدَّ الدين، الذي تُكرِّس في أرواح الغربيين وقد أثَّرَ في عقولنا أيضاً.

لاحظوا ماذا يقول في المسيحية وفي الإسلام، طالعتُ مقالةً للمرحوم الفلتوري ودوَّنتُ أساساً بالألمانية ثمَّ تُرجمت هذه المقالة، بالطبع لم أرى أصلَ المقالة الألمانية إنما أنقل لكم الترجمة، حيثُ يقول نيتشا حول المسيحية إنهُ دينُ العجز والتعب والذنوب والعدمية وإنكار الذات والوقائع، إنهُ دينُ إذلال الإنسان.

بالطبع هو يقصد الدين الذي مارستهُ الكنيسة آنذاك وحتى يومنا هذا، يقول إنَّ هذا الدين سوداوي ومُظلم ملئهُ العذابات ويظلُّ المؤمنون به مع صليبٍ قرَّرَ الرَّبُّ أن يُعلَّق وَلَدُهُ عليه، ولا أدري ما هو السبب في أننا ندفع الثمن، لكنَّ الإسلام دين الإنسان، هذه أقوال نيتشا أذكُرُها لكم لِتتضح الصورة ويقولُ إنَّ الإسلامَ يعني الإنسان، وأنَّ الكنيسة أي المسيحية حرمتنا من هذه الحضارة وإبَّانَ حُكمها للأندلس، كانت هذه الحضارة الأقرب لنا كأوربيين من اليونانيين والرُّوم، وهي أي الحضارة الإسلامية أقوى مفهوماً ومُحتوىً ومشرباً من الحضارة اليونانية والرومية، لقد تمَّ طمسُ هذه الحضارة وليبقى تحت أقدام من؟ ويقصد الكنيسة بعدها يتساءل لماذا تمَّ طمسُ هذه الحضارة في أوروبا بكل هذه القسوة والحقد؟

ويُجيبُ نيتشا: لأنَّ الإسلام كانَ ذو أصالة، يمنح الإنسان شخصية وكرامة، ويُضيف أنَّ الإسلام كانَ يقول للحياة نعم والمسيحية كانت تقول كلا، والمسيحية كانت دينُ المهزومينَ والمذلولين، والإسلام دينُ أصحاب الإرادات والعزائم، إنهُ دينٌ ينبذُ الإذلال والضعف والرياء والإسلام يدعو إلى التطوُّر والتحوُّل ويبتعد عن الجمود، المسيحية عينُ الجمود والذِّلَّة.

هذه عباراتٌ اطلقها نيتشا، ويُضيفُ أنَّ المُصلحين الكبار من أمثال مُحمدٍ ﷺ عرفوا كيفَ يَضفونَ الأدب ومطالب الإنسان صفاءاً وجلالاً جديداً لقد كانَ يُثمِّنُ ما يسعى إليه

الإنسان، وما يُمكنُ له أن يمتلكهُ، وكانَ قد توصَّلَ إلى الحكمة والفطنة والانفتاح الذي وصلَ إليه الإنسان قبلهُ على مدى التاريخ، وقد عَلَّمَ الإنسانَ كيف يكون، أن يكونَ قوياً وصبورا لقد كان يدعم الحياة، كانَ إنساناً من جنس الأرض ولم يكن إنساناً فرضياً، لأنهُ كانَ يحترم الحياة والشرف، لقد كانَ صانعُ ثقافاتٍ وحضارة ويُضيفُ نيتشا: إنَّ الله في الغرب قد مات.

هذه عينُ كلمات نيتشا عن الرَّب، وأنهُ يتحدَّثُ عن الإسلام بهذه الصورة بعدما تحدَّثَ عن عجز المسيحية وعدم امتلاكها للإجابات عن الكثير من التساؤلات، لأنَّ المسيحية ترى أنَّ الإنسان يولَدُ مُذنباً والكُل مُبتلون بالذنب الأول إلَّا إذا أثبتوا العكسَ من ذلك، ثانياً إنَّ الدينَ الحاكمَ في الغرب كانَ يقول إنَّ السيد المسيح تحَمَّلَ وزرَ الجميع ورُفِعَ على الصليب.

ثالثاً إنَّ الفرقَ بين الرَّب والبشر لم يكن واضحاً في دين الغرب على الإطلاق، وما هو الله وما هو البشر، لكنَّ الإسلام كانَ مُختلفاً مع المسيحية في هذه النقاط، فالإسلام يؤمن أنَّ الجميع طاهرون عندَ ولادتهم إلا إذا أذنبوا، ليسَ هناكَ سوءُ ظنٍّ بالإنسان.

وثانياً في إلهيات الإسلام ليسَ البشرُ ربّاً، ولا الله سبحانهُ بشرٌ وليسَ فيه أجواءٌ مُلبَّدة ولا مشحونة، هنا أقول لكم إنَّ أساسَ علمنة الغرب ناجمة عن أنَّ المُجتمع الغربي والمسيحي اعتبر أنَّ الله بشر.

وثالثاً أنَّ الثقافة الإسلامية تعتبر المسيح عيسى ابنَ مريم عليه السلام وكافة الأنبياء كانوا يُنيرونَ الدّربَ للبشرية وكُلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن تصرفاته ولم يذهب أحدٌ مكانَ آخرٍ لِيُصلَب، الإنسانُ مسؤولٌ عن إنقاذ نفسه وأنَّ التيهَ المعرفي والإيماني وتغيُّر ميزان الشهوة والعنف ظَهَرَ جليّاً في سياسة الغرب وفي اقتصاده وكذلك في فنِّهِ وفي أدبه، لقد حَصَلَ هذا التذبذب والعدمية في هذه الثقافة من خلال هذه الرؤية الغربية للدين.

أضرِبُ لكم هنا مثلاً على تغيُّر طريقة الفكر الثقافي في الدنيا، وعَبَرَ الغربُ من خِلال أثارِه، فقد وجدتُ أفكاراً و تبلورت بعدَ الحرب العالمية الأولى، لأنَّ الحروب العالمية التي تؤدي إلى وقوع الضحايا بالملايين تُرافقها حالةٌ من الانفكاك المُجتمعي وتؤدي إلى انهيار القيم والتغيير بنسبة مئة وثمانين درجة في المجتمع.

لقد وقعَ هذا الأمر عقب الحرب العالمية الأولى والثانية في أوروبا والغرب، ولو تابعَ أحدنا

منحَ الأخلاق والثقافة في الغرب قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها لوجدَ فرقاً كبيراً، فلم يكن الغرب يشهد إفراطاً في القضايا الجنسية قبل الحرب العالمية الثانية، وهكذا الأمر لما بينَ الحرب العالمية الأولى والثانية، لقد كانت الحرب مؤثِّرةً في انهيار الدين وبدأت الانحرافات والشهوات والأزمات الاجتماعية والنفسية تبدو جليّةً في أدبيات الغرب عقبَ الحرب العالمية الثانية.

أرجو أن تُقارِنوا الوضع في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية مع الوضع في إيران بعدَ الحرب المفروضة.

لقد دفعت الثقافة الإسلامية المعطاة، هؤلاء المُجاهدين إلى جبهات الحق ضدَّ الباطل وكانت هذه المعنويات من القوة حداً منعت بعدها حصول التفكُّك والانحطاط، بل تحوَّل الامر إلى تطوّرٍ إيجابي، فالثقافة التي تستطيعُ تعبئة الجيل الجديد وبعد عشرين عاماً من وقوع الحرب المفروضة أنتم لم تشهدوا تلكَ الايام وأولئك الشُهداء.

وإذا بهذه الثقافة تجمعكم في هذا المكان وهذه القاعة، هذا الامرُ يُشيرُ إلى أنَّ الثقافة الإسلامية كانَ لها الدور القوي في حفظ تُراث الشهداء.

إنَّ التعبئة والحالة العسكرية أمرٌ مُهم وليست بالأمر السيئ، البعضُ يرى إنها نُقطةٌ سلبية، في الفلسفة السياسية ومنذُ القِدَم وحتى يومنا هذا تُعدُّ حالة التعبئة العسكرية واحدة من صفات الحضارات الأفضل في العالم لكنَ شهدائنا لم يكونوا عسكراً ونحنُ لا نُعرِّفُهُم بهذه الصفة أيضاً، نُعرِّفُهُم كأشخاص وبصفاتٍ أخلاقيةٍ وإنسانية.

وعندما يُراجع الإنسان ذكريات هؤلاء إبّان الحرب، فهل يرى أحدهم كَتَبَ أنهُ ذهبَ وقتلَ ثلاثين من الأعداء، أم أنَّ المنقول عنهم يحكي أنَ أرواحهم اللطيفة التي ملؤها الصفاء والتضحية والحالة الاستشهادية والتواضع والمحبة، أتصورُّ أنَّ تعريفكم لهُم لم يكن غير ذلك إنهم ليسوا عسكراً، لأنَّ أيّاً منهم لم يكن عسكرياً وأنَّ الكثير منهم تلقوا تدريباتهم العسكرية لأول مرة.

ذاتَ مرة شاهدتُ بنفسي في واحدةٍ من العمليات أنَّ مُساعدَ رامي مدفعِ رشاش يسأل كيف تعمل الدوشكا؟ فردَّ عليه رامي المدفع: كيفَ وصلت إلى هنا ولا تُجيدُ استخدام هذه القطعة من السلاح والحربُ قد كانت مُشتعلة هكذا كانَ المُجاهدون، لم يكونوا

عسكراً بالمعنى التقليدي لقد صمدت جبهتهم الثقافية ولم تنهار، لأنها كانت قائمةً بالثقافة الإسلامية، لكننا نرى على الطرف الاخر نرى نيتشيا كيفَ يصف الدين المسيحي في أووربا وعليه فإنَّ جبهتهم الداخلية انهارت بعدَ الحرب، وباتَ الكُتَّاب والنُّقَّاد والمُثقَّفون يدعونَ بعدَ الحرب إلى تحرير المُجتمع من قيد العقل، أي أنهم قالوا للعقل كفى.

لقد ظهرت هذه المدرسة التي عُرِفَت بالدادية[1] في أدب وثقافة الغرب، ومن يتبع المدارس الفلسفية والفنون في الغرب يعرفُ أنَّ هذه المدرسة أنتجت أيضاً المدرسة السريالية في الأدب والفنون والروايات، ثُمَّ انتقلت إلى الرسم في الغرب.

لقد كانت الدادية من نتاجات الحرب في أوروبا، وظهرت في أوروبا بعدَ الحرب العالمية الأولى، وكانت نتيجة اليأس والهَرَج والمَرَج والاضطرابات التي أصابت المُجتمع بعدَ الحرب.

كانَ دَيدَن هؤلاء القول: إنَّ مِحوَرَنا وأساسنا يقومُ على تخريب كُلِّ شيءٍ من البداية حتى النهاية.

وهم كانوا يرفضون كُلَّ شيءٍ وكُلَّ اعتبار وأساس بعدها كانت أمامنا حقبةٌ زمنية لم يَعُد الوثوق فيها بديمومة أيّ فكرٍ أو مبدأ وحصلَ هناكَ ما يُشبه الطُغيان الواسع ضدَّ كُلِّ اعتبار حتى في المجالات الفنية والنُظُم الأخلاقية والنظام الاجتماعي والسياسي.

وقالَ أصحاب مدرسة الانقلاب إنها تُريدُ تخليصَ البشرية من سيطرة العقل والمنطق واللسان، هذا هو ديدَنُهم، ففي الأدبِ كانت فكرتُهم تقومُ على أساس نفي ورفض كُل ما هو موجودٌ وقائم، وكانت شِعاراتهم بياناً لانهيار القيم في أوروبا والولايات المتحدة والثقافة الغربية عموماً، لقد هاجم هؤلاء الثقافة المسيحية والثقافة المادية السائدة يومها في الغرب، ودعا هؤلاء على سبيل المثال إلى إضافة أصواتٍ وأنغامٍ غير مُرتبطة عند تلاوة وإنشاد الأشعار، وقاموا في مجال الرسوم بإضافةِ صورٍ غيرِ مرتبطةٍ إلى اللوحات ووضعوا بعضها إلى جانب بعض وقالوا إنَّ هذا فنٌ جديد، وقاموا بصنع أشياء غير مرتبطة من الأسلاك وأعواد

---

١ . دادا (بالإنجليزية: Dada)، هي حركة ثقافية انطلقت من زيوريخ (سويسرا)، أثناء الحرب العالمية الأولى، كنوع من معاداة الحرب، بعيداً عن المجال السياسي، وإنما من خلال محاربة الفن السائد. يطلق عليها أيضاً (الدادائية)، وقد برزت في الفترة ما بين عامي: ١٩١٦ و ١٩٢١. أثرت الحركة على كل ما له علاقة بالفنون البصرية، الأدب، الشعر، الفن الفوتوغرافي، نظريات الفن، المسرح، والتصميم (راجع: ويكيبيديا).

الكبريت ولمّا يراها الإنسان لا يجدُ فيها أدنى ارتباط منطقي أو حتى ذوقي، لكنهم أصرُّوا على ذلك وقالوا نصنع ذلك ونقول أن لهُ معنى، معنى ذلكَ أنهم يُريدونَ فعل ذلكَ على كُلِّ الصُعُد الثقافية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية.

كانت فلسفتهم تقومُ على أساس وضع الأمور غير المُرتبطة إلى جوار بعضها البعض والقيام بفصل الأمور المرتبطة ببعضها عن بعض، لا أريدُ إصدار الأحكام على تصرفات هؤلاء فربما كانوا مُحقِّين، لأنَّ الثقافة والفكر الدين يسمحان لِنتشيا وماركس بالنيل من الدين ربما كانَ فِعلُ هؤلاء أيضاً صحيحاً في مثل تلك الظروف والأجواء.

لكننا هنا نُريدُ معرفة كيفَ انهارت ثقافتهم ودينهم وكيفَ حَصَلَ ذلك، إنَّ جمعَ قصاصات الصحف والصور غير المرتبطة إلى بعضها البعض لم يكن أمراً طبيعياً، إنهُ خارجٌ عن النظام الفني والثقافي وكُلُّ شيءٍ كانَ يُشيرُ إلى الأزمة، كُلُّ شيءٍ كانَ يُشيرُ إلى أنَّ هذا المُجتمع وهذه الثقافة تُعاني من أزمةٍ مُطلقة واحدةٌ من الشعارات التي كانوا يرفعونها هي أن نقول كُلَّ ما يحلو لنا ونرفضُ أيَّ انتقاد.

ما أقولهُ هو عينُ ما أشارت إليه بياناتهم وأدبياتهم وأفكارهم التي عُرِفت بالدادية، وقامَ بعض الناس في البلدان الشرقية والأسيوية بتقليدهم، ومن جملة تلك البلدان إيران.

لم يكن هؤلاء يفهموا الحقيقة، حقيقة الامر لم يكونوا يُدرِكونَ حقيقة المُحيط التي نمت فيه هذه الافكار ولا المقصود من رفع هذه الشعارات.

عندما يقومُ إنسانٌ بوضع السَّفُّوت والإبرة والمسمار إلى جوار بعضها ويصنع منها شيئاً ويُطلق على ذلك اسم فن المعاصر، ربما كان في الغرب وفي تلك البيئة ذا معنا لكنه في إيران والشرق ماذا يعني؟

لقد أرادَ هؤلاء سحب هذه الافكار في كافة المجالات كالفلسفة السياسية وعلم الاجتماع والاقتصاد والإدارة وإلى آخرهِ، إنهم أرادوا أن يفعلوا بأنفسهم كما يفعل بعض الأفارقة بتلوين شعرهم باللون الأصفر تقليداً للممثلين البيض في السينما الأمريكية، وهم لا يُدركونَ أنَّ هذا اللون ينبغي أن يكون متلائماً مع سائر الوجه.

إنَّ ما يقوم به العالم الإسلامي اليوم من تقليدٍ للغرب في المجالات الثقافية والأدب والسياسة والاقتصاد والإدارة وكُلِّ شيء هو من هذا النوع من التقليد.

في الغرب يُفرضُ على مرضى الإيدز الذين يقودونَ السيارات أن يضعوا بُقعةً بلون الدم على سياراتهم لتمييزِهِم، حتى لو وقعَ اصطدام وجُرِحَ المُبتلى بالإيدز فإنَّ على أطقُم الإسعاف والناس والمُستشفى أن يكونوا حَذِرِينَ في التعامل معهم، لكننا اليوم نرى البعضَ يقومون بفعل ذلكَ الشيء، ويضعونَ بُقعاً بلون الدم على سياراتهم، عندما نسألهم لماذا يفعلون ذلك؟

يقولون لكَ إنها نموذجٌ حديث.

لا يعلمون حقيقة هذا الامر في البلدان الغربية، إنَّ هذه الظاهرة التي تُشيرُ إلى انهيار الثقافة والأخلاق والدين في الغرب كانت موجَّهةً عن عمدٍ بتصوّري، وهكذا ظهور الاتجاه الدادي ومن بعدها المدرسة ما فوق الواقعية، لقد لامهم البعض بأنَّ أفعالهم إرهابية وأنهم يُمارسونَ إرهاباً أدبياً فنيّاً وانتفاضة أخلاقية ضدَّ النُظُم الموجودة وثقافة المُجتمع، قالوا لهم إنَّ هذا هو فكرٌ هدَّام وليسَ فكرٌ ربّاني، وعليه فهو غير مرتبط بعالم الفن وأنهم مخبولون في نهاية المطاف.

بالطبع إنَّ الحكم حول هذا الفكر هل هو تمرُّد ثوري أو فوضوي أو أي شيءٍ آخر، وجِدَ بعد فترة الحرب عندما انهارت كل القيم وكانَ عبارةٌ عن تحطيمٍ لما كان موجوداً في الفنون اللسانية والتشكيلية وكانَ بمثابة البداية لكل فكر جديد، وقد بلغَ هذا الفكر أوجهُ عامَ ألفٍ وتسعمائةٍ وعشرين وبعد عامين خَمَدت شُعلتهُ وبانَ انهُ عبارة عن حالةٍ إجتماعيةٍ ليسَ لها أصلٌ فني، أي إنها ظهرت من رحم أزمةٍ اجتماعية، بعدها تطورَ إلى تيارٍ ما فوقَ الواقعية وكان ذلك بمثابة التمرُّد ضدَّ الحضارة المادية فكرةٌ ثوريةٌ اجتماعية وفي ذات الوقت فنٌ وأدب، وكانت بمثابة قوةٍ للتحليل الاجتماعي لم تكن فلسفة أو نظرية بل نظرة شمولية وتصرُّفاً ناجماً عن اليأس لما هو موجود وعبثي وغيرُ ذي أصل، كانوا يُنادونَ أنَّ كُلَّ شيءٍ كاذب ومُشكَّكٌ به ولا يُمكن الاعتماد عليه لا بالوحي ولا بالدين، ولا يمكن الاعتماد على الأخلاق ولا بالنظام الاجتماعي، كانوا على حق وهذا أساساً هو فكرُ نيتشا فيلسوف ذلك التاريخ، حيثُ كانَ يقول:

إنَّ كُلَّ ما نُشاهدهُ في الغرب تحتَ مُسمَّى الدين أو النظام الاجتماعي والحضارة وحقوق الإنسان كذب، وعلينا أن نشرعَ ببناءِ شيءٍ جديد بأيدينا نحن.

كانَ يُهاجم الديمقراطية ويهاجم المسيحية على حدٍ سواء، أصحابُ هذا الفكر كانوا يقولون إنَّ الديمقراطية هي المسيحية العلمانية، ويُضيفونَ أنَّ الإلحادية هي المسيحية غير الدينية وكِلا المقولتين كلامٌ فارغ، هكذا أرادوا تبرير أفكارهم.

وجاءَ في واحدةٍ من البيانات لِأشهر أنصار الفكر الفوق الواقعي: لقد أصبتُ بالعجز وإنني لا أعترف بأي وضعٍ من حولي، باتت الحداثة مُثيرةٌ للتقيؤ، وأنَّ سحر الأشعار هو الذي يستطيع تغيير الصورة في حياتي وهو الوحيد القابل للتحمّل، لا أريد هذا التطوّر، إنني ورُغمَ كُل الحداثة والتطوُّر أعيشُ في ظُلمةٍ مُطبقة.

هذه الأقوال بتصوُّري هي بداية لانتفاضة فلسفية بالدرجة الأولى بعدها تُترجم إلى انتفاضة فنّية وكانَ هؤلاء من الشبان الذين انبروا في الحرب العالمية الأولى للحديث عن أصحاب المدرسة المنطقية وكذلكَ المسيحية، وهكذا ظهرت من هذه العدمية حالة تمرُّدٍ أدبيةٍ كبيرة بجذورٍ فلسفيةٍ وآثارٍ سياسية، حركةٌ سُمِّية فيما بعد باسم الإنكار والرفض.

النقطة الأخيرة التي أودُّ الإشارة إليها أنَّ القيم التي دافعَ عنها الشهداء وبذلوا مُهجَهُم من أجلها ما زالت قائمة ولم تزل، بل على العكس باتت فِكراً انتشر في العالم وأوجدَ نهضةً من الصحوة الإسلامية وحركةً عالميةً انتشرت في شتَّى أرجاء المعمورة، لاحظوا كيفَ هي حال البلدان بعدَ الحروب والثقافات التي يُبتلونَ بها بعد الحرب، وحالُ ثورتنا الماضية إلى الأمام بعون الله، لم نجتمع هنا للنيل من أحد أو نعتمد الإفراطَ في حلِّ بعض العقبات والمشاكل التي تعتري طريقنا، لأنَّ المشاكل الاجتماعية لا تُحلُّ بهكذا طريقة، وأنَّ على كُل الحركات الثورية ذات الرسالة أن تتمسَّكَ بالعقلانية والمنطق، لأنَّ إصلاح الأمور بحاجةٍ إلى مراحلَ وبغيرهِ فإنَّ الأعمال الإيجابية ستتحول إلى سلبية.

بالطبع أذكر هنا أنَّ تطبيقَ الأسس النظرية على صعيد الواقع الاجتماعي عملٌ صعبٌ ومعقّدٌ للغاية، ولكن ليسَ علينا على الدوام أن نجلسَ مكتوفي الأيدي وننتظر المؤسسة الحاكمة، ففي كثيرٍ من الاحيان ليسَ هناكَ مُتولّين للأمور الاجتماعية، أو أنَّ المسؤولين باتوا غافلين وكما هو الحال في الحرب فقد شعرَ الجميع بالمسؤولية والواجب، وليسَ علينا أن نقنعَ بالتبريرات وعلينا أن نكونَ يقظينَ وواعين، لأنَّ هناكَ من يؤمن أنَّ الحقبة العقائدية والثورية قد انتهت، وأنَّ الدور الآن للنسبية والتشكيك والتقاعس وعدم الاكتراث.

إنَّ المؤمنين بهذا الفكر إنما يُريدونَ القولَ إنَّ القيم التوحيدية والإنسانية التي ضحَّى آلاف من أجلها من الأنبياء والشهداء والمُجاهدين على مر التاريخ هي عملٌ سطحي، إنَّ أصحاب هذا الفكر يُريدونَ إدانة أعمال الأنبياء.

إنَّ مجاهدينا لم يزيدوا على عمل الأنبياء، لقد تابعوا ذاتَ النهج وطريقَ ذات الشوكة، لأنَّ هذا الطريق هو الوحيد للخلاص وليسَ هناكَ طريقٌ آخر، والطرق الالتفافية لا تقودُنا إلى الحل، هناكَ بعض الأفراد باتوا متأثرين بالترجمات التي تأتينا من الشرق والغرب وكذلك الاجواء التي تسود في العالم، فتراهم يتحوَّلونَ إلى يسارٍ مُتشدِّدٍ، وتارةً وبعدَ انهيار المنظومة الشرقية تحولوا إلى يمينٍ مُتطرِّفٍ، وباتوا ليبراليينَ أكثر من الليبرالية نفسها في الاقتصاد والسياسة والثقافة.

أوجِّهُ خطابي لهذا النفر من الشُّبَّان الذين كانوا ينعتونَ مُجاهدينا عندما كانوا يُدافعونَ عن مُلكية الأفراد ويقفونَ بوجه الأفكار الاشتراكية، هؤلاء الدين ضحَّوا بأنفسهم إبَّانَ الثورة وفي عقدها الاول بعدَ الانتصار نُعِتوا باليمين والمُحافظين، واليوم وعَقِبَ انهيار المنظومة الشرقية وهجوم الليبرالية على العالم بأسره يواصلُ مُجاهدونا الدفاع عن المحرومين والمُستضعفين.

لقد اتهم أصحابُ هذا الفكر الكثير من أبناء الثورة وقادتها في أيام شاه المقبور، وبعد انتصار الثورة الإسلامية بالعمالة لليمين والرأسمالية، حتى طالت الاتهامات مُعلّم الثورة الشهيد مرتضى المُطهَّري، الذي حاربَ الشيوعية والاشتراكية، لا بل حتى الرأسمالية ونظام امتيازات الأجانب إتهموهُ بالدفاع عن الرأسمالية، وبعد زوال المنظومة الشرقية باتَ المدافعون عن القيم الأصيلة وحقوق الأمة يُتَّهمونَ باليسار، لماذا؟ لأنَّ الثورة الإسلامية وقفت بوجه العقائدية اليسارية واليمينية على حدٍّ سواء.

في تلك الأيام عندما وقفت الثقافة الإسلامية بوجه الشيوعية والاشتراكية اتهمت بالرأسمالية والرجعية والتقليدية، واليوم عندما تقف الثقافة الإسلامية قُبالة الليبرالية الرأسمالية تُتَّهمُ بأنها ثقافة عاد الإنسان وأنها يسارية مُتطرّفة.

كانت الشيوعية تتحدَّثُ عن العولمة وكذلك تفعل الليبرالية اليوم، كانَ أولئكَ يُطلِقونَ عبارة العولمة الاشتراكية، أمَّا اليوم فيقولونَ العولمة الرأسمالية لم يفرق شيء إلا الأدبيات

والطرح والسبب يعود إلى أنَّ رياح العالم تغيَّرت وسقطَ اليسار وظلَّ اليمين وحيداً مُنفرداً في الساحة، وهؤلاء ينعقونَ مع كُل ناعقٍ فأينما تمضي الريح يمضون، كانَ هذا دَيدَنُ أسلافهم أيضاً.

وهنا أقول لكم يمكننا هَديُ الإنسان إلى الصراط القَويم إن كانَ نائماً غافلا، لكنهُ لو افتعل النوم فكأنهُ لا يُريدُ أن يتعلم.

علينا أن نثقَ بهؤلاء بمقدار ثقتنا بالساسة، فهؤلاء يُرجِّحُونَ مصالحهم على كُلِّ شيء ويُضحُّونَ بعقائدهم من أجل مصالحهم على الدوام، وليعلم الجيل الجديد والطلبة الذين يدخلونَ الجامعات لتلقي العلوم أنَّ الغربَ والليبرالية تتعارض والدين والقيم السماوية بذات المقدار الذي تعارضت فيه الشيوعية مع الدين والتوحيد والشريعة، اعلموا أنَّ اليسار ارتكب جرائمهُ باسم المساواة، واليوم يقوم اليمينُ بارتكاب المجازر باسم الحرية، كِلا التفكيرين خطير على الأمة بنفس الدرجة.

شكراً لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

التعرض للنظم الإيجابية القديمة والعالمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان السؤال مطروحاً على الدوام أمام قوى الثورة هل أن نظرية الثورة ورسالتها قد دخلت في أروقة وزارة الخارجية وباتت الملهمة والمشعل الوضاء في تعامل إيران مع العالم الخارجي أم لا؟

أقولها بصراحةٍ إن هذا التساؤل كان مطروحاً منذ البداية وكانت هناك إجابات مختلفة على مر سنين عمر الثورة الإسلامية وفي بعض الأحيان ارتفعت أصواتٌ خجولة من البعض وهي تدافع باستحياء عن مواقف وثوابت الثورة ومن هو أدنى اطلاع بالأصول والأعراف الدولية يعلم أنه لا ينبغي التفوه بعبارةٍ ما لأنها ستحسب عليه أو أنها ستُعد خارج الأصول والأعراف الدبلوماسية، لكن الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه أوردَ مفاهيم مغايرة لما هو موجود وتم التعبير عنها بنظرية الثورة بالحوار وفي حين أننا لا نلاحظ أي ازدواجية في خطاب الآخرين لنا، لأن المتحدثين باسم وزارات خارجية المعسكر الغربي يقفون أمامنا دون استحياءٍ ويعلنون مواقفهم دون خجل وهم يُرددون دونما حياءٍ الأفكار والأيدلوجيات التي تنادي بها اسرائيل والولايات المتحدة ولن تجد ازدواجيةً بين اللغة الرسمية للدبلوماسية الغربية مع أيدلوجيتهم ولن يطرحوا أفكارهم على استحياءٍ أبداً، إنهم يتحدثون بكل صراحة يقولون ما يريدون حتى لو كان مغايراً لصريح القوانين الدولية، لقد هاجم الإمام الخميني ﷺ ومنذ بداية الثورة النظام العالمي ومشروعيته وتحدث عن إمكانية تغيير المعادلة الموجودة، إن بإمكان امتلاك نهجٍ يؤمن بالنظام العالمي، لأنه لا

قابيليه لنا بتغيير هذا النظام السائد، أما الطريق الثاني فيكمن في أن النظام الموجود غير شرعي وهناك إمكانية لتغييره، دعونا هنا نتحدث بصراحةٍ لأنني أتصور أنها المرة الأولى التي أتحدث فيها إلى كبار موظفي الخارجية الإيرانية وأريد التحدث معكم عن وزارة خارجيةٍ من منظار ومفهوم الإمام الخميني، الإمام الذي يدعو إلى إلغاء حق الفيتو[١] وإزالة الصهيونية وشعاراتها والدعوة لإسقاط الأنظمة العميلة للغرب في المنطقة، لقد سمعتم هذه العبارات في خطب الإمام مراتٍ عدة وقد نتجاوز اليوم هذه الكلمات في بعض الأحيان وقد ظننا أن عدم اعتماد هذه الأقوال وتكرارها سيجعلنا في حِلٍ منها في حين أن الإمام الخميني طرح هذه المبادئ والأصول بشكل كافي بحيث تطرح في المحاكم الدولية على الطريقة الامريكية والغربية، لقد تحدث الإمام بصراحةٍ عن ازدرائه للنظام والأعراف الدولية المعمول بها بدءً من الأحكام التي أصدرها ضد المرتد سلمان رشدي، مروراً بدعوته الشعوب للثورة ضد الأنظمة العميلة، انتهاءً بدعوته الصريحة إلى إزالة الكيان الصهيوني من الخارطة والكل يتذكر عبارة الإمام «يجب تمحى إسرائيل من الخارطة» وقلما تحدث الإمام في الشؤون السياسية الخارجية كانت متلائمةً مع النظرة الغربية للأمور ربما أجزنا لأنفسنا القول لا يصح طرح الموضوعات في الوقت الحاضر لكننا لا نستطيع القول إن الإمام لم يقل ذلك، إن الشعارات التي طرحها الإمام حول إزالة الأنظمة العميلة والتابعة للغرب في المنطقة تشير بوضوح إلى منهجية الإمام في تحطيم المعادلات الموجودة، وتصور البعض أن هذه الأفكار هي متشددة وخطرة بل وصرح بذلك البعض إبان السنوات الماضية واعتبروا دعوات الإمام غير واقعية وأيدلوجية بامتياز في النصوص التقليدية الخاصة بأصحاب النظريات في العلاقات الدولية هناك فريق يؤمن بالتفاؤل وآخر متشائم، أما منهجيات التحليل فيتم تقسيمها إلى منهجياتٍ علمية تجريبية وأخرى فلسفية وتحليلية وملاك تقسيم ذلك يعود إلى هذين النوعين من التحليل المتقدم أو المتأخر وطبقاً لأصحاب الفن يتم تقسيمه بين علمي أو فلسفي أخلاقي أو أيدلوجي أو تجريبي وبقينا نرددها كالببغاء في مباحثنا ونعمل بها أيضاً حتى قالوا إن الإيمان بالوحدة الدينية هو مبنى وأساس نظري للحديث عن هدفية

---

١ . Veto (هو حق الاعتراض على أي قرار يقدم لمجلس الأمن دون إبداء أسباب و يمنح هذا الحق للأعضاء الخمس دائمي العضوية في المجلس، وهذه الدول هي: المملكة المتحدة وروسيا والصين و فرنسا و الولايات المتحدة).

أو واقعية نظريات العلاقات الدولية ورغم أنهم قاموا في نهاية المطاف باقتباس جزءٍ من هذا وجزء من ذاك في المجال العملي ومن إطفاء العطش المتوقد في النفوس لدرك المحيط وتحليل الأمور اختاروا موائمة وتلفيقاً من هذين الطريقين سواءً أصحاب النظرية الليبرالية أو الماركسية في العقود المنصرمة، إن النقدة التي أريد الإشارة إليها هو أن ما يطرحوه أمامنا ويدّعون أنه تحليل علمي هو في الغالب عبارة عن موضوعات مؤدلجة يطرحونها باسم تحليل أوضاع العالم إنهم في الحقيقة يقومون بفرض أيدلوجيتهم علينا الواقع أن العلاقات الدولية قائمة على مبادئ أيدلوجية خاصة بهم لكنها في بعض الاحيان تكون وراء حجاب سواءً كان يسارياً أو يمينياً الحقيقة تكمن في العلوم الاجتماعية وخاصة السياسية منها، إن ما يطرح باسم الوقائع هو عبارة عن ذكر حقائق مخلوطة بأماني الغرب في أن يكون العالم هكذا وفقاً لمصالحه وعليه فإنه يفرض ارادته على المحللين ومن يتخذ القرار في البلدان الإسلامية لا بل في كل العالم ويضع ذلك في غطاء علمي وعلينا أن نعلم أن لا وجود لمُنظّر في مجال العلوم الاجتماعية أو السياسية أو العلاقات الدولية أو السياسة الخارجية يطرح نظرية غير مؤدلجة بعيداً عن مصالحه ومغروضاته وقيمه الأخلاقية والأيدلوجية لكن الأمر يتم في إطارٍ وقالب علمي لخداعنا وليجعلنا نتصور أن ذلك أمرٌ علمي غير مؤدلجٍ أو مُسيَّسٍ وعليه سيكون في نهاية المطاف أمام تعارضٍ بين مصالح الحكم والأيدجلوجية في حين أن مصطلح المصالح يتضمن تعريف أيدلوجياً وفي حقيقة الأمر لا يمكن تعريف المصالح الوطنية خارج نطاق الأيدلوجية ولو فتشنا في العالم الغربي لن نجد تعريفاً مؤدلجاً للمصالح الوطنية وعليه من يتحدث عن جعل الأمور الدبلوماسية موضوعاً غير مؤدلجٍ فهو يتحدث عن موضوعاتٍ غير علمية أساساً وحتى لو اعتبرنا المصالح الوطنية مفهوماً أساساً في معيار تعريف المصالح فإن هذا التعريف عبارة عن أيدلوجية ينبغي أن تُحصر في المصالح والنفع والضرر، وهنا أُشير بصورة عابرة إلى أسماء تُعد من مؤسسي العلاقات الدولية في الغرب من أمثال ميكافيلي ودانتا ورسائل بيردوفوا ورسالة أنري كوستا ووليم بيند وجان جاك روسو وجيرمي بينتان وكانت،[1] حيث يُعدُّ هؤلاء عرابي النظرية الغربية في باب القوة الدولية والسياسة الخارجية، ولو بدأنا من مُنظّري الغرب في القرون الخامس عشر إلى

1 . Machiavelli، Danta، Birdua، Henry Costa، William Bend، John Jak Rousseau، Jeremy Bintan، Kant.

الثامن عشر مروراً بما يصطلح عليه اسم المنظّرين المعاصرين في العقود الأخيرة والذين أوجدوا اسم العلاقات الدولية كانوا جميعاً من الباحثين في النظريات المؤسساتية نظريات بيئية في مبحث القوة الدولية.

نظرية التنازع والحرب الباردة، نظرياتٍ إمبريالية وأنواع النظريات في هذا الباب، نظريات التعاون والمصالح وأمثال هذه النظريات كلها تقوم على أساس المصالح أو المفاهيم غير السياسية وينبغي تعريفها وقولبتها في علوم أخرى لكنها نظريات حددت أهدافها منذ البداية، إنهم لم يُصرحوا لنا بما يُريدونه وما ينون فعله معنا، بل طرحوا ذلك في إطارٍ شبه علمي يطرحون تمنياتهم لنا ومن هنا يتبين أن السياسة الخارجية ليست محض فن علمي كما هو حال العلوم السياسية وأن ما يطرح عبارة عن نظريات سياسة في إطار العلاقات الدولية، إن الغرب نفسه يؤمن بهذا التصنيف وعلينا أن نعي ذلك بوضوح إنهم يطرحون اليوم في كتبهم ومقالاتهم علينا أن نبحث الأمور في قالب علمي لقد بحثنا الأمور في قالب أيدلوجي وقالب غير علمي هم يقولون ذلك علينا أن نمتلك في إطار السياسة الخارجية منظرين يرون العلاقات الدولية على أساس رؤية الإمام الثورية، علينا أن نجلس من جديد لقد مرت عقود ثلاثة من عمر الثورة الإسلامية حتى لو انتظرنا ثلاثة عقود أخرى ينبغي أن نصنع علاقاتنا الدولية وفق رؤية الإمام للأمور إننا نعاني في هذا الإطار، لماذا يطرح المنظرون الغربيون أفكارهم ونظرياتهم ونظل نحن عاجزين عن ذلك؟ لماذا ينبغي أن يُحددوا هم قيم المجتمع الدولي؟ لماذا ينبغي أن يكون هؤلاء الحراث والناطقين باسم حقوق الإنسان والنظام العالمي ولا نستطيع نحن فعل ذلك؟ هل أن القوة الإنسانية والاجتماعية عندنا أقل منهم؟ يمكننا اليوم القول وبفم مليء إن استيعاب الإنسان والجماهير لثورتنا في كل أرجاء المعمورة هو في حده الأعلى وعلينا استغلال هذه المكانة، إن قوة أمريكا والغرب قائمة على الدولار والإعلام والسلاح لكن قوتنا قائمة على الجماهير ووعيها وابتغائها الحرية نحن أقوى منهم لدينا القوة لكن لا نمتلك الجرأة بعد للاستفادة من هذه القوة ربما كان الإنسان يمتلك اكبر القوى لكنه يظل عاجز عن امتلاكها وربما كان آخرون يمتلكون قوة أضعف لكنهم قادرون على الاستفادة منها وعليه ستكون الغلبة لهم في المواجهة، إن العالم ينظر اليوم إلى إيران باعتبارها رائدةً وقائدة لجبهة المسلمين في الدنيا، إنهم يكتبون ذلك باسمنا لكننا لم

نستغل هذه الإمكانية بعد إننا ندفع ثمن ذلك دون الاستفادة منه، إن المسلمين يدفعون الثمن جميعاً ولا من مستفيد، إن الغرب يطرح بعض المفاهيم التي يدعي أنها علمية في عالم العلاقات الدولية من أجل توفير مصالحه والأنكا من كل ذلك أنهم يطرحونها على أنها محكمات دولية لا بل ضرورات ونحن مستسلمون لما يقولون بدءً من تقسيم العالم إلى شمال وجنوب، إلى دول نامية وأخرى متخلفة، علينا الاعتراض على هذه التقسيمات المغلوطة لا نرى إشارة إلى دور الاستعمار في تخلف الشعوب والأمم وللتغطية على نواياهم يطرحون عباراتٍ فضفاضةً مثل المجتمع الدولي لاحتضان حقوق البشر، الإشراف الدولي بأيدينا نحن ندرك مصلحة العالم، أمن العالم الحر يقتضي أن نهجم على هذا البلد أو ذاك، يطرحون هذه الأفكار ويغرسونها في عقول الشعوب وهي كلها ذات اتجاهاتٍ وأهداف أيدلوجية، وليس هناك قاعدة علمية أو استدلال علمي محايد لما يطرحونه على الإطلاق وهذا الأمر عبارة عن سيطرة الرأسمالية الغربية على العالم بأسره هكذا هي نظرياتهم التي وضعوها كوحيٍ مُنزلٍ أمام العالم وأكبر نموذج على ذلك القضية النووية حيث يمنع مستخدمو الأسلحة الذرية بلدان العالم من الاستفادة السلمية من الطاقة النووية كل ذلك يُطرح في إطار العملية والواقعية والنظرة العلمية، إنهم يفعلون ذلك تحت هذه المسميات وخدعوا العالم بأسره وللأسف الشديد إن الجامعات ومؤسسات السياسة الخارجية ومراكز الأبحاث في العالم بأسره تمضي وفق هذه الأطر وتتخذ القرار وفق هذه الضوابط وقد تكون هذه التصرفات مؤدبة وفي بعض الأحيان تطرح بصورة صريحة هم يطرحوننا أرضاً بالقوانين والضوابط التي يضعونها هم، لكننا لو عدنا إلى نظرية الإمام الراحل لشهدنا أنه كسر هذه الحواجز والأطر بالمعنى الدقيق للكلمة وهو من خلال طرح شعار لا شرقية ولا غربية أوجد القطبية الثالثة في العالم، لقد أخذ الإمام الخميني ﷺ بيد الدين من الحواشي في العلاقات الدولية إلى الصدارة وجعل من الألعوبة لاعباً ولذلك فهو يُعد أباً للأصولية الإسلامية في العالم، لقد دعا الإمام الخميني الشعوب للثورة ضد الأنظمة العميلة وأطلق شعار الصحوة الإسلامية في العالم وتحدث عن وحدة المستضعفين مقابل المستكبرين في العالم، لقد تحدث أيضاً وبصراحة عن تصدير الثورة إلى جميع أنحاء العالم، لقد طرح فكرة تأسيس الأمة الإسلامية الواحدة وبات شعار الجمهورية الإسلامية في إيران محو إسرائيل

حيث دعا الإمام لإزالة إسرائيل التي وصفها بالغدة السرطانية وهدد القوى الكبرى بالقول لو وقفتم مقابل ديننا سنقف مقابل دنياكم وقال: سنحطم مخالب أمريكا في المنطقة وسائر أنحاء العالم وقال إن الشيوعية والمعسكر الشرقي باطلاً ولن نساوم الشيوعيين أبداً وكرر شعار الموت لأمريكا والموت للاتحاد السوفيتي سويةً، لقد كانت نظرية الثورة قائمة على فتح جبهتين في آنٍ واحد وطبقاً للأصول الماتريالستيا[١] والعلاقات الدولية فإن الشعارات التي طرحها الإمام مغلوطة تماماً، لقد قال الإمام إن طريق حل القضية الفلسطينية لا يمر عبر المفاوضات والتسوية بل في الجهاد والشهادة وقال عن أنور السادات وحسني مبارك والحسن الثاني والملك حسين وفهد وصدام إنهم خونة للأمة الإسلامية لقد تم بث محاضرات وأقوال الإمام من خلال الإذاعة واعتبر أن طريق الجهاد والشهادة هو الطريق الأمثل دونما تأخر وكل هذه الدعوات تعد كسراً للمعايير الموجودة وثورة على النظام الدولي الموجود وأوجد الإمام أيضاً بأقواله وأفعاله حالةً من الأزمة في العلاقات الدولية ومن يقول إن على إيران أن تحتوي الأزمة فما عليه إلا حذف الإمام من قاموسه بالطبع لا أدعو السلك الدبلوماسي لتكرار ألفاظ الإمام بهذه الطريقة ولا أقول أن يتحدث السفراء بهذه الصراحة في العالم ولكن لا ينبغي عليهم أن ينسوا الحركة التي دعا لها الإمام، يمكن لوزارة الخارجية أن تختار التكتيك المناسب ولكن لا يجوز لها أن تغير الهدف، نرى إن البعض عمد إلى الحديث عن تغير الأهداف بحجة تغيير التكتيك، بالطبع لم يكن الإمام ثائراً بالمعنى السلبي لقد كان ملزماً نفسه بالتقيّد بالمعاهدات والعلاقات الدبلوماسية مع الدول والحكومات ورعاية الأدب الدبلوماسي بشكلٍ كامل، كان يرفض تفخيخ وتفجير الأماكن العامة، كان معارضاً للإرهاب الأعمى والحرب الطائفية على أساس المذهب، لكننا لم نكن لنرى الإمام مواطن مطيع في العالم السائد ولذلك أطلق الغرب اسم الثورة المتمردة على ثورتنا ولهم الحق في ذلك، لقد تمردت ثورة الإمام على النظام العالمي وأوجدت الكثير من الأزمات له خلال العقود الثلاثة الماضية إن كان شعار احتواء الأزمة يعني إزاحة الثورة عن السياسة الخارجية وإزاحة الإمام عن السياسة الخارجية فهذا تحديداً هو ما تهدف له أمريكا والغرب وإن قال الإمام إن العلاقة بين أمريكا وإيران هي العلاقة بين الذئب والشاة، إن أمريكا لن

---

١ . (materialism) المذهب المادي المادية؛ مادية؛ مَذْهَب يَقُول بِأَنْ لَا مَوْجُود غَيْر الْمَادَّة. راجع: قاموس المعاني.

تُقلع عن ماهيتها الإمبريالية إذاً نرى أن الإمام تحدث عن حرب الإسلام مع أمريكا ولم يتحدث أبداً عن مهادنة بين الإسلام وأمريكا، لقد تصدى الإمام لمصالح الغرب في العالم الإسلامي ودعا إلى تشكيل نواة حزب الله في كل أنحاء العالم وتنبأ أن السواتر الأصلية في العالم ستسقط بيد الإسلام في كافة أرجاء العالم وهنا أتساءل كيف لي الجمع بين ما دعا إليه الإمام مع ما هو موجود في الموازين الدبلوماسية الغربية؟ إن الساحة الدولية والدبلوماسية هي ساحة تحصيل المصالح وتغليب النظريات وجر العالم صوب ما تفكر به الحكومات المختلفة، إنهم يمارسون حرب نفسية لتغليب أفكارهم وتأمين مصالحهم وأيدلوجياتهم، لماذا ينبغي ويجوز أن يفعل أوليائك ذلك ونُحرم منه نحن؟ ما هو الاستدلال الأخلاقي والفلسفي والسياسي في منعنا من فعل ما يفعلون؟ لماذا لا نرى ازدواجية المعايير لدى الآخر؟ ولماذا لا نرى أولئك يخجلون من أفعالهم ونخجل منهم عندما نريد الدفاع عن المظلوم؟ ينبغي علينا أن نكف عن ترجمة وتطبيق نظريات الآخرين، علينا أن نعمل على إنتاج نظريةٍ إسلامية وثورية لتحليل الأوضاع في العالم وبغية البرمجة لتصدير ثورتنا بصورة عقلانية، ولدي هنا عدة تساؤلات وددتُ طرحها في مجال السياسة الخارجية وهي: أولاً: هل ينبغي أن نكون في السياسة الخارجية بشكل خاص وفي السياسة بشكل عام وفي العلوم الاجتماعية بشكلٍ أعم؟ أيدلوجيين أم علميين؟

ثانياً: هل يمكن التفكيك بين المصالح الوطنية عن الأيدلوجية؟ أليس للمصالح الوطنية تعريف أيدلوجي في جميع أنحاء الدنيا؟

الكل يقوم بتعريف ذلك على أساس أيدلوجي خاصة أمريكا والغرب.

ثالثاً: ما هو معنى احتواء الأزمة في السياسة الخارجية مع أمريكا والصهيونية؟ وعلى أي معيار ثوري وإسلامي يتم ذلك؟

رابعاً: هل في شعار الأمة الإسلامية الواحدة والاتحاد الثوري ضد الإمبريالية تعارضٌ مع عنوان الدولة القومية أم لا؟

خامساً: كان البعض يقول إنه لا يمكن مقاومة القوى الكبرى فما بالك بالانتصار عليها! واليوم نرى أن الغرب يطلق لإيران اسم محرك الثورات الدينية في العالم وباتوا يعترفون أن إيران هي القطب الثاني من الناحية الإنسانية والسياسية في العالم ويقولون إنه لا يمكن

حل مسائل أفغانستان وباكستان والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين دون تعاون إيران لا بل إنهم يقولون إن إيران باتت الملهمة للأقليات المسلمة في أوروبا فما عساهم يقولون اليوم بعد سنوات طويلة من رحيل الإمام الخميني ﷺ، هل أن الانتصار والتطور والتقدم العلمي بات ممكناً رغم أنف القوى الكبرى أم لا؟ لماذا تتقدم أفكار الإمام وخططه في عالم اليوم؟ لقد صمد الإمام بوجه القوى الكبرى الشرقية والغربية وعلى الصعيد الداخلي ودرء الفتن والحرب المفروضة من قبل نظام صدام المقبور والحظر الاقتصادي، لقد صمد الإمام في أحلك الظروف ولم يكن صمود الإمام وإيران عقلائياً وفق الحسابات المادية والدولية ولكانت إيران قد مُحيت من الخارطة أساساً لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

سادساً: كم هي الفرصة التاريخية اللازمة لنتحول من أكبر قوة في المنطقة تمتلك المقومات اللازمة إلى قوة دولية لها تأثيرها في العلاقات الدولية؟ ألم يصبح المارد الإسلامي اليوم أكثر القوى المؤثرة على الصعيد العالمي؟ ألم تقل أمريكا رسمياً إن فترة الحرب الباردة قد انتهت وإن هذه الحرب ستصبح حرب ساخنة ضد الإسلام بعد انهيار الشيوعية لقد امتدت الأفكار الإمبريالية في العالم واتسعت بفعل محاربة الشيوعية واليوم تتجحفل باسم محاربة الإرهاب، لماذا نتأخر في قيادة العالم الإسلامي وهو أمر يتم بالفعل؟

إن أمريكا التي كانت تقود العالم الغربي ضد الشيوعية هي اليوم تقود العالم ضد المسلمين الذين يمتد تواجدهم من ماليزيا والفلبين شرقاً إلى البلقان[١] في قلب أوروبا غرباً ومن أسيا الوسطى إلى شمال أفريقيا ناهيك عن الأقلية المسلمة في أوروبا وأمريكا وهي أقوى الأقليات المؤثرة هناك، نشكل اليوم معسكر يمتد في أبعاده الروحانية والسياسية ليضرب في كل الأرض وهذا المعسكر لا يضم في تشكيلته أناساً من أمثالنا بالتأكيد إنه يتألف من المجاهدين الحقيقيين والشهداء الذين بذلوا مُهجهم من أجل الدفاع عن حقوق المستضعفين ولعلّي أسأل المسؤولين في وزارة الخارجية وأقول: لماذا نحن نمتلك هذه القوة ولا نتولى قيادة الأمة، هل تنقصنا شجاعة أمريكا لنقوم بذلك؟ وهي تقوم به؟

---

١. The Balkans (البلقان هي شبه جزيرة ومنطقة موجوده في جنوب شرق اوروبا. اسم المنطقة نسبة الى سلسلة جبال البلقان، الذي يمتد من بلغاريا وصولا الى صربيا. مساحة منطقة البلقان حوالى ٦٦٦,٧٠٠ كيلو متر مربع و عدد السكان كان في ٢٠٠٢ حوالي ٥٩,٢٩٧,٠٠٠ نسمة. منطقة البلقان تعتبر واحده من المناطق التاريخية و الجغرافية المهمة في اوروبا، قامت فيها حضارات وامبراطوريات كبيره مثل الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية العثمانية).

لماذا لا نتولى قيادة الصحوة الإسلامية؟ لماذا لا نصبح الناطقين باسم العالم الإسلامي؟ لماذا يحدد أولئك مصير المسلمين على الدوام لماذا لا نتولى ذلك نحن؟ من هو المتحدث باسم العالم الإسلامي، وعندما تتولى إيران قيادة جزء من العالم عليها أن تكون مُعدة لتحمل المسؤولية، لقد اعتدنا لقرنين من الزمان أن نكون عبيداً، علينا أن نمتلك الجرأة لقيادة العالم، لنا تجربة قرنين من الزمان علينا أن نكون شجعاناً كما كان الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، ما هو تعريفنا للعقلانية السياسية يا ترى، العقلانية عنصر مهم في السياسة الداخلية والخارجية لكنها اليوم تُستغل لأهداف محددة في العالم، العقلانية لا تعني الاستسلام نريد أن تكون الأدوات والأهداف عقلانية إننا نؤيد النظرية اليسارية في تفسيرها للإمبريالية والتي تُعدها مرحلة متطورة من الرأسمالية والتوسع الذاتي وترى أنها من ملزمات الغرب لكننا لا نُعد ذلك كافياً، إننا نرى أن الإمبريالية تفوق العطش الاقتصادي ودعوات تحقير الإنسان وثقافته ويظل الإنسان في هذه المدرسة غير منطقي طالما لم يستسلم وتكون كذلك عندما تستسلم إن هؤلاء يرون إن السياسة عبارة عن معادلة رياضية وأن التصرف العقلائي للساسة قد يكون خارج السيطرة في بعض الأحيان إنهم يُشبهون العلاقات الدبلوماسية بأحجار الشطرنج والقمار حيث يذهبون إلى قاعدة الاحتمالات في الربح والخسارة وهم يطرحون احتمالات عدة لتصرفات الدول معهم مثل إيران ويضعون عندها الحلول، لكن الإمام طرح معادلة جديدة في مسألة العقلانية السياسية عجزوا معها من طرح احتمالات المواجهة واستنباط تحركات وخطوات الطرف الآخر لقد عجز الاستكبار عن معرفة تحركات الإمام وخطواته، إن العقلانية التي طرحها الإمام الخميني في السياسة تفوق مبادئهم الماتريالية، يريد أن نكون اللاعبين في عالم اليوم ولكن ليس وفقاً لخططهم وألاعيبهم إنها عبارة عن لعبة سياسية قوامها الفطنة والحنكة، انهم يتصورون أن العقلانية التي يدعو لها الإمام تقوم على الأسس الفرويدية[1] وأن كل دولة تعمل وفقاً لمصالحها وعندما

---

١ . يغيسموند شلومو فرويد يعرف اختصارًا بسيغموند فرويد (٦ مايو ١٨٥٦ ـ٢٣ سبتمبر، ١٩٣٩) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي. كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلا عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، ونظريته من التحول في العلاقة العلاجية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي. (راجع: ويكيبيديا).

كانوا يتعاملون مع إيران الإمام الخميني كانوا يتصورون أن الإمام وطبقاً لقانون الاحتمالات والمصالح سيختار المصالح الفردية ويقدمها على المصالح الأخرى لكنهم فوجئوا بالإمام يحارب على جبهتين في آن واحد دون مهادنة وعندما ظلوا حيارى في التعامل مع أفكار الإمام حيث لم يكن بمقدورهم هضمها قالوا إن الإمام وأفكاره غير عقلائية، أرجو في ختام كلمتي أن يتم بحث العقلانية والتصرفات العقلائية في عالم السياسة وماهي طبيعة التصرفات المحذوفة والمتوقعة وكيف لنا أن نعرف القدرة وكيف وتحت أية ظروفٍ يقرر الغرب وكيف يفكر تجاهنا وهل أننا عاجزون وغير قادرين على مواجهته أم يمكن لنا تغيير المعادلة، أرجو أن تكون تجربة الإمام التي غيرت الظروف العالمية ملهمة لنا جميعاً وختاماً أقول يمكننا أن نكون عقلانيين وأن نعمل خارج أطر ومساحات تفكير الغرب.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

حاكمية المجتمع الديني

بناء المجتمع الديني

أبدأُ حديثي معكم بمقدمةٍ بسيطةٍ وفي ذات الوقت مُهمَّة، ويبدو أنها مغفولةٌ على الدوام، فلو سألنا عن الإطار والقالب الأصولي الذي ينبغي بناءُ المجتمع الديني عليه حتى يتمتع بالاستقرار العقلي والضرورة الدينية، وهذا لا يعني أنَّ المجتمع الديني مجتمعٌ مُعدٌّ سلفاً وكأنه وقعَ من السماء وجاءَ ليجلس في مكانه، ولا يبقى أمامنا غيرَ أن نعيشَ وسط هذا المجتمع.

إنَّ للمجتمع الديني تعريفاً دينياً مُحددًا وواضحاً، وهذا في الواقع ما يُميّزُنا، حيثُ ما نزالُ نُفكرُ في ذيلِ الفكر العلماني، والمجتمع الديني يُصاغُ في ذيل الاجتهاد والحركة وهو بحاجةٍ إلى تنظيمٍ عُقلائيّ، وهذا هو عمل البشر وهذه نقطةُ التمايز بيننا والقدماء المُتحجرين. ويعلم الأخوة والأخوات أنَّ الوصولَ إلى نصابٍ معقولٍ من المجتمع الديني دونَ تشكيل الحكومة الدينية يُعدُّ من الأمور المستحيلة. إنَّ إمكانيةَ وجود المجتمع الديني دونَ إمكانية الوصول إلى القدرة لتطبيق الأحكام الاجتماعية للدين يُعدُّ من الادعاءات ليسَ إلَّا. وفي ذات الوقت علينا أن نعرفَ أنَّ بناءَ مجتمعٍ دينيّ ليسَ أمراً حُكومياً صرفاً، وليسَ صحيحاً أن ندعي أن بناء نظام على أساسٍ ديني يتمُّ بصورةٍ أوتوماتيكية، وكأنَّ الموضوعَ عندَ الطلب. وأن نقولَ للحكومة افعلوا ما يحلو لكم وسنعيشُ حياتنا بصورةٍ مُستقلّة، وليعشَ كلُّ حياتهُ مثلَما يُريد. علينا أن نُراقب الإفراطَ والتفريط في النظريتين، أي في باب النسبة بينَ المجتمع الديني والحكومة الدينية.

إنَّ عدم امتلاك مجتمع ديني بدون حكومةٍ دينية وعدم الميل نحو الحكومة الدينية بلا مجتمعٍ ديني ليسَ مُفيداً ولا ممكناً ولا مرغوباً به، وهو يبدو كالمُلازمة، أي أن يكونَ هناكَ موائمةٌ بينَ المقولتين وهذا يعني أن يُكمِلَ أحدهما الآخر، أي المجتمع الديني والحكومة الدينية وليسا منفصلتين عن بعضهما. وعليه ومن أجل الوصول إلى نصابٍ أعلى، فإنَّ على المجتمع الديني أن يُجاهد أكثر للحصول على مُدراءَ أكثر عقلاً وأكثرَ صدقاً وهو بحاجةٍ إلى برمجياتٍ أكثرَ تعقيداً ونظامٍ تعليميٍّ ووسائل إعلام سليمة. وهذه كُلها ملفات. على أية حال فإنَّ الحاكمينَ هم بشر والبشر إن أرادوا أن يحكموا بطريقةٍ دينية فهُم سيُخطِئون لا محالة، حيثُ قال الإمام علي عليه السلام: «إنما الوالي بشر»[١]، أي أنَّ الحُكامَ والمسؤولينَ الحكوميين في الدولة الدينية بشر. ويُضيفُ عليه السلام: «لا يعرفُ ما توارى عنه الناس به من الأمور»[٢]. وهكذا تتضح الأخطاء البشرية، إننا في حقيقة الأمر قاطعون في نظرية الحكومة الدينية، لكننا نَسبيونَ في تطبيقاتنا العملية لها، أي ينبغي القبولُ بالتدرُّج في تحقيقٍ كميٍّ ونوعي للمجتمع الديني والحكومة الدينية.

بالطبع هناكَ نصابُ الحد الأدنى، ولو كُنّا أدنى من النصاب في حده الأدنى فلا يصحُّ أن يُطلقَ على ذلك المجتمع اسمُ المجتمع والحكومة الدينية. بالطبع يُمكننا إطلاقُ هذه التسمية مجازاً حتى ولو كانت كل الضوابط الدينية غيرَ مرعية ولم تكن هناكَ حكومةٌ تُعنى بأيٍّ من الأسس الدينية والعدالة الدينية، وهذا أمرٌ طبيعي، وإن فَشِلنا في برمجياتنا وتطبيقاتنا العملية في الحكومة الدينية، فإننا سنتلقى الضربات بنفس الدرجة. ما أريدُ التحدث عنه في هذه الجلسة هيَ تعاليم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله التي نقلها إلينا الإمام علي عليه السلام، حيثُ طبقها بحذافيرها على الواقع الاجتماعي، ليسَ خلالَ فترة حُكمه فقط التي استمرت خمسَ سنواتٍ، بل حتى قبل ذلك. أي في الفترة التي لم يكن يتملكُ فيها السلطة ولم يكن مُنفِّذَ العدالة الاجتماعية في المجتمع.

الإسلام والعلمانية في المجتمع الديني

وموضوعنا في هذه الجلسة هو: هل يمكن تجزئة الحقيقة؟ الجوابُ: لا يمكن ذلك، لأن

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة٥٣.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة٥٣.

الأمرَ لا يشملُ إقليمينِ أو عدةَ أقاليم، ورُغَمَ أنَّ الجوابَ مُختصرٌ إلا أنهُ كانَ محل نزاعٍ طويلٍ وموسَّع وهو اليومَ محطُّ بحثٍ في علم السياسة وفلسفة السياسة وفلسفة الحقوق وفلسفة الأخلاق. إنَّ الدرسَ الكبير الذي يمكننا أن نستقيه من الإمام علي عليه السلام هُنا هو أنَّ الحقيقة الإيمانية لا يمكن فصلُها عن الحقيقة المعرفية والعملية.

إنَّ الإلزامات الاجتماعية للمذهب تُعدُّ جُزءاً من لوازم حقيقية، لأنَّ التأثيرات الدنيوية والأخروية ناجمةٌ عن تصرفاتنا سواءً الفردية أو الاجتماعية، إنَّ الدنيا والآخرة مُرتبطتان بتصرفاتنا وغيرُ منفصلةٍ عن بعضهما، بالطبع من رؤيةٍ دهرية، وربما كان الأمرُ غيرَ مُرتبطٍ بين عالم الدنيا والرغبات الروحانية. وأن هدف الدين غيرُ مرتبطٍ بدنيانا، وهوَ غيرُ قابلٍ للتصوُّر، أي أنَّ الحقائق الربانية مُقدسةٌ بمقدار معناها المسيحي والكنسي لا بمعناها الإسلامي. أي أن يكونَ مُقدساً وفي ذات الوقت مُجملاً، وله عدةُ قراءات بحيث لا يجرؤ أيُّ عاقلٍ على الاقتراب منها. لكنَّ الوضعَ في المنطق الإسلامي يختلف، فالإيمان وبمقدارِ كونه حقيقةً وجوديةً فإنهُ حقيقةٌ معرفية، وبنفس الوقت حقيقةٌ عملية. وهذا هو فرقُ الإسلام والشيعة مع المسيحية، والدينُ بات في الواقع العملي سُنةً علمانية، وظلَّ حتى اليوم يواصل الجدل مع الإسلام. والمنطق الإسلامي لا يؤمنُ بالتمثيل وتجزئة الآدمي، فالإنسان ليسَ مجموعةً من الأجزاء المتوزعةِ حتى يصدقَ عليه اعتبار الوحدة، فالإنسان واحدٌ والمجتمع الإنساني كذلك.

الإنسان نفسٌ واحدةٌ بقوى متعددة، ميثاقٌ بوجوهٍ كثيرة، وهيَ وجوهٌ تتشابكُ فيما بينها، وعليه لا يمكن فصلُ إيمانه عن عمله، وأخلاقهِ عن اقتصاده، وحقهِ عن تكليفه، وعلمهِ عن اعتباره، وقيمهِ عن حقائقه، وتوصياته عن توصيفاته، ودينه عن دنياه، وفرديته عن مجتمعه، ومعاشه عن معاده. بل لا يجوز أصلاً فعلُ ذلك، فهوَ جريمة. فالتمثيلُ بشخصية الإنسان أمرٌ ينبغي متابعته قضائياً، لأنكَ في هذه الصورة تريدُ تمديدَ إنسان وتريدُ تقطيعهُ وأخذَ أبعاده واحداً تلوَ الآخر، وانتزاعها منه وتتحكم في مصيره. إنَّ المُنظرينَ العلمانيينَ يحاولونَ في حقيقة الأمر تقطيع أوصال الإنسان من خلال تفكيك أبعاده المادية عن أبعاده المعنوية، وهيَ إهانةٌ كبيرةٌ للإنسان عندما يتمُّ سلبهُ من روحانيته ورميُها كقطعةِ لحمٍ. وتقولُ لهذا الإنسان إنَّ دينكَ الذي تدينُ به لا يحقُّ له أن يتدخلَ

في إطار الحكومة والاقتصاد والحقوق والتكاليف. أي دعوا ما لِقيصرَ لِقيصر. وهكذا فصلوا الدين عن الدولة، وقالوا ليخرس الجميع. فعلَ ذلكَ الفاشيون والماركسيون والليبراليون وبهذه الاستدلالات الهوجاء وقفوا بوجه مشروع الأنبياء، وكانت النتيجة ما نشهدهُ اليوم من نظامٍ رأسمالي فاقدٍ للروح. فقد أصبحنا نحنُ الآدميونَ حيواناتٍ تسيرُ بأرجُلٍ نمضي دون أن نكشف معنى الحياة، ونسيرُ بكلِّ قُوانا إلى توفيرِ ظروف حياتنا، أي أننا لا نمضي باتجاه كشفِ معنى الحياة. لكننا نلهثُ وراء تأمين ظروف الحياة ونتحولُ رويداً رويداً إلى آدميّ تظهرُ حقيقتهُ في إطار القُدرة واللذَّة وحسب. وتظهرُ حقيقتهُ في السوق وتكون مقتنياتهُ من كلِ هذا العالم، التفنن والاستهلاكَ والهيجان. ورويداً رويداً يقومُ تغير قلبهِ بداخلهِ أي عواطفهِ بلذَّته، وتتبدل حضارته لتكون عبارةً عن أدواتٍ صناعية، وأدبهُ وفنونهُ إلى أفكارٍ نسبية، وعندها لن يكونَ هذا الإنسان مُستحقاً لعنوانه الإنساني، ويبقى الطريق الوحيد للتعرّف على طبيعة هذا الإنسان هو المُعاشرةُ والاحتكاك. وعندها يقعُ مجتمعٌ متكامل في هذا النوع من الفلسفة في دورةٍ انتاجيةٍ من أجل الاستهلاكِ، والاستهلاك من أجل الانتاج. وعندها يقع الإنسان أسيراً لدكتاتورية المكننة، واستبداد الأموال، ورؤوس الأموال، ونظام عبيدٍ جديد يَحفظُ علاقات نظام العبيد، لكنهُ يُحولهُ إلى علاقاتٍ وأطرٍ حديثةٍ مكننة. وفي هذا المنطق تصبحُ الحياةُ عديمة المعنى، ثُمَ يتمُّ السعيُّ عبر الصحة والصناعة والمعلوماتية وتذويق هذا الإنسان إلى الموقع الممكن، أي نُحوّل أنفسنا إلى أزليين وأبديين، وعندما نفشلُ نشعرُ بالعبثية. في بعض الأحيان يتساءل الإنسان: هل هناكَ من فلسفةٍ لحياتنا أم لا؟ ربما يتوصلُ إلى أسماعنا هذا السؤال، وتارةً لن تسنحَ الفرصةُ حتى لذكر هذا السؤال، فنكون كاللذينَ يعيشونَ حياتهم دونَ فكرٍ ولا علاقةَ ليَّ الآن بالمجتمعات الفقيرة والمتخلفة، أولئك الذينَ يركضونَ وراءَ السَّراب قد خَسروا كلَ رؤوس أموالهم الوطنية، إنهم موجودونَ في المُجتمعات الغنية والصناعية الكُبرى.

اليوم ومن خلالِ مجموعةٍ من مفكريهم المخلصينَ في علم الاجتماع، الإنسان العصري باتَ عبارةً عن جهازٍ أوتوماتيكيٍ فاقدٍ للأحاسيس، فالآدميُّ يقومُ بصناعةِ مكائن تعملُ كالإنسان، وتقومُ المكائنَ بدورها بصناعة أُناسٍ يعملونَ كالمحركات، ويتضاعفُ في هذه المدينة الفاضلة ذكاء الإنسان على حساب عقله، وفي هذه المدينة الفاضلة يتضاعف

الضغطُ المعلوماتيُّ وترتقي المهارات الفردية، وينخفضُ ضغطُ المشاعر الإنسانية العميقة في قضايا الحياة الأصلية. وفجأةً ترى هذا الإنسان استطاع أن يتلقى أدقَّ التفاصيل والجزئيات الصغيرة، لكنهُ يظلُّ يعجزُ عن إدراك الحقائق الكبيرة والأساسية، وهكذا تنقلب الموازين ويُشدُّ السرجُ على الإنسان بدلاً من ركوب الإنسان عليه. وبناءً على هذا، على الإنسان أن يعملَ ويعمل، لكنهُ سيعجزُ عن إيجادِ أي توضيحٍ لأفعاله، وفي النهاية لا يستطيعُ إيجادَ أي معنىً لنفسه، ويظلُّ الإنسان يدور حولَ نفسه. ويستطيعُ من خلال التقنية العالية أن ينقل أحجاراً كبيرة ولا ندري هل إنَّ هذه الأحجار هيَ لقبورنا؟ وهل أنَّ الأساليبَ أخذت مكانها محلَ الأهداف؟

وفي مثلِ هذه المجتمعات لا يستطيعُ أحدٌ ولن يحق له أن يقولَ ما هيَ الحقيقة؟ أي لن يكونَ هناكَ أحدٌ يمكن الوثوق بكلامه، أي أن يكونَ كلامه صحيحاً أو أن تكونَ كلمةُ نعم الصادرة عنه صادقة. ويتنامى هذا المنطق حتى يُصبحَ شيئاً يُسمَّى الحقوق، ويتم تناسي مسؤولية الإنسان تجاهَ أخيه الإنسان. وهكذا يتحولُ الإنسان المسؤول المتابع لهموم الأمة والإنسان الهدفي إلى إنسانٍ ينشدُ المزيد دونَ هدف وأناني. لا فرقَ بينَ الإنسان المؤمن والشكاك، ولا يعرفُ أيُهما أكثرُ إنسانية من الآخر. وفي ظلِ هذه التعاريف فإنَّ الإنسان الحر يُعدُّ كالثغر المفتوح الذي يُنادي بحقوقه، وما يطلبه الآخرونَ فهوَ عبارةٌ عن أشياء إضافية.

الحكومة الأخلاقية والعلمانية

ثُمَّ يقول لا أدري بأيِّ نيَّةٍ بايعتموني؟ إنَّ حكومة القيَم والعدالة تنشد العدالة الاجتماعية وينبغي أن يكونَ الحاكم حافظاً للقيم الدينية والإنسانية. وعليه ينبغي التصدِّي للأقلام التي تقول: إنَّ الحاكمية لا يمكنها ولا يسعُها أن تكونَ حافظةً للقيَم الفردية والاجتماعية التي جاءَ بها الإسلام، وإنَّ هذه الأمور تتعارضُ ونطاق المسؤولية الحكومية. فالدولة ليست حارساً للقيم ولا مسؤولةً عن ذلك، والحكومة ينبغي أن تكونَ الشُّرطي الذي يبسط الأمن والاستقرار. وعلى الحكومة أن تحافظ على حرية المنافسة في الميدان الاقتصادي والسياسي والثقافي، وتُوفِّر الأمنَ من أجل مراقبةٍ حُرَّة ودونما قيدٍ أو شرط للحدود الأخلاقية والفكرية. وليست مسؤولةً للدفاعِ عن الحقائق في إطار الثقافة، ولا مسؤولةً للدفاع عن القيم في إطار الأخلاقيات الاجتماعية، وليست مسؤولةً عن تطبيق العدالة في نطاق الاقتصاد والسياسة

والحقوق الاجتماعية. بالطبع فإنَّ الحقوقَ سَيتمُّ استثنائها هنا، ليسَ من أجل القيمة الذاتية للعدالة ومسؤولية الدولة في تنفيذها.

ويُشيرُ هذا المنطق إلى أنّه على الحكومة أن تحفَظَ الأمنَ والاستقرار لأصحابِ الثروة خلافاً للإيمان والإنسانية والمذهب، وأنَّ العاقلَ والحكيم لا ينبغي له أن يأخُذَ على الدولة طريقةَ حفظها للأمور حتى ولو كانَ بأساليبَ مغلوطةً وعجيبة. وهُم في ذلكَ يُفلسِفونَ المنهجية على الطريقة التالية: فلو أخطأ رَجُلُ السياسة في الأسلوب، فإنَّ عدمَ تقواهُ في إنجاز الأمور غيرُ مُهِمٍّ إذا ما كانت النتيجةُ أن حَصَلَ على القُدرةِ واعتلى الكُرسي، وأنَّ الجماهيرَ والرأيَ العام سيغفر له ذلك، وأنَّ الأخطاءَ ستُغتفرُ بالنتائج، وعليه فليفعل الشخصُ ما يُريد، وليصِلَ السلطة بأيِّ طريقةٍ كانت. القضية الوحيدة هي الرأي العام الذي سينسى هذا الأمر، حيثُ الأهميةُ تكمنُ في النتيجةِ لا في الطريقة.

هذه هيَ نظرياتُ الساسة في الغرب وصُنَّاع العلمانية من ميكافيلي[١] إلى من تَبِعَهُ وحتى يومنا هذا. حيثُ تكثُرُ مثلُ هذه الأفكار، فالأساسُ عندهم أن لا تترُكَ المُلاحظات القيَميَّة أثراً على قرارات الحكومة، لأنهم يَرونَ أنَّ الشخصية الأخلاقية لا يمكنها أن تُشكل الحكومة، وأنها لا تستطيعُ المُحافظة عليها. وعليه ففي حُكمِ هؤلاء تكونُ الأخلاقُ منفصلةً عن السياسة والديانة عن الحكومة، فالعمليةُ بحاجةٍ إلى احتيالٍ وتظاهُرٍ وخداع الرأي العام خاصةً في النظام الجمهوري، حيثُ ينبغي جمعُ الآراءِ بأيةِ صورةٍ كانت، والمسألةُ المُهمَّة تكمنُ في عدد الآراء لا نوعيتها، وعليه فهُم يَرَونَ أنَّ الأكاذيبَ المُنمَّقة التي يُطلقها الحُكَّام هيَ ضرورةٌ وعمليةٌ لازمة، والذكي من يكذب بصورةٍ ماهرة، وليسَ مُهمَّاً أن يكون الحاكم صادقاً أو كاذباً المهم أن يُحافظ على السلطة ويصل إليها. ولا ينبغي قياس القوة مع المعايير الأخلاقية، أو مع المعايير الدينية أو القيَميَّة، ذلكَ أنَّ القيم تابعةٌ لنطاق الخصوصية الفردية، وعليه فإنَّ الحكومة لا تستطيعُ أن تكونَ الحَكَمَ في مثلِ هذه القضايا العامة.

---

١ . نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلّي (٣ مايو ١٤٦٩ ـ ٢١ يونيو ١٥٢٧) ولد وتوفي في فلورنسا، كان مفكرا وفيلسوفا سياسيا إيطاليا إبان عصر النهضة. أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن يكتب تعليمات لحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ما هو مفيد فهو ضروري، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية. ولقد فُصلت نظريات مكيافيلي في القرن العشرين. (راجع: ويكيبيديا).

هذه باختصار مباني الفكر العلماني، وهيَ على النقيض من فكر الإمام علي عليه السلام، وعندما نذكرُ الفكر العلماني نقصدُ به الرؤى السلطوية والتوتالية والاستبدادية العلمانية، وهي التي كانَ أمثالُ ميكافيلي[١] وتوماس روبرت[٢] مالتوس مؤيدينَ لها. أو الأنظمة العلمانية الليبرالية التي كانَ مُنظِّرُ المجتمع المدني في السنن الليبرالية من مؤيديها بدءاً من جون لوك[٣] وما بعدهُ حتى مُنظّري الليبرالية الحديثة المُعاصِرين. لقد ادّعى أعقابُ هذا الرأي في الفترات المتأخرة، وتحديداً العقود الأخيرة، أنهم وجدوا طريقاً أقصر لإعادةِ تشكيلٍ وإصلاح أكثرَ راديكالية في الحكومات التقليدية، وأعلنوا أنَّ ذلكَ يتمُّ فقط عبرَ إعادة النظر في جذور الحقوق والأخلاق، لا بل إعادة النظر في جذور اللغة والفهم الشعبي، وكانَ عليهم اقتلاع جذور الأفكار القديمة في باب العدالة الاجتماعية والقيم التي كانت مُعَشْعِشَةً في ذهن البشر، ذلك أنَّ مشكلة البشر الطبيعية تكمن في إبهام اللغة وانحرافها، وأنَّ المشكلة الرئيسية تكمن في ماهية المُصطلحات، والمُصطلحات القديمة كالعدالة. وينبغي إحالةُ هذه المصطلحات القديمة على التقاعد وتهميشُها، وهيَ كلماتٌ تقليدية، والإتيانُ بمصطلحاتٍ حديثةٍ بدلاً عنها، وتقييد المصطلحات القديمة فهيَ مفاهيم تُزاحم الحاكمين، وهيَ معايير تُشكّلُ خطراً على الحكم. ويستمرُّونَ بترديد مثل هذه الشِعارات، ليقولوا إنَّ الخطأ ناجمٌ عن تعابيرَ قديمةٍ ومغلوطة، وإنَّ الكثيرَ منها استُلَّ من نظريات الفلاسفة التحليليين والاتجاهات المنطقيّة في باب حقوق الإنسان. ويمكنكم متابعة ذلك لأنني سأعمدُ إلى إعطاء رؤوس أقلام، وإذا أحببتم العودة فيمكنكم مُشاهدةُ طريقة رؤية هؤلاء إلى مسألة العدالة والقيم. حيثُ أبدلوا ذلكَ إلى نِزاعاتٍ لفظية، وإنّه على الحكومات أن تكونَ قِيميَّةً وأن تتصرف وفقاً لذلك، كُلُّ ذلكَ نقضٌ لِعلم الاقتصاد وعلم السياسة.

انكار القيم المعنوية في السياسة والاقتصاد

إنَّ الاقتصاد الكلاسيكي الذي تدرسونهُ في الجامعات يقصدُ ذلك، وأننا لن نجرؤ على دركِ أساس ما يذهبونَ إليه، ولا نجرؤ على نقضهم في القريب العاجل. ذلكَ أنَّ النظام

---

1. Mekavili.
2. Thomas Robert.
3. John locke.

التعليمي قائمٌ على أساس التقليد والترجمة، وليسَ قائماً على الاجتهاد والابتكار والإبداع. لقد كتبوا في مباحثِهِم، وقد وقفتُ على آرائهم بالتحديد، ينبغي عدم التحدث عن كتابة إعلانٍ لحقوق الإنسان، لأن ذلكَ سيؤدي إلى إضافة أعباءٍ جديدةٍ للحكومة من خلال إيجاد حقوقٍ وصفوها بالزائدة للطبقات الفقيرة والمسحوقة في المجتمع، وهذه ستكونُ مشاكل جديدة ومن ثَمَّ ستؤدي إلى تحريك الشارع، وكُلُّ هذه الشعارات والتدابير والتعابير عبارةٌ عن مصطلحاتٍ لما بعدَ الطبيعة. أي إنها تعابيرٌ لِمُصطلحاتٍ أيديولوجية ولا ينبغي الاتيان بها في نطاق السياسة وإدارة الاقتصاد، وهذه التعابير ما بعدَ الطبيعة إنما هيَ فقراتٌ أضافها الفقراء والضعفاء يُساندُهُم عددٌ من المؤمنينَ الرجعيين، شُعراء المسلك كي يقفوا قُبالةَ التقدُّم. الحقوقُ في منظارهم عبارةٌ عن قراراتٍ وعقود، وسيتمُّ تعريفُ الحقوق وفقاً للاتفاقات ولا ينبغي أن تكونَ الاتفاقاتُ مبنيةً على أساس الحقوق الحقيقية للشعب، أو أن تكونَ ملاكُ حقوقه، أي إنَّ الشعوبَ لم يكن لها حقوقٌ بالمطلق قبلَ هذه الاتفاقات وعندما وضعنا القوانينَ أصبحَ لهؤلاء حقوق، وأنَّ المُقنّنينَ الدينيين جاؤوا وأعلنوا منْعَ بعض الأعمال ووضعوا حقوقاً للشعب، ووضعوا الواجبات والتكاليف على كاهل البعض، ولغةُ العدالة والأصولية الدينية هي في ذاتها مشكلة، وأنَّ هذه الشعارات عبارةٌ عن أصواتٍ لا معنى لها.

ولو رجعتم إلى المباحث التي طرحها أصحاب المذهب المنطقي، لنظرتم أنَّ كُلَّ ما يقولونهُ هو عبارةٌ عن ألفاظٍ جوفاء، فهؤلاء يقولون إنَّ كُلَّ الأمور القيَمية والأخلاقية، وكُلَّ الأمور ما بعدَ الطبيعة عبارةٌ عن كلامٍ فارغ، فهؤلاء يقولون إنَّ المعنى الواقعي للمسميات يكمن فقط في الرِّبح، وعندها تكون كُلُّ المباني الحقوقية والأخلاقية والعدالة أموراً لا معنى لها، لا بل حتى يتمَّ النظر إليها بريبة. وهذا الأمر يُعدُّ خطراً كامناً بالنسبة لثورتنا، ونحنُ آخرُ مقطورات الثورة وآخرُ حلقة الجيل السابق. نتحدثُ إليكم لِنوصِلَ لكم هذا النداء، نحنُ بمثابة ساعي البريد عندما يُنهي أحدنا دورهُ يُسلّمُ البريدَ للآخر ليواصل المشوار وصولاً إلى الهدف، وهذه آخرُ النداءات من جيلٍ سينتهي إلى الجيل الجديد. فإن تلقيتم الرسالة تلقيتموها، وإلا فإنَّ البريدَ سيسقطُ أرضاً، حذاري من وصول الثورة إلى هذا المطب وسيحصلُ إن لم تمنعوا ذلك.

إنَّ من يروّجُ لمثل هذه الأفكار ويُترجمها في ذهن البشر، أُناسٌ قشريونَ وجامدون، وقد ألحقوا الضرر بالبشرية على الدوام، ولم يتعرف هؤلاء على القيم المعنوية ولو لمرّةٍ واحدة، ومن لا يعلم أنَّ تجمُّعاً غيرَ مشروطٍ لرؤوس الأموال الكبيرة ولأغراضٍ شخصية، ولِصالحِ أقليّةٍ فاسدة لم يَقُم على غصبٍ وإسرافٍ وتبذيرٍ وربا، إنهُ عينُ النظرية الماتريالية التي جاءَ بها الغرب وزرعها في العالم. حتى إنَّ أربابَ الرأسمالية الليبرالية قالوها بصراحةٍ، إنهم يؤمنونَ بالتقادم المادي، وأنَّ الماتريالية كانت ذاتَ معنىً أول الأمر، أما اليوم فهي نظريةٌ بلهاء ورجعية.

خطر حذف القيم الثورية

واليوم عندما يتحدثُ أحدهم على مستوى المفاهيم السياسية الكبيرة، كالحكومة وفلسفة القدرة ويطرح مصطلحات العدل والقيم فإنهُ سيوصفُ بالمُغاير للمقاسات والمُواصفات الموجودة، وسيكون مثل هذا الشخص مُباح الدم في كُل أرجاء المعمورة. وهناكَ أحزابٌ غيرُ مرئيةٍ تعرفُ كيفَ تُجهِزُ على الحكومات الثورية، ولا تُبقي منها غيرَ الاسم والظاهر وتقوم بتغيير المحتوى وتختبئ خلفَ المقاسات الدولية، فهُم يُصرِّحونَ علانيةً أنَّ السياسة تعني القدرة لا الحقيقة ولا العدالة، ولا ينبغي علينا أن نخلطَ المباحث فيستطيعُ هؤلاء تزيين أكثر الثورات دينيةً وتجفيفها وعرضها على المنابر، وعندها تصبح هذه الحركات الكبيرة موجودةً وغيرَ موجودة في آنٍ واحد مع كل التعاليم الكبيرة التي كانت تتمتع بها.

وعليه نعلم أنَّ تركيزَ مفاهيم الثورة والقيم التي نادت بها من أجل الإنسانية تُعدُّ الأهم، وإن لم يَقُم جيلُ الثورة الثاني والثالث بالدفاع عن القيم كما فعل أبو ذر، فحتى لو بقيت الثورة مضموناً فإنَّ شكلها الظاهري سيتغير دونَ أن تشعروا بذلك، وتكون بمثابة بقاء ظاهر المَبْنَى على حاله لكنَّ سكانهُ تغيّروا. المبنى الذي شيَّدهُ الثُّوار وناشدو العدالة والمجاهدون والشهداء. وقد باتَ تحتَ رحمة نيران الأعداء، ورويداً رويداً يتبدَّلُ سُكان المبنى ويُملأُ بمُناهضي العدلِ والقاعِدِينَ ومُخالفي أصل نظرية تلك الثورة الدينية. وإذا لم نكن واعينَ وبمستوى المسؤولية، فإنَّ نظرية التناسخ المغلوطة في الأفراد ستصدق على الحاكمية والتجمعات البشرية. بالطبع مع تعابيرَ مجازية، وتكون الأرواح الشريرة ما قبل الثورة قابلة للاستدعاء والمُحاكاة من جديد ويُمكِنُها التوغل والنفوذ في جسم الثورات. وسَيَتِمُّ عندها

إبدالُ مِقوَد المجتمع صوبَ نقطةٍ أخرى، وتبدأ العملية بزاويةٍ صغيرةٍ جداً، وكلما يمتدُ ضِلعا الزاوية تزدادُ الهوَّة، وبمرور الزمان تكونُ هذه الزاوية الصغيرة كبيرة، بحيث لن يبقى من الثورة حتى الاسم. وفي ظاهر الصورة كُلُّ شيءٍ في مكانه، لكنَّ الحقيقة لا شيء في مكانه، كُلُّ شيءٍ صحيح وكُلُّ شيءٍ مُدمَّر.

ولهذا السبب كانَ على الثورة الإسلامية أن لا تكتفي بتغيير شكل النظام البائد، بل كانَ عليها أن تأتيَ ببرمجياتٍ جديدةٍ دينيةٍ وثورية، وذلكَ لِتُغيّر أساسَ النظام، وأن تُغيَّرَ رأسَ النظام وذلك لا يكفي، لأنَّ الثورةَ عندها ستحكم بذات القيم التي كانت موجودة قبل الثورة، أو سيعودُ شَبَحُها إلى داخل الحاكمية الجديدة وإلى داخل المجتمع والرأي العام والجامعات، وهذا ما يقوم به الأعداء الآن وسيعود الهاربون من الباب عبرَ الشبابيك والنوافذ.

إنَّ تغييرَ الفئة الحاكمة لن يكفي، ينبغي تغييرُ الطبقة الحاكمة، الطبقة التي تحكم المُجتمع الجاهلي، وطبقاً لذلكَ كانت تحكم، وبخلافه فإنَّ تغييرَ الرجال الأصليين دونَ البِطانة لن يفيَ بالغرض، وسَتُعادُ الكرَّة بعد فترة من الزمن مرَّةً أخرى. ينبغي عَمَلُ غَرْبَلَةٍ كما يرى الإمام علي عليه السلام وأن يتمَّ تغييرُ الأوضاع تماماً كما يقول عليه السلام، حتى يعودَ أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم[1]. فلا يصحُّ أن نقول من كانَ في مسؤوليةٍ في العهد السابق أن يظلَّ كما كانَ عليه وستحكم الطبقة العُليا، وبهذه الطريقة يَكْمُنُ خطرُ حذف القيم الثورية، وهذا يتكرَّرُ كلما قامت ثورة.

عندما تولَّى الإمام علي الخلافة في العقد الثاني بعدَ رحيل الرسول صلى الله عليه وآله، لَمَسَ هذه الفاجعة بكُلِّ جوارِحِهِ، وأرادَ أن يُصحّحَ الأوضاع وأرادَ تغييرَ النظام، لكنَّ حروباً ثلاثاً فرضت عليه، فَحَمَلَ أصدقاؤه السابقونَ السلاح بوجهه، لو كانت السلطة الحاكمة لم تَفْسُد بعد والكثير من رجالات السياسة مازالوا أُناساً طاهرين، لكنَّ طبقة النظام الحاكم موجودة فإنها ستُمسِكُ بِتلابيب الأمور وسيمكنهم ذلك من العودة إلى مقاليد الأمور، أي إنَّ أعداء الثورة سيقومونَ بهجومٍ مُضادٍ ضدَّ الثورة بعدَ عقدٍ أو عقدين من الثورة، ويكونُ هجومهم بواسطة القنابل الكيماوية، أي دونَ إحداثِ جَلَبَةٍ لا شظايا ولا دماء. حربٌ باردة

---

1. نهج البلاغة، الخطبة١٦.

دونما ضجيج، بواسطة برمجياتٍ، وهكذا تخلو الساحة لهم من جديد.

وأعيدُ هنا مرَّةً أخرى: الطبقة الحاكمة غير الهيئة الحاكمة، فالأخيرة عبارة عن رِجالات الثورة والقادة السياسيين الذينَ تُناطُ بهم مسؤوليةُ إدارة البلاد ويتَّخِذونَ القرارات، لكنَّ الطبقة الحاكمة هيَ المجموعة الاجتماعية التي لا تكون لها سلطةٌ اعتباريةٌ أو قانونيةٌ رسمية، لكنها في الحقيقة السلطة العملية النافذة، أي إنَّ السلطة تكون بأيديهم، لا بأيدي الثوار الذينَ يتولّونَ المناصبَ القيادية ويكونونَ على رأسِ هرم السلطة.

والنظام الذي تحدَّثنا عنهُ يعني أنَّ القاعدة وعلى عكس الواقع هي التي تحكم. لقد شهدت ثورتنا في العقد الماضي بعدَ الحربِ خاصةً في الفترة المعاصرة هذه الأمور، وعلينا أن نكونَ حذرينَ من عدمِ تكرارها ويقعُ أمرُ ذلكَ بأيديكم. فأنتم من يستطيع المشاركة في جنازة الثورة أو من يرفعُ علم الثورة المُرمَّل بالدماء من الجيل الماضي، حيثُ سقطَ لنا ثلاثمائة ألف شهيد، ويمكنكم عندها رفع هذا العلم على أعلى القمم. على أيةِ حال أنتم من يقع عليه حِملُ الأمانة إمَّا بإخلاصٍ وتفاني وإمَّا في تقاعسٍ وتقهقر.

لقد حدثَ هذا الأمر مع الإمام عليّ عليه السلام في صدر الإسلام، حيثُ كبَّلت هذه الأمور قدرة الإمام على الحركة رُغْمَ عظمته، وأرادَ أن يُنقِذَ ثورة النبي والهيئة الحاكمة من خلال الإعمار، لكنهُ لم يستطع تغييرَ الطبقة الحاكمة أو إصلاحها. فبعدَ أن بَذَلَ سَعْيَهُ وقدَّمَ القرابينَ والشهداء وأقامَ الفتوحات المختلفة، لكنه أُثقِلَ بالجِراحات، وباتت مقاليد الحكومة بعدَ الثورة تسقط بأيدي الطبقات الموجودة قبلَ الثورة، وظلَّت الأمور تسيرُ وفقَ ذات الأمور وذات الرؤى للقضايا ومن تلكَ الزّوايا. لأنَّ الثورة وإصلاحها يُعدُّ طبقاً لتعبير الحكماء أمراً قسرياً، والقسريُّ خِلافٌ للطبيعة ومثلما هو حالُ تهذيب النفس حيثُ يُعدُّ أمراً قسرياً لأنهُ خِلافُ الطبيعة وعليه فهو صعب، والأمر الطبيعي هوَ نُزولُ الإنسان من الجبل، وعليه فإنَّ الدعوة إلى الغريزة والمساومة والخيانة وأمثالها تبدو سهلةً، ولن تحتاجَ إلى ثمن، لأنها قد تكون من طبيعة البشر، لأنهُ ينشدُ الراحة والاستقرار، فالإنسانُ يكونُ عندها مُطيعاً. أمَّا الدعوة إلى الانتفاضة والجهاد والمقاومة فهي صعبةٌ جداً، لأنها حركةٌ صوبَ الأعلى وسباحةٌ ضدَّ التيار، وعليه فالحركة القسرية خلافٌ للطبيعة والغريزة ولهذا فإنَّ الثورة وإصلاح أمرها يُعدُّ أمراً قسرياً مُخالفاً للطبيعة.

التعارض مع رسالة الأنبياء

أمَّا فلسفةُ تكليف الإنسان المرتبطة بالحقوق الممنوحة له في هذا العالم والتي تجعلُ له تكاليفَ مقابلَ ذلك، فهيَ مسحوقةٌ تحتَ أقدام الماتريالية الرأسمالية، وعندها تصبحُ الرذيلةُ عاديةً، والفضيلةُ أمراً مُهمَّشاً. وعندها يكون الإنسان الذي كان يُريدُ أن يَحلَّ محلَ الله سبحانه باتَ فجأةً في فهرس الزرافة والذباب، حيثُ يتمُّ عَدُّها. ولكن لأنَّ للإنسان قوىً حياتيةً مُعقدةً نسبياً يُصارُإلى التعامل معه بشكلٍ يفرقُ عن الباقين. ويتمُّ الحاقُ مُصطلح الحرية في نهاية كل شيء حتى يكونَ في حلٍ من كُلِ عقلانية ومسؤوليةٍ تحفظُ ماءَ الوجه. وحتى لم تنتفي القيمُ بصورةٍ صريحةٍ وأصوليةٍ في التجارة الحرَّة والإيمان الحر والأخلاق الحرة والمبادئ، لكنها ستكونُ بلا معنى، أي إنَّ المبادئ ستكون عُرضةً للتوالد من جديد وسيتمُّ لملمتها بطريقةٍ أو بأخرى. فلو قُدِّرَللإنسان أن يضعَ المبادئ والقيم تحتَ رحمةِ المَقْصلة وتخلَّصَ منها دفعةً واحدةً، لكن أفضلَ من التشكيك بها أو جعلها نسبية أي الإجهازُعليها، ذلكَ لأنَّ هذه الطريقة تُعّدُّ إعداماً مع الأشغال الشاقة.

في الثقافة الغربية تكون حياة الإنسان هي الهدف على عكسِ ما هو موجودٌ في سُنّةِ الأنبياء، ولأنَّ الحياةَ وسيلة، الهدف هو الإنسان وليسَ الإنسان تحتَ أيةِ ظروفٍ كانت. إنَّ نظريةَ عدم الالتفات إلى الأحكام والحقائق، ودونَ الالتفات إلى العدالة والمُضي في الحياة الفردية دونَ اكتراثٍ بالآخرين، والسعي للحصول على الثروة والقدرة، تُعَدُّ الوجه المُقابل لنظرية الأنبياء. فلو كانت أمامَ الأنبياءِ رسالةٌ واحدة يُبلغونها للبشر لكان القولُ إنَّ هذه الطريقة الغربية لحياة البشرية غيرُ صحيحة.

إنَّ الشعار المطروح بأنَّ التنمية والحرية والمدنية والتطور هي الهدف، تبدو شعاراً غائياً من أجل أهدافٍ أخرى وعلى رأسها تهميشُ المسؤولية الإنسانية للإنسان. لقد ابتكرَ مُعارضو طريقة الإمام علي في الحياة طريقةً رخيصةً في التخلصِ من طريقة الإمام في الحياة. وهيَ الحديثُ عن الأهداف التي تُعدُّ واسطةً وليست أهدافاً غائية، وهيَ عينُ الفلسفة العبثية. بالطبع فجميع الأشياء هدفٌ لكنها ليست الهدفَ كُله. وهكذا فإنَّ التفاوت الرئيس بينَ المجتمع الديني والمُجتمع الغير ديني يكمنُ في أنَّ هؤلاء ينظرونَ إلى الأمور على أنها أهدافٌ وواسطةٌ وليست غاية. وهي دون الشأن الإنساني بتصورنا. وهيَ من حيثُ

التأثير والصراحة قصيرة الأمد، وهي في ذات الوقت يمكنها أن تكون مؤثرة في جميع نشاطاتنا ولن تسمح للناس أن يتوجهوا إلى المجتمع الديني المتكامل، عندها يتحول المجتمع إلى صندوقٍ، إلى آلةٍ دونما إحساسٍ ومشاعر، وستكونُ تلك الأربابُ وليسَ الإنسان وهذا خطرٌ كبير، وهذه من مخاطر التفكيك بين المادة والمعنى. وهناكَ مخاطر أخرى لأنهُ فكر خاطئ وله عواقب كثيرة لا تظهرُ جميعاً، فهيَ دوريةٌ مَثلها كمثل مزرعة الأرز ينبغي أن تكون غاطسةً في الماء. فهؤلاء يقومونَ بغمر اللوازم والأدوات والنتائج بالمياه ليكونَ كلُ نتاجٍ مُعدّاً للاستخدام في مآرِبِهم. إن الثقافة التي تقول إنَّ القيّمَ والمبادئَ لم توضع من قِبل الرَّب، وهيَ غيرُ مرتبطةٍ بالحياة الواقعية بل مرتبطة بأهواء وميولِ الفرد وحده، وليسَ علينا من فروضٍ غيرَ ما توجبهُ العقود الوضعية، فهو يُريد أن يقولَ إننا لا نملكُ واقعاً جيداً، أي ليسَ هناكَ واقعٌ ذو قيمة. وبعبارةٍ أخرى فإنَّ تصورنا للجيد والسيئ عبارةٌ عن طبقٍ فارغ، أي أنَّ قراراتنا هي التي تملؤ هذا الطبق وليسَ هناكَ أيُّ شيءٍ بعيداً عما نريدُ نحن.

إنَّ الرياحَ الباردة التي أتت على الأخلاقَ وظلت تؤثرُ على مفهوم الوجدان ومفهوم بديهيات الفعل العملي والنظري لقرنين من الزمان، وأصابتهما بالانجماد، نابعةٌ من هذا الطراز من التفكير الذي يدعو إلى المُثلة بالإنسان، وآنَ لها أن تزول. لم يكن أحدٌ ليجرؤ على فعل ذلك أي إنَّ أكاديميات علم الاجتماع وعلم الأخلاق باتت مرعوبةً، وهنا نذكرُ ما معناهُ في قول الشاعر: كالبّبغاءِ تقولُ ما تسمع من دون أن تفقه ما يُقال، كالميتِ خلفَ جدار ما سمعوا بكم برغمِ كلامهم المُسال.

تحريف صورة الإسلام

لقد اعتدنا في أكاديمياتِ علم الاجتماع والعلوم الإنسانية على قولِ وسماع العديد من الجُمل المتكررة والمثالية، ويبدو أننا لا ننوي تركَ هذه العادة في القريب. في العلوم السياسية والاجتماعية والتربوية فإنَّ كُلَ ارتباطنا يقومُ على أساس الترجمة، ولن نجرؤ يوماً على الوصول إلى مرحلة البلوغ، ولن نجرؤَ على السؤال ولن نجرؤ على الشك فيما يُطرحُ من ترجمة. وفي الغالب وللأسف يبدو أنَّ علينا في جامعات الشرق أن نُكرِّرَ مقولاتٍ طُرحت قبلَ عُقودٍ وكأننا ظلُّ الجامعات الغربية. وما يزالُ هؤلاءِ أرباباً ونظلُّ نحنُ رعيتهم في الثقافة والعلوم. وإذا ما أخطأ أحدُ المُنَظِّرينَ في الأمور الإنسانية ووقعَ في التناقض في هذه العلوم فما

علينا إلا أن نُكرِّرَ ما يقولهُ سمعاً وطاعة، وعندما يتحدثُ عن الفلاسفة الماديينَ في الغرب فعلينا أن نُكرّرَ ما يقولهُ دونَ التوجُّه إلى لوازم ما يقول، وإذا قالَ ما يقولون إنَّ نتيجة العمل العلمي والسياسي تُغطي على سوء العمل نفسه ويتمُّ من خلال ذلكَ تبرئةُ مُنفِّذ العمل، ذلكَ أنَّ الناس يقومونَ وبشكلٍ تدريجيٍّ بالصفح عن مُرتكب الأعمال السيئة للنتائج التي تمَّ التوصلُ لها وينسَونَ ما حصل.

وينبغي ومن أجلِ إبقاءِ كيان الدولة فاعلاً إشراكُ عددٍ أكبرَ من الأفراد، ونقومُ نحنُ بكتابة التفاصيل عينها ولكن واضعينَ بسملةً في البداية مُتناسينَ أنَّ ذلكَ يتعارضُ تماماً مع التفسير العلوي مئةً في المئة. وهاتان مقولتان مُتباينتان ومُتعارضتان، فالحكومة من منظار أمير المؤمنينَ ليست شركةً كسائر الشركات، إنَّ الرؤية العلمانية للحكومة والمجتمع ستؤدي إلى مدينةٍ غير المدينة الدينية وهاتان المقولتان منفصلتان عن بعضهما. وفي الثقافة العلمية لا يُمكنُ إرجاع الأخلاق إلى علم الاجتماع، ولا علم الاجتماع إلى ميكانيك الجسم والأعصاب. ولا يمكن تحريف الحقوق الطبيعية والحقوق الفطرية، ولا يمكن إرجاعُ السياسة إلى دبلوماسية القوة، ولا يُمكن اعتبارُ المُعتقد ما يتوصلُ إليه الدماغ والأخلاق على أنها بُخارُ المعدة، وتفكيكُ ذلك عن السلطة والدولة والبرلمان. فالرجلُ السياسي في تعريفِهم فنانٌ، والرجل السياسي والساسة هم مُتحدثونَ مَهَرَة، والسياسة تعني حُسنَ التلاعبِ بآراء العموم والكلابُ تَسيرُ وفقَ حاسةِ الشَّمِ وصولاً إلى ضالتها.

وعلى الساسة في نظريةِ هؤلاء أن يكونوا كالكلاب، وعليهم أن يعرفوا عن أي موضوعٍ وفي أي وقتٍ يتحدثون وأيُّ حديثٍ ينسونَ أو يتناسون. عليهم أن يكونوا مُخططين دونما غايةٍ عقليةٍ أو أخلاقية، وعليهم أن يعرفوا جيداً كيفَ يصعدونَ السَّلالم، وعلى من يرتقون، وألا يُسحبَ البساطُ من تحتِ أقدامهم. وعندما تقولُ لهم ما هوَ مصيرُ المبادئ التي تحدثتم عنها مُسبقاً وما هوَ تكليفُ القوانين الإسلامية، وما هوَ تكليفُ ما ثُرْنا من أجله؟ يقولونَ لكَ إنَّ زمنَ الأكاذيب الكُبرى قد ولّى، وعلينا أن نُعيدَ حِساباتنا. وليسَ من المفروضِ على الإنسان أن يتحدثَ عن الأصول المُتعالية بهذه الطريقة، ويبدؤون بالحديثِ ساعاتٍ عن عجز الإنسان وعدم استطاعته، ويُشككونَ عندما يكون الحديثُ عن الأصول، وعندما يحينُ الكلام عن المتعة والاستفادة من القدرة فإن الشكَّ لن يُساورهم على الاطلاق،

وبذلكَ يعتمدونَ على أنفسهم ويتحكمونَ بها. فهؤلاء الذينَ يرفضونَ أصولَ موضوع المجتمع الديني أو الحكومة الدينية عندما يتمُّ البحثُ في هذا الموضوع نظرياً، ويبقونَ يُشككونَ في كل شيء ويقولونَ: إنَّ هذه القوانين ساقطةٌ من درجة الاعتبار. ترى ذاتَ الناس وأثناء الحديث عن المصالح يرونها ذاتَ اعتباراتٍ قطعيةٍ وضروريةٍ وثابتةٍ وغيرُقابلةٍ للترديد، وعلينا أن نقولَ لهؤلاء السادة في كُلِّ العالم الإسلامي: إننا لسنا متروكينَ لنفعلَ ما نُريد، وليست الأمورُ جميعاً على مذاقنا، فلدينا مؤسَّسةٌ أنثلوجية ثابتة لن تتغيرَ تحتَ أيةِ اتفاقاتٍ أو مصالح.

وعندما يتحدثُ الإمام علي في نهج البلاغة ويصلُ إلى مرحلة الكمال[1]، نرى أنه لا يُريدُ به الإنسان الكامل أو الإنسان الثابت والقياسي، أو الصنم الذي لا يتحرَّك، أو الإنسان الغيرَ طبيعي، بل إنهُ لا ينشدُ إنساناً غيرَإنساني، إنهُ يتحدثُ عن إنسان طبيعي يتحولُ بإرادتهِ إلى إنسانٍ يفوقُ الحالة الطبيعية. فكلُّ البشرفي منطق الإمام إنسانيونَ بالصورة. أي أنَّ هيئتنا تُشبهُ هيئة البشرلكن ينبغي أن تكونَ سيرتُنا كذلك، ولسنا بالضرورة إنسانيونَ بالتعامل. علينا أن نكونَ كذلك، ولذلكَ كانت فلسفةُ الرسول ﷺ حيثُ يقول: «إنما بُعثتُ لِأُتمّمَ مكارمَ الأخلاق»[2].ولذلكَ كانَ الإمامُ علي بالدرجة الأولى مُعلمَ أخلاقٍ، وإمامَ فضيلةٍ حمَلَ السيفَ بيده وأقامَ حكومةً، وحمَلَ السوطَ بيديه، وتجوَّلَ في الأزقة من أجل تطبيق العدالة.

إنَّ الإسلام بلا جهادٍ وبلا عدالةٍ إسلامٌ شكلي، وهوَإسلامُ المُرفَّهينَ الذينَ يتأقلمونَ على الدوامِ مع الزمان الحاضروالأجواء العالمية الغالبة. ويسعونَ إلى إيجادِ إسلامٍ يتَّبعُ المعاييرالحاكمة في العالم. وكُلما كانَ الإسلام لا يتوافق مع الخطاب الحاكم على الغرب والعالم، فإنَّ عليهِ أن يُقلِّمَ أظافرهُ. وينبغي أن يُغيّرَ مساره، لا ينبغي القول ُبالاجتهاد، والإسلام في نظرهم توحيدي، ولكن إن أصبحَ إسلاماً ذا نهجٍ سياسي واقتصاديٍّ وحُقوقيٍّ في المجتمع وأرادَ التغييرفهذا إسلامٌ يُعارِضُ الغربَ الذي يرجو منّا أن نُغيّرهُ ونُعدلهُ. يُريدونَ منا إسلاماً ينفكُّ فيه التوحيد عن كُلِ أصول الحياة، توحيدٌ ذهنيٌّ يتمُّ تبادلهُ في

---

١ .نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

٢ .بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٨٢؛ السنن الكبرى، البيهقي، ج ١٠، ص ٣٢٣؛ ميزان الحكمة: ج١، ص٨٠٤، ح١١١١ (هذا الحديث، أخرجه ابن سعد في الطبقات، ج١، ص١٩٣ بهذا الإسناد، وقال ابن عبد البرفي الإستذكار، ج٨، ص٢٨٠؛ الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ١، ص٧٥.

الأذهان والألسُنْ على ألا يكونَ له أدنى تأثيرٍ في العالم الخارجي، أو ألا يكونَ له أدنى ارتباطٍ بمصالح الشركات الرأسمالية. أتصورُ أنكم سمعتم بقصةِ (إكلستون) الذي سَمِعَ يوماً صوتَ الأذان أو القرآن، فقال ما هذا الصوت؟ قيلَ له إنهُ الأذان يُرفعُ بينَ فترةٍ وأخرى، يدعو الناسَ إلى الصلاة. فقالَ: وهل في هذا خطرٌ على مصالحنا؟ فقالوا له: كلا، فقالَ: فليفعلوا حتى تتصدَّعَ حناجرهُم.

مدرسة الإسلام

إنَّ الإسلام الذي يتمُّ انتاجهُ في العالم الغربي يكونُ على هذه الشاكلة، لا يُمكننا قَبولُ الإسلام دونَ أن يكونَ منهاجنا في العمل، أو ألا يكونَ لهُ نظامٌ حُقوقيٌّ يحكمُ به. أو لا يتمُّ الحديثُ عن مُستلزمات تطبيق العدالة، ولا يُمكنُ أن نطلُبَ الإسلام دونَ حقوق الإنسان. لا ينبغي استنباطُ الإسلام عبرَ مصالح الماترياليية ومن ثمَّ طرحهُ مُعلباً وفرضهُ على المجتمع الديني، هذا عينُ الغش. علينا أن نتمرَّنَ على ألا يكونَ اقتصادنا مُغايراً للعرفان، والحقوقُ مُغايرةً للتكليف، والدينُ للحياة. وعلينا أن نفهمَ حقوقَ الإنسان والحكومة والدولة والقانون والاقتصاد والفضيلة من نصوص الدين، وينبغي تفسيرُ الحياةِ والقانون والمدنية في نصوص معرفة الله وعبادته. لا ينبغي تجزئةُ الوحدة الكُلّية لتعاليم الإسلام إلى أجزاءٍ غيرِ مُتناسقة، والخروجُ بكلٍّ غيرِ معقول. وعندما يتمُّ تفسيرُ الإسلام جُزءاً بجزءٍ ترى أنهُ صحيحٌ ولا لبسَ فيه، ولكن عندما نجمعُ الإسلام كوحدةٍ واحدة على الطريقةِ التي يبتدعُها هؤلاء دونَ رؤيةٍ للوحدة التي ينشُدها والأهداف الكُلية، ترى الشكلَ الظاهريَّ للإسلام يبدو مُضحكاً. فهؤلاء قاموا في الحقيقة برسمِ كاريكاتورٍ عن الإسلام، لا يختلفُ عن الإسلام الحقيقي في أجزائه، بل في أبعاده. لأنَّ الكاريكاتور يقومُ برسم صورةٍ واقعيةٍ للأفراد لكنَّ أبعادها تكون مُتفاوتة عن الحقيقة ومُضحكة في نفس الوقت. لأنَّ الرسامَ تعمَّدَ عدمَ مُراعاة الأبعاد والتناسب. وهكذا هوَ حالهم أي لا يعرفونَ كيفَ يضعونَ تناسُباً حقيقياً للأجزاء في رسم صورة الإسلام.

هكذا يرسمون صورة الإسلام في الأكاديميات النظرية في العالم. إنهم يفعلونَ ذلكَ لترميم الصدمات التي تحملوها جراءَ زلزال الثورة الإسلامية قبل ثلاثة عقود. والإسلام مدرسةٌ وينبغي النظرُ إليها ودراستُها كمدرسةٍ مُتكاملةٍ من مفاهيمَ معنوية وأخلاقية وكلامية، ولا ينبغي تعريفُ الإسلام بصورةٍ مُطلَقةٍ وفي فضاءٍ عام، بل ينبغي أن يكونَ مؤثراً في الواقع

ويتركُ بصماته وأن يكونَ طبقاً لما يصفهُ كبار شخصياتُ الإسلام، أنه ينبغي بيانُ حدودِ معاني الإسلام. وعندما نذكر الدينَ والتوحيد فإننا ينبغي أن نرفعَ كافةَ الحدود الوجودية للدين والتوحيد. رُبما علينا أن نوجدَ في هذا العقدِ حركةَ التوابين ليتبينَ موضع الصديق من العدو في منظومةٍ فكريةٍ جديدة، وأن يتمَّ العودة إلى أصل الثورة من جديد. ويتبين أين هو موضوعُ الخندق وأينَ هيَ مواقع بني أمية وأبي ذر في يومنا هذا، لأنَّ الظروفَ الحالية تُساوي بينَ الشهيد والجلاد، وبين المُجاهد والسارق، بينَ الرمَّال والمُهاجر، بينَ عَبَدْة الإله الواحد ومحبي الدُنيا. لقد اختلط الحابلُ بالنابل، ويقف الجميع إلى جوار بعضهم البعض. لقد تحولنا جميعاً إلى مُحترفي الدين والإسلام، فشُغلُنا الشاغل هوَ أن نقولَ نحنُ مُسلمون والإسلام ليسَ ماركةً إنهُ عقيدةٌ وسلوك. ينبغي أن لا يُختصر الدين بينَ الذهن واللسان. لقد جاءَ الإسلام لتغييرِ دُنيانا وآخرتِنا، فالقرآنُ والسنَّةُ وإضافةً إلى المعارف والأخلاقيات والروحانيات، إنهُ عِلمُ جبهةٍ اجتماعية. وينبغي تقسيمُ أصحابِ الله وأصحاب الطاغوت والتفريقُ بينهما، ينبغي فعلُ ذلكَ في الجيل الثالث من الثورة.

وعندما ينتشرُ الإسلام في صفوف الأمَّة يبدأُ صِراعٌ عندَ الإنسان المسلم في نفسهِ، بين الحق والباطل، بينَ الربِ والنفس. وصراعٌ في المُجتمع وفي المجال الاقتصادي والحكم والسياسة بينَ مؤيدي العدالة ومُخالفيها. وينبغي إيجادُ هذا التَخَنْدُقْ من جديد، وبِخلافه ستكون الثورة ميتةً. ينبغي توضيحُ الحدود بين مؤيدي ومُعارضي العدالة على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، لكنه غيرُ واضحٍ حتى الساعة.

الإسلام الصامت هو الإسلام الذي لا يُبالي بالنظام الحقوقي والسياسي، وهذا النوع من الإسلام مرفوض، لأنَّ الإسلام صرخةٌ لا مُناجاة، والإسلام ليسَ عقيدةً ذهنية إنهُ رسالةٌ عملية. الإسلام أيُّها الأخوة نظامٌ روحانيٌّ وأخلاقيٌّ وليسَ حالةً فردية. إنهُ نظامٌ اجتماعيٌّ واقتصاديٌّ وسياسي، هذه أمورٌ يبدو أنها في طريقها إلى النسيان، لأننا لم نعمل بها. وعندما يتجاوز الإنسان أصولاً مُسلمةً بها فإنه سينسى وجودها أساساً، وعندما يتمُّ تجاوزُ ذلك نبدأُ بالشك بها، عندها نفقدُ الجرأة حتى في الحديثِ عنها، ورويداً رويداً يخجلُ الإنسان من الحديثِ عن الثورة والأسس التي انطلق من أجلها الشباب وضحَّوا بأنفُسِهم في جبهات الحرب من أجلها. ومردُّ كُلِّ ذلكَ يعودُ إلى عدم تطبيقنا للأصول

الإسلامية وطبيعيٌّ ألا نتفوهَ بها، وعندما نتركُ بعضَ الأصولِ في الحياة العملية فإننا ننسى أن نُجريها على ألسنتنا أيضاً أو نتفوهَ بها.

ماهية الإسلام

ويتساءل الإنسان لماذا نتحملُ أوزاراً لا نحصلُ من ورائها على منفعة؟ لقد سمّى الإمام علي عليه السلام بعضَ الخارجينَ على الدين باسم (القاسطين)، لأنهم خالفوا القِسطَ والعدل وأرادَ الإمامُ من خلال ذلكَ أن يقولَ إنَّ الإسلام ليس ذهنيةً أخلاقيةً وروحانيةً فحسب، بل إنه إضافةً إلى ذلك يعملُ من أجلِ حُكومةٍ ومجتمع خاص. وعلى رأس أهدافه الاجتماعية والحكومية، القيامُ بالقسط، والقسطُ بالإسلام غيرُ مُبهم، فقد تمَّ تعريفه في الإسلام والكتاب والسُّنَّة، وليسَ للإسلام قراءاتٌ عدة، والقاسطونَ كانوا من أتباعِ خطٍ فكريٍّ يبلغُ إلى أنَّ العدالةَ وتطبيقَ الأحكام الثورية للإسلام هي خطٌ مُنحرف، وأنَّ هذا الكلام عبارةٌ عن سياسةٍ ليست من الدين في شيء. وأنَّ الدين مُنفصلٌ عن السياسة، وهيَ اقتصادٌ وليست من الدين، إنها من الدنيا ولا ينبغي الحديثُ عنها في المسجد، ولا تتحدثُ عن الجهاد والشهادة وإراقة الدماء. هذه موضوعاتٌ مادية، دعوا هذه الأمور لأهلها من أهل الدنيا، هم يقولونَ للمسلمينَ إن الدنيا عديمةُ القيمة دنيئةٌ فهي لنا، والمقصود أتباعَ النظريةَ العلمانية. الدينُ أمرٌ مُتعالي ومقدسٌ ونورانيٌّ وذاكَ لكم.

لقد أشارت ثورةُ الإمام علينا أنه لا يمكننا العيشُ كيفما اتفق، أو أن نحكمَ كيف نشاء، أو أن نُبرمجَ الأمور مثلما نُريد. ونُسمَّى مُسلمين في ذات الوقت. والإسلام ليسَ ديناً غيرَ مشروط قياساً إلى أنواع النُظُمْ الحقوقية والاقتصادية الرائجة. الدينُ مفهومٌ حيٌّ وديناميكيٌّ وله ملزوماتهُ الحقوقيةُ والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية، لا يمكننا القولُ إنَّ الإسلام سيدخلُ هذا المجتمع دونَ أن يُلقي بظلاله أو لا تُرافقهُ فيه ملزوماته، وبغض النظر عن ملزومات الإسلام، فإن أردنا الحُكمَ عن الإسلام ربما أخطئنا في كُل لحظة أخطاءٌ تتكرّرُ في عالم اليوم، في المجتمع وفي الصحافة وفي الاعلام وفي الحكم.

إننا نجهلُ تعريفَ وحدودَ وماهيةَ الإسلام، ونقولُ ليسَ مُهماً ذلك فليكن ما يكون. فإذا كانت خُصوصيةُ هذه العملية التي من المُقرر أن تقودنا إلى نتيجةٍ ما، وعلى المجتمع أن يدفعَ الثمنَ لذلك فليسَ مُهماً التحدث عن نوع العملية أساساً، وهناكَ عبارة جميلة

لِكهل يقولُ فيها: عندما تكون النتيجة أهمُ من أصل العملية بكثير فلتكن العملية ما تكون لا أب لها. وهذا هو التفكيكُ بينَ الماهية والعملية التي من المقرر أن تُنفذ وتكونُ النتيجةُ حصيلة العملية.

الإسلام والإنسان

إنَّ هذا التفكيك يتمُّ اليوم إعادةُ قولبتهِ في الصحافة ووسائل إعلامنا والمحافل الأكاديمية والثقافية، فإذا كُنا والماركسيونَ نختلفُ في الأساليب الفكرية ونُطلقُ معاً شعار العدالة، فهل سنستطيعُ في النهاية التوافق وإياهم على أساليب تحصيل العدالة؟ فإن كُنا والليبراليونَ نختلفُ في المباني الإنسانية من الأساس كيفَ يُمكننا التوافقُ على قائمة حقوق الإنسان؟ وكيفَ لنا أن نتفقَ على تعاريف الحرية والجمهورية؟ حتى إنَّ بعض كبار الليبراليين الغربيين قال: إنَّ هذه المُشاركات هي كميةٌ غيرُ نوعيةٍ على مرّ التاريخ، وكيفَ لنا أن نتوافق مع هؤلاء على قضايا مهمة ومصيرية؟ إننا والماركسيونَ والليبراليون نتحدثُ عن إنسانين من عدالتين ونوعين من الحرية، ومن الخطأ أن نتجاوز المُحكمات من أجل المُتشابهات.

وللأسف ومنذُ الثورة الدستورية في إيران وإلى يومنا هذا فإنَّ المُفكرينَ الاجتماعيينَ الإيرانيينَ كانوا مبهوتينَ للترجمات الآتية من الفكر الغربي، وقد حاولوا من خلال المسرحيات والإشارات، القول للمسلمين: إنَّ عليكم إبدالَ الدين إن لم تُلقوهُ جانباً في أقل التقادير.

وللأسف فإنَّ شعبنا كان وخلال فترة الاستبداد الطويلة يُحسنُ قراءةَ الشِفاه، وكانوا يتلقونَ الإشارات من بعيد، لكنهم لم يكونوا عجولينَ في الاستجابة، وكانت ردودُ أفعالهم على ذلك تظهرُ بينَ عقدٍ وآخر وبينَ قرنٍ وآخر.

وخلال القرن الأخير حيثُ تلقى الشعبُ الإيراني فضلات الفلسفة (الأنجلو ساكسونية)[1] العالمية وهيَ في الأساس عالمٌ ضدَّ الفلسفة، عالمٌ من التجربة حيثُ أوردت معها القشريةَ

---

١ . الأنجلوسكسونيون (بالإنجليزية: Anglo-Saxons) هم القبائل الجرمانية التي غزت وسكنت بريطانيا في القرن ٥ والقرن ٦. تلك القبائل هي الأنجلز، والسكسون، واليوت. وقد تركوا أوطانهم الأصلية وهي شمال ألمانيا وهولندا والدانمارك، واتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية. واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية في القرن الخامس بعد الميلاد، وبعد حوالي مائتي عام انضمت هذه المجموعات الثلاثة في مجموعة واحدة دعيت بالأنجلو-ساكسون.

استخدم هذا المصطلح (انجلوساكسون) كتاب غاليون للتفريق بين الغزاة وبين سكان بريطانيا الذين كانوا فيها قبل مجيء هؤلاء الغزاة. (راجع: ويكيبيديا).

والجزمَ إلى أفكار العالم الإسلامي في إيران. ونظلُّ إلى يومنا هذا نُعاني من تبعات ذلك، وقد أوجدَ ذلكَ ورطةً ميتافيزيقية، حيثُ سدَّ هذا الفكرُ طريقةَ الاعتقاد والإيمان بالأصول والأخلاق والعدالة والحقوق الإلهية في الاجتماع.

فهؤلاء يقولونَ إنَّ مُصطلح الفردية كانَ غريباً بالنسبةِ لأجدادهم، وعليه فقد تمَّ استحداثُ مُصطلح الفرد. وقد قمنا بإبداعِ ذلك استجابةً لحاجاتنا، ماذا يعني ذلك؟ إنهم اكتشفوا الإنسان للتو، وتتمُّ رويداً رويداً مُساعدتهُ. لم تقوموا باكتشافه، لقد فعلَ ذلكَ علي بن أبي طالب عندما قال له: «وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً»[1]. ويؤكد عليه السلام فلتعلم أيُّها الإنسان أنكَ بإزاءِ جوار الله. لقد كشفَ عليٌّ عليه السلام الإنسان، وأُريدُ أن أؤكدَ للأخوة والأخوات الكرام لو أننا لا نقومُ بتعريفِ أنفسنا على ما ذهبَ إليه الإمام عليٌّ فإنَّ الفريقَ الآخر سيُقدمُ على تعريفنا، وكما هم يفعلونَ الآن ووفقاً لرؤاهم وسَنُجْبِرُ رويداً رويداً أو نشعرُ بذلكَ بأنَّ علينا أن نسيرَ وفقَ التعريف الذي وصفونا وصنفونا به، حيثُ يقولونَ إنَّ الإنسان ليسَ كما هوَ بل هو مثلما يراه الآخرون وما يقوله الآخرون.

هناكَ سببٌ آخر يرجعُ إلى تعدد وجوهنا، حيثُ نبدو في كلِ جمعٍ بما هم عليه، ونحاول تقمُصَ الشخصية التي يجبُ أن يرانا بها ذلكَ الجمع خَشيةً من الإنسان ألا تتغيرَ زاويةُ وأفقُ نظرة الآخرينَ إلينا. ويبدو أن هذا البلاءَ آتٍ على كلِّ الهوية الاجتماعية في العقد الثالث من الثورة. ثقافةٌ باتت ترى أن حقَّ الله يتعارضُ وحقَ الإنسان، وهي تسعى لحذف الشريعة الإلهية وصولاً إلى الحقوق الإنسانية. وهم لم يَعرفوا البشرَ قبلَ معرفة الله، نتساءلُ لماذا تكون العدالة وحقوق الإنسان مُقدسةً إلى هذا الحد في منطق علي بن أبي طالب وتعتبر ذلكَ أمراً دينياً وفي حُكم الحدود الإلهيَّة؟ ذلكَ أنَّ الحدودَ الإلهيَّة أصلاً جاءت لحفظ الحقوق المادية والمعنوية للإنسان ولهؤلاء الناس وهذا البشر. وإذا لم يكن الإنسان موجوداً فإنَّ الدينَ لم يكن موجوداً هو الآخر، أي إنَّ الدينَ لم يكن لازماً على الاطلاق. إنَّ تطبيقَ العدالة وتأمينَ الحقوق للناس هوَ تكليفٌ إلَهي، وليسَ مسؤوليةً مدنيةً وحَسب. فلا الناسُ عبيدُ الحاكم ولا الحكام عبيدٌ للناس بل الكل عبيدُ الله، ويؤكدُ الإمامُ عليٌّ في عهدهِ إلى مالك الأشتر: أنا وأنتم عبيدٌ مملوكونَ

---

[1] . نهج البلاغة، الخطبة ٣١؛ تحف العقول، إبن شعبه الحرّاني، ص٧٧.

لـرب العالـمين حيث يقـول: «فإنّـك فوقهم ووالي الأمر عليـك فوقك والله فـوق من ولاّك»[١].
وإننا بهذه الطريقة مدينونَ لله عزوجل. ولذلكَ بما أنني مدينٌ لله فأنا أخدمكم، أي إنَّ الإمام لا يُريدُ أن يجاملهم وهوَ يقول: إنهُ لا يعبدُ الناس بل يعبدُ الله عزَّوجل. لأنَّ الله طلبَ إجراءَ العدالة، لقد قال إنني لستُ عبداً لكم وأنتم لستم عبيداً لي أنا وأنتم عبيدٌ مملوكونَ لربِّ العالمين. وكلما كان هناكَ حقٌّ فهناكَ تكليفٌ أيضاً، وفي منطق الإمام لا ينبغي أن نخشى الحاكمين ولا الناس، ولا ينبغي التّملّقُ للحكام ولا ينبغي التملّق للناس. علينا الخوفُ من الله وحَسب. ويُعَدُّ الرسول أعلى مرتبةَ الآدميين في الإسلام، إنهُ لم يكن بحاجة إلى الناس وتملقهم حيثُ كانَ يُرددُ ﷺ: إننا فُقراء إلى الله، ولم يكن الرسول ليحسبَ للناسِ حِساباً بصورةٍ مُستقلة، ولم يكن يرائي للناسِ مثلما لم يكن يفعل ذلك مع الله، لأنَّ الله كان يقولُ هؤلاء عبيدي محترمون وينبغي أن تُحفظَ حقوقهم. وكانَ الرسول يخدم الناس بكلِ جوارحه، وتُشيرُ الآيةُ الكريمة المئة والثامنة والعشرون من سورة التوبة، حيثُ يصفُ الله سُبحانه رسولهُ وصفاً جميلاً يُجسدُّ الشخصية الواقعيةَ للرسول، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وتُشيرُ هذه الآية إلى أنَّ الرسولَ الكريم يتألمُ لِآلامكم، ويهتمُّ لِأموركم، نعم، يتألمُ لِآلامكم ويهتمُّ لأموركم. وفي آيةٍ أخرى من سورة التوبة يقولُ الله عزوجل: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[٣]. أي أنَّ الرسول هو مع الأمة يتألمُ لآلامها وهو رحيمٌ بالناس. ويقولُ الأستاذ الشهيد مُرتضى المُطهّري الذي ماتزال بعضُ جوانب شخصيته ِغيرَ معروفة: إنَّ البعضَ جاءَ للإمام عليٍّ بعدَ تصديهِ للخلافة وقالوا له: فلتحكم أولاً ولا تستعجل في أمر الثروة التي جناها البعضُ زوراً من بيت المال وأصحابُ القُدرة والثروة، لا تصطدم بهؤلاء ولو أردتَ أن تُقاضيهم في فسادهم المالي والسياسي فإنَّ هؤلاء سيطرحونكَ أرضاً.

شروط الحاكم في المجتمع الديني

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٢٧؛ بحار الأنوار،ج٣٣، (الفتن و فيه ما جرى بعد النبي ﷺ).
٢ . سورة التوبة:١٢٨.
٣ . سورة التوبة:٦١.

لقد صبرت العدالةُ ردحاً من الزمن، فلتصبر عدةَ سنواتٍ أخرى. لقد صبرت العدالةَ قُروناً، وأنَّ تطبيقَ العدالة لا يتأخر، لكنَّ جوابَ أمير المؤمنين لِأصحابه كانَ كالتالي: لِمَ تصبر العدالة؟ أستطيعُ شخصياً أن أصبر وأن أُقاوم وأن أُحارب، وقد حصلَ هذا في الجملِ والنهروان وصفين فإمَّا نَقتُل وإمَّا نُقتَل. وقال: لا ينبغي العدالة أن تصبر، إننا نُريدُ الحُكمَ من أجلِ تطبيق العدالة ولا غير، فإن وفِّقنا لذلكَ فبها، وإن لم نوفق نُقتل، وسنمضي بطريق العدالة ولو بلغَ ما بلغ. إنهُ تكليفٌ يتجاوز الزمان، إنهُ ليسَ شيئاً تاريخياً أو زمانياً. بعدَ حرب الجمل جاءَ أحدهم إلى الإمام وقال: كانَ لي أخٌ أحبَّ أن يُشاركَ في الحرب معنا، وأن يَحضُرَ العمليات، فرد عليه الإمام أهوَ أخيكَ معنا. فقد شَهد معنا،[1] ثُمَّ يقولُ عبارةً ألطفَ من هذه: أنَّ أفراداً قاتلوا إلى جانبنا اليوم لم يولدوا بعد، وهم في أصلابِ آباءهم وأرحامِ أُمهاتهم، أشخاصٌ سيولَدونَ بعدَ عقودٍ وقرون وقد شاركونا الأجرَ والثواب.[2]

إنهُ تكليفٌ يتجاوزُ حدَّ الزمان ولن يختصَ بفترةِ الإمام علي، فقد فُتح البابُ في زمنهِ عليه السلام وقد تجاوزوا خُطوطَ القتالِ أولاً، وقالَ الإمامُ علي عليه السلام: كيفَ نُرضي أنفسنا أننا حاكمون، لا أُشارككم في مكاره الدهر. أي إنَّ الحاكم الإسلامي لا ينبغي أن يكونَ بعيداً عن الناسِ وآلامهم، وهذه في حقيقة الأمر رسالةُ عليّ إلى كافة المسؤولين في الحكومة الدينية في كافة العصور، ومعنى هذا أنَّ الإمام دعا المسؤولينَ من الطراز الأول والثاني في الحكومة الإسلامية كالوزراء والنُّواب والمُحافظين والقُضاة، ألا تكونَ حياتهم فوقَ الحد المتوسط للناس، وهذا تكليفٌ دينيٌّ وشرعيٌّ في الحكومة الإسلامية. ودعا عليه السلام المسؤولينَ إلى أن تكونَ حياتهم بمستوى عامة الفُقراء كي يشعروا بضائقة العيش التي تمرُّ على الفُقراء، كي لا يشعُرَ الفقراءُ أنهم وحيدونَ في المكاره ويقولون إنَّ المسؤولينَ قد تناسونا ونحنُ نعيشُ بشكلٍ والآخرونَ يعيشونَ بشكلٍ آخر. لقد أكَّدَ الإمامُ على ضرورةِ إرضاء عامة الناس لا الخواصَ وأصحابَ النفوذِ والثروة ولا قادةَ الأحزاب والجماعات ولا من ينشدُ حقّاً أكثرَ من الآخرين «ثم الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢.

٢. نهج البلاغة: الحكمة ١٥٤ «الرّاضي بِفِعلِ قومٍ كالدّاخِلِ فيهِ مَعَهُم، و عَلى كُلِّ داخِلٍ في باطِلٍ إثمانِ: إثمُ العَمَلِ بِهِ، و إثمُ الرِّضا بِهِ»؛ «لكل إمرئ ما نوى»؛ صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي.

البؤسى والزمنى...»[١].

ويؤكدُ الإمامُ في عهده إلى مالك الأشتر حولَ الاهتمام بأمورِ عامة المسلمين وكسبِ رضاهم خاصةً المحرومينَ، ويقول: «ليكن أحبُّ الأمورِ إليكَ أوسطُها في الحق، وأعمُّها في العدل، وأجمعُها لرضى الرعية»[٢]. ثُمَّ حذَّرَ عليه السلام من غضب الرعية على أساسِ إرضاء أصحاب النفوذ والقدرة وقال: «فإنّ سخط العامّة يجحف (يُزيل ويُذهب) برضى الخاصّة، وإنّ سُخط الخاصّة يُغتفر مع رضا العامة»[٣]. ويؤكدُ على ضرورة التعاملِ مع الرعية التي تُعدُّ هي الدعامة الأساسية للسلطة والسواد الأعظم من المُشاركينَ في الجهاد، ويؤكدُ أننا لو قلبّنا جيشَ المُسلمين لن نجدَ فيهم مُتمولاً واحداً يُشاركُ في الجهاد، وإن كانَ فقد انسلخَ من طبقته. ويؤكدُ الإمام: «كذلك فليكن ميلُكَ معهم»[٤]، ويُشيرُ أنَّ على المسؤولينَ أن يُفكروا في حل مشاكل الناس ولا ينبغي لهم أن يُزيدوا منها حيثُ يقول عليه السلام: «أطلِق على الناسِ عُقدةَ كُلِ حقد»،[٥] أي إذا كانَ هُناكَ سوءُ تفاهم فاعمل على حله، وإن لم تستطع فتحدث مع الناس، ويقولُ عليه السلام: إن ظنت الرعيةُ بكَ حيفاً وبدأ الناسُ يتحدثونَ من وراءكَ ويقولونَ إنَّ مالكاً باتَ كالآخرين وإنهُ كذا وكذا، فعليكَ أن توضح لهم الأمور، حيثُ يقولُ عليه السلام: «فأصحر لهم بِعُذرك».[٦]

وهكذا ينبغي أن يكونَ الحاكمُ في الحكومة الدينية لا يدعُ مجالاً للشائعات، وعليه أن يُصارحَ الرعية، فإن أخطأ الحاكمُ عليه الاعتذارُ إلى الرعية، وإن كانَ معذوراً فعليهِ مُصارحةُ الناس. وترى السادة من أصحاب المدرسة العلمانية يقولون: إنَّ الحكومة الدينية أو الحكومة السماوية أو الحكومة القدسية ليسَ فيها نقدٌ ولا إشرافٌ ولا سؤالٌ أو إجابة لتساؤلات الرأي العام، إنها حكومةُ استبدادٍ ديني. ليسَ هذا الكلامُ مطروحاً بعدَ الثورة الدستورية في إيران، ولا من تأثيرات النصوص المترجمة للديمُقراطية، إنهُ عينُ الحقيقة ونصُّ

---

١ . نهج البلاغة، رسالة ٥٣.

٢ . المصدر السابق.

٣ . نهج البلاغة، رسالة ٥٣.

٤ . المصدر السابق.

٥ . المصدر السابق.

٦ . المصدر السابق.

الدين، ويعودُ إلى أكثرَمن ألف عامٍ ونيّف. علينا أيُّها الأخوة أن نوضِّحَ ذلكَ للرأي العام، لا تجعلوا الناسَ يظنونَ بكم سوءاً، وتُضافُ عُقدٌ إلى العُقد الموجودة، وتُضافُ مشاكلُ إلى المشاكل الموجودة.

ومن توصيات الإمام عليه السلام: أنَّ على الحاكم أن يُغطّي سوءاتِ الناس، ولا يُفتّش عن عيوبهم، هذه خصائص الحاكم الإسلامي. لقد حذَّرَ الإمامُ من الاستفادة من أصحاب القلوب المريضة الذينَ يبحثونَ على الدوام في عيوب الآخرين في المناصب الحكومية وألا يكونوا من أصحاب الحاكم. حيث يقولُ أميرُ المؤمنين سلام الله عليه: «وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لعيوب الناس؛ فإن في الناس عيوبا الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن ما غاب عنك، واستر العورة ما استطعت؛ يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك»[1]. أي يتوجب على الحاكم أن يستُرعيوبَ الناس ويحفظها، حتى إذا أخطأوا وفَسَدوا، إلا إذا أصرّوا على ذلك أو أنهم تجاوزوا حقوق وحدودَ الله، عندها ينبغي عقابهم. هل نجدُ حكومةً أكثرَإنسانيةً من هذه الحكومة في العالم؟ هل إنَّ هؤلاء هم الذينَ اكتشفوا الإنسان؟ أم اكتشفهم الإسلام قبلهم بكثير؟ يُشيرُ الإمامُ علي عليه السلام: لو أنَّ الحاكم أُجْبِرَ على عقاب أحدهم لا ينبغي له أن يكونَ فرحاً بعقاب الآخرين. وهذه توصياتٌ إنسانيةٌ كُبرى، لا بل فوقَ الإنسانية.

ويوصي الإمامُ مالكاً، أنه لو أرادَ أن يُعاقبَ أحدهم، عليه أن يفعل ذلك بقلبٍ مِلْؤُهُ الحزن، لا أن يقومَ بذلكَ بنية الانتقام وغير ذلك، وإذا ما أخطأ الإنسان ينبغي عقابه والعقاب هو لصالح الفرد والمجتمع. ورغم ذلك لا ينبغي للحاكم أن يكونَ مسروراً بالعقاب، ليكن خازماً وليُنفذ العقوبة ولا يُقصّر في ذلك، وليُنفذ قانون الله عزوجل حتى وإن قالوا إنَّ القصاصَ عنيف، نفذ القانون ولا تأخذكَ في الله لومةُ لائم «ولا تندمنّ على عفو، ولا تبجحنّ بعقوبة»[2]. ويدعو الإمام عليه السلام إلى حلِّ قضايا الناس وعدم تعطيلهم في دواوين الحكم، ولا ينبغي إرجاعُ الأمور إلى الموظفين الأدنى، «ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها. منها إجابة عمالك بما يعيي عنه كتابك»[3] هذا هو تحديد البيروقراطية. وهناكَ

١. نهج البلاغة، رسالة ٥٣.

٢. نهج البلاغة، رسالة ٥٣.

٣. المصدر السابق.

بونٌ شاسعٌ في الفرق بين دوائر الماضي واليوم.

إنَّ على الحاكم والمسؤول أن يحلَّ قضايا الناس واستفساراتهم فوراً، ويُضيف: «وأمضي بكلِ يومٍ عملهُ، فإنَّ لكلِ يومٍ ما فيه»[١]، أي لا تُأخر حلَّ قضايا الناس إلى يوم الغد.

لقد نُقلَ الإمام علي صلوات الله وسلامه عليه، أنهُ ذاتَ يومٍ شوهدَ الإمام يتجولُ في أزقة المدينة وهوَ يَشعرُ بالقلق، فسئِلَ ما الخبر يا أميرَ المؤمنين؟ فقالَ: أن هناكَ بقايا من مالٍ في بيت المال ولم أوزعهُ، هناكَ بعضُ الدنانير وأخشى أن يهبط الليل ولم يصل إلى مُستحقيه، أريدُ التخلُصَ من بقايا المال هذه قبلَ حلولِ أذان المغرب[٢].

وقد نُقلت الرواية عن الرسول الأكرم ﷺ أيضاً، أنهُ ذاتَ يومٍ أقبلَ عليهِ أعرابيٌّ من البادية، فأخذهُ مقام الرسول وشخصيتهُ وخشيَّ الحديثَ في حضرة الرسول، أو أن ينظر إلى وجه وعيني الرسول. فقال له ﷺ: إنني ابنُ أمٍّ كأُمك تحلب الماعز، هيَّا كن طبيعياً وتحدث. وفي روايةٍ أخرى أن الرسولَ كان يمضي مع عددٍ من أصحابه في زقاقٍ ضيق، وإذا بامرأةٍ سليطة اللسان ضخمةُ الهيكل قطعت عليهم الطريق، وعندما وصلوا لم تتزحزح يميناً أو شمالاً وظلت مُتسمرة في مكانها، فقال لها أحدُ الصحابة وَيحَكي تنحي جانباً لِنَمُرْ. فقالت: غيّروا طريقكم واسلكوا زُقاقاً آخر. فثارَ أحدُ الأصحاب وتقدمَ ليُزيحها عن طريق الرسول فقال له: دعوها، إنها جبَّارة. ثمَّ رجع الرسول واختار المرورَ من زُقاقٍ مُجاور.[٣] هذه هيَ نظرةُ الإسلام للرعية، ونظرةُ الرسول الأكرم ﷺ والإمام عليّ سلام الله عليه إلى الإنسان. إنهم يحترمونَ حقوقه وحُرمتهُ دونَ أن يتملقوا لأحد دونَ أن يعبدوا أحداً، وكانوا يرونَ أن الإنسان هو مبدأ كلِّ الحقوق وكلِّ المشروعيات، ومِلاكُ الحقِ والباطل، وهم في ذات الوقت أدَّوا حقوق وحرمةَ الآخرين منذُ أن وطأة أقدامهم ميدان السياسة والاجتماع حتى لحظةِ رحيلهِم عن هذه الدنيا. هكذا تكونُ حاكميةُ المجتمع الديني.

---

١ . المصدر السابق.

٢ . راجع: الامالي للشيخ الطوسي، ص ٤٠٤.

٣ . راجع: اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩.

دور المسلمين في صناعة المستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم أساتذتي الكرام والإخوة والأخوات الأعزاء.

أشكركم لإتاحتكم لي هذه الفرصة وأستميحكم عذراً لتصديع أوقاتكم.

كان من المقرر أن أخوض في مسألة إنتاج العلم وحركة البرمجة التي تحظى بالأولوية القصوى لكن الأساتذة الأعزاء الذين سبقوني أشاروا إلى هذا الموضوع، لذا وددت هنا الحديث عن الأسس النظرية لهذا الموضوع ليكون كلامي مكملا لما تقدم من حديث للأساتذة الأعزاء.

بداية ينبغي أن نعرف كيفية ارتباط العلم مع الفكر الديني وأثر هذا الفكر في إنتاج العلوم وكما يعلم السادة الحاضرون فإن هذا الأمر موضوع طويل، ورغم طرح التعارض بين القصص الدينية المسيحية مع مكتشفات العلوم والاتجاه العقلي في الغرب وأوروبا حيث بدأت من التقاليد المسيحية للقرون الوسطى وظهرت بشكل آخر بعد الثورة الصناعية وأفضل الطرق التي وجدوها هي تفكيك الإيمان عن العقل وأن هذين الموضوعين غير مرتبطين أساسا، وقد ظهر هذا الأمر مقابل الميول المتعصبة التي كانت تؤمن أن العلوم غير دينية كالفيزياء والكيمياء والهندسة والرياضيات وهكذا.. تم تقسيم العلوم إلى دينية وغير دينية، وبات الحد الوسط بين هذه المباحث موضوعا مفصلا يخوض في تاريخ مباحث العلم والدين والعقل مع الدين، والمقصود هنا المسيحية بالذات، حتى أن المباحث بخصوص العلوم التجريبية في مسألة ارتباطها بما وراء الطبيعة ومن أية نقطة يمكننا البدء في

هذه الدراسة؟ وما هي الغايات التي تتعقبها هذه العلوم؟ وبأية طريقة يمكن تعقبها؟ وهناك مجال كبير للبحث والمناقشة ولا يمكن غلق ذلك بسرعة، وليس هناك مجال للخوض في كون العلوم دينية أو غير دينية هاهنا.

من الواضح أنه لا مجال للبحث في هذه الفرصة حول الموضوع ولكن المفروغ منه أننا جميعا باتجاه الوصول إلى نتيجة جديدة في هذا المجال، ولو أردنا في هذا الباب الإعلان عن موجوديتنا ليس في إطار الدين كفرد بل في إطار الدين كمجتمع وحضارة دينية، وأن نبقى في هذه الحقبة من التاريخ فلا خلاص لنا إلا الدخول في حركة واسعة لإنتاج العلوم وإيجاد البرمجيات اللازمة لإدارة المجتمع، وعلى وجه الخصوص في العلوم الإنسانية والعقلية حيث ستترك آثارها لا محالة في العلوم التجريبية والرياضية البحتة أيضا حتى وإن لم تكن بصورة مباشرة.

إن هذه النتيجة بتصوري ستقودنا إلى نتائج مهمة للغاية، وفلاسفة التاريخ الذين يؤمنون بأصول وقواعد الحركات التاريخية يقولون إنه إذا حكمت أسس ما حركة التاريخ فإما سنشهد على طول التاريخ حركات اجتماعية وإنسانية لها انسيابية وحركة ثابتة تمضي قدما، وفي بعض الأحيان تصاب في لحظة تاريخية خاصة ما يصفونه بالمنعطف التاريخي حيث تقوم تلك الحضارة أو المجتمع بتغيير المسار وتدخل خطا جديدا، وعندها ستبدأ موضوعا جديدا ربما استمرت فيه لعقود وربما لقرون من الزمن، المهم بتصوري أن كل أنواع الأسئلة لا تطرح في بعض الفترات، وما نقوله اليوم وما نطرحه من أننا نريد أن نقدم على إنتاج العلوم وحركة البرمجة خارج الإطار الذي يحكم الدنيا فهذا يعني أننا نفكر بالأمر ونبحث الموضوع معا، أي أننا نطرح سؤالا وهذا يعني أن للسؤال محلا من الإعراب في هذه الفترة التاريخية الخاصة، وهذا يعني أننا نقف في المنعطف التاريخي، أي أن المجتمع الإيراني ممثل للمجتمع الإسلامي والداعم للمجتمعات الإسلامية، يدخل مرحلة جديدة من حياته، يدخل مرحلة يريد من خلالها أن يكون صانعا للحضارة من جديد، يريد إنتاج العلوم مع نظر الاعتبار للمنجزات العلمية لغير المسلمين طالما كانت علما لا مدرسة أو فكر ولا أن تكون متأثرة بالرؤية الشمولية غير التوحيدية للعالم، والعلم محترم ما دام علما، لكننا نريد أن نختط طريقا جديدا خاصا بنا.

إن طول المسافة لتحقيق هذا الهدف وحجم النجاحات التي سوف نحققها بتصوري يعد موضوعا ثانويا قياسا بأصل المشروع، القضية الأولى تكمن في السبب لعدم طرح العالم الإسلامي طوال القرون المنصرمة هذه الأسئلة ولماذا لم يهب لإنتاج العلوم، علينا اغتنام هذه الفرصة ونسدد هذه الأفكار بسواعدكم أنتم الذين اجتمعتم وقدمتم من كل نقطة من نقاط إيران، إن تجمعكم المبارك دلالة على طرح هذا السؤال ولو كانت لدينا الشجاعة لطرح السؤال سنجد الجواب بعون الله، وإذا نشهد أن بعض المجتمعات لا تصل إلى مرحلة طرح الأسئلة والاستفسارات فإنها ستظل راكدة.

إن طرح الاستفسارات من قبل المتخصصين يعني أننا نريد طرح معادلة جديدة في صناعة العلوم والبرمجيات والوقوف ندا بوجه النظرية التي تحكم العالم، ورغم أننا في أول الطريق وأننا عرضة للأذى ووضعنا أقدامنا في طريق وعرة إلا أن ذلك في حد ذاته يعني أن العالم بدأ برؤية وولادة لنظرية جديدة غير التي تحكم العالم، وعندما نتحدث عن نظريتين وخطين متقابلين فنحن لا نقصد أننا نريد إظهار الأمور إما بيضاء وإما سوداء، ولا نريد القول إننا مثال نوعي لأيدلوجية ما. لا نريد إطلاق تعابير الكمال على أنفسنا أو مجتمعنا أو حكومتنا.

نرجو أن يكون الطرف المقابل لنا هكذا، هناك الكثير من الفجوات موجودة في مجتمعنا، نحن نعاني من الأخطاء ومازلنا، وليست كل أقوال وأفكار أعدائنا أو أعمالهم سيئة.

عندما نتحدث عن تقابل الأيدلوجيتين لا نريد القول إنه تقابل شخصي أو أن الذي بطرفنا هو الصحيح والذي بطرفهم خاطئ حتما، إننا نتحدث عن قطبية ثنائية لا عن صراع بين أشخاص وتصرفات في هذا الجانب أو ذاك، وربما كان الاصطفاف بيننا والآخرين قائما في ذيل المواجهة النظرية ولا نريد القول إن المواجهة الخارجية ستكون عبارة عن صفحتين سوداء وبيضاء في العالم، فإن كان أحد منا فهو أبيض وإن كان في الطرف الآخر فهو أسود وباطل، لا ينبغي أن نتحرك وفق هذه الرؤية، الحقيقة أن هناك اصطفاف جديد في التاريخ والفكر العالمي، هناك أيدلوجيتان تقفان مقابل بعضهما البعض، من يريد تغيير الأطر الحاكمة في العالم عليه أولا أن يفسر العالم وأن يقوم بتفسيره على أساس الجهة التي يريد سوق الناس لها، هذه هي الخطوة الأولى.

في عالم اليوم هناك تفسيران للعالم والإنسان، أيدلوجيتان لتغيير الإنسان والعالم تقفان قبالة بعضهما البعض بصورة شفافة ورويدا رويدا لقد بدأت عملية الاصطفاف منذ أكثر من عقدين من الزمن وبات الصوت يرتفع أكثر فأكثر وباتت الطبول تقرع له بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران وبدأت الجبهتان بعملية طلب النصرة وجحفلة الأنصار في أرجاء المعمورة، وهذا الاصطفاف لا يعني أن الجبهتين متكافئتين في القوة، هنا نتحدث عن برمجيات لا قوات، الأيدلوجيتان تطرحان برامج متقابلة وأود هنا الإشارة إلى خصوصيات البرمجيات المطروحة من قبل الجانبين في الفترة الراهنة، وعندما نريد الحديث عن التقابل بين الثنائية القطبية فإننا نعني مواجهة ما يطلقون عنه السنن والتقاليد والعالم العصري، وكما هو معلوم فالجزء الأول منها يخص المسلمين والثاني يخص الغربيين، إنهم يقولون من يكون معنا وتابعا لنا من نظم ومجتمع فإنه عصري وحديث وكل من يقف بوجهنا أو ينتقدنا فهو يعود للعالم التقليدي والمتأخر.

لا أريد الخوض هنا في موضوع السنن والعصرنة، لأنني أتصور أن هذا الوجه من التسمية والنعوت لنا ولأنفسهم هو عملية دعائية أيدلوجية.

لو لاحظنا أن كافة الأيدلوجيات التي تريد فرض سيطرتها وهيمنتها على العالم وتعمل بصورة إقليمية أو دولية تقوم أولا على تقسيم الاصطفاف بين قواها والآخرين، ورغم أن هذا التقسيم يبدو منطقيا ومحايدا من حيث المبدأ لكنه في الحقيقة ليس كذلك، فلو نظرنا الى التقسيمات التي خرجت بها الماركسية للشعوب والعالم والتاريخ سنلاحظ أنهم يقولون إن التاريخ عبر مرحلة الحزب الابتدائية وبلغ مرحلة العبيد ومن ثم الإقطاع وآخرها الرأسمالية الجديدة.

إن هذا السير القهري ينبغي أن يكون وصولا إلى عالم الاشتراكية والشيوعية والمجتمع بلا حاكم وبلا طبقية، وعندما كانوا يريدون شرح المعادلات التي تحكم مجتمعا ما بخلاف ما يفصلون ويقسمون فبدلا من الاعتراف بخطأ نظريتهم وأيدلوجيتهم يقولون إن هذا المجتمع يمر بالأدوار التاريخية الخمسة التي ذكرناها وهم سيجتازونها لا محالة ويأتون صوب ما نقول، على سبيل المثال كان ماركس يتوقع أن ثورة عمالية ستنطلق في بلد ما بعد فترة وعندما يثبت العكس وينقلب ذلك البلد إلى قطب من أقطاب الرأسمالية يقولون إن هؤلاء يمرون

بمرحلة التغيير وربما تأخر ذلك زمنا، لكنهم سيعودون إلينا وهكذا كان حال الفاشيين في العالم، واليوم يقومون بتقسيم العالم والمجتمعات والشعوب على أساس تقليدي وعصري متبعين ذات التجربة القديمة وهم يقولون إن المجتمع التقليدي يمضي في طريق التحول القهري وسينضم لا محالة إلى المجتمع العصري لكن بعض المجتمعات تقاوم هذا التحول ويعبرون عنه باسم الثورة، يقولون لماذا شهدت إيران ثورة في زمان الشاه؟ والجواب أن الشاه والغرب كانا يحاولان عصرنة المجتمع الإيراني لأنه كان محافظا أكثر من اللازم و لم يكن مؤهلا لذلك فإنه تقيئ أي أنهم يصفون ثورة الشعب بالقيء، هكذا انطلقت الثورة في إيران وفشلت كل محاولات الغرب وصناعهم من إقناع الأمة أن الدين أمر أكل عليه الزمان وشرب، وعوضا عن سحب كلامهم وتقسيماتهم للعالم (تقليدي وتقدمي) والاعتراف بانهم أخطأوا في هذه التقسيمات وأن نظريتهم معابة في مكان ما، إلا أننا نرى أنهم يصرون على أن ما حصل في إيران هو رجوع إلى الوراء إلى عهود منقرضة، وعندما نسأل الشيوعيين ونقول ماذا تقولون في الثورة الإيرانية؟ ألم تكونوا قد قلتم إن الدين أفيون الشعوب وأن زمانه قد انقضى لأنه كان مرتبطا بالإقطاع؟ ما هو رأيكم في هذه الثورة الآخذة بالاتساع والانتشار في عالم اليوم، يقولون إنه تطور تاريخي وسيعود كل شيء إلى الشيوعية لا تشكوا في ذلك أبدا، وعندما نقول إن المشكلة تكمن في نظريتكم وتقسيماتكم، يقولون إن هناك عيبا في المسلمين وأن هذه الثورة وهذه الحقائق ذات إشكالية وعوضا عن تعديل نظريتهم من خلال تطبيقها والواقع الموجود يحاولون طمس الحقائق تحت نظريتهم ويضطرون للقول إذا وقعت ثورة دينية للتحول التاريخي من التقليدي القديم إلى المعاصر الحديث علينا إصلاح الموضوع والقول إن مراحل التحول قد تصاب أحيانا ببعض المقاومة وهذه هي تحديدا مقاومة الدين اليائسة قبالة ما يطلقون عليه باسم العصرنة ويضربون على ذلك ثورة إيران مثالا ويستخلصون إلى نتيجة مفادها بما أن الثورة الدينية هي جهد يائس فإنها سرعان ما تخمد وتزول لكنهم اليوم وبعد ثلاثة عقود أو أكثر من الثورة الإسلامية يرون أنها بدأت تقوى عودها، فإذا بهم يعلنون أن هناك ثمان وعشرين دولة إسلامية عاشت حالة الغليان ووقعت فيها ثورات، بعضها بشكل حاد والآخر قد يشهد ثورة بعد أعوام وبعضها ربما شهد تغييرا بعد عقد أو عقدين من الزمن، وعلينا تدارك الأمر من خلال إجراء

بعض التعديلات السياسية في النظم الموجودة كي لا تشهد هذه البلدان ثورة كما حصل في إيران وبخلافه فإن بلدان المنطقة والشرق الأوسط ستشهد ثورات أو شهدت ثورات ضد الأنظمة الدكتاتورية، ولو كنا قد أجرينا ذلك في إيران قبل أربعة عقود من الزمن لما كنا نشهد هذه التداعيات اليوم، والخطوة الأولى تكمن في الديمقراطية، ومن خلال أن الأنظمة المدعومة من قبل الغرب أنظمة غير ديمقراطية طبقا لتعاريف الغرب حيث لم تشهد انتخابات حرة، وهذه النقطة التي نعارضها وهي عدم إقامة الانتخابات هي قوة النظام الإيراني بعد الثورة حيث يعد من حيث إجراء الانتخابات البلد الأكثر ديمقراطية حسب تعاريفنا، لكن المشكلة تكمن في أننا لو سمحنا بتطبيق الانتخابات في أي بلد إسلامي لكان الإسلاميون يحصدون الآراء، يقولون إن الإسلاميين سيفوزون في غالبية انتخابات البلدان الإسلامية إن جرت في أجواء ديمقراطية، يقولون خير مثال لنا في الجزائر وتركيا، فقد تساهلنا في الأمر فإذا بالإسلاميين في هذين البلدين يفوزان بالانتخابات.

يقول الغربيون نعيش حالة من التعارض، فإن أهملنا الإصلاحات والديمقراطية فإن الثورة ستقع لا محالة، وإن سمحنا بالديمقراطية وأذنا بالانتخابات الحرة، فإننا على ثقة بأن عملنا هذا سيعني بتسليم الحكم للإسلاميين بأيدينا، وهذه الأمور تقع في وقت تقول فيه نظرياتنا إن عهد الفكر السياسي الديني آخذ بالزوال في حين أن الحقائق تشير إلى عكس ذلك.

إن الحديث عن تقابل أيدلوجيتين الأيدلوجية التقليدية والأيدلوجية العصرية الحديثة عملية مغلوطة، لأنه وطبقا لتقسيماتكم لا يمكن حصول تقابل لأننا كما تقولون في حالة تغيير وعبور من التقليدي إلى الحديث والمعاصر وأن كل ما يفعله الإنسان هو جبري غير قابل للاجتناب، هذا صحيح وفقا لتقسيماتكم الخاصة بالتقليدية المسيحية الإقطاعية لأوروبا في القرون الوسطى، أي عندما يتم الحديث عن التقليدية المحافظة الدينية والتطور العصري يعني التعارض مع الخصوصيات التقليدية الموجودة عند المسيحية الإقطاعية والتقليدية الكاثوليكية في أوروبا. ولكن إذا ظهر دين لا يمتلك خصوصيات التقليديين عندكم ولا هوية العصر الحديث بصورة كاملة يتعارض والتعاريف التي وضعتموها للمحافظين وكذلك للعصر الحديث ويتوافق مع الاثنين في موارد أخرى، ماذا ستفعلون هنا مع نظريتكم

التي تقول إننا في حالة عبور قهري وتاريخي من المحافظين إلى العصر الحديث.

هذا هو المكان الذي تعثرتم فيه ولن تتخلصوا من هذه المشكلة إلا بواسطة القنابل الكيمياوية والنووية، لأنه لا مخرج ولا مفر نظري في هذا الأمر، اللهم إلا إذا تراجعوا عن بعض أسسهم وأصولهم الفكرية بصورة علنية وصوت مرفوع، وسأشير إلى مورد واحد أعلنوا فيه ذلك، أريد هنا توضيح التعاريف التي يطلقونها حول الأفكار المحافظة والعصرية، وليعلم الأعزاء أنه ليس هناك تعريف أكاديمي واضح وعلمي واحد للعصرية، كل ما يتم ترجمته من إصلاحات للحداثة فيه إشكالية وخطأ، بخصوص الديمقراطية طبعا، يقولون إنهم يقبلون دينا يكون ديمقراطيا، أي أنهم يأخذون مشروعية الدين من الديمقراطية وموافقته لها وهكذا مشروعيته الاجتماعية، ولو جئنا إلى تعريف الديمقراطية لوجدنا عشرات التعاريف بعضها يتعارف معه في المجال النظري، أما في مجال المصداق العملي فهناك خمسة عشر نموذجا تطبيقيا للديمقراطية على الأقل في نصوص العلوم السياسية في الغرب، وهذه النماذج تبدو غير متطابقة أحيانا وطبقا لذلك تصبح بعض الأنظمة ديمقراطية وبعضها غير ذلك، وعليه يبقى الإنسان في حيرة من أمره بالنسبة لمعرفة الديمقراطية ونماذجها التطبيقية على الأرض وهكذا تصبح الديمقراطية وحيا منزلا دون تحديد تعريف خاص بها، وهكذا بالنسبة للحال مع مصطلح الحداثة والعصرية فهناك اليوم عشرات التعاريف لتحديد الحداثة والعصرية وتمييزها عن المحافظة ولا ندري لأي قرن تمتد هذه المقارنة للقرن الميلادي الخامس عشر أم السادس عشر أم السابع عشر أم الثامن عشر أم التاسع عشر، أقول ذلك لأن الأمر متغير من تاريخ إلى آخر، فتارة قالوا إن الفاصل بين المحافظة والعصرنة يكمن في الجمهورية الفرنسية وتارة في الدستور الأمريكي وأخرى في الثورة الصناعية في الغرب حيث كانت أوروبا زراعية فيما قبل ذلك وهل أن الحد الفاصل هو نظريات «ديكارت» وما قبله؟ وهل أن فيلسوف الحداثة والعصرنة هو «كانت»؟

في كل فرع من العلوم، من الموسيقى والأدب، في الفلسفة، في الإلهيات، ما هو الحد الفاصل بين المحافظة والحداثة؟ هل يكمن في قالب الإصلاح الديني في الغرب؟ أي منذ نشوء الجناح البروتستانتي، وما هو الملاك في ذلك؟ أي الدعوة إلى التسامح والشك قبالة الجزمية والعنف حيث كان القرن السادس عشر الميلادي هو قرن الإطار الديني، كان أكثر

القرون عنفا دينيا في أوروبا ولم تسجل مذابح في القرون الوسطى بقدر ما شهده القرنان السادس عشر والسابع عشر في أوروبا، وهكذا فليس أمامنا إجماع في باب تعريف الحداثة والتقليدية في الغرب نفسه، هناك اختلاف واضح وهناك اليوم عبارة الأصولية والحداثة تتقاطعان مع بعضهما البعض، وعندما سئل «ميشال فوكو»[1] وهو من فحول الأصولية في الغرب عن معنى الكلمة قال «لا أدري» فقالوا له «و لماذا لا تدري»؟ فأجاب «لأنني لا أعرف معنى الحداثة» وعندما تكون الحداثة غير معروفة المعالم فالأصولية الغربية غير معروفة أساسا، عليه عندما يأتي أصحاب الحداثة ويدعوننا لإتباعهم وتصبح نظرياتهم وأقوالهم حكما منزلا علينا أن نوافق أنفسنا مع ما يذهبون إليه، وبات بمقدورهم أن يقبلوا ما يحلو لهم من الإسلام ورفض ما لا يحلو لهم من خلال تطبيق ذلك مع نظرياتهم الحداثوية، بل بات علينا الحديث بما يحلو لهم وطبقا لما يشتهون، لكن الحقيقة أن هؤلاء هم أنفسهم يتصارعون حول التعريف، وليس هناك أية نظرية قطعية ومفروغ منها علميا في هذا الصدد، كأن تكون مطروحة في الأوساط العلمية في العالم وينبغي أن نكون نحن من يختار الطريق وأن نقرر ما يحلو لنا، لا نعبؤ بما يوافق أو يخالف الحداثة التي يتحدثون عنها، لأننا لا نهتم بتقليديتهم ولا بحداثتهم.

على سبيل المثال يأتون بتوصيف للحداثة في باب إنتاج العلم وما حصل بعد الثورة الصناعية وهو أمر تم عبر الترجمة من العالم الإسلامي، وهنا أود الإعراب عن الأسف أننا لا نعرف حتى شيئا عن تاريخ العلوم، وعلينا وعلى محفلكم المبارك أن يخوض في تاريخ العلوم وطريقة انتقال العلوم الحديثة من العالم الإسلامي إلى الغرب كالفيزياء والكيمياء والمعمارية والجراحة والفضاء والتربية والأعشاب والأحياء والعلوم التجريبية، كيف انتقلت خلال فترة زمنية لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة قرون من العالم الإسلامي إلى الغرب؟

قيل إن الإمام الرضا عليه السلام عندما كان في طريقه إلى نيشابور وأراد أن يروي حديث سلسلة الذهب كان هناك إثني عشر ألف كاتب وخطاط ينتظرون أقوال الإمام عليه السلام في مدينة واحدة، وفي هذه الفترة الزمنية لم يكن عدد المتعلمين في عموم أوروبا لا يتجاوز المائة نفر،

---

[1] (Michel Foucault) مفكر وفيلسوف فرنسي، يعد أحد أهم المفكرين الغربيين في النصف الثاني من القرن العشرين، كما يوصف بأنه الفيلسوف الأكثر تأثيرا في فلاسفة ما بعد الحداثة.

وعندما كانت مكتبات العالم الإسلامي تزخر بعدة ملايين من المخطوطات والكتب كانت أكبر مكتبة في أوروبا وهي مكتبة «شارلمان»[١] تضم في رفوفها نحو ألف ومائتي كتاب منها ثمانمائة كتاب أوراد كنسية.

لم يكن هناك علم ولا خط، وعندما تم اختراع الساعة في العالم الإسلامي أهدى المسلمون ساعة نصبت في الميدان الرئيسي في باريس وعندما بدأت بدق الجرس في رأس الساعة سجد الباريسيون ظنا منهم أنه شيطان، وعندما لم يكن في أوروبا معنى للحمام كانت مدن العالم الإسلامي تزخر بكبريات المستشفيات والمختبرات والمكتبات التي تحوي في رفوفها على ملايين الكتب.

و ذكر أحد السواح الأوروبيين أنه وجد المستشفيات الكبيرة في كل المدن الإسلامية حتى أنهم كانوا يفردون قاووشا خاصا للمرضى النفسيين وأن المسؤولين كانوا يعزفون نوتا خاصا وهادئا من كتب موسيقى الفارابي لتهدئة المرضى قبيل نومهم وأنهم كانوا يقومون بوخز الإبر التي تحتوي على مخدر طبيعي للتقليل من آلامهم، وفي تلك الفترة كانت أرجل الرجال في أوروبا تقطع إن حصل جرد بسيط في قدم أحدهم خوفا من انتشار التعفن، وفي المقابل كانت أدق العمليات الجراحية في العين تجرى في مدن العالم الإسلامي.

علينا مضاعفة الوعي عند الناس، علينا أن نذكرهم بماضيهم الوضاء، إن هذا الأمر لم يكن لفترة تتجاوز أربعة أو خمسة قرون لكن الأمر انقلب، لأن المسلمين ابتعدوا لأسباب عدة عن الإسلام وعلومه وأصيبوا بالفرقة والانحطاط وعبدوا الدنيا وحكمت الحكومات العميلة.

لم يقم العلماء بالواجب الملقى عليهم، وأن ما يعانيه المسلمون من ذلة وتأخر اليوم

---

١ . شارلمان (بالفرنسية: Charlemagne) أو كارل الكبير (بالألمانية: **Karl der Große**) وسماه العرب قارلة (عاش ٧٤٢- ٨١٤) هو ملك الفرنجة حاكم إمبراطوريتهم بين عامي (٧٦٨- ٨٠٠) وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي (٨٠٠- ٨١٤). الابن الأكبر للملك بيبين الثالث من سلالة الكارولينجيين. ويعتبر بيبين القصير (حكم من عام ٧٥١ إلى عام ٧٦٨) مؤسس حكم أسرة الكارولنجيين في حين يعتبر ابنه شارلمان (حكم من عام ٧٦٨ إلى عام ٨١٤) أعظم ملوكها. وهو أول «إمبراطور روماني مقدس» (راجع: ويكيبيديا).

مع أن شارلمان كان أمياً، أولى للعلم والعلماء عناية خاصة، وزود امبراطوريته الواسعة بالمدونات القانونية، وعمل على إحياء الدراسات الأدبية، وبمساعدة العلماء الذين كانوا يتوافدون على بلاطه أسس مكتبة البلاط واهتم بجمع أعمال آباء الكنيسة والكتب القديمة، وخاصة المؤلفات اللاتينية القديمة من إيطاليا وغيرها من دول أوربا الغربية.

هو بسبب ابتعاد المسلمين عن دينهم، لكن الله سبحانه وتعالى قيض لهذه الأمة الإمام الخميني والثورة الإسلامية لتعود حركة إنتاج العلوم والبرمجة، ولكن وفق متطلبات العصر، لا نريد أن نرجع إلى الوراء لأربعمائة عام بل نريد العزة للإسلام وفق الحاجات المستحدثة والمعاصرة، لا نريد أن نكون مستهلكين للترجمات الواردة بل نريد أن نكون من منتجي العلوم ومصدريها كما كان المسلمون في كل المجالات.

يقولون إن واحدة من علائم التقليدية المعاصرة إنها ذات طابع من الأفكار المجردة والذهنية. لكن الفكر الحديث يقوم على أساس العلوم والتجربة والاستقراء والمشاهدة.

ربما كان هذا صحيحا في التقليدية الكاثوليكية في المسيحية الكنسية حيث كان هناك اختلاف حقيقي مع الثورة الصناعية في أوروبا، فنرى أن طرفا يفكر في الفلسفة اليونانية ومنشغل في أمور ذهنية ويردد الأوراد والأذكار الكنسية ثم يأتي البعض ليقول له نرجو أن تطالع ما هو موجود في الدنيا من حولك، نرجو أن تفتح عينيك، نرجو أن تقوم بتجربة الأشياء وأن تحل المشكلات التي تعتري طريقك واحدة بعد أخرى، لأنك لا تستطيع القول إنك في عالم الحور والغلمان لكنك لا تستطيع حل المشاكل الابتدائية التي تصادفك، إنك تشعر بالصداع ولا يمكنك علاجه، تشعر بالجوع ولا تستطيع سد رمقك، الأرض واليابسة من جهة والماء من جهة أخرى ولا يمكنك من إنتاج المحاصيل، لا يمكنك التشبث بهذه الأسباب، ربما كان هذا التقابل والاصطفاف بين التجديدية وعالم الحور والغلمان والتجربة العينية والمشاهدة والاستقراء والتجربة الملموسة موجودا في الغرب بين التقليدية والحداثة لكن الأمر في العالم الإسلامي ليس كذلك فالمشاهدة والتجربة والاستقراء ليست حداثة في الإسلام أي أنها ليست مفاهيم جديدة بل هي قديمة وقد تم إثباتها، فالمسلمون تقبلوا ذلك منذ البداية ولذلك فإن العلوم التجريبية التي انتقلت من العالم الإسلامي إلى أوروبا واجهت مشكلة مع السنن الدينية عند المسيحيين في أوروبا، وهكذا بدأت عندهم حرب الدين والعلم، في حين أن هذه العلوم ولدت وترعرعت في كنف الإسلام وهكذا العقلانية، ولا أدري لماذا يتصورون أن العقلانية تعد واحدة من الأسباب الرئيسية لنقض السنة في تعاريفهم؟ الجواب لأنهم حرفوا دينا بات يتعارض مع كل اتجاه عقلي، حرفوا الدين الذي وضعت فيه الآيات، دين بات يعتريه الانحراف، ولذلك نرى أنه يتعارض مع العقل،

وعندما كانت المباحث العقلية والإلهية في العالم الإسلامي لم يكن هناك مشاكل بين العقل والدين على هذاالمستوى الواسع.

ولذا نرى أن كبار المفسرين والعارفين بأمور الدين هم الفقهاء، وهكذا بات الفقهاء في إيران أكثر الناس عقلانية وحكمة وفلسفة، لكن هذه المفاهيم العقلية والدينية والإلهية عندما انتقلت من العالم الإسلامي بالترجمة إلى أوروبا واجهت مشكلة وبدأت الحرب بين العقل والدين في أوروبا.

لاحظوا لم تكن هناك مشكلة تذكر في مباحث المشاهدة والاستقراء والعقلانية أو تعارضا في الفكر الإسلاميين التقليدية والحداثة، وعليه كان كبار العقلانيين كبار التجريبيين وعلماء الدين عندنا، كانوا فقهاء وعرفاء مفسرين للقرآن، لكنهم في الغرب تشاجروا جميعا، وهنا ينبغي أن أضيف أن المسلمين يقبلون بالتجربة على أن لا يكون كل شيء منوطا بالتجربة، أي لا يقبلوا بأساس المذهب المنطقي في كل شيء وحالة.

التجربة عندنا مصانة والمشاهدة والاستقراء والعقل كل في مكانه، الشهود والعرفان القلبي في مكانه، والوحي كذلك.

يؤمن المسلمون بأربعة سطوح من المعرفة والعقلانية، المشكلة أن الغرب ينكر المعرفة التجريبية والعقلانية وحتى الشهودية أحيانا، حتى أن المعرفة الوحيانية لديه غير سليمة وقد اختلطت بالخرافات، ورغم كل هذه الأمور جاءت لتقف بوجه التطورات الإنسانية الجديدة، وهكذا فإن النتيجة معلومة.

نعم في الغرب هناك عبور قهري من التقاليد إلى الحداثة، ولهذا الأمر معنى وقد حصل ذلك، ولذا فنحن اليوم لا نرى ولا نواجه دينا في الغرب ولا وجودا خارجيا له، أي أن يكون ملاكا للمشروعية والعمل وإدارة المجتمع.

الدين في الغرب عبارة عن ديكور، وعليه يظل السؤال: لماذا ينبغي على المسلمين أن يعتبروا ما بشر به هؤلاء يعد حداثة قبالة التقليدية؟ لماذا؟

وهذه المفاهيم وجدت معناها من صلب الدين، وهكذا كسبت المشروعية أساسا، أما المفهوم النفعي فقد قال هؤلاء إننا في هذه الدنيا عملانيون ونافعون، فلا يصح الجلوس والتباحث في غرفة مغلقة حول هذه الأمور.

قيل إن فيلسوفين كانا جالسين مع بعضهما وبجوارهما جمل وكانا يتباحثان حول عدد أسنان الجمل فكان أحدهم يأتي ببرهان ويرده الآخر، فإذا برجل عامي يمر من أمامهم فوجد أن الرجلين يتباحثان دون انفكاك، فقال لهما: ما بكما؟ لم هذا البحث والمناظرة؟ فقالا له: نبحث في عدد أسنان هذاالجمل وإننا على هذا الحال منذ ساعات. فقال: إن هذاالأمر لا يحتاج إلى مناظرة فليقم أحدكم وليرفع شفة فم الحيوان ويعد أسنانه!

و هذا معنى التجريبية والنفعية، فهل كان الإسلام معارضا لهذاالأمر؟

هناك توصية مؤكدة في الفكر الإسلامي وفي القرآن والسنة النبوية وفي روايات أهل البيت عليهم السلام تدعو لأن يكون الإنسان نافعا للآخرين، وهناك رواية تقول إن الإنسان ينبغي أن يدعو الله بعلم نافع لا علم مطلق، لسنا بحاجة إلى علامة وأناس جامعيين أو حوزيين يدركون كل شيء لكنهم لا ينفعون الناس، يحفظون الكثير من الأمور والعلوم ولا ينفعون المجتمع.

لماذا لا تتوضح علاقاتنا وعلاقة جامعاتنا مع المجتمع وآلام المجتمع؟ متى يتضح ذلك؟ المجتمع يقدم الخدمات للجامعة، فمتى يصبح العكس؟ أي أن تقوم الجامعة بعرض خدماتها للمجتمع. إننا مدينون للشعب وللفقراء منهم، فمتى نقدم الخدمات لهم؟ متى تدخل الجامعة لتقدم الخدمات في مجالات العلوم الإنسانية والتجريبية والعلوم العقلية وسائر الموارد الأخرى المتعلقة بإنتاج الأفكار؟ ومتى نخرج من حالة دار الترجمة إلى دار العلم؟

هذه هي مشكلتنا الرئيسية، وهكذايتضح أن النفع في الثقافة الإسلامية أمر مهم، وتفيد الروايات أن أقربكم إلى الله أنفعكم إلى خلقه[١]،إننا مفيدون للآخرين لا نفعيين أي أننا نقبل الربحية ولكن في إطار القيم الإلهية، أي تقديم الخدمات للإنسان في مسير الخدمة إلى الله عز وجل.

أما النفعيون الماديون فهم يحاولون تحصيل المنافع الشخصية ويعتبرون أنفسهم المحور والمركز وأن كل ما يجربونه ويلمسونه فهو واقعي وحاصل، وأن كل ما يتعدى التجربة من الكذب والأوهام والخرافة، وأن كل ما يصل إلى الربح فهو معقول وعقلاني، وأن اللذة تكمن في الربحية والتجربة، لكننا في الشرع الإسلامي نرفض ذلك أو نرفض تحول هذا

١ . راجع: كنز العمال، ج ١، ص ١٤٢.

الأمر إلى ملاك عمل، وبخلافه فالربح والتجربة واللذة كل ذلك مجاز في إطار من الحقائق والقيم والكمالات، وأن الربح الأكبر والجامع والواقعي يلق هناك معناه الحقيقي، وعليه فإن التجريبية جزء من التعاليم الإسلامية، وأن التجريبية جزء من أسس إنتاج العلوم، جزء من التعاليم الإسلامية، ولكن دون الوقوع في حبائل المذهب الوضعي المنطقي.

إن الإسلام يقبل بالانتفاع وهي تختلف عن النفعية وكذلك العملانية، وهي تختلف عن الجزمية، هذه أركان حركة البرمجة التي ينبغي أن نعمل من أجلها وفق إطار إسلامي.

خلاصة الأمر، لقد قلت في بداية المحاضرة لو أردنا تغيير العالم علينا أن نفسره بالطريقة التي تقودنا إلى التعريف المطلوب والمقصود، فالتحول المطلوب واقع لا محالة وأنه مرحلة قهرية، حيث يقولون إن هذه الفترة دورة قهرية ينبغي اجتيازها، ولنا أن نتساءل: عبور من ماذا إلى ماذا؟ ولماذا؟ وأين يمكن اجتنابه وأين لا يمكن أن نفعل ذلك ولماذا؟

كما هو حال الشيوعيين عندما ادعوا أن العالم يتجه صوب المجتمع الاشتراكي! لكننا لاحظنا فشلهم، ونلاحظ أيضا أن العلمانيين يقولون إن الليبرالية تعد نهاية التاريخ وأن الحداثة التي يطرحونها هي بمعنى نهاية التاريخ.

أشكر حسن استماعكم وأعتذر لإطالتي.

اللهم صل على محمد وآل محمد

الوحدة الإسلامية ضرورة محقة

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم سادتي الأفاضل الأخوة والأخوات العلماء الأعزاء والفضلاء والطلبة الشباب، إنني أقف بين أيديكم باعتباري أحد طلبة العلوم الدينية، وأوجه خطابي في هذه المحاضرة إلى الأخوة الشيعة الذين ربما تصوروا أو ربما صُوِّرَلهم البعض أن اختلافنا مع الآخر يشمل جميع المصادر وهي متعارضة، وأن الحديث عن الوحدة الإسلامية مبحث سياسي، وهي وحدة مصطنعة وتشريفية. بتصوري أن الوحدة حتى لو كانت كذلك فهي نافعة، والوحدة أفضل مئة مرةٍ من الفرقة، ولكن لسنا في حقيقة الأمر بحاجةٍ إلى وحدة اصطناعية. ولو بحثنا في المصادر العلمية وفي مصادر أهل السنة، وأكرر إني أوجه خطابي للشيعة، فلو تأملنا مصادرهم ومنهج الفقه والكلام والعلم عندهم خاصةً عند الإمام الشافعي لأتضح أمامنا أننا لسنا بحاجة إلى تشريفاتٍ أو وحدةٍ اصطناعية، وأن السنة لديهم علميةٌ وتاريخيةٌ. وسأشير إلى جانبٍ منها بالطبع حسب تجربتي، فإن المباحث الدينية كلما ابتعدت عن العلماء وبلغت عامة الناس فإنها ستكون جافةً سطحيةً وغير مؤدبة وتثير الفرقة والسبب يعود إلى أن عامة الناس لا يعرفون شيئاً عن المصادر العلمية والدينية وما كتب فيها، وكلما كانت المباحث علميةً وعميقة تصل إلى باطن الأحكام والمصادر والأخلاق والقيم الإسلامية، فإنها ستكون مباحثَ لطيفةً وأكثر

أخويةً وعلمية، وعلى العكس كلما كانت المباحث المطروحة في أوساط العوام كانت أكثر وقاحة وأكثر سطحية وملؤها الكذب والخرافة والاتهام. وإذا ما فعل بعض المحسوبين على العلماء مثل هذا فإنه من هذا القبيل وربما كان ظاهر بعض الناس عُلمائياً لكن حقيقتهم وتصرفاتهم كالعوام. علينا أن نتبع أسلوباً علمياً في كل العالم الإسلامي، لله الحمد ليست هناك مشكلةٌ فيما خص إيران من هذه الناحية، لأن الوعي في صفوف الأمة كبير وكذلك بين القوميات والمذاهب الموجودة ورغم ثلاثين عاماً من المؤامرات الأمريكية والبريطانية والصهيونية ودولارات النفط القادمة من الحكومات المرتبطة بالغرب والتي يصرفونها في البلدان الإسلامية ومنها إيران لإثارة النعرات المذهبية والقومية، ونأمل أن نشهد اليوم الذي يرتد السهم إلى نحور الأعداء الذين يحاولون زرعَ الفرقة في صفوف الأمة، خاصةً ترويج الفكر التكفيري، لله الحمد فإن علماءَ إيران من الجعفرية والشافعية والحنفية وكافة أبناء إيران واعونَ لخطط الأعداء. نسأله تعالى أن يكونوا هكذا دوماً وألا يُخدعوا بألاعيب هؤلاء.

هنا أقترحُ أن ترفع خطوةٌ إلى الأمام في إيران ولنجعل من إيران مركزاً للثورة الإسلامية بصورةٍ عامة لا أن تكون شيعيةً محضة، ذلك أن إيران باتت اليوم الملهم للعالم الإسلامي في الوحدة والجهاد ضد الكفر فلو استطاع الأعداء تمرير أهدافهم في إيران فإن العالم الإسلامي سيقول إنّ البلد الذي ينادي بالوحدة الإسلامية هو ذاتهُ يعاني من المشاكل.

وعليه فإن الآخرين سيمتنعون عن الخوض في هذا المجال وقد فشلت هذه الخطط الجهنمية في إيران حتى الآن ونسأله تعالى أن تفشل فيما بعد أيضاً، لكنني هنا أريد القول أنه ينبغي على إيران التقدم بخطوةٍ أخرى وأن نتجاوز الوحدة السياسية والوحدة العاطفية والوحدة على أساسٍ وأصولٍ كُلي.

ولو دقّقنا وتأملنا بجديةٍ في المصادر الحديثة والتفسيرية والفقهية والكلامية لكل الفرق والمذاهب لوجدنا أن موضوع الوحدة والاشتراك في المواقف يفوق ما نعرفه والوحدة في المشتركات مؤصّلة، أما الاختلافات في الواقع العملي فهي لاتعدُ كونها مباحثُ نظريةً

اجتهاديةً بين متكلمين وبين فقيهين وبين مفسّرين وبين محدّثَين وهي أمورٌ موجودة في ذات المذهب الواحد ويمكن العثور على ذلك بين الأخوة أهل السنة وكذلك داخل مذهب أهل البيت. وقد قلتُ في جلسةٍ مشابهةٍ إنّ التكفيريينَ الذين يعملون ويُنفّذون الفتنَة والوقيعةَ بين المسلمين بأموال النفطِ ويقومون بتنفيذ أوامر أربابهم الأميركيين والإنجليز كما هو الحال في العراق وباكستان اليوم وإذا نجح هؤلاء في مسعاهم لا يكتفون بالاختلافات المذهبية بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ويزرعون الفتنة داخل المذهب الواحد مثلما كان هذا الأمر موجوداً من قبل في الخلافات بين الشيعة الزيدية والشيعة الإمامية وبين الشيعة الإسماعيلية والشيعة الإمامية، ويذكر ذلك تاريخ إيران حيث كانت هناك خلافات بين الشوافع والأحناف، وكان في العراق اختلافٌ بين الأشاعرة والحنابلة حيث كان أنصار كل فريقٍ يقتلون مخالفيهم من المذهب الآخر ويبيحونَ أعراض وأموال المذهب الآخر.

فلو ظهرت الخلافات فإنها لن تقف عند حدٍ معين، ولكن الأمر إذا كان على مستوى علميّ وأخلاقيّ ودينيّ كما ذكرَ الرسول والقرآن الكريم أي: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1] هذه هيَ الاستراتيجية المنطقية التي ينبغي أن تُتَّبع والحمد لله ليس هناك في إيران خلافٌ بين مذهبين، فهناك الشوافع والأحناف أقرب المذاهب إلى الشيعة ولكلٍ من أبي حنيفة والشافعي رؤىً فقهية وكلامية قريبةٌ من مذهب أهل البيت خصوصاً عند الشافعية وفي البلاد التي تتعرض لدسائس الاستعمار اليوم مثل العراق وباكستان نرى أنّ الخلافات قائمة.

عزاء الإمام الحسين عليه السلام سنةٌ عند أهل السنة

قمتُ مؤخَّراً بزيارةٍ لباكستان وأفغانستان واجتمعتُ بكبار أهل السنة في أفغانستان وباكستان عدةَ مرات وقد شهدتُ في شهر محرَّم ومجالس عاشوراء في عدة مدن كبرى مثل كابل وهرات أن علماء أهل السنة من الحنفية كانوا في الصفوف الأولى للمعزّين، وفي إيران فالأمر طبيعي أكثر، حيث نرى علماء الأحناف والشوافع والمتدينينَ من أتباع المذهبين

١ . سورة الأنفال:٤٦

خاصةً الأخوة أتباع المذهب الشافعي[1] يشاركون في مراسم عزاء الإمام الحسين عليه السلام إلى جوار إخوانهم الشيعة وهذا الأمر في إيران. وقد امتد اليوم إلى أفغانستان وباكستان وذُكِرَ أنّ مراسم عاشوراء هذا العام قد أقيمت في أبهى صورها في أفغانستان وذلك بمشاركة علماء الحنفية إلى جانب علماء الشيعة، وكانت من أكثر المراسم من حيث المشاركة الشعبية، بعدها قيل أنّ أحد الأشخاص قدمَ من السعودية وهاجم علماء أهل السنة والحنفية في باكستان وأفغانستان وقال إنكم أخطأتم بمشاركتكم في مراسم عزاء الحسين.

لقد قال لي هذا الأمر أحد العلماء السنة الحاضرين في الاجتماع في باكستان وأفغانستان، وأضاف أنَّ ذلك السعودي قال لهم: يزيدٌ رضي الله عنه وكذا وكذا...، وأضاف هذا العالم أننا قلنا لهذا السعودي إنَّ ما فعلناه كان طبقاً لما يفعله علمائنا والسلف الصالح، وإنَّ قضية الحسن والحسين سلام الله عليهما ليست بالقضية الشيعية، وقال إنَّ أباءنا وأجدادنا كانوا على هذه الشاكلة حيث يشاركون في مراسم عاشوراء وعزاء الإمام الحسين عليه السلام.[2]

لقد هدَّدوا علماء أهل السنَّة لأنهم سوف لن يعطونهم المزيد من الدولارات إذا كرَّروا ذلك ووبَّخوهم على فعلتهم. وقال: لقد قلنا لهم هذه سُنَّةٌ نعمل بها منذُ أمدٍ بعيد، وإنَّ ما تطلبوه منَّا هو خروجٌ عن السُّنَّة، وإنَّ حكم بني أُميَّة وبني العباس والذي ترافق مع مظالمَ كثيرة لا يخص الشيعة أو السُّنَّة، فقد كان المذهبانِ ضحيةَ أهواءِ بني أمية وبني العباس، وبخلافهِ لماذا حملَ الإمام أبو حنيفة السّلاحَ في اليمن وكان إلى جوار الشيعة

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٥، باب٤٤، رقم الحديث١٢.

شعر للشافعي في رثاء الحسين عليه السلام:

تأوه قلبي والفؤاد كئيتب	وأرق نومي فالسهاد عجيب
فمن مبلغ عني الحسين رسالة	وإن كرهتها أنفس وقلوب
ذبيح بلا جرم كأن قميصه	صبيغ بماء الأرجوان خضيب
فللسيف إعوال وللرمح رنة و	للخيل من بعد الصهيل نحيب
تزلزلت الدنيا لآل محمد و	كادت لهم صم الجبال تذوب
وغارت نجوم واقشعرت كو	اكب وهتك أستار وشق جيوب
يصلى على المبعوث من آل	هاشم ويغزى بنوه إن ذا لعجيب
لئن كان ذنبي حب آل محمد	فذلك ذنب لست عنه أتوب
هم شفعائي يوم حشري وموقفي	إذا ما بدت للناظرين خطوب

٢ . تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي، ص ٤٢٥، (تاريخ اقامة مجلس العزاء للحسين عليه السلام عند اهل السنة)

وإلى جانب العلويين وأهل البيت وإلى جانب يحيى بنِ عبدالله الزَّيدي من أحفاد الإمام الحسين وأبناءِ الإمام السجَّاد عليه السلام، ويتبين من ذلك أنَّ قضيةَ بني أمية وبني العباس وحتى موضوعَ مُعاوية وما بعدهُ لا ربط لها بالشيعة دونَ السنَّة.

وفي باكستان جلستُ مع مسؤول حزب الجماعة الإسلامية التي تُعدّ من كبارِ أحزابِ باكستان المعتدلة وهم أصحاب ماضٍ إسلاميٍّ عريق وهو ذات الحزب الذي أسسهُ أبو الأعلى المودودي فقالوا: إنَّ آثار أبي الأعلى تشير إلى أنَّ ما حصلَ في كربلاء يُعدُّ هجوماً على أصل الإسلام وأساسهِ وإنَّ قتلَ الحسين بنَ علي يُعد كمن يرمي أصلَ الإسلام وأساس التوحيد والقرآن، ويقول إنه لا يعتبر الحكم من معاوية فما بعدهُ على صلةٍ بالإسلام، ولا يرون في أُولئك خلفاءً مسلمين أي بعد ما يُطلِقونَ عليهم الخمسة الأوائل أي إنهم لا يرونَ في بني أمية وبني العباس حكماً إسلامياً. هذا هو تعبير الإمام أحمد بنِ حنبل إلى أبي الأعلى المودودي في تاريخنا المعاصر.

وعندما انتصرت الثورة انتقلَ المودودي وهو من كبار علماء الحنفية إلى رحمة الله، وكان من أوائل الذين باركوا للإمام انتصار الثورة، حيث ذكرَ أن الثورة الإسلامية هيَّ هدية لكل المسلمين والعالم الإسلامي وإننا إلى جانبكم.

بعد العدوان الصهيوني على جنوب لبنان وفي تلك الأيام خرج مفتي البلاط السعودي ليقول أنه لا يحق لأحدٍ أن يساعد حزب الله في حربه مع اليهود، لأن هؤلاء شيعةٌ وليسوا من السنَّة، بالطبع كان هذا الرأي هو رأيَ أربابهِ الأميركيينَ والبريطانيين، لأنهم أولي أمره، والولايات المتحدة وبريطانيا والصهيونية أولي أمر وعَّاظ السلاطين في السعودية، وإلا فما بالكم مع حركة حماس في غزة حيث مولد الإمام الشافعي وهوَ فلسطينيٌّ و غزاويٌّ فهل أنَّ من يُقتلونَ في مدينة الشافعي وكانوا تحت القصف الصهيوني على مدى شهرين لم يكونوا من أبناء السنَّة؟ لماذا يا واعظ السلطان لم تدافع عنهم؟

ففي نهاية المطاف هناكَ بعض الاختلاف في بعض المسائل بين الفرق المختلفة مثل: الجعفريةِ والحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، ولا ريبَ أنَّ البعضَ على خطأ والبعض الآخر على صواب لكن الكل يقول أنه يريد العمل وفقَ سنةِ الرسول صلى الله عليه وآله، حتى نُقلَ عن الأئمةِ من أهل البيت عليهم السلام: «إنَّ من يعمل بالحجة العقلية والشرعية في حدِ استطاعتهِ

فإنهُ غيرُ مأثوم حتى ولو كان مُخطأً، لأنَّ أبناءَ آدم خطّاءون...»[١].

أي أنَّ الإنسان إن أخطأ في طرق العبادة أو الكلام إلا أنهُ معذورٌ عندَ الله لأنهُ تحرك بصدق نيةٍ وإخلاص لكنه أخطأ الهدف.

ينبغي أن تقومَ استراتيجيتُنا على البحث في الكلام والفقه والتفسير والحديث والسُنَّة والقرآن والتّاريخ، والحوار العلمي والأخوي يجب أن يقومَ أيضاً على أساسِ المستنداتِ لا أدب التكفير أو أفكار عامة الناس ووحدة الأصول. وهناكَ تبدو المشتركات أكثر من عدمها. وينبغي على المسلمين ونحن نعيشُ ذكرى ولادة الرسول حيثُ تتجددُ فكرة الوحدة أن يكونوا يقظين لمؤامرات الكفار والغرب الَّذين يُحاولونَ زرع أنواع الفتن في صفوف العالم الإسلامي، تارةً باسم الفرقِ والمذاهب، وتارةً باسمِ القوميات والشّعوب، وهم يواصلونَ إشغال المسلمين بأنفسهم على مدى قرنين من الزمن. وعلينا أن نخرج من دائرة المؤامرة الغربية وأن نتقدمَ خطوةً باتجاهِ إشغال الكفار بأنفسهم وأن نعملَ على إعادة عظمةِ الأمة الإسلامية وحضارتها العريقة وأن نخرج من سلطة الغربِ من سلطة الكافرين. ففي يومنا هذا أصبحنا نُقلدُ الغربَ في لباسنا وصِناعتنا وجامعاتنا وإعلامنا وثقافتنا وفي كل شيءٍ تقريباً.

الوهابية خطرٌ على كل المذاهب

القضية المُهمة هي أن نعودَ إلى هِويتنا الإسلامية بالاعتمادِ على القرآن والسُنَّة، وعندما نقولُ نحنُ العودة إلى سُننِ أهل البيت فهيَ من سُنة الرسول لا فرق، ولا ينبغي تكرارُ جملةِ أيُّها المسلمون علينا أن نتَّحد وأنَّ الوحدة أمرٌ محُبَّب. نعم هيَ كذلك لكنها أصبحت من الدّروس الابتدائية.

لقد مرَّ ثلاثونَ عاماً ونيِّف على انتصار الثورة الإسلامية ورغم أنَّ الأمرَ ينبغي تَكرارهُ حتى بعدَ ثلاثمائةِ عامٍ لكن هذه المقولة تعتبر قاعَدة التوافق. علينا أن نبلغ السقفَ في شِعار الوحدةِ الإسلامية. بالطبع أُعيدُ وأُكرّر أنه ما من مشاكل تُعيقُ طريقَ المذاهب في إيران، فهناك وحدةٌ والحمد لله ويتم التحاور على الدوامِ خاصةً مع الأخوة من أتباع المذهبين الشافعي والحنفي.

---

١. اصول الفقه، محمدرضا المظفر، ج ٢، ص ١١٥.

ربما كانت هناك بالطبع بعضُ الاختلافات مع الحنابلةَ، فهم يختلفون مع الجميع، وهنا لا أقصدُ كُلَ الحنابلة ولكن خرجَ منهم الوهابيون الذين لا يقبلونَ بأي مذهبٍ من مذاهب أهل السُنَّة الذين ليسوا على خلافٍ مع الشيعةِ وحسبْ، وأتصورُ أنكم تحدثتم مع بعضهم، فلو سألتموهم أيُّ مذهبٍ فقهيٍّ تتَّبعون الفقه الحنبلي أم الشافعي أم المالكي أم الحنفي؟ فإنَّ جوابهم سيكون لا نتبعُ أحداً من هؤلاء! وسيقولونَ نتبعُ الكتابَ والحديث. حسناً فالشافعي وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل يقولونَ الكتابَ والحديث أيضاً وعندما يعودُ سائرُ المذاهب إلى الأولياء والصحابة والعلماء. يعودُ هؤلاء إلى محمد بن عبد الوهاب لكنهم يُصرِّحون أنهم لا يتَّبعونَ أحداً لكنهم يتَّبعونَ محمد بن عبد الوهاب. حسناً فلتتبعوا من ترغبون نحنُ لا نكفركم ولكن اتركوا المسلمينَ وما يختارون. ليكن الشافعي تابعاً للإمام الشافعي والحنفي لأبي حنيفة والجعفري للإمام جعفر الصادق.

تأسيس غرفة علمية مشتركة

إننا نعيشُ عصرَ إعادة المجد لأمةِ الرسول الأعظم، وأكبرُ الوظائف للمسلمين في هذه الظروف هو الاهتمام بالمشتركات الكثيرة بين الأمةِ الواحدة على أن نتركَ السطوحَ ونتوغل في أعماق الوحدة والمشتركات. وينبغي لعلماء سائر المذاهب أن يجلسوا ليعطوا آرائهم وأفكارهم حولَ الاقتصاد وكيفَ ينبغي أن يكون. وكيف ينبغي أن يكونَ نظامُ التربية الإسلامية وطبيعة النظام في إطارٍ من المباحثِ العلمائية والحوزوية، لأننا باختصار نعاني اليوم من الحضارة العلمانية والتي ترفضُ الكتابَ والسُنَّة من الأساس وإنها لا تقبلُ بمبدأ النبوة. هم يقولون إنَّ عصرَ الدين قد انتهى وقد تمَّ رميُّ الدين في سلةِ المهملات! ويقولونَ لقد انتهى الدين والتفكيرُ الديني! إنَّ مشكلتنا الأساسية تكمن اليوم في تسلط الغرب على العالم الإسلامي وعِوضاً أن يجلسَ علماءُ ومُفكّرُو العالم الإسلامي للنظر فيما هم فاعلون وكيف يمكن التخلص من السلطة الثقافية والاقتصادية والسياسية والإعلامية والأخلاقية والنظرية والمعارفية للغرب، وكيف نبحثُ عودة الحضارة الإسلامية نعودُ بعدَ ثلاثينَ عاماً لنقول: هيَّا بنا إلى الوحدة لنتمسَّك بالوحدة. هذه الأمور من البديهيات علينا أن نتقدم عشرَ خطواتٍ أُخرى.

أمَّا النقطةُ الأخرى أيها الأخوة فهيَ أننا لا نُريدُ وحدةً مُصطنعةً وتَشريفاتية. الوحدة

ينبغي أن تكونَ ضاربةً في عمق الأفكار الدينية للمذاهب الإسلامية المختلفة وفي التاريخِ والسُنَّة والوحدةُ في الأصول وكذلكَ في بحث الاختلافات، وبتصوري أنَّ بحثَ ذلكَ لن ينالَ من أحد ولا ينبغي أن يكونَ كذلك.

وأريدُ من خلال هذا المنبر أن أطرحَ هذا الموضوع، وهو أن يجلسَ العلماءُ مع بعضهم البعض ويتحاوروا وينبغي أن نؤسس غرفةِ حوارٍ مشتركةٍ بين المذاهب الجعفرية والشافعية والحنفية في إيران، ومن خلال هذا المنبر أدعو وبِبَركةِ الرسول ﷺ أن يتم التأسيس لهذهِ الغرفة، ولتكن مركزاً للمطالعات الفقهية والكلامية في باب التفسير والقرآن والحديث. ولنجلس مرةً واحدة حولَ بعضنا البعض ونبحثَ الأمور على شاكلةِ طلبةِ العلوم الدينية. ولو حصلَ مثلُ هذا الأمر فإنَّ الناتجَ حتى ولو كانَ هناكَ تفاوتٌ واختلافٌ فلا بأس، لأنه ناجمٌ عن عمل كبار العلماءِ في كلِ فريق، وليتمَّ ذِكرُ موارد الاختلاف والحُجِجِ والاستدلالات وسوفَ تَرَوْنَ أنَّ لا شيءَ سيكونُ خطراً، لأنَّ الأمرَ تمَّ بينَ مجتهدَينِ فهما يعرفان أنه لا ينبغي لأحدها أن يُكفِّرَ الآخر.

وعندما يكون البحثُ بهذه الطريقة سنشاهدُ أيها الأخوة مواردَ الاتفاق والاشتراك وما أكثرها ولو اختلفنا في موردٍ أو أكثر فإنَّ السماءَ لن تنطبقَ على الأرض. المهم أن نعرفَ موارد الاختلاف ولكن بروحٍ علميَّةٍ وواعية وأن نفهمَ موارد الاتفاقِ أيضاً. وعندما يكون هناكَ اختلافٌ فهو ناتجٌ عن رؤيةٍ علميةٍ وليسَ عَبثيَّة وهذا هو المهم، ويُعَدُ هذا المَحفِلْ لو انطلقَ أُنموذجاً جيداً لكل العالم الإسلامي ويمكن أن يؤدي إلى نتائجَ إيجابيةٍ على مستوى العالم ويُمكنهُ أن يرفعَ الكثيرَ من نقاط سوء الفهم. وربما كانت التعابيرُ في بعض الأحيان مختلفةً لكنها واحدة في المعنى. حتى ولو أنَّ هذه الاجتماعات ترافقت مع بُحوثٍ حاميةٍ وتخللها رفع الأصوات فلا ضيرَ، لأنها مباحثُ عُلمائية. قيلَ إنَّ البعضَ كانوا يمرونَ أمامَ طلبةِ العلوم الدينية في قُم ومشهد وإذا بهم يواجهونَ مباحثَ الطلبة فيما بينهم والتي قد تصلُ أحياناً إلى حدِّ التلاسن ورفع الأصوات على بعضهم. هيَ من ظاهرها هكذا لكن الناسَ لا يُدرِكونَ ذلك وهم يَرونَ أنَّ الطلبة يتشاجرون وكلٌ يَكيلُ للآخرَ ألقاباً ويتهمهُ بعدم الفهم. ذاتَ مرةٍ ذكروا أنَّ أحد الأشخاص شَهَدَ مباحثَ الطلبة فذهبَ إلى آخرينَ وقالَ إنَّ هؤلاء يتشاجرون وسيقتل أحدهم الآخر وعندما رَجَعَ إليهم رأى أنَّ الشِّجارَ

قد انفضَ وجلسَ الاثنانِ يرتشفانِ الشايَ معاً ويتحدثان ويضحكان سويةً. فسألَ أيُّ الصورتين هيَ الصحيحة؟ فقالَ له الاثنان معاً: هناكَ كنا نتباحثُ في مسألةٍ شرعية وهنا نحنُ أصدقاء بعدَ المُذاكرةِ والبحث. ينبغي إحياءُ هذهِ الثقافة أيها الأخوة فليسَ فيها أيُّ ضَرر، وهيَ تُقربنا إلى الوحدةِ المنشودة أكثرَ فأكثر. وليتضح هنا كم هيَ المشتركاتُ بين السُنَّة والشيعة.[١]

هم أهل البيت عليهم السلام؛ نقطة التقاءنا

وينبغي أيضاً أن نفصلَ بين الغُلاة والمُفرطين، وأقصدُ غلاةَ الشيعة، فهناك غلاةٌ من العوام وهناكَ مُفرطونَ من أهل السُنَّة خاصةً الوهابيين، بالطبع عندما نقولُ وهابيين فنحنُ لانقصدُ عامةَ الوهابيين، فالبعضُ منهم يرفضُ نهجَ التكفير، لقد جلستُ إلى بعضِ عُلمائِهِم وأشرفتُ على رؤاهم في أكثر من مرة توجهتُ فيها إلى الحج حتى إنَّ البعضَ يجهلُ بعضَ تصرفات المفرطين من الوهابية، أمَّا التكفيريون فهم فئةٌ خاصة وأنموذجٌ خاص.

هم يتحركونَ بواسطةِ دولارات النفط بدعمٍ أمريكيٍّ وبريطانيٍّ في المنطقة، هؤلاء يَنسِفونَ الوحدةَ بين السُنَّة والشيعة وهم ضدَّ الشيعةِ والسُنَّة على حدٍّ سواء، لكنهم يتقدمونَ خطوةً بخطوة، وفي نفس الموقف حيثُ يتحدثونَ عن الخلافات ويمكن الردُّ عليهم بالقول: إننا مُتحدونَ حولَ القرآن والسُنَّة، واختلافنا في مسألةٍ تفسير أهل البيت، وبتصوري أنَّ أهلَ البيت هم نقطةُ الاتحاد القوية خاصةً من قبل المذهب الشافعي وأهلُ البيت من الأدوات الأساسية للوحدة. نعم بخصوصٍ من يشملهم أهل البيت وهل ينبغي أخذُ الفقه منهم أم من أشخاصٍ آخرين. هناك اختلاف، هذا هو الخلافُ العلمي، ولكن بخصوص حبِّ أهل البيتِ وحرمتهم، كلنا يعرف الأشعار التي نُسبت للشافعي في حُبِّ أهل البيت، حيث يقول: ليشهد العالم إنّني رافضي. عندما كان يُوصَفُ الموالي لأهل البيت بالرافضيّ وواضحٌ من هم المقصودونَ بأهل البيت ولا يعني هذا أنَّ حُبَّ أقارب الرسول أو زوجاته، فلم يُعتَبَرُ أحدٌ أنَّ مُحبَّ زوجات الرسول هو رافضي.

إنَّ مسألةَ أهل البيت عند الإمام الشافعي إضافةً إلى أشعارهِ المشهورة نُقلت في مصادر

---

١ . للمزيد من المعلومات راجع هذه الكتب: الخلاف، للشيخ الطوسي؛ الفقه على المذاهب الخمسة، محمد جواد مغنيه؛ الفقه على المذاهب الأربعة ومذهب أهل البيت عليهم السلام، عبدالرحمن الجزيري.

الشيعة وأهل السُنَّة على السواء،[١] حيثُ أوردَ العلامة المجلسي في بحار الأنوار أنَّ الشافعي كان يقول: قبرُ موسى بن جعفرٍ الترياقُ المجرب[٢]، هذا هو موقف الإمام الشافعي من زيارة أضرحة أهل البيت عليهم السلام حيثُ يؤكدُ أنَّ الشفاءَ عند زيارتهم. ويمكن لكم أن تُقارنوا بين هذا الموضع ومن يُجاهر اليومَ بأنَّ زيارة قبور الأولياءِ بدعةٌ وأنَّ زيارة مرقد الرسول أمرٌ فيه نظر وهوَ محلُ شكٍ وشُبهة.

هذا الوصفُ كان من الأهمية بمكانٍ أن نُقلَ في المصادر الشيعية، ولم يُذكَر هذا الأمر لمرةٍ واحدة وحسب، بل تكرَّرَ ذِكرهُ في عدة مواقف، أي أنَّ الله سبحانه وتعالى يُشافي المرضى بحرمةِ أهل البيت عليهم السلام. إنَّ هذا نموذجٌ لعالمٍ سنيّ وهكذا ينبغي أن يكون.

لاحِظوا إنَّ المباحثَ عندما تصل إلى عامة الناس فإنها تُحوَّر وتتبدَّل ويوضعُ منها ما يوضع، لكننا عندما نعودُ إلى بحث العلماء وأصحاب الفن، نرى أنَّ المواقف ليست التي نعرفها، حيثُ نُسبَ إلى الإمام الشافعي قولهُ: لولا عليٌّ لما عُرفَ من الأحكامِ شيء[٣] ورُغم أنَّ ثلاثَ حُروبٍ فُرضت على الإمام في فترة حُكمه التي استمرت خمسةَ أعوام إلا أنَّ فترةَ حُكمه حافظت على الأحكام. بالطبع فإنَّ لهذا الكلام أهميةٌ خاصة لأنه صدرَ عن عالمٍ صاحب مدرسةٍ في الفقه والفتوى. وهناكَ رسالةٌ سياسيةٌ في هذا الموقف الذي ينمُّ عن الروح العلوية وحبِّ أهل البيت عند الإمام الشافعي حيثُ يرى أن معاوية واصحابه كانوا كالفئة الباغية.[٤]

ولقد وردَ في مسند الإمام أحمد بن حنبل وفي سُننْ الترمذي وفي معجم الطبراني الكبير والكثير من المصادر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: أنهُ أخذَ بيد الحسن والحسين سلام الله عليهما وقال: «من أحبني وأحبَّ هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يومَ القيامة».[٥]

---

١ . ديوان الإمام الشافعي، ص٩٣؛ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٠، ص٥٨.

٢ . بحار الأنوار، ج٤٨، ص٣١٨؛ تحفة العالم في شرح خطبة المعالم، آية الله السيد جعفر بحر العلوم، ج٢، ص٢٢؛ أمالي ابن سمعون، ابوالحسن محمد بن احمد بن اسماعيل بن عنبس البغدادي، ج١، ص ١٢٥.

٣ . راجع: كتاب الشافعي، ص ٩١.

٤ . راجع: نفس المصدر، ص ٩٠.

٥ . مسند احمد حنبل، ج١، ص٧٧؛ السنن الترمذي، كتاب المناقب، باب٢١، ج٥، ص ٦٤١ و ٦٤٢؛ المعجم الكبير للطبراني، ج٣، ص٥٠، حديث٢٦٥٤.

وجاءَ في مُسند أحمد بن حنبل ومُستدرك الحاكم ومعجم الطبراني عن أبو سعيد الخدري: أنَّ النبي ﷺ دخلَ على فاطمة رضيَّ الله عنها وقال: «يا فاطمة إني واياكِ وهذا النائم ـ أي الإمام علي عليه السلام ـ وهما ـ أي الحسن والحسين ـ لفي مكانٍ واحدٍ يومَ القيامة»[١].

وجاء في سُنن إبنِ ماجة والسُنن الكبرى ومسند أحمد بن حنبل والمعجم الأوسط للطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «من أحبَ الحسن والحسين فقد أحبَّني ومن أبغضهما فقد أبغضني».[٢]

وعندما يقول الرسول ﷺ إنَّ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة،[٣] لا يمكننا القول إنَّ معاوية ويزيداً وبني أمية وبني العباس اجتهدوا أو أن نقول تقبل الله منكم يا مَنْ ذبحتم الحسين، وهذا يُخالفُ العقل والشرع، وفي هذا تكذيبٌ للرسول الأكرم ﷺ وهوَ يتعارضُ وصريحَ عبارة الرسول.

لقد جاء في مُسند أحمد بن حنبل ومعجم الطبراني وأمثالهما من أمهات كتب أهل السُنَّة عن عليّ عليه السلام قولَهُ: «شكيتُ إلى رسول الله حسدَ الناسِ إياي. فأجابَ الرسول أما ترضى أن تكونَ رابعَ أربعةٍ وأنَّ أولَ من يدخل الجنة أنا وأنتَ والحسن والحسين»؟[٤]

وهنا أُعيدُ وأقول رداً على بعض الذين يقولونَ إننا نختلفُ في أهل البيت، أقول إنَّ أهل البيت هم مدعاةُ وحدةٌ خاصةً عند مذهب الإمام الشافعي، ومن الناحية السياسية فإنَّ الإمام أبو حنيفة وقفَ إلى صفِ أهل البيت وحاربَ إلى جوارهم.

ويمكن لنا أن نتساءل لماذا أقدمَ الإمام أبو حنيفة على اتخاذ هذا الموقف ووقف إلى جانب زيد بن علي بن الحسين وحملَ السلاح ضدَّ حكام البغي؟[٥] لم تكن المعركة بين شيعةٍ وسُنَّة، فقد وقفَ الشيعة والسُنَّة في صفٍ واحد وقد تأزَّمت الأمور في صدر الإسلام

---

١ . مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٠١؛ معجم الكبير الطبراني، ج ٣، ص٤٠، ٤١، ح ٢٦٢٢؛ المستدرك الحاكم، ج٣، ١٣٧.

٢ . مسند أحمد بن حنبل، ج ٢، ص٥٦١، حديث ٧٨١٦؛ سنن ابن ماجة، ج ١، ص٥١، رقم الحديث ١٤٣؛ المعجم الكبير الطبراني، ج ٣ ص٤٠ رقم الحديث ٢٦٤٥؛ الجامع الصغير السيوطي، ج ٢، ص٥٠٧ رقم الحديث ٨٣١٨.

٣ . الامالي، الشيخ الصدوق، ص ٥٧؛ قرب الإسناد، عبدالله بن جعفر الحميري، ص ١١١؛ السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، ج ٧، ص ٣١٨.

٤ . مسند احمد بن حنبل، فضائل الصحابة، من فضائل علي؛ مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٩، ص١٣١.

٥ . مقاتل الطالبيين، ص١٤١؛ الأنساب والأشراف، ج٢، ص٢٣٩.

الأول، حيث نُقلَ عن الإمام مالك نقلاً عن عمهِ أبي سُهيلٍ عن والده يقول: لقد أضرَّ بنو أمية وبنو العباس بالإسلام أيما ضررٍ، وقال: لا أعرفُ شيئاً مما أدركتُ الناسَ عليه إلا نداءٌ في الصلاة[١]. فقد انتهكَ هؤلاء الإسلام وحرَّفوهُ ولم يبقَ منه غيرَ النداءِ للصلاة حيثُ اضطرَّ الإمام مالك إلى إيرادِ هذا الحديث والرواية.

وقد ذكرَ الإمام أحمد بن حنبل أنهُ لا يعتبرُ فترةَ معاوية وما بَعدهُ فترةَ خلافةٍ راشدة بل حكماً ملكياً وسلطنةً[٢] ولا ربطَ لهما بالإسلام والخلافة الإسلامية، فلقد غيَّروا حتى الصلاة، وكان هذا تعبيرُ الإمام الشافعي وقد وردَ هذا التعبيرُ في كتاب الأعلام وهناكَ مبحثٌ في ذيلِ الكتاب وهو ذاتُ الموضوع الذي أشارإليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن بني أمية وأنَّ هؤلاء يفعلون أشياء لن تُبقيَ من الإسلام إلا اسمه ومن الكتاب إلا رسمه.

لاحظوا كم هيَ متقاربةٌ وجهات النظر والتصوُّرات حولَ ما يفعلهُ بنو أمية وهوَ ذاتُ الشيء الذي قاله الإمام الحسين ليزيد: «إنَّ مثلي لا يُبايعُ مثلك ولو فعلتُ فعلى الإسلام السلام»[٣]. وهيَ ذاتَ التعابيرالتي استخدمها الإمامُ أحمد بنِ حنبل وذاتُها للإمام الشافعي. وعندما يقول الحسين إنه لو بايعَ يزيداً فعلى الإسلام السلام[٤]، ليسَ هناكَ عراكٌ سنيٌّ شيعي، فلم يتم طرح المباحث المذهبية لا في زمان الحسن ولا الحسين ولا موسى بن جعفر وحتى في زمن الإمام الجواد والهادي عليهما السلام.

فقد كانَ هناكَ عنوانٌ للصراعِ بين أهل البيت وبني أمية وبني العباس. وفترةَ الخلفاء الراشدين غير محسوبة في هذا الصراع، ولم يكن الأمرُ صراعاً سنياً شيعياً منذُ معاوية وما بعدَ معاوية، بل كان الصراع بين الإسلام والكفر. وكان صراعاً بين أهل البيت وأعدائهم حيثُ قال الرسول: «أنا حربٌ لمن حاربكم وسلمٌ لمن سالمكم»[٥].

---

١ . صحيح البخاري، ج١، الكتاب العاشر، رقم الحديث٥٠٧ (دخلت على أنس بن مالک بدمشق وهو يبكي فقلت له: ما يبكيک؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت)؛ فتح الباري، ابن رجب الحنبلي، ج٣، ص٥٦-٥٧.

٢ . النزاع و التخاصم فيما بين بني أمية و بني هاشم، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ص٧٠.

٣ . مقتل الحسين الخوارزمي، ج١، ص ١٨٢.

٤ . اللهوف، سيد بن طاووس، ص٩٩؛ بحار الأنوار،ج١، ص ١٨٤؛ مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، ج ١، ص ١٨۴.

٥ . فرائد السمطين، صدر الدين إبراهيم بن محمد بن مويد الجويني، ج٢، ص٤٠، رقم الحديث٣٧٣؛ صحيح ابن حبان، ج٢، ص١٨٥، رقم الحديث٦٩٣٨.

وهنا أريدُ التأكيد مرةً أخرى على أنَّ أهل البيت هم عاملٌ مساعدٌ لوحدة المسلمين وأريدُ التنبيه إلى أنَّ بعض الشيعة وطلبة العلوم الإسلامية لا يعرفونَ المصادر وكذلك الأمر مع الأخوة من أهل السُنَّة، وفي هذا قُصورٌ يرجع إلى الطرفين وعليه نرى أنَّ الطرفين يقولانِ أموراً غيرَ دقيقةٍ وينسبانِ أموراً لكبار علماء الفريقين وهنا أودُّ الحديثَ عن الإمام الشافعي، حيثُ يمكن أن يكونَ نموذجاً جيداً بين علماء الإسلام وعلماء أهل السنَّة بخصلَتين. الأولى في أفكاره الحرة حيثُ طالعتُ ذلكَ ووصلتُ إليه كمحققٍ تاريخي. والثانيةُ في رؤية الإمام إلى أهل البيت، وهناكَ تعبيرٌ للإمام الغزالي حولَ عدم تعصب الإمام الشافعي، ويذكر أنّ هناك كانَ صديقاً للشافعي وتلميذاً حميماً يُدعى مُحمد، وكان الجميعُ يتأملُ أن يُعلنهُ الشافعي خليفةً لهُ، لكنهُ اختار أبا يعقوب من بعده، ولو كانَ متعصباً لكان قد وضعَ محمد لكونه أقربَ إليه من الآخر، وبعدَ فترةٍ تركَ محمدٌ المذهبَ الشافعي وعادَ إلى المالكي، أمّا أبو يعقوب فباتَ مُنعزلاً لكنهُ في العملِ حاولَ أن يكونَ على أساس المِلاك العلمي.

الزيارةِ والشفاعة والتوسل

مع التأملُ في هذه الموضوعات نجد أن السُنَّة يقولونَ بما نقول نحن في الروايات الشيعية، وعلينا أن نخوضَ بذلك في غرف المناظرة والبحث العلمي، ولكن شتانَ بين أفكارِ أشخاصٍ مثلِ محمد بنِ عبد الوهاب والشافعي في الفقه والكلام والأخلاق الشخصية والحرية. ولو حصلَ ذلكَ أتصور أنَّ أتباعَ محمدِ بن عبد الوهاب لا يقبلونَ بالإمام الشافعي أصلاً، ولا بأبي حنيفة، ولو ذهبتَ الآن إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي حيثُ كنتُ في العام الماضي في الحج ترى تدريس الكلام والفقه في المسجد الحرام ومسجد النبي حيثُ كنتُ أواظبُ كلَ يومٍ قبل وبعد الصلاة للاستماع إلى المحاضرات الدينية، لكنني لم أسمع محاضرةً واحدةً يتحدثونَ فيها وفقَ المذهب الشافعي، ولو أنَّ أحداً منكم شاهدَ ذلكَ فليخبرني. إنَّ الفكرَ السائد أيها الأخوة اليوم هو أنَّ من ينادي يا رسولَ الله فإنه يكون مشركاً ومن يقسمُ بالنبي وآل بيته يكون خارجاً عن الملَّة ومن يزور قبور الأولياء فهو كافر.

إنَّ هذه الأدبيات الموجودة تختلف اختلافاً جذرياً مع ما يقوله الإمام الشافعي من أن قبر موسى بن جعفر هو الترياقُ المُجرَّب وأينَ هو اليوم ممن يقول أنه رافضيٌّ لأنه يحبُ أهلَ البيت؟

إنَّ وجهةَ نظر السعوديين تقول: إنَّ من يقول يا محمد أو يا علي فهو كافرٌ ومُشرك، لكنه إذا قال يا أمريكا يا إسرائيل فهو موحِّد! ومن يزور قبور الأولياء فهو كافر! لكن من يزور البيت الأبيض ولندن فذاكَ من المُستحبات، ومن يستشفعُ بأهل البيت والرسول فهو مُشرك، أمَّا التشفُّع بإسرائيل فهو مُستحب، ومن يريد الشفاعة بنظرهم فليذهب عندَ الصهاينة إنهم أولي الأمر، ونلمسُ هذه التصرفات في أعمالهم وأقوالهم وإنَّ من يقف إلى جانب إسرائيل ويعمل على قتل المجاهدين السُنَّة في غزة ويقضي عليهم عبرَ القصف فهوَ مسلمٌ خالص؟

وعليه فأموال النفط وأموال المسلمين حلالٌ على الأفراد الحربيين المعادين للإسلام ولقمةٌ سائغة وحليبٌ طاهرٌ في فم الأعداء، لكن الدفاع عن المسلمين في لبنان وفلسطين وأفغانستان والعراق فهيَ بدعة والاهتمامُ بحجرة النبي شرك، أي مجرد النظر إليها بدقة لا أدري من أينَ جاؤوا بهذه الفتاوى والأحكام وتقبيل القرآن الكريم حرامٌ، لكن تقبيلَ أيادي الإنجليز واجبٌ شرعي. أينَ هذه الأوصاف والنُّعوتُ من تصرفات وأحكام وأقوال الإمام الشافعي الذي كان يرى أنَّ الجهاد في ركابِ أهلِ البيت ضدَّ بني أمية وبني العباس ثوابٌ ومن يُقتل مع أهل البيت ضدَّ الأمويينَ والعباسيين فهوَ في صفِ شهداء بدرٍ وأُحُد، هذه أحكامُ وآراءُ أبي حنيفة والشافعي، لكننا اليومَ نواجهُ من يقولُ إنَّ الفرحَ لِذكْرى ولادة الرسول والحزن لذكرى رحيلهِ حرام؟[1]

كنتُ ذاتَ مرةٍ في مسجد النبي، وقد جلستُ بعدَ إحدى الصلوات لِأستمعَ إلى درسٍ فقهيّ لشخصٍ كانَ فاقداً للبصر وكانَ أعمى القلبِ أيضاً، وقد وضَعَ نظارةً سوداءْ، وكانت المناسبة ذِكرى مولد النبي الشريف وإذا بي أسمعهُ يقول من خلال مذياعٍ بيدهِ إنَّ هناكَ من يحتفل بذكرى مولد الرسول وهذه بِدعة ولو فعَلَ المسلمُ ذلك إصراراً فإنَّ مالَهُ وعِرضَهُ حلالٌ للآخرين!! وبعدَ أن أنهى درسه توجهتُ إليهِ قائلاً: لو سمحتَ لي أريدُ أن أستوضحَ نقطةً مُعيَنة ... سألتهُ ما معنى البدعةَ بنظركم؟ فقالَ: كلُ شيءٍ لم يكن موجوداً في السُنَّة... فقلتُ إنَّ كُلَ شيءٍ لم يكن موجوداً في زمن الرسول فهوَ بِدعة؟ فقالَ: بلى. فقلتُ

---

١ . المورد فى الكلام على عمل المولد، تاج الدين الفاكهاني؛ الانصاف فيما قيل فى المولد من الغلو و الإجحاف، ابوبكر جابر الجزائري.

لـهُ: إنَّ وقوفَكـمْ خلفَ المذيـاعِ بِدعـة لأنَّ الرسـولَ لم يفعـل ذلـك، وإنَّ النظـارة الـتي تَضُعهـا على عينيك هيَ بدعـةٌ لأنهـا لم تكن موجـودةً في زمن الرسـول، وعليه فإنَّـكَ تـأتي بالبدعِ يـا شيخ. وبدلاً من إجابتي أمسـكَ بيدي وصـاحَ بأعلى صوته أتَسْبُّ الصحابة؟ وفجأةً جاءَ أربعةٌ من أزلام الشرطة وقالوا ماذا حصل؟ قلتُ لهـم سألتهُ عن البِدعة في الممارسةَ الحالية للمسلمين، وقلتُ للشرطة أنـه كيفَ يمكن أن يكـون الاحتفـالُ بمولـد الرسـول بِدعـة؟ فقـالَ من فعلَ شيئاً ليسَ على عهد الرسـول فهوَ بِدعة. وهـذا يعـني أنَّـه كانَ ينبغـي للرسـول أن يحتفـلَ بعيـدِ ميلادهِ ليُصبحَ الأمرُ سُنةً، وأصررتُ عليه أن يُعرفَ لي معنى البدعـة، وقلتُ لـه إنَّ الإمـامَ الشـافعي عرَّفَ البدعـةَ والسُـنَّة مثلمـا عـرَّفَ ذلـكَ الإمـامُ الصـادق ... ومُفادُهـا ليـسَ كلُ مـالم يكـن موجـوداً في السُـنَّة فهـوَ بِدعـة، والأدقُّ أن نقـول إنَّ كل مـا هـوَ ليـسَ في السـنَّة وننسبهُ إليهـا فهوَ بِدعـة. وعليه فـإنَّ الأمورَ الغيرَ الموجـودةَ في العبادات ولا تتعـارضُ مع ضوابط الدين فإنَّ القيامَ بها طبقاً للضوابط الشرعية لاتُعدُّ بدعةً، وهـذا بالتحديـد رأيُّ الإمام الشـافعي[1].

أمَّـا الـرأيُّ الوهـابي فهـو يتعـارضُ تمامـاً مـع رأي أبي حنيفـة والشـافعي، لا أسـتطيعُ تَقبُـلَ الأمـر، كيـفَ تبـدو زيـارة قبـر الرسـولِ وأهـل البيـت شـركاً وخروجـاً عـن الملَّـة؟ لكـنَّ التمـاسَ التعامـل مـع الإنكليـز والأمريكيـينَ واجـبٌ شـرعي.

لا أدري كيفَ يتعامـلُ هـؤلاء مع رِواياتٍ دامغـة، علـى سـبيل المثـال مـا جـاءَ في صحيـح البُخـاري المُجلَّد ٤ الصفحة ٢٢٩، حيثُ نُقلَ أنَّ الرسول ﷺ كانَ في طريقه إلى البطحاء وقد توضـأ وصـلى صـلاة الظهر ركعتين قصـراً وكذلـكَ في صـلاة العصـر، ثمَّ يقـول قـامَ النـاس وأقبلـوا على يـد الرسـول يُقبلونهـا ويمسحونَ بهـا علـى رؤوسـهم ووجوههـم، وكان النـاس يتسـابقون علـى تلقف قطـرات المـاء الـتي تسـقط مـن يـد ووجـه الرسـول، فهـل في هـذا شـركٌ وبِدعـةٌ وحـرام؟ ويقـول الـراوي إنـه أخـذَ بيـد الرسـول ووضعهـا علـى وجهـه وكانـت ذاتَ رائحـةٍ زكيـةٍ كالمسك.[2]

وفي صحيـح البخـاري المجلـد ٢ الصفحـة ٤١١ .. أنَّ النـبيَّ كانَ إذا مـرَّ بشـهداء أُحُـدْ ألـق

---

١ . كتاب الرسالة، ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي، ص٥٩٧-٥٩٨.

٢ . صحيح البخاري، ج٤، ص٢٢٩.

عليهم التحية ودعا لهم[١]. انظروا ماذا يقول الوهابيونَ في هذا:

فالأموات تتبدلُ عِظاماً لما ينبغي على الرسول ﷺ أن يُسلمَ عليهِمْ وعلى من يُسلم؟ هل نُسلم على مجموعة من الأموات؟ إننا جميعاً ضدَّ مبدأ عبادة الأموات. فنحنُ نُقرُّ ونؤمنُ أن عبادةَ كلِ شيءٍ عدا الله هو شرك. سواءٌ كانَ نبياً أو إماماً أو من أهل البيت، وعندما يأتي أحدُ الزائرينَ ويسجد للأرض ربما قالَ شيئاً طبقاً لصدقِ وعيهِ ولكن عندما نسألهُ لما سجدتَ يا رجل ولمن؟ وفي بعض الأحيان يقفُ أحدُ الشيعة أمامَ الإمام ويسجُد ولو سألتهُ لما فعلتَ ذلك؟ وهل أنكَ فعلتَ ذلكَ من أجل الإمام الرضا؟ وربما خرَّ زاحفاً قُبالة الضريح من شدة الاحترام للإمام لكنه لا يسجد للإمام الرضا عليه السلام أبداً..

ليس الأمرُ بالجديد لدى الإمام الجويني فهو في باب الزيارة ومحبة أهل البيت يمتاز بموقفٍ صلبٍ فهو يقول إنني أسجدُ سجدةَ شُكرٍ لله لأنهُ وفقني بزيارة الإمام الرضا عليه السلام[٢]. بالطبع هناك عوام الشيعة والمُغالون والذينَ ينبغي إصلاحُ أمورهم واعتقاداتهم.

نُقلَ عن الإمام السجاد عليه السلام القول: «إنَّ اليَهودَ أحَبّوا عُزَيرًا حَتّى قالوا فيهِ ما قالوا، فَلا عُزَيرٌ مِنهُم ولا هُم مِن عُزَيرٍ. وإنَّ النَّصارى أحَبّوا عيسى حَتّى قالوا فيهِ ما قالوا، فَلا عيسى مِنهُم ولا هُم من عيسى وإنّا عَلى سُنَّةٍ مِن ذلِكَ، إنَّ قَومًا مِن شيعَتِنا سَيُحِبّونَنا حَتّى يَقولوا فينا ما قالَتِ اليَهودُ في عُزَيرٍ وما قالَتِ النَّصارى في عيسَى بنِ مَريَمَ، فَلا هُم مِنّا ولا نَحنُ مِنهُم».[٣]

وهناك الكثير من المصادر الروائية الشيعية تتحدث عن الغلاة والردُ عليهم،[٤] وفي المعجم الكبير ومجمع الزوائد و الدر المنثور وكنز العمال نُقلَ عن الرسول ﷺ القول: «من

---

١ . صحيح البخاري، ج٢، ص١١٤ رقم الحديث٤٢٨، (عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: أني فرطكم و أنا شهيد عليكم وأني والله ...)

٢ . فرائد السمطين، إبراهيم بن محمد الجويني الشافعي، ج١؛ الثقات، محمد بن حبان الدارمي الشافعي، ج٨، ص٤٥٧.

٣ . رجال الكشي، ج١، ص٣٣٦، رقم الحديث١٩١.

٤ . الرد على الغالية وأبي الخطاب، أبو إسحاق الكاتب،إبراهيم بن أبي حفص؛ الرد على الغالية المحمدية، فضل بن شاذان؛ الرد على الغلاة والمفوضة، أبو عبد الله، حسين بن عبيد الله الغضائري.

جاءني زائراً كانَ حقاً عليَّ أن أكونَ لهُ شفيعاً يومَ القيامة»[1].

وهناكَ طُرحت مسألةُ الزيارة والشَّفاعة وقد اشترطَ الرسولُ ذلكَ بخالص النية، هذا ما نراهُ في مصادر أهلِ السُّنَّة وهيَ كثيرةٌ. وفي السُنن الكبرى جاءَ أيضاً، «من زارني كنت له شفيعاً، ومَنْ حجَّ البيت ولم يزُرني فقد جافاني»[2]. هذه الروايات ليست عبادةً للرسول أو الموتى، وهيَ ليست بشركٍ، لقد نقلَ أبو هريرة عن النبي ﷺ: «من زارني بعدَ موتي كانَ قد زارني حياً».[3]

وقد شهدتُ بنفسي عندَ حرم الرسول حيثُ كنتُ واقفاً قُبالة الضريح وأؤدي السلام والتحية فجاءني أحدُ الوهابيين وكانَ هناكَ زائرونَ من جنسياتٍ أُخرى وقد انهالت دموعُهم وكان بعضهم يُناجي الرسول فإذا به يضربُ ظُهورنا ويقول لقد ماتَ محمد وكرَّر الضربة فقلتُ له: هل أنَّ كُلَ من ماتَ وذهبَ عن هذا العالم قد انتهى؟ ضِحكَ من جوابي واستفساري وقالَ اذهب إلى الجحيم. أنا على اطمئنانٍ من أنَّ هذا الشخص لم يُطالع مصادر أهل السُنَّة ولم يرى صحيحَ البُخاري ولا مُسند أحمد بنِ حنبل وما جاءَ فيه من روايات.

لقد نقلَ أبو هُريرة عن الرسول: «من زارني بعدَ وفاتي كانَ كمن زارني في حياتي»[4]، إنَّ الموتَ أو الحياة لا ربطَ ولا تأثيرَ لها على الزائر. وعندما تقف أمام قبر الرسول وتقول السلامُ عليك فإنَّكَ كمن يُسلمُ على الرسولِ أمامه. كانَ رسول الله إذا خرجَ إلى المقابر قال السلامُ عليكم يا أهلَ الديار من المؤمنينَ والمسلمين.

لقد أكدَّ الإمامُ الشافعي على مداومةِ الإيمان والعمل الصالح اللذين يستوجبان الِاستشفاءَ والتوسل شريطةَ أن تكونَّ الأعمالُ صالحةً وبنيةِ القُربى إلى الله، وينبغي الالتفاتُ

---

١ . مجمع الزوائد، ج٤، ص٢؛ الدر المنثور، السيوطي، ج١، ص٥٦٩؛ المعجم الكبير، الطبراني، ج١٢، ص٤٠٦، رقم الحديث١٣٤٩٧؛ شفاء السقام في زيارة خير الأنام،تقي الدين السبكي، ص٦٥ الى١١٥ (١٥ رواية في جواز زيارة قبر النبي) سنن إبن ماجه، ج١، ص ١١٧، باب عندما جاء في زيارة القبور؛ صحيح مسلم، ج٢، ص ٦٤، باب عندما يقال عند دخول القبر؛ الغدير، العلامه الأميني، ج٥، ص ٩٣ الى ٩٦.

٢ . سنن الدار قطني، ج٢، ص٢٧٨، رقم الحديث١٩٢.

٣ . كنز العمال، ج٥، ص١٣٥، رقم الحديث١٢٣٧٢.

٤ . المصدر السابق.

إلى أنَّ المتوسل بالرسول وآلِ بيته عليهِ أن يُقربَ الأولياءَ إلى الله ذو الفضل الكبير. أي أن يدعو له بالمقام الذي لديهم إلى الله لقضاء حاجته ولا يجوزُ أن نطلبَ الحاجةَ من الإمام ذاته فهو لا يستطيع القيامَ بما يقومُ به الرب، وأنَّ التوسل بأهل البيت عليهم السلام هوَ لأنهم أعزاءٌ عندَ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

والقرآن لا ينفي الشفاعة حيثُ يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1]. وهناك الكثير من الأقوال والأشعار المروية عن الصوفية الشوافع من مُحبي أهل البيت عليهم السلام حيثُ رُويَ أن أحمد البياباني وهو عارفٌ وصوفيٌّ كبير عاشَ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري وكانَ أولَ الأمر ابن أسرةٍ ميسورة الحال تعمل في خدمةِ آرغون شاه، ثُمَّ ما لبثَ أن تغيرَ المسار وأصبحَ الشخصُ عابداً والتحقَ بجمع المُتصوفين، وكتبَ كتاباً كبيراً باسمِ المجالس الأربعين ويقول: إنَّ قائلَ لا إله إلا الله لا ينفعُ أن يكونَ مسلماً من غير أن يكسبَ رضى محمدٍ رسول الله. وإن لم يكسب رضى الرسولِ محمدٍ صلى الله عليه وآله لن يكونَ مُسلماً. وأنَّ ذلكَ غيرُ مُتيسرٍ لولا مودةُ أهل البيت وأبناء الرسول، ولن يكونَ الإنسانُ مؤمناً دونَ محبةِ أهل البيت وأنَّ مودةَ النبي تجلبُ الخير الكثير.

---

١ . سورة البقرة: ٢٥٥.

لا للمقدسات لا للأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من دواعي الفخر أن أقف بين أيديكم أعزائي المدرسين، وأقول ذلك دون مجاملة، لأنكم من أكثر الناس تأثيرا في بناء ثقافة المجتمع، لأن المدرس في الإعدادية والمتوسطة والمعلم في المرحلة الابتدائية لهما الثقل الأكبر في صياغة النفس والتأثير على روح التلميذ وذهنه، وربما ظلت ترانيم المعلم عالقة في ذهن الأطفال حتى آخر العمر، وأنا شخصيا ما زلت أتذكر كلمات وتعابير معلم الدين في الابتدائية والمدرسين في مرحلة الإعدادية ما تزال بعض عباراتهم عالقة في ذهني، حتى نوع نظراتهم للتلاميذ، في حين أنني اليوم أنسى كتابا طالعته قبل ستة أشهر فقط، ولهذا فإنني مؤمن بأن التأثير الذي مكن أن يتركه المعلم والمدرس في المرحلة المدرسية أشد تأثيرا من الجامعات، فالأثر الذي يتركه المدرس والمعلم يفوق الأثر الذي يتركه الأستاذ الجامعي، وسبب ذلك أن الطالب الذي ينتقل من مرحلة المدرسة إلى الجامعة يشعر جزافا بأنه اجتاز مرحلة تعليمية ودخل أخرى، وأنه لم يعد بحاجة إلى تلك المعارف، بل عليه أن ينهل العلوم الحديثة عبر الجامعة، فهو يرى أنه ليس بحاجة إلى التربية بعد اليوم، وهكذا يبدو أن الآثار التي يتركها التعليم في المرحلة المدرسية على التلميذ هي أكبر من الآثار التي يتركها التعليم العالي على الطلاب وأكثر منها عمقا.

لقد اتفقنا أن نخصص محاضرة اليوم حول الدور الاجتماعي للدين وهي واحدة من المباحث المطروحة في فلسفة الدين بعنوانها العام وليس الخاص.

كما هو معلوم فإن المباحث الأكاديمية الغربية في عالم اليوم تخوض في خمسة مجالات

معرفية وعلمية في مجال الدين. المجال الأول علم الاجتماع الديني والمجال الثاني هو علم النفس الديني، أي أن الأول يخوض في أثر الدين على العلاقات الاجتماعية والثاني في أثر الدين في المجال النفسي والتجربة الفردية للإنسان في الإطار السيكولوجي،[1] وهناك مجال آخر وهو النظرة إلى الدين من الناحية «الفونومولوجية»[2]، أي النظر إلى الدين كظاهرة خارجية بحسب ادعائهم وذلك فلسفة الدين بالمعنى الخاص بحسب ادعائهم أيضا والحكمية من الخارج للدين بكافة أشكاله.

بالطبع لا نريد هنا الخوض في إمكانية حصول ذلك ومدى صحته، فهذا الأمر يحتاج إلى بحث منفصل، وهناك مجال بحث آخر يتعلق في باب علاقة الدين بالمعارف حيث يتم التعبير عنها باسم المعرفة الدينية في العالم، إضافة إلى ذلك هناك مجال في الثقافات غير المدونة والأديان غير المعروفة، وهناك مجالان علميان ومجالان معرفيان آخران وهذه في الغالب من شاكلة الباحثين على الآثار و(Anthropology)[3] أي معرفة الإنسان بشكله الخاص.

لا نريد الخوض في هذه المباحث عدا واحدة من هذه المجالات المذكورة وواحدة من الأمور تحديدا، حيث افترض هؤلاء في كافة المجالات الخمسة أو السبعة المذكورة مشتركات باتت جزءا من الأصول الموضوعة لهم، الأول أن الدين أمر ذوقي وإحساس ولا يرتبط

---

١ . علم النفس: علم النفس هو الدراسات العلمية للسلوك والعقل والتفكير والشخصية، ويمكن تعريفه بأنه: «الدراسة العلمية لسلوك الكائنات الحية، وخصوصا الإنسان، وذلك بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه».

٢ . الظاهراتية أو الفينومينولوجيا هي مدرسة فلسفة تعتمد على الخبرة الحدسية للظواهر كنقطة بداية (أي ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية) ثم تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها. غير أنها لا تدعي التوصل لحقيقة مطلقة مجردة سواء في الميتافيزيقا أو في العلم بل تراهن على فهم نمط حضور الإنسان في العالم. يمكن أن نرصد بداياتها مع هيغل كما يعتبر مؤسس هذه المدرسة إدموند هوسرل، تلاه في التأثير عليها عدد من الفلاسفة مثل: هايدغر وسارتر وموريس ميرلو بونتي وريكور. وتقوم هذه المدرسة الفلسفية على العلاقة الديالكتية بين الفكرة والواقع. والظاهراتية مدرسة فلسفية اجتماعية ترجع أصولها إلى القرن التاسع عشر، ظهرت كرد فعل على المدرسة الوضعية. والمفكرون الظاهراتيون ينتقدون الوضعية، لأنها تسلم بوجود حقائق موضوعية مستقلة عن الوعي الفردي. وملخص أفكار هذه المدرسة هي أنها تهتم بالوعي الإنساني باعتباره الطريق الموصل إلى فهم الحقائق الاجتماعية، وخاصة بالطريقة التي يفكر بها الإنسان في الخبرة التي يعيشها، أي كيف يشعر الإنسان بوعيه. (راجع: ويكيبيديا).

٣ . علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا هي دراسة البشر وسلوك الإنسان والمجتمعات الماضية والحاضرة. علم الإنسان الاجتماعي وعلم الإنسان الثقافي يدرسان قيم ومعايير المجتمعات. الأنثروبولوجيا اللغوية تدرس كيف تؤثر اللغة على الحياة الاجتماعية. ويدرس علم الإنسان الحيوي التطور البيولوجي للإنسان. (راجع: ويكيبيديا).

بالعقل ولا استدلال له، وإن لم نجد برهانا ضد الدين فإننا لا نستطيع إيجاد برهان لصالحه على الإطلاق لا بل يستحيل الإتيان بأي برهان للدين لا لصالحه ولا لضده، وعليه فإن كافة الأديان متساوية في هذا الأمر، وليس هناك دين حق لتكون سائر الأديان على باطل.

الخصيصة الثانية التي أفترضها الغربيون للدين إنه مسألة فردية خاصة غير اجتماعية، وهو من الناحية الماهوية مقولة جمعية لكنه غير اجتماعي، وعليه فهو غير مرتبط بالحكم والعدل وحقوق الإنسان بشكل أولى، لأنهم يعتقدون أن الدين أمر قدسي وليس عرفيا، أي أنه لا علاقة له بالدنيا ولا بأي شكل من أشكالها ولا ينبغي له التدخل في شؤونها أيضا، ولا ينبغي ربطه إلا بشكل طبيعي ومن خلال مجرى الارتباط الإنساني الذي ينتشر على مستوى المجتمع.

إلى ذلك يفكك الغربيون الأمور العبادية والدينية، حيث يعتبرون العبادة مسألة قدسية في معناها الأخص ويفصلونها عن الأمور العرفية والعلمية وبشكل خاص الاجتماعية. وعلى الصعيد الاجتماعي العام والأمور المتعلقة بالشؤون الاقتصادية والسياسية والحقوقية والحكومية وأمثالها يرفضون إشراك الدين ويقولون إنه والأخلاق أمران خصوصيان، فلتتخلق أيها الإنسان بأي أخلاق شئت واعتنق ما تريد من الأديان لكن ذلك ينبغي أن يكون محصورا في المسجد والكنيسة والمعبد، لأنها في كل الأحوال متساوية، هذا ما يريدون الترويج له في عالم اليوم تحت يافطة العلمانية والتعددية.

إنها جزء من المسلمات في الثقافة الغربية، والدين أمر ذوقي وخاص ولا ارتباط له بالواقع الاجتماعي العيني ولا بأمر الإنسان ولا حقوقه ولا بالمسؤوليات الاجتماعية ولا الفردية للإنسان، وهذا التعريف يأتي متعارضا تماما مع التعريف الإسلامي لا سيما الشيعي للدين، صحيح أن أحد أبعاد الدين هو شأن فردي وصحيح أن جزءا من الدين أمر ذوقي وصحيح أن جانبا من الدين يفوق العقل والتصور لكن ذلك لا يجعلهما دون العقل أو أنه غير مرتبط بمجال العقل، وصحيح أن القلب هو مزهرية الإيمان وموضع نمو وتعالي الإيمان، لكن الإيمان لا يبدأ من الأحاسيس كي يختم بها، بل أن له أصول عقلية واضحة، كما لا يمكن تجزئة الإنسان وتقطيعه لكي نقول له هذا الجزء خصيصة للدين وأترك الجزء الآخر للأحكام العرفية والقوانين الاجتماعية، وهذا التفكيك في حقيقة الأمر هو نفسه عزل الشريعة عن

المدنية وعزل الأخلاق عن الاقتصاد وعزل الدين عن السياسة وعزل المقدسات عن الأمور العرفية وعزل الفرد عن الجماعة، إن كل أنواع العزل هذه عبارة عن تجزئة الإنسان والتمثيل بشخصيته، وهذا أمر مرفوض من قبل النظرية الإسلامية التي نؤمن بها.

بالطبع أشرت إلى الموضوع إجمالا لتتضح الصورة وتتبين وجهة البحث الذي نريد تناوله في هذه المحاضرة والإجابة المفصلة على كل واحد من المباحث المطروحة بحاجة إلى وقت لا يسعه وقت المحاضرة.

سأحاول التطرق إلى ثلاثة نقاط في هذه العجالة.

النكتة الأولى وسيكون فيها البحث تجريديا باعتبارها مبحثا أساسيا وربما ستشعرون منها بالتعب، سأجعلها الهدف والمبنى الذي سأخرج بنتائج منه، أما النكتة الثانية والثالثة من البحث فسأحاول طرحهما بصورة عينية أكثر شفافة ليتضح موضوع البحث أكثر فأكثر.

النكتة الأولى سأشير إليها بشكل مختصر، وهي أننا نواجه في المجال النظري لعلم الاجتماع تيارا شموليا متطورا في عالم اليوم يتصارع مع ثقافتنا بشكل مباشر وهو يؤمن أن كل طرح روحاني وأخلاقي للنظام السياسي عمل خاطئ وهو يعارض ذلك بشكل قاطع وصريح، وإن أراد الإنسان وضع أسس أخلاقية للسياسة أو أراد بناء الأخلاق والحقوق على أساس الفضيلة والحقيقة فإنهم سيعارضون ذلك بقوة.

إن هؤلاء يرون أن النصوص الأخلاقية الفلسفية هي نصوص كلاسيكية في باب الحقوق السياسية، وكل ما تم التقليل من استخدامها وكل ما تم اعتماد محور العمل السياسي الاجتماعي على أساس عقود وضعية كان العمل أكثر مرونة وانسيابية ودون أصول وقواعد، حيث ينشدون قيام الأمر على أساس المصالح والمضار، وينبغي أن تكون السياسة والمجتمع والحكومة قائمة على أساس الربح والخسارة المحسوسة، إنهم يقولون لا علاقة لنا بالفضيلة والرذيلة ولا الحق بالباطل ولا العدل والظلم، ويظل أساس الفكر والعمل في الميدان الاجتماعي والحكومي قائم على أساس الربح الملموس بالكم والتجربة، وكل ما كان الإطار شخصيا كان أفضل.

إننا نواجه ثقافة من هذا النوع، وسيكون ردنا عليها في حديثنا حول النكتة الثانية والثالثة.

إن هؤلاء يؤمنون في مجال العمل السياسي، إنهم ليسوا أصلا بحاجة إلى أطر مرجعية[1] وهم يرون أنهم ليسوا بحاجة إلى مثل هذا الإطار في الفكر والعمل الاجتماعي والسياسي للحكومة، يقولون لا نريد أصولا أيدلوجية واعتقادية للحكومة، ويرون أن عليهم الابتعاد عن القيود الأصولية والميتافيزيقية في إطار السياسة والاجتماع والحكومة أيا كانت.

يقولون إن هذه المجالات لا ترتبط بتلك المواضيع أساسا، إن ما أطرحه هو عبارة عن حالة مضغوطة من أهم الاستدلالات والنظريات التي جاؤوا بها في هذا الإطار.

إن الموضوع الذي أشير إليه هو خلاصة لأهم الاستدلالات والنظريات في هذا المجال التي طرحها الأكاديميون الغربيون، يقولون إنه وفي المجال الإداري ليسوا بحاجة إلى الفكر ما قبل التجربة، الفكر الذي يطلقون عليه اسم الفكر الراديكالي[2] والجذري يقولون إن أمورنا طبيعية ولسنا بحاجة إلى هذه الأمور في إدارة المجتمع المدني وإدارة الحياة والمعيشة وأمثالها، أي أننا لسنا بحاجة إلى هذه النظرية الراديكالية للمفاهيم السياسية والحقوقية، يتصورون أن بإمكانهم ومن خلال المعارف والأخلاق القفز وتدوين السياسات، يقولون إنهم ليسوا بحاجة إلى الخوض والبحث طويلا في مسألة وجود الله والإنسان وجذور الفضيلة والرذيلة وما شابه ذلك، لأن لا علاقة لهذه الموضوعات بقضية السياسة والحكومة وأننا سنقفز على كل هذه الأمور وبدون سياسة تقود حكما.

إن هؤلاء يريدون تعريف مضمون الحرية والحاكمية والقيادة دونما أي نظرية في باب الأخلاق أو الكمال في هذا الباب ودون تعريف للفضيلة والسعادة سواءا في إطارها الفردي أو الاجتماعي، ويظنون أنه يمكن دون تعيين حدود بين الرب والإنسان، الحديث عن المسؤوليات السياسية ويقولون لا تدخلوا الرب في الموضوع، ويظن هؤلاء أنه ليس للأنبياء والدين أن يتدخلا أصلا في إطار الأمور الاجتماعية والشؤون العامة، وعندما يتحدثون في مجالسهم عن النبوة فإنهم يعتبرون الأنبياء دراويش، والفرق بين هؤلاء وسائر الدراويش

---

1. Frame of reference.

٢ . الراديكالية (الجذرية) أو الأصولية هي تعريب للكلمة الإنجليزية (بالإنجليزية: Radicalism) وأصلها كلمة «Radical» ينبع من الكلمة اللاتينية Radix وتقابلها باللغة العربية حسب المعنى الحرفي للكلمة «أصل» أو «جذر»، ويقصد بها عموما التوجه الصلب والمتطرف والهادف للتغيير الجذري للواقع السياسي أو التكلم وفقا له، ويصفها قاموس لاروس الكبير بأنها «كل مذهب متصلب في موضوع المعتقد السياسي» (راجع: ويكيبيديا).

أنهم تركوا مغاراتهم وجاؤوا وسط المجتمع وشرعوا في صناعة مجتمع معين، ولولا هذا لكانوا كسائر الصوفية والسالكين لا فرق بينهم ولكل منهم دواوين وأشعار، وأحد الدواوين هو القرآن ـ والعياذ بالله ـ والآخر هو الإنجيل والثالث هو التوراة.

هذه طريقة تفكيرهم وتصنيفهم للأنبياء، وأن يكون هؤلاء متصلون بعالم ما وراء الطبيعة وأن حقائق العالم العلوي تتنزل عليهم فهذا غير صحيح، وإن كل المصطلحات الواردة كالملائكة والمعجزة والآخرة والله سبحانه وتعالى والغيب وأمثال ذلك تصورات ليس إلا، ويطلقون على هذا النمط من التفكير اسم الحداثة الدينية وحركة تنويرية دينية، هذا الأمر لا يعني بالطبع أن كل من خاض في حركة التنوير الديني يقول هذا الكلام، لأنني من المؤمنين بالتنوير الديني وضرورته، إن المقصود بتيار التنوير الديني هو هذا النمط من التفكير والتحرك الذي بدأ في إيران منذ الثورة الدستورية[1] وإلى يومنا هذا.

إن هذا الفريق يرى أن الحدود الفردية والنظم الاجتماعية وطرق التعامل مع المجالات العامة والخاصة ممكنة دون الاحتياج إلى الشريعة الإلهية ولسنا بحاجة إلى الأنبياء، وإذا تدخل هؤلاء في إطار القضايا الاجتماعية وحقوق الإنسان والعدل الاجتماعي وأمثالها فهذا من فضولهم، يقولون نحن لا ننتظر ولا نتوقع من الدين أن يتدخل في هذه المجالات، وإذا ما تدخل هؤلاء ينبغي مساعدة الناس وهدايتهم للخروج من هذه الأمور والقضايا.

إنهم يدعون أنهم يعدون المجتمع والأرضية من أجل طرح مفاهيم أخرى للحرية الفردية، مفاهيم تعارض تماما مفهوم الخير المطلق، وأنهم ليسوا بحاجة إلى المفاهيم الأخرى، إنهم يقدمون على تحريف معنى الحق وكذلك المشروعية حتى أساس حقوق الإنسان، ويتم رويدا رويدا استبدال الأولويات الاجتماعية القائمة على أساس الفضيلة والعدالة والحقيقة التي نادى بها الأنبياء بأخرى تتجه نحو الملذات والتلاعب بحرية تامة بالمصالح الاجتماعية والسياسية العامة، وهذه طريقة لمطاردة مفهوم الحرية وسائر المفاهيم السياسية.

نحن نعارض أساسا مطاردة الحرية والحكومة بمفهوم العدل والخير والحقيقة والفضيلة،

---

١ . الثورة الدستورية الفارسية أو الثورة الدستورية الإيرانية (الفارسية: مشروطيت، الترجمة الحرفية: مشروطيت أو إنقلاب مشروطه (تُعرف أيضًا بأنها ثورة إيران الدستورية) حدثت بين عامي ١٩٠٥ و١٩٠٧. وأدت الثورة إلى إقامة البرلمان في إيران. (راجع: ويكيبيديا).

كذلك فإن نظرتهم للفرد ليست نظرة أخلاقية أو حقوقية، بل هي نظرة تقوم على مبدأ اللذة والربحية، هذا هو أساس الفكر الليبرالي الرأسمالي، وهو فكر قائم في عالم اليوم ويقف بوجه ثورة الإمام ويريدون النيل من جذورها وهناك من يتابع ذلك من خلال المجلات والمحاضرات الجامعية والتدريس في الجامعات، وهناك من يتبنى هذه الأفكار في بلدان العالم الإسلامي ونظرتهم إلى مسألة القيادة تختلف والقائد عندهم من يتمتع بقدرة مناورة أكبر ومن هم أقوى من الآخرين في مجال الحسابات الإستراتيجية، ويرون أن هذه المواضيع تكفي لصلاحية القائد أي من تكون علوم القيادة عنده أكثر من الآخرين أو أن يتمتع بكاريزما[١]، ذات تأثير أكبر.

إنهم يقولون إن نجاح الإمام في ثورته يعود إلى كاريزما الإمام وليس حقانيته وأيدلوجيته وأفكاره، فقد كان الإمام يتمتع بنفوذ عال في شخصيته وكان كاريزميا، كان هذا هو سر الثورة ونجاحها، لم يكن هناك شيء آخر خلف الموضوع، هذا هو التحليل الخاص بالثورة الإسلامية والإمام عندهم، فهؤلاء يعتبرون الفضيلة مفهوما قبليا وقد ولى عهدها، ويعترضون على بحث الفضيلة والأخلاق في إطار السياسة.

لو رجعنا إلى عراب العلمانية لوجدناه شخصا يدعى «مكيافيلي»[٢] فلو طالعنا كتابه وكراريسه التي تحمل مبادئه وكيفية إدارته نراه يقول إن الأخلاق التي طرحها الأنبياء هي أخلاق العجائز «لا تكذبوا، لا تسرقوا، لا تغصبوا حقا، لا تظلموا أحدا» وأمثال ذلك، إنها أخلاق فردية وليست أخلاقا حكومية.

---

١ . كاريزما (Carisma) هي الجاذبية المقنعة أو السحر الذي يُمكن أن يلهم التفاني في الآخرين. الكاريزما مصطلح يوناني أصلاً مشتق من كلمة نعمة، أي هبة إلهية تجعل المرء مُفضلاً لجاذبيته. اصطلاحاً فإن الكاريزما هي الصفة المنسوبة إلى أشخاص أو مؤسسات أو مناصب بسبب صلتهم المفترضة بالقوى الحيوية المؤثرة والمحددة للنظام. (راجع: ويكيبيديا)

٢ . يكولو دي برناردو دي ماكيافيلّي (بالإيطالية: Niccolò di Bernardo dei Machiavelli) (٣ مايو ١٤٦٩ – ٢١ يونيو ١٥٢٧) ولد وتوفي في فلورنسا، كان مفكرا وفيلسوفا سياسيا إيطاليا إبان عصر النهضة. أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن يكتب تعليمات لحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ما هو مفيد فهو ضروري، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية. ولقد فُصلت نظريات مكيافيلي في القرن العشرين. (راجع: ويكيبيديا).

إن العلمانية تقوم على أساس عزل الأخلاق عن الحكومة، يقولون إن الحكومة القائمة على أساس المبادئ لا تستطيع ولا ينبغي لها أن تستمر، وأن الأمر مشوب بالخطأ منذ البداية ولا علاقة للقيم بالمجتمع، فالقيم شأن خاص، نسبي وعقدي كما هو حال الدين فهو شأن خاص، ومن الخطأ الكبير أن نقدم على الربط بين هذين الموضوعين.

إلى ذلك يقول أصحاب الفكر العلماني تجاه الشرائع العشرة للأنبياء كموسى وعيسى عليهما السلام في الامتناع عن الكذب والزنا وأمثالها بأنها ليست من أخلاق الحكومة، إنها أخلاق فردية، أما الأخلاق الحكومية أي أن الأخلاق التي ينبغي أن تتمتع بها الحكومة هي أخلاق الشأن العام أي الأخلاق العلمانية، يقول أصحاب هذه المدرسة أقتل أعدائك وإن استطعت أصدقائك أيضا، ويقولون أيضا للحكام إكذبوا على الناس واجعلوهم يتصورون أنكم صادقون، عليكم أن تحكموا بهذه الطريقة، إنه منطق مكيافيلي، ولو قارناه مع منطق الإمام علي عليه السلام الذي يعد المنظر الكبير للحكومة الدينية في التاريخ الإسلامي حيث يقول عليه السلام «والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة»[1] في إشارة إلى نزاهته طوال فترة حكومته، هذه هي الثقافة الإسلامية في الحكم، تجاه الحكومة العلمانية التي بشر بها مكيافيلي والثقافة المعاصرة حيث تقول إن ثقافة علي والثقافة الدينية هي عهد قديم كان قبل الحداثة والثقافة العصرية والحديثة.

إن ثقافة مكيافيلي وتوماس هوبز وجان لاك ومن ثم عرابي الليبرالية وأمثالها يقولون أن لا علاقة للأخلاق بالسياسة، لا علاقة للدين بالحكومة وأن الدين جاء بقليل من التأثير التربوي والفردي على الأشخاص في أقصى ما يمكن، وليس معلوما أساسا الصحيح من عدمه، حتى أنهم لا يقبلون هذا الحد ويصرون على عدم طرح قضية حقوق الإنسان وواجبات الناس وارتباط الحاكم والناس أساسا، وهذا الأمر يعد النقطة المقابلة للثقافة الإسلامية التي تأتي لتعديل العلاقة بين الفرد والمجتمع بحيث لا يرى الفرد نفسه عدوا للمجتمع أو منافسا لأبنائه، بل عليه أن يرى نفسه جزءا من الآخرين.

ومثل ما تشير بعض الآيات والروايات إلى وجود تعادل بين الحرية الفردية والنظام الاجتماعي وكذلك النظام الأخلاقي بصورة متساوية ومتناسقة، أي أن الإسلام يأتي لينقذ

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

الإنسان الليبرالي وهو الإنسان المنفصل والوحيد على أساس مبدأ الأصالة الفردية، وينقذ الإنسان الاشتراكي والذي يعاني من المجتمع والضائع وسط الكثافة البشرية وغير المنظور في فرديته، يأتي الإسلام لإنقاذ هذين الإنسانين كي يصلا إلى نقطة التعادل الفردية والاجتماعية، ومن خلالها يمكن مشاهدة فردية الإنسان وكرامته وحقوقه الفردية وحرمته كإنسان، وفي ذات الوقت تنظيم علاقته مع الآخرين وأن لا يرى نفسه من خلال وطئ الآخرين مثل ما تقتضي أصالة الفرد عند الليبراليين.

ليس الإسلام مثل الاشتراكية التي لا تعير أهمية للفرد، فإن تم وطئه بالأقدام فلا ضير، وليس مثل الليبرالية التي تقول إن بإمكان الفرد أن يضحي بالمجتمع وأن يضع قدمه على أكتاف الناس ويصعد سلم الترقي، فليصل الإنسان إلى ما يريد من منافع وأرباح ولا داعي للتفكير بالآخرين، بل الإسلام حساس جدا بخصوص حقوق الإنسان حيث يقول سبحانه في محكم كتابه ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[١].

لاحظوا أن الإسلام يعتبر أن الإنسان الواحد يعادل من حيث الأهمية البشرية بأكملها وظلم إنسان واحد يساوي ظلم البشرية جمعاء، والفرد مهم بالنسبة للقرآن والإسلام كما هو الحال مع المجتمع فلا يجيز الإسلام لأحد أن يكون متسلطا على رقاب الأمة وأن تكون هناك أقلية تستحوذ على الخيرات، إن هذا التعادل لم تصل إليه الليبرالية الرأسمالية ولا الشيوعية الاشتراكية لكنه موجود في الثقافة الإسلامية بشرط أن نتعرف عليه بشكل صحيح ونطبقه على أرض الواقع، والثقافة الإسلامية تربط بين أكثر المفاهيم الأخلاقية عمقا وما يصطلح عليها باسم المفاهيم الرواقية[٢] مع أكثر المفاهيم السياسية والواجبات الاجتماعية العمومية،

---

١ . المائدة: ٣٢

٢ . الرواقية بضم الراء وتشديدها مذهب فلسفي، وإحدى الفلسفات المستجدة في الحضارة الهلنستية، أنشأه الفيلسوف اليوناني زينون السيشومي. وهو يقول: «إن العالم كلّ عضويّ، تتخلله قوة الله الفاعلة، وإن رأس الحكمة معرفة هذا الكل، مع التأكيد أن الإنسان، لا يستطيع أن يلتمس هذه المعرفة، إلاّ إذا كبح جماح عواطفه، وتحرر من الانفعال». والرواقيون يدعون إلى التناغم مع الطبيعة، والصبر على المشاق، والأخذ بأهداب الفضيلة، لأن الفضيلة هي إرادة الله. بحيث تركز الفلسفة الرواقية على التناغم كإطار لفهم طبيعة الاشياء وكأسلوب للتخلص من الكدر الذي تسببه الاحاسيس. وقد اطلق عليهم لقب الرواقيون لانهم عقدوا اجتماعاتهم في الاروقة في مدينة اثينا، حيث نشأت هذه الفلسفة هناك، حوالي عام ٣٠٠ ق.م.

وهكذا فقد أصبح أمير المؤمنين علي عليه السلام أنموذج الدين في أفعاله وسكناته وحركاته وتقليده وأوامره ونواهيه، فهو أكثر البشر عبودية لله وفي ذات الوقت أكثر الرجال سياسة في المجتمع حيث يقول عن نفسه: «لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين»[1]، وعلى حد قول أحد الغربيين الذي كتب عنه قائلا كان مثال العبودية والزهد والتقى.

هذه ظاهرة تاريخية كبيرة في الفكر السياسي أي أن المواطن والحاكم ينبغي عليه أن يؤدي ما عليه من باب التكليف وإقامة القسط وتأمين حقوق الناس، أي أن على الإمام والرعية أن يدخلوا المعترك من أجل التكليف وحسب، ولن نشاهد مثل هذه النظرة في فلسفة السياسة لا في الغرب ولا في الشرق إلى الدين والدنيا والفرد والمجتمع والعقل والروحانيات والماديات.

لم نشاهد في مكان من العالم غير الإسلام اقتران تنمية الفضائل الأخلاقية عند الفرد في المجتمع بالمسؤوليات السياسية للجمهور، أي أن يقول أن القائد مسؤول عن الناحيتين الحقوق المادية والمعنوية والكرامة الإنسانية أيضا، إن الفضيلة في الفكر الإسلامي ليست صفة المقدسين، بل هي التي تحدد الارتباط بين الحاكم والأمة، وهذا يعني أن الفضيلة تجد معناها وسط المعترك السياسي.

في التعريف المسيحي الخاص بالقرون الوسطى إن مدينة الرب هي خلف الغيوم في السماوات وأن الأرض هي مدينة الشيطان، هذا ما أكدته كنيسة القرون الوسطى، إن كنيسة القرون الوسطى تؤمن بعزل الدين عن السياسة وعزل الدنيا عن الدين، ورغم أنهم كانوا يمتلكون السلطة السياسية والاجتماعية في بُرهة زمنية من القرون الوسطى لكن الكنيسة إبان القرون الوسطى لم تكن تؤمن بالحكومة الدينية أصلا مثل ما يدعو لذلك المسلمون.

يقول البعض إن القرون الوسطى كانت فترة الحكومة الدينية وتم الفصل بين الدين والسياسة بعد عصر النهضة المعروف بـ (ecnassianeR)[2]، لكن هذا الكلام غير صحيح

---

١ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٧.

٢ . عصر النهضة.

البتة، لقد كانت كنيسة القرون الوسطى تؤمن بأن الدين لم يأتي من أجل الحكم، بالطبع كانت الكنيسة تنشد السلطة والاقتدار الاجتماعي وقد أساءت استغلال الموقف وفعلت كل شيء لكن المسيحية لم تكن تدعي السلطة أساسا، طبعا المسيحية التي جاءت بها الكنيسة، المسيحية المحرفة، المسيحية التي خلطت في القرون الوسطى بآلاف الخرافات واستمرت على هذه الحال إلى يومنا هذا.

إن كنيسة القرون الوسطى مثل التيار العلماني بعد الثورة الصناعية، إنهما يفكران بنفس الأسلوب في الحكم، ينبغي عزل الدين عن الحكم، لذا تلاحظون أن الحبر الأعظم للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى يقول إن مدينة الرب تحتضن أناسا إلهيين ومكان أولئك في السماء، أما المدينة على الأرض وسكانها فهم شياطين وكل سكانها مغضوب عليهم، ويضيف إن مدينة الرب والسلطة القدسية للرب ليست على الأرض، وعليه لا ينبغي البحث عن تشكيل المجتمع المدني والحكومة الدينية في الدنيا ولا ينبغي أن ننشد إجراء العدالة أصلا، الواجب الملقى على الإنسان أن يتعبد وحده في الكنيسة، لكن الإسلام جاء لتحويل المجتمع إلى ساحة عبادة، فالمسلم يدخل معترك السياسة ويواصل عبادة الله ويطبق العدالة، وكذلك الحال في الاقتصاد ينشد خدمة المحرومين وتقليل الفواصل الطبقية في المجتمع وفي هذا عبادة، وفي القضاء ينشد تطبيق العدل وفي ذلك عبادة أيضا، وهكذا نرى أن هناك مجالا للعبادة في كل مناحي الحياة حتى أكثر الأمور والأعمال غريزية عند الإنسان مثل الجنس، فإن الإسلام يأتي لتنظيم هذه العلاقة، فليس هناك أمور غريزية وعلى قول العلمانيين أمور عرفية غير قدسية أكثر من ذلك نرى أن الإسلام يحولها إلى عبادة، كذلك السعي لجلب المال والحلال للبيت، هذه أمور تقوم بها الحيوانات أيضا حيث تخرج الحيوانات من بيوتها بحثا عن الطعام لصغارها، حتى هذه العادة الحيوانية جاء الإسلام وأدخلها في الأمور العبادية حتى قال «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»،[1] أو «كالمتشحط بدمه في سبيل الله» وفي هذا الحديث خرجت هذه الحالة من العمل الحيواني وأصبحت عبادة مثل الصلاة، حتى أن الأم عندما ترضع وليدها بالحليب، وهو عمل تقوم به الحيوانات قاطبة فلن تجد

---

١. وسائل الشيعة، ج١٢، ص٤٣.

حيوانا يترك صغيره بلا حليب، حتى هذا العمل يعد عبادة في الإسلام، فالأم التي ترضع وليدها وتتحمل الصعاب وتسهر الليالي، يسجل كل ذلك لها في ميزان الحسنات والعبادة وكأنها تصلي، لاحظوا الفارق بين ثقافة الإسلام وثقافة الكنيسة في القرون الوسطى حيث يتم في تلك الثقافة فصل الدين عن الدنيا والسياسة والحكومة والإقتصاد وكل شيء، وهكذا يمكن وفقا لنظريتهم فصل الدين عن كل شيء، لكن ثقافتنا الإسلامية لا تجيز فصل الأشياء وتفكيكها، فليس عندنا سلطتان الأولى للأمور القدسية والأخرى للعرفية، أي واحدة للأمور المادية والأخرى للأمور الروحانية، الإسلام لا يقول بهذا الفصل، ولو سارت في المسار الصحيح فإن أكثر الأعمال مادية ستكون معنوية وروحانية أيضا ولن ترى مثل هذه النظرة للإنسان والفضيلة والرذيلة أو الآخرة والمادة ولا في معنى الأمور إلا في الإسلام، حيث ترى أن التفسير الإسلامي الأصيل يرى أن حق الناس والمصالح العامة جزء من المقدسات الشرعية، وهناك روايات شرعية تشير إلى تقديم حقوق الناس على حقوق الباري تعالى، فلو أضاع أحدنا حق الناس فإنه لا يستطيع أداء حق الله حتما، ولا يمكن للإنسان أن يقول أنه يؤدي حق الله وهو أهل العبادة ولا يريد الالتفات إلى حق عامة الناس، وتقول الرواية حقوق الناس مقدمة على حقوق الله»[١]، لكننا نرى في الفكر العلماني الذي يعارض تدخل الأخلاق والدين في المسائل الحكومية كلما تحدثت عن الحكم الديني قالوا لك إن الدين أصبح حكوميا، ويرون في الدين الحكومي أنه دين مفروض، دين بالقوة وممارسة الضغوط، ونحن نعارض هذا الدين، لكن الدين الحكومي موضوع منفصل رغم أنه لا ينبغي أن يكون موجودا، لكن الحكومة الدينية لها واجبات في إطار الأخلاق والدين، وعندما تتخذ الحكومة موقفا في القضايا الأخلاقية والمبدئية يقول أنصار العلمانية إنهم يريدون حقن الفضائل الأخلاقية في المجتمع.

العلمانيون يعارضون الأخلاق أساسا، لأن الأخلاق لن تكون ذات معنى إذا لم تعمل على وضع خطوط حمراء، الأخلاق في طبيعتها أمر ضروري، وليكن معلوما لدينا أن العلمانية لا ترى غاية ولا غائية في حياة الإنسان، وكل نظرتها إلى المفاهيم الأخلاقية

---

١ . عن علي عليه السلام انه قال: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤديا إلى القيام بحقوق الله» (غرر الحكم: ٤٧٨٠).

والقيم والمبادئ هي على هذه الشاكلة، وهؤلاء لا يرون للاجتماع والفلسفة غير اشتراك المصالح المادية ويطلقون عليه إسم(Common Wealth)[1] ويرون أن سند المجتمع والحافظ له هو الشعور بالأمن والمالكية المادية ولا غير، الحرية في هذه الفلسفة عبارة عن توسعة النشاط الفردي وصولا إلى الحد الأعلى من الرغبات الفردية والنفسية، وهؤلاء يرون أن المسؤولية أمر زائد أساسا، وما تلاحظونه من وضع هذه الحقوق تجاه أداء الواجب والقول أن الحقوق مقدمة على التكليف، وعندما يتحدث البعض عن التكليف والواجب يقولون إنهم يتحدثون ويدعون للعنف ويريدون انتهاك حقوق الإنسان والحرية، والسبب في ذلك يعود إلى نظرتهم التي ترى أن للإنسان حقوقا وحسب وليس مسؤولا إزاء أحد ولا أمام الخالق، إنهم يرون الحقوق والمصالح التي ينبغي تحصيلها، ومن جهة أخرى فإن إيجاد التكاليف والواجبات الواحدة تلو الأخرى للإنسان دون الحديث عن الحقوق ليس نظرة دينية ولا إسلامية.

إن تصور فكرة أن الأوامر والنواهي خاصة بالناس ولا حديث عن حقوقهم فهي تصورات خاطئة حيث يقول الإمام علي عليه السلام «لا يجري لأحد [الحق] إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له»[2]. وهذا يعني أن المجتمع من أعلاه إلى أدناه له حقوق وعليه واجبات سواءاً كان حاكما أو من الرعية فلا تمييز لطبقة على أخرى في هذه القضية ولكل حقوقه وعليكم المطالبة بحقوقكم ولكل واجبات وعليكم بأداء واجباتكم أيضا.

إن المدرسة التي تقول إن على الإنسان مسؤوليات وواجبات وليس له حقوق ليست مدرسة إسلامية وعليكم المطالبة بحقوقكم والإصرار على ذلك لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «من قتل دون أهله ظلما فهو شهيد، ومن قتل دون ماله ظلما فهو شهيد، ومن قتل دون جاره ظلما فهو شهيد، ومن قتل في ذات الله عز وجل فهو شهيد»[3]، و في هذا دعوة كي يدافع الإنسان عن حقوقه حتى لو أدى ذلك إلى مقتله.

---

١ . الثروة المشتركة (بالإنجليزية: Common-wealth) أو الرخاء الجماعي ... مصطلح الكمنولث يُطلق على دولة أو دولة يحكمها الشعب من أجل الشعب على عكس الدولة السلطوية التي تحكم من أجل طبقة معينة من الملاك. ولكن في الوقت الحاضر فالمصطلح أكثر عمومية ويعني تجمع سياسي (من أكثر من دولة) (راجع: ويكيبيديا).

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

٣ . كنز العمال، ج ٤، ص ٤٢٥.

هناك رواية عن الإمام الرضا عليه السلام تقول «من قتل دون ماله فهو شهيد»[1] وهذا يعني أن الإنسان لو فقد حياته من أجل ماله فهو شهيد أيضا، ورب سائل يقول كيف يموت الإنسان من أجل ماله؟ وهنا نقول ينبغي على الإنسان أن يتدبر الأمر ولا يوقع نفسه في مأزق ويعرف لماذا ينبغي ومتى عليه أن يدافع؟ لا أن يلقي بنفسه إلى التهلكة من أجل دراهم معدودة، وفلسفة هذا الأمر هو أن على الإنسان أن يعلم أن الحقوق المادية للناس هي من الناحية الشرعية مقدسة، ولهذا فإن قتل إنسان من أجل ماله كان كمن يقتل من أجل تنفيذ الحدود الإلهية والشرعية، ومن الناحية الأخرى فإن الأشخاص الذين يبدون حساسية بالغة على حقوقهم دون أن يبالوا بالواجبات والتكاليف الملقاة عليهم بخصوص حقوق الناس فهم مخطئون أيضا، ذلك أن المسؤولية والمنصب في النظام ليست من النوع الإمبريالي كما يقولون، أي ليست على أساس التوزيع غير العادل للحقوق، الحكومة الإسلامية لا تميز بين أقلية حاكمة وأكثرية محكومة، وعلى الحكام أن يعيشوا حالة متوسطة فما دونها قياسا بالشعب وأن تكون لهم علاقة جيدة وسهلة مع المجتمع، ولكل ذلك روايات مستندة.

إن منطق الحكومة الإسلامية يقوم على أساس ذلك، أي الثقة والصراحة مع الناس وأن نقوم الحياة الاجتماعية على أساس التعاون مع الناس لا أن تكون عبارة عن منافسة سلبية بين الحاكم والشعب، لأن في المدارس العلمانية نشهد تنافسا غير شريف بين الحاكم والناس، وأن الحقيقة فإن مثل هذه المنافسة كمن يضرب صفرا في أعداد مختلفة، أي أن ربح الحاكم يعني خسارة المجتمع والرعية وكل ما كان ربح للرعية خسر الحاكم، الثقافة الدينية لا تقول بذلك البتة، ففي الثقافة الدينية يعد الناس والحاكم مسؤولان سوية وعليهما أن يتشاركا في تحقيق الهدف الواحد ألا وهو تنفيذ العدالة الاجتماعية ونشر المفاهيم والمبادئ الإسلامية في المجتمع، لذلك قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

ليس في المجتمع الديني جماعة تدعي الحكم وتقول للرعية إذهبوا وعيشوا لحالكم.

---

١ . وسائل الشيعة، ج ١٥، ص١٠٨.

٢ . عوالي اللآلي، ج ١، ص ١٢٩؛ بحارالانوار،ج ٧٢، ص ٣٨.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام «لكن أعينوني»[١] لاحظوا أن الإمام يطلب المساعدة ويريد حكم الرعية عبر المشورة، لكننا نرى الثقافة العلمانية تتهم الثقافة الدينية بالقول إنها من السنن التقليدية وهي ضد الجمهورية والمدنية وحقوق الرعية وتتنافى معها.

النكتة الثانية أن هذه الثقافة تقف اليوم تجاه الثورة وهي تدخل عقدها الرابع، وقد إتخذوا مواقف تتماشى مع المخططات التي تريدها الدوائر الاستعمارية في الخارج وإفهامنا وكافة النخب الثقافية أن هناك سوء فهم حصل قبل عقود ثلاثة أدى إلى اندلاع الثورة وانتصارها، لقد انتهى الأمر وذهب الإمام والشهداء، ليرحم الله أمواتكم، لقد انتهى كل شيء، كانت فترة محددة من الزمن، لقد انتصر العقل في يومنا هذا وقد عاد الناس إلى سالف عهدهم قبل الثورة وحصلت هوة في هذه السنوات بعد انتصار الثورة، إنها بمثابة السكتة أو التوقف.

«ستعوضون عما فات» هكذا يقولون، «سنساعدكم»، إنهم يحاولون التسويق لهذه الثقافة، يريدون القول إن الطريق الوحيد أمامكم هو العودة إلى الخطط والمعادلات الرأسمالية والليبرالية الغربية وأزلامهم في الداخل والانصهار في أفعالهم وتصرفاتهم على المستوى الدولي وتقبيل الشركات الأمريكية وينبغي التعويض عن سني الثورة بشكل أو بآخر، أما أبنائكم الذين تضرجوا بدمائهم فقد ماتوا ورحلوا، عليكم العودة وتقبيل أيادينا وينبغي لكم أن تتواضعوا لنا وتقبلوا أن ما حصل عبارة عن سوء فهم وقد انتهى.

إن الثقافة التي يريد الغرب بثها في صفوف المجتمع يتم طرحها في بعض المحافل الجامعية والحركة التنويرية والصحافة لا بل جر إلى عموم التربية والتعليم، هي الاتجاه صوب الثقافة الاستهلاكية والجمالية والذهاب صوب ثقافة مستوردة والانغماس في اللذات والحماقات بذات شعارات القرن السابع عشر في أوروبا، شعار التجارة ومداراة المجتمع، الثروة والحرية، الحرية بمعناها الرأسمالي وليس المقصود الحرية وليس الحرية بمعناها الإسلامي والإنساني، فالمصالح الفردية مقدمة على مصالح الجميع، وعليه فإن أنواع الرياضات والقناعة والجهاد والتضحية والإنصاف هي أعمال حمقاء وهي منهجية البلهاء، هذا هو تحديدا ما كانوا يرغبون بتطبيقه في إيران إن أمكنهم ذلك، إنهم يروجون لليبرالية وهي

---

١ . نهج البلاغة، رسالة رقم ٤٥.

الأيدلوجية التي اجتمع الرأسماليون تحت سقفها، إن الليبرالية جاءت لتكون بمثابة الممهد لتعد الأجواء لتوسيع نطاق النظام الرأسمالي الغربي في عموم الدنيا، حيث بات من اللزوم البحث عن الأخلاق في السوق الحرة.

يقولون إنهم سيأتون بنمطية جديدة للحياة في هذه الدنيا في ظل المصالح الرأسمالية وسيتم في هذه الحياة اقتطاع الدين والأخلاق والمبادئ وكل شيء قدسي، وعندها تصبح كل الأمور شخصية ونسبية حتى يمكن ضربها عرض الحائط إن اقتضت الضرورة، ويظل الشيء الوحيد غير النسبي من المحكمات وهو أساس اللذة في إطار الأخلاق وأساس التجربة الحسية في إطار المعرفة وأساس الربحية في إطار الاقتصاد وأساس القدرة في إطار السياسة، هذه النكات الأربع أرجو الالتفات إليها، فأساس التجربة الحسية في إطار المعرفة تقودنا إلى مبحث النسبية والاتجاه النسبي وفي إطار الاقتصاد سيكون الأساس الربحية لا العدل وفي السياسة سيكون الأصل القدرة لا العدل.

يقولون كما أن الفضيلة في إطار الأخلاق كلام فارغ فإن العدل في الاقتصاد والسياسة والاجتماع كلام فارغ أيضا.

يتفق كافة منظري الليبرالية الكبار مرورا بمنظري الليبرالية الجديدة أن الحكومة لا ينبغي لها أن تشرف على حركة السوق والاقتصاد، والإشراف هنا المقصود به الإشراف الذي يقود إلى العدل وأن السوق الحرة في الاقتصاد تعني أنها تسحق المستضعفين وتبلع من يقف في طريقها وسيقال لك كان عليك الوقوف بطريقة لا يتم فيها ابتلاعك، إنها داروينية خاصة، الأمر للأقوى، وكل ضعيف سيكون أكثر ضعفا وسيكون لقمة سائغة للآخرين، وفي مجال الثقافة يقولون لك إن المبادئ والأخلاق في الثقافة هي سوق حرة أيضا وما معنى أن تكون الحكومة ملزمة بالتدخل في مجال الأخلاق والثقافة عندها سيكون الدين حكوميا بامتياز، لا ينبغي للحكومة أن تتدخل، عليها أن توفر الحرية والأمن ليقول كل إنسان ما يريد وليفعل كل إنسان ما يريد، ليس مهما أية مبادئ تعلو ثقافة المجتمع وأية مبادئ تسقط.

ختاما لقد اخترت هذه المواضيع لأنني على علم أنها مواضيع يمكن أن تكون مفيدة لكم. شكرا لحسن استماعكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

العلم والأيديولوجية والحياد

بسم الله الرحمن الرحيم

ينبغي التمييز بين الحضارة والثقافة فهناك ظاهرة يُطلق عليها المدنية والحضارة وهناك الثقافة التي تتمتع بها كل أمة ولا ادعي إمكانية الفصل والتمييز بينهما بشكل كامل، لكن يمكن التمييز بينهما بشكلٍ إجمالي وفي بعض الموارد أي لا توجد بالضرورة بين هذين المعنيين ملازمةٌ علمية منطقية تامة، لأن هناك أموراً في المجتمع تكون دخيلة على ثقافة الشعب لكنها تعتبر من مكونات حضارة ذلك المجتمع، فالكثير من الأمور الإيجابية الموجودة اليوم في الحضارة الغربية ليست ذات جذور غربية بل جاءت من أماكن أخرى.

هنا ينبغي التوضيح أن الغرب عمدَ وطوال فترة القرن التاسع الميلادي إلى الخامس عشر منه على الانتفاع من خيرات المسلمين وعلومهم وحضارتهم وثقافتهم وبعد القرن الخامس عشر الميلادي بدأت الثورة الصناعية والحداثة والمذهب الإنساني والمذهب العقلي والمذهب التجريبي كل ذلك جاء بعد احتكاك الأوروبيين بالإسلام وعليه فإن شكر الغرب على العلوم الجديدة هو بمثابة شكر الإنسان لشخص ما على إعادته قسماً من تراثه له ولا مشكلة في الشكر ولكن ينبغي أن نعلم أساس القضية أولاً، إن تفضل الغرب على المسلمين هو بمثابة تقديم الشكر لسارق سرق محفظتنا ودعانا إلى العشاء وصرف علينا من أموالنا! هذا هو حال المسلمين في التعامل مع المدنية والعلوم الحديثة، بالطبع دون محاولة التقليل من تطور العلوم والتقنية الحاصل في الغرب خاصةً في المئة

عامٍ الماضية وتحديداً الستين عاماً الأخيرة حيث حدثت طفرات غير مسبوقة في مجال العلوم التقنية في الغرب وهي من نتاج الغرب أنفسهم ولكن ينبغي أن نعيا أن بداية ذلك كان من العالم الإسلامي، فالأساس كان من المسلمين وتحول بعد أربعة قرونٍ إلى ما نشهده اليوم.

خلاصة الأمر ينبغي أن نُفرّق بين التلمُّذ والعبودية ولا بأس أن نحترم القدرة الآلية والتقنية القوة العقلانية لدى شعب بعينه وأن نتعلم شيئاً منه ولكن لنا في ذات الوقت أن نتحسس عقولهم ودينهم ومعارفهم الإنسانية ومفاهيمهم النظرية وأن نسأل، لا ينبغي أن يختلط علينا الأمر إنهما موضوعان مختلفان تماماً ومستقلان، فالمغالطة باتت اليوم رائجة فلو أرسل الغرب صاروخاً إلى الفضاء أو حصل على مرتبة علمية أو تركزت عنده أموال الدنيا أو امتلك جيشاً قوياً، فهذا لا يعني بالضرورة أن معرفته للإنسان والثقافة والفلسفة سليمة، إن تقليل ثقافة ولباس وقيم الغرب في عالم اليوم وحتى في مجتمعنا لا يعني ألبتة قدرت استبدال هذه الثقافة ليس الأمر قائماً على تفوقها النظري بل في القدرة العسكرية والاقتصادية والإعلامية والثروة التي تمتلكها.

دعوني أطرح سؤالاً: لو كانت أوروبا الغربية والولايات المتحدة من البلدان الفقيرة فهل كانت أنموذجاً يحتذي به الشباب؟ وهل كان هناك من يرغب في تقليد لباسهم وتصفيف شعرهم أو طريقة تحدثهم؟

القضية مرتبطة بالثروة والمال، هل لاحظتم الفقراء في المجتمع؟ إنهم يُقلدون حركات وسكنات الأغنياء، لو لاحظتم أبناء الفقراء فإنهم يقلدون أبناء الأغنياء وطريقة تحدثهم ولكن رغم ذلك فمن يستطيع تأكيد أن أبناء الأغنياء هم أكثر مشاعراً من الآخرين وأن مشاعره نابعة من كونه ثريٌّ ويمتلك القوة، لماذا ينبغي علينا تقليدهم على الدوام؟ كل هذا الأمر عبارة عن حالة نفسية لا أكثر.

دعوني أوجه لكم سؤالاً آخر: لماذا تتحدث جامعات العالم عن فلسفة (كَنْت) و(ديكارت) و(استوارمنت)و (جون لاك) و(وليم جيمس) وأمثالهم وصولاً إلى (أيزا برلين)، هل سمعتم جامعةً ما تتداول أسماء حكماء الهند أو الصين؟ لماذا لا يتم تداول أفكار عظماء الهند أو الصين؟ هل يتم تجاهل ثقافة الهند لأنها فقيرة ثقافياً؟ ليس لأن ثقافة الهند

أكثر فقراً من الثقافة الغربية، حيث لا يمكننا مقايسة ثقافة الهند ولا الصين وحتى بعض الثقافات العقلية والمعارفية الأفريقية والأوروبية ما قبل الآن مع الثقافة الغربية السائدة اليوم فكل ثقافة لها مباحث عميقة وينبغي أن نعقد فصول دراسيةٍ متعددة للخوض فيها، لنا أن نتساءل: لماذا لا يتم التطرق إلى هذه الفلسفات في أي مكان في العالم؟ لأن الهنود فقراء وجياع، لماذا ينبغي أن نتابع عالم الاجتماع الأمريكي والأوروبي الغربي أو العالم الاقتصادي الألماني أو الإنكليزي أو الفرنسي؟ ماذا يقول وماذا يقترح وماذا يُنظِّر؟ فلو عزلنا مسألة الاقتصاد عندها فليقل هؤلاء حول الفلسفة ما شاء لهم أن يقولوا، نستمع لهم ثم نُقيم ونختار ما نراه صحيحاً، مع الأسف فإن هذه النفسية غير موجودة في مجتمعاتنا وجامعاتنا وكل العالم الإسلامي لقد قتلوا هذه النفسية في جامعات الشرق في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لقد أجهزوا على شخصيتنا وليكن في معلومكم أن عدم التوجه إلى الثقافة الهندية أو الصينية ناجمٌ من فقرهم اقتصادياً وليس من فقر ثقافتهم إزاء الثقافة الغربية الأنجلوسكسونية فهي ثقافة أوروبية غربية باستثناء بريطانيا والولايات المتحدة إنها من أفقر الثقافات الفلسفية في العالم ولست متجاملاً في قولي هذا يمكنكم الرجوع إلى أساتذتكم وبعض الطلبة الذين درسوا الفلسفة الشرقية والغربية والذين هم على اطلاعٍ بالمفاهيم الإسلامية، فالفلسفة الغربية هي أكثر فلسفات العالم فقراً وهي فلسفة ضد الفلسفة، لأن من أكبر افتخاراتهم هي الفلسفة التحليلية والبراغماتية والتي تعني نفي الفلسفة يقول هؤلاء: ليس لدينا إشكالية في كافة القضايا الفلسفية المهمة وليست لنا مشكلة عقلية، وجوابنا عليهم: أنكم لا عقل لكم ألبتة! وعليه فهم ينظرون إلى أن العالم يخلو من مشكلة، إن شعار الفلسفة التحليلية هو أن كل عراك الفلاسفة والحكماء وكتبهم الضخمة في الفلسفة والكلام والاخلاق النظرية والإلهيات ومما شاكل ذلك يعود إلى سوء فهم لفظي وحسب وليس هناك من مشكلة أصلاً، إنها أكبر إنجازات الفلسفة الأنجلوساكسونية وأهمها على الإطلاق فلسفة (لانكوستيك[1]) أو الفلسفة اللسانية والفلسفة التحليلية الأنلياتكية[2]، إنها أعلى مراتب فلسفتهم، فأمريكا لم تكن موجودة قبل قرنين من الزمان فقد هاجر جمعٌ من الأوروبيين والذين أبعدوا من ديارهم إلى القارة الأمريكية وشكّلوا حكومة تحت العلم

1. linguistique.

2. analytic philosophy.

البريطاني ثم استقلّوا وليس لأمريكا تاريخ في حقيقة الأمر ولا ثقافة وهي بلد لا تاريخ له إنها تختلف عن أوروبا فبريطانيا وألمانيا وفرنسا وأوروبا الشرقية بلدان ذات ثقافة وتاريخ فلماذا إذاً يتم الاهتمام ببلدٍ لا ثقافة ولا تاريخ له؟

يتم ذلك لأنه بلد ثري، أليس كذلك، بلدٌ يتمثل في القوة والإعلام ليس لأنه ذو حجة قوية في المنطق والاستدلال وليس لأنه قوي في الفلسفة لكن المغالطة تكون مؤثرة حتى في أذهاننا نحن، فلو تطرق فيلسوف أوروبي أو أمريكي عن نظرية ما وطرح فيلسوف هندي نظرية مقابل ذلك، فإننا نلتفت أولاً إلى مقولة الأمريكي والأوروبي، الحقيقة أن الأمريكي لا يستطيع أن يقول أكثر من الهندي بل هو دونه وهذه أمورٌ بتنا نؤمن بها باللاشعور وأصبحت جزءاً من أفكارنا.

النكتة الثانية والمهمة التي أريد الإشارة إليها هنا: رغم أنني أطلت على الطلبة الجامعيين وهناك زحامٌ في الحضور في الطابقين إن الغرب الذي حقق التطور والتقدم العلمي والتقني في القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا أصبح يشعر ومنذ القرن الماضي أنه ليس بحاجة إلى الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة والسبب كما يقول الغربيون أن الغرب حقق التقدم فلا حاجة له إلى الإلهيات والعقل والفلسفة ولسنا بحاجة لنعلم لماذا جئنا إلى هذا العالم وما هو السبب في الخلقة، هذه نص عباراتهم حيث يقولون لسنا بعد اليوم بحاجةٍ إلى درك غاية العالم، لسنا بحاجةٍ لنعرف ميكانيكية ذلك ما لنا وغاية العالم؟ نريد أن نعيش فقط ولذلك فقد باتوا يُرددون أن ليس للعالم غاية ولا للإنسانية غاية وعليه فما الداعي ليكون للسياسة والفلسفة وأمثالها غاية تذكر، هذه مباحث ثيوقراطية[1] إنها عين تصريحاتهم حيث يقولون الكلام حول الفلسفة كلام العاطلين والتساؤل الذي يقول: لماذا جئنا ومن أين وإلى أين نذهب ولماذا نعيش حياتنا، كلامٌ فارغ، فكر كيف تقضم أكبر كمية من الطعام فالوقت لا يسع، فكر، برمج، خطط، تجشم القليل من العناء وتلذذ بالمزيد ولا تشغل البال في ماذا

---

١ . الثيُقراطية، بضم الياء أو الثيوقراطية (بالإنجليزية: Theocracy) وتعني حكم الكهنة أو الحكومة الدينية او الحكم الديني.
تتكون كلمة ثيقراطية من كلمتين مدمجتين في اللغة اليونانية هما ثيو وتعني الدين وقراط وتعني الحكم وعليه فان الثيقراطية هي نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته مباشرة من الإله، حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين الذين يعتبروا موجهين من قبل الإله أو يمتثلون لتعاليم سماوية، وتكون الحكومة هي الكهنوت الديني ذاته أو على الأقل يسود رأي الكهنوت عليها. (راجع: ويكيبيديا)

نصنع ولماذا جئنا إلى هذه الدنيا ولما هناك عالم حياة وموت وماهي المسؤولية وما هو الواجب والتكليف ما هذه الأفكارإنه شعارفرانسيس بيكون[١] الذي يُعدُّ من عرابي العلوم الجديدة والتجريبية في الغرب وقد كان هؤلاء من تلامذة الجامعات الإسلامية في أواخر القرون الوسطى لم يتحدثوا عن هذا الموضوع بتاتاً، لقد حرفوا تلك التعاليم وجعلوها ذات طابع متطرف وكان شعارهم: ليس مهماً من الآن وصاعداً لماذا وجد العالم والإنسان المهم ماذا نصنع كي نستغل الدنيا ونتلذذ بها أكثر، حتى لا تُطرَّإلى رفع رأسك إلى الأعلى وتتساءل ماذا يجري إمضي في حال سبيلك، أما الثقافة الشرقية والرياضيات الهندية والصينية والتي عُرفت تحت مُسمى العرفان الشرقي فقد ذهبت إلى الجهة المعاكسة للنظريات الغربية تماماً، فالشرقيون يقولون لا تنظرإزاء قدمك هذه ليست مهمة، ارفع رأسك إلى الأعلى اجلس في زاوية ما وعِش عمرك الخمسين كله في التأمل في العوالم الروحانية مالك ولمعرفة الحق وما هو واجبك وماذا عن اقتصادك إلى ما سيؤول المجتمع وكذا السياسة والعلم ليس مهماً ماذا تلبس وماذا تأكل إنها ليست مهمة، إسبرأغوار العالم، ليس مهماً ما يحصل حولك، لكن الثقافة الإسلامية تعارض وتختلف مع المدرستين المتطرفتين حيث يقول الشارع المقدس: عليك أيها الإنسان أن تفكرفي سبب وجود الخليقة وكيفية العيش معاً، ينبغي أن تعيش بشكلٍ صحيح لا ينبغي أن يكون يوماك متساويين لا في الجانب الروحاني ولا المادي، ينبغي ان يحرك الإنسان عقله والتقديريعني القياس والتدبيريعني محاسبة الفكرإن المجتمع الذي لا يستفيد من العقل ليس مجتمعاً دينياً، والشخص الذي لا يستخدم عقله ليس بالإنسان المؤمن في الثقافة الإسلامية، ينبغي تفعيل العقل والفكروحل المشاكل التي تحيط بالإنسان وهذا عين العبادة حيث يقول البعض ياسيد نحن منشغلون طوال الحياة فمتى نحصل على الرقي والتسامح الروحاني العبودي وهذا سؤال يظل في الثقافة الغربية بلا جواب وكذلك في الثقافة الشرقية الهندية الصينية الجواب محصورفي الثقافة الإسلامية وهوإنك أيها الإنسان عندما تتجه صوب العمل والدرس والجامعة والسياسة والاقتصاد والحياة هوكل ذلك عبادة شريطة أن تكون البوصلة صحيحة، عندها تكون في حالة

---

١ . فرانسيس بيكون (بالإنجليزية: Francis Bacon) (م ٢٢ يناير١٥٦١ – ٩ أبريل ١٦٢٦) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب». من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس. (راجع: ويكيبيديا)

عبادة، عندها يكون المختبر مسجداً والمصنع وكل مكان مسجد، عندما يكون الهدف إنسانياً وإلهياً فإنه يصبح عبادة وكذا العناية بالأسرة والطفل والزوج واحترام الأبوين كل ذلك عبادة تصبح صلاة ولكن ينبغي أن تفعل ذلك وتؤدي صلاتك أيضاً، في الحديث قَالَ الإمام الصادق عليه السلام: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَلا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاه»،[١] لا تتصوروا أن ما أقوله من البديهيات، إنه آخر المباحث الفلسفية وأحدث ضجة في عالم اليوم إنهم إلى الآن عاجزون عن الإجابة، إفراطٌ عند هؤلاء ونظيره عند أولئك، قالوا نضع الميتافيزيقيا جانباً وننمي العلم، لكن الإسلام ينمي العلم تحت يافطة الميتافيزيقيا هم رفضوا النظرية الإسلامية وقالوا إن في هذا تضاد بين العلم والماديات عليك اختيار أحد الطريقين: إما الإلهيات والمقدرات والمبدأ والمعاد وأمثال ذلك والمباحث العقلية والفلسفية والإلهيات، وإما أن تأتي إلى المختبر وتقوم ببحث استقرائيٍّ مختبريّ مادي، عليك اختيار أحد الطريقين، هنا كانت بداية انحراف الحضارة الغربية الجديدة، هنا قالوا إن العلم ليس تابع للفلسفة بعد اليوم ولا للدين لقد أصبح مستقلاً، ترى لمن أصبح هذا العلم يتبع؟ لقد أصبح عبداً للرأسمالية وأصحاب القدرة والثروة وعندما ينأى العلم بنفسه عن الأخلاقيات والإلهيات ويصبح علمانياً سيكون في خدمة الاستعمار العالمي في خدمة القتل، في خدمة المخدرات والجنس والعنف والكذب وغسيل الأدمغة وحرب الإعلام في العالم، لقد جاء هذا الفكر إلى الجامعات الإسلامية والشرقية ليقول إن الأيدلوجية والالتزام وأمثالها عصبية مكررة إنها دوغماتية[٢] ينبغي أن يكون العلم حراً فالمحيط الجامعي لا يمكن أن يكون محلاً لطرح الأفكار اللهم إلا المفهوم الذي يطرحونه فريتينغ كينغ[٣] أي التحرر من كل قيد ومسؤولية وهذا ما أدى بنا إلى الوصل إلى النسبية والتشكيك في كل شيء حيث قالوا إن كل المفاهيم تاريخية ليس لنا مفهوم يتعدى التاريخ وليس هناك حكم يتعدى التاريخ أيضاً ولذلك ليست هنالك أية شريعة أبدية هذه الأمور يجب ان نقف على مكان صدورها، قالوا ينبغي أن

---

١ . من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٥٦؛ بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٢١؛ كنز العمال، ج ٣، ص ٢٣٨.

٢ . الجزمية أو دوغماتية (أو دوغمائية) هي التزمّت لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشك. (راجع: ويكيبيديا).

3. freedom from

تكون الجامعات حرة من أي قيد من مساعدة على إنماء العلم بعيداً عن الميتافيزيقيا والإلهيات والعقل الفلسفي المغلق وعالم الفلسفة المغلق نحن بحاجة إلى عالم مفتوح وبعدما يقتنع الطالب والأستاذ والمختبر والأكاديميات أن عليهم عدم الخوض في الأصول المتقدمة عليهم أن يفكروا بحرية مطلقة عندها سيكونوا غير معنيين ومحايدين ومن خلال طرح الافكار الخاصة بهم أصبح هناك جيل محايد وغير ملتزم إزاء الإنسان والرب وعليه فلا معنى لحق الله وحق الناس وعندما يُسألون من أنتم؟ يقولون نحن خَدَمَةَ العلم ينبغي أن يكون العلم للعلم والفن للفن وليس للأيدلوجية أو العلم من أجل خدمة الخلق أو خدمة القيم الاخلاقية وعندما يتم إخراج الفنانين والجامعيين والعلماء والمفكرين من صف الإيمان والرب ويصبح الجميع تحت يافطة الحياد، هكذا يصبح العلم غير منحاز لفكر الأيدلوجية، بعدها طرحوا مسألة النظرة العلمية للقضايا وقالوا نحن محايدون لا معنى للحق والباطل أمامنا في العلوم والأمر بالنسبة لنا سيان.

وعندما ينتهي الامر إلى إخراج العلم من دائرة الدين يقولون لك نحن نواصل المطالعة والبحث في مختبراتنا وعندما تسألهم هل ترغبون بوظائف لإمرار المعاش وتكوين الأسرة سيقولون لك سنفعل أي شيء لا يضر بالعلم وعندها يتم اقتراح ثمنٍ معين لهذا العلم فتحصل الموافقة، لأن الهدف خدمة العلم ولا بأس من الارتزاق من العلم وبعد فترةٍ يأتي رأسماليٌّ ويقترح سعراً مضاعفاً فيميل العالم إليه ويقول إن هذا أكثر علمية لما يأتي رأسماليٌ ثالث ويضاعف المبلغ يتحول إليه هكذا وهكذا إذا ما اقترح عليهم العمل في مصانع الأسلحة الكيماوية فمن خلال إيمانه بالعلم من أجل العلم والسعر المناسب يتحول العالم إلى قاتل دون أن يعي، لقد حولوا الإنسان إلى آلة عندما أبعدوه عن الأيدلوجية والدين والأعراف تحت يافطة محاربة التعصب والخرافات والرجعية وبواسطة هذه العناوين تم إقصاء دعاة التنوير والفنانين والجامعيين عن جادة الصواب والحق والرب وتم سحبهم من جانب المحرومين والفقراء وأخذوا بأيديهم إلى المعسكر الإمبريالي والاستكبار العالمي، هل تتصورون أن صُناع القنابل النووية والكيمياوية هم جناة بالفطرة؟ أغلبهم جامعيون وعندما تتعرفوا عليهم تجدوهم أناساً محايدين ولو دخلت منازلهم لشاهدت أنه يرسم اللوحات الفنية، يجلس في المقاهي ويرتشف الشاي والقهوة ويتحدث كما أدعياء التنوير معظم من

يعمل مع الاستبداد ليسوا مجرمين بطبيعتهم إنهم علماء محايدين غير متعصبين وممن يقول لك لا علاقة لي بالأسباب والغايات والهداف والأيدلوجيات العلم من أجل العلم أريد النظر إلى الموضوع بصورة علمية بحتة وعليه سيعمل هذا العالم مع من يدفع أكثر كما هو حالهم اليوم في المختبرات الغربية الكثير منهم يحبون تخصصاتهم لكنهم لا يفكرون بالنتيجة لاحظوا أن أنشتاين صاحب نظرية النسبية أصبح في خدمة من؟ في خدمة قصف ناكازاكي وهيروشيما، دعوني أذكركم بشيء جميل لقد أعلنت اليابان الاستسلام قبل قصفها لكن أمريكا قالت هذا لا يصح لقد صنعنا القنبلة وعلينا الاستفادة منها على أية حال! وكانوا قد زودوا الطائرة الحاملة للقنابل الذرية بالوقود وتم تعبئة القنابل وأقلعت الطائرة وقصفت ناكازاكي ومن ثمَّ تقرر ضرب مدينة أخرى أخشى أن أذكر اسمها بصورة غير صحيحة، على أية حال وصل الطيار الأمريكي إلى نقطة الصفر لإلقاء القنبلة فلم يجد المدينة المحددة وهذا مُدون في سجلات الأمريكيين فقرر الطيار العودة لكن القيادة أبلغته بأن عليه إلقاء القنبلة على أول مدينةٍ تصادفه وهكذا فعلت نظرية العلم من أجل العلم فعلتها وعلينا أن نتعلم من اليابان المثابرة الدؤوبة في أداء العمل، سمعت أن اليابانيين يتظاهرون ويضغطون لتقليل العُطل ورغم ذلك لا يتصور البعض أن هذا البلد يتمتع باستقلال سياسي بعد الحرب لماذا؟ لأنهم أمنوا بنظرية العلم من أجل العلم، تلاحظون أن هناك جائزة نوبل السنوية للسلام والأخير صانع الديناميت الذي يفتك بحياة الناس هذا هو مصير العلم والتقنية إن لم يكن لها هدف غائي أو أيدلوجي إنه العلم العلماني المنفصل عن الميتافيزيقيا علم يقول إنه غير مرتبط بالإلهيات أو الأخلاق أو القيم ولو كان العلم هكذا فبأي شيء سيكون موصولاً باللا قيمية هذا هو مصير العلم بلا قيم إن لم يكن التخصص والعلم في خدمة المحرومين والفقراء وإن لم يكن في صفِ الله فإنه لا محالة سيكون في صف الظلمة أعداء الله والإنسانية وربما تم ذلك دون أن تعلم ودون أن يكون لك قصور أو مسؤولية، لكنك شئت أم أبيت ستكون مطيةً لهمْ فربما كان شخص ما يجلس خلف حاسوبه ولا يدري أن عمله سيؤدي إلى انتهاك حقوق الإنسان، ارتكاب الجرائم وقتل الأبرياء ربما كان ينوي القيام بعمل علمي بحت ولو لم يكن الإنسان على وعي ويقظة ولو لم يسأل نفسه في أي مجال يعمل وماذا يستفيد من تخصصه فإنه سيكون مع الظلمة بشكلٍ أولى ولو لم يسأل

الإنسان من المستفيد من علومه وما هو هدفه وما هو ارتباط العلم والتخصص الذي بين يديه مع القيم الميتافيزيقيا والإلهيات والأخلاق مع المبدأ والمعاد وإن لم يفعل سيكون شريكاً مع الظلمة ولكن بشكل غير حِرفي والكثير من أمثال هؤلاء لا يتقاضون أموال طائلة لقاء أتعابهم، إنهم عاشقون للعلوم لكنهم من الحمق والاحمق هو من يفعل شيئاً دون أن يسأل سبب ذلك والأحمق يختلف عن السفيه والمجنون وعليه فهو لا يدخل مستشفى المجانين فهي ليست خاصة بهم، الحمق هم من يحولون الناس جميعاً إلى مجانين، الأحمق هو من يعمل ولا يدري ماذا يفعل حتى لو كان من أصحاب الأموال وذوي الاختصاصات ويساهم في إدارة البلاد هناك حمق اقتصاديين وحمق في السياسة والاجتماع الحمق هو من لا يعرف فوائد وأضرار العمل الذي يقوم به، إنه كالآلة ينتج ويستهلك في دائرة مغلقة.

سُئِلَ الإمام علي عليه السلام من هو المؤمن؟ فقال: إنه من يحاسب نفسه ويسأل من أين أتى وإلى أين سيذهب ولماذا جاء،[1] لكن الحمق لا يسألون أنفسهم هذه الأسئلة وعليه فإن ما تعاني منهم البشرية اليوم هو نتيجة تصرفات الحمق الذين يُديرون المجتمع وهكذا فإن واحدة من زوايا انحراف الغربيين ومن يقلدهم إنهم فككوا العلم عن الحكمة والإلهيات وقالوا إن تقدم العلم وتطوره ينبغي أن يكون مع تراجع الدين والإلهيات، اللافت أنأن الغربيين كانوا يبحثون عن الله في المجاهيل فكل شيء جهلوا حكمته وسببه قالوا: ننسبه إلى الله لأننا نجهل معناه وبعد فترةٍ من تطور العلم كانت المعادلات المجهولة تجد حلاً عندهم، على سبيل المثال طبقة الأرض والغازات والانبعاثات الحرارية منها، كانوا يقولون حسناً لقد فككنا هذه الرموز ولم نعد بحاجة إلى الله وهكذا كانوا ينسبون المجاهيل إلى الله لكن الثقافة الإسلامية كانت تبحث عن الله في الضياء والنور وعندما يتوصل الإنسان لمعرفة أسباب وقوع الزلزال وهطول الأمطار ووقوع السيول وتعافي الإنسان من الإمراض عليه أن يتعرف على الله أكثر فأكثر لا أن يرمي كل مجهول في عهدة الرب وعندما تزول الأسباب ويتم اكتشاف العلل تنتفي الحاجة إلى الله وهذا ما حصل في الغرب فكلما تقدم العلم والاكتشافات تراجعت الحاجة إلى الدين والقيم والأخلاق لكن الوضع في الثقافة الإسلامية على العكس تماماً لمـّا بُعِثَ الرسول صلى الله عليه وآله بالرسالة كان عدد المتعلمين في المجتمع

---

١ . بحارالأنوار، ج ٥٨، ص٩٩؛ شرح اصول الكافي، ج ١، ص ٥٧١.

الجاهلي العربي لا يتجاوز أصابع اليد والبعض قال أقل من ذلك لكن الرسول حوّل هذه المجتمع إلى أكثر المجتمعات تطوراً ومدنية وعلماً وثقافة على وجه المعمورة وبات الأكثر ثراءاً والأعظم اقتصاداً وقوة بفعل شعارات الميتافيزيقيا، أي في ظل الأخلاق والإلهيات والعقل والعدل والقيم، لأن الله وكما هو في أحد صفاته وأسمائه نور وعليه فليتم البحث عن الله في النور وليس في الظلمة وعندما يصل الإنسان إلى حقيقة علمية أو اكتشافٍ لا ينبغي أن يركن الله أو الدين لكن الوضع كان كذلك وللأسف عند الإلهيات الغربية والمسيحية أما في الإلهيات الإسلامية ليس كذلك فالإلهيات تحتضن العلم وتوجهه وتفسره ولو خضنا في العلمانية في باب المدنية والعلم لبدأنا نواجه المشكلات، هذه أمورٌ يجهلها الكثيرون يتصورون أنهم يعلمونها ويُريدون نقلها للآخرين وهكذا فإن تطور الإنسان ليس مانعاً لقدرة الله، لأن الإنسان هو قدرة الخالق والإنسان في حد ذاته آية من آيات الله العظمى، والإنسان أكبر الآيات والأدلة على وجود الخالق لكننا نرى البعض يُحاول ومن خلال الإنسان أن ينفي وجود الله سبحانه وتعالى، الإنسان هو أكبر البدائع الإلهية ويستدل من وجود الإنسان على وجود الله ولا يجوز العكس وينبغي تعزيز الإلهيات لا تضييعها، يقول البعض أن الذكاء المصطنع والروبوت الموجود في عالم اليوم يعد نوعاً من الخلق وعليه فإن الخلق الإلهي سيكون عُرضة للتساؤل وكذلك قضية الاستنساخ ولا أريد هنا الحديث عن موضوع الاستنساخ ينبغي البحث أولاً في ماهية الموضوع وكيفيته ولماذا يتم المبالغة فيه إلى هذا الحد، أريد الخوض في الأمر من الناحية الأخلاقية والدينية وأقول لنفترض أن الامر قد حصل فعلاً فماذا يثبت هذا؟ إنه يثبت عظمة الخالق الذي خلق الإنسان وأمكنه من أن يفعل كل هذه الأمور، يتصور البعض أن الإنسان كلما صنع أشياء وتطور أكثر ينبغي أن يتراجع عنده الإيمان بالله، يقولون لقد صنع الإنسان الروبوت وبات الخلق الإلهي مهدداً، أقول إن فعل الإنسان وتطوره علمياً ليصنع الروبوت والاستنساخ يعزز وجود قدرة الذات الإلهية ويبين صحة الوصف الإلهي للإنسان: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] وهو الموجود الذي يمكنه الإبداع، هذه آيات إلهية في حد ذاتها، لاحظوا يمكن النظر إلى الإنسان وتطوره العلمي وإبداعه من وجهتين في الثقافة الغربية كلما تطور الإنسان وتقدم ضعف دينه

---

١ . المؤمنون: ١٤.

وإيمانه بالله حتى تحول الامر عنده إلى قضية غير معرفية وقضية شخصية وذوقية كالخرافات ولكلٍ الحق في القبول أو الرفض، إنها التعددية، فالكل على حق والكل حرٌ في خياره، الكل محترم ولكلٍ الحق في ما يريد لكن الثقافة الإسلامية ترى أنه كلما تطور الإنسان زاد إيمانه بالله، لأن التطور يدعو الإنسان للإيمان بالله أكثر فأكثر وعليه فإن الثقافة الإسلامية تنظر إلى العلوم والتطور إلى أنها في طول ما بعد الطبيعة والإلهيات والفلسفة وليس في عرضها، أي إن الإيمان والعلم يكملان بعضهما البعض ولا تعارض فيما بينهما ويمكن الاتكاء على العلة ومقتضيات الذات من جهةٍ من الناحية الفلسفية وحكمة المُتألِّه الذي جاء للتشكيك بين الأمور الذاتية والعرضية عن الأمور الطبيعية والقشرية فلا معنى لنفي التوجه وسد باب التطور العلمي إن نظرة الفيلسوف إلى الحركة تختلف عن نظرة الفيزياوي لها لكنهما لا ينكران بعضهما البعض ويمكن للإنسان أن يرى ويصف الأشياء بعين الفيلسوف والميتافيزيقي ذو النزعة العقلية المُتألّهة، أي أن يصف الحركة والتطور في الإلهيات بمعناه الشامل في الأمور العامة على أساس القوة والفعل ويأتي في الجانب الميكانيكي والطبيعي والفيزياوي لقولبة الأمور وهي غير منافية لبعضها البعض ويمكن للبعض أن يخوض في علّة فاعلية الحركة وغايتها وسببها وفلسفة التطور في العالم ويأتي آخرون أو ذات مجموعة أولى فينظر للأمور من زاوية أخرى ويخوضها في النوعية الهندسية والتعاريف الرياضية للتطورات الطبيعية وهذه نظرتان من زاويتين للظواهر في العالم إحداها تفسير فلسفي والثانية تفسير علمي والنظرتان ممكنتان ولازمتان أيضاً والنكتة الأخيرة التي أريد التنويه إليها حيث يكثر السؤال فيها وتكون الأجوبة غير دقيقة فيها ومن يخوض في هذه الأجوبة من منظار ديني يخطئ أحياناً، خلاصة الأمر إنه ليس الإنسان ومن أجل البحث في تطور العلم وطرح تفسير علمي وتجريبي للعالم والطبيعة أن ينكر التفسير الماورائي للعالم لا بل إن إنكار ما وراء الطبيعة ليس تطوراً، بل إنه يضرب العلم ويُزلزل أقدامه وهو الأمر الحاصل حيث نشهد ذلك من ذو نصف قرنٍ وإلى يومنا هذا وبات من البديهيات في فلسفة العلم والمعارف حيث يقولون ليس لنا تفسير علمي قطعي، فالتفسير العلمي يعتمد على تفسيرٍ ميتافيزيقيٍ ونموذجٍ انطباعيٍ فلسفيٍ يطلقون عليه اسم المعرفة يقولون فيه إن كل تفسير علمي ونظرية علمية تجريبية تعطي معناها في إطارٍ معرفي خاص، هل تعلمون ما

معنى ذلك؟ هذه يعني أنه ليس لدينا جسد واحد ومستمر باسم العلم ويعني هذا أنه ليس لدينا شيءٌ باسم الطريقة العلمية والأهم من ذلك أنه ليس لدينا شيء اسمه تطور العلم، لأن تطور العلم يعني أن العلم وحدة واحدة متواصلة ترى التكامل من خلال السير الطولي في خطٍ مرتبط دائم، هذا هو معنى التطور أليس كذلك؟ إنهم يقولون إن العلوم غير مرتبطة مع بعضها البعض إضافة إلى أن نظريات العلم الواحد غير مرتبطة منطقياً وعليه فنحن لا نملك جسد واحد ومستمر باسم العلم أساساً وآخر النظريات في فلسفة العلم في الغرب تقول ليس عندنا شيء نطلق عليه اسم تكامل العلم وما هو موجود عبارة عن أزمة في العلوم وبعد كل التصلب في الآراء حول العلم، يقولون إننا نؤمن بتعددية العلوم والتجارب وهكذا باتت الفلسفة والإلهيات والأخلاق والدين والعرفان حتى العقل عرضةً للتشكيك باسم العلم والعلوم الجديدة وقد بات ذات العلم اليوم ضعيفاً يتهاوى بفعل كل ريح ولمن يريد الخوض في المزيد فليرجع إلى كتب فلسفة العلم وبعضها تُرجم إلى الفارسية ويطالع سير نظريات فلسفة العلم من المعارف (لكتوس) و(بوبر) إلى معارف (توماس كوهن)[1] هذه آخر نظريات مُنظّري الفلسفة الحديثة للعلوم والمعارف في الغرب وقد طُرحت خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، لاحظوا فجميعهم يقولون إن تاريخ العلم لم يكن عقلانياً هذه هي عباراتهم بالدقة ليس هناك انضباط منطقي للعلم ولن يكون وعليه فإن فلسفة العلم منتفية أساساً ويمكننا كحد أقصى الحديث عن العلوم الاجتماعية وعلماء النفس لا عن شيء اسمه فلسفة العلم ويقولون إن الطرق العلمية وتعريف العلم وموضوع العلم ومنهجيته كلها أمورٌ لا معنى لها، فهذه ترجمة دقيقة لما يقولون في آخر نظرياتهم في باب فلسفة العلم والمعرفة في الغرب ويقولون أيضاً يمكن تعريف العلم كحد أكثر بالغرض إذا كان ذلك ممكناً، ثم يقولون لا يمكننا حتى تعريف العلم بالغرض والغاية ويمكن في أكثر تقديرٍ تعريفهُ على أنه نتائج متفرقة للنظريات العلمية وعليه فليس أمامنا شيء باسم دائرة واحدة ومحددة للعلم يمكن استنتاجها ووضعها إزاء الفلسفة والإلهيات وحتى أمام الخرافات، فهم يقولون اليوم كنا نقول فيما مضى إن العلوم غير التجريبية كلها خرافة حتى الدين والمذهب والعرفان والأخلاق والوحي وحتى الفلسفة هي من الخرافات، لكننا اليوم نقول

1. Thomas Cohen.

نُقِرُ ونعترف أن العلم خرافة أولاً وأن كل الخرافات علمية على درجة واحدة وهذا جميل، الأشخاص الذين كانوا يقولون يوماً إن كل شيءٍ عدا العلوم التجريبية سواءً المباحث الخاصة بالمذهب الوضعي والنظريات المختلفة والأخبار هي علمية شريطة أن يتم إثباتها أو إبطالها بالتجربة لكنهم اليوم يقولون إنه لا يمكن بالتجربة إبطال أو إثبات أي شيء، فلو فصلنا العقل والميتافيزيقيا عن التجربة فإنه لا يمكننا إثبات أو إبطال أي شيء اللهم إلا إعطاء تقرير جزئي خاص في موارد خاصة وحسب وهذا يعني لا وجود للقانون العلمي ولا مفهوم للبيان العملي عندهم، يقولون إنهم توصلوا اليوم وفي خاتمة المطاف وبعد كل ذلك التطرف والتعصب إلا أن عليهم أن يخفضوا رؤوسهم ويعلنوا أن العلم خرافة أيضاً ولا وجود للمعرفة العلمية ولا وجود للعلم أساساً ليس لدينا اليوم كما يقولون شاخصٍ يمكننا من خلاله التمييز بين العلمي وغير العملي وعليه حتى الخرافة يمكن أن تكون علمية، أي أن الأفراد الذين قالوا إن الميتافيزيقيا خرافة، لأنها غير تجريبية يقولون اليوم إن العلم خرافة أيضاً، هذا نهاية ما توصل إليه العلم العلماني الذي أرادوا له أن يكون محايداً وأن كل شيء ينبغي أن يكون من أجل العلم ولا شأن لهم بما بعد الطبيعة والأخلاق والميتافيزيقيا وأمثالها إنهم يستطيعون قبول تفسير علمي واحد وبشكل مؤقت، لماذا الآن التفسير العلمي بحاجة إلى أصول ما بعد الطبيعة والفلسفة؟ وهو ما نفقده اليوم وعليه فإن الارتباط بين العلم والفلسفة قد قطع وهذا يؤدي أولاً إلى تردي مستوى العلوم التجريبية وإذا ما تم إنكار تفسير ما بعد الطبيعة للعالم فإن الإنسان لن يكون بوسعه أن يمتلك تفسير علمي للعالم وهذا ما توصلوا إليه بعد سبعة أو ثمانية عقود وهذه العبارات التي أذكرها لكم هي نصوص مترجمة عنهم، إن نظرية فلسفة العلم والمعرفة الجديدة عند الغرب تقوم وبعد قطع الارتباط بين العلم والإلهيات والفلسفة على ألا وجود للعلم وكل شيء خرافة ذوقي، ثم قالوا إن المعرفة الفلسفية والعقلية غير تجريبية وهي ليست معرفية حيث كانوا قبل قرنين من الزمان يقولون إن المعرفة الدينية ليست معرفةً وليست علماً وعندما يقال اليوم إن المعرفة العلمية ليست معرفة أي إن التجربة ليست علماً ولا تقود إلى العلم، أي عندما تتم المبالغة في مستوى اعتبار التجربة والإطراء الفلسفي الإيجابي المفرط، فإن المعرفة الدينية والعقلية والشهودية ليست في باب الدين، بل في الفلسفة والعرفان البشري ستنحسر وسيتم إنكارها ونتيجة

هذا الإفراط ستكون بعد فترة محددة إنكار المعرفة التجريبية ورفض صلاحية العلوم الجديدة وهذا ما حصل بالفعل، يقولون علينا الاعتراف بضرورة النظرة السببية والإلهية والعقلية للإنسان والعالم أولاًكي يمكننا تثبيت الرؤية الرياضية والهندسية والتجريبية للطبيعة والإنسان والعالم لكننا أسفون ـ والقول لهم ـ بما أننا لا نقبل بوجود رابطٍ للأمور مع ما وراء الطبيعة والفلسفة والإلهيات والميتافيزيقيا إذاً علينا أن نغض الطرف عن العلم أيضاً، أردت من خلال هذه المحاضرة أن يقف طلبتنا الجامعيون على الإفراط والتفريط الذي اعتلى المسألة الغربية في مسألة تعاملها مع العلم فبعد الصنمية التي صنعوها للعلم والمعارف نراهم اليوم أقدموا على إنكار العلوم والمعارف.

أشكر حسن إصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

عشر ثورات في ثورة واحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك ثورة كبيرة أخرى في هذه الثورة غير الثورة العلمية، إنها الثورة العقلانية وكذلك هناك في الثورة العلمية قضية حقوق المرأة حيث لوحظت بشكلٍ واضح وهناك الثورة الاقتصادية والتقنية حيث تشير الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام إلى أن الإمام سيُموّجُ الأرض وأنها ستخرج أثقالها وكنوزها ويتم استخراج جميع المعادن الثمينة حيث تنص الرواية على التالي:

تطوى له الأرض وتذهب له الكنوز، فلا يبقى في الأرض خرابٌ إلا عُمِّر وينتهي الفقر والفاقة والعوز والجوع في زمان الإمام ولن يكون هناك قسمٌ جائعٌ ومُستضعفٌ وقسمٌ غنيٌ وشبعان وفي تصوري الشخصي أن الأرضَ تخرج كنوزها يعني أن الأمر سيترافق وثورةً تقنيةً وإضافة إلى اعتبارها ثورةً إقتصاديةً فهي ثورةٌ خضراء أي إنها لا تؤذي البيئة لا بل تُشير الروايات إلى أن الأرض ستكون خضراء بالكامل وهذا يعني أن الأرض ستكون عامرةً بأهلها.[1]

وفي روايةٍ أخرى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول:

تنعم أمتي في زمن المهدي نعمةً لم ينعموا مثلها قط يرسل السماء عليكم مدراراً ولا

---

١. عن محمّد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمّد بن علي يقول: «القائم منّا منصور بالرعب، مؤيّد بالنصر، تطوي له الأرض، وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عزَّوجلّ به دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلاّ وعُمّر»، (منتخب الأثر، ص ٢٩٢)؛ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم انه قال: «ويُظهر الله عزوجل له كنوز الأرض ومعادنها». (كمال الدين (الصدوق)، ج ٢، ص ٣٩٤، ح ٤).

تدع الأرض شيئاً من النبات إلا أخرجته والمال كدوس، يقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خُذ.[١]

وهناك ثورة إنسانية في زمان الحجة سلام الله عليه حيث تتبدل العلاقات الإنسانية نحو الكمال والصلاح، وهنا رواية عن الإمام الباقر عليه السلام حيث جاءَ إليه أحد الأصحاب وقال له:

إنَّ أصحابنا بالكوفة جماعةٌ كثيرة فلو أمرتهم لأطاعوك واتبعوك.

فقال الإمام علي عليه السلام:

إذا يجيء أحدهم إلى كيس أخيه فيأخذ منه حاجته؟ قال: لا فقال: فهم بدمائهم أبخل.

ثم قال إن الناس في هدنة، تناكُحُهُم وتوارُثُهُم، ويُقيم عليهم الحدود وتؤدّى أماناتهم حتى إذا قامَ القائم جاءت المزايلة ويأتي الرجل إلى كيس أخيه فيأخذ حاجته لا يمنعه.[٢]

كان لي صديقٌ استشهد إثر إصابته بالأسلحة الكيماوية التي استخدمها صدامٌ في الحرب المفروضة على إيران، ذات يوم اقترح ونحن في الجبهة أن نؤسس صندوقاً مشتركاً نضع فيه الأموال ويأخذ كُلٌّ حاجته ولن يسأل أحدٌ زميله كم وضعت من الأموال وكم أخذت من الصندوق وبعد الحرب دخل الجامعة فأراد تكرار تجربة الصندوق لكن الأمر لم ينجح هذه المرة لأنه قال:

كلما جئت إلى الصندوق لأخذ منه حاجتي من المال وجدته فارغاً! وكان عليَّ أن أضع فيه شيئاً من المال.

عندها قال: فهمت أننا بدأنا بالتحول نحو الأسوأ.

في أيام الحرب كان قائد الفرقة آخر من يأخذ نصيبه من الطعام وهذه الثقافة هي ذاتها ثقافة الحجة وأنصاره، قد لا يصدق أحد هذه الأمور وكيف تتحول الدنيا إلى نعيم، لقد لمسنا هذا في أيام الحرب المفروضة، لم تكن قصة سُرِدت علينا، لقد لمسنا ذلك بأمِّ أعيننا وشهدنا الكثير من التضحيات والفداء، أما وضعنا اليوم فهو واضح نُقيّم القانون

١ . إبن ماجة، الفتن، خروج المهدي، رقم الحديث (٤٠٧٣).

٢ . راجع: الاختصاص (المفيد)، ص ٢٤.

والعدل كلما كان ذلك لصالحنا، لكن الوضع سيتغير في زمان الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وتكون المساواة في كل شيء ولن يفكر أحدهم في التربص في الآخر، سوف لن يكون هناكَ جائعٌ وآخر مُتنعّم الكلُّ متساوي في دولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، سيتم توزيع الثروة بصورةٍ عادلة، وهناك رواية عن الرسول ﷺ حيث يقول:

يخرج المهدي في أمتي، يبعثه الله غيثاً للناس وتنعم الأمة وتعيش الماشية وتخرج الأرض نباتها ويعطى المال صِحاحاً أي بالسوية.[١]

وفي روايةٍ أخرى: يُسوَّى بين الناس حتى لا ترى محتاجاً إلى الزكاة ويجيء أصحاب الزكاة بزكاتهم إلى المحتاجين من شيعته فلا يقبلونها.[٢]

وعن الرسول ﷺ: لَيأتينَّ على الناس زمانٌ يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ثم لا يجد أحداً يأخذها منه.[٣]

هكذا تكون الدنيا في زمن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ربما يقول قائلٌ إن الأمرسيكون في المدن الكبيرة أو في مدينةٍ أو اثنتين لكن الروايات تشير إلى أنَّ الخير يعم الكرة الأرضية برمتها ولن يجد المتصدق بالمال فقيراً فيعطيه، لكننا اليوم نرى المئات من الفقراء المُعدمين في كُبريات المدن الغنية ولوكان هناك جائعٌ في مجتمعٍ ما فإن الأمر يُعدُّ منقصةً على ذلك النظام أو الثورة.

قلت لكم يقول الرسول ﷺ:

يخرج المهدي في أمتي يبعثه الله غيثاً للناس وتنعم الأمة وتعيش الماشية وتخرج الأرض نباتها ويعطى المال صِحاحاً أي بالسوية[٤]

---

١ . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، (رواه الحاكم-٦٠١/٤، وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الآلباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة،٧١١: اسناده صحيح رجاله ثقات)

٢ . معجم أحاديث الإمام المهدي، ج٣، رقم الحديث: ٨٦٧.

٣ . صحيح البخاري، رقم الحديث: ١٣٣١.

٤ . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، (رواه الحاكم-٦٠١/٤، وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الآلباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة،٧١١: اسناده صحيح رجاله ثقات).

وهناك الكثير من الروايات التي تتحدث عن الاهتمام بالآخرين مثل ما روي عن الرسول ﷺ قوله: كل أربعين دارا جيران، من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله»[١]

وروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع».[٢]

وروي أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من لم يرحم صغيرنا ويجلّ كبيرنا فليس منّا».[٣]

وهناك الكثير من الروايات إلى أن ثورة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ستعيد الصداقة والأخوة والرحمة والسلام والمساواة، فالمهدي يحارب من أجل السلام، لأنه يعلم أنه لا يمكن القضاء على هذه الحروب وحالة العداء والنفاق إلا بحربٍ تنهي كلَّ هذه الحروب.

هناك رواياتٌ أخرى تشير إلى تشديد الإمام مع المسؤولين وعمال الحكومة كما قلت سابقاً وبالمقابل يتعامل بلطفٍ مع المستضعفين، وبعد فترة قصيرة من حكومته ينعدم الفقر في المجتمع ثم يقول الإمام علي عليه السلام: شديدٌ على العمال جوادٌ بالمال رحيمٌ بالمساكين.[٤]

في زمان الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يفهم الناس معنى الحياة الإنسانية ستكون هناكَ ثورةٌ اجتماعية ولن يكون هناكَ أغنياءُ وجياع، بل سيتساوى الجميع وستزول حالة التسابق في لقمة العيش وحُبِّ الانتفاع والربحية عند الناس، يبدو أنَّ هذا الكلام مُحيّراً نوعاً ما، يكون الجميع في رفاهٍ جميل لكن تزول الحالة الحيوانية والجشع من الناس، لن يتصارعوا من أجل لقمة العيش ولن يُسرف أحدهم في النعمة هذه ثقافةٌ سيأتي بها الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

وفي روايةٍ عن الصادق عليه السلام سأل أحدهم الإمام: ربح المؤمن على المؤمن ربا؟[٥] فردَّ

١ . الكافي، ج ٢، ص ٦٦٩.

٢ . الكافي، ج ٢، ص ٤٨٩.

٣ . نهج الفصاحة، ص ٢٢٢.

٤ . معجم احاديث الامام المهدى عليه السلام، ج ١، ح ٩٤، ص ٣٠٤- الملاحم والفتن(ابن طاووس)، ص ١٣٧.

٥ . روى الشيخ في التهذيب والصدوق في الفقيه عن على بن سالم عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الخبر الذي روى «ان ربح المؤمن على المؤمن ربا» ما هو؟ فقال: «ذلك إذا ظهر الحق وقام قائمنا أهل البيت فاما اليوم فلا بأس ان تبيع من الأخ المؤمن وتربح عليه». وسائل الشيعة، ج ١٢ ص ٢٩٤ حديث ٤.

الإمام إنَّ الأمر مباحٌ لكم حتى قيام المهدي ولكن بصورةٍ مشروعةٍ وحدٍ معقول وسيكون الأمر ممنوعاً في حكومة المهدي في آخر الزمان حيث سيكون جميع المسلمين ولن يأخذ أحدٌ من أحد ربحاً سيخدم بعضهم بعضا ويساعد بعضهم بعضا في نظامٍ إنسانيٍّ بكل أبعاد الكلمة، بالطبع لن نستطيع نحن أن نفعل ذلك والأمر منوطٌ بالإمام وحسب عندها ستزول حالة الطمع والجشع من الإنسان ولكن هذا الأمر في الوقت الحاضر غير ممكن، لأنَّ ثقافة الدنيا تقوم اليوم على هذا الأساس، لأننا اليوم نجمع المال والثروة ولا نقنع رغم كل ما نملك وترى الأغنياء قليلاً ما يهبون ويعطون وفي زمان الحجة تتبدل صفات الناس وتزول منهم حالة جمع الثروة والبخل والحسد وحب الربح والاستغلال.

هذه هي عين ثقافة الليبرالية في عالم اليوم وهناك ثورةٌ بالمعنى الأمني والعمراني حيث تُعمَّرُ الأرض وتكون آمنة، حتى تشير الروايات إلى أن المرأة تسافر من شرق الأرض إلى غربها لوحدها دون خوفٍ أو تعرُّض، وفي روايةٍ أخرى تخرج الفتاة التي تكون عرضة للسلب والاعتداء من مكانٍ إلى آخر دون أن يعترضها أحد تخرج الفتاة دون أن يعترضها أحد وهو أمرٌ غير موجودٍ في عالم اليوم أبداً وفي روايةٍ أخرى أنَّ الخوف والوحشة تزولان عن الناس بعد استيلاء المهدي على الأمور وينسى الناس شيئاً اسمه الخوف، تحيا الأرض بعد موتها وتكون معمورةً خضراء[1] حيث نقلت لكم عن الرسول الأكرم قبل قليل قوله ﷺ: لا تدع الأرض شيئاً من النبات إلا أخرجته.[2]

ويعود الصفاء والبشاشة إلى كافة المجتمعات البشرية ولن نرى مجتمعاً حزيناً ولا آخر عصبياً ولن يكون المجتمع الديني مهموماً مغموماً بالمعنى الحيواني، بل يكون كذلك في المعنى الإنساني ولن يفرح الإنسان يومها على حساب الآخرين كما هو في عالم اليوم حتى تشير الروايات إلى أنَّ الموتى سيفرحون وهم في قبورهم وربما كانَ هذا التعبير كنائياً وينسب للإمام علي عليه السلام قوله:

عندما يأتي المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ستذهب الشحناء من قلوب العباد

---

١ . لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولا خرجت الأرض نباتها وذهبت الشحناء من قلوب العباد واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلا على نبات وعلى رأسها زنبيلها، لا يهيجها سبع ولا تخافه (تحف العقول، ص ١١٥.)

٢ . بحار الانوار، ج٥١، ص.٨٣

وتستطلح البهائم[١] أي ينتهي التصارع بين الحيوانات وهذا عجيبٌ بالنسبة إلينا حيث يعني أنَّ السلام سيعم العالم وينتقل هذا إلى الطبيعة وكما هو معلومٌ فإنَّ تصارع الحيوانات هو من أجل البقاء وسد الجوع وعنما يكون الجميع شبعاناً وممتلئ البطن فلن تجد صراعاً بينهم هكذا هو الإنسان، ورغم أنَّ ثورة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ستكون دمويةً على الأعداء إلا إنها لن تتم من أجل الأحقاد بل لإزالتها، وحول انتشار الأمن والزرع والخير تشير الرواية إلى أنَّ المرأة تمشي بين العراق إلى الشام ولا تضع قدميها إلا على النبات ولن تكون المرأة في حرجٍ أو خوفٍ من اعتداء إنسانٍ أو حيوانٍ ولن تقطع مساحاتٍ موحشةً من الصحراء حيث ستكون الأرض مزروعةً بالنباتات المختلفة[٢] هذا يعني أنَّ الأرض ستعمَّر ويعمها الأمن تماماً وستكون هناكَ ثورةٌ بالمعنى الديني المعرفي وهذا مهم للغاية.

وفي روايةٍ عن الباقر سلام الله عليه يقول فيها:

أن بعض أدعياء الدين سيقفون أمام المهدي ويحتجون بالقرآن.[٣]

وسيعترضون على ممارسات الإمام ويخطئونها مثلما وقف البعض بوجه النبي الأكرم، لكنَّ أولئكَ وقفوا بوجهه وهم من عبدة الأوثان، أما المعترضون على الإمام سيقفون بوجهه بالقرآن بمسميات كثيرة مثل الشفافية الدينية أو المسؤولية الدينية العُلمائية، فهؤلاء موجودون في العالم لا يعرفون الدين ولا ينتفع بوجودهم من المعارف الدينية وليسوا مستعدين لتحمل الأذى في سبيل الإسلام قيدَ أنملة، لكنك تراهم يتصدَّرون الموائد ويأكلون باسم الدين.

وفي روايةٍ عن الإمام الباقر عليه السلام أن هؤلاء الذين تقمصوا لباس الدين سيعترضون على الحجة من أجل الدنيا وحُب الجاه فهؤلاء يريدون جمع المُريدين ولذلك نرى أنهم يعارضون الإمام بقراءاتٍ مختلفةٍ للدين، أي إنهم أصحاب دكاكين باسم الدين ويرفعون المصاحف

---

١ . لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولا خرجت الأرض نباتها وذهبت الشحناء من قلوب العباد واصطلحت السباع والبهائم (تحف العقول، ص ١١٥.)

٢ . راجع: المصدر السابق.

٣ . راجع: الطبرى، ابوجعفر محمد، دلائل الامة، ص٢٤١.

ضده، نعم هؤلاء موجودون.[١]

وفي روايةٍ عن الصادق سلام الله عليه[٢]: أن الحجة يأتي بثورةٍ ضدَّ الجهلة والقشرية وأصحاب البدع والشبهات حيث تشير الرواية إلى أن الجهل والجُهال سيُحاربون الإمام المهدي وسيُنكره البعض بعدما يأتي بالدين كما هو، لأن هؤلاء حَرَّفوا الدين عن مواضعه، لكن الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف سيسكت الجميع، لقد كان لهؤلاء تفسير مغلوط للدين وسيُحارب بعضهم الإمام إلى الحد الذي يقول فيه بعضهم إنَّ الإمام جاءَ بدينٍ جديد، حيث يُشكِّكونَ فيما سيأتي به ويقول به الإمام وهذا يعني أنه تمَّ تحريف الدين ومبادئهِ بالشكل الذي يُعتبر الدين الذي يبشر به الإمام خُروجاً عن المألوف وهذه من المشاكل التي سيُعاني منها الإمام بعد ثورته، وهناك أخبارٌ عن وجود القرآن الأصلي عند الإمام الحجة وعندما يظهر يأتي بالقرآن الجديد وهذا يعني أنَّ القرآن الموجود هو قرآن مُحرَّف، فالقرآن واحد لكن مفاهيم القرآن ستتغير، لأن البعض يتهم الشيعة بأنَّ لهم قُرآناً آخر ونقول إن القرآن في محتواه هو نفسه لكن روح القرآن ستتغير أو سيتغير، لأنَّ الروح هو مُذكَّر حيث تُشير الروايات إلى أنَّ المهدي هو شريك القرآن.

وهناك ثورة ثقافية إضافة إلى الثورة العلمية والتقنية والعقلانية حيث سيُصارُ إلى ثورة معلوماتية جديدة وفي الروايات أن كل المعارف الموجودة عند البشر في يومنا هذا لا تعادل جزئين من سبعة وعشرين جزءاً عند المهدي[٣]، أي إن الإنسان بكل العلوم التي لديه يبدو طالباً في مرحلة محو الأمية مقابل إنسانٍ يدرس في مرحلة الدراسات العليا على مستوى الجامعات العالمية.

وآخر الروايات التي أوردُها في هذه المحاضرة عن الموطِّئينَ للمهدي حيث تُشير الروايات إلى أن أناساً يخرجون في الشرق يوطِّئونَ لثورة المهدي[٤] وهذا يُشير إلى أنَّ مُقدمات ثورة

---

١ . راجع: دلائل الامامة للطبري، ص ٤٥٦.

٢ . راجع: الغيبة للشيخ النعماني، ص ٣٣٤.

٣ . قال الامام الصادق عليه السلام: «العلم سبعة وعشرون حرفا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين، حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا» (بحارالانوار، ج ٥٢، ص ٣٢٦).

٤ . قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي «يعني سلطانه». (راجع: شرح الاخبار، ج ٣، ص ٥٦٣)

المهدي قد بدأت في أوساط الرأي العام، بالطبع لا أريد هنا القول إن الأمر يختص بالثورة الإسلامية في إيران، ربما كان ذلك وربما لم يكن ولكن يمكن للإنسان أن يفهم، وربما كان الأمر في القرنين السادس عشر والسابع عشر غير منسجمٍ مع هذه المقولات لكن الوضع في يومنا هذا ومع تقدم العلوم والاتصالات يبدو أكثر مواتياً لقبول هذه الأفكار، وأن يقول العالم كلمة موحدة بخصوص العدالة والمنجي ولم يكن هذا الأمر ممكناً أو مقبولاً قبل ستةٍ أو عشرة قرون، إن الاتصالات والتطورات السياسية التي يشهدها العالم تسوق البشر صوب العولمة، العولمة من نوع قيام الحجة لا من نوع الرأسمال الغربي وفي الروايات أن أصحاب الحجة الأصليين هم ثلاثمائةٍ وثلاثة عشر نفراً بينهم عددٌ من العجم[1].

وفي المرحلة الثانية هناكَ في مقر عمليات ثورة الإمام العالمية عشرة آلاف، أي إن الحلقة الثانية مؤلفةٌ من عشر آلاف شخص، والحلقة الثالثة هم الأنصار في الثورة العالمية وفي الروايات أنَّ أصحاب الحجة من الشبان ويقال إن الشيوخ من أصحاب المهدي من الحلقة الأولى أي ثلاثمائةٍ وثلاثة عشر شخصاً هم قلَّة وهم والنسوة كالفلفل في الطعام حيث تصفهم بعض الروايات بالملح في الطعام[2].

وفي بعض الروايات التي لو كانت تُطرح قبل ألف عام لم يكن الناس ليستوعبونها لكننا اليوم نتقبلها حيث كانَ الناس يتساءلون كيف يمكن لأنصار الإمام وقادته أن يتصلوا ببعضهم من هذا الطرف من العالم إلى ذاك، حيث كانت وسائط النقل يومها عبارةً عن دواب وخيول حيث تقول الروايات إنَّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق يرى أخاه الذي في المغرب وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق،[3] ولو كان الأئمة يتحدثون لهم عن الوسائط الحديثة لم تكن عقولهم لتتحمّل.

وفي الروايات فإن أنصار الحجة ينامون في مضاجعهم ليلاً وفي الصباح لن تجد لهم

---

١ . ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «أصحاب القائم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، أولاد العجم، بعضهم يحمل في السحاب نهاراً، يعرف باسمه واسم أبيه ونسبه وحليته، وبعضهم نائم على فراشه فيوافيه في مكة على غير ميعاد». (الغيبة للنعماني باب ٢٠ حديث ٨)

٢ . قال عليا عليه السلام: «إن أصحاب القائم شباب لا كهول فيهم إلا كالكحل في العين، أو كالملح في الزاد، وأقل الزاد الملح» (الغيبة للشيخ النعماني، ص ٣٣٠).

٣ . عن ابن مسكان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق» (بحار الأنوار،ج٥٢، ص ٣٩١).

أثراً ونرى أن كل هؤلاء الثلاثمائة والثلاثة عشر شخصاً يجتمعون في مكة لبدء الثورة دفعةً واحدةً ومن أصقاع الأرض المختلفة، وفي الروايات بعضهم يحمل في السحاب نهاراً ويُعرف باسمه واسم أبيه ونسبه وبعضهم نائمٌ على فراشه فيوافيه في مكة على غير ميعاد،[١] ويسأل بعض الأصحاب من الإمام الصادق سلام الله عليه عن تكليف الأمة في عصر الغيبة فيردُّ عليهم الإمام بالقول: إنَّ عليهم أن يحفظوا الصدقات على أساس الدين ويبغضوا الناس على أساس الدين أيضاً، ولتكن المعتقدات والأصول مُقدمةً على المصالح وأن تكون الصداقات والعداوات والبغضاء على أساس التوحيد والعدالة، أي التولي والتبرئ وأن يدعو الإنسان على الدوام: اللهم ثبت قلبي على دينك.

ثم يقول الإمام: إن استطاع الإنسان أن يفعل ذلك فهو منذ الساعة في مخيم الإمام[٢].

أي أن الإمام الصادق يقول للمسلمين: لا تقولوا إنَّ المهديّ لن يظهر في زماننا وعليه فلا حاجة لنا بكل هذه الأمور بل إن على الإنسان أن يواظب حتى في زمانه بالرغم من عدم إمكانية ظهور الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وفي رواياتٍ أخرى فإن مجتمع المهدي سيخلو من الكذب، أي إنَّ التربية ستترك أثرها على المجتمع فلن يكون هناكَ كذبٌ وكذاب وحول خصوصيات أصحاب المهدي تُشير الروايات إلى أنَّ الإمام يأخذ من أصحابه عهوداً موثوقةً بأن يكونوا أولي بأسْ شديد ولا تأخذهم في الله لومةُ لائم، نعم هكذا هو الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وفي روايةٍ يُقال إنَّ على الأمة أن تكون متأهبة على الدوام وأن تكون مُقيَّدة بالأصول والثوابت دون أن تتأثر بالتشويش الذي يفرضه الغربيون والشرقيون والأيدلوجيات المختلفة هنا وهناك.[٣]

---

١ . عن أبي الجارود، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «أصحاب القائم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً أولاد العَجم، بعضهم يُحمل في السحاب نهاراً يُعرف باسمه واسم أبيه وحِليته، وبعضهم نائم على فراشه، فيوافيه في مكّة على غير ميعاد»، الغيبة للنعماني، ص١٧٠؛ روضه الواعظين، ج٢، ص ٢٦٣؛ عقدر الدرر، ص ٦٥؛ البرهان فى علامات مهدى آخرالزمان، ص ١٤٥.

٢ . راجع: المحاسن، ج ١، ص ١٧٣، ٢٧٧؛ كمال الدّين وتمام النعمة، ص ٣٥١.

٣ . (عقد الدرر، ص ٩٦؛ الشيعة والرجعة، ج١، ص ١٥٧). فَيقولُ أنا مَعكُم عَلى أنْ لا تُولّوا، ولا تَسرقوا، ولا تَزنوا، ولا تَقتُلوا مُحرّما، ولا تَأتوا فاحِشةً، ولا تَضربوا أحداً إلّا بِحقِّه، ولا تَكنِزوا ذَهباً وَلا فِضةً ولا بُرّا ولا شَعيرا، ولا تَأكُلوا مالَ اليَتيمِ، وَلا تَشهَدوا بِغيرِ ما تَعلَمون، ولا تُخرّبُوا مَسجداً، ولا تَقبَحوا مُسلِما، ولا تَلعنوا مؤاجراً إلّا بِحقِّه، ولا تَشربوا مُسكِرا، ولا تَلبَسوا الذّهبَ وَلاَ الحْريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَبيعوها رِباً، ولا تَسفِكوا دَماً حَراماً، ولا تَغدروا بِمُستأمنٍ، ←

وهناك رواية عن الصادق سلام الله عليه أن المهدي يظهر وهو يحمل لواء بدرٍ وقميص يوسف وعصا موسى وخاتم سليمان[١] ربما كانَ هذا حقيقة وربما كانت حالةً كنائيةً للتعبير عن أن ثورة المهدي هي امتداد لثورة الأنبياء والصالحين، وفي الروايات يجتمع أصحاب الإمام دفعة واحدةً ودون سابق إنذارٍ في مكة وعنهم تقول الروايات أن قلوبهم كقطع الحديد[٢] أولي بأسٍ لا يخافون في الله لومة لائم وهم سيفرضون سلطتهم على العالم بسرعةٍ فائقة، وأن هؤلاء سوف يُمحِّصوا ويكون عددهم في خاتمة الأمر قبل القيام بثلاثمائةٍ وثلاثة عشر شخصاً ويدعوا الأئمةُ الأمة للتمسك بالدين وخط القرآن، ولو فعل الإنسان ذلك وتوفي قبل الظهور فإنه سيكون بمنزلة شهداء ثورة المهدي ومن مضى معه.

يقول الإمام الصادق رحم الله من حمل أفكار الإمام وتمسك بمنهجه حتى قبل ظهوره ومن كان منتظراً للإمام بحقٍ سيكون معه، وأوصى الإمام الأجيال القادمة بأن تكون مطيعة لأوامره كما أنتم مُطيعون لأوامر الرسول ﷺ[٣].

وعن الرسول ﷺ: إن كنتم من منتظري المهدي كونوا مُتحابينَ مع أنصاره من ناشدي العدل وكونوا أعداءً لعدوّه أي كونوا أصحاب موقفٍ من أعداء الإمام[٤].

يُردد البعض وللأسف أنهم يريدون النظر إلى التاريخ من زاويةٍ أخرى ومن الأعلى ولا علاقة لنا بمجريات الأحداث إننا ننظر إلى الأمور من الأعلى، حيث يطالب الرسول ﷺ من المؤمنين أن يجدوا مواضعهم وأن لا يكونوا حياديين وأن يعملوا بواجباتهم وبمسؤولياتهم فلو كان المهدي قائماً لم يبق بلا حراك.

وقيل إنّ الانتظار ينبغي أن يُكامِلَ العدة والعدد أي مع الأسلحة، وروي عن الرسول ﷺ إنه كانَ ذات يومٍ جالساً مع أصحابه فدار الحديث حول الإمام المهدي فقال النبي ﷺ لهم:

← ولا تَبقوا عَلى كافرٍ ولا منافقٍ، وتَلبسون الخَشنَ مِن الثّيابِ، وتَتوسَّدون التُّراب عَلى الخُدود، وتُجاهدون في الله حَقَّ جِهاده، ولا تَشتمون، وتُكرهون النَّجاسةَ، وتَأمرون بِالمَعروفِ، وَتَنهونَ عَن المُنكَر. فإذا فَعلتُم ذلك فَعَلَيَّ أنْ لا أَتَّخذَ حاجبا ولا ألبسَ إلّا كما تَلبَسون، ولا أركَبَ إلّا كما تَركبون، وأرضى بِالْقليلِ، وأملأ الأرضَ عَدلا كَما مُلئت جَورا، وأعْبدُ الله عزّوجلّ حَقَّ عبادته، وأفي لكم وَتَفوا لي. قالُوا: رَضينا وَاتَّبعناك عَلى هذا. فَيُصافِحهم رَجُلاً رَجُلاً.

١ . الشيعة والرجعة: ١ / ١٦٤؛ بصائر الدرجات، ص ١٨٨.

٢ . بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٨٦.

٣ . راجع: المحاسن، ج ١، ص ١٧٣.

٤ . راجع: كمال الدين وتمام النعمة، ص ٢٨٧.

أنتم أصحابي لكن إخوتي سيأتون بعد حين وسيؤمنوا هؤلاء بي دون أن يروني[١] أمّا أنتم فقد رأيتموني، لكن أولئك لم يروني وآمنوا بي، فأنتم أصحابي وهم إخوتي، وهؤلاء سيحفظون عهدهم رغم المصاعب والمشقات، ثم يقول ﷺ: إنَّ هؤلاء يواصلون إيمانهم بالرسالة في وقتٍ يكون فيه الملتزم بدينه كالقابض على جمر[٢]. (في إشارةٍ إلى صعوبة الموقف) وعنهم يقول الرسول أولئك مصابيح الدجى لأنهم اختاروا طريق المقاومة طريق الأنبياء، ويقول الرسول إن كلاً منهم يعدِل خمسين منكم فقال أحد الأصحاب وكيف يكون ذلك يا رسول الله وقد كنا معك في بدرٍ وأحد وقد نزلت بعض الآيات في حقنا فكيف نكون أقل منهم شأناً؟ فيرد الرسول ﷺ: إنَّ ظروف أولئك صعبةٌ للغاية ومقاومتهم للظروف أقوى وهؤلاء لم يرونا لكنهم يواصلون الدرب، ولو أصبحتم مكانهم فليس معلوماً أن تكونوا بنفس الاستعداد والتحمل ولذا فإنَّ ثوابَ كلٍ منهم يعادل ثواب خمسين منكم. يقال إن أحدهم جاء إلى الإمام الباقر عليه السلام وقال له: لو جاء المهدي فإن الأمور ستتحسن أليس كذلك؟ ولن تُسال الدماء إلا بمقدار الحجامة، أو بمقدار ضماضةِ جُرح، فردَّ عليه الإمام: ماذا تقول !؟ ليس الأمر كما تتصور على الإطلاق بل ستُراق الدماء ولو كانت الأمور مثل ما تقول فلماذا أوذيَ النبي؟ ولماذا فُجَّت جبهته وكُسرت أسنانه؟ فوالله لو لن نغرقنَّ في دمائنا وعرقنا فلن تُقام العدالة، ليسَ كما تتصور وليس ظهور الإمام عشوائياً إن ثورتهُ جديةٌ للغاية، سوف لن يتوقف المهدي وأنصاره عند الأمور الاعتبارية وهم يلبسون لامة الحرب مدةً طويلة ويظل المهدي وأصحابه يتناولون الطعام الجَشِب ويلبسون الملبس الخشن حتى الغلبة على الكفر والنفاق في العالم وينتقمون لشهداء التاريخ كافة[٣]، هكذا هو الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ومن يتحدث عن الإمامَ أو يدعو إلى هدنةٍ ومحاكاة العدو والتفاوض فإما يكون قد ارتشى أو ضَعُف، وهذه خلاصةٌ لروايةٍ للإمام الباقر سلام الله عليه في هذا المجال حيث تقول: ويقتل حتى يقول الجاهل لو كانَ هذا من ذرية محمد ﷺ لَرَحِم.[٤]

---

١. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل، ج ١، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ رقم ٢٤٩.

٢. رواه الترمذي (٢٢٦٠). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٠٠٢).؛ السلسلة الصحيحة، ٦٨٢/٢؛ رواه الترمذي (٢ / ٤٢).

٣. راجع: الغيبة للشيخ النعماني، ص ٢٣٩.

٤. حقيقة الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر (أحمد حسين يعقوب)، ج ٣، الحديث رقم ٨٤١.

وعن الصادق عليه السلام يقول: إذا خرجَ القائم لم يكن بينه وبين العرب وقريشٍ إلا السيف ما يأخذ منها إلا السيف، وما يستعجلون بخروج القائم والله ما لِباسهُ إلا الغليظ وما طعامه إلا الشعير الجشب وما هو إلا السيف والموت تحت ظل السيف.[1]

وهناك روايةٌ عن الحسن الأخير العسكري سلام الله عليه يقول فيها:

هذا صاحبكم من بعدي وخليفتي عليكم وهو القائم الذي تمتدُّ إليه الأعناق بالانتظار فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرجَ فملأها قسطاً وعدلاً.[2]

وهناك روايةٌ اخرى تُشير إلى تعامل الإمام مع الرعية في العدل والعاطفة ولا فرق عنده بين مسلم وغير مسلم، ثم يأتي بالنسخ الأصلية من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ويحتج مع أصحاب كل دين بكتابهم المُقدس حتى يدخلون الإسلام زرافاتٍ زرافات حيث يملئ الأرض عقلاً ودليلاً[3].

وفي روايةٍ عن الصادق عليه السلام حيث يسأله أحد الأصحاب متى الفرج جُعلت فداك لنكون في ركابكم، كفى نفياً وتعذيباً وسجناً وشهادةً وتنقلاً من بلدةٍ إلى أخرى[4].

تلاحظون أنَّ أبناء الأئمة المنتشرين في القرى وأعلى الهضاب والجبال هؤلاء من أهل البيت حيث كانوا يهربون من بطش بني أمية وبني العباس والحكومات الفاسدة أو أنهم من أبناء الأئمة الذين كانوا بغية نشر الدين وتصدير الفكر الإسلامي هنا وهناك ومن ثم يقعوا بأيدي الطغاة ويسقطون شهداء، ويرجع الإمام ويقول له إن قراءتك عن الفرج تختلف عما نراه، فإن كان الفرج فهو أول الطريق وينبغي على الإنسان أن يكون مستعداً للجهاد. وهناك عن الإمام الرضا سلام الله عليه روايةٌ في هذا المضمون الذي أشرنا إليه أي إنَّ

---

١ . حقيقة الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر (أحمد حسين يعقوب)، ج٤، الحديث رقم ١١٠٦.

٢ . إكمال الدين للشيخ الصدوق ج٢ ص ٤٣٠؛ كتاب الغيبة للشيخ الطوسي ص ١٣٩.

٣ . إذا قام قائم أهل البيت قسم بالسوية، وعدل في الرعية، فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وإنما سمي المهدي مهديا لأنه يهدي إلى أمر خفي، ويستخرج التوراة وسائر كتب الله عزوجل من غار بأنطاكية، ويحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن، وتجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها، فيقول للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرم الله عزوجل، فيعطي شيئا لم يعطه أحد كان قبله، ويملأ الأرض عدلا وقسطا ونورا كما ملئت ظلما وجورا وشرا (الغيبة للشيخ النعماني، ص ٢٤٣).

٤ . راجع: الغيبة للشيخ النعماني، ص ١٨٤.

أصحاب الحجة هم خَدَمَةُ الناس ولن يأخذوا شيئاً لأنفسهم ولن يجلسوا على المائدة قبل الآخرين ولن يفتحوا لأنفسهم حساباً.

ويقول الصادق سلام الله عليه أيضاً: لِما تستعجلون الفرج فوالله ما لباسه إلا الغليظ وطعامه إلا الجشب[١]، أي إنَّ المهدي وأصحابه سيكونون من أدنى المراتب من حيث المأكل والملبس حيث تؤكد الثقافة الإسلامية على أنَّ الحاكم لا ينبغي أن يعلو مكانةً ومالاً عن الحد المتوسط للرعية، هكذا هو المهدي وأصحابه.

يقول المُفضَّل: كنا مع الصادق في طواف بيت الله الحرام، فقال له الإمام مالكَ يا مُفضَّل لما تغيير لونك؟ فقال نظرتُ إلى بني العباس ومكانتهم وجبروتهم فتمنيت أن تكون هذه تحت تصرفكم يا مولاي.

ردَّ الامام الصادق عليه السلام بالقول: يا مُفضَّل أما لو كانَ ذلك لم يكن إلا سياسة الليل وسياحة النهار.[٢]

أي إن الحكومة تعني بالنسبة لنا الجهد والجهاد في الصباح والتخطيط والبرمجة في الليل بغية حل مشاكل الناس وأكل الجشب، أي نُريد أن نكون مثل أمير المؤمنين في المأكل والملبس وإلا فالنار وعندما تُطالعنا الروايات الأخرى نرى أنَّ الخير الوفير سيكون من حصة الناس العاديين أما أنصار الحجة ولجانه الرئيسية فهم في عيشة الكَفَاف.

وعن الحجة سلام الله عليه روايةٌ تقول: قد أَذانا جهلاء الشيعة وحُمَقَائُهُم ومن دينه جناح البعوضة[٣]

أي إن الإمام أراد عبر هذه الرواية التعبير عن الأذى الذي يُلحقه هؤلاء بثورة الإمام فهم جُهَّالٌ لا يستوعبون وأدمغتهم خاوية وتعني هذه الرواية أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يحسب على مشاعر الناس في ثورته ولا ينفع الإنسان كونه شيعياً لم يكن بعقلٍ نيّر وأن هؤلاء سيكونون أكثر عرقلةً للثورة من الآخرين، وهناك معنى آخر للرواية

---

١ . بحارالانوار، ج ٥٢، ص ٣٥٤؛ الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن: الغيبة، ص٤٦٠، الشيخ عباد الله الطهراني والشيخ علي أحمد ناصح (تحقيق)، قم، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١١هـ ط١.

٢ . الكافي: ج ١ ص ٤١٠ ح ٢؛ الدعوات: ص ٢٩٦ ح ٦٠؛ بحار الأنوار، ج، ٥٢، ص ٣٤٠، ح ٨٨.

٣ . الاحتجاج، ج ٢، ص ٤٧٣؛ بحارالانوار، ج ٢٥، ص، ٢٦٦.

هو أن الحجة سلام الله عليه يُعوّل على جناح بعوضةٍ أكثر من تعويله على هؤلاء أو أنَّ العالم لا يمكن تَشيّده على عقول الحمق وأن ليس بين الله وبين أحدٍ قرابة وهو نص نقل عن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وهذا يعني أيضاً أن لا أحد مُفضل على أحد سواء كفرد أو قومية أو طائفة، أو أن الله عزوجل لن يُسعد أو يُذل أحد عشوائياً وليس إنقاذ البشر في آخر الزمان اجبارا أن على الإنسان أن يشارك في إنقاذ نفسه من الضلالة وعندما يقول الإمام ليس في رقبته بيعةٌ لأحد وأن الإمام عندما يظهر سيقوم بتغيير الموازين والقوانين الحاكمة ويجعل عاليها سافلها دون أن تأخذه في الله لومة لائم.

وعن الإمام علي عليه السلام: أن الحجة عندما يظهر يأخذ عهداً على أصحابه الثلاثمائة والثلاثة عشر أن لا يتخلفوا عن أوامره ومسيرته وألا يسبوا أحداً ولا يهتكوا حرمة أحد وألا يهجموا على بيتٍ دون إجازة وهذا الأمر مهمٌ للغاية في الثورات التي يشهدها العالم حيث تُسفك الدماء ويمكن لأي إنسان قتل وإيذاء من يريد ولا تتصوروا أن الثورات الأخرى كانت كما هو الحال عندنا حيث قاد الثورة مجتهد وفقيه وعارف مثل الإمام الخميني قدس سره حيث أعطى أوامره منذ اليوم الأول بعدم الاعتداء على الناس أو أموالهم لكن الأمر في الثورات الأخرى لم يكن كذلك، حتى الثورة الفرنسية الكبرى لا يمكن اعتبارها شيئاً يذكر أمام الثورة الإسلامية في إيران من حيث السيطرة على الأمور ولا حتى الثورة الروسية ضد القيصر لقد كانت ثورتنا استثنائيةً من بين الثورات، وهناك مفهوم سائد في الثورات يقول: اقتل أولاً ثم سَل الشخص أهو منا أم علينا!؟

فكيف الحال مع ثورة الامام المهدي التي تريد تغيير الموازين في العالم رأساً على عقب فهل هناك غير أخذ الميثاق من قادة وكوادر الثورة الرئيسيين، حيث يأخذ الإمام الميثاق من أصحابه بعدم سب أحدٍ أو التعرض بشكل شخصي أو هتك حرمة أو دخول بيتٍ دون إذن، نعم هذا هو الميثاق الذي يأخذه الإمام المهدي من أصحابه الثلاثمائة والثلاث عشر، ينبغي أن يكون الهجوم على قادة الظلم والاستكبار في عقر دارهم، ينبغي أن يكون مُنظَّماً ومدروساً في كل بقعة من بقاع العالم لا أن يكون الجيش يضرب أي نقطة كانت وبالأسلحة الكيماوية والنووية والميكروبية وليمت من يموت، في نهاية المطاف يقتل الأعداء أيضاً، هذه ليست من سياسة الإمام، إنها من سياسة القوى الكبرى المتعطشة للانتقام، يقولون اقتل

أولاً ثم سَل الشخص أهو منَّا أم علينا! هذه هي قاعدتهم، قاعدتهم في الحاكمية فهي تضرب أينما كان وكيفما اتفق ولذا نراها تقتل النساء والأطفال في أفغانستان هذه هي القوى الكبرى المتعطشة للانتقام وهذا هو ديدن فراعنة العالم على مر التاريخ، فإن وقعوا في طريق الانتقام فإنهم لا يرحمون يفتكون بجميع من يكون في طريقهم بواسطة القنابل الكيماوية وبأي شيءٍ بأيديهم لكن الحالة مع الامام الحجة عليه السلام تختلف تماماً فهو يأخذ العهود والمواثيق من أصحابه ألاّ يَكنُزوا الذهب والفضة لأنفسهم ولا ينبغي أن يكون لهم حسابٌ مصرفيٌّ أو قطعة أرضٍ ولا أن يخزنوا قوتَ الشعب في مخازنهم، إنها ثقافة موجودة في كل حكومات اليوم، هذا الأمر يعدُّ فلسفة حقوقية وأخلاقية في عالم اليوم، لكنه لن يصبح فلسفة ثوار الغد.

وفي الروايات أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يأخذ العهد من أنصاره ألاّ يأكلوا مال اليتيم والإنسان المستضعف[1] فإن الأنصار إن لم يكونوا أهلاً لذلك فالعالم سيقع تحت تصرفهم تماماً حين إذ ستكون المصيبة كبيرة جداً، إذاً يأخذ منهم المواثيق ألاّ يلبسوا الحرير وأن يتميَّزوا عن عامة الناس، أي أن لا تكون لهم حياة الملوك وأن يكتفوا بالقليل في حياتهم الخاصة وأن يلبسوا ملابس خشنة فضاضة وأن يُعفِّروا وجوههم بالتراب ويمضوا في سبيل الله بكل ما أُتوا من قوة وتكون حياتهم بسيطةً زهيدةً لكن الأمة في نعيم ورفاه، إنها توصياتٌ كي لا يفسد رجال الحكومة بعد الانتصار بعد انتصار ثورة المهدي وألاّ يتحولوا إلى أناسٍ ضد المفاهيم التي ساروا من أجلها.

إن ثورة الإمام ثابتة الخُطى وهي تمضي إلى الإمام دوماً ولن تتراجع أو يُصيبها الهوان والضعف ولن تنسى أهدافها وهي تبدأ بالجماهير وتواصل الخُطى بواسطة الجماهير، لأنها من أجل الأمة والجماهير وفي المقابل يعطي الإمام عهداً لأنصاره كيف يكون أثناء وبعد انتصار ثورته العالمية فيشترط على نفسه لهم أن يمشي حيث يمشون وأن يلبس كما يلبسون وأن يركب كما يركبون.

هذه العهود التي يعطيها الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف إلى أنصاره، أي أن يكون مع الناس سواسيةً لا أن نشهد ظهور حالةٍ لعامة الناس وحالة خاصة بالحكام

---

١ . عقد الدرر، ص ٩٦ ; الشيعة والرجعة، ج١، ص ١٥٧.

من مأكل وملبس ومركب كما هو سائدُ اليوم في كل مكان، ثم يقول عجل الله تعالى فرجه الشريف: يكون من حيث يكونون، يرضى بالقليل[١] وفي هذا علامةٌ على أن حياة الإمام ستكون بسيطةً رغم أنه حاكم العالم، لماذا ؟ لأنه ثار من أجل القسط والعدل في مشارق الأرض ومغاربها فهو ينشد العدالة الاقتصادية والقضائية والأخلاقية.

وفي مسألة التعامل مع الرعية تقول الرواية: ولا يتخذ حاجباً ولا بوابا[٢] وفي هذا مصداق على الحاكم العالمي الذي يظل مرتبطاً بالأمة ولا ينفصل عنها ولا تكون له الحُجب والموانع التي تمنع الناس من الاتصال بالحاكم وأن هذا الأمر سيكون ديدن بطانة حكومة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف بتماسهم مع الجماهير.

يبدو أن هذه المحاضرة قد شارفت على الانتهاء.

شكراً لكم والسلام عليكم ورحمة الله.

---

١ . راجع: الملاحم والفتن لابن طاووس، ص ٢٩٥.

٢ . المهدي الموعود، ج ٢، ص ١١، نقلا عن الملاحم والفتن لابن طاووس، ج ٢، ص ١٠٤، باب ٧٩.

الميل للغرب الخنوع للإستبداد وتحليل ماهية العنف

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم إخوتي وأخواتي الأعزّاء، أشكرُ حضوركم في هذه الجلسة، وأَمُلُ ألاّ تكونَ بمثابة نشاطٍ عرضيٍ في حياتكم، بل أن تكونَ حلقةً من سلسلةِ مُطالعاتكم المتواصلة حتى بعدَ تخرجكم من الجامعة والدراسة، وأن نكونَ باحثينَ ومُتقصِّينَ للحقائق، لأننا ننتمي إلى دينٍ يؤكدُ على أتباعه أن يكونوا مؤمنين بتأمُّل، لأنَّ مثل هذا الإيمان يكونُ ذا قيمة.

أشكرُ تحمُّلكم لمثل هذه المُحاضرات التي تستغرقُ أحياناً عدةَ ساعاتٍ، ولا يهمُّ من هو المُتحدِّث لأنَّ الهدف هوَ تلقي المفاهيم الدينية والإنسانية، لأنه وكما قالَ الإمام علي عليه السلام «لا تنظرإلى من قال، وانظرإلى ما قال»[1]

وعبثاً يتصورُ البعضُ أنَّ مثلَ هذه الإجتماعات هي مضيعة للوقت وأنَّ العمل اليومي هو المفيد لكنَّ العكسَ هو الصحيح.

هذه الإجتماعات هي مقدمةٌ للدخولِ إلى وادي المفاهيم والأفكار الروحانية في جادة الصواب، كانت هناكَ جلساتٌ إستمرَّت لنحو ستٍ وسبع ساعات.

عليكم أن تشكروا الله على أنَّ الأمرَ قُلِّصَ في يومنا هذا إلى جَلَسَاتٍ مُبسَّطةٍ غيرِ مُطَوَّلة.

---

١ . كنزالعمال، ج ١٦، ص ١٩٧.

أيُّها الحضور الكرام وصلتني الكثير من الأسئلة بعضُها مُكرّرة والبعض الآخر فرعية وأخر أصليّة ونوعية، وبسبب ضيق الوقت سأختار بعضها وأجيب عليها:

السؤال يقول: نُعاني وللأسف بصورةٍ تاريخية من الظلم والإستبداد ونحنُ مُحبطونَ ومُصابونَ بالتخلُّف، وربما إستغرقَ الأمرُ قروناً من الزمان كي نلحقَ بالركب الجديد، ما هي المراحل اللازمُ طيُّها لعبور مرحلة الإنحطاط والتخلُّف بسرعة؟

بتصوري أنَّ الإستسلام لمثل هذه الأفكار هو التخلُّف الأكبر، لا ينبغي أن نتصورَ أننا فرعٌ وهناكَ أصل وأنَّ علينا أن نعملَ للحاقِ بركبهم والوصول إليهم.

نحنُ نعاني من إنحرافين؛ تاريخي وآخر فكري، ينبغي علينا مُعالجتهما معاً، الأول يكمنُ في العُجُبِ بالنفس وأنَّ الفنونَ والعلوم هي عندنا وحسب، وماحالُ بقية البشر إذاً؟ أليسوا بشراً؟ هل أنَّ كُلَّ القيم محصورةٌ فينا نحن؟ أي أن نرى أنفسنا ولا نرى الآخرين، نُبالغُ في كمالاتنا ونُضخِّم ذلكَ أضعافاً، ونغفلُ أو نتغافل عن مواطن العجز والضعف التاريخي الموجودة فينا نحن، وهذا خطأ كبير.

هناكَ عيبٌ آخر لا يقلُّ خطراً عن سابقه وبتصوري هو أخطر من الأول، يكمنُ في تجاهل أو التقليل من قَدْرِنا بِأيدينا، أي نُعِدُّ أنفُسنا أذلاءَ لا حولَ لنا ولا قوة، وهو أمرٌ يتداولهُ البعضُ علانيةً، وعندما يحمل البعض هذه الأفكار عن شعبهِ وتاريخهِ وحضارتهِ فإنها ستتركُ آثاراً سلبيةً على طريقة تفكيرهِ تمنعُ تطورهُ، وإذا ما خَلُدَ في فكر البعض أن يتطورَ ويتقدم فإنَّ طرحَ مثل هذه الأفكار سيُعيقهُ عن مشروعهِ لا محالة، وستقودهُ إلى الإيمان إن كانَ هناكَ أصلٌ وهناكَ فرع وعليه لا يستطيع الوصول إلى غايته وتظلُّ الأحلام تُراوده متى يُمكننا بلوغ الأصل، إنَّ طريقة التفكير هذه مسؤولةٌ عن تأخر المُسلمين، علينا ومن أجل تصحيح أفكارنا وتَرَسُّباتِنا الثقافية أن نسألَ هل أنَّ الغربَ أُنموذجٌ مناسبٌ كي نحتذيَ به؟ لنعرف أولاً هل يحقُّ لنا أن نتمنى أن نُصبحَ مثلهم؟ وما هي الأثمان الواجب دفعها للوصول إلى طريقة تفكير وعيش الغربيين؟ وعندما نقولُ إنَّ الغربَ ليسَ أنموذجاً نحتذي به، فهذا لا يعني أنَّ كُلَّ ما موجودٌ في الغرب منبوذ، علينا أن نكونَ منفتحينَ على كافة الثقافات والشعوب والأمم، هناكَ الكثير ينبغي تعلمهُ من الغرب كما هو الحالُ في الشرق، هناك الكثير من مواطن الضعف عندنا غيرُ موجودةٍ في الغرب، وعلينا أن نعيَ

أننا لا ينبغي أن نُخالفَ ثقافةً بعينها بصورةٍ كاملة غربيةً كانت أم غيرَ ذلك، لأنَّ ذلكَ غيرُ مُنصف ولا منطقي ولن يؤدي إلى نتيجة مُحدَّدة، وفي المُقابل لا يصحُ تكرارُ عبارات مثل: أننا تافهونَ ولم يُحالفنا الحظ، أو اننا مُتأخرونَ وجهلة، ولن نلحقَ بالركب حتى بعدَ قرنٍ من الزمن.

هذه تحديداً ما يُواصل الغربُ إلقائها على مسامعنا منذُ ما يربو على القرنين من الزمان، حتى تتشبَّعَ أذهانُنا وأذانُنا أننا عديمو الفائدة ولن ننفعَ لشيءٍ ومتأخرونَ عن ركب الحضارة وما شاكلَ ذلك.

لقد جاءَ الإمام الخميني ﷺ وكرَّرَ عبارةَ أننا قادرون، أننا مؤهَّلون، لأنهُ كانَ على ثقةٍ أنهُ طالما شعرت الأمة بأنها قادرةٌ وكسبت الثقة اللازمة بنفسها فإنها ستكون قادرةً على خلق المُعجزات، وعليه ينبغي الإلتفاتُ أنَّ مفهوم التطور لا ينبغي أن يكونَ بمعنى المُضي في الركب الغربي.

إننا نُشكِلُ على التقاليد الغربية إضافةً إلى إشكالنا في حداثتهم، نُشكِلُ على الظُلم الغربي على مر التاريخ وعلى ديمقراطيتهم، ولنا إستدلالنا في إنتقادهم وعليه ينبغي الإلتفاتُ أنَّ هناكَ مُخططاً مُعدَّاً مُسبقاً للشرق كي يكونَ مُقلداً، ونظلُّ نسألُ أنفُسنا متى ينتهي الدرب؟ متى نبلغ الهدف؟ وكيفَ يتمُّ تقييمُنا في الوقت الحاضر؟

بتصوري أنَّ هذا النمط من التفكير غيرُ صائبٍ، ومن خلال ذلك فلا أملَ بالتطور والإنطلاق نحو العالم الجديد، وينبغي أن يكونَ هناكَ برنامج عمل مُستقل لكُلِّ أمةٍ يتطابقُ مع تطلعاتها وقيمها وإمكاناتها مع إمكانية الإستفادة من تجارب الآخرين والإحتفاظ بِمعادلاتها في التطبيق.

إنَّ ترديدَ عبارات: نحنُ حمقى! وكذلك كانَ آباؤنا ونحن دُونيون ومُتخلِّفونَ تاريخياً واليوم لا نستطيعُ اللحاقَ بالركب! هي من إلقاءات الغرب ومن ترديدات وأقوال صُنَّاع الإستكبار الذين يُردِّدونَ مثل هذه الأقاويل تَملُّقاً والقول إنَّ كُلَّ ما يُردِّدهُ الإستعمار هو صحيح وما نحنُ إلا عبيدٌ عنده وما يقولهُ هو صحيح، ونحنُ إن غضبنا أحياناً فإنَّ الغربَ يظلُّ سيّدنا لا محالة.

لقد أوجدَ الغرب هذه الروحية لدى شعوب العالم المقهورة وباتَ حُكَّامُنا يتصورونَ أنَّ

الشرقيين أُناسٌ ناقصونَ والغربيين أسيادٌ وأُناسٌ كاملون.

هناكَ بحثٌ وموضوعٌ في عالَم النفس التربوي على الصعيد الفردي والإجتماعي السياسي حتى كانَ الامرُ مطروحاً قبلَ الثورة الإسلامية في إيران تحتَ عنوان: الجَدَليَّة السوردلية.

ومثالُها أنهُ عندما تضرب الأم طفلها ربما بكى وغَضِبَ منها ولكنهُ في نهاية المطاف يلجأ إليها.

إنَّ الغربَ يُريدُ مثلَ هذه العلاقة فيما بينهُ والعالم، أي أن يقولَ كُلِّ سكان القارات وشباب العالم أينما وُجِدوا بأنكَ أيُها الغرب سيدٌ جيد، ونحنُ لا نمتلكُ إلا أن نكونَ عبيداً غيرَ مؤهلينَ بينَ يديك، وعندما نغضبُ يوماً من تصرفاتك تُجاهنا فإننا سنلجأ إليكَ لا محالة، أي أننا نفرُّوا منكَ وإليك، هذه حقيقةٌ موجودة حاولتُ أنَ أوضحها بشيءٍ من الشفافية والوضوح، أي أننا نقومُ وبُغيةَ التخلص من هذه الحالة نقومُ بِسُبابِ أنُفسنا والتقليل من شأنِنا للتخلص من تداعيات تحقير الذات ونظلُّ نُردِّدوا في ما بيننا أنَّ شعبنا ذليلٌ مُتخلِّف، والإيرانيون يُعانونَ من الإستعباد وهم اليوم غيرُ مؤهلين للحرية ومازالوا صغاراً على هذا الأمر وأنَّ لنا أن نقضيَ عِدةَ قرونٍ حتى نَصِلَ إلى ما وصلتم إليه من استحقاق الديمقراطية، وهذا يعني أننا نستحقُ أن يُمارَس الظلمُ ضدنا.

ثانياً: إنَّ تصغيرَ الشعب وإعتبارهُ ما يزالُ حدثاً بالنسبة للتطورات العالمية، وأنهُ لا ينبغي له أن ينتظر المُنجي ومن يتحدث عن هؤلاء يُريدُ لعبَ الدور البطل والمُنقِذ للأمة.

إنَّ أقوالهم هذه غيرُ صحيحةٍ بتاتاً خاصةً مع الشعب الإيراني، الذي إنتفضَ خلال القرن الماضي ثلاث مراتٍ وأقامَ ثورةً ضدَّ الظلم والإستعمار، لقد أسقطَ الشعب الإيراني بثورتهِ نظاماً شاهنشاهياً مُستبداً، طالَ به الزمنُ لألفين وخمسمائة عام، وكانَ الشعب الوحيد الذي أقامَ جمهوريةً على أساس الدين، أي أنهُ طَرَحَ أنموذجاً جديداً في الحُكم لم يكن معهوداً من قبل، فهل هذه الأمم ما زالت صغيرةً وغيرَ مؤهلةٍ لتتولى مصيرها دونَ تدخل الإستعمار؟ لقد أصبحَ الشعب الإيراني مُعلِّمَ الإنتخابات في عموم المنطقة، شعبٌ قدَّمَ من أجل حُريّتهِ وإستقلالهِ مئات الآلاف من الشهداء والجرحى، وهو الشعب الذي باتَ مُلهِماً لسائر شعوب العالم وكانَ مُعلِّمها.

إنَّ صدى وصوت الشعب الإيراني باتَ يُسمعُ في الكثير من بلدان العالم، بدءاً من

شمال أفريقيا إلى شرق آسيا وبتصوري أنَّ من العيب والظلم أن نقول إنَّ الشعب الإيراني ما زالَ غيرَ مؤهَّل ليقودَ نفسهُ بنفسه.

ومن الناحية الأخرى لا يصحُّ كذلك القول إنَّ كُلَّ الفنون والعلوم هي عندنا ولا غير، أو أن ننالَ من سائر الشعوب والأمم وحضاراتها، علينا أن ننظر للآخرين بعين الإنصاف والعدل والحكمة.

هناك سؤالٌ آخر طُرِحَ يدعو لتوضيح التناسب بين العنف والعصبية، ولمن يعود مذهب نفي العنف بالدرجة الأولى، وما هو تناسبه مع المعرفة؟ وكذلك تناسب الموضوع مع الأمن الإجتماعي والموّاطنة؟

في الدرجة الأولى يعودُ مكتب نفي العنف إلى الأنبياء الإلهيين والإسلام، فهناكَ رواياتٌ مأثورةٌ تُشيرُ إلى نبذ العنف بإعتبارهِ مصداقاً بارزاً للظلم ضدَّ البشر.

وهناكَ رواياتٌ ترى أنَّ العُنفَ على عباد الله هو في عِداد الشرك بالله، لأنها تعني إلحاقَ الضرر بإنسانٍ بريء بما في ذلك العنف باللسان، والعنف الغيابي الذي يُلحق الضرر الروحي على الإنسان في ما بعد ناهيكَ عن العنفِ ضدَّ النفس والمال الفردي أو سلامة الإنسان وعليه يتبيَّنُ أنَّ الحركة ضدَّ العنف هي إسلاميةٌ أولاً.

وهل للموضوع أرضيةٌ معرفيةٌ يا تُرى؟ هنا أودُّ الإشارة إلى مُغالطةٍ مطروحةٍ في أجواء الثقافة الليبرالية، لقد حاول البعض القولَ إنَّ جذور معرفة العنف ترتبطُ بقضية اليقين ومُبتغاهم وصلُ الموضوع بمسألة الإيمان، والقول إنَّ الإيمان هو أساس العنف، وإنَّ اليقينَ يُساوي العصبية، وإنَّ كُلَ نوعٍ من الإيمان والوفاء لهُ يؤدي إلى العنف، وهذا الأمرُ هو عبارةٌ عن خط سيرٍ سياسيّ يتمُّ تغطيتهُ بإطارٍ عقيدي، ولا يوضِّحونَ ما هو الربطُ بين العنف ومفهوم اليقين، بغض النظر عن محتوى اليقين، لأنَّ الإيمان بشيءٍ لا يؤدي بالضرورة إلى العنف ويتسببُ في المظالم ضدَّ البشر، ولا يُحدِّدون لأيّ شيءٍ يُؤمِنُ الإنسان والذي يمكن أن يكونَ مؤثِّراً في تسبُّبِهِ أم لا، لأنَّ مُجرَّدَ اليقين لا يجرُّ إلى هذا المعنى.

إنَّ الغربَ حاولَ طرحَ مقولةٍ مفادُها أنَّ الشكَّ يقطع العنف، وفي هذا مُغالطةٌ كُبرى، ومنذُ فترةٍ طويلة ونحنُ نُعايشُ نظريةَ التشكيك التي يطرحُها الغرب في كُل الأمور، لكنَّ ذلكَ لم يُنهي العُنفَ المُستشري في العالم، إنَّ النظرية التشكيكية لا يُمكنها أن تمنع العنف،

الذي يُمكنُ أن يكونَ ناجماً عن المصالح أو العصبية صوبَ قضايا مغلوطة، أمّا لو كان الإصرار على عقائد تمَّ إثباتُها بطرقٍ صحيحةٍ وأصولية وتمَّ الإعراضُ عنها فإنهُ لن يكونَ هناكَ أي ربطٍ بينَ الإصرار والعنف بفعل اليقين، مثلما لا يتمُّ هناكَ القول إنَّ التشكيكَ وإعتبارَ الأمور نسبيةً يؤدي بالضرورة إلى نفي العنف.

يقولونَ إنهُ ومن أجل القضاء على العنف علينا سدُّ باب المعرفة، أي أن يقولَ الإنسانُ أنهُ لا يؤمن بيقين أمرٍ ما حتى لا ينشئ عن ذلك العنف.

يقولونَ أنهُ عندما يكونُ الإنسانُ مؤمناً بأمرٍ ما مئةً في المئة فإنهُ سوف يقاومُ مُعارِضيه، وهذا الأمر يؤدي بالتالي إلى وجود العنف.

جوابُنا لمثل هذه المقولات هو أنهُ إذا كانَ هناكَ فرقٌ بينَ التعصُّب واليقين والتعصُّب والإيمان الإسلامي وهو كذلك فإننا لن نُبتلى بهذه المُغالطة، هناكَ تعبيرٌ عندَ الحكماء المسلمين حولَ هذا الموضوع يؤكدون فيه على أنَّ الفطرة السليمة تدعو الإنسان إلى تفحُّص كُلِّ فكرةٍ تُطرح أمامهُ على أنها إحتمال، ولن يقومَ الإنسانُ بطرحِ أحكامٍ مُتسرِّعةٍ أو بدافع العصبية لصالح أمرٍ أو ضدِّه.

وعلينا دراسةُ كُلِّ موضوعٍ على حِدة، وهذا ما يدعو له الإيمان الإسلامي، لأنهُ إيمانٌ عُقلائي قائمٌ على الإستدلال، ثمَّ أنَّ رواياتنا تُفرقُ بينَ العصبية واليقين.

ثم إنَّ هذه الروايات تدعوا المسلمين إلى أن تكونَ أعمالهُم جميعاً ذاتَ مصداقيةٍ وحجّيَّة، أي إستدلالاً عقلياً أو من لَدُن الوحي الإلهي، ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم ينهى عن الظن والشك، فلو كانَ الإنسانُ مُطمئناً لأمرٍ ما بنسبة سبعين أو ثمانين بالمئة، فإنَّ الدينَ يمنعهُ من إعتبارُ ذلكَ مئة بالمئة والبناء عليه، وعليه ينبغي أن يكونَ باب الخطأ والسهو مُشرعاً.

والروايات تُشيرُ إلينا أنَّ من يعتبر نفسه فوقَ الأخطاء فهو خارجٌ عن الخُلق الإسلامي.

إنَّ قبول مبدأ الخطأ وإحتمالاتهِ هو بمعنى الإستعداد للإعتراف به وهي أمورٌ من صلب التعاليم الإسلامية، إنَّ الروايات الإسلامية تدعوا وتُشجّعُ المُسلم كي يقول إنهُ لا يعلم شيئاً في موضوعٍ ما ولا حرج، لأنَّ الإنسانَ لا يستطيع أن يكونَ مُلمَّاً بكُلِّ شيء، لكنه في ذات الحال لا يُشكِّكُ في الأمور، إننا نعتبر البشر خطّائين لكننا لا نعتبر أنهم مُلازمو الخطأ، لكنَّ

النظرية الغربية ترى أنَّ الإنسان خطَّاءٌ بالفطرة، عليهِ فهو لا يعرف أينَ تكمن الحقيقة، لكنَّ الطرف الآخر أي المُسلمين باتوا يرونَ الحقيقة واضحةً وعليه ينبغي أن يُدافعوا عنها.

ولذلكَ على الأنبياء والرُّسُل أن يدافعوا عن المُعتقد بالغالي والنفيس، ومردُّ ذلك أنهم عَرفوا حدود المعرفة الإنسانية وموطن الخطأ وهم يعترفون بذلك لكنهم في ذات الوقت لا يُشكِّكون.

وعندما تكون الحقائق جليةً وناصعة ينبغي للإنسان أن يصمد ويُدافع عنها حتى لو كلَّفهُ ذلك حياته، عليه فإنَّ مُحاربة المعرفة ومنعها من الظهور ليست طريقةً مُثلى لنفي العنف، وإذا ما قال أحدهم إنهُ ليس هناك نظامٌ قياسيٌّ عينيٌّ قابلٌ للتصور لموضوع العقلانية وليسَ هناكَ أنموذجٌ واضحٌ للحكمية لتأييد أو تفنيد أية مقولةٍ عقائدية أو إمكانية التحكيم الأخلاقي حولَ موضوعٍ ما، لقد جاؤوا وشكَّكوا في كل الأصول والعلائم وجعلوها امراً نسبياً وقالوا إنَّ كُلَّ شيءٍ تاريخيٌّ قوميٌّ طبقيٌّ جنسيٌّ شخصيٌّ عصري، وإذا ما قالَ شخصٌ ما إنَّ الحقيقة مُتأثرةٌ بالتاريخ والجنسية والطبقية والقومية والشخصية فهذا يُغلقُ البابَ بينَ الثقافات والأخلاق.

وهنا لنا أن نتساءل لو أنَّ أحدهم أغلق باب التحكيم وقال إنهُ لا يمكن الوصول إلى حقيقة المعرفة فهل هذا الأمر يؤدي إلى خفض مستوى العنف أم زيادته؟

لاحظوا أنَّ هناك اختلافاً بينَ التشكيك والنسبية، وعندما نتحدث عن النسبية في الأمور فهذا يعني أنَّ الحقيقة والفضيلة سيكون لها تعاريف مختلفة وسيكونُ لِكُلٍّ قراءته عن العدل ولن يكونَ هناكَ شيءٌ واضحٌ على الإطلاق، وعندما نبلغُ هذه المرحلة، ولي أن أسألَ هنا: ألسنا نُهيئ الأرضية للعنف بأيدينا؟

بتصوري لو مضينا في هذا الطريق وقُلنا إنَّ كُل شيءٍ هو نسبيٌّ ولا مجال لمعرفة الحقيقة، فإننا نمضي في طريق إنتاج العنف وأدلجتِه.

وعندما يتحدث أصحاب هذه النظرية عن الحوار فإنَّ تصوري عنهم أنهم يُريدون القيام بأعمالٍ تجارية وليسَ كشف الحقيقة والوصول إليها، لأن من يرفض عينية الحقيقة

وكونها ملموسةً يصبح من أنصار المدرسة الريالزمية[١] الخام، حيثُ تصبح عنده الأمور غير شفافة وغير محسومة على الإطلاق.

هؤلاء يحاولون جعل الذهن واللسان والحقيقة أمراً شخصياً، وهم يذهبون إلى نتيجةٍ مُفادها أن لكل شخص حقيقة خاصة به، نعم يكون هذا الكلام صحيحاً لو كان يخصُّ باطن الإنسان وحقيقته الفردية لكن تعميمه على سطح المجتمع أمرٌ غير صحيح ومغلوط، فالقول إن لكلٍّ حقيقته ولا شيء أبعد من الحقيقة الشخصية فهذا يعني في نهاية المطاف أن تكون القيم والمبادئ شخصية وأن لا أحد يفهم لغة الآخر ولا يستطيع أحدٌ إثبات الأمور التي باتَ يؤمن بها للآخرين، وعليه فلا فائدة من التحدث مع بعضنا البعض.

إذن فما معنى الحوار والكلام مع بعضنا البعض بعدَ هذا يا ترى؟ لذا فإنني أتصور إن النسبية والتشكيك هما ضدَّ الحوار والانفتاح على الآخر، وبتصوري أنه وعبر اليقين المعرفي يمكن للإنسان أن يكون منطقياً وشفافاً بالتعامل مع الآخرين ومع المعارضين بل وتحمُّلهم، وليسَ لازماً غلقُ باب الحوار والانفتاح على الآخر والتفاهم بين بني البشر، لأننا سنرفع سوء الفهم والاختلاف عبر الاستدلال والحوار ولو فعلنا ذلك فإنَّ أبواباً أخرى ستتفتح أمامنا ومنها باب العنف.

هنا أرجو الانتباه إلى أن الأفكار التي تدعو إلى جعل الحقيقة عقديةً أو خصوصية ستجعل من الفضيلة والعدالة أمراً خصوصياً وعقدياً وسيكون كل شيءٍ قابلاً للتأويل والتفسير، وهذا أمرٌ يدعو إلى العنف وتدمير الجسر الذي يوصل إلى المدرستين من ذهنٍ ولغةٍ مُشتركة.

ولو سلَّمنا أن صور الحياة والعقيدة متساويةٌ وينبغي الاعتراف بهما على حدٍّ سواء لكن بعضها مُشتَّتٌ إلى الدرجة التي لا يمكن جمعها وقولبتُها في إطارٍ ديني، لأنها تحوي أكثرَ الروايات النسبية المعرفية تطرفاً ولو فعلنا ذلك نكون كمن يريد تضييعَ أصل الحقيقة باسم التعدُّدية والأفكار المُختلفة، عندها لن يغلق باب العنف بهذه الطريقة، بل سيُفتح على

---

١. الواقعية (بالإنجليزية: Realism) هي حركة نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا. وتعنى الواقعية بتصوير الأشياء والعلاقات، بصورة واضحة كما هي عليه في العالم الحقيقي الواقعي وبتصوير الجوهر الداخلي للأشياء، وليس الجنوح إلى الفانتازيا أو الرومانسية.

مصراعيه أكثر فأكثر، فلو تخلى الإنسانُ عن فائدة وأصل الحقيقة والفضيلة، فإنَّ طريق العنف سيكون أقوى وأكثر وضوحاً، لأن الإنسان حذف المِلاك والمعيار وإمكانية الحوار وستصل إلى درجة الصفر، ويتصوري أن الأشخاص الذين ينجحون في الحوار والانفتاح أولئك الذين يمتازون بالاستدلال المنطقي والأخلاق ومن يؤمن بحقيقة المعرفة الإلهية القائلة بالوحدة في ذاتها، إنَّ أولئكَ النفر الذين يقولون إنه لا يمكننا التصديق بأية نشاطاتٍ معرفية يقولون أيضاً إنَّ النظرات الشمولية مُختلقةٌ وخاصة، وأن ليسَ هناكَ نظرةٌ ورؤيةٌ شموليةٌ وكُلُّ ما هو موجودٌ في العالم عبارةٌ عن صدفةٍ واحتمالات ليس إلا.

إن هذه الأفكار وهذه الطرق بالتفكير تؤدي إلى إيجاد حالةٍ من التعارض، وتعدُّ بمثابة إلقاء بذور التعارض وهذه الأمور تؤدي إلى غلق باب الاحتكام وأن المُبشرين لهذه الأفكار الغربية أضافوا لها مُقدماتٍ أو ذيَّلوها بخاتمةٍ تنويريةٍ تقول ليسَ هناكَ بديهيةٌ أو ضرورياتٌ أو ثوابت دائمةٌ للمعرفة.

وعبثاً نحاول أن نسأل من هؤلاء ما هي الحقيقة وماهي حقوق الإنسان وكرامته وعن أي استدلال نبحث ونخوض حيثُ لا معنى لذلك عند أصحاب هذه المدرسة الفكرية، ومن ثَمَّ لا نستطيع أمام هؤلاء إثباتَ قُبح العنف فما بالك بأصل الموضوع، ولا يمكن إثبات قُبح العنف بهذا المنطق.

لقد استنتجوا خطأً من الفيزياء الكلاسيكية عن وجود أزمةٍ معرفيةٍ وأخلاقية وهي مُغالطةٌ لا أكثر، فإذا ما تَمَّ طردُ ونفيُ الضوابط في درك الحقيقة والأخلاق والحقوق وتنتفي عندها عملية التنظير والاستدلال، عندها تصبح العلاقات غير إنسانية وتقوم على أساس القول مثلما هو موجودٌ في عالم اليوم من علاقاتٍ دولية، فلو استمعتم إلى مشروع العلاقات الدولية من الناحية اللسانية والأدبية لوجدتم أنهُ أفضلُ الآداب الدولية التي قلَّ نظيرها في التاريخ، لكنها في ذات الوقت أكثرُ الآداب مُعاداةً للبشرية والإنسانية في العلاقات، حيثُ تقوم على أساس الترهيب والترغيب والتزوير في العالم.

وهذا الأمر تحديداً هو ما يقع لكافة بني البشر في كافة التعاملات الإنسانية، لماذا؟ لأن القيم الأخلاقية تكون مشكوكاً فيها، عندها تصبح الغرائز والمصالح والنفعية مُطلقةَ العِنان لا أصل لها وعندما تكون الحقيقة والأخلاق وأنموذَجُها مطرودةً وتصبح المفاهيم الأصلية إمَّا

شخصيةً أو عنصرية فإنها ستكون عُرضةً لتقادم الزمن والخصوصية الفردية عندها ستُغلقُ باب المعرفة والمحبة بشكلٍ مُتزامن.

وهناكَ تساؤلٌ طرحهُ بعض الحضور يتحدثُ عن نسبة العنف مع المواطنة، كما هو معلومٌ فإن أمْنَ المواطن يُعدُّ من مقدسات الفكر الليبرالي الرأسمالي وعندما يأتي ذكر اسم الليبرالية فإن على الإنسان أن يكون مشككاً في كُل شيء ويحقُّ له أن يفعل ذلك، ما خلا التعرض إلى الأمنِ خاصةً أمنَ الرأسمالية.

وعن سؤال بعض الأخوة حولَ سُبل المعرفة وتطابقها مع الأمن الجماعي المجتمعي فإنَّ جواب ذلك أنَّ علينا أن نرى هل أنَّ رفاه المواطن أهم أم أمنُه؟

لكننا نقول إنَّ الأمر لا يكفي بل إنَّ القضية الأهم ليست توفير الأمن، بتصوري أنَّ حقَّ التقدم في هذا الباب هو مع الحقيقة فهي أهم من الأمن، بالطبع لا نُنكِرُ أهمية الأمن، لأنَّ هذين الأمرين أي الحقيقة والأمن لا يمكن الإتيان بهما من خلال عقد الاتفاقيات.

إنَّ ما تقوله النظرية الغربية مُحالٌ من الناحية النظرية وقد تبين استحالة ذلك عملياً أيضا، إنَّ الالتفات إلى القيم الذاتية والقيم الإنسانية والفضيلة والنماذج الأخلاقية والعقائدية تبدو عمليةً ضرورية، ولا يمكن تعميم الانتخاب الفردي، أما الفكر الليبرالي فهو يعتبر أنَّ الانتخابات الفردية عمليةٌ مُطلقة، وعندما تكون الحالة كذلك فإنَّ الحقيقة ستكون نسبيةً والأمن الذي يُعدُّ من أهم الموضوعات التي يطرحونها في فكرهم سيكون كذلك، لأنَّ الحقيقة سيكون شأناً خاصاً في الحياة العامة والاجتماعية، وهذه مُغالطةٌ تؤدي بالإنسان إلى التفرُّد المُفرط الذي يرى القيم الإنسانية مُهدَّدة في أية لحظة عندها بتصوري تبدأ مرحلة العنف واستخدام القوة، لأنَّ هذه الأفكار تؤدي في النهاية إلى فسخ الحدود وزوال الأبعاد الإنسانية، لذلك فإنَّ تعزيز الحركة اللاعقلانية واللاأخلاقية أو الترويج إلى النسبية والتشكيك يقود إلى تأطير وأدلجة العنف، ومن خلال العقلانية واليقين يتمّ التأطير للمعرفة الإنسانية أكثر فأكثر.

النقطة الأخرى تكمن في أنَّ مُخرِّب نظرية الواجبات دونَ الحقوق يعني أنهُ يُريد التأكيد على الشق الثاني وجعل المصالح فردية والأخلاق خصوصية، ويجعل المدنية قبالة الفضيلة، أي توسيع دائرة الخيارات الفردية ويُضعِفُ لغة نفي الذنوب والفضيلة معاً، وبتصوري أيضاً

أن من يدعي إلى مثل هذه الأمور لا يمكن أن يدعو إلى نبذ العنف، أي أنَّ الخصوصيات الفردية المُطلقة في هذا النمط من التفكير لا تقودنا إلى نفي العنف، بل العكس يُستشفّ من ذلكَ العنف بعينه، لأننا نؤمن أنَّ الحياة المُسالمة هي الزاخرة بالمعرفة، ودون ذلكَ أي عدمَ انسجام بين المعرفة والسلم لن نحقق ما نصبو إليه، بالطبع سعى هؤلاء إلى طرح نماذج براغماتية[١] من الأخلاق والحقوق للاستعاضة بها عن الأخلاق والحقوق الإلهية وكانوا لهم تعاريفُ نُوميناليستي[٢] عن المُعرِّف وتسببوا في التشتت في إطار المعرفة وحذفوا المعايير المشتركة.

النكتة الأخرى التي ينبغي طرحها هنا أنه كلما ازداد طرح المفاهيم العلمانية في المجتمع زادَ العنف وتضاعفَ، أي كلما يزداد حجم التعريف غير الديني للإنسان في إطار المعرفة الإنسانية والعلوم الإنسانية فإنَّ العنف سيتضاعف.

ربما يسأل سائلٌ لماذا؟ الجواب هو أنَّ تعريف العلمانية للإنسان يقول:

إنَّ الإنسان وتصرفاته غير مقدسة، فهي ترى أنَّ الإنسان موجودٌ طبيعي وهو يشبه بطبيعته البقر، عندها لا يمكن الحديث عن حقوق الإنسان بصورةٍ شاعرية إلا إذا تحدثنا كذلكَ عن حقوق البقر، لأنَّ نظريتهم تساوي في الوجود بين الإنسان والبقر ولا تُقرُّ بمبدأ الموجود الإلهي.

لا أنوي من خلال هذا الطرح الإهانة بل أردتُ أن أوضح ألاّ فرق في النظرية العلمانية بين الإنسان والبقر، وعندما تسقط حرمة الإنسان يكون بالإمكان ممارسة كل أنواع العنف ضدَّه لا بل تعذيبه أو الاعتداء عليه وتحقيرُه.

لكننا في الثقافة الدينية نرى العكس من ذلك حيثُ القدسية الإلهية التي تمنع إهانة الإنسان أو الاعتداء على حقوقه حتى أنَّ الإسلام لا يُجيزُ استغابة الإنسان ولا حتى التمسخر به ولا حتى إسداء النُصح له أمام الآخرين، على عكس الثقافة العلمانية فإنَّ للإنسان

١ . المذهب العملي أو فلسفة الذرائع أو العَمَلانِيَّة أو البراغماتية (بالإنجليزية: Pragmatism) هو مذهب فلسفي سياسي يعتبر نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة؛ رابطا بين التطبيق والنظرية، حيث ان النظرية يتم استخراجها عبر التطبيق، نشأت هذه المدرسة في الولايات المتحدة في أواخر سنة ١٨٧٨. والبراغماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني براغما ومعناه العمل. (راجع: ويكيبيديا براغماتية)

٢ . الاسميون الذين يعتقدون بعدم تحقق الكلي مطلقا لا في الذهن ولا في الخارج.

قدسيةً في الإسلام وعليه فإنَّ المواعظ المدنية والحديث عن التساهل والاتفاقات والتلاقح الفكري وأمثالها لا تمنع العنف لكننا في الثقافة الدينية نرى أنها تُحذر الإنسان من عدم إمكانيتهِ لعبورِ الصراط يومَ القيامة إذا كانَ متجاوزاً على حقوق الآخرين في الدنيا، في حقوقهم، في أموالهم، في سمعتهم وفي أرواحهم، في قتل الابرياء أو تعذيب الإنسان وهذا يعني أنَّ الإنسان لن ينعم بالراحة والسعادة المعنوية إن فعلَ واحدةً من هذه الأمور المنهيّ عنها.

لكننا في الثقافة الغربية نرى أنَّ باستطاعة الإنسان أن يكون اكثر عنفاً وتعاملاً مع باقي أبناء البشر والأمم والمجتمعات الأخرى مع الطبقات المختلفة في المجتمع وفي نفس الوقت نرى أنَّ أكثر الناس سعادةً وهدوءً واستقرارا ونرى في الثقافة الدينية أنها تقول إنَّ طلبَ الحلّيَّة من الآخرين هي شرط دخول الجنة، وهذا دليلٌ آخر على أنَّ الإسلامَ دينُ اللا عنف، لكننا نرى في العلمانية أنَّ العنفَ أمرٌ عاديٌّ بالنسبة لهم ولا قُبحَ في العنف.

إننا اليوم نعاني وعلى مدى أكثرَ من قرنين من الزمان من عوارض سريريةٍ للعلمانية من خلال جعل المفاهيم نسبيةً وكذا القيم حيثُ تحوَّلت إلى أمورٍ شخصية وكل هذا يحصل في عالمٍ معاصرٍ وحداثويٍّ من تاريخ الإنسان حيث لم نجد طوال التاريخ عُنفاً يُمارس ضدَّ أبناء البشر بما يتم اليوم ولم تبق أساليب تعذيب إلا وإستُخدِمَت، لم يكن العالم من قبل هكذا، إنهم لا يعلمون أنَّ العنف ضدَّ الإنسان سيكون كشربة ماء، وهذا يتجلى ويتحقق من خلال قطع ارتباط الإنسان مع الاجواء الروحانية والإلهية المحيطة به، حيث قالوا إنَّ الإنسان حيوانٌ وموجودٌ طبيعيٌّ وغريزي.

وآخِر نكتةٍ ودَّدتُ طرحها هي أنَّ موضوع الأمن والعنف يحظى بالأهمية القصوى في الثقافة الإسلامية، بالطبع فإن هاجس الحقيقة والتنمية هو أهم من الأمن، وكما أسلفت فإنَّ الهَرَجَ والمَرَجَ العقائدي وانعدام الشفافية يؤديان إلى العنف، ويمكن الوقوف بوجه العنف عبر القطعية لا بالنزعة الفردية والنسبية ولا بالتشكيك ولا بالنيل من قدسية الإنسان، أي حذفَ التعريف الديني أولاً وإعتبار القيمة المعرفية منفصلة عن الأمن وهي مهمة للغاية، وعليه فإن اعتبار الحقيقة والفضيلة والعدل صياغاتٍ عَقدية يُعرِّض العدالة والمعرفة إلى الخطر وكذا الأمن.

ولذا فإن الحدود العقيدية والاصطفاف الإيمانية يُعدانِ لازِمَين للوقوف بوجه العنف

والتشكيك الذين يُعرضان أصالة الحق وأصالة الحقوق للمساءلة، أو أنها تُزيل القدسية عن الحق والحقوق، حيث لا تبقي حريماً للإنسان، وعرضنا في سياق الحديث أنه لا يمكن الاستمرار وفق نظام المصلحة مع تأمين الحقيقة، كما أن العقود والاتفاقات لا تستطيعُ أن تحلَّ محلَّ الأخلاق.

لقد طُرِحَ سؤالٌ أخر يقول:

هل أنَّ التطور الكلامي ضرورةٌ من ضرورات التطور والتقدم أم لا؟

إنهُ سؤالٌ مهم لكنه يحمل في طياته مغالطتين كبيرتين، لا أريد القولَ إنَّ السائل وقعَ في هاتين المغالطتين، بل أريدُ إلفاتَ عناية الشباب إلى عدم السماح لمثل هذه الأفكار بأن تُعشعِشَ في أدمغتهم ولا تعتبروا ذلك من مسلمات البحث، فكل ما هو مطروحٌ في هذا التساؤل قابلٌ للطرح والمناقشة حتى مسألة التطور فما هو معناها يا ترى؟

هي عبارةٌ فضفاضةٌ بأوجهٍ متعددة ينبغي تشريح مبانيها النظرية، فالبعض يرى أنها تعني اللفظ بعينه وعليه فإنَّ التطور أمرٌ مُحبَّذٌ، لأنه يقود إلى الرفاهية والحرية والديمقراطية وحاكمية الشعب، كل هذه المعاني اللغوية جيدة لكنها معاني نظرية، وينبغي أن نعلمَ على أي الأسس تُبنى ومن أين تبدأ وأين تنتهي، وما هي الملزومات النظرية والعملية، وهنا ينبغي النظر إلى الموضوع بذهنٍ واعٍ وليسَ بحالةٍ من الوعي والإدراك، حيث يمكننا في مجال السياسة والرأي قولُ كل شيءٍ حتى الخرافات، لكننا في المباحث العلمية علينا أن نأتي بالاستدلال لكل جملة نورِدُها، ولا ينبغي التعامل بصورةٍ عامة، علينا أن نعي معنى التطور والتقدم الذي نقصده وعلى أي الأسس يقوم وما هو الهدف منه وما هو التناسب الموجود بين مفهوم التطور ونظرية سير التكامل التاريخي، هل نرضى بهذه النظرية أم لا؟ وما هو التناسب مع نظرية أصالة الربحية والفائدة؟ وما هو تعريف الإنسان لنظرية التطور؟

ربما كان لكل تعريف معناه الخاص، يمكننا الخوض في كل جزئية لاحقاً، حسناً الكل ينشد التطوّر إلا المجانين، ولكن ينبغي النظر بأي استدلال وأية منهجية نريد ذلك؟ وما هو الثمن وما هو التعريف للتطور والانحطاط ولرجعية.

لقد طرحَ بعض الشبان سؤالاً حول التطور الكلامي وهنا أسألُ ما هو المقصود من التطور الكلامي في سؤالكم؟

هل يعني التغيير العقائدي أي التحول في أصول الإلهيات فهذا غير مقبولٍ ومرفوضٌ تماماً.

أمّا إذا كان المقصود من التطور الكلامي، ينبغي أن تكون العقائد منظومةً واضحةً، فنحن لسنا من دُعاة الأشياء الوضعية، لدينا عقائدنا الروحانية والعقلية، علينا أن نكون على تماسٍ مع المذاهب والمدارس المختلفة والحديثة، وأن نجيب على كل الأسئلة والشبهات لنستطلع مكانتنا وموقعنا على الدوام، فإن كان هذا المقصود من حداثة الكلام والمُعتقد فهذا كلامٌ صحيح، لأننا نواجه على الدوام مدارس فكرية جديدة وينبغي أن نُعدَّ أنفُسنا للنقد والحوار.

هناك البعض ممن يُطالعون في الكلام يُعِدُّونَ أنفسهم مُتكلمين، لكنهم في الحقيقة يطالعون التاريخ والكلام ويظنون أنهم يُطالعون الكلام نفسه، في حين أن الكلام يعني أن يكون المتكلم في كافة الظروف والأحوال مُسلَّحاً بعقيدةٍ حيّة.

أما إذا كان المقصود من حداثةٍ في الكلام وتغيير المُعتقد والإلهيات فهذا استحالة عقيديةٌ مرفوضة، وللأسف هناك مجموعةٌ تطرح مثل هذه الأفكار وتسعى من خلال القول بالكلام العصري تغيير المعتقدات والأصول، وهناك من يتبعهم في العالم الإسلامي وحتى في إيران، حيث تطرح اليوم قراءاتٌ ليبراليةٌ مسيحيةٌ عن الإسلام، أو لِنَقُل بوضوحِ تفسيراتٍ بوذيةٍ غريبة عن الإسلام وبوذيةٍ ليبراليةٍ أو تلفيقٍ من الاثنين معاً، أي طَرحَ إسلامٍ بالمعاني العلمانية وهي في الحقيقة عبارةٌ عن استنساخ للإلهيات الليبرالية البروتستانتية المتأخرة التي يعود تاريخها لعقودٍ مضت في أوروبا، وهذا ما يُريدونه للفكر الإسلامي والكلامي والإلهيات الإسلامية والشيعية.

لقد نجح الغربيون في مسعاهم وللأسف في شبه القارة الهندية وشمال إفريقيا لوجود أهل السنة من المدرسة الكلامية الأشعرية، لقد نمت هذه الأفكار هناكَ كثيراً، لأنَّ الكلام في المذهب الأشعري كانَ أرضيةً مناسبةً، لنمو مثل هذه الأفكار، لكن أرضية الكلام الشيعي تستند إلى أصولٍ وأُسسٍ ثلاثةٍ هي الوحي والعقل والعدل.

وهكذا فشلت الإلهيات الليبرالية البروتستانتية والليبرالية المسيحية التي تُعدُّ إلهياتٍ متعارضةً مع العقل وهي تقوم على أساس التفكيك بين الإيمان والعقل والدين، وأصحاب

هذه المدرسة لهم اليوم عددٌ من المُريدينَ ومجلةٌ وكرسيٌّ في الجامعات الغربية يطرحون فيها آراءهم التي تُعدُّ إقتباساً وتقليداً أعمى وهي تلفيقٌ بين الوجودية المسيحية مع القشرية الفلسفية التحليلية، أو هي تلفيقٌ بين البوذية الشرقية أو ما يُصطلح عليه اسم الوضعية المنطقية الحديثة من نوعها الليبرالي.

إنَّ إيضاحَ المعرفة عند هذه المدرسة يُعدُّ أمراً تجريبياً جامداً وقشرياً، وهي تعني نفي المعارف الإلهية لكنها في ذات الوقت روحانيةً علاجيةً للتقليل من المشاكل العصبية في الحياة وهي كالمُخدر الموضوع جانباً للاحتياط، وهذا الأمر يُطرح على أنه قراءةٌ جديدةٌ من الدين للعامة، والأنكا أنَّ لهم من يشتري بضاعتهم وهي تقود في المحصلة النهائية إلى فصل الدين عن الروحانية وتوجِدُ حالةً من التشكيك مزودةً بحالةٍ من الإباحية الليبرالية.

هناكَ سؤالٌ آخر طرحهُ بعض الأخوة يرتبطُ بالفلسفة السياسية، يقول:

هل أنَّ السلطة مفهومٌ وضعيٌّ أم سماوي؟ أي هل أنَّ المشروعية أمرٌ دينيٌّ وقدسيٌّ أم أمرٌ علمانيٌّ وضعي؟

هذه نقطةٌ مهمة من النزاع الفكري بينَ الإسلاميين وأصحاب الفكر الليبرالي في عالم اليوم.

للإجابة على هذا السؤال أقول:

عندما نسأل عن كون السلطة وضعيةً فما هو المعنى يا ترى هنا؟

فإن كانَ وضعياً فهذا يتعارض مع النظرية الفلسفية السياسية في الإسلام، لأنه يعني نفي الحكومة الدينية وهناك نوعٌ آخر من تلقي الإنسان للسلطة والحكومة يُقارب الرؤية الإسلامية، لكننا ينبغي أن نُفصِّلَ ونوضِّحَ الامر منذُ البداية.

أمَّا إذا كانَ قصد السائل من أنَّ السلطة والحكومة تُدارُ بواسطة البشر وهو أمرٌ يؤدي إلى أنَّ هذه السلطة ينبغي أن تكونَ تابعةً لنظام مقدس وإشرافٍ بشري فهذا يتوافق مع الرؤيا الإسلامية للحكومة.

والحكومة الإسلامية واستناداً إلى الآيات والروايات الكثيرة تدعو إلى مثل هذه الحكومة، وهناكَ تعبيرٌ واضحٌ للإمام علي عليه السلام في هذا المجال حيثُ يقول: «وإنما الوالي بشر لا يعرف

ما توارى عنه الناس به من الأمور»[١]

وعندما نقول إنَّ الحكومة الدينية ذاتُ قداسة وذاتُ مشروعية إلهية وسماوية في عصر الغيبة لا نعني أنَّ الحُكام معصومونَ ولا يُخطئون أو لا ينبغي السؤال عن تصرفاتهم أو نقدُها أو الإشرافُ عليها، إنما إطلاقُ الإطار الديني البشري عليها من باب أنها سلطةٌ وضعية،أمَّا إذا كانَ المعنى البشري أو الوضعي للحكم يعني أنها حكومةٌ بشرية أو سلطتها وضعيةٌ أرضية فهي كذلك حتى لا تتم الإساءةُ أو استغلال المذهب والسلطة والحكومة وأن لا يُمارس نوعٌ من الظلم باسم الدين والمذهب ولكن هناكَ مفهومٌ غيرُإسلاميٍّ مغلوطٌ من هذه الجملة والتي يتمُّ في الغالب إيرادُها حيثُ يتفوّهُ بهذه بعضُ الرُعاعِ والجهلة وبينهم عددٌ من الروحانيين وللأسف الشديد حيثُ يُرددونَ أنَّ السلطة أمرٌ بشريٌّ ووضعي وينبغي رفع القدسية والنزاهة عن المُمارسات الحكومية، فالسياسة والسلطة ممارسةٌ غيرُ دينية وينبغي علمنتها وتحويلُها إلى ممارسةٍ دنيوية، وهذه المفاهيم مغلوطةٌ للغاية وفي هذا نفيٌ لكُلِّ أطروحة النبوة حيثُ بُعِثَ الأنبياء جميعاً ليقولوا لابن آدم إنَّ السلطة ينبغي أن تكونَ في خدمة العدل والفضيلة والحقيقة الدينية والقيم الإنسانية، أي لا ينبغي إزاحة القدسية عن السلطة، لا ينبغي التفكيك بين السلطة والمقدسات والقيم الإلهية والإنسانية.

وعندما يدعو أحدهم لعلمنة السلطة فإنهُ يدعو في المحصلة إلى فصل الدين عن السياسة، وهذا يتعارض مع مفاهيمنا إنَّ القدسية التي تُحاط بها الحكومة ذات معنيَين فتارةً يقال إنَّ الحكومة مقدسة بمعنى أنهُ لا يمكنُ انتقاد القائمين على الحكم ولا يمكن محاسبتهم، وهذا ليسَ تعريفاً إسلامياً عن القدسية في الحكم، هذا تعريفٌ مسيحيٌّ وأوروبي يمكن طرح الأسئلة على أكثر الحكومات قدسيةً وهذا واجب يتجلى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا نوعٌ من إشراف المجتمع على الحكومة وهو واجبٌ دينيٌّ مُقدَّس، وإذا ما نفى أحدهم القدسية عن الحكم أو تعرض للمشروعية الإلهية فهذا يعني إلحاقَ صفة الظالمينَ إلى الحكومة الدينية، وهذا الأمر يتعارض ومعتقداتنا، لأنهُ لو أصبحَ كذلك فإنَّ هذا سيُلغي الصفة الدينية والقدسية عنها وعليه فلو أصبحَ حقُّ الحاكمية صِرفٌ بشري وباتت المشروعيةُ صفةً عقديةً ووضعيةً وديمقراطية فهذا يعني أننا نهينا عن ولاية الرب

---

١ . نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

وأنكرنا أصل حكومة الانبياء والحكومة الدينية، ولن يقتصر الأمر على بحث ولاية الفقيه، ومن يقول إنَّ الولاية شأنٌ عرفاني ولا ترتبط مع ولاية الفقيه بمفهوم المشروعية وهي أمرٌ شخصي ولا ينبغي إقحام المُقدسات في أمور الحكم ولو أصبحت الحكومة عاريةً عن هذه الأمور فلا معنى للحديث عن قُدسيتها إذاً.

ومن يؤمن بهذه الأفكار يُروجُ للأصول الغربية، لقد جاءت الجمهورية الإسلامية والإمام رضوان الله تعالى عليه ليجعل من الحكم دينياً ومن الحكومة إلهيةً مقابل النظرية الغربية التي ترى المشروعية هي صرف ديمقراطيةٍ ووضعية أي إلغاء البعد الإلهي من الحكم.

وعندما قال الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه إنَّ ولاية الفقيه شُعبةٌ من ولاية الرسول ﷺ فهذا يعني أنَّ الإمام أراد القول إنَّ الحكم ليسَ صِرفَ وضعيٍّ أو بشري بل هو تابعٌ للقيم الإلهية، وعليه فإنَّ الحكم والسلطة أو حقَّ الحاكمية أو المشروعية في الفلسفة السياسية في العالم تنقسم إلى مجموعتين:

الأولى دينية والأخرى علمانية، مُقدسةٌ وأخرى تنفي وتعارض القدسية، وعليه من ينكر حقَّ الحاكمية الإلهية فهو علماني الهوى والتفكير ونحن نجزم أنهُ ليسَ بوسع الإنسان المسلم أن يكونَ مسلماً وعلمانياً في آنٍ واحد إلا إذا كانَ لا يعرف الإسلام.

ومن يُعرّف المشروعية على أساساً غير دينيٍّ وديمقراطيٍّ صِرف، أي تعريفاً بشرياً صرفاً ومادياً بحتاً ولا يرى للوحي الإلهي أية مشروعية فهو ليس بمسلم، أي أنه لم يفكر بطريقة المسلمين أو في إطار الفلسفة السياسية وأكرر هنا أنَّ الحكومة الدينية لا تعني أنَّ النقدَ والإشراف ممنوع، بل على العكس تدعو للاستدلال الديني في النقد، أي أنَّ على الجميع أن يُمارسوا دورهم في الإشراف على الحكومة الدينية ويسألون الحُكَّام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأن يقفوا بوجه الحكام لو رأوا أنهم خرجوا عن الأصول ولهم حق مقاومة الحكام، بل أنَّ التكليف يدعوهم لذلك، وللأسف فهناك الكثير لا يعرف الفرق بينَ الحكومة المقدسة والحكومة الدينية الوضعية منها والأرضية.

وربما وقع الكثيرون في مغالطاتٍ من هذا الباب، وقد وقع في هذا الخطأ أناسٌ مشهورون دخلوا الحكم وهم لا يعرفون تعريف الحكومة الدينية وفي الحكومات الإسلامية خاصةً الشيعية منها تُعدُّ الحكومة الدينية أكثرَ الحكومات قبولاً للنقد والانتقاد.

أنقل لكم هنا روايةً عن الإمام علي عليه السلام وردت في نهج البلاغة حيثُ يقول الإمام في وصف أقرب الناس للحكام والمسؤولين: «ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك»[1].

أي أن تكونَ الحلقة الأقرب للحاكم أكثرها انتقاداً له، انتقاداً في سبيل مصالح الناس لا في سبيل مصالحهم أو على أسس رؤىً غير إسلامية أكثرها صراحةً تقول الحق ولا تخشى لومَ الحاكمين وهذا الأمرُ في صلب الحكومة الإسلامية والأصول الروائية عندنا، وأنَّ أية حكومةٍ تمضي في طريق حكومة الرسول وأمير المؤمنين تكونُ مقدسةً لدينا حتى وإن لم يكن على رأسها إنسانٌ معصوم، مقدسةً بالمعنى الذي يدعو للدفاع عنها وتقديم العون لها، لكنها ليست مقدسةً بالمعنى الذي لا يُجيزُ لنا انتقادها أو السؤال عن صحة تصرفاتها.

فهي ليست مقدسة بمعنى أنها ذاتُ مشروعيةٍ إلهيةٍ وأنها شُعبةٌ من ولاية الله وأنها أمرٌ فوقَ البشر وسماوية وفي ذات الوقت، فإنَّ حقَّ حاكمية الشعب تأتي في ذيل حق حاكمية الله، وهي في مسألة النظارة والإشراف ينبغي أن تكونَ بشريةً «إنما الوالي بشر» كما يقول الإمام علي عليه السلام.

كانَ هذا الموضوع أيضاً جواباً مختصراً لسؤال بعض الحاضرين أشكر حُسنَ استماعكم وأرجو الصفحَ عن الإطالة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

١ . نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

النقد الذاتي بداية التغيير

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم إخوتي وأخواتي الأعزاء.

المسألة الرئيسية هي لماذا أن المسلمين الذين كانوا وحتى قرون من الزمن الأول في مضمار العلوم والحضارة والثقافة البشرية وكان العلم والثروة والقدرة تشع من الإسلام إلى سائر نقاط الكرة الأرضية أصبحوا اليوم بهذا الوضع المؤسف حيث تراجع المسلمون والعالم الإسلامي خلال القرون الثلاث المنصرمة وبات المسلمون يعانون من الذلة والمسكنة وبات كل شيء في المسلمين تقليد من الغرب بدءاً بفنون الزراعة مرورا بالملبس وبنظام التغذية والآداب والرسوم إلى الحياة الشخصية، وظل كل شيء مستورد ومترجم، حتى في مجال الثقافة والفكر حتى خلال تداولنا في السوق أصبحنا نخلط بعض المصطلحات الأجنبية لتسهيل تسويق البضاعة وبدأنا نعلق ونلصق ماركات أجنبية على السلع والبضائع الوطنية الجيدة خشية فقدان سوقها وسط هذه الثقافة المستسلمة، وبتنا نكتب على سلعنا (edam ni) أو صنع في ونلصق اسم بلد أجنبي، هكذا الحال في مجال الثقافة والفكر.

فلو ظهر مهندس أو طبيب أو صاحب نظرية أو فيلسوف أو متأله صاحب نظرية نراه لا يجرؤ على القول إنه مسلم وأن نظريته إسلامية، نراه يقدم على إلحاق مصطلحات وألفاظ وعبارات أجنبية لتسويق نظريته، وعليه نراه يورد أسماء شخصيات علمية أجنبية للتأكيد على قوة أطروحته مهما كانت. هذا سؤال أريد طرحه في محاضرتي اليوم «لماذا الخجل من الإسلام؟ وما هو طريق الحل للمستقبل؟»

الحقيقة تكمن في أننا وخلال القرنين الأخيرين ـ في الوقت الذي انشغل المفكرون الغربيون في بحث مختلف الأمور النظرية والعلمية وبدأوا بتشييد أفكارهم ونظرياتهم حيث لم يكونوا يملكون شيئا خلال القرنين الماضيين ـ ظل مثقفونا يسترقون السمع وراء أبواب الغرب وباتوا ينقلون لنا جملا ناقصة لمفكرين من الدرجة الثانية والثالثة في الغرب، وصرفوا جل العمر ووقتهم في نقل هذه المفاهيم إلى البلدان الإسلامية وهكذا أصبحت محاضراتهم في بلد الأم عبارة عن ترجمة من الكتب في الغرب في مجالات المعرفة والإنسان والرؤية الشمولية للعالم والتنوير وطريقة الحياة. وإذا كان الشخص ذا خلفية دينية نراه يخلط ما تعلمه من الغرب مع الأدب الديني ولو كان قد درس في إنجلترا أو الولايات المتحدة فإن حركته التنويرية ستكون ذات اتجاه إمبريالي في الإطار المعرفي واتجاه ليبرالي في علم الاجتماع، وإن كان قد درس في فرنسا فإنه في الإطار المعرفي سيكون وجوديا وفي علم الاجتماع اشتراكيا ديمقراطيا أوروبيا وفي التنوير اشتراكيا ديمقراطيا، وإذا كانت دراسته في ألمانيا سيكون آلتيميا في التنوير، أما إذا كانت دراسته الجامعية في المعسكر الشرقي والبلدان الشيوعية ستكون حركته التنويرية عبارة عن استدعاء وتكرار للاشتراكية الإستالينية والأيديولوجية، وعليه، فهم في مجال إنتاج الفكر يكادون يكونون صفرا، وخلال القرنين الماضيين كان التعرف على مكان دراسة من وصفوا بالمثقفين والدارسين في الغرب يكفي لقراءة أفكارهم، فهؤلاء وإن تعددت مشاربهم الفكرية لكنهم في نهاية الأمر كانوا يبيعون لنا مما تلقفوه في الغرب ولم يكن هؤلاء يتمتعون بالاستدلال في الغالب ولا حتى الملاك التاريخي، فلو عرفنا تاريخ الدراسة واسم الجامعة والبلد لأصبح واضحا لدينا أفكار هؤلاء والنظريات التي يتبعونها سواء النظريات اليمينية أم اليسارية، وهل أنه يتبع النظام التوليتاري الشمولي[1] أم النظام الديمقراطي؟ وهل أن نظرته إلى قضايا العلم هي إيجابية أم سلبية أم متقاربة؟ وفي القضايا الإنسانية ونظائرها.

كل هذه المدارس والنظريات هي عبارة عن أنموذج سواءا في العقل المنفتح أو في مجال الأنطولوجيا الأدبية وفي مجال المجتمع والسياسة والاقتصاد والأخلاق وحقوق الإنسان

---

١ . الشمولية أو التوليتارية تعرف باللغة الإنكليزية بـ(Totalitarianism)، يقصد بها الحكومة المركزية التي تسيطر على كل جوانب الحياة ولا تتسامح مع الأطراف المختلفة معها بالرأي.

بدورها عرّفت الموسوعة البريطانية التوليتارية أو الشمولية باعتبارها: شكل الحكومة التي تسمح نظرياً بالحرية الفردية، وفي الوقت نفسه تسعى لإخضاع كل جوانب حياة الفرد لسلطة الحكومة.

والترويج لأية أفكار أو ترجمات وما هو تعريفه للأعراف والتقاليد والمجتمع العصري الحديث.

لقد طرح هؤلاء خلال القرون الثلاثة الماضية وبخاصة بعد الثورة الدستورية في إيران وخلال القرن الماضي على وجه التحديد أفكارا هزيلة لم تكن من بناة أفكارهم أساسا ولم يتحملوا الصعاب أو يسهروا الليالي لعرضها، بل اكتفوا بالترجمة دون ذكر المراجع والمآخذ أحيانا وجاؤوا بها لأبناء جلدتهم مع كثير من التطبيل والبهجة وواضح وجلي كيف تكون أفكار من يعود من أحضان الإنجلوأمريكان حول الديمقراطية وحقوق الإنسان، وواضح شخصية وأفكار من يأتي من الغرب وفلسفتها في أوروبا الموجودة حول القضايا الدينية والتجربة الدينية والشكل الديني وأين تكمن بداية الدين وأين هي نهايته، وعليه، فإن كل ما جاؤوا به هو عبارة عن تكرار قابل للتحديد والتوقع وهو ليس إنتاجا أو إبداعا أو اجتهادا ولا نشاطا فكريا في المجتمع الإسلامي. وهكذا أصبحت جامعاتنا أرشيفا للأكاديميات الأوروبية ولم تصبح يوما غرف فكر وعمل أو غرف لطرح أفكار الفلاسفة الأحياء وأصحاب النظريات الشجعان الذين نسمع دقات قلوبهم وهم يعيشون بين ظهرانينا، لكننا نواجه أشكالا أخرى ونشعر أن هناك نقصا أيضا وهو أن القائمين حول شؤون الساحة الإسلامية من العلماء كانوا مقصرين أحيانا، لأنهم لم يتصدروا خلال القرنين المنصرمين للمسؤولية، بل حتى الحوزة العلمية لم تفعل شيئا يذكر خلال هذه الفترة.

إن القسم الأعظم من المعارف الدينية خلال القرنين الماضيين ظلت معطلة من حيث إنتاج الفكر. وعليه، عندما ترك المفكرون المسلمون إنتاج العلوم وتقاعسوا عن أداء واجباتهم فقد تحولوا رويدا رويدا إلى أميين ينشدون الراحة، وقد أعقب ذلك فقر مادي أيضا إضافة إلى الفقر الفكري والذهني والعلمي، وهكذا يتحول مجتمع كهذا إلى مقلد ومترجم جاهز للتقليد والتبعية، سيكون ذليلا بالطبع.

هناك الكثير من المسلمين في عالم اليوم يشعرون بالخجل من أنهم مسلمون وتراهم يكتمون إسلامهم أحيانا، لقد كان هذا حال المسلمين قبل الصحوة الإسلامية التي انطلقت عقب انتشار المد الإسلامي القادم بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران. هذا هو حال المسلمين خلال القرنين الماضيين، لكنهم كانوا قبل ذلك مفخرة للعالم واليوم أكثر الناس تشبها بالغرب يكون الأكثر افتخارا ورفعة، وكل من يقلدهم ويستخدم مصطلحاتهم

ويلبس ما يلبسون ويفكر بما يفكرون ويتحدث بما يتحدثون يدعي بذلك التجذر والحداثة.

ترى ما الذي فعلناه بأنفسنا نحن؟ لقد حولنا العز والفقر وعزة الرأس خلال قرنين أو ثلاثة مضت إلى ذلة وهزيمة ومسكنة. ما الذي فعلته الأجيال التي سبقتنا بالإسلام؟

لقد تحولت بعض البلدان والمجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات مقلدة للغرب ومترجمة في الملبس والأدب والتصرفات وحتى الحياة الشخصية وباتوا يتبارون في تقليد الغرب، لماذا؟ لقد زرع آباؤنا وأجدادنا الريح فحصدوا الطوفان، فعندما لا نكون منتجين في مجال العلم والفكر فسنتحول إلى مستوردين ومترجمين لأفكار الآخرين، وسيكون مفكرونا عبارة عن مترجمين وحسب، وسيكون الغرب سيدا ونكون عبيدا لهم. ألا ترون أنهم يطلقون عبارة «الأفضل» على من يسعى في ترجمة المزيد من أفكار الغرب؟

لقد تقاعست الأجيال السابقة وقضت حياتها في عطل أدى ذلك إلى انهيار العالم الإسلامي، وعانت البلدان الإسلامية من الظلم والقتل والنهب والفقر والاحتلال، من البوسنة إلى فلسطين ومن العراق إلى أفغانستان، وكأن اللعبة المسلية للغرب هي دحرجة رؤوس المسلمين، ورغم أن المسلمين يجلسون على مصادر الثروة والذهب الأسود وأغنى المصادر المعرفية لكنهم فقراء، يستوردون ويترجمون ويستهلكون وهم أذلاء لا حول لهم. أي إسلام هذا؟!

لقد قال الرسول ﷺ مخاطبا المسلمين: «تناكحوا تناسلوا تكثروا فأني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط»[1].

إن المسلمين يعانون من افتقارهم للاستقلال والحرية والعزة والعلم وهم لا يستطيعون إنتاج قوتهم وليسوا أهلا للإنتاج الصناعي والزراعي، لكنها ليست الأمة التي تحدث عنها الرسول ﷺ وقال إنه يفتخر بها وبات المسلمون مضطربين بأيدي الاستعمار.

علينا اليقظة في عالم اليوم والعودة إلى ماضي عز المسلمين، في العلم والثروة والقدرة والمعرفة والأخلاق وكل شيء، فجزيرة العرب التي بعث فيها الرسول ﷺ كانت عبارة عن أناس يعيشون عيشة جاهلية، جياع أميين حتى قيل إن عدد المتعلمين في مكة لم

---

١ . بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٧٠.

يكن يتجاوز أصابع اليدين، لكن الرسول حول هذا المجتمع في فترة قصيرة لم يتعد القرن من الزمان إلى سادة العلم والمدنية والقدرة والثروة في كل العالم، استطاع المسلمون من دحر إمبراطورية الفرس والروم وباتت كلمتهم مسموعة في شتى العلوم كالفيزياء والكيمياء والهندسة والعمارة والطب والجراحة والنجوم والفقه وحقوق الإنسان إلى المعارف والدين، ترى ما الذي فعله الرسول مع أمة كانت تئد الإناث خوف العار؟ كيف حول الرسول هذه الأمة الجاهلية إلى مركز العلم والحضارة والأخلاق والمشاعر المرهفة وأصبحوا أقوى جيش في العالم في فترة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان.

إن الصحوة الإسلامية التي نعيشها اليوم تدعونا لوضع سيرة النبي محمد ﷺ نصب أعيننا كي يعود الإسلام سيد الموقف ويعود المسلمون إلى إنتاج العلوم والحضارة والثقافة بعد غياب طويل.

علينا استعادة الإسلام وإخراجه من غياهب الظلمات، علينا أن نعد أنفسنا، إننا سنفكر ونعمل بجد لعودة الإسلام ظافرا، علينا أن نفكر هكذا. ويدخل المحافل العلمية في الجامعات ومعاهد الدين وفي كافة مناحي الحياة من العلوم الإنسانية إلى العلوم الأساسية والعلوم التجريبية والنظرية. علينا طرح النظريات وهذا الأمر بحاجة إلى علوم، ولا يمكن لشخص أن يكون منظرا دون أن يكون أهلا لذلك علميا وثقافيا وفكريا.

كيف له أن يكون كذلك قبل أن يتلقى العلوم؟ ومن ثم عليه أن يتحلى بالشجاعة لطرح نظريته.

لا ينبغي للمعاهد الإسلامية أن تكتفي بأفكار واجتهادات السابقين، بل عليهم وعلى الجامعات أن تنطلق في إيجاد أفكار ونظريات جديدة تلائم العصر الحديث، ولا ينبغي أن نواصل عملية الترجمة في العالم الإسلامي ونحن نمتلك النظريات المختلفة. وفي إيران على وجه الخصوص لا يصح أن نكون تابعين للغرب ثقافيا وفكريا ونظريا، وقد قدمنا نحو ثلاثمائة ألف شهيد من أجل إعلاء كلمة الإسلام في البلاد.

على الحوزات العلمية أن تفتح باب الاجتهاد وتشجع طلبة العلوم الدينية على طرح مباحث جديدة غير مكررة، على جامعاتنا أن تعيد النظر في دراساتها وفروعها العلمية، وأن لا تكتفي الحوزات بتدريس طلبتها كيفية حل المشاكل التي واجهت علماء السلف، لكننا

اليوم نعجز عن حل مشاكلنا في يومنا هذا.

لقد خلد اسم عظماء الشيعة في التاريخ، لأنهم أقدموا على حل مشاكل واجهت المجتمع يومها، وعلينا أن نتبع سيرتهم في إيجاد سبل الحل لأزمات اليوم ومنها في المجالات الاقتصادية والتعليمية والإعلام والسياسة الداخلية والخارجية.

لا يصح صناعة الحضارة عبر إطلاق الشعارات، لن تحل الندوات ولا الاجتماعات مشكلة تذكر إلا من خلال البرمجة لحركة علمية ناعمة، فالعلم لا يأتي اعتباطا.

هناك أسئلة واستفسارات علمية ينبغي طرحها، إضافة إلى ذلك ينبغي دعم الباحثين وإدارة البلاد وفق خطط إستراتيجية وإدارة قوية. الأهم من كل ذلك توفير الإرادة والهمة العالية والمطالعة وسهر الليالي، علينا أن نخوض في التحقيقات لسنوات ونختلي مع أنفسنا ومن ثم نطرح أفكارنا في حلقة جماعية، ولا ينبغي أن يكون حال طالب العلم في الحوزة العلمية أن يدرس لسبع سنوات ويحصل على الشهادة التي تؤهله للعمل في مقام ومكان ما، أو أن يكون هم الطالب هو التخرج والحصول على الليسانس أو الماجستير أو الدكتوراه ومن ثم العمل في مكان ما، وأن يصبح روتينيا يسجل حضورا وخروجا في كل يوم بانتظار الراتب الشهري.

لن نصل إلى مرحلة إنتاج العلوم عبر هذه الطريقة أبدا، هكذا سنتحول إلى موظفين عند الحوزة العلمية أو الجامعة، فأين نحن من الفكر وإنتاج العلم؟

علينا أن نواصل المطالعة والدرس والبحث لما يقرب من خمس عشرة ساعة في اليوم، ونكون كمن يريد التفكير بتحسين أوضاع الآخرين من خلال التوصل إلى نتائج جديدة في كل مضمار.

إن العالم الإسلامي اليوم بحاجة ماسة إلى أمثال هؤلاء في المعاهد الدينية والجامعات وصولا إلى إنتاج العلوم والحضارة، وطالما لم نبلغ مرحلة الإنتاج فإن مشاكلنا ستبقى بلا حل، لا بل ستزيد يوما بعد يوم.

إن سيول الترجمة المنهالة على العالم الإسلامي متواصلة وعلى المعاهد الدينية والجامعات التي تعج بالطلبة المتفوقين للوقوف بوجه استيراد العلم. نحن بحاجة إلى فرصة مواتية

والسماح لهؤلاء للقيام بذلك، فهم كما وصفهم الرسول بمعادن الذهب والفضة،[١] وينبغي كشف هذه المعادن وسوقها وهدايتها صوب العلم، ولو بقيت الأمة الإسلامية متخلفة فإن الحكومات والنظم مسؤولة عن ذلك وبنفس المقدار الجامعات والمعاهد الدينية، إنهم مسؤولون عن الدماء التي أريقت من أجل أسلمة المجتمع وأمامنا مشوار طويل حتى بلوغ ذلك، ولا ينبغي للإنسان أن يقول «إن من ضحى في سبيل الإسلام مضى في طريق وأنا الذي أعمل في المعاهد الدينية والجامعة أمضي في طريق آخر».

كيف تدير الأمور؟ وما هو النتاج بعد التخرج؟ وماذا تصنع؟ ترى كم يفكر الخريجون في مسألة إنتاج العلوم والأفكار؟

إن حجم إنتاج العلوم الإنتاجية في الجمهورية الإسلامية قليل، لماذا يا ترى؟ لأن مفكرينا في العلوم الإنسانية مترجمون ولا أحد يفكر في إنتاج العلم، ومن يتجرأ للحديث عن نظريات دينية في الاقتصاد والمجتمع وعلم النفس والعلوم التربوية قد يتعرض للسخرية حيث يقال له إن العلوم الإنسانية لا تحتمل تفسيرا دينيا وآخر غير ديني، هذه هي النتيجة، أصبحنا مترجمين في هذا الباب من العلم حتى أصبحنا نفتخر بأننا مترجمين.

علينا أن نعي مخاطر هذا الأمر فهو أخطر من الاحتلال العسكري، صحيح أنهم لا يستطيعون احتلال إيران عسكريا لكن احتلالها ثقافيا ربما أصبح ممكنا بحركة الترجمة وسيكون الاحتلال بلا قعقعة للسلاح، وعلينا أن نتحرك ونتصدى للأمر، علينا أن نعي أن الأمر ليس بالهين واليسير ولن يتم في ليلة وضحاها، لكن المثابرة والجد في هذا الطريق توصلنا إلى نتيجة، توصلنا إلى قطف للثمار ولو بعد نصف قرن.

ولو تساءلنا لماذا تعد منطقة الشرق الأوسط أكثر التهاباً في العالم؟ فإننا سنعي أن ذلك يتم لوجود مخاض يريد العودة إلى الإسلام وقد شده الحنين إلى ذلك ويريد العودة إلى سابق عز المسلمين وقد حصل بفعل التضحيات ما أراد المسلمون في غير بلد بالمنطقة.

ولو عدنا إلى الوراء قليلا لرأينا أن الأخطاء في التاريخ المعاصر في إيران وسائر البلدان الإسلامية تعود إلى تقاعس وتباطؤ الحوزة والجامعة في التصدي وكذا الحكام والأمة، ولكل سهم في القصور والتقصير.

---

١ . الكافي، ج ٨، ص ١٧٧؛ من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٨٠؛ بحار الانوار، ج ٥٨، ص ٦٥ و١٠٦؛ ج ٦٤، ص ١٢١.

علينا أن نخطط للغد وأن لا نقع في أخطاء البرمجة القديمة إن كان هناك تخطيط وبرمجة. إننا لا نستطيع العودة إلى الوراء لكن المستقبل بأيدينا، علينا العمل للخلاص والوصول إلى ساحل الأمان، إلى بر الأمان.

لقد بدأ مشوار النهضة في العالم الإسلامي في القرن الماضي عندما بدأ السيد جمال الدين أسد آبادي التساؤل عن سبب تراجع المسلمين وأعقبه الشهيد مطهري في تاريخنا المعاصر وحاول الإجابة على ذلك وحاول دعوة الآخرين للتفكير والسؤال وإيجاد الأجوبة، لكننا اليوم في العالم الإسلامي نراقب الغرب كيف أقدموا على حل مشاكلهم الفكرية وقد فعلوا، فنقدم نحن على ترجمتها ظنا منا أن مشاكلنا تشبه المشاكل الموجودة في الغرب، أما المسؤولون عن الفكر الإسلامي في المجتمع فنراهم أنهم قد جلسوا وكرروا الدروس التي تلقوها في حلقة فارغة بين الأستاذ والتلميذ، وهكذا دواليك.

الفقه في الإسلام يعني حل مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية والأسرة، ترى هل فعلنا ذلك؟

هناك الكثير مما لم نتوجه لحله. هل تابعنا الأمور التي طرحها السيد جمال الدين أسد آبادي؟ هل توقفنا عند تساؤلات الشهيد مطهري؟ هل تساءلنا لماذا الغرب في نعيم يزخر بالعلم ولماذا يستغل أمواله وعلومه ضدنا وضد البشرية جمعاء؟ لماذا يهددنا على الدوام ويذلنا؟

عندما يتسلط الاستعمار على أمة يقدم على إذلالها، وعندما يفقد سلطته عليها يقدم على تهديدها ووعيدها كما هو اليوم، لماذا؟ بتصوري أن السبب يعود إلى تراجع المسلمين وانحطاطهم الفكري ولسنا بمقصرين أقل مما يفعل الاستعمار معنا.

علينا أن نعوض عن الأخطاء التي ارتكبت في القرنين الماضيين لنعود إلى سابق عزنا وقدرتنا وثروتنا وعلومنا، إنها جولة المسلمين هذه المرة ولكن شريطة أن يحسنوا التصرف، إن الغرب والولايات المتحدة كانت ومازالت تتحكم في مصير المسلمين وتكتب دساتيرهم وتعين حكامهم وتقرر لهم ما يستوردون وما يصدرون وماذا يطالعون وماذا يقررون بالنيابة عنا، من يا ترى؟ الأمريكيون الذين يقول أحد الفلاسفة الفرنسيين إن ثقافتهم زرعت للتو ولا ثقافة متأصلة لهؤلاء، كما هو معلوم فإن الثقافة الأمريكية موزاييك وخليط من أربعين

وصلة، لأن البلاد شكلت من خليط من المهاجرين الذين جاؤوا من كل أطراف الدنيا، هذه الثقافة تختلف عن ثقافة أوروبا كفرنسا أو ألمانيا، والظريف أن الأمريكيين ينعتون الأوروبيين ثقافيا بالعجز وهؤلاء يردون عليها بالزرع الجديد الذي لا أصل له، وحتى الأوروبيون إذا رجعنا إلى الوراء قليلا فهؤلاء اكتسبوا علومهم وثقافتهم من المسلمين.

لو رجعنا إلى العهد اليوناني والروماني لوجدنا أن هؤلاء اكتسبوا هاتين الثقافتين من الترجمات العربية للثقافات الأوروبية القديمة، فلم يكونوا قد دوّنوا شيئا من ثقافاتهم الأم القديمة، لم يكن عند المسيحيين الأوروبيين شيء في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادي، فقد كان المجتمع الأوروبي وحشيا وفقيرا، ولو عدنا إلى الجامعات الأولى التي أوجدها القديسون في أوروبا من أمثال «فرانسيس كان» أين درسوا وتعلموا؟ لقد درسوا كتبا مترجمة من العربية كالمغول عندما هاجموا البلدان الإسلامية وإيران، كانوا فاتحين عسكريين لكنهم من الناحية الثقافية أصبحوا مفتوحين، فبعد عدة أجيال تحول هؤلاء إلى مسلمين ومواطنين في إيران، أي أنهم هزموا من الناحية الثقافية. ربما كانوا من حيث القوة البدنية والسلاح أقوياء لكنهم غلبوا أمام ثقافة المسلمين والشيعة في إيران، وقد وقع هذا الأمر مع القوى المسيحية التي شاركت في الحروب الصليبية، ففي أرمينيا وإسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا والأبيض المتوسط وفي القدس عندما حارب هؤلاء المسلمين وتقهقروا وفتحت بلدانهم ووصل المسلمون إلى النمسا وإلى إسبانيا والبرتغال ووصلوا حتى أطراف باريس أخذوا علومهم من المسلمين، وفعلوا ذلك حتى المائتي عام الماضية حتى أن آثار بعض المفكرين المسلمين كانت تدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

لقد غفلنا عن هذه العظمة والعزة حيث وصل المسلمون إلى ضواحي باريس وصقلية والنمسا فإن هؤلاء وقبل أن يسقطوا عسكريا كانوا قد سقطوا علميا وثقافيا أمام المسلمين وفتحوا أبوابهم أمام الحضارة الإسلامية وعلومها، وقد اضطرت الكنيسة التي كانت تحرك الحروب الصليبية ضد المسلمين إلى إعادة النظر في إلهياتها بفعل الضغوط الواردة عليها من الثقافة الإسلامية، وهكذا ركنت الكنيسة قسما كبيرا من إلهياتها، في يومها كان المسلمون يهاجمون بثقافاتهم القوية الغرب الذي كان عاجزا عن المواجهة، لكننا اليوم على العكس

لا ندري ماذا نفعل تجاه الهجمة الثقافية الغربية.

في تلك الفترة كانت الثقافة الإسلامية ماضية لوضع علامات استفهام كبيرة أمام الثقافة الأوروبية إن وجدت، حيث كان القساوسة والسحرة والرمالون بمثابة آباء الثقافة الغربية، وفي تلك الأيام لم تكن مدينة أو قرية أو بلدة في العالم الإسلامي تخلو من عشرات العلماء والمفكرين وعلماء الدين والعلوم التجريبية والمختبرات، لكن الوضع قد تغير اليوم. ترى من المسؤول؟ جامعاتنا أم معاهدنا الدينية؟ العلماء أم الحكومة؟

علينا أن نعي المسؤولية الملقاة علينا كل في إطار عمله، وبخلافه فإن المشكلة ستكون قائمة، وهناك مسألة أخرى أود أن يلتفت إليها الحضور الكريم، وأتصور أن أغلبكم من الأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات والطلبة الأوائل من النخب الجامعية وفنانين ومتخصصين في مختلف الفروع والحرف في المحافظة، إن الذي ربطكم هو رباط اعتقادي لا صنفي أو شغلي وهذا ما حصل إبان ملحمة الدفاع المقدس حيث كنا نرى موزائيكا من الحرف والمهارات والتخصصات جمعوا في مكان واحد ولهدف مقدس ألا وهو الدفاع عن حياض الأمة والثورة، ولو كان هؤلاء في المدينة ما اجتمعوا لاختلاف أشغالهم وأفكارهم وأعمالهم.

إن قوات التعبئة وهذه التشكيلة المقاتلة خلقت المعجزات وجمعت خليطا من القوى غير قابل للجمع في الظروف العادية، واليوم هناك من يقول إن الثقافة والعادات والتقاليد الإيرانية الإسلامية لا يمكنها إنتاج العلوم، لأن المسلمين أساسا ليسوا علميين ولا يعرفون الأسس والأصول العلمية!

إن هذه التقاليد أغلقت الطريق على العلوم وإن جل ما يستطيع فعله المسلمون هو الترجمة والتقليد أو اجترار الموجود من العلوم السابقة وأن لا جديد في جعبة المسلمين، لأن طريق العلوم منعزل عن طريق الإلهيات.

هذه أقوال وأراجيف يكررها المستعمر منذ قرنين من الزمان ويكرر الجامعيون والمثقفون وللأسف كلام المستعمرين، وعندما يتخرج الطالب في مرحلة الماجستير أو الدكتوراه يكون عقله قد أتخم بهذا الكلام والخزعبلات الغربية، أي أن المسلمين لا قبل لهم بإنتاج العلوم وأن عليهم الاكتفاء بالترجمة وحسب، حتى أن هذا النمط من التفكير انتقل إلى عامة

الناس في السوق والمدينة لكن الملفت والظريف أننا لو راجعنا آخر نظريات الغرب في القرن الحادي والعشرين في باب فلسفة العلم سيؤيدون أقوالي.

إن آخر النظريات والمنظرين الغربيين يقولون بخصوص العلم وطرقه إن العلوم الإنسانية التي لفقناها للجميع ليست علوما إنسانية وليست علوما بالمعنى الواقعي للكلمة، أي ليست علما محضا، بل إن العلوم الطبيعية والتجريبية ليست علوما كذلك، هذا كلام خطير، فلوكان أحدهم يقول هذا الكلام في القرن الثامن عشر لقالوا إنه مرتد ولسلموه إلى الشرطة لتسلمه إلى دار المجانين أو ألقوا به خارجا من الأكاديميات ولقالوا إن دماغه فارغ.

يقولون اليوم ليست هناك طرق علمية، وإنني أعلم أن كلامي هذا يصعب تحمله أو تصديقه من قبلكم، لكنه كلام يتم تداوله في الغرب اليوم، يقولون إن الطرق العلمية كانت حلما وأن لا تعريف دقيق لها البتة، هم يقولون إن العلم محاك وليس ضالة منشودة، وبعبارة أخرى أن المنسوج تحت مسمى العلم هو الذي يسير البشرية في يومنا هذا والجميع راضون بذلك، لكن علينا أن نعي أن العلم كان حلما وليس عندنا علم عيني، لقد قالوا في الغرب إن الفلسفة والإلهيات أمر تقليدي وذهني لكنهم اليوم يقولون بأعلى أصواتهم ويعترفون أن العلوم الطبيعية هي كذلك، فما بالك بالعلوم الإنسانية أو الأيدلوجية؟ فهي ليست بالعلوم بل هي أشباه علم أو علم كاذب، هل تعرفون ما هو معنى ذلك؟ معناه أنه ليس بمقدور العلم ولا الإلهيات ولا الدين ولا الأخلاق الوقوف بوجه الفلسفة ولا حتى إزاء الخرافات.

أليس الأمر جميلا!؟ لا يمكن الوقوف بوجه الخرافات، لا بالعلم ولا بالسلاح.

هذه آخر ما اكتشفه العلماء في الغرب، فلو نظر أحدنا لآخر نظريات «توماس كوهن» و«فايرا بين» وهو من أعلام الفلاسفة في القرن الحاضر إنهما يقولان أن لا معنى للعلم والعلم غير قابل للتعريف لا في موضوعه ولا في منهجيته ولا في طريقته.

قالوا إنه يمكن في الحد الأقصى ترجمة العلم بالغاية والغرض، واليوم يقولون إنه يمكن تعريف العلم من ناحية كونه مفيدا أو لا. الفائدة فقط من الرؤوس الثمانية للعلوم التي يدرسونها في المنطق، تعريف الفائدة من العلم وحسب، ولا يمكن التعريف بالغرض والغاية، فكيف يريد الإنسان تعريف العلم بموضوعه وماهيته وهو غير قابل للتعريف أصلا.

يقولون إن الحدود بين العلوم مخدوشة أساسا، ويضيفون أن الارتباط المنطقي بين العلوم معدومة، أي لا ارتباط صعودي ومنطقي، وعندما نسألهم عن أقوالهم السابقة في حلقة تكامل العلم يقولون لقد كان الأمر أسطورة، لأن التكامل يعني الواحد المستمر الذي يمتلك المنحى الصعودي والمنطقي. هذا هو معنى التكامل تحديدا، والتكامل خطي وتاريخي وطولي، لكنهم اليوم يقولون لا وجود للارتباط المنطقي والوحدة الموضوعية حتى تقولوا أن هناك شيء اسمه العلم يريد التكامل على مر التاريخ، وهذا يعني ضرب العلم من الأساس، أي العلوم الطبيعية والتجريبية والتي كانت كالهراوة التي يضربون بها على رأس الدين والأخلاق والفلسفة وأمثالها وكانوا يقولون إنها غير علمية أو معارضة للعلم، كانوا يسلطون عليها سيف «ديموكليس»[1] وعلى رأس المتألهين والميتافيزيقيين.

ماذا عن العلم في يومنا هذا؟ وإذا بهم يقولون إن العلم هو ذات السيف المتصدئ، يبدو أنهم وقفوا على الطرف الآخر من القضية، كانوا يقولون إن العلم والعلوم التجريبية مطلقة، وقالوا إنهم سيقومون بمقارنة كل شيء بالعلم. وكل ما كان متطابقا فهو علمي وكل ما كان مخالفا فهو غير علمي.

اليوم يقولون أن الأساس الذي نفحص به الموضوعات الأخرى، أي العلم الطبيعي والتجريبي ليس بعلم إطلاقا، ولما نسألهم ما معنى العلم؟ مع توفر كل أنواع العلوم والمختبرات والأكاديميات والجامعات، ماذا عن محاضراتكم في الندوات العلمية؟ يقولون إنها حدس وإبطال، هي نظريات واحتمالات قائمة حتى إشعار آخر، ليس هناك علم، والتقاليد والسنن المطروحة تحولت إلى عظام طرحت في ما مضى تحت مسمى العلم وكانت ملاكا للتحكيم.

في ما مضى قلنا إن الحكمية الدينية والفلسفية غير ممكنة، لكننا اليوم نقر أن الحكمية العلمية غير ممكنة أيضا، أي أن كل شيء هو علمي ولا علمي في آن واحد، هذا آخر ما

---

١ . الملك ديونيسيوس الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد فى صقلية أراد أن يلقن أحد أعضاء بلاطه الملكى «ديموقليس»، والذي كان أيضا خطيبا مفوها، درسا. وسبب هذه الرغبة علمه أنه أراد أن يصبح ملكا ولو ليوم واحد فقط، والعجيب فى الأمر أن الملك قد وافق ولكن بشرط واحد وهو أن يضع فوق رأس ديموقليس سيفا معلقا بشعرة حصان واحدة. وهكذا عاش ديموقليس يومه الملكى وهو فى رعب شديد خوفا من أن تنقطع الشعرة ويسقط عليه السيف فيصبح جثة هامدة على الفور.

توصل إليه الغرب الحديث، إنه آخر ما توصل إليه في باب تعريف العلم والفلسفة.

بتصوري هذه الأمور الجديدة مضحكة وهي إلى ذلك خطرة أيضا، كيف يتم التذبذب في مثل هذه الموضوعات المهمة، لقد كانت مطرقة تضرب رؤوس المسلمين وبها كانوا يضربون الأديان والفلسفة عرض الحائط، واليوم يقولون إن العلم عاجز عن الوقوف بوجه الفلسفة والإلهيات والأخلاق والدين حتى الخرافات، لأنها قابلة للتوجيه، وليس مهما أن تكون واقعية وعلمية، وعندما يكون العلم بمفهومه العيني غير واقعي يقولون أن ليس عندهم مشروع مشترك للعقلانية والعلمية، وأن المعرفة في العصور المتطورة والمتأخرة والعصرية تبدأ من هنا، وهي نظريات المعرفة الغالبة ويبدو أنها آخذة بالانتشار، معنى ذلك أن بإمكان الإنسان قول كل شيء كما كان يقول من قبل شريطة أن يكون مفيدا، ليس مهما أن يكون صحيحا، يقال إن بإمكان الإنسان قول كل شيء شريطة الفائدة، ويكفي في النظرية أيا كانت أن يكون لها أتباع تصبح نظرية مقبولة، وليس مهما أن تحتوي على أدلة مقنعة، هذه آخر تعاريف العلم في الغرب.

يقولون بما أنه ليس بمقدور الإنسان أن يطرح دليلا قاطعا فلا وجود للحقيقة إذا، فهذه آخر نظريات المعرفة في الغرب.

لقد أدى هذا الفكر إلى ظهور «البلوراليزم» (Pluralism) [أو التعددية] والديمقراطية الغربية بتعريف القرن العشرين، لأن الديمقراطية مرت بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى الديمقراطية بمعنى الأكثرية. ومن ثم قالوا إن الأكثرية لا تعني ملاكا للديمقراطية وأن الديمقراطية قانون وإطاعة، وفي خاتمة المطاف قالوا خلال العقود الأخيرة إن القانون غير نافع، وأن رأي الأكثرية غير مهم، وأن ملاك الديمقراطية هو تعددية وهذا يعني أن كافة النظريات والاتجاهات والمصالح مهمة على درجة واحدة، وهذا يعني أنها غير ذي فائدة جميعا. هذا هو آخر خط الديمقراطية ويعني هذا أنه ليس بالضرورة أن تكون هناك فكرة أو أخلاق أو قيمة أو منهجية صائبة في حد ذاتها وليس لزاما أن تحتاج إلى دليل، أن تكون على حق، يكفي وجود الأتباع ويكفي أن تكون الفكرة مفيدة.

هذا آخر خط المسابقة الماراثونية للمعرفة في الغرب والدنيا عموما، ويعني هذا أنهم التفوا حول هذا المنحى وصعدوا إلى دورة الوضع والمنهجية والمنطقية، وفي القرن التاسع

عشر الميلادي أصبح العلم مطلقا وأصبح العلم رب ودين ورسوم وتقاليد كافة التنويريين والمثقفين في العالم، وعندما انتهى السير الصعودي بدأ العد العكسي للنزول، واليوم وصلوا إلى القاع.

إن الإنسان بلغ نقطة النهاية في المعرفة، إنه آخر الباب المعرفي والعلمي في الدنيا، وأنه ينبغي طرح الديمقراطية دونما قيد عقلي أو ديني ودونما شروط أخلاقية. هذا آخر أنواع الديمقراطية، إنه أكمل أنواع الديمقراطية وهي ديمقراطية ينادي بها أمثال «بوبر» وهي الديمقراطية الليبرالية، ويتم تعريف هذا النوع من الديمقراطية في عموم العالم، هذه الديمقراطية تختلف عن ديمقراطية القرنين الماضيين وحتى عن ديمقراطية القرون الثلاثة الماضية كثيرا أي ديمقراطية «روسو» و«مونتسكيو» وعقدهم الاجتماعي ولنتجاوز عن غفلة التنويريين والساسة وتأخرهم عن ركب التغييرات التي شهدها الغرب في مسألة العلوم، لأنهم ما يزالون يبلغون للديمقراطية الخاصة بالغرب الثامن عشر والمجتمع المدني من القرن السابع عشر، لكن هذه المفاهيم أصبحت سخرية في الغرب، لقد قال أحدهم إنه عندما يطالع صحافة العالم الإسلامي والخطابات التي يلقيها ساسة هذه البلدان يتذكر مكتبات القرن الثامن عشر في أوروبا، لأن الواضح أن هذه الكتب وصلت للتو بأيدي الشرقيين.

يبدو هذا جانبا من الموضوع والجانب الآخر يكمن في أننا لم نتحرك بجدية صوب إنتاج العلوم وجامعاتنا تفتقر اليوم إلى العلماء المفكرين الواعين، إنهم يعدون بالأصابع.

لدينا في الحوزات مجتهدون لكنهم في مسائل الفقه اليومية كالعبادات والطهارة والنجاسة، هناك الكثير من المجتهدين بهذا المعنى لكننا بحاجة إلى مجتهدين من أمثال «الشهيد مطهري» يأتي ليتحدث عن إقامة الحكومة الدينية ويخوض في المسائل النظرية للحكومة والمجتمع الديني في الاقتصاد والثقافة الاجتماعية والأسرة، قليلون هم من يستطيع فعل ذلك.

الحوزة في يومنا هذا تعاني من قلة المجتهدين العاملين في الفكر والثقافة، وكذا الحال في الجامعات، فهناك القليل ممن يتجه صوب إنتاج العلوم أو طرح النظريات الجديدة. لقد قال أحد الغربيين إننا في الغرب لا نمتلك فيلسوفا، لقد أصبحنا جميعا موظفون عاملون في قسم الفلسفة نطالع دروسا جامعية ونسعى للحصول على درجة القبول والنجاح،

ونحصل على مكانة خاصة في المجتمع ويقول الناس إنه خريج جامعي، وهذا رجل دين وذاك أستاذ وهذا شيخ وذاك دكتور، ونتجه للجلوس على المقاعد والوظائف المخصصة لنا ونعيش حياتنا اليومية، هكذا تحولنا إلى موظفين في الحوزات العلمية والجامعة، هذا حال الكثيرين منا، وطالما نكون كذلك فلا حركة ولا إنتاج للعلوم على الإطلاق.

بالطبع لا يعني إنتاج العلوم أن نقوم بقول شيء ما ليشار إلينا بالبنان أن له طروحات جديدة، نواجه بين الفينة والأخرى نماذج من هذا النوع، وقد طرح أحدهم كلاما يخالف بصريح العبارة العقل أو الدين، وعندما نتوقف لنسأله يقول إنه تجدد ونسأل لماذا هذا الموقف؟ يقول لأن أحد لم يطرقه ولم يطرحه من قبل، إنه فعل المجانين، حيث يقوم بشيء لم يقم به بشر.

قيل إن شقيق حاتم الطائي لم يستطع مشاهدة شهرة اسم شقيقه بالكرم عند العرب فقال مع نفسه لأقوم بشيء يخلد إسمي من خلاله، وقال لا ينفع الكرم، لأن أخي سبقني إليه، لأذهب وأتبول في زمزم حتى يقولوا فعلها فلان.

إن ما يفعله البعض في يومنا هذا يشبه التبول في زمزم، لكن هذه الحركات لا تعد إنتاجا للعلم، لأن إنتاج العلوم بحاجة إلى أسس وجذور، وهذا الأمر لن يحل إلا بإعادة المسلمين إلى سابق عزهم من الحضارة، وبخلافه سنظل تابعين للغرب في حياتنا دوما ونموت على ذلك، ونظل نشعر بالذل من الناحية الثقافية وسنكون تابعين من الناحية الاقتصادية أيضا.

لقد بحث الغربيون من أتباع المدرسة الواقعية والوضعية والمادية فيما بينهم لقرون متواصلة، وبعد الوصول إلى الطريق المسدود ظهرت نظريات جزئية وهي عبارة عن تلفيق النظريات الأصلية الموجودة، لكنهم في فلسفة العلم لم يبلغوا نتيجة غير التي عرضتها لكم، حيث شككوا في الميتافيزيقيا أولا ورفضوها، ثم توصلوا إلى العلم وتمسكوا به، واليوم يريدون الفرار منه إلى النسبية، إنهم يقولون إن كل شيء يجب أن نشكك به ولا وجود للعلم، وأن الإنسان لا يعرف شيئا ولا يستطيع أن يعرف حتى البديهيات في عالم اليوم ولا حتى وجود للأمور البديهية.

إنهم لا يقبلون اليوم بأسسهم الفكرية، يقولون لك إن ما نسميه علما هو المشهور ولا

شيء بديهي على الإطلاق.

أود في الختام الإشارة إلى بداية الانحراف الظاهر في مسيرة الغرب في العلوم والتقنية. إن بإمكان العلم والتقنية أن تحل مشاكل البشرية في الفقر والأمية والمرض، إن بإمكان العالم الغربي وبواسطة العلوم والتقنية التي يمتلكها والثروة التي حصل عليها أن يحل مشاكل الدنيا، وباستطاعتهم إزالة الفقر والأمية والجوع لكننا على العكس نرى وطبقا للإحصاءات الرسمية أن هناك مليار إنسان جائع على وجه الكرة الأرضية، ولا نقصد بالجوع الآني، بل الجوع والجائع الذي ينام دون طعام ولا أمل له بالحصول على الطعام، مليار جائع وهذا يعني سدس نفوس العالم تقريبا، إنهم يموتون ويمرضون تباعا.

هذه هي الدنيا التي صنعها الإنسان المتحضر الغربي. وطبقا للإحصاءات يتم سنويا بيع ملايين النساء والأطفال، وطبقا لأرقام المنظمة الدولية التي نشرت هذه الإحصائيات مؤخرا فإن التجارة الأولى في العالم هي المخدرات ومن ثم السلاح والرقيق ثالثا.

إن العالم يدفع المبالغ الطائلة بالعملة الصعبة من أجل الحصول على المخدرات، ويدفع الأموال الطائلة للحصول على أسلحة الدمار الشامل بما فيها الأسلحة الكيمياوية. كل هذه الأعمال تتم بمساعدة الغرب ومن صناعتهم. صحيح أن المخدرات تزرع في أفغانستان لكنها تتم عبر مافيا رأسمالية صهيونية تقف في الخفاء، أما التجارة المربحة الثالثة فهي تجارة الرقيق، إن بلدان الاتحاد السوفياتي المنهار تصدر سنويا الملايين من النساء وهو آخر تقليعات الصادرات الحديثة.

هذه نتيجة حذف الإلهيات والأخلاق من العلم والثروة والسلطة وحذف الحكمة الإلهية والعقلية وفصل الفيزياء عن الميتافيزيقيا، وعندما يصبح العلم علمانيا يكون الناتج ما ترونه اليوم.

قال أحدهم لو نزل شخص من المريخ وسأل ما هي أوضاعكم في الكرة الأرضية؟ نقول له كما ترى تجارة مخدرات وأسلحة ورقيق وبعدها الأفلام الهوليوودية التي تتحدث عن الجنس والعنف، يعلمون فيها العنف المفرط وكيف لإنسان أن يهرس رؤوس أعدائه وكيف يدخلون أصابع البعض في عيون الآخرين ويقتلعونها. هذه وللأسف أكثر الأفلام مبيعا في العالم.

عندما أرادوا التخلص من الإلهيات في العلوم قالوا إن العلم بات خادما للإلهيات وينبغي حذفها وأن العلم ليس عبدا عند الفلسفة وينبغي أن يكون مستقلا.

ولنا أن نتساءل وماذا الآن؟ العلم يخدم من يا ترى؟ هل هو خادم الرأسمالية أم الإمبريالية؟ التقنية اليوم أسيرة هؤلاء.

هذا هو أساس المشاكل التي يعاني منها الغرب. عندما نركن الإلهيات ونأتي بالإلهيات العقلية أعني عندما نركن الإلهيات الربانية ونأتي بالإلهيات العقلية مكانها فإن النتيجة لن تكون أفضل من ذلك.

تارة حاربوا الإلهيات والميتافيزيقيا العقلية والفلسفية باسم العلم وأركنوها وأصبحت عبادة العلم دين العصر الجديد.

واليوم وعند بداية القرن الحادي والعشرين نراهم يقولون إن العلم عدم.

هكذا شككوا في نهاية المطاف في العلوم جملة وتفصيلا. هذه هي عاقبة الانحراف عن الدين والإلهيات والميتافيزيقيا.

أشكر حسن التفاتكم وأعتذر للإطالة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موقع العدالة في الشريعة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا نبي الرحمة أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين.

السلام عليكم أعزائي الحضور الإخوة والأخوات الكرام الأساتذة وأعضاء السلك الجامعي وسائر الحضور الكريم.

أرى من الضروري ونحن نعيش ذكرى شهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أن نتحدث ولو قليلاً عن نظرية العدل وحقوق الإنسان من منظارٍ إسلامي وعلوي.

إن النظرية في موضوع حقوق الإنسان أو العدل تصبح نظرية عندما تستطيع الإجابة على خمسة أو ستة أسئلةٍ واستفسارات رئيسية ورغم أن وقت المحاضرة لا يسع للجواب عليها جميعاً قررت الحديث عن أحد هذه الاستفسارات لا أكثر.

إن تاريخ العدل يشير إلى أن من لا ينشد الهدف والطريقة بشكلٍ متزامنٍ سيفشل وسيكون كمن يبحث عن ضالته طبقاً لعنوان مغلوط كما ان الكذب لا يوصلنا إلى الحقيقة ولحسن الحظ كلما كانت علاقتنا بالحقيقة والعدل على وشك الانقطاع والضياع رددنا اسم الأنبياء والأولياء في بعض الليالي واللحظات من التاريخ كما نفعل اليوم ونصبح على جادة الصواب بصورةٍ مؤقتة ونبدأ بالتفكير مرة أخرى بحقوق الإنسان ومسؤوليتنا وبالعدل بصورةٍ متزامنة مع الهدف والطريقة ونقف خجلا أحياناً لأننا نمارس الظلم واللاعدالة في حياتنا اليومية أحياناً ولكلٍ منا سجل شخصي في إيصال الأذى بالآخرين ونعرف طعم

ذلك بقوة، لأننا مارسناه ربما بدرجاتٍ متفاوتة وبغية ممارسة الكذب على أنفسنا والآخرين، ليس من المحتَّم علينا أن نشهد تأمراً يدعونا لفعل ذلك في كل يوم، لأن جهلنا وعقدة الأنا في نفوسنا تكفي لكل ظلم ممكن ان يواجه الإنسان في حياته الخاصة وفي محل عمله وتظل الحياة جارية وعليه إذ نحن نعيش أيام شهادة مولى الموحدين علينا أن نستذكر ونستفيد من الفرص المتاحة لوعظ أنفسنا وصدق أحد الأساتذة إذ قال لي في مرةٍ إن أيام الله مفيدة للمجتمع وتبدو كالذكر الذي يُردده الإنسان وتصبح كمن يُعيد هذا الإنسان إلى جادة الصواب وعلَّها تدعوه للتأمل من جديدٍ في كافة المفاهيم التي نظن أننا نعرفها جميعاً ولا نعرفها في حقيقة الأمر نظن أننا أوفياء لها لكننا نخونها مراتٍ ومرات في حياتنا اليومية، إننا لا نشعر بالاطمئنان الاعتقادي وعليه نعيش تزلزلاً في تصرفاتنا ففي كل يوم ربما تطهرنا من الذنوب أو أصبحنا شريرين، ومَردُّ هذا التذبذب هو اضطرابنا وعدم استقرارنا، إننا أناسٌ غير معلومي الحال والطريقة نعيش خلطاً من الشخصيات في أنفسنا فتارةً نصبح مؤمنين نستخدم الألفاظ والمصطلحات الدينية وفي مقطع آخر لنقل المقطع الأعظم من حياتنا نكون أناساً غير مؤمنين ونعيش تعارضاً على وجه النقيض في حياتنا اليومية، نشتري بثمنٍ بخسٍ ونبيع بثمن باهظ، نضع كل الظلم والجور تحت مُسمَّى القسمة والنصيب والرب في حين أن الرب صرح في محكم كتابه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

وهناك الكثير على شاكلة هذه الآية في توضيح الموضوع فلا يمكن إلقاء الظلم بأي نقطة من العالم على الله سبحانه وتعالى والقول إنه تقديرٌ وقسمة، إن الله يبرئ نفسه من كل ظلم يلحق بالبشر، لأن الظلم في العالم غير البشري غير موجود أساساً، إن الله لا ينكر وجود الظلم في العالم بل أنه ينأى بنفسه عن الظلم إنه يقول: إنما يحصل للبشر في عالم الدين هو من فعل أبناء جلدتهم لا غير وقال أحد الأساتذة إن الفارق بين المؤمن والملحد في العمل يبدو من الظواهر وكل ما هو خافٍ فهو غير معروف ولا ندري هل نحن مؤمنون أو ملحدون، في الأوقات التي نؤدي بها الفرائض فنحن مؤمنون أو نبدو كذلك ولا ندري هل هو بحكم العادة وعليه ليس واضحاً من طريقة حياة الإنسان إصدار الحكم عليه بالإيمان

---

١ . الروم: ٤١.

أو الإلحاد ولو كنا ملحدين سنعيش حياتنا كما يعيش الآخرون ولكننا نعمل في السياسة والاقتصاد والتعامل مع الأسرة ومع الآخرين بنفس الطريقة التي نمضي عليها الآن إلا في بعض الأمور الجزئية ولكن لا يمكن تعميم الأمر على الجميع وإنني أحدهم بالتأكيد.

فالعدل قد خرج عن حياة الكثيرين منا في حين أنه من أهم الأمور التي أكد عليها الأنبياء في الحياة البشرية وعندما تولد فكرة جيدة كالعدل فإنها ستأتي بعنصرين قاتلين لها معاً؛ الأول يتجلى في التفسير المغلوط والثاني في المنهجية المغلوطة، أي عندما نخطئ في تفسير القيم نخطئ في فهمها ولا نحسن تنفيذها عندها فنحن لن نكون بحاجةٍ إلى أعداء لأننا نقوم بما لا يقوم به مئة فردٍ من الأعداء، فلو تأمل الإنسان في القيم التي يتمتع بها بدقةٍ سواءً تلك التي له أو التي عليه فإن من المحتمل أن تتحول هذه القيم إلى ضدها أو أنها ستكون عديمة الأثر ويصبح كالبندقية الفارغة بلا إطلاقات، قيل إن هناك شخصين يخافان هذا النوع من البنادق الأول الذي يحمل البندقية ويعلم أنها فارغة والثاني الذي يرى أن فوهتها مُصوَّبة ضده وهو يخاف لأنه لا يعلم أن البندقية فارغة، فلو قدسنا العدل دون التعريف به بدقة وكان الوضع في الحكم ضدنا كما هو الحال عندما يكون لصالحنا ونرفض التمكين لهذه الأحكام ولا نستسلم لها يصبح العدل كالبندقية الفارغة مع فارق أن من نصوّب عليه السلاح يفهم بعد مدة قصيرة أن البندقية فارغة حتى إنه لن يتظاهر بالخوف بعد ذلك، إن من ينشد العدل دون تعريفه يكون كمن يكذب ويصبح كالبندقية الفارغة التي نصوبها على الآخرين ينبغي أن يكون هناك أولاً تعريفٌ كلامي وفلسفي واضح، فالكثير من الحركات التي تنشد العدل في الدنيا تفتقر إلى التعريف الفلسفي الكلامي الواضح أو أن التعريف يتعارض مع بين صدره وعجزه إن أكبر حركةٍ نمت في القرن الماضي باسم العدل على مستوى العالم وأصبح لها أتباع في المعتقد الثقافي ومن ثم السياسي الحركة الاشتراكية والحركة الشيوعية وطبقاً لتعاريف بعض أساتذة علم الاجتماع في الغرب إننا أمام شخصيتين تدعى ماركس الأول من يسعى لطرح فلسفةٍ عن الإنسان والعالم وماركس الثاني يدعو للعدل وهما مختلفان الأول ماتريالي[1] والثاني ينشد العدل، إن ماركس العالم بالاجتماع هو المسيح ويتحدث كالمسيح وعندما يدعو إلى العدل ويُحاول تحريك الهمم

---

١ . المادية (Materialism)، في الفلسفة، نظرية حيث كل الموجودات هي نتاج للمادة.

لمستمعيه ضد الرأسمالية ينسى تفسيره الفلسفي للإنسان والعالم وماذا كان يقول، ينسى أنه كان ينعت العالم كالإصطبل والإنسان حيوان تكون فيه العقيدة والقيم والفكر والدين والعرفان والأخلاق والتضحية قائمة على اقتضاء آليات الإنتاج وبطن الإنسان ينسى كل ذلك وهناك يدعو إلى النضال والموت والتضحية في حين أن لامعنى للتضحية في المنطق الماتريالي أصلاً وتلاحظون أن أهم وأشهر النظريات التي تدعو للعدل في العالم ليس لها بيان فلسفي وكلامي صحيح وأن دعواتهم الاجتماعية تتعارض مع التعاريف التي يطرحونها عن الإنسان والعالم بشكل كامل، لكن الأمر في الثقافة الإسلامية يختلف لأنه ينبغي علينا طرح تعريف كلامي وفلسفي وأن يُصار إلى تعريف حقوقي وبخلافه فإن العدل في السماوات سيكون مطلقاً ولن يهبط إلى الأرض ولذلك فإن الله تعالى أرسل الأنبياء وحمّلهم مسؤولية إنزال العدالة من السماء إلى الأرض والقرآن الكريم يُشير لنا بوضوحٍ ويُخبرنا عن فلسفة بعثة الانبياء وأن فلسفة الدين قائمة على أساس إقامة القسط والعدل ليقوم الناس بالقسط، أي عبر الأنبياء الذين يأتون لهداية البشرية وقيادتهم صوب العدل خطوة بخطوة في كافة مناحي الحياة من الاقتصاد إلى السياسة في كل الأمور الخاصة والعامة وعليه فإن الفقه الشيعي يقوم بتعريف العدل أولاً بصورته الكلامية والفلسفية وإن لم يفعل ذلك فإن العدالة الاجتماعية ستكون مُعطَّلة بالكامل وينبغي ان يكون الداعي للعدل الاجتماعي قادراً على تقديم تعريف وبيان فلسفي وكلامي وبخلافه فلا فرق مع الماديين الذين يعجزون عن تقديم التفسير المطلوب، فالماركسية لم تكن تدعي العدالة ولا الليبرالية الذين يُنكرون العدل جوهراً ولفظاً، لأنكم تعلمون أن الاتجاه الليبرالي الرأسمالي يُصرح علانيةً أن العدل خُرافة ويُدافعون عن الحرية في الاقتصاد مقابل العدل ويقولون إن العدالة المقننة تزاحم نمو الرساميل[١] وعندما لا تتضاعف الرساميل فإن الفقراء لن يحصلوا على شيء ويدعون إلى تضاعف الثروة دون حدودٍ أخلاقية، لكن الثقافة الدينية في بعض الأديان اكتفت بتعريف كلامي فلسفي للعدل ويبدو أن هذه الفلسفة غير متوافقة مع الدين، لأن القرآن أوضح سبب نزول القرآن وهناك اليوم العديد من النظريات المختلفة ويُشير المتكلمون القدماء

---

١ . الرساميل أو رأس المال هو مصطلح اقتصادي يُقصد بهِ الأموال والمواد والأدوات اللازمة لإنشاء نشاط اقتصادي أو تجاري ويكون الهدف من المشروع الربح أو الإعلام أو الأعمال الإنسانية. (راجع: ويكيبيديا)

إلى الموضوع تحت عنوان ضرورة البعثة، أي بعثة الأنبياء لكن المباحث الكلامية الجديدة التي يتم ترجمتها من الغرب أي الكلام الذي جاء به المسيحيون المتأخرون عوضاً عن الحديث عن ضرورة بعث الأنبياء والحكمة من ذلك نراهم يتحدثون عن فلسفة الدين والمؤمل من الدين وأمثال ذلك، لأن الثقافة الدينية في الإسلام ترى ان مسألة وجود الله وبعثة الأنبياء من قبل الرب مُسلَّمٌ به ويُعد بمثابة الأساس والركن العقائدي وبعدها نسأل: لماذا بعث الله الأنبياء إذن؟ لكن الثقافة الأخرى تُشكك في رب الشارع ورب القانون وأن هناك ربٌ بعث الأنبياء ولذلك لا يرون أن عليهم أن يفرضوا وجود الله أو بعثه للأنبياء، بل إنهم يقولون إن ما نراه حقيقةً وظاهرة اجتماعية وبما أننا من أتباع الظواهرية، فإننا أمام حقيقةٍ علينا التعامل معها بطريقةٍ ما ويظل السؤال المُلِح: كيف ينبغي طرح مسألة الدين؟ هل على شاكلة كلام المتكلمين الإلهيين، لأن هؤلاء يسألون لماذا بعث الله الأنبياء أما على شاكلة الغرب الذي يُشكك وهؤلاء يرون في الدين سلعة بشرية موجودة على أية حال وهي خليط من الخرافات والمطالب البشرية المُكدَّسة على بعضها البعض على مر التاريخ وقد مُنحت هالة من القدسية وعلينا كبشر أن نتخذ القرار اللازم بحقها، أن نُحدد ما نريده منه وكيف نتعامل معه كآلة، هذه طريقتان للتعامل مع القضية والنظرة الدينية المنحرفة نظرة تقول إن باستطاعتنا حل المشكلة الفلسفية الكلامية للعدل وكذلك حل مشكلة السماوات وما وراء الطبيعة وعندما نثبت العدالة فالميتافيزيقية نصبح في حل منها في حياتنا اليومية ولا ندري هل للأسف أم لحسن الحظ لسنا جسمٌ وهذا الأخير يفرض علينا بعض الاحتياجات وهنا تتعين لنا حقوق وتفرض علينا واجبات، هنا لا يتضح مصير العدل رؤى غير الإسلامية، أما الوضع في الثقافة الدينية الإسلامية فينبغي أولاً إيجاد تعريف كلامي وفلسفي للعدل بدقة كبيرة ومن ثم إيجاد تعريف حقوقي وأرضي للعدل لتكون العدالة أمراً مهماً وقابلاً للبرمجة، أي ينبغي ترجمة العدالة إلى حقوق اجتماعية وأخرى فردية وعينية ويومية للجميع وبخلافه فإن التعاريف الفلسفية للعدل إما أنها لن تُصدَّق ولن تتحقق أم أنها ستكون عقيمة بلا ناتج، أي أنها لا تحقق الشيء الذي نزلت وصدرت من أجله وبعبارةٍ أخرى فإن العدالة ينبغي أن تكون واضحة في حياة الإنسان كأن تساءله وتحاسبه في بعض التصرفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأسرية لنعرف أن هذه

العدالة هي للكرة الأرضية وليست للعوالم الأخرى، واحدة من المشاكل التي نعيشها منذ الفترات الماضية إننا نقوم بالتبليغ دون تحديد وتعيين العدل وحقوق الإنسان والحرية أو تحديد نسبتها مع المفاهيم الدينية وعندما يتم البحث في الدين بلا عدل، لأن العدل يتمتع بجاذبة فطرية مع نص الدين فليس معلوماً ان يكون المتلقي مُستعدَّاً لقبول هذا النوع من الطرح، أي الدين بلا عدل، لأننا في هذه الحالة قمنا بحذف جزءٍ مهمٍ للغاية من تعاليمه وعليه فإنه سيتجه صوب العدل بلا دين إذا طرحتم له الدين بلا عدل مثلما فعل الكثيرون ولهذا السبب أقول إنه ينبغي ربط العدل الكلامي والفلسفي بالعدل الاجتماعي والعين البشري وتوضيح ذلك بصورة صحيحة ولهذا يُشير الإمام علي عليه السلام أن حق الناس من حق الله والعدل الاجتماعي بالعدل الإلهي[1] فهو نتيجةٌ وامتداد له وجزءٌ من ملزومات ولوازم العدل الإلهي بمعنى آخر أن الحصول على النتيجة منه تتم عبر الاستدلال فلو افترضنا كلامياً وفلسفياً من خلال النظرة الشمولية أن الله عادل في تعاليمه وبنائه للعالم وخلقه للإنسان فهذا يقتضي إنزاله للقوانين والمقصود بها الشريعة التي ينبغي ان تكون مبنية على العدل هذا أولاً وأنها قوانين عادلة ثانياً وأنها جاءت من أجل بيان وتعريف العدل وإقامة القسط ثالثاً وهناك من خالف هذه النقاط في العالم الإسلامي باسم الفكر الديني وليست هناك فرصة كافية لطرح استدلالات هؤلاء، خلاصة المبحث أن التعريف الإسلامي يقول: إن العدل لا يتحقق إلا بتوفيرِ حقوقيٍ في الحياة اليومية وعليه فإن العدل الذي جاءت الشريعة من أجل القيام به ليقوم الناس بالقسط وعليه فإن العدل هو تعبير آخر لفهرس حقوق الإنسان وفهرس وظائف البشر ولا ينبغي التفكيك بين هذين الفهرسين.

واحدة من الخطوط المنحرفة التي يُروَّج لها في المجتمع من خلال عمليات الترجمة أن الحق والواجب عوضاً على أن يكونا متلازمين وأنهما وجهان لعملة واحدة وهما من الناحية النظرية لا معنى لهما على انفراد وغير قابلين للتحقق بمفردهما فالواجب يعني احترام حق الطرف الآخر ولذلك نرى أن الإمام علي عليه السلام لم يستفد من مصطلح الحق والواجب بل استخدم من حقٍ له وحقٍ عليه[2] أي تبادلٌ في الحقوق والواجبات لكننا

١. راجع: نهج البلاغة، خطبة رقم ٢١٦.
٢. راجع: نهج البلاغة، خطبة رقم ٢١٦.

في الثقافة الأخرى نرى أن هناك تعارضاً بين الحق والواجب، إنهم يقولون لماذا تتحدثون عن الواجب؟ لماذا لا تقولون شيئاً عن الحقوق؟ في حين أن الواجب دونما حقوق وحقوق دونما واجب لا معنى لها وغير قابلة للتحقق، فالواجب حق والواجب جزءٌ من الحقوق أيضاً حتى ان الواجبات خارج إطار حق الناس أي المرتبطة بحق الله ليست واجبة إنها في الحقيقة حق معنوي لنا اسمه حق التكامل، لأن الواجبات التي فرضها الله علينا بعضها مرتبطة بحق الناس، أي حقوق الإنسان وهناك جزءٌ غير مرتبطٍ فهو يخص العلاقة بين الإنسان وخالقه، إن التكاليف الإلهية التي أوجبها الله تعالى على الإنسان كالصلاة والصوم والحج هي في حقيقتها نوع من حقوق الإنسان إنها حقوق معنوية وهي حق للتكامل، لأن الواجب والتكليف المفروض علينا إنه حق علينا وليس لله فيه نفع ولا ضرر ولا معنى لذلك وعليه وبعبارةٍ دقيقة فإن الواجب الملقى علينا هو حق لنا، أي أن لنا حق في التكامل وحق في التقرب وهذا الحق يُؤمن خلال تأدية الواجبات الإلهية، إن في تعابير الإمام علي نكاتٌ دقيقة للغاية يمكن أن تَحُلَّ كلٌّ منها عُقد كبيرة في فلسفة الحقوق وفلسفة الأخلاق في دنيا اليوم إلا أننا لا نمتلك الشجاعة الكافية لطرحها في الدنيا ناهيك عن عدم السماح لنا بفعل ذلك أيضاً ولو فعلوا لخفنا أو خجلنا من طرح هذه المفاهيم، لأنهم يطرحون أشياء علمية ونحن نطرح ايدلوجية غير علمية ولو كانت العدالة عبارة عن فهرسٍ لحقوق الإنسان وواجباته وهي غير قابلة للتفكيك عليه فإنه وبغير بيان حقوق الإنسان والحقوق المتقابلة للبشر فإن تعريف العدل غير ممكن، أي أن العدل غير قابل للبيان ويتحول العدل إلى مجرد شعارٍ ينفع طرحه في المحاضرات، لأن هناك نظريات كثيرة في مسألة حقوق الإنسان في العالم ولكلٍ منها تعريفها الخاص للعدل وفي الثقافة الإسلامية كان هناك عدة تعاريف أيضاً أحدها ما أوردناه عن الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «العدل يضع الأمور مواضعها»[1].

أي أنه عرَّف العدل بالحق الذي ينبغي إيصاله إلى صاحبه وقد سخر البعض من أتباع مدرسة التنوير الغربية من هذا الكلام ومن هذا المفهوم للعدالة، كيف يصل الحق لأصحابه؟ النقاش الحقيقي ما هو الحق ومن هو صاحبه؟ هؤلاء يتصورون أن هذا المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو بيانٌ لفهرست حقوق الإنسان لكن هذه الجملة في الواقع

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٤٣٧.

هي بيانٌ لرفع إشكالية كبيرة تعاني منها فلسفة الحقوق والعدل في عالم اليوم، إن العبارة التي تقول إن العدل عبارة عن الارتباط الواقعي بين الحق وصاحبه ارتباط واقعي وهو ليس ارتباط مُختَرَع والمعنى أن العدل مُتجذّر في نفس العالم، يعني أن له واقع وحقوق الإنسان خاصة بالبشر لا أن نفترض أن للإنسان حقوقاً ما، المُلفت أن العالم الغربي الذي يتحدث عن كرامة البشر وحقوق الإنسان باتت نظرياتهم في الحقوق الطبيعية والنظرية والإلهية تتعرض للتساؤل منذ عدة قرون حتى أن نظرية الحقوق الطبيعية باتت مُتهمة منذ القرن الثامن عشر فما بعده خاصة بعد أن ظهرت النظرية الوضعية المنطقية في القرن التاسع عشر وباتت الحقوق الطبيعية بمفهومها القديم أن للبشر حقوقاً غير قابلة للسلب وأن لهم استدلالات عقلية، أليس هذا منطق العلمانيين نراهم اليوم لا يتبعون هذه النظرية في الغرب ولا في الدنيا الحديث اليوم لأصحاب النظرية الوصفية فهي المتصدي الأول لتحديد الحقوق العرفية، هم يقولون أن لا حق ولا مسؤولية للبشر قبل أن نُقرر نحن وليس للإنسان أي حق غير قابل للسلب ولا واجب قطعي محتوم فنحن من نقرر ونتفق في المحصلة النهائية ونقول أية حقوق وأية واجبات على الإنسان ويمكن إعطاء البشر أي حق يُريده وسلب أي حق نشاء ويمكننا سلب أي واجب منه وقد تم تعريف الواجب على أنه مضاد للحقوق وأنه مسلوب وكلما يتم اليوم الحديث عن الواجب الأخلاقي أو الإلهي يتم التعبير عنه بالاعتداء على حقوق الإنسان ويقولون ينبغي أن يكون الإنسان مُخيَّراً في تنفيذ هذا الواجب من عدمه، الأمر عبارة عن حرية خيار وليس هناك أمرٌ إلهي أو نهي إلهي.

مدينة بلا هدف

بسم الله الرحمن الرحيم

تتناهى إلى أسماعنا بين الفينة والأخرى بعض المصطلحات والتي تعد أسلحة سياسة إعلامية أكثر من كونها مصطلحاً عابراً لها مداليل حقوقية أو مبدئية أو فلسفية ويتم في بلدنا اليوم طرح كلماتٍ تُعد أنموذجاً لخط فكري معين وهي مأخوذة من ترجمات غربية وهذه المصطلحات هي عبارة عن العقلانية والإنسانية والفردية والإرادة الحرة وحق الانتخاب ولا أحد يعترض على هذه المفاهيم والمصطلحات، إننا نتصور أن هذه المفاهيم لها أعلى الدرجات في المنطق الديني ومنطق الإمام علي عليه السلام لكن المشكلة تكمن في مكان آخر أي في استغلال هذه المفاهيم وصولاً إلى مفاهيم أخرى، أي استغلال العقلانية للوصول إلى النفس والهوى واستبدال الفردية بالأنا وهو فكر خاص يقوم على أساس النظام الليبرالي الرأسمالي وعدم المسؤولية والظلم والعنف والاستعلاء وهتك الحرمات وهي عوامل رئيسية في هذا الفكر، إننا لا نعارض الألفاظ فلتكن الإنسية الدينية، لا نعارض ذلك، لأننا نؤمن أن أعلى مراتب الأنسية تكمن في الفلسفة العقلية وفي الفكر الديني وهذا أمرٌ يتجسد في عموم نهج البلاغة لكننا نتحدث عن منهج خاص ذي أهمية تاريخية خاصة وأريد أن أتحدث عن السير التاريخي الثقافي لا التاريخي العلمي، لاحظوا أن الرأسمالية بدأت ومنذ منتصف القرن الماضي العمل بطريقة معقدة ودقيقة وأخذت تستقطب المجال الثقافي لها وحولت العلاقات الاجتماعية إلى تجارية وبدأت بتثبيت خصالها وقواها على سطح العالم حيث بدأت من القرن الميلادي السابع عشر ونحن اليوم في بداية القرن الحادي والعشرين

حيث باتت تسيطر على مقاليد الأمور في عالم اليوم لكنها ومن خلال عدم وجود غيرة أخلاقية أو تعصب تجاه معايير ومبادئ معينة تريد الدفاع عنها ومن خلال تمركز عصبيتها حول المصالح أي القدرة والثروة فإن النظام الرأسمالي ليس له قابلية انعطاف وعليه فإن النظام الرأسمالي الليبرالي الذي يعد التوأم لنظامي الماركسية والفاشية وهي من نتاجات العصر الجديد يتمتع بقدرة مناورة أكبر من النظامين الآخرين حيث يمتلك قدرة مناورة أكبر في الظروف المتأزمة ولن يقف أمام غرائز البشر، بل مقابل الفطرة وحسب وحتى النهاية ذلك لأن النظام الليبرالي لا يمتلك أي فكرة عما فوق الغريزة وكل النظام عبارة عن إشباع الغرائز هذا ليس حديثي أنا بل كلام الليبراليين أنفسهم حيث يقولون إن العقل لا ينبغي أن يكون مسلطاً على الغريزة الإنسانية، بل عليه أن يكون خادماً لها هذه هي ذات الجمل التي يرددها كبار منظري الليبرالية الكلاسيكية فهم يُصرحون أن العقل ينبغي أن يكون في خدمة الغريزة وأن العقل في مجال الآليات يُعد وسيلة لا أكثر وهو لا يرقى إلى مجال الأهداف والأهداف تعينها الغريزة، لقد أوجد هؤلاء نظاماً تخلو نواته من الروحانيات وهو من قلبه إلى دماغه إلى أظافره عبارة عن قطع غيار يمكن استبدالها، لأنها غير قائمة على أساس المبادئ لا العقلية ولا الأخلاقية وعليه فإن لها عمر الغراب أي هي معمّرة وهي أكبر من الماركسية والفاشية والسبب في ذلك يعود إلى التفاوت في الإطار والتفاوت في الجوهر الروحاني وعليه فهي أطول عمراً من الماركسية التي جازفت بوجودها من خلال رهاناتٍ غير محسوبة العواقب ولذلك فإن الماركسية دخلت في متاحف التاريخ أسرع من غيرها من المدارس الفكرية، لأنها تخالف الفطرة، أما النظام الليبرالي الذي لا هدف له وكل أفكاره مجازية وخاضعة للهوى والغرائز وعليه فإنها لا تتقبل أية عملية تضحوية وهذه من علامات الفكر الليبرالي لا أقصد هنا عمليات الانتحار، بل أقول التضحية لأنها غير موجودة في هذه المنطق فكل العهود الأخلاقية والايدلوجية هي أفكارٌ حمقاء لدى هذه المدرسة الفكرية، هؤلاء يقومون على الدوام بمسار الطاقات والرغبات المختلفة بينهم وعليهم أن يواصلوا الحياة بأي ثمن كان والقانون والالتزام به في ظل هذه المدرسة لا يعد مسألة عقائدية ومبدئية، بل أمر براغماتي[1]، فالقانون عندهم تحصيل حاصل من

---

١ . المذهب العملي أو فلسفة الذرائع أو العَمَلانِيَّة أو البراغماتية (بالإنجليزية: Pragmatism) هو مذهب فلسفي سياسي←

أجل المحافظة على النظام، ينبغي أن يدار البلد وعليهم حفظ مصالح فئة أكبر عليه فهم يريدون النظام والقانون وهذا تصرف براغماتي مع القانون والآداب الاجتماعية وليس تصرفاً فلسفياً، أي إن هؤلاء لا يقبلون بالنظام والقانون من ناحية فلسفية خاصة عندما أصبحت مسألة الحقوق العامة في الغرب تحت المجهر وظهر إلى السطح المذهب الوضعي فالموت من أجل الهدف يعد حماقة في الفكر الليبرالي ذلك أنه لا شيء أهم من البقاء حياً في هذه الدنيا ولذا فإن الموت من أجل الهدف يُعد في هذا الفكر موتاً يغلب الغريزة ولأنه عمل عقلاني وأخلاقي فإنه غير طبيعي في هذا الفكر وعليه ومن أجل تقبل ذلك لابد أن يجدوا فكرة أهم من البقاء أحياءاً حسب المفهوم البايالوجي ولذلك نراهم يعارضون الثورة على أساس ديني من الأساس، بل إن هذه المدرسة الفكرية تعارض الثورة الإنسانية وحقوق الإنسان أيضاً وهم يفضلون تغيير الأشكال التي لا تكلفهم شيئاً أو الانقلابات ذات التكلفة الأقل والتي يمكن السيطرة عليها عن بعد ولذلك نرى أنهم يصرحون بأنهم من أنصار الحركات التي تعد تسلية من أجل قضاء أوقات الفراغ حيث يعملون على مثل هذه الحركات أكثر، لأنهم ينشدون المصالح العالمية لا المبادئ العالمية اللهم إلا إذا كانت هذه القيم والمبادئ تصب لصالحهم.

أما النكتة الثانية فتكمن في مفهوم الفرد والنزعة الفردية والتي طرحت في الأفكار العصرية الجديدة لكنها فردية بمعنى الأوغي إيزم[١]، أي المحور الشخصي لا النزعة الفردية وهذا هو الواقع في الاقتصاد والتجارة والرأسمالية الجديدة سواء في المذهب البروتستانتي أو الفكر السياسي حيث تم بناء الفكر على أساس اعتبار أهواء ورغبات كل إنسان بصورة مستقلة على أساس أنها أساس الحقيقة والأخلاق وقامت هذه المدرسة بتعريف الإنسان

← يعتبر نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة؛ رابطا بين التطبيق والنظرية، حيث ان النظرية يتم استخراجها عبر التطبيق، نشأت هذه المدرسة في الولايات المتحدة في أواخر سنة ١٨٧٨. والبراغماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني: براغما: ومعناه العمل (راجع: ويكيبيديا).

١. الفردية (بالإنجليزية: Individualism) هي موقف أخلاقي، فلسفة سياسية، أيديولوجيا، أو النظرة الاجتماعية التي تؤكد على القيمة المعنوية للفرد. تدعو الفردانية إلى ممارسة أهداف الفرد ورغباته لتكون قيمه مستقلة ومعتمداً على نفسه. تعتبر الفردانية إن الدفاع عن مصالح الفرد مسألة جذرية يجب أن تتحقق فوق اعتبارات الدولة والجماعات، في حين يعارضون أي تدخل خارجي على مصلحة الفرد من قبل المجتمع أو المؤسسات مثل الحكومة. وغالباً ما تتناقض الفردية الديكتاتورية أو الجماعية. (راجع: ويكيبيديا)

إلى أنه جزيرة مستقلة كائن حي يلم بنفسه والفردية التي يتحدثون عنها عبارة عن إنسان غير اجتماعي، بل إنسان ضد الاجتماع ويعود إلى الاجتماع والقانون من أجل أسبابٍ وأدلة ثانوية لا بسبب فلسفي، إن الإنسان الذي يدعو له هؤلاء هو بهذه المقاييس وهنا لا أشير إلى نقاط الاختلاف، بل إلى التضاد بين الفكر الديني والفكر الليبرالي الرأسمالي، فإن أدركنا هذه القضية فإننا سنكون قادرين على فهم الخلافات والصراعات التي سنشهدها خلال العقدين القادمين وبخلافه سنكون من أقوام هذا الاجتماع أرجو أن تركزوا على المصطلحات حتى تكون مطروقة أمامكم في المستقبل حيث سترجعون إليها لدرك الأمور، إن الإنسان الذي طرحته المدرسة الليبرالية الرأسمالية أمامنا إنسان مغلق محاصر في ميوله الخاصة وذهنيته الخاصة وهو عبارة عن إنسان بمحورية الجسد وهو في ذات الوقت منشغلٌ بما يطلقون عليه اسم سابجكسن وهي عبارة عن نوع من أصالة النفس في عالم المعرفة وهؤلاء يرون أن العقل يأتي في المرحلة الثانية بعد الغريزة التي تحظى بالمقام الأول والعقل له الحرمة في هذا الفكر، لأنه أداة ووسيلة وحسب، هذا تعريفهم للعقلانية، أي العقلانية كأداة وكل ما أقوله من عبارات هو لأحد الفلاسفة الكبار في الفكر الليبرالي بالطبع استقيت هذه العبارات من كل آثارهم ونتاجاتهم الفكرية وهم يعتبرون الفرد بدون حاكمية خارجية يعد أساس كل القيم والمبادئ وأما المبادئ فهي أمور شخصية وأن الرغبات الغريزية لكل شخصٍ تستلزم الإشباع ومعنى ذلك أن بإمكان الإنسان في هذه العقيدة الانصياع لرغبته دون وازع وهذا تحديداً المذهب الإنساني على مقاساتهم وبخلافه فلا أحد يعترض على هذا المذهب في حقيقته، إنهم يرفضون الدين إذا أصبح حالة اجتماعية ويرضون به إذا تحول إلى تسلية شخصية وبات كمخدرٍ للأعصاب، لكنهم يرفضون الدين إذا أصبح أداةً معرفية ويرفضون العمل وفق منظار الدين ولا يرضون بالدين إذا تحول إلى أساسٍ ومنطلقٍ لمشروعية الحاكم والعلاقات الاجتماعية، أما إذا كان إنتخاباً فردياً فلا بأس ولا يفرق نوعه عندهم سواء أكان مادياً أم لا، مسجداً كان أم معبداً للأوثان أو كنيسة، لأنها جميعاً تعد طقوساً للتسلية وتقضية الوقت، لا فرق عندهم إن هي خضعت للصنم أو خضعت لله أو أي شيءٍ آخر، لماذا؟ لأن الدين ليس منشأ معرفة يبحث عن حق وباطل إنه مخدر او مهدئ للأعصاب ويرفضون أن يكون الدين عندهم التزاماً ببعض القوانين والقواعد

والتكاليف الأخلاقية والمبدئية ربما استسلموا للضغوط الاجتماعية وكلامي هذا لا يعني أن كل من يعيش في أوروبا أو الولايات المتحدة هو إنسان على هذه الشاكلة، لأن البعض يتصور أنه عندما نتحدث عن الليبرالية فإن هذا يعني إنكاراً لكل الناس الذين يعيشون في الغرب وأن جميعهم ليبراليون! لا ليس الأمر كذلك، فهناك غالبية من البسطاء يولدون ويعملون ما يُؤمرون ولا حول لهم ولا قوة وهم لا يؤمنون بهذه النظريات ولا يعترفون بها كنظرية، لأنهم يجهلون، نعم يجهلون وهذه المعلومات المتوفرة لدي غير متوفرة للناس بالطبع، لا أنكر هنا الفضائل الموجودة في المجتمع الغربي وليلتفت الأخوة والأخوات إلى أننا لا نعني بكلامنا أن كل من هو في الغرب وكل ما هو موجود هناك فهو على هذه الشاكلة التي تحدثوا عنها، لا فهناك الكثير من الكمال والفضائل والإيجابيات ولو لم تكن لديهم لما كانوا اليوم أسياد العالم ولما كانت كل وسائل الإعلام بأيديهم وكل الجامعات والصناعات، فهؤلاء يمتلكون الفنون، لهم فضائلهم وعندهم الرذيلة أيضاً وجلّ كلامنا أنه ينبغي مشاهدة الفضيلة والرذيلة عندهم معاً وعلينا أن نعرف المبنى النظري لهم أيضاً لا أن نقول أن كل من في الغرب فهو ليبرالي وكل من هو في مجتمعنا هو مسلم شيعي خالص، لسنا مؤمنين مئة في المئة ولا هم معارضين للدين مئة بالمئة، إننا متناظرون إلى حدٍ ما وقد ولدنا في أسر ومجتمعات متبايناتٍ ولكن استسلموا بعد ذلك للتضاد الكبير بين النفسانية والفردية كنزعة، لقد أدى العمل الاجتماعي والالتزامات الاجتماعية بهؤلاء أن يتبدلوا من خلال ما يُعرف بالوطنية والاشتراكية وهذا الموضوع هو ذات مبحث النظام والحرية الموجود في أفكار المنظرين من أمثال راسل، عندها تتبدل العقلانية إلى أداةٍ ووسيلة بالمعنى السلبي، لأن هؤلاء أرادوا نفي العقلانية على مقياسٍ أكبر كان عليهم أن يثبتوها في إطار الوسيلة والأداة وبغية نفي العقلانية الأكبر كان عليهم نفي العقلانية الأصغر ولذلك باتت العقلانية كأداة سلبية أكثر من هي إيجابية وجعلوا من الأداة أسطورة وأطلقوا على هذه العقلانية اسم نفي الأساطير وهي ذات المباحث التي تعرض لها ماكس وويبر في باب المشروعيات الأربعة في باب الحكومة حيث يصف هؤلاء مشروعية التوراة ومشروعية الأنبياء بأنها مشروعيةٌ الكارزمة الشخصية ولا يسندها منطق غير أن أصولها في الجاذبية التقليدية وينبغي عقلنة و تقنين ذلك أي رفع ونفي الأساطير عنها.

النكتة الثالثة وهي أن الديمقراطية في الغرب نوع من الجهالة المبسوطة التي تقف أمام الديمقراطية والمغلفة بنوعٍ من الأوليكاراشي[١] أو حكومة المراكز الصغيرة للثروة والقدرة وهي حاكمية الأقلية على الأكثرية لكن البادي للعيان حكومة ديمقراطية، حكومة الأكثرية على الأقلية وخلف الستار حكومة الأقلية الرأسمالية الليبرالية على الأقلية حيث أطلق المنظرون الغربيون عليه اسم قانون أليكاراشي الحديدي[٢] وهذا يعني أنه كلما تغيير الظاهر فإن الباطن الحديدي يظل باقي لا يتغير، أي إنهم يُعينون رئيس الجمهورية وأعضاء الكونغرس يأتون ويذهبون بهم متى ما شاؤوا وأن أصحاب الثروة والقدرة هم الذين يسيطرون على المقدرات وأن الديمقراطية بالنسبة لهم عبارة عن مركب يركبونه أصحاب القدرة والنخبة الثرية وأحزاب السلطة التي تعمل خلف الكواليس، ثم يأتون وتحت عنوان تقسيم عصري للمسؤوليات للنيل من مفهوم الجماعة والناس وهكذا تتحول الجماهير إلى مجرد مصطلح وكلام وفي نهاية المطاف إلى كذبة سياسية، لأن الساسة استغلوا وتحت يافطة أحزاب الأمة ومضوا باسمها واصطلحوا عليه اسم الديمقراطية ولذا فإن الحرية تأخذ المعنى السلبي وتكون الحرية هاهنا سلبية مقابل الفكري والحرية الإيجابية وهي المفاهيم التي يطرحها أشعيا برلين[٣] والآخرون الحرية السلبية التي تقول إنها لا تعترف بأية أصولٍ حاكمة على المجتمع ولن تقبل بأية مبادئ وأصول وأن كل شيء بالنسبة لها عبارة عن عقود والأصل أن لا يكون هناك أي عائق يمنع الأهواء والرغبات وإن كان هناك من قانون فإنه من أجل تأمين الأهواء الفردية، أي إن القانون هو من أجل الإنسان وأهوائه لا من أجل خدمة المفاهيم الكلية كالعدالة والأصول وغيرها لقد جاءت هذه الحرية السلبية لتأخذ مكان المجالات الدينية

---

١ . الأوليغاركية Oligarchy (أحيانا: الأوليغارشية) أو حكم الأقلية هي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. الكلمة «أوليغاركية» أوليغارخيا. وفي القرآن تسمّى الفئة الحاكمة الملأ. وغالبا ما تكون الأنظمة و الدول الأوليغاركية مسيطر عليها من قبل عائلات نافذة معدودة تورث النفوذ و القوة من جيل لآخر. (راجع: ويكيبيديا).

٢ . القانون الحديدي للمؤسسات هو مقترح في حقل علم السياسة. يُصرّحُ المقترح بأنّ الناس الذين يحملون القوّة في المؤسساتِ الموجهة أساساً بإبقاء القوّة ضمن المؤسسة، بدلاً من نجاحِ المؤسسة بنفسها. كالمنصوص أصلاً، هناك بعض الغموض بين الناس الذين يُسيطرون على المؤسسةِ بغرض إهمال نجاح المؤسسة، أو قوّتها. (راجع: ويكيبيديا).

٣ . أشعيا برلين منظر اجتماعي سياسي وفيلسوف ومؤرخ أفكار روسي ـ بريطاني من أهم مفكري القرن العشرين والباحث الليبرالي الأبرز من أبناء جيله. تفوق ككاتب مقال ومحادث وراوٍ ولمع كخطيب قادر على ارتجال سريع لمادة غنية ومتماسكة. (راجع: ويكيبيديا أشعيا برلين)

والسياسية والأخلاقية فشغلت مقعد الاقتصاد و وضعت له نظرية اقتصادية عالمية فاسدة ذات بريق أطلق عليه اسم السوق الحرة وقد أدت عمليات التبادل التجاري والصفات الإمبريالية إلى بروز ظاهرة الاستعمار العالمي فبدأ الرأسماليون في أوروبا بالبحث عن المواد الخام والقوى العاملة الرخيصة وسوق للتصدير وهكذا تحولت أوروبا إلى مستعمرٍ احتل شمال أفريقيا والعالم الإسلامي بأسره حيث يتواصل هذا الاستعمار إلى يومنا هذا وبدت تلوح اليد الخفية التي تحدث عنها أدم سميث[١] الذي يُعرف نظرياته من طالع الاقتصاد وهي الأسطورة الخرافية التي قام النظام الرأسمالي وفقها لتوجيه وتبرير الظلم الحاكم وشاهد الجميع أن هذه اليد هي يد المافيا الرأسمالية التي تريد أخذ كل شيء لصالح أقلية خاصة وهي تمارس الظلم ضد الأكثرية المحرومة وهكذا بدت تلوح في الأفق شخصيات تقوم مقام عرابي الديمقراطية في الغرب ورغم ذلك فإن المشروع لم ينجح، لاحظوا أن شبكة العلاقات الإنسانية قد تحطمت وبات الوضع غير طبيعي وغير مستقر حيث أعيد تنظيم الأواصر القبلية بحلة جديدة ورغم أن ظاهرها عصري لكنها ذات الأواصر القبلية دون اختلاف ورويداً رويداً يتبين أن لا عقلانية في الأمر أساساً وبات مفهوم العقلانية يوضع تحت المجهر في أحدث النظريات المعاصرة حيث يقولون أن لا عقلانية في الأمر وأنه عبارة عن أسطورة وهي لم تطرح إلا اسمها وحسب، ثم بدأت الماهية الديمقراطية تتغير، بالطبع فإن الديمقراطية مرت بثلاث مراحل وفي واحدة كانت هناك حكومة الأكثرية وفي دورة ما كانت الديمقراطية حكومة القانون، أما اليوم فإن الديمقراطية لا هذه ولا تلك ووجدت الديمقراطية لنفسها عنواناً ثالثاً وقد كانت الديمقراطية الأصلية من شعارات القرن الثامن عشر حيث كانت شعاراتها تدعو إلى مشاركة جماهيرية واسعة والمجتمع المدني والحريات المدنية وحكومة الأكثرية وحاكمية القانون كل هذه الشعارات كانت من شعارات القرن الميلادي الثامن عشر وهي الديمقراطية الأولى قبل مئتي عام، أما اليوم فتعريف الديمقراطية فقد تغير في الغرب نفسه، فاليوم يتحدثون في الغرب عن المشاركة الجماهيرية الواسعة والديمقراطية المطروحة في الغرب عبارة عن الأوليغاركية وهي لا تعني حكومة القانون وليس حكومة الأكثرية على

---

١ . آدم سميث (٥ يونيو ١٧٢٣ – ١٧ يوليو ١٧٩٠) فيلسوف أخلاقي وعالم اقتصاد اسكتلندي. يُعدّ مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي ومن رواد الاقتصاد السياسي. دعا إلى تعزيز المبادرة الفردية، والمنافسة، وحرية التجارة، بوصفها الوسيلة الفضلى لتحقيق أكبر قدر من الثروة والسعادة. (راجع: ويكيبيديا).

الأقلية ولا المشاركة الشعبية ولا المجتمع المدني وهي ليست من تعاريف القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، الديمقراطية الموجودة في الغرب اليوم نظام يُسيره الرأسماليون وهم لا يبغون المشاركة الشعبية الواسعة وعندما يقال إن سبعين بالمئة من الجماهير شاركوا في انتخاب بلدٍ ما، فإن هؤلاء يقولون إن هذا العمل غير ديمقراطي فلا ينبغي أن يكون عدد المشاركين في الانتخابات كبيراً وهم لا يعتقدون بعد اليوم أن قوة القانون تكمن بالمشاركة الشعبية وأن ذلك من أركان الديمقراطية أي أكثرية الآراء، إنهم يقولون اليوم إن المجتمع المدني والديمقراطية شيء أساطيري وهي مصطلحات مجردة لا وجود لها على أرض الواقع! يقولون لم يتولد المجتمع يوماً ولن يولد مثل هذا المجتمع أساساً ويدعون إلى إيجاد تعريفٍ للمجتمع المدني يتماشى مع الوضع الموجود في العالم الذي يحكمه النظام الرأسمالي وعليه فينبغي الأخذ بيد الديمقراطية للعودة إلى النظم اليونانية القديمة ونظام الأشراف والنبلاء ولكن من النوع الرأسمالي، أي نظام الاقلية أو ما يسمى بالأشراف وأن الديمقراطية لا تعدو كونها تكنوقراطية وعليه فإن الرأسماليين وأصحاب الثروة والشركات تصدر الفتاوى وعلى التكنوقراط التنفيذ، أما مبحث الإنسان وحكومة الإنسان فهي لا تعني أساساً الشيء الذي يتصوره الإنسان في ذهنه على الإطلاق وعليه ينبغي الركون إلى الديمقراطية الجديدة وعليه فقدت الحرية والقانون والمشاركة مفهومها وكذلك المساواة والفردية وحقوق الإنسان حتى إنها تحولت إلى قيمة مضادة أحياناً وبات كل الاعتبار والمصداقية للحرية السلبية إن مفهوم السوق الحرة تعني العودة إلى الداروينية الاجتماعية حيث كان يقول ذلك في باب الطبيعة والأحياء ولكنهم يطبقون ذلك اليوم في مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد، أي إن الحاكمية تكمن في أصالة الترغيب والترهيب والخداع ولا تعني الديمقراطية في الغرب اليوم المشاركة الجماهيرية الواسعة، لا بل هم يتجهون اليوم صوب تقليل المشاركة ويستعينون بها بالأحزاب والأقلية الرأسمالية النافذة والتقنية عوضاً عن المنافسة الشعبية الحقيقية انتقلوا من شعارات القرن الثامن عشر من المشاركة الشعبية الواسعة إلى نبذ الأيدولوجيات ومحاربة ذلك واليوم بعد أن اطمأن بال البعض منهم بدأوا برفع الستائر والظهور بالمظهر الحقيقي والقول إنهم كانوا خلف ستار الديمقراطية وحكومة الشعب وهم عبارة عن مافيا القدرة العالمية والأقلية الرأسمالية وبعد ترديد شعارات القانون والمجتمع المدني والمشاركات

النوعية على مدى قرنين من الزمن ويظهر اليوم الأمر جلياً للعيان أن كل شيء هو تحت سيطرة وقدرة مراكز المال التي تروج لنفسها على المستوى العالمي وقاموا بتوديع الحقيقة عبر يافطة حكومة الشعب، إنهم اليوم من اجل الرأسمالية يودعون ويُشيعون الناس. وهنا أود الإشارة إلى تساؤلات وردتني من بعض الطلبة حول ضرورة ان يرعى النظام الإسلامي عملية الحوار والنقد العملي للأداء الحكومي شريطة أن يتمتع النقد بحس المسؤولية واحترام الأطر والقوانين، فإن شاء أحدهم أن يورد الشبهات في أصل مبحث النبوة والتوحيد والمعاد وأصل الحكومة الدينية فليفعل ولكن عليه أن يحذر من المغالطة والكذب وبث الشائعات وهتك الحرمات والإهانة والفحش، أي ان يكون ذا منطق واستدلال وعليه أن يجيب على كل سؤالٍ يرده، أي أن يكون من أهل المناظرة لا أن يطرح شبهته وينسحب فهذا ليس صحيحاً وينبغي على المشكك أن يقف ويسمع الرأي الآخر وهنا أكرر أن النظام الإسلامي ينبغي أن يسمح لكل الأفراد أن يأتوا لطرح أسئلتهم واستفساراتهم وطرح تشكيكهم في أصول الثورة وأصول الجمهورية الإسلامية وأساس ولاية الفقيه، بل وأصل الدين لكن عليه طرح ذلك في محافل تخصصية وعلمية والوقوف لسماع الرأي الآخر ولكن إذا طرحت هذه المواضيع في غير محلها فلن نقف على نتيجة موضوعية ويعني هذا أن نسمح للمشكك أن يقول ما يريد في حرية تامة دون أن يتوقف ليسمع جواب ما طُرح وإن تم هذا الأمر بهذه الطريقة، أي كان هناك طرح علمي وتخصصي فإنه ينبغي للنظام الإسلامي أن يسمح به، بل يدعمه خاصة إذا كان الانتقاد المطروح يخص نفس المسؤولين، حيث يقول الإمام علي عليه السلام «ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك»[1]، وذلك في خطابه لمالك لما ولاه مصر أي إن الإمام يدعو مالك الأشتر إلى تقريب المنتقدين وإبعاد المنتقدين وهذا من خصوصيات الحكومة الدينية وينبغي أن يوفر للناقد فضاء حكومي آمن ونقصد المنتقدين الذين يؤمنون بأصول ومباني الحكومة الدينية، لكننا للأسف نرى أن انتقاد المسؤولين على أدائهم يكون بمثابة الخطوط الحمراء، لكن النيل من الدين والرسول والنبوة والحسين عليه السلام عملية مسموح بها وقد سمح لهم أن يقولوا أن القرآن محض افتراءٍ وخرافة وأن القرآن كلام الرسول وليس كلام الوحي! لا بل بلغ بهم الغي أن يتطاولوا على الإمام علي عليه السلام ويصفونه بالخشن حتى ان إحدى

---

١. نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

المجلات أبدلت سيف الإمام بباقة ورد وعندما قالوا لهؤلاء إن معاوية لم يستطع النيل من سيف الإمام علي كيف تجرؤون على فعل ذلك؟ قالوا لا إشكال فليكن الورد في يد والسيف في يد أخرى وقالوا إن حكومة الإمام لم تكن تسير وفق السير الطبيعي وهي غير سوية وهو ذات الكلام الذي قاله أبو موسى الاشعري للإمام وأن الإمام الحسين كان في كربلاء ضحيةً لعنف جده ضد العرب خاصة في بدر وعادوا للانتقام وهذا يعني أن ما حصل للإمام كان يستحقه والعياذ بالله وكلنا يعلم ماذا قال يزيد: ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ...

هكذا يصوِّرون الحرية في يومنا هذا يسمحون لمن يريد التطاول على التراث والدين والعظماء والأئمة باسم الحرية ولكن لو تم التعرض لوزير أو نائب او محافظ، فإن العرش سيهتز لذلك وعليه فشاهد كلامهم أن انتقاد الله ورسوله والثورة وولاية الفقيه والشهداء مسموح به لكن المسؤولين فهم خط أحمر وهذا الأمر مخالف لسياقات الإمام علي سلام الله عليه وعليه فإن الانتقاد الأصولي للمسؤولين جائز والسؤال والاستفسار جائز حتى أن الإمام علي أجاب أحد المقاتلين وسط الحرب وهي قائمة وأتصور أن هذه العملية غير معممة وعلى المسؤولين العمل على توفير الفرص والمجالات اللازمة للانتقاد البناء وطرح المباحث الراديكالية وبصورة جذرية وليعلم القاصي قبل الداني أن الإمام علي لم يكن مثيراً للفتن والحروب، بل كان علي مظهر سلام ورحمة وأُخُوّة وحوار، كان سلاماً تحت لواء العدالة لا بمعنى التسليم والمساومة مع الظلم والصلح بمعنى التسليم والذلة، هؤلاء باتوا يرددون ما قاله أبو موسى الأشعري ومعاوية من ان الإمام علي عليه السلام كان داعية حرب وإراقة دماء، إن أصحاب هذه الاقلام يحاولون خلط المبحث واستبدال العلة بالمعلول، ترى لماذا قاتل الامام علي عليه السلام هؤلاء؟ أليسوا هؤلاء أول من اعتدى على القانون والعدل؟ لقد تحمل الإمام علي عليه السلام مدة طويلة وصمت وتحمل الإهانات وأجاب على أسئلتهم لكنه لم يجد بداً من رفع السيف ضدهم لقد جاؤوا لإسقاط حكم الإمام علي سلام الله عليه وهذه أمورٌ حصلت أولاً ثم بعد ذلك رفع الإمام علي السيف ضدهم وطريقة هذا الكلام تذكرني بأحد السُذّج حيث قال إن كل الزيجات في أسرتنا هي في محيط الأسرة والأقارب ولما سألوه كيف ذلك؟ قال لقد تزوج عمي بزوجة عمي وخالي بزوجة خالي وخالتي بزوجها، ألا ترون أن كل زيجات الأسرة هي من الأقارب قصة صاحبنا هذه تذكرنا بما يقوله البعض في

التاريخ من أن الإمام حارب من أجل الدنيا وليس من يقول لهم يا عالم إن البادئ أظلم لقد اعتدى هؤلاء على حكومة علي أولاً ولم ينبس الإمام ببنت شفة، ألا تتذكرون ما طلبه الإمام من أبي موسى في حرب الجمل؟ امتنع الأخيرعن تلبية طلب الإمام وكان والياً على البصرة حيث قال الإمام إن هؤلاء خرجوا عليَّ لأنني لم أسلمهم مناصب لأنهم غيرصالحين أو مؤهلين وبعد وفاتهم حيث كانوا من الأسماء اللامعة في الصحابة وأراد الورثة تقسيم الإرث اضطروا لتكسيرالذهب الموجود عندهم بالفؤوس وقيل إن هؤلاء عندما جاؤوا إلى الإمام يطلبون منصباً في حكومة الإمام سألهم الإمام عن أي موضوع تريدون التحدث فقالوا له نريد الحديث معك حول حكومة الكوفة والبصرة والمناصب، فأطفأ الإمام شمعةً كانت تضيء المكان واستبدلها بأخرى فقالوا له ماذا تفعل؟ فرد عليهم أن الأولى كانت لبيت المال أما الثانية فهي ملكي وأظنكم تريدون الحديث معي، عندها علم القوم أن الإمام علي عليه السلام لا يُهادن حتى في زيت الشمعة فكيف بالمناصب، بعدها استأذنوا بالخروج إلى مكة بقصد الحج، فقال لهم الإمام أعلم نيتكم ولكم أن تنطلقوا، فقال ابن عباس للإمام إنك علمت مقصدهم لم أذنت لهم بالخروج فرد الإمام لا نستطيع محاربتهم وهم لم يبادرونا وقال الإمام إنهم يريدون تجهيزقواهم وهكذا كان لهم ما أرادوا حيث وقعت حرب الجمل، الكل يعرف قصة أبي موسى الذي كان والياً على البصرة وعندما خاطبه الإمام بضرورة تجهيزجيشٍ لمحاربة الخارجين عن القانون امتنع وكان أبو موسى قد خدع بعض الناس بشعاراته وعباراته لكن كلامه لم يكن مؤثراً في قلب الإنسان الواعي على أية حال بعث الإمام علي مالكاً لعزل أبي موسى حيث قام بتوبيخه فقال له هل إن الإمام محبٌ لسفك الدماء حتى تمتنع عن تجهيزالجيش له إنك لست أهل دفاع عن العدل وكلامك أنك لست طالب حرب وتعارض ذلك ليس صحيحاً إنك لا تفرق بين العدل والظلم وقد رجحت دنياك على آخرتك وأنت مراءٍ فما هذه الأموال التي جمعتها وما هذا المسكن الذي اتخذته لنفسك لقد أصبحت معارضاً للحرب، لأنك تريد الفرارمن الجهاد وتطبيق العدل، فأي حرب بدأها الإمام من قبل لتصفه أنه طالب حرب؟ إن تصرف أبي موسى الأشعري في ذلك اليوم أسس لحروبٍ وسفكٍ للدماء استمرت على مر التاريخ وهو شريك في إراقة

دماء مئات الآلاف من البشر، وفي رواية[1] عن الرضا عليه السلام لما سأله المأمون ما هو الإسلام المحض يا بن رسول الله فيرد الإمام ويوضح عقائد الإسلام وأخلاقه وأعماله وأحكامه ويؤكد على ضرورة البراءة ممن يريد الاستئثار بالمنصب بغية تسهيل الأمر على سرقة بيت المال ويضيف الإمام الرضا عليه السلام البراءة من أبي موسى الأشعري وأهل ولايته، أي إنه ينبغي علينا التبرؤ من أبي موسى وخطه على طول التاريخ لقد كان في الظاهر مسالماً لكنه في حقيقة الأمر كان ظالماً، لأن السلام أمر محبذ في ظل العدل لكنه سيكون ظلماً ونقمة في ظل توجيه الظلم وسيعزز العنف والدعوة له، لقد قال الإمام الآن وقد بايعتموني فإنني سأمضي لإقامة العدل جئتم معي أم خذلتموني ولا يصح ان يبايع الإنسان ثم ينكث بيعته وتارة يقول إنه مل الحرب هل تريدون محاربتي فيما بعد كيف يصح ذلك وقد هجمتم عليّ من أجل تقديم البيعة لي، كما هو معروف أنه عندما ثار الناس ضد عثمان وبعد حصار دام لأكثر من شهر وما تلا ذلك من قتل عثمان والمسائل التي أعقبت ذلك حيث أوجبوا على الإمام علي أن يتولى الخلافة وبايعوه بالقوة لقد انتقد الإمام علي هؤلاء الناس وقال لماذا تأخرتم كثيرا إن عليَّ أولاً إصلاح ما فسد من أمور المسلمين لتعود الأمور إلى نصابها وقال لهم: «وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم علي تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل وسقطت الرداء ووطئ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب»[2]، وفي موضع آخر قال عليه السلام: «فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون البيعة البيعة»[3]، ويضيف الإمام في موضع آخر مخاطباً أهل: «لا تفعلوا فإني أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا. فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال: ففي المسجد فإن بيعتي لا يكون خفيا ولا تكون إلا في المسجد. وكان في بيته وقيل في حائط لبني عمرو بن مبذول فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق قميص وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئا على قوسه فبايعه الناس. وكان أول من بايعه من الناس طلحة بن عبيد الله فنظر إليه حبيب بن ذؤيب فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون أول من بدء بالبيعة من الناس

---

١ . راجع: عيون اخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٢٩.

٢ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٩.

٣ . نهج البلاغة، خطبة ١٣٧.

يد شلاء لا يتم هذا الامر»[١]، وفي موضع آخر أقسم الإمام علي عليه السلام أنه لم يكذب على الناس كذبة واحدة حيث قال «والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة»[٢]، وقال عليه السلام لجماعة الجمل لقد قبلتم جميعاً خلافتي واليوم تنكصون لكنني أحارب من ينقض البيعة ويحارب الحكومة المشروعة وليس بعد الموعظة إلا القتال[٣]، أي الحرب. وبعد شهادة الإمام علي عليه السلام جاء الجميع يبكون وأرادوا تقطيع ابن ملجم لقد كانوا يحبون الإمام لكنهم لم يمشوا في ركبه حتى النهاية وخلاصة الأمر لم يكونوا ضد الإمام ولم يكونوا علويين بايعوه من أجل المناصب وتركوه في المصاعب وحيداً.

وفي مجال العلاقات الاجتماعية كان الإمام حساساً للغاية وحديثي حول هذا الموضوع هو في الواقع جواب لسؤال عدد من الطلبة الأعزاء حول تصرفات الإمام مع المجتمع حيث كان يدعو الولاة الذين نصّبهم إلى الاختلاط بالأمة وعدم وضع الحواجز والموانع ولا يتركوا إبهاماً إلا وأوضحوه للأمة ودعاهم لأن يكونوا شفافين وأن لا يخفوا شيئاً عن الأمة وأن يحترموا الصغير والكبير. وفي كتاب له دعى الولاة كي لا يتصرفوا بشكلٍ يولد الحقد في قلوب الناس ضدهم وعندما يتضجر الناس من تصرفات الحكومة على الحاكم أن يتحدث مع الأمة بصورة مباشرة[٤]، لقد تصرف الإمام علي مع الأمة بالتي هي أحسن وصبر على نكثهم وضحّى ما استطاع ذلك وعندما رأى ان الأمة لا تواكبه اضطر للسكوت وهنا نرى أنه كان يراعي حقوق الناس وفيما يخص الرأي العام كان يتعامل باحترام تام حيث كان يقول إنني كأحدكم[٥] ولم يغره المنصب وكان تابعاً للرأي العام إن لم تريدوا شيئاً فلن أفعل ولكنكم مخطئون وبعد حربه مع الخوارج عاد لتنظيم الجيش لمحاربة معاوية والقضاء عليه وعلى فتنته لكنه استشهد في هذه الأثناء فقد جمع مئة ألف متطوعٍ لحرب معاوية لكنه رأى أن بعض الأصحاب لم يكن مستعداً لذلك رغم تحذير الإمام لهم من أن المجتمع لن يصلح أمره إلا بالقضاء على معاوية وعندما صفى له الجو أبدل الخلافة الإسلامية إلى ملكية

١ . بحار الانوار، ج ٣٢، ص٧ـ ٨.

٢ . نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦.

٣ . راجع: قرب الإسناد، ص٩٦.

٤ . راجع: نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

٥ . راجع: نهج البلاغة، خطبة رقم ٩٢.

وراثية، لقد أراد الإمام القضاء على فتنة معاوية في حياته كي لا تنحرف الحكومة الإسلامية وأن لا تنتقل الحرب من معاوية إلى يزيدٍ وبالتالي يتورثها بنو أمية ومن بعدهم بنو العباس لكن الإمام توقف عن هذا الأمر، لأنه لم يكن يملك العدد الكافي من المقاتلين حيث قال الإمام في إحدى خطبه: «أف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا، وبالذل من العزخلفا، إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة يرتج عليكم حواري فتعمهون، فكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافرعز يفتقرإليكم ما أنتم إلا كإبل ضل رعاتها،. فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر، لبئس لعمرالله سعر نارالحرب أنتم تكادون ولا تكيدون، وتنقص أطرافكم فلا تمتعضون لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، غلب والله المتخاذلون وأيم إني لأظن بكم أن لو حمس الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس والله إن امرأ يمكن عدوه من نفسه يعرق لحمه ويهشم عظمه، ويفري جلده لعظيم عجزه ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره»[١]

أيها الحضورالكرام إن هذه الخطبة تعد خطبةً قوية لا يدري الإنسان أي جزء منها كوميدياً وأي جزءٍ منها تراجيدياً، الكوميديا التي فيها هي عبارة عن الأمة و التي تجبر شخصاً وتبايعه ليكون خليفة ويأتي الكبيروالصغيرالشيب والشباب الأصحاء والضعفاء الرجال والنساء جاؤوا إلى بيته زحفاً وعندما يقول لهم إن الظروف غيرمواتية وإنه يُرجح البقاء عضيداً للأمة يجبرونه على التصدي للمسؤولية ويُحملونه إياها هذا الجانب يبدو من كوميديا، أما الترجيديا فتكمن في أن الخليفة يظل وحيداً في الميدان ومن هو يا ترى، إنه حامل لواء العدل ينادي ولا من مجيب بعدها يقول للناس إن تقاعستم فلن أفعل وسأظل وحيد ميداني وفي خطبة له يحث الناس على عدم الاستسلام للإعلام المضاد والحرب النفسية والشبهات وعنها يقول: «وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى، فما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه»[٢]، ويحث الناس

١ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٤.

٢ . نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٨.

على عدم الخوف من الشهادة ويُحذر من يخاف الموت إنه سيموت وأنه لو لم يستشهد فإنه سيعيش آلاف السنين من استشهد رحل هذا اليوم ومن تخلف فلن يعيش أكثر من عشرةٍ أو خمسة عشرة عاماً.

أتذكر مقولة للإمام الخميني ﷺ خاطب فيها السيد رجائي عندما كان يُنفذ حكم رئاسة الجمهورية له في مراسيم متواضعة يقول له اعلم إن كافة الناس في هذه الكرة الأرضية أينما كانوا ومن أي اتجاه ميتون بعد مئة عام وفي المئة اللاحقة سيأتي أناسٌ آخرون وهكذا لم يبق أحدٌ ولن تدوم لأحد هذه الدنيا هذا هو معنى مقولة الإمام علي عليه السلام في خطبته من لم يمت شهيداً سيموت عما قريب ولن يظل احد خالد في هذه الدنيا[1] ويضيف الإمام علي أنه ذات يومٍ أخبره الرسول ﷺ عن خشيته على الأمة فيما بعد من المنافقين حيث قال: قال لي رسول الله ﷺ إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه وأما المشرك فيقمعه الله بشركه ولكني أخاف عليكم كل منافق[2]. وقال حول سبب محاربته معاوية إنه لم يستعجل قتاله لقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه وقلَّبت ظهره وبطنه فلم أرى لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد ﷺ[3]، لاحظوا أن الأمام عليه السلام يصف معاوية بالكفر، يقول أحدهم إن للكفر علائم مثل تكذيب الباري عز وجل والنبي ﷺ والقيامة و...، بالطبع هذه هي الدرجة الصريحة والعلنية منه، لأن أحد الأخوة سألني بالأمس أنه كيف يمكننا هضم مسألة أن الفريق الذي كان الإمام علي عليه السلام يحاربه كان يصلي؟ وللإجابة نقول: إن العبادة الشكلية في الصلاة اليومية أو الذهاب إلى الديار المقدسة لا تعني الإسلام، فماذا نقول إذاً في من يحارب أساس الدين وأصول المذهب والعدالة الاجتماعية وحقوق الناس والحدود الإلهية فهل يمكننا اعتباره مسلماً؟ هنا أعود وأقول وأؤكد أن الإمام لم يكن ينشد الحرب، بل كان ينشد السلام وكان يُداري الناس إلا إذا كان مضطراً نعم إلا إذا كان مضطراً هذا هو ديدن الإمام علي عليه السلام وقد استشهد من أجله سلام الله عليه.

أدعو الله أن ألتقيكم مرة أخرى في محاضرة أخرى وفي لقاء آخر إلى ذلك الحين أستودعكم الباري والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

١ . راجع: الامالي للشيخ الطوسي، ص ١٦٩.

٢ . راجع: نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٧.

٣ . راجع: نهج البلاغة، خطبة رقم ٤٣.

فهم البشرية للحرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا نبي الرحمة أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين.

توافقت الذكرى السنوية لرحيل العلامة آية الله الجعفري مع ذكرى رحيل الأستاذ العلامة الطباطبائي ولا أرى أن هذه المجالس هي للفاتحة على أرواح هذه الشخصيات وكل مجلس للذكرى يعد في حقيقة الأمر جلسة إفتتاحية مجددة لهاتين الشخصيتين العلميتين. وعلينا في هذه المجالس أن نفتح ملف أفكار وخدمات هذه الشخصيات على الدوام.

وبتصوري أنه يستحسن أن نسلط الضوء على أبعاد شخصيته الفكرية بدل الحديث عن أبعاد شخصيته الذاتية.

لقد كان المرحوم الجعفري شخصية ربانية موحدة ومحببة لدى الأمة واسمحوا لي هنا أن أستعير تعبير أحد الأساتذة حول المرحوم الأستاذ محمد تقي شريعتي حيث وصفه بسقراط خراسان، وما قدمه هذا المرحوم كان كبيرا للأمة وأظن أن قلائل كانوا يستحقون هذا اللقب من بينهم العلامة الجعفري فهو الشخص الذي كان كسقراط على مدى عدة عقود يقدم الخدمات العقلانية الدينية في البلاد وكانت نتاجاته تتجاوز ٨٠ مؤلفا ومصنفا مطبوعاً، وهناك ٦٠ لم تتم طباعتها بعد.

بالطبع لم تؤثر الكمية على النوعية في آثاره وهذا أمر قل ما يستطيع حملة أصحاب النظريات والمفكرون الذين عملوا على مدى عدة عقود وأنتجوا كل هذا الكم الهائل من

الآثار دون أن يكون ذلك على حساب النوعية أو لا يتخلله رأي يناقض ما كتبه أو قاله قبل ذلك أو أن ترى كلاما سطحيا عابرا أو تكراريا أو غير قابل للفهم أو الدفاع أو أن مقولة كان ينبغي أن يقولها ولم يفعل ذلك.

بالطبع لا يحق لنا الوصف بهذه الطريقة، لأنه من اختصاص المعصومين وحسب.

لقد تشعبت الموضوعات التي طرقها العلامة الجعفري بدءاً من الفلسفة والمنطق والرياضيات والنجوم والفقه والأصول والكلام والعرفان والتفسير والحديث والرجال والدراية إلى الشعر والأدب والرواية، وقد جعلت هذه العلوم منه إنسانا عالميا، وقد منحته الفلسفة الشرقية والغربية التي ألم بها وسعة وبسطة في الرأي، وكان في صلابة موقفه كالرياضي وفي لطافة روحه كالعارف السالك.

لقد حمل ١٠ أشخاص الفكر المعاصر الديني في إيران خلال نصف القرن الأخير على عواتقهم، وقد تلقى جيلنا الحالي الإسلام من أفكار هؤلاء.

في مقدمة هؤلاء يتصدر المرحوم الجعفري صدارة القائمة المذكورة. لقد علمنا هؤلاء كيف نفهم معنى العدالة والعقلانية والإنسانية وحقوق الإنسان في ظل الدين والمعارف والمفاهيم الدينية وليس خارج حوزة الدين أو التعارض معه، وأشاروا إلى متاهات التحجر والتقاط الأفكار في موضوع الفهم والدرك الديني، وكان لهم الأثر الأكبر في إدراكنا وفهمنا. لقد اهتدينا بهم إلى مسألة الحوار الديني في واقع الثقافة والتدين المعاصر خلال نصف القرن الأخير.

وكان هؤلاء في الواقع هم من تصدى ومن نقاط مختلفة ومنطق معرفي متنوع تصدى للأمر وقاموا بثورة علمية وركبوا لنا قطعات البازل (elzzuP) المختلفة أمامنا وكان عنوانه في ما بعد الحوار الإسلامي في ميدان المباحث الثقافية المعاصرة. طرحوا لنا الدين في إطار معتقد متجانس وجامع وهيأوا لنا معسكرا من الفكر الإسلامي ورغم أن المئات جاؤوا في الترتيب بعد هؤلاء المفكرين الكبار لكنه يمكننا القول إن الفضل الأوفى يعود إلى هؤلاء الجنرالات الفكريين العشرة والمرحوم الجعفري أحد هؤلاء المفكرين، حيث كانوا من منظري وصناع وقياديي الحوار الإسلامي المعاصر، منحونا نحن الذين كنا في معترك الأفكار الماركسية والليبرالية والوجودية والقومية وأنواع المدارس الفكرية المستوردة، وهكذا منحونا الهوية الدينية التي يمكن الدفاع بواسطتها، وعرفنا موقعنا وما هي المشتركات وأوجه التمايز

بيننا وبين الآخرين ومتى ينبغي أن نبحث عن المشتركات مع المدارس الغربية والشرقية ومتى ينبغي أن نحصن مواقعنا حتى لا يكون هناك خلط بين الفكر الديني وبين الماركسية والليبرالية وسائر المدارس الغربية والشرقية.

إن ما فعله هؤلاء أمر كبير للغاية ونحن مدينون لهم. لقد وضعوا أمامنا دينا معرفيا وعقلانيا من جهة و دينا تربويا واجتماعيا من جهة أخرى. وأود في هذه الذكرى السنوية لرحيل العلامة أن أثبت نقطة وهي أن رحيل هؤلاء العظماء وإحياء ذكراهم هو في حد ذاته مدعاة لإنطلاقة حياة فكرية وهنا أريد التحدث عن قضية الحرية وقد إخترت هذا الموضوع لسببين حتى أسعى للإجابة على بعض التساؤلات أثناء الموضوع أيضا، الأول أن الحرية تعد من المواضيع الرئيسية التي تحمل معها عشرات المواضيع الأخرى ولن يستطيع أحد خوض غمار المعرفة أو الأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة أو الحقوق إلا وكان له تماس ما مع قضية الحرية وينبغي أن يوضح نسبة ذلك مع قضية الحرية. السبب الثاني يكمن في أن النظرية التي طرحها المرحوم الجعفري وعدد آخر من عظماء المفكرين في موضوع الحرية وحرية الفكر والمعتقد ذكروا أن هذه النظريات أصبحت في عالم الفلسفة في موضع المعارضة، أي أن الفلسفة باتت مثل السياسة لها معارضة وذلك في إطار الفلسفة الحاكمة في باب حقوق الإنسان والمباحث المرتبطة بثقافة الحرية، فهذه النظرية الرسمية باتت حاكمة في كل الدنيا والمحافل الثقافية والكل يعرف هذا الموضوع.

وأصول هذه الحرية هي ذات أصول الليبرالية الرأسمالية، أما النظرية التي طرحها المرحوم الجعفري وآخرون في باب الحرية الإسلامية من منظار فلسفي فهي لا محالة في حالة تعارض مع الفلسفة الغربية الحاكمة اليوم في الدنيا من جهة حقوق الإنسان والحرية بصورة عامة.

سأبدأ البحث من أكثر الموارد شهودا في قضية الحرية وأعني بها الحريات السياسية والاجتماعية وأحاول خلال ذلك أن أشير إلى ما قاله المرحوم الجعفري وعدد آخر من كبار المفكرين المسلمين في هذا الباب، وسأخوض في أربع أو خمس نقاط في باب الحرية.

الأولى: أن الحرية ليست أمرا قابلا للمناقشة، فإن مبدأ المواجهة مع الحرية تتضمن مباحث ومفاهيم ومعارف واسعة في باب الحكمة النظرية والحكمة العملية، فليس هناك إنسان شريف يفضل العبودية على الحرية والدكتاتورية على حرية الإنسان. فبدون الحرية

ليس هناك معنى للمسؤولية، وليس هناك تصورا للإبداع لا الفردي ولا الجماعي، ولن يكون هناك مجال للفعالية والمنافسة، وأن المنافسة الإيجابية صوب الكمال تنعدم في المجتمع الذي لن ينعم بالحرية.

إن الحرية هي التي تمنح الإنسان حس المسؤولية والإبداع والمنافسة ولن يكون هناك معنى للإنسان دون ذلك. وعليه، فإن مفهوم الحرية مخلوط مع مفهوم الإنسانية، وعليه، فإن الإنسان غير الحر والمجتمع غير الحر لا يفقد فيه الإنسان الحرية وحسب، بل يفقد إنسانيته أيضا، لأنها تكون تحت الضغط والتهديد، والإنسان غير المبدع يعاني من مشاكل حقوقية وإنسانية، وعندما تسلب الحريات الاجتماعية فلن يستطيع أي مجتمع أن يكون متجانسا ولن يمضي صوب الكمال.

و لا شك فإن الكمال الذي يبتغيه الأنبياء ينبغي أن تسبقه حرية ما، بالطبع فهذه الحرية تختلف عن الحرية التي ينادي بها الغرب، إنها الحرية التي تأتي متناسقة مع الدين أي الحرية التي تسبق الدين والدين الذي يسبق الحرية وكلا العبارتين صحيحة.

لقد تم خلط المبحث، الحرية ليست بالكشف الجديد الذي أطلقه المثقفون، فالبعض يرى أن الحرية هي من اكتشافات الفترة التاريخية المتأخرة، أي كالكهرباء خلال المائتين والثلاثمائة عام الأخيرة، فهل يا ترى أن الروح الإنسانية لم تكن تخبر الحرية؟ ولكن إذا كانت الحرية لا تتعارض مع القانون والأخلاق فهذا الأمر ليس بالكلام الجديد، لأن القانون جاء لتنظيم الحريات وفي نفس الوقت فإن القانون جاء لضمان الحرية أيضا، أي تنظيم الحريات وضمان الحرية.

بالطبع فالقانون والأخلاق يقفان بوجه بعض الحريات، لكن الحريات العامة ينبغي أن تكفل بواسطة القانون والأخلاق، وفي هذا الأساس فإن الإنسان يكون مسؤولا عن تصرفاته إذا كان مسؤولا عن أعماله. إنه يقوم بكامل حريته بعمل ما. ويمكن لهذا الإنسان أن يكون مسؤولا عن أفعاله، أما الإنسان الواقع تحت الإستبداد فهو تابع وليس مالكا لنفسه أو أفعاله ولن يكون مسؤولا عن أعماله لأنها ليست من فعل إرادته.

و الإستبداد ضد الشخصية، الإستبداد يعني تضخما في الشخصية في مواضع محدودة وفقرا شخصيا في بقية النقاط المجتمعية. وبدون الحرية فإن تبلور الشخصية إما محال أو

صعب للغاية في المجتمع وبغيابها فإن العقل الإنساني سيضيع، وعندما يكون عقل الآدمي مسلوب الحرية فإنه لا يتفاعل ولن يعمل بصورة صحيحة. وفي غياب الحرية فإن إرادة الإنسان تفقد نشاطها خاصة حرية التعبيرعن الرأي والتي تعد نسيما يلامس الإنسان ليبعد عنه الخرافات، وهكذا فإن الحرية ليست في صالح الإنسان وحسب بل هي في صالح الحكومات أيضا.

و بواسطةالحرية يمكن إختبار الحكومات والمسؤولين، وعبر الحرية يتم إختبار وتقويم أصحاب القدرة والثروة ومن خلالها تعرف نسبة إنحرافهم وطغيانهم وفسادهم وإن لم يكونوا يخشون الله فإنهم سيخشون شعوبهم وبخلافه فإن حكوماتهم ستزول. والحكومات التي لا تؤمن بالله ولا تنفذ رغبات الأمة ستكون لئيمة تعبد نفسها ومن خلال ذلک فهي مجبرة على القيام ببعض الإصلاحات وهذا من فوائد الحرية، الحرية التي يضمنها ويدعو لها الإسلام. وهكذا فإن إنعدام الحرية يعني أن الحكومة ستكون قادرة على خداع الناس بشكل أسهل.

و من تحدث بالديالكتيک والحرية فهو مصيب إلى هذا الحد، أي أن الحكومات لا تستطيع أن تفهم بدلا عن الشعوب، وهذا أمر ضروري للحكم واستمراره. عليه، إن أرادوا البقاء فإن عليهم أن يكونوا على وفاق مع الأمة على أساس الإسلام والتعاليم الدينية. ولا ينبغي أن يكون الأفراد بل لا يحق لهم أن يكونوا في إطار تشكيل مجتمع ما متملقين ومستسلمين، وعلى الجميع أن يمضي بإتجاه إقامة مجتمع إسلامي، أي مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقوم بالقسط وعندما تكون الحرية موجودة في المجتمع الديني فإن إتخاذ القرار في الإقتصاد والثقافة والسياسة سيكون سليما وعقلانيا.

و عندما تكون الحرية موجودة فإن الساسة يدركون أخطاءهم على الفور ويسهل التعامل لإصلاحها، وعندما تنعدم الحرية يزداد النفاق والتغطية على المساوئ في السياسة والإقتصاد الحكومي. وتزداد التشبيهات والإستعارات في ثقافة المجتمع وهي خصال غير إسلامية. وهنا يتبين أن المجرمين والضعفاء غير اللائقين يخشون الحرية.

الحرية التي ندعو لها ليست حرية مطلقة، إننا نتحدث عن حرية مقيدة بقيود إسلامية. الحرية ليست دائما تعود على الصالحين بالضرر، وإذا ما تم منح الحرية وفق الضوابط فإن

الإسلام الذي جاء لتحرير البشر سيمضي في طريق الحقيقة والفضيلة والعدالة وكل يشير إلى حوزة معينة، حيث تشير الحقيقة إلى حوزة المعرفة والفضيلة إلى حوزة الأخلاق والعدالة إلى حوزة التصرفات الفردية والإجتماعية.

و علينا وفي إطار إحترام الحرية أن نراقب بأن لا تمنح الحرية حالة رومانسية أو إفراطية أو صحفية، أي إن الحرية إذا ما تجاوزت حدها المنطقي والأخلاقي فإنها ستتجه إلى المآرب النفسية السيئة وستفقد الحرية كل المداليل والمصاديق النافعة وستعود على المجتمع بالضرر وتقف حائلا لنموه وكل زيادة في مفهوم الحرية في النظريات والتطبيق سيؤدي في نهاية المطاف إلى نفي للحرية. وقد لاحظتم نماذج في تاريخ إيران البعيد والقريب.

إن شرف وتلألؤ الحرية يكمن في الإعتدال الذي ينبغي أن يلحظ في ماهية الحرية، وبخلافه فإن الحرية بلا عدالة هي عين الظلم والمستبد من يفرط في إستخدام الحرية أو يريدها لنفسه ويفرط في ذلك، ويستفيد من الحرية دون مراعاة لقواعد وقوانين الحرية.

الإستبداد يعني الحرية المبالغ فيها في حق المستبد ذاته ولا فرق بين الإستبداد الفردي أو الجماعي، ولا فرق بين أن يقوم ذئب بإفتراس الإنسان أو تهجم عليه آلاف الجرذان ولا فرق بين الإستبدادين في النتيجة. هنا يتبين لنا أن الحرية هي من أركان نظرية الثورة الإسلامية وهي مطلب أصلي بالنسبة لنا وأنها ليست مطلبا عارضا.

إن شعار الحرية لم يطرح على أساس الثقافة الحاكمة في تلك الفترة التي سبقت إنتصار الثورة أو من أجل إرضاء الآخرين، بل إن كافة أبناء الشعب لهم نظرة واحدة بخصوص الحرية تتجلى في أنها هدف وحق ديني مسلم. وعندها فإن هذه الحرية لن تتقاطع مع الإسلام والكل سينشد الحرية في إطار حوار إسلامي. وليعلم معارضو الحرية أنها حق إسلامي مسلم به، وهم يعارضون بذلك بيان الحرية من منظار إسلامي ويعارضون تعريف أصل الحرية في المجتمع فإن الإسلام جاء لتعريف الحرية وضمان الحريات الإجتماعية للأمة سواء الحريات السياسية أو الإقتصادية أو الثقافية، وعليه، فإن أي درك لمفهوم أو مصداق للحرية يتعارض ومحكمات ومسلمات الفكر الديني فإن ذلك يعد في نظرية الجمهور تعارضا مع الحرية.

وعندما نعرف الحرية على أنها جيش إسلامي وعندما نقيم لكل حرية مثل أي قيم

أخرى وأي حق آخر من حقوق الإنسان وزنا ومنهجا غير موضوعي وأرجو الإلتفاتة إلى أن كل تعبير من هذه التعابير جاء بعد نقاش فلسفي في مفاهيم الحرية والحقوق. وهناك في الأساس بحث مازال جاريا وهو هل أن للحرية منهجية أو موضوعية؟ وهل أن للحرية هدف؟ أم واسطة؟ أم هدف نهائي؟ أي هل إنها وسيلة أم هدف؟ وإذا كانت وسيلة فهي معدة لتحقيق أي هدف كان؟

وإذا كانت القيود التي يضعها أي نظام سياسي للحرية فإنها لا جرم تأتي وفق نظرية يضعها ذاك النظام السياسي. وإذا نظرنا إلى الحرية ولكل حق آخر من حقوق الإنسان على أنه قيمة دينية ذات منهجية خاصة لا موضوعية فلن يعني هذا أننا نريد إيجاد مضاد للحرية لأن لا شيء يصبح مضادا للحرية غير نفي الحرية.

إن وسيلة رؤية الحرية تعني أنها الشيء الوحيد المطلق هو الإنسان، أي فلاحه وكماله وهو المطلق، وكل حقوق الإنسان وكل الحريات وكل الحقوق والحدود وسيلة لوصول الإنسان إلى هدفه النهائي أي كماله وسموه. ويبدو أن هذا الهدف النهائي المطلق، ولن يحتمل أي قيد وسموه غير مشروط، مشروع بذاته وهو يمنح باقي الحقوق والتكاليف والقيم المشروعية ويجعلها جميعا مشروطة، ويمتلك حق نقض الحرية ويمكن لهذا الهدف النهائي أن يعطل الحرية لا بل يمكنه أن ينقض بعضا من تكاليفنا، لأن بإمكان الهدف أن يختار الوسيلة، وكل شيء غير الهدف النهائي له قيمة محددة ونسبية، وعليه، فإن كافة الحقوق والمسؤوليات الإنسانية ذات قيمة محددة ومنها الحرية.

هذا لا يعني أن نعدها وسيلة أو أداة نلقي بها جانبا، إنها وسيلة حصرية، وهي وسيلة لا يمكننا بدونها تحقيق الهدف المنشود ولا يمكن لمجتمع أن يكون مجتمعا دينيا دونما حرية.

وهناك يتم تعريف الحرية من قبل الدين. الحقوق والحدود البشرية بواسطة الدين، وفي ذات الموقف فإن هذه الوسائل معطوفة على الهدف، وكل ما حصل نقص نوعي وكمي في الهدف النهائي فإن الهدف الأصلي سيتعرض للطمات.

وعندما يلاحظ الإنسان أن حقوقا ما تفرض نفسها على حقوق أكثر أهمية فهذا من الأسرار. وهناك منافسة مهمة للغاية في فلسفة الحقوق، ولماذا تتم سيطرة نوع من الحقوق على حقوق أخرى مما يتم أحيانا تعطيلها، أي إن بعض الحقوق تكون أبرز من غيرها، وما

هو السر في ذلك؟

هذا يعني أن على الإنسان أن يتقبل النظام الحاكم على الحرية وحقوق الإنسان، وهذا الأمر لا يعني نفي قدسية الحرية أو ضرورة أي من حقوق الإنسان، وهذا كشف مهم للغاية.

لقد أشار المرحوم الجعفري في آثاره إلى هذا الموضوع عدة مرات وبكل دقة وغيرة على الدين. كان واضحا من تعابيره أن هذا الإنسان يعاني من أمر ما، ذلك أن مسألة مهمة ما تزال مغفولة بين فلاسفة الحقوق وفلاسفة الأخلاق وفلاسفة السياسة مع أنها من أهم القضايا. وهنا تبين لنا أن كون الحرية وسيلة لا تتنافى مع كونها حق، وبما أننا نرى أن الحرية هي ضرورة لذلك الحق الذاتي، وعلى هذا نقيم للحرية قدسية دينية.

و نقول إن الحرية حق مقدس وشرعي وأن شهداء الحرية شهداء الدين، وعندما نقبل هذا التعريف والمنهاج عن الحرية وضمائم الحرية ونتائجها ومنهجيتها ومبانيها النظرية، عليه ينبغي التعرف على الموضوعات ذات القيمة وغير ذات القيمة.

لا نقصد بذلك الإستهانة بالحرية. النكتة الأخرى في هذا الموضوع لا ترتبط بالمجتمع المعاصر أو القديم وحق وحقوق الناس، ولن يبطلها مرور الزمان والأيام. روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «فإن الحق القديم لا يبطله شيء[١]» حتى بتقادم الزمان وإن كان للبشر حق فهو له على مدى الدهور، وإن كانت له حدود فهي على مدار الأيام، ولا ندري من أين خرجت علينا مسألة حقوق الإنسان في الغرب دفعة واحدة؟ وما هو المقصود منها؟ وهذا يعني أنه لم تكن للبشر حقوق من قبل، وهؤلاء عندما يقولون إن حقوق الإنسان عبارة عن عقد مكتوب فهذا يعني أنه لم تكن للإنسان حقوق قبل هذا العقد، وأن حقوق الإنسان رهينة بصيغة العقود، وعليه، فحقوق وحرية الإنسان رهينة بالمصالح، وهي قابلة للحذف في الظروف المختلفة نظريا. وهذا الأمر لا يعد خدمة لحقوق الإنسان بل هو تعطيل لكافة حقوق الإنسان وكل الحريات.

لقد كان هذا الأمر بمثابة واحدة من الجرائم التي نفذها المذهب الوضعي في حق الإنسان وحقوقه وحريته. وهنا ينبغي علينا الإلتفات إلى موضوع الحرية بشكل صحيح، وإذا تم ذلك فإن كل النقاشات النظرية حول الحرية ستنتهي إلى حل سريع. وهناك أربع أو

---

١ . شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١، ص٢٦٩.

خمس مغالطات يطرحها المثقفون على النمط الغربي في أوساط المجتمع والصحافة فإن تم إلتقاطها بصورة ظريفة فلن يبق هناك إختلاف حول موضوع الحرية. اللهم إلا الخلافات السياسية والحزبية، وإذا نظرنا إلى الحرية من هذه الجهة ستكون الحرية مقبولة إنسانيا وستلق أصولا فلسفية قابلة للدفاع وستلق إنسجاما مع سائر حقوق الإنسان ولن تكون عندها الحرية آلة يبتغى من ورائها أهداف أخرى.

وإذا نظرنا إلى الحرية من هذا المنظار فلن تكون هناك مناقشة بين الحرية والعدالة، وأيهما مقدم الحرية أم العدالة؟ هذا النقاش والبحث سيكون له واقع في حال لم تتضح الحرية أو تلق المقبولية.

إن نقاش المساواة مع الحرية ومناقشة الإشتراكيين مع الليبراليين كانت عملية دعائية لا أكثر، حيث خدعت البعض في إيران، لكن مفهوم العدالة في الحوار الإسلامي يعني إحقاق الحقوق. وفي الفكر الليبرالي يقولون إن شيئا واحدا هو الذي يحدد الحقوق، الحرية الشخصية محدودة بحرية الآخرين، أي إن حقوق الفرد محدودة بحقوق الآخرين، أي إن الحرية وحقوق كل إنسان محدودة بحقوق وحرية الآخرين وبتكاليف الشخص بغض النظر عن الآخرين. حيث إن للإنسان بإعتباره إنسانا تكاليف، والتكليف يتلخص في جانب منه في أداء حقوق الآخرين.

والقسم الآخر يرتبط بعلاقته مع الله ومسألة الكمال الإنساني، عندها يكون الإنسان مسؤولا ويصدق هذا الأمر في باب الحريات الأخلاقية وتلك التي تدخل في إطار الحقوق الفردية لأن خصوصية الفرد والعموم تعد من مباني الفكر الليبرالي والإسلام يؤكد على هذه القضية بالتحديد فهو يرى أن الإنسان ينبغي أن تكون له خصوصية لا ينبغي التطاول عليها ولا التجسس عليها.

بالطبع هناك إختلاف بين تعريف الإسلام للخصوصية الفردية والعامة. لقد عرف هؤلاء الخصوصية الفردية بشكل بات كل متحدث عن حاكمية المبادئ في الحكومة والاقتصاد والسياسة والاجتماع يتعرض إلى حملة شعواء منظمة.

ويقولون إن هؤلاء يريدون حكومة العقل المركزي وهم يفتشون عن وزارة الحقيقة وترون هذه المباحث مطروحة في ترجماتهم. إنها حجة لمعارضة أي نوع من الانضباط العقلاني

والأخلاقي والحقوقي في دائرة العلاقات الإنسانية والاجتماعية.

إنهم يطلقون التعابير في هذا المسير، وكذلك يطرحون البيانات السياسية، لكنهم في الحقيقة ينشدون الإباحية والتنظير له. ومن دواعي السرور أن هذه الأفكار لم تتقدم في إيران وقد تراجع عنوانها وبريقها.

النكتة الأخرى، أعزائي الحضور، أن قضية الحرية الفكرية التي أفرد العلامة الجعفري بحثا مستقلا لها وإعتبرها تدخل في باب بحث حرية البيان سأشير لها بصورة عابرة ويمكن للإخوة مراجعة ذلك في مباحث العلامة الجعفري في باب حرية الفكر وحرية البيان، وقد أورد ذلك أيضا في شرح نهج البلاغة، و في كتابه «حقوق الإنسان التطبيقية بين الإسلام والغرب».

لاحظوا إن حرية الفكر حق شرعي وإسلامي خاصة في الموارد التي يطلق عليها اسم الحق، وهذا الحق يتأتى من خلال كونه إختياريا والتفكير بعد ذلك عندما يكون إختياريا يمكن أن يكون مرتبطا بالحق أو الحد، أي يمكن أن نأمر وننهى ونكتب القانون حول هذا الموضوع.

إن حرية الفكر يمكن، ومنذ تلك اللحظة، أن نكتب قانونا بخصوصها ومنذ تلك اللحظة هي حق شرعي. والفكر يحد بالمنطق وحسب وليس بأية وسيلة أو شيء آخر، والمنطق غير مقيد بشيء إلا بنفسه وعليه فإن الفكر حر بالتأكيد. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يحد الفكر هو المنطق. وللأسف فإن الفلسفة الغربية المتأخرة أجهزت على المنطق، وعليه، فليس هناك في الغرب من يتجه نحو التفكير وبات الأمر محل تعجب وإستفسار، وبات موضوع البرهان وأصل البديهيات وأساس التصديق والتصور، وعلم الحضور وعلم الأصول في موضع تساؤل وإستفسار.

ويتساءل المرحوم الجعفري عن مجموعة الأوامر الشرعية التي تشير إلى التعقل وهي كثيرة والتي تدعو البشر إلى أن يكونوا ذوي شعور وأن لا يصبحوا غير مبالين وأن لا يركنوا ويتركوا الحبل على غاربه. وهذا الأمر بخصوص التدبر والتعقل أمر مطلق. التفكر في كل شيء قابل للتأمل والتفكير وله فائدة دنيوية وأخروية، أي فائدة عقلانية للفرد والمجتمع. ولا يمكن فرض الفكر على الإنسان قبل هذه الحوزة ولا بعدها بقليل. وكل من يتصور أن

هذا الأمر ممكن فهو واهم، ولا يمكن لأحد أن يفرض الأفكار على الآخر بل ينبغي تعليمها وعندها يحسن الإنسان الاختيار.

بالطبع فإن للفكر طريقته وقانونه ومنهجيته، كالحرية المطلقة التي تحدثنا عنها. فحرية الفكر تشبه ذلك أيضا. وهنا يخوض العلامة الجعفري في أحد مباحثه حول الهدف والموضوعية من الأمر ويقول إنه يمضي لكشف الحقائق والمعرفة. وأن الفكر وسيلة وطريقة إلى المعرفة.

إن الفكر وبغض النظر عن نتيجته هو عبارة عن تحريك المفاهيم في ذهن الإنسان وإقامة ارتباط ذهني بين هذه المفاهيم دون ما انتظار نتيجة أكبر من الهدف من مجرد التفكير. إنه تصويب بلا هدف ولا نتيجة وعليه فلا قيمة منطقية له ولا قيمة إنسانية، وينبغي تحويل الفكر إلى مجرد لعبة دون مقاعد، لعبة بلا حكم ليقول أحدهم ليس معلوما أيهما حق وأيهما باطل.

هل تعلمون ماذا يعني هذا؟ يعني الدعوة إلى غلق باب المعرفة والعقل، وإن لم يكن هناك معنى للحقيقة، فالحقيقة تعني أن أي نوع من الدرك والمعرفة والحركة صوب الحقيقة باب مغلق أساسا. وطبقا لما قال المرحوم الجعفري إنه بمثابة تحريك قطعة شطرنج واحدة لكل العمر.

و المبحث الأخير الذي أستقيه من أفكار المرحوم الجعفري وأختم به محاضرتي هذه: لو افترضنا عدم وجود حرية البيان فإن الكثير من الحقوق ستكون مكتومة، ربما استدل أحدهم أن في عدم وجود حرية البيان ربح للإنسان، لأن كلام الباطل سوف لن يطرح، ربما كان هذا صحيحا، لكن الأضرار ستكون أعظم وهي أن الكثير من كلام الحق سوف لن يطرح. وإن تم التشكيك بحرية البيان فإن الكثير من الأمور الحقة ستكتم إضافة إلى حديث الباطل.

و أقول لكم هنا، أنه إذا تم خلق أجواء بات قول الحقيقة معها محدودا فإن هذا لا يعني أن كتمان حقيقة واحدة سيعني أن باطلا واحدا سيظل مكتوما، لا بل سينمو الباطل وينتشر بفضل كتمان الحقيقة الواحدة والباطل ينمو سريعا كالعلف الضار بالزراعة. وعليه، فإن الضرر الذي سيلحق بالحق سيكون أكبر مما سيلحق بالباطل، ذلك أن جواب الأسئلة

المختلفة ليس موحدا، فلكل سؤال جواب خاص به.

وعليه، فنحن بحاجة إلى حرية البيان، لأننا بدون حرية البيان لن نكون قادرين على التفكير ولا الانتخاب، وسنفقد جرأة الفكر. هذا هو جانب واضح من القضية.

لكن الجانب الثاني الذي أشار إليه المرحوم الجعفري، وأرجو الإلتفات إليه، أن الحرية في البيان والكلام ولكن هل هذا البيان صحيح أم خاطئ؟ هل هو لمصلحة البشر أم لا؟ لأننا نبغي حرية البيان بغض النظر عن ماهية المحتوى.

هناك من يتصور أن كلامه مهم جدا، مثلي أنا، وإن لم يفرغ ما في جعبته ويقول ما عنده فإن فلسفة الحياة بالنسبة للبشر ستفقد معناها وهذا نوع آخر، وهناك قسم آخر يوفر المال لنفسه من خلال الحديث إلى الناس، ومثل ما يقول المرحوم الجعفري، إن هؤلاء يتحدثون من أجل الحديث وليس من أجل أن يلتفت الناس إلى ما يقولون أو من أجل إحقاق الحق أو إبطال الباطل والدفاع عن حقيقة والإجابة عن سؤال. إنهم يريدون أن يلتفت الناس إليهم وهم يتحدثون، لأنه ليس هناك طريقة أخرى ليتوجه إليهم الناس، إنها نوع من الرسملة ونوع من جذب المشترين بغية الانتفاع وليس عندهم مهما أن تقول شيئا بعينه، المهم أن تقول شيئا فقط. ليس مهما أن يكون حديثك مؤثرا في الأخلاق والحقوق والسياسة.

يذكر العلامة ما نصه أن هؤلاء يمسكون بتلابيب المستمع ويهزونها لكي يجذبوا إنتباه المستمعين إليهم. والمجتمع يدفع تكاليف هذا النوع من حب النفس المتراكم عند المتحدث والكاتب.

إن الحرية المطلقة في البيان تعني أن المستمعين والقراء هم ضحايا المتحدثين والكتاب، وذلك إرضاء لهم، وليس مهما ماذا يقولون وماذا يكتبون، وهذه أكبر إهانة لكل الكلمات ولكل المفاهيم الإنسانية، ونضع عليها اسم حرية البيان عليها للأسف.

إن تكاليف عمليات غسيل الأدمغة البشرية ينبغي أن تدفع من أموال الناس، فهؤلاء يرون أن أذهان الناس ملك لهم، ويتصورون أن بإمكانهم فعل أي شيء مع ذهن وروح وفكر الناس. إن من يدافع عن حرية البيان المطلقة يدافع عن هذا النمط من التفكير، وهو في الظاهر يدافع عن البيان وحرية البيان، لكنه في الواقع يدافع عن حرية وإطار الروح و القلب

ويهين المستمعين والمخاطبين.

إن من يقول إن بإمكانه أن يقول ويكتب ما يحب، وله الحق في ذلك، فمعنى ذلك أنكم، أيها القراء وأيها المستمعون، لستم ذي قيمة لا في شخصيتكم ولا في وقتكم ولا في حياتكم. عليكم أن تستمعوا لما أقوله وتقرؤوا ذلك، إنني أستطيع الوصول لكل ما أريد، لا حدود لكم كي أراعيها. هذا هو معنى حرية البيان المطلق، يعني أن الرأي العام لا حرمة له وأن الحديث ليس مؤطرا بقانون وحدود، وعليه، فالإستماع مجاني أيضا.

هناك مثال جميل ذكره المرحوم الجعفري حيث يقول نرى أن قرصا من دواء الزكام الذي يعرض في الصيدليات ينبغي أن يخضع لعشرة أنواع من نظام المواصفات والقياسات، فهل أن نظرية فلسفية أو حقوقية أو أخلاقية أقل أهمية من قرص دواء للبشرية؟ هل ينبغي أن يكون للدواء نظام مراقبة ولا يكون بالنسبة للنظريات الفلسفية؟ وعندما يحقق الإنسان في السبب يرى أن هؤلاء ينظرون إلى الإنسان على أن الجسم هو محوره الأساسي وأي شيء يضر أو ينفع الجسم فإنهم لا يتسامحون في ذلك، ولكن كل ما يتعلق بروحه وشخصيته وتكامله المعنوي الإنساني وبعقلانيته وبروحانيته فهو أمر يتم التساهل فيه.

هناك تسامح مطلق ولا ينبغي وضع أي قانون أو إطار في هذا المجال، وكل من يتحدث عن التكليف والحدود والمسؤوليات فإنه يتجاوز على حقوق الإنسان.

ويظل السؤال المطروح هل أن كل الأفكار التي طرحت ولم تكن لائقة وأوصلت البشرية إلى حافة الهاوية أصلها فكرة؟ ألم تكن الفاشية فكرة؟ ألم تكن العنصرية فكرة؟ ألم تكن عملية وأد البنات في الجزيرة العربية ثقافة؟ وكان لهم استدلالهم ونظريتهم حتى أن البعض استدل بما وراء الطبيعة واستدلوا بالطبيعة والاجتماعيات، وكان للعرب استدلالهم الاقتصادي في وأد البنات وقالوا إن البنت غير منتجة إذن فموتها أفضل، أليست هذه نظرية؟

وإن قال أحدهم بحرية البيان المطلق فهذا يعني أنه ينبغي أن نسمح بظهور الفاشية والعنصرية ووأد البنات وكل الجرائم الإنسانية والتبليغ لها دون أي رقابة تذكر، ألم يتم في عالم اليوم التنظير للممثلين جنسيا؟ ونشاهد اليوم ظهور الأكاديميات في الولايات المتحدة وأوروبا ويبقى هؤلاء يروجون لكافة أنواع الثقافات، والحجة المعدة سلفا أن الحكومات تخشى من تحول هذه الممارسات إلى تنظيمات سرية.

كيف يتم إدارة المجتمع وتحت أية يافطات واستدلالات؟ حتى لا تتحول هذه الممارسات إلى سرية، أي أن نسمح لهم بتعبئة قواهم في المجتمع وبتشكيل تنظيمات علنية خوفا من تحولهم إلى منظمة سرية. أقول نحن نريد أن يتحول هؤلاء إلى تنظيمات سرية ولا ينبغي للمجتمع أن يسمح للعنصرية والفاشية وأنواع الانحرافات الأخلاقية بالظهور العلني والتنظير للفساد بمسميات مختلفة.

ينبغي الرد على هذه التنظيمات ولا ينبغي ترك هؤلاء أحرارا.

بالطبع لا ينبغي أن نبدأ بالحرب معهم، علينا نصيحتهم والتكلم معهم بالمنطق، ولكن عندما ينتهي دور الكلام ينبغي أن لا نسمح لهم بفرض أفكارهم على المجتمع تحت يافطة نفعل ذلك حتى لا يتحولون إلى الحالة السرية وأن الحرية ستتلكأ، ليكن ذلك لأن هناك شيئا يتعرض للأذى هو أهم من حرية البيان ألا وهي حقوق وفضائل وأخلاق الناس.

ألم يكن مقررا أن يكون الإنسان الهدف، لا البيان، وكان من المقرر أن يكون البيان وسيلة لذلك الهدف، والهدف لا يمكنه أن يحد الوسيلة ويجعلها مشروطة.

هذه قاعدة في كل مكان، هناك الكثير من الثقافات والأخلاقيات اللاإنسانية ينبغي الرد عليها ولا ينبغي السماح لها بالتحول إلى رسمية ولا الترويج لها كي تصبح علنية تنطلق في الشوارع فإن كانت في البيوت وفي المحافل الخاصة أو بشكل سري في الأقبية عندها لن يكون الأمر مرتبطا بأحد، ربما أراد أحدهم فعل شيء منكر تحت كل مسمى عندها لن يكون هذا الأمر مشكلة المجتمع، إنها مشكلته هو، ينبغي وضع أطر لتنظيم ورعاية المجتمع.

وأود أن أختم حديثي بالقول إن كل أدوات الدمار الشامل في العالم وكل المذابح التي ترتكب وكل التمييز وكل الفواصل الطبقية وتدمير البيئة والانحطاط الأخلاقي الكبير وكافة الجرائم التي تمارس في العالم في الاقتصاديات والسياسة والثقافة كانت كلها أفكار في بداية الأمر، كانت نظرية وفكرا بعدها تم الترويج لها فأصبحت حاكمة وتحولت إلى نشاط رسمي وأسفرت عن ضياع كل شيء.

تراهم اليوم متعطشين للمزيد من الدماء، يقولون إن عدد الأجساد الملقاة هنا وهناك قليلة.

لقد كان القرن الميلادي الماضي قرن إنتاج الأجساد، وبإمكانه تصدير أجساد إلى باقي

القرون الأخرى. لقد كانت عمليات القتل الممنهجة نظرية أول الأمر وسرعان ما دخلت حيز التنفيذ. وإذا قال أحدهم إنه مستعد للتضحية بنفسه من أجل الترويج للفاشية أو العنصرية فمن المعلوم أنه باع نفسه بثمن بخس وأنه عازم على الانتحار. بعبارة أخرى، إننا لا نستطيع من الناحية الفلسفية والأخلاقية أن نقبل هذا الكلام ولا نستطيع القول وتحت يافطة الاستدلال الحقوقي إن البشرية باتت جرذ المختبرات للمتحدثين وعليهم تطبيق نظرياتهم على الناس واختبار ذلك وبعبارة أخرى فإن ذهن الناس ليس سلة مهملات الكتاب والمتحدثين وأن الرأي العام ليس مسودات ما يكتبه كل كاتب وإذا أردنا أن نحترم الرأي العام علينا احترام الناس الذين يطالعون ما نكتب ويسمعون ما نقول وعلينا أن نحترم مشاعرهم ومصيرهم وكمالاتهم وأن نعي أن كافة الناس يتمتعون بحقوق اجتماعية متساوية لكنهم من حيث قدرة الإدراك والتشخيص ليسوا متساوين.

أشكر حسن استماعكم وأسأله تعالى أن يتغمد العلامة الجعفري والعلامة الطباطبائي وسائر الشخصيات الأخرى من الذين بذلوا جهدهم خلال نصف قرن لطرح الإسلام كدين حي وعقلاني منسجم إنسانيا برحمته الواسعة وأن يخرج المسلمون مرفوعي الرؤوس في مواجهة المدارس الشرقية والغربية.

حشر الله هؤلاء مع محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا للعلمانية لا لطالبان

بسم الله الرحمن الرحيم

إحدى القضايا الإنسانية المهمة التي يُبدي الإسلام حساسيةً كبيرةً تُجاهَها والتي ترتبط بكل جزئيات حياته في السلم والحرب هي قضية العقلانية والديانة والتنوير.

وأودُّ في هذه العُجالة الفصل بين هذين المفهومين والتنوير ونقدهما بقدر المستطاع وكذلك التعرض إلى التحجّر الموجود في المجتمع الديني، كلي أملٌ أن تكونوا معي في هذا المشوار.

ومن خلال كون أنَّ المحاضرة تبحث في العقلانية والثقافة حيث تُعدُّ العقلانية وجه التمايز بين الإنسان وسائر الموجودات، فإنَّ الإسلام ركَّزَ على هذه النقطة بِشدَّة.

أبدأُ حديثي بإيرادِ حديثٍ عن الإمام الحسين بن عليٍّ عليه السلام في باب المعرفة والعقلانية في الإسلام يُشيرُ إلى حساسية الإمام في مجال المعرفة الإنسانية حيث نُسِبَ له القول إنَّ إنقاذَ عقيدة إنسانٍ مظلومٍ أهم من إنقاذ حياتهِ وإن تعرَّضتَ للخطر[1].

ويُعدُّ هذا الأمر فريضةٌ مهمةٌ للغاية في ثقافة الحسين عليه السلام، لأنَّ حياةَ إنسانٍ واحد أمرٌ ذو قُدسية في الثقافة القرآنية والثقافة الحسينية، ونحن إذ نتحدث عن الثقافة والجهاد علينا

---

١ . قال الحسين بن علي صلوات الله عليهما لرجل:أيهما أحب إليك؟ رجل يروم قتل مسكين قد ضعف أتنقذه من يده، أو ناصب يريد إضلال مسكين من ضعفاء شيعتنا تفتح عليه ما يمتنع به ويفحمه ويكسره بحجج الله تعالى؟ قال: بل إنقاذ هذا المسكين المؤمن من يد هذا الناصب إن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] أي ومن أحياها وأرشدها من كفر إلى إيمان فكأنما أحيا الناس جميعا من قبل أن يقتلهم بسيوف الحديد. (بحار الانوار، ج ٢، ص ٩).

الالتفات إلى أنَّ الحسين بن عليّ ترعرعَ في مدرسةٍ تعتبر حياة إنسانٍ واحد حياةَ البشرية جمعاء، حيثُ يقول القرآن الكريم: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[١].

إنَّ نظرة الإسلام إلى حياة الإنسان ليست نظرةً عدديَّة، لأنَّ مسألة الحياة أو الموت مهمةٌ للغاية، ولكن هناكَ أهمٌ من إنقاذ جسم الإنسان أو حياته المادية ألا وهي الحياة العقلانية والمعنوية، إنَّ الثقافة الإنسانية أيها الحضور الكرام ترى أنَّ حياة الإنسان الواحد مُرتبطةٌ بِروحه وفي حديثٍ عن الإمام الحسين عليه السلام: إنَّ العناية باليتيم وتربيته النفسية وإكسائِه فريضةٌ كبيرةٌ في الإسلام[٢].

إلا أنَّ الإمام الحسين عليه السلام اعتبر أنَّ العناية باليتيم من الناحية العقلانية أهم من العناية به جسمياً وهي كالفارق بين النجم والشمس في النور وفي هذا تأكيدٌ من الأئمة عليهم السلام على أنَّ الالتفات إلى تقوية البنية العقائدية والفكرية والثقافية هي أهم بكثيرٍ من مهمة إشباع اليتامى وكَسْوتِهِم، لأنَّ في الأولى طريق الكمال والتسامي، وما سأطرحهُ في هذه المحاضرة هو حصيلة ساعاتٍ من المُطالعة والتدقيق والبحث العلمي، بتصوُّري أنَّ إحدى المشاكل التي نُعاني منها في الوقت الحاضر مسألة التنوير والتحجُّر أو الرجعية وسنتناول في هذه المُحاضرة نَقدَ هذه الظاهرة وتسجيلَ موقفنا بشأنها على أقل تقدير، ولو بَدَرَ مني أيُّ خطاءٍ أو سهو أرجو تسجيل اعتراضاتكم وطرحها علي بعدَ ذلك.

علينا أولاً أن نثق بخطواتنا وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان وإذا جازَلنا تقسيم فعل البشر إلى نوعين أحدهما فعل والآخر ردُ فعل، أو كانَ البعضُ مُجبراً والآخر مُختاراً فمن هو يا تُرى سيعرف حدودهُ إذا ما تمَّت المقارنة واستطاعَ اجتياز نِصابه أن يفشل في الاختبار.

إنَّ الحياة القائمة على الملذَّات والنفعية بعيدةٌ كل البعد عن الحقيقة والفضيلة والعدالة وهي حياةٌ غير مستقرةٍ وغيرُ قابلةٍ للتحمُّلِ البتة، حياةٌ ظاهرها جميل لكنَّ باطنها مُميت

---

١ . المائدة: ٣٢

٢ . قال الحسين ابن علي: «فضل كافل يتيم آل محمد المنقطع عن مواليه الناشب في رتبة الجهل يخرجه من جهله ويوضح له ما اشتبه عليه على فضل كافل يتيم يطعمه ويسقيه كفضل الشمس على السها». (الاحتجاج، ج ١، ص ٨).

وهي تنشدُ أهدافاً موهومة وهذا ديدَنُ أغلب الناس، لكنَّ الحياة الهادفة والمعقولة هديةُ الأنبياء خاصةً الرسول الأكرم ﷺ.

إنَّ حياة الغالبية بعيدةٌ عن اليقين والعقلانية وقلَّما يمكن وضع اليد على نقطةٍ وجانبٍ من حياة إنسانٍ قائمةٍ على أساس العقلانية واليقين، إنَّ غالبية القرارات التي نتخذها في حياتنا قائمةٌ على أساس الأوهام والشكوك ويتم فهم ذلك من خلال التركيز على التصرفات المختلفة، ربما كانَ الأمرُ مجهولاً أو مغفولاً في نظرةٍ أوَّلية، أمَّا الحياة التي تنشدُ أهدافاً معقولة والتي قلنا إنها هدية الأنبياء فهي حياةٌ نغفلُ لذَّتها طوال حياتنا اليومية ويكون الرِضا عن أوضاعنا ناجماً عن جهلنا، لكن العالم الذي يمضي صوبَ هدفٍ معقول حتى إذا كانَ صغيراً وشخصياً فإنَّه كبيرٌ للغاية ولم نبلغ بحساباتنا عَظَمته ونظلُّ صِغاراً أمامه، لأننا نفتقد إلى الغنى الروحاني، لأننا في العادة نلحق شيئاً في حياتنا كي تكون حياتنا قابلةً للاستمرار والتحمُّل.

إنَّ العقلانية التي بشَّرَ بها الإسلام والقائمة على أساس الدنيا والآخرة الصحيحة جاءت لِسدِّ الفراغات الكبيرة الموجودة في حياة الإنسان المُسلم ولو استطاعت الواجهات التنويرية الموجودة في العالم الإسلامي من الترويج للعقلانية ومساعدة المجتمع الإسلامي لكان ينبغي علينا فرشُ الطريق لها بالورود والرَيَاحين، ولكن إن شاءت حركة التنوير أن تُغلق الطريق على العقلانية الإسلامية وتَسُدَّ الطريق على حقوق الإنسان من وجهة النظر الإسلامية في باب العمل الاجتماعي وتُضيّق الخناق عليه وأن تَقولَ أن لا علاقة للدين بهذه الموضوعات وأنهُ مُنسلخ عن هذه الأمور فإننا سنبخل عليهم حتى بالبيض الفاسد لأنَّ الشوارع ستتسخُ حينَ إذن ولا غير.

إنَّ حركة التنوير الإسلامية هي بتصوُّري هيئةٌ تُحاول شقَّ طريقِها بينَ الطالبانية والعلمانية، بالطبع إنَّ ما يُروَّجُ له ليسَ حركةَ تنويرٍ دينيةً صحيحة، إنَّ حركة التنوير الدينية الصحيحة هي التي يمكنها أن تجدَ لنا المخرج وهنا نحن إذ ننتقدُ حركة التنوير ينبغي التأكيدُ على أنني شخصياً من المؤمنين بضرورة حركة التنوير على أساسٍ ديني وأرى أنَّ مكانها ضروريٌّ ومفقودٌ نوعاً ما في المؤسسات الثقافية في الحوزة والجامعات، أي

أننا نفتقدُ إلى جبهةٍ ثقافيةٍ نقديَّةٍ عريضةٍ يمكن لها أن تنقدَ النظريات والحوار الموجود في البلاد وكذلك طريقة عمل وأداء الحكومة والأجهزة الحكومية لا بل حتى الثقافة العامة والتقليدية الرائجة في المجتمع وتلتفت هذه الجبهة إلى بيان الانحراف والأفكار المستوردة والخرافات والتحجُّر والرجعية أو جعل الأمور شفافة حسب ما يقول الرسول الأكرم ﷺ : «قولوا الحقَّ ولو كانَ مُرًّا».[١]

وقال ﷺ أيضاً: «كيفما تكونوا يُولَّى عليكُم»[٢]، ينبغي كتابة هذا الحديث على واجهات الجامعات نخاطب من خلاله الأمة ونقول كيفما تكونوا تُحكموا، فإن كنتم صُلحاء كانَ حكامكم كذلك، وإن كنتم طُلحاء كان حكامكم كذلك، وإن استطاعت الأمة أن تنهضَ وترتقي في المعايير الإسلامية والمعارف الدينية وتحكم الأخلاق والأحكام والعدل الإسلامي فيها فإنَّ المسؤولين فيها سيجبرون على متابعة الجماهير في دينيهم ودنياهم، وإن اكتفت الأمة بالقليلِ والسطحية من الأمور، فإنَّ الحكام سيكونون كذلك، لأنَّ رجال الحكومة هم في أساسهم محافظون حتى وإن رفعوا شِعارات الإصلاح وأنَّ من يصل إلى السلطة والحكم سواءً كانَ منطقياً أو غيرَ منطقي فهو يُفكر في بقاءه في السلطة والحكم حتى ولو كانَ ذلكَ وسيلةً لا هدفاً فهو أمرٌ ليسَ سلبياً في ذاته وتصوري أنَّ القدرة في ذاتها لا توجب الفساد لذاتها ولو كانَ ذلك صحيحاً نصل إلى أنَّ الدولةَ كانت فاسدةً منذُ البداية وعلى مر التاريخ ولا يمكن أن يكون الإنسان وهو يحكم إنه لا يسمح بالفساد، والإسلام لم يقُل أبداً إنَّ الثروة مُفسدة الأمر يعود للإنسان وحده، فإن كانَ يستند إلى تربيةٍ صحيحةٍ ومُهذَّبةٍ وخاضعٍ لسلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ هذه الثروة والسلطة لن تكون مُفسدة وستمضي في طريقها الصحيح، أما في حال انعدام التربية والتهذيب أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنها ستكون سلطةً فاسدة، لأنَّ أصلها فاسد وهذا يؤكد أن سلامة السلطة والثروة يعود إلى المتولي عليها، فإن كانَ سليماً سيمضي كل شيءٍ على ما يرام، وإن كانَ العكس فإن هذه الثروة والسلطة لن تكون في خدمة البشر ودليلنا على ذلك أنَّ بعضَ

---

١ . «أَوْصَانِي خَلِيلِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَ إِنْ كَانَ مُرّاً» (معاني الأخبار، ص ٣٣٥؛ مستدرك الوسائل، ج٥، ص٣٧٤؛ سبل السلام، باب الإقرار، ج٢، ص٩٥).

٢ . الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام، ج٢١، ص٢٢٦.

الأنبياء أقاموا الحكومة وكانوا أولي أمر، ولو كانت الثروة والسلطة فاسدة من أساسها لم يكن النبي ﷺ وأمير المؤمنين قد شكّلوا الدولة، المشكلة تعود إلى الأشخاص إنها مشكلتنا نحن، الحقيقة أننا مرضى ونتهم الثورة والمجتمع والتاريخ جُزافاً وعليه فإنني أرى ضرورة وجود حركةٍ فكريةٍ دينية تقوم على المحور الإنساني والعقلاني للدين وتمنع استيلاء صورةٍ كاذبةٍ ومُقرفةٍ وغير معقولةٍ وغير إنسانيةٍ عن الدين والمجتمع في أوساط الرأي العام، تقول الثقافة النبوية «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته»[1]، أي أن المسؤولية الاجتماعية من واجب الجميع ويمكن لكل شخصٍ أن يتولّى ذلك بمفرده فيما يخصّ الفضيلة والأخلاق في المجتمع حتى دعاة الحركة التنويرية شريطة أن تكون تنويرية ودينية ومُنتجة ومُبدعة، لا أن تكون مُجرَّدَ ترجماتٍ وأن لا تكونَ كمن يبصم أو أن تكون تابعة للثقافة الغربية أو بوقاً لها، فإن كانَ هذا معنى حركة التنوير، أي أنَّ قوامها الترجمة ولو انقطع تيار الترجمة اختنقت فهي كالقطة إن قَصصتَ شاربها تفقد التعادل ولن تستطيع المشي على الجدار وعليه فهذه ليست حركة تنويرٍ حقيقية، بل حركة ترجمةٍ دونما ذكرٍ للمصادر والمراجع، إنهُ تخصصٌ وماجستير في الكذب والمُخادعة، حيث يطرح المُترجم الأمر دون ذكرٍ للمصادر والمراجع ويدَّعي أنَّهُ فِكرٌ تنويري، إنَّ حركة التنوير الديني ينبغي أن تكونَ مُبدعةً وخلاّقة ومن ثمَّ أن تكونَ قائمةً على أسسٍ دينية، أي أن لا تتعرض لبديهيات العقائد الإسلامية والأخلاق والدين والأحكام وأن لا يتم التلاعب بالألفاظ ولو تعرَّضت هذه الحركة إلى البديهيات عندها لن تكون حركة تنويرٍ ديني، حتى وإن دخلت بهويةٍ دينية ودرجت هذه الأمر تحت يافطة الحوار والمناظرة، ربما جاز لنا التعبير عنها بحركةٍ تنويريةٍ لكنها ليست دينية ولا حتى حركة تنويريةً، لأنها حركة تقليدٍ وترجمةٍ وليست حركة إبداعية، وثانياً ينبغي أن يكون الدين عميقاً وقابلاً للنقد غير حكوميّ وغيرَ مُلوَّثٍ أو مُحرَّف حيث نُسِبَ للرسول ﷺ قوله: إنَّ المُحرِّفين مأواهم النار ينبغي التشهيرُ بهم وعدمُ السماح لهم بالوصول إلى سُدَّة الحكم.

إنَّ الحركة التنويرية التي تقول إن لها قراءةً جديدة في التوحيد، أي أن تتعرض للتوحيد وتضرب المضامين فيما وراء الطبيعة وتتعرض للمعاد وإن كان التنويري ماركسياً صار

١ . عوالي اللّئالي، ج ١، ص ١٢٩، و ص٢٥٥، و ص ٣٦٤؛ بحار الانوار، ج ٧٢، ص ٣٨.

يتحدثُ عن مجتمعٍ دون طبقية، وإن كان من أصحاب الاتجاه الليبرالي يقول إنه موضوعٌ نفسيٌّ ذو أبعادٍ نفسية في الدنيا.

تتعرض هذه المدرسة الفكرية للنبوة وتقول إنها أمورٌ غيرُ جديَّة جاءَ بها الرسول من عنده وأنَّ الأنبياء جميعاً شعراء وصوفيُّون، والفَرقُ مع سائر الصوفيينَ أنهم خرجوا من الغار ثم طرحوا أفكارهم الشاعرية ومُكاشفاتهم الإنسانية القابلة للرد مع أناسٍ آخرين ومدُّوا أيديهم إلى الناس، فإن كانوا عرباً جاؤوا لهم بكلماتٍ عربية، وإن كانوا عبريين جاؤوا بكلماتٍ عبرية حيثُ مُلئت الثقافة بهذه الخرافات وهكذا فقد التبس على المُدعين هذا الأمر ونسبوا كل شيء لله، ولقوة الكاريزما التي تمتعوا بها دخلت تعاليمهم في أوساط المجتمع وهذا تحديداً معنى النبوة، ثم يتطرَّقون إلى العدل وتطرح حركة التنوير العدل في ثلاثة سطوح، الأول العدل على صعيد السماوات، أي العدل على أنه صفةٌ ربّانية وهناك العدل الإنساني، التقوى والعدل الجماعي ويعني العدالة الاجتماعية والحكومة العادلة، أي الحكومة التي تخلو من الإقطاع والفواصل الطبقية والفساد، وهذا النوع من حركة التنوير الذي يقبل الدين والعدالة الاجتماعية والفردية في الميدان الإنساني ويعتبر ذلك استمراراً للعدل الإلهي في الميدان السماواتي وكذلك الإمامة على أنها القيادة الصالحة والحكومة العادلة، إن هذا النوع من حركة التنوير الذي لا يتعارض والأصول والعقائد والأخلاق والقيم الإسلامية هذا النوع يجب استقباله بفرش السجاد الأحمر له، لكننا لا نعرف مثل هذا النوع من الحركة التنويرية على طول التاريخ منذ الثورة الدستورية في إيران حتى يومنا هذا، وهذا من جملة الأمور التي لا ينطبق فيها المصداق مع المفهوم والتعريف.

إنَّ الحركة التنويرية الأصيلة تؤثر سلباً على وجود وتأثير الإسلاميين المعروفين باسم الإسلام السطحي والإسلام الغربي أو الإسلام الطالباني والإسلام العلماني، بين الإسلام السلفي والإسلام المُعاصر، الإسلام الرجعي والإسلام الغربي وهذا الإسلام يُعارض على الدوام الإسلام الأصيل والحقيقي ولذا يضغطان عليه وللأسف فإن وسائل الدعاية الغربية تُمَوّجُ للموجة الرجعية وتُقويها وتعتبرها فترةً انتقاليةً مؤقّتة حيث يتم تعريف البعض على أنهم أنموذجٌ للإسلام والشريعة الإسلامية، شيءٌ مثل حركة طالبان وكما هو معلوم فإن

الفكر الطالباني ليسَ مُقتصِراً على السُّنَّة، بل هناكَ طالبانيٌّ الهوى في الشيعة أيضاً وهناكَ أفكارٌ خاصة يُروَّجُ لها في الأديان المُختلفة.

هناك تيارٌ أرثوذكسي قشريٌّ للغاية وأُمِّيٌّ ومُتكبِّر يطرح ما يرتئيه باسم الدين ومن ينكر ذلك ويعترض يُصبح من مُنكري الدين دون أن يُقدمَ أي دليلٍ شرعيٍّ وقطعيٍّ في مُدعياته، والأنكا من ذلك يأتي الغربُ ويطرح هؤلاء السطحيين على أنهم أنموذج الشريعة في العالم والتاريخ علَّهُ بذلك يضرب أمواج الصحوة الإسلامية التي انطلقت باسم الإمام رضوان الله تعالى عليه وتمضي بإزالة الإمبريالية والولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل ومصالحها.

إنَّ القوى السلطوية تقول للناس لستم بحاجةٍ إلى حقوق الإنسان أو أيّاً من الإمكانات ولا تكنّ أي احترام للأمة وترفضُ كُلَّ فكرٍ وحوارٍ وتواصلٍ إنساني أو حقوقي للإنسان أو تطبيقٍ للعدالة والسماح للأمة كي تتمتع بالإمكانات المتاحة وامتلاك حياةٍ معقولةٍ ومتعارفة.

كل ذلك من أجل إعداد الأرضية لتطبيق الشق الثاني، أي العلمانية الإسلام الليبرالي في حين نرى الترويج لأفكارٍ وتياراتٍ مثل طالبان نحن لا نُشكل على طالبان في طلبهم للشريعة، بل نشكل عليهم في سطحيتهم وعدم تطبيقهم للشريعة الحقيقية، لأننا نتحدث عن شريعةٍ جاءَ بها الرسول الأكرم ﷺ وقال عنها «كل مشكل حرام، وليس في الدين إشكال»[1]، إنَّ كل موضوع غير مطروح وغير وارد في الشريعة السمحة فهو حرام، إنَّ الرسالة والقرآن الكريم لم ينزلا ليجعلا الإنسان في شقاءٍ وعذاب أو إضافة عناءاتٍ جديدةٍ له، وقال الرسول الأكرم ﷺ: «ليسَ في الدين حَرَجٌ، ليسَ في الدين ضرر»[2]، أي أنَّ الدين لم يأتي ليُضيفَ للإنسان عناءً جديداً وللأسف فإن الدعاية الاستعمارية مضت بشكلٍ إذا تحدثَ أحد العلماء عن الشريعة وضرورة العمل بها وصِفَ بالطالباني وهذه دعاية استعمارية وطبقاً لهذه الدعاية فإن أقبل أحد المسلمين على أداء الصلاة يُنعت بالطالباني، لأنَّ طالبان تُصلي أيضاً وهذه دعاية استعمارية لتشويه صورة المسلمين في العالم لماذا، لأن

---

١ . كنز العمال، ج ٣، ص ٤٢٩.

٢ . «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» (الكافي، ج٥، ص٢٩٢-٢٩٤؛ وسائل الشيعة، ج١٧، ص٣٤٠-٣٤٢).

الإسلام هو المبارز الوحيد للنظام الليبرالي الرأسمالي الصهيوني.

إن المشكلة مع طالبان تكمن في سطحيتهم في التعامل مع الشريعة وتصرفهم الإنتقائي مع الأشياء، يُبرزون بعض الأمور ويتجاهلون أخرى، يُحاولون بأفعالهم خلطَ الأوراق بين الأصول والفروع وبالمحصلة يرسمون صورة مُضحكة عن الإسلام فليست كل الأحكام في الإسلام على درجةٍ واحدةٍ من الأهمية، هناك الأهم وهناك المهم وهناك الأصل وهناك الفرع لكن طالبان تأتي وتستنبط أحكاماً وفق مباني مغلوطةٍ ومن اختلاق البشر، إن ما تقوم به طالبان هو ذات الأمر الذي يقوم به العلمانيون وكلاهما يضرب الإسلام ولكن كلٌ على ملاكه الخاص، المشكلة مع طالبان أنهم لا يفقهون الاجتهاد لا يعرفون كيف يفصلون بين الأصل والنواة وبين الظاهر والباطن، إنَّ الاجتهاد في الإسلام أمرٌ حساسٌ ودقيق وفي الجهة المقابلة تصبح الأرضية مناسبةً لظهور الإسلام العلماني والإسلام الليبرالي وتصبح عقائد الإسلام على محك التعددية والتشكيك عندها تذهب المعرفة النسبية تحت المجهر وكذا القيم والأصول الأخلاقية ويصبح الإسلام تحت مكبس النسبية ويتم حذفه من الواجهة وهكذا حال الشريعة والأحكام الإسلامية والعدالة الاجتماعية إنَّ التنويريين عندما يجعلون الواجبات قبالة الحقوق، أي أنهم يقولون نعم للحقوق وكلا للواجبات في حين إنَّ المنطق الإسلامي لا يوجد فيه تعارضاً بينَ الحقوق والواجبات، لكنهم يرونَ أنَّ الاثنين يتعارضان وهم من أجل إعلاء كفة الحقوق يضربون الواجبات وينكِرونها وهم يُصوِّرون الواجبات على أنها إهانةٌ للبشر وحقوقه، إنها تيّاراتٌ يُريد الغرب تقويتها في العالم الإسلامي هذا هو الإسلام الليبرالي والإسلام العلماني الإنتقائي ويكون ملاك الانتقاء ملاكاً ليبرالياً ومادياً وغربياً وكذلك في جعل الأصول فروعاً لن يقولوا إنَّ للإسلام وأحكامه وقيمه أساساً ثابتاً ولا يرون أي موضوعٍ يحظى بالثبات أو القطعية أو الضرورة في الإسلام الكل عندهم عبارةً عن قشورٍ مُتغيّرة يمكن الإلقاء بها، كلها تعدُّ تشريفات والإسلام برأيهم زائد، يفكرون في طريقةٍ للخلاص منه لكنهم لا يجرؤون على ذلك، يترددون، يُريدون طرح قراءةٍ جديدةٍ للدين دينٍ يخلو من الواجبات والأحكام أو الحرام أو التكاليف الاجتماعية أو العدالة، يُريدون ديناً يخلو من الأمور القطعية والقيم الأخلاقية الواضحة حتى يكون شكلاً

بلا معنى، هؤلاء يجتهدون ضدَّ النصوص، أمَّا القشريون منهم فهم لا يؤمنون بالاجتهاد هؤلاء يجتهدون ضدَّ النصوص والحجج حتى يتحول الدين لديهم إلى ألعوبةٍ فردية.

إنَّ كلا الفكرين الليبرالي والطالباني نالا من الإسلام الأصولي والاجتهادي الذي يتمتع بخصوصيتين، الأولى إنهُ أصولي يحترم النصوص القطعية وفي ذات الوقت اجتهادي، أي أنه يجتهد وهذا الإسلام غيرإنتقائي، وهو جامع لأنَّ الإسلام دين العبادات والأخلاق والمعارف والأمور الاجتماعية والسياسية وعن هذا يشير الإمام الخميني ﷺالى ان الآيات الاجتماعية السياسية في القرآن الكريم تفوقُ مئة مرةٍ عن الآيات التي تتعرض إلى العبادات ويدعو هذا الدين أتباعه إلى التفقه في أمور الدين والدنيا والقشور والنواة والشريعة والحقيقة والطريقة والقيم والمنهجيات والأخلاق والإقتصاد، الحق. والواجبات كلٍّ في مكانه، ينبغي أن يقف الإسلام الأصيل بوجه أدعياء الإسلام بقوة التنوير الديني الصحيح وينبغي على أصحاب النظرية الإسلامية من الفقهاء والمتكلّمين المعاصرين التصدي، لأنَّ غير العلماء لن يستطيعوا التصدي لهؤلاء، حتى لا يشرع الجهلة بالفقه والكلام أو الحقوق الإسلامية أو المفاهيم والعقائد بالتنظير، وبخلافه سنكون أمام مشاهد مسرحيةٍ كوميدية سرعان ما تنقلب إلى مأساة وقد دفعنا الثمن كبيراً لمثل هذه التصرفات في القرن الأخير لكننا لم نُصرّح بذلك ومازلنا ندفع الثمن في يومنا هذا، ينبغي أن نتسلح بالرجال القديرين لمواجهة حركة التنوير الزائفة على أن يتمسك علمائنا بالتنوير السالم وهو أن يكون العالِمُ مؤهَّلاً لخوض غمار إعادة قراءة الدين لا أن نمُسَّ تركيبته، فإن الدين ليس بحاجةٍ إلى إعادة صياغة وهيكلة، لكنه بحاجة إلى قراءة جديدة في المعارف والقيم الإسلامية ويُصار إلى إجراء عملية تلقيحٍ في المطروح من الأحكام والتطبيقات ثم كشف المشاكل الواقعية للمجتمع لا المشاكل الافتراضية، المشاكل التي يعاني منها الناس والمسلمون في هذه الأيام، لكننا نرى حركة التنوير الزائفة تأتي بترجمة الليبرالية والماركسية وتقوم في خاتمة المطاف بإبدال ذلك إلى أمورٍ تواجه الشريعة الإسلامية وقوانينها ويطلق على ذلك اسم حركة التنوير دون إعطاء المصادر والمُستندات، وما أكثر الأشخاص الذين طرحوا هذه الأفكار في العقود المنصرمة وصفقنا لهم وقد كنا مدهوشين لما يطرحونه من إبداعٍ وأفكار، لكننا وبعد عقدين من الزمن توصلنا

إلى النسخة الأصلية غير المترجمة من الغرب ولاحظنا أنَّ ما طرحه السادة من قبل ما هو إلا ترجمة والجميل أنَّ هؤلاء وبغية انطلاء الأمر علينا بدأوا بالبسملة وختموا بعبارة السلام عليكم وطعَّموا موضوعاتهم بآيات وأحاديث وقالوا إنَّ الأمر يُعدُّ حركة تنويرٍ دينية، وإذا كانوا ماركسيّ الهوى كانت حركة تنويرهم يسارية، وإذا كانوا من أصحاب القراءات الحديثة كانت ماركسيتهم حديثة وإذا كانوا من أصحاب الفكر الليبرالي كانت حركة تنويرهم ليبراليةً وهكذا، أي عندما يوافق الدين الفكر الليبرالي يُصبح جزءً من الدين وبخلافه فهو خارج عن الدين لا محالة وفي الاتجاه الماركسي كذلك وهكذا الحال مع الفكر الفاشي أو الوجودي والفرويدي[1]، وهكذا فإن الإسلام هنا باتَ كقطعة الحلوى المُقدمة في مجلس النذورات يقتضم كلٌّ منها ما يريد.

بالطبع فإنَّ حركة التنوير الزائفة تكون متأثرةً بفلاسفة البلد الذي درَس فيه صاحب الأطروحة فإن كانَ درَس في فرنسا فإنَّ أفكاره ستكون فرنسية وإن كانَ في بريطانيا فإنه سيكون متأثراً بالفلسفة والمصطلحات الإنكلوساكسونية[2] والوضعية المنطقية والفلسفية التحليلية البريطانية والأمريكية، وإن كانَ في ألمانيا فإنَّ أطروحته ستكون متأثرةً بالفلسفة الألمانية، ولو راجعنا حركة التنوير الغربية لوجدنا فيها الكثير من الوجوه والتناقضات والتمييز والتقسيم وهم يُصرحون بذلك حيث نرى أحد المتنورين الفرنسيين يتحدث عن

---

١ . سيغيسموند شلومو فرويد يعرف اختصارًا بسيغموند فرويد (٦ مايو ١٨٥٦-٢٣ سبتمبر، ١٩٣٩) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي. كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلا عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، ونظريته من التحول في العلاقة العلاجية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي. (راجع: ويكيبيديا).

٢ . الأنجلوسكسونيون (بالإنجليزية: Anglo-Saxons) هم القبائل الجرمانية التي غزت وسكنت بريطانيا في القرن ٥ والقرن ٦. تلك القبائل هي الأنجلز، والسكسون، واليوت. وقد تركوا أوطانهم الأصلية وهي شمال ألمانيا وهولندا والدانمارك، واتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية. واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية في القرن الخامس بعد الميلاد، وبعد حوالي مائتي عام انضمت هذه المجموعات الثلاثة في مجموعة واحدة دعيت بالأنجلو ـ ساكسون. استخدم هذا المصطلح (انجلوساكسون) كتاب غاليون للتفريق بين الغزاة وبين سكان بريطانيا الذين كانوا فيها قبل مجيء هؤلاء الغزاة. (راجع: ويكيبيديا).

الفلسفة الألمانية والبريطانية ويقول: إنَّ كل من يفكر بطريقة تجريدية بحتة في الفلسفة فهو ألمانيٌّ بامتياز، ومن يفكر بشكل سطحي ولا يتأمل كثيراً فهو بريطاني وهو ميَّالٌ للحديث وهذا يعني حذف الفلسفة والعقلانية من حركة التنوير والتي يعتمدها الغرب والولايات المتحدة وبريطانيا اليوم بما يُشكِّلُ أصل الليبرالية في إيران وهي ممارسات مستمرة من الثورة الدستورية إلى يومنا هذا وهكذا فإن الأفكار المطروحة تعتمد على مكان الدراسة فلو كانت لديه دراساتٌ دينيةٌ لأربعة أو خمسة أعوام فلو قُيّضَ له طالبٌ ذو اتجاه ديني قامَ بإلقاء أفكاره مع خلط بعض المباحث الدينية، بالطبع لا أريد أن أعمم الموضوع على كُل رواد حركة التنوير الدينية فالبعض كانَ كذلك والبعض الآخر لم يخلط نظرياته الإلتقاطية بالمباحث الدينية وينبغي فضحُ هؤلاء وتعريتهم وبخلافه لا يمكننا الدفاع عن رواد حركة التنوير الدينية الصحيحة وهذا الأمر صادق على المساحة السياسية والثقافية ففي فترةٍ زمنيةٍ كانَ الأشقياء يقولون الشيء ويفعلونه بقوة عضلاتهم، أما اليوم فقد انتهت هذه الحالة حيث كان قطاع الطرق والأوباش يحملون الخناجر والأسلحة البيضاء وينهالون على الناس ضرباً لتمشية أمورهم، إننا اليوم أمام نهجٍ جديدٍ من التعامل يطرحه الأمبرياليون هؤلاء الذين يُجيزون لأنفسهم استخدام القنابل الذرية والكيميائية لإبادة شعبٍ كامل، يقومون بالحديث ساعاتٍ وببطنٍ ممتلئةٍ يتحدثون عن الكرامة الإنسانية والحوار والفكر بعدها يعودون لتزويد أنصارهم بقليلٍ من الأسلحة الذرية والكيميائية للاستفادة منها ضدَّ أعدائهم، والعالم اليوم يواجه خطابات الرئيس الأمريكي ويقارن ذلك بما قاله ستالين وموسيليني وهتلر فلا يجد فرقاً بينها اللهم إلاّ الألفاظ، فأحدهم يُطلق ألفاظاً ماركسيةً والآخر فاشية والثالث ليبرالية ويقول الأخير أنه من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان ينبغي ارتكاب مجزرة والقضاء على كل البشرية كي نؤمِّنَ حقوق الإنسان فيما بعد المهم هو تأمين مصالح النظام الرأسمالي الغربي، هذا في باب التطورات على الساحة السياسية لقد تحول هؤلاء اليوم إلى رجالٍ محترمين بعد أن ارتكبوا هذه الفظائع ضدَّ البشرية، والأنكأ من ذلك يقومون بكل هذه الجرائم بدمٍ بارد، هل تتذكرون جرائم حلبجة؟

لم يكن الجلادون كالسابقون في التاريخ يرتكبون مثل هذه المظالم ضدَ البشرية، فيما

مضى ينزل الأشقياء إلى الميدان ويُعربِدون ثم ينصرفون، أما اليوم فهم يقتلون بطريقةٍ هادئة وهذا يعني أنَّ الأمور قد تعقَّدت في الشأن السياسي وبات لهذه التصرفات ظاهرٌ في حركة التنوير انتقل إلى المظاهر الثقافية، فلو قتل شخصٌ إنساناً لُقِّبَ الأول بالقاتل ولو قتل عشرة أشخاصٍ أخذَ لقب السفَّاح، لكنه لو قتل عشرات الآلاف بأسلحةٍ كيماوية وأفنى شعباً بأسره يصبح بطلاً، لقد تعقدت الأمور يقولون إنهم أقدموا على ذلك بطريقةٍ ديمقراطية، لأن المقابل هو من البربر الذين يستحقون الموت يفعلون ذلك لتحصيل ثروات الشعوب ويقومون بتقسيمها كيفما شاؤوا.

في حركة التنوير اليوم نرى شخصاً يشهر السيف لمحاربة الدين لقد انتفت هذه الحالة حيث كانَ يظهر أحدهم ويُكيل السبابة ويقول إن الدين مجرد خُزعبلات وإنه من دعاة التنوير ويطلب من يُبارزه، أما اليوم لا يفعلون ذلك علانية لقد تغيرت الأوضاع، الأستراتيجية اليوم تقومُ على أساس الالتفاف حول الدين، يقولون لأتباعهم لا تحاربوا بشكل المواجهة وجهٍ لوجه، يقولون لأنصارهم أشيدوا بالروحانيات والإيمان والدين واستخدموا العبارات الفضفاضة وعندما تحين الفرصة المناسبة انقضوا عليهم ولا تسمحوا لهم بالتدخل في القضايا الاجتماعية والحكومية وكانَ هذا المنهج ناجحاً للغاية، بعدها جاؤوا لضرب أصل الدين والمتمثل في أصوليته، هذه مقالة أحد أنصار التنوير الغربيين حيث يصف أنصار هذه الحركة من الشرقيين بالقول إنهم حراس الحداثة أرادوا سحب سن الذهب من فم الميت بواسطة الملاقط الصغيرة، يريدون المفاتيح في أقفالٍ صَدِئَةٍ، لقد ولدت حركة التنوير في القبر، أي أنها ولدت ومنذ ولادتها كانت في ظلماتٍ وسوء الفهم هذا لم يُحل حتى الآن.

إن حركة التنوير تريد تبرير فشلها التاريخي من خلال الألفاظ والاتهامات التي تسوقها للشعوب وهي مصابةٌ بتناقض مُدمر إنها منقسمة على نفسها وتعيش حالة انفصام الشخصية وهو المرض المعروف الذي يُعاني منه الإنسان ذو الشخصيتين وحركة التنوير الزائفة مصابة بمثل هذا المرض فهي من جهة تقول إنها تؤمن بالنزاعات المذهبية الدينية وتعترف بالحجية في المعارف والمصادر الدينية لكنها في ذات الوقت ومن خلال تأثيرات الثقافة الحداثوية المعاصرة للرأسمالية الليبرالية ترفض ذلك وترى أنَّ الصريحين منهم يُقدم

على اختيار أحد المسلكين فلا يمكن الجمع بين الإسلام والماركسية بين الإسلام والفاشية بين الإسلام والليبرالية بصورةٍ مطلقة، بالطبع هناك مشتركات بين الإسلام وكافة المدارس والنظريات الأخرى، لا أريد هنا القول إنَّ كل ما طرح في المدارس الأخرى هو باطلٌ ومرفوضٌ، بل أقول العكس هناك أمورٌ مقبولةٌ في كل نظرية ودين لكنها خلطت بآراء مغلوطةٍ وانحرفت، ونرى أن كل الإيجابيات الموجودة في المدارس والأفكار والأديان المختلفة موجودةٌ في الإسلام، إننا نؤمن بوجود نقاط إيجابية في الفكر الليبرالي والماركسي وسائر الأديان الأخرى ولكن عندما يقول أدعياء التنوير إنهم مُسلمون فكيف لهم أن يقولوا إنهم يوافقون على الدين مادام لا يتعارض والليبرالية، فإن كان غير ذلك فهم يعترضون وهذا ما لا يمكن وصفه بالقراءة الجديدة للدين إنه نوعٌ من الاحتيال باسم حركة التنوير الدينية، فهم تارةً يقولون إنَّ الدين مخالف للعقل ومعارضٌ للحقوق ومن جهةٍ أخرى يتشدقون بالدين.

ونعود إلى أحد التنويريين الغربيين عندما يتحدث عن أقرانه الشرقيين ويقول إنكم كمن يضحك على السماء وهو في قعر بئر ويسخر من الشمس وكلما فشلوا في تحليلاتهم وتعقُّلِهم يضعون ذلك في حساب رؤاهُم ويحاولون ملءَ عالم الواقع بخيالاتهم، وهنا يبدو الأمر عبارةً عن أنانيةٍ وتفاخرٍ لا تنويراً أو إبداعاً وقد ضاعوا أو تصوَّروا أن الأمة قد ضاعت وهم يبدون كالطفل الذي تاه في الطريق وقال للناس لقد ضاعت أمي فحركة التنوير هي على هذه الشاكلة، تتصور أن الأمة هي التي ضاعت وأنَّ التاريخ قد ضاع وليس معلوماً متى سيستطيعون الخروج من هذه الدوامة المضرة بهم إلى أي مدى سيبقون في هذه الدوامة وإلى أي حدٍ سيتورطون في اضطراباتهم الشخصية.

خلاصة الموضوع إنَّ القشريين والغربيين يريدون عزل هذه الأمة عن أهدافها وتخييرها بين أمرين لا ثالث لهما؛ إمَّا الدين وإمَّا الحضارة والمدنية، إمَّا أن تعيشوا حياةً إنسانيةً معقولة وإمَّا أن تُصبحوا مُتمسكين بالدين، إمَّا القول إنَّ الدين مفصول عن الحكم والسياسة والاقتصاد وحقوق الإنسان وواجباته وأن لا علاقة للدين بهذه الأمور والاكتفاء بالقول إنه عبارةٌ عن أمورٍ شخصيةٍ نفسيةٍ نسبيةٍ مشكوكةٍ غير معرفيةٍ وذوقية لن يُستغلَّ لصالح أحدٍ ضده وهذان الفكران الغربي والقشري يُريدان النيل من إحياء الفكر

الاجتهادي الديني الذي يُعدُّ من التعاليم النبوية القطعية، وقد ذهب مشهور الأصوليين إلى إدراج العقل ضمن قائمة مصادر الاستنباط الأربعة. والنكتة الجديرة بالاهتمام هنا هي بيان مكانة العقل في الاستنباط الشرعي ومدى قدرته على اكتشاف الأحكام الشرعية أثناء عملية الاستنباط، ولدينا في الفقه الشيعي أنَّ الإنسان إذا عارضَ حكم العقل القائم على أساس الحجة الشرعية فإنهُ لا يُخالف العقل فحسب بل يُخالف الشرع أيضاً[1]، فالحجة الظاهرية والخارجية هم الأنبياء والحجة الداخلية هي العقل والفطرة وفي حال تعارض العقل والشرع في مسألةٍ ما فإنَّ الأمر لا يعدو عن عدم التوجه الكافي من لدن العقل والفطرة وإمَّا أن يكون هناك نقصٌ في فهم النظرية الدينية.

إنَّ المتحجرين والعلمانيين ينكُر أحدُهُما الآخر بشكلٍ صريح وتنظيري والكل يدعي ذلك على طريقتهِ ولا يفقه أيٌّ منهما أنَّ في الإسلام نوعاً من الانعطاف العقلاني والتجريبي في جانبٍ من نظام التقنين الإسلامي، إنهُ قائمٌ على أساس الثوابت ويقع في ذيل الضروريات والقطعيات في الإسلام وأن بإمكان هذه الأمور إنقاذ المجتمع من أي عاصفة، أمّا السطحيون والقشريون فلا يرونَ مشاكل المجتمع العينية، لا يُدركون الحقوق الاجتماعية المهدورة للأمة وعليه فهم غير حساسين لهذه القضية ولا يُتابعون مسألة الحصول على إجابةٍ إسلاميةٍ على حقوق الإنسان، لأنَّ هؤلاء اقتصروا الدين الإسلامي على مجموعةٍ من الممارسات العبادية وبعض الظواهر القشرية والأخلاقية، أمَّا العلمانيون فهم يُنكِرون بالاساس خاتمية الدين وحقانيته والمجتمع الإسلامي لكنهم يخجلون أن يُعلنوا ذلك صراحةً وتراهم يطرحون ذلك بصورةٍ غير مباشرة، بتصوري أن الفريقين وقعا في خطأ واحد، لأنَّ الاثنين معاً اعتبرا أنَّ الإسلامَ بمثابة محطةٍ تاريخيةٍ مقابل الإنسان لكن الفرق بين الاثنين يكمن في أنَّ القشريين يقولون علينا البقاء في تلك المحطة دون حراك، أمَّا الغربيون فيقولون أنَّ الإسلام كانَ محطة تاريخية وعلينا الخروج من تلك المحطة لأنَّ الزمن قد غادرها ولن يعود إلينا.

والجواب على هؤلاء يكمن في أنَّ الإسلام لم يكن محطةً ومنزلاً تاريخياً مثل ما يحلُ لهم

١. قاعدة الملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع: «كل ما حكم به العقل حكم به الشرع و كل ما حكم به الشرعُ حكم به العقل».

تسميته ولم يكن الإسلام محطةً لاستراحة وسط الطريق، الإسلام هو الطريق وعليه فلو دققنا في معنى المذهب بمعنى الدين لوجدنا أنه يعني الطريق الواصل أو الشريعة والماء والنهر الكبير الذي يصل إليه الوافدون ليغترفوا منه ويرووا ظمأهم ويواصلوا المسير، إنَّ الدين هو الطريق الدائم ليسَ محطةً ليقولَ العلماني والحداثوي إننا قد اجتزناه وليقول المتحجر لنبق فيه دون حراك.

إنَّ للإسلام وإلى جوار الأحكام الثابتة أحكاماً متغيرة وهي بحاجةٍ إلى أي اجتهاد يفتح الطريق أمام الدين أكثر فأكثر، إنَّ الإسلام عبارةٌ عن جهازٍ فكريٍّ أخلاقيٍّ وعملي وينبغي أن تُضخَّ فيه الدماء الجديدة على الدوام ليكون قادراً على أن يكون مؤثِّراً في المجتمع القبائلي العربي قبل ألفٍ وأربعمائةِ عام وتتم برمجته وإصلاح بعض جزئياته ليكون ملائماً في يومنا هذا كما كانَ في الصدر الأول، بالطبع فإنَّ الردة عن الإسلام ليست وليدة الساعة فقد نُقِلَ عن بضعة الرسول وهي تخطبُ تلكَ الخطبة المعروفة حيثُ تُشير إلى واقع العرب المرير والجاهلي قبل الإسلام وانقلابهم على أعقابهم بعدَ رحيل الرسول وتتساءل هل أنَّ التضحيات التي قدمها الرسول وشهداء الصدر الأول من الإسلام كانت في سبيل لا شيء؟[1]

إنَّ المشكلة اليوم هي ذات المشكلة في زمن الصدر الأول من الإسلام إنَّ البعض انقلبوا على أعقابهم وباتوا لا يُريدون الإسلام والأدقُّ أنهم لم يكونوا أساساً يريدون الإسلام لكنهم اضطروا لمسايرة الناس والأمة التي أسلمت في زمان الرسول ﷺ وحاولوا بعد وفاة الرسول إيقاف عجلة الإسلام بكل ما استطاعوا ونرى أخلافهم اليوم يُريدون فعل ذلك.

أخيراً أقول لكم إنَّ من أولويات حركة التنوير الدينية تمهيد الطريق أمام حركة قافلة الإسلام نظريّاً وينبغي على العالم الإسلامي أن يتحرَّك إلى الإمام على الدوام، إنَّ بإمكان الإسلام أن يكون الأرض الخصبة لاحتضان المجتمع العربي القبائلي منذ ألفٍ وأربعمائة عام. وهو قادرٌ اليوم على احتضان المجتمعْ الآلي والصناعي في عالم اليوم والذي يتحرك بواسطة المعلوماتية والتقنية المعقدة كلٌّ حسب النمو المطلوب والمرسوم، أيها الحضور الكرام لو لاحظتم في الجامعات أن الإسلام بالنسخة العلمانية يطرح موضوعاته في مغلفاتٍ ولا

---

١ . راجع: شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ج ١٦، ص٢١١-٢١٣.

يستطيع التصريح بمكنوناته، لأنه عند ذلك يتضح للجميع بأنه غير قابل للتحمل، لأنّه غير عقلاني والإسلام العلماني والليبرالي هو مثل إسلام المتحجرين والقشريين وهو الوجه الثاني لإسلام طالبان وحتى الإسلاميون أنفسهم غير مستعدين لتحمُّله فكيف وإن عُرِضَ على الملأ والأمة وكلا الاتجاهين يحاولون لبس الإسلام بالمقلوب وهذا ما كان الرسول ﷺ قد توقعه وعن ذلك قال الرسول «لقد بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً»[1] وإنَّ ما يفعله العلمانيون والقشريون من تقمُّصٍ للإسلام يأتي بهدف إرعاب الناس من الإسلام كان هذا تنبؤ الرسول من بعد الرسالة السماوية.

أشكر حُسن استماعكم وأعتذر لإطالتي عليكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته



١ . «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء». مسند احمد بن حنبل، ج٢، ص٣٨٩؛ صحيح مسلم، ج١ ص ٢٩٨.